نوبل للآداب
2015

سفيتلانا أليكسييفيتش

زمن مستعمل

نهاية الإنسان الأحمر



ترجمة: د. نزار عيون السود



زمن مستعمل

(نهاية الإنسان الأحمر)



Время second-hand

(конец красного человека)

Светлана Алексиевич

زمن مستعمل

(نهاية الإنسان الأحمر)

تأليف: سفيتلانا أليكسيفيتش

ترجمها عن الروسية: د. نزار عيون السود

التدقيق اللغوي: عمر الخولي

الإخراج: فايز علام

تصميم الغلاف: ليلى شعيب

ISBN: 978 - 9933 - 540 - 36 - 4

الطبعة الأولى: 2018

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH fb.com /Adwan.Publishing.House

سفيتلانا أليكسييفيتش

زمن مستعمل

(نهاية الإنسان الأحمر)

ترجمها عن الروسية:

د.نزار عيون السود

الضحية والجلاد مثيران للاشمئزاز بالدرجة نفسها،
ودرس معسكر الاعتقال يقول إنهما إخوة في الانحدار.

ديفيد روسي. أيام موتنا

على أية حال، علينا أن نتذكر أن انتصار الشر لا يعود، بالدرجة الأولى
إلى منفذيه العميان، بل إلى خَدَمة الخير، المبصرين روحياً.

ف. ستيبون. ما كان وما لم يتحقق

المحتويات

ملاحظات شريك

نودع الآن العصر السوفييتي. نودع حياتنا السابقة. وأحاول الإصغاء بنزاهة إلى جميع المشاركين في المأساة الاشتراكية...

كان لدى الشيوعية خطة جهنمية تقضي "بإعادة تصنيع" الإنسان "القديم"، آدم العهد القديم. وهذا ما أمكنها تحقيقه... وربما هو الشيء الوحيد الذي حققته. وخلال ما يزيد على سبعين سنة في مخابر الماركسية - اللينينية، تم تصنيع نموذج إنساني فريد، إنه الإنسان السوفييتي "homo sovieticus". يعتقد البعض أن هذا شخصية مأساوية، وآخرون يسمونه بـ"السوفييتي". يبدو لي أنني أعرف هذا الإنسان، أعرفه جيداً، وعشت معه، جنباً إلى جنب، سنوات طويلة. هو - إنه أنا. إنه معارفي، أصدقائي، والداي. وخلال عدة سنوات كنت أتنقل في جميع أنحاء الاتحاد السوفييتي السابق، لأن الإنسان السوفييتي - لا يقتصر على الروس، بل ويشمل البيلاروسيين، والتركمان، والأوكرانيين، والكازاخ... والآن أصبحنا نعيش في دول مختلفة، ونتحدث بلغات مختلفة، ولكن من السهولة بمكان اكتشافنا وتمييزنا عن الآخرين على الفورا فجميعنا أناس من الاشتراكية، نشبه ولا نشبه الأشخاص المنفردين- فلدينا قاموسنا الخاص، وتصوراتنا الخاصة عن الخير والشر، عن الأبطال والآلام. ولدينا مواقفنا المتميزة تجاه الموت. تتردد، قارصة حادة، باستمرار في القصص

التي أسجلها، كلمات "أطلق النار"، "أطلق النار ثانية"، "دمِّر"، "استخدم"، أو تلك الأشكال السوفييتية للاختفاء من الوجود مثل: "اعتقال"، "الحكم عشر سنوات دون حق المراسلة"، "الهجرة". كم هو ثمن حياة الإنسان، إذا ما تذكرنا، أن بالأمس القريب قُتلت الملايين من البشر؟ إننا مترعون بالكراهية والخرافات. وكلها من هناك، حيث كانت معسكرات العمل والحرب الرهيبة. نشر التعاونيات بالقوة، تفكيك الإقطاعيات، تهجير الشعوب بالقوة...

تلك كانت الاشتراكية، وتلك كانت حياتنا. آنذاك لم نكن نتحدث عنها إلا قليلاً. أما الآن، حيث تغير وجه العالم بلا رجعة، أخذ الجميع يهتم بحياتنا تلك، كيفما كانت، فهي حياتنا. أكتب، أنقِّب، أجمع بالفتات التاريخ "المنزلي"... "الاشتراكية الداخلية". وكيف كانت تعيش في الروح الإنسانية. تجذبني باستمرار تلك المسافة الصغيرة - الإنسان... إنسان واحد. حقيقة، في ذاته يحدث كل شيء.

لماذا يضم الكتاب كثيراً من قصص الانتحار، وليس قصص الناس السوفييت العاديين ذوي السير السوفييتية العادية؟ في نهاية الأمر يقدمون على الانتحار بسبب الحب، وبسبب الهرم والتقدم في السن، وبكل بساطة، من باب الفضول، وبسبب الرغبة في اكتشاف سر الموت... لقد بحثت عن أولئك الذين نَمَت الفكرة في جذورهم، وتغلغلت الفكرة في ذاتهم، بحيث يستحيل انتزاعها، وأصبحت الدولة فضاءهم، وحلت محل كل شيء، وحتى محل حياتهم. لم يتمكنوا من الخروج من التاريخ العظيم، وتوديعه، وأن يكونوا سعداء بطريقة أخرى. وإذا ما أقدموا على الغوص... ثمة هوة في الوجود الشخصي، كما يحدث اليوم، حيث الصغير أصبح كبيراً. الإنسان يريد أن يعيش، ببساطة، دون أية فكرة عظيمة. إن هذا لم يحدث أبداً في حياة روسيا، وهذا أمر لا يعرفه الأدب الروسي أيضاً. وعموماً، نحن كلنا

عسكريون. فإما أننا حاربنا، وإما أننا نستعد للحرب، ولم نعش أبداً بطريقة أخرى. ومن هنا جاءت سيكولوجيتنا العسكرية. وحتى في وقت السلم كل شيء كان على الطريقة العسكرية. كان يُقرع الطبل، وتخفق الراية... ويخرج القلب من الصدر... كان لا يلاحظ الإنسان عبوديته، بل وحتى أنه كان يحبها. أنا أيضاً أذكر: بعد المدرسة، اجتمعنا نحن، بكامل الصف للذهاب إلى استصلاح الأراضي العذراء والتربة البكر، وكنا نحتقر كل من رفض الذهاب، وكنا نبدي أشد الأسف لأن الثورة والحرب الأهلية حدثتا من دوننا. تنظر إلى الوراء: هل من المعقول أننا نحن؟ أنا؟ كنت أتذكر مع أبطالي. أحدهم قال لي: «الإنسان السوفييتي وحده قادر على فهم الإنسان السوفييتي». لقد كنا أناساً بذاكرة شيوعية واحدة. كنا جيراناً في الذاكرة.

كان والدي يتذكر، أنه شخصياً، صدّق الشيوعية وآمن بها بعد تحليق غاغارين في الفضاء. نحن الأوائل! نحن نستطيع فعل كل شيء! وعلى هذا النحو ربُّونا هو وأمي. لقد كنت طفلة "أكتوبرية"[1]، وكنت أحمل شارة صبي بشعر أجعد، كما كنت طلائعية وشبيبية. خيبة الأمل جاءت فيما بعد.

بعد البيريسترويكا[2]، كان الجميع ينتظر، متى سيفتح الأرشيف. وقاموا بفتح الأرشيف. وعرفنا التاريخ الذي كانوا يخفونه عنّا...

علينا أن نجرّ وراءنا 90 مليوناً من أصل مئة، القاطنين في روسيا السوفييتية. أما مع البقية فالحديث معهم مستحيل، وعلينا إبادتهم (زينوفييف، 1918).

---

(1) نسبة إلى شهر أكتوبر الذي حدثت فيه ثورة أكتوبر 1917 في روسيا - المترجم.

(2) إعادة البناء التي قادها غورباتشوف في الثمانينيات وانتهت بانهيار الاتحاد السوفييتي - المترجم.

علينا أن نعلق مشانق (أن نعلق مشانقهم بالتأكيد كي يرى الشعب) ما لا يقل عن ألف من الإقطاعيين الكولاك الأغنياء... وأن نأخذ محاصيلهم الزراعية، ونضع رهائن... ونعمل بحيث أن يراهم الشعب من على بعد مئات الأميال، ويسر برؤيتهم... (لينين، 1918).

«موسكو تموت جوعاً بكل معنى الكلمة». (البروفيسور كوزنتسوف للزعيم السياسي تروتسكي). «هذا ليس جوعاً. عندما استولى الإمبراطور تيتوس على أورشليم أكلت النساء اليهوديات أولادهن. وعندما أُرغِمُ أمهاتكم على أكل أولادهن، عندها يمكنك القدوم لعندي والقول: "نحن جائعون"». (تروتسكي، 1919).

كان الناس يقرؤون الصحف والمجلات ويلوذون بالصمت. انهال عليهم رعب ثقيل لا يمكن احتماله! فكيف يعيشون؟ كثيرون استقبلوا الحقيقة هذه كاستقبالهم للعدو. وكذلك كان استقبالهم للحرية. «نحن لا نعرف بلادنا، ولا نعرف كيف تفكر غالبية الناس، نحن نراهم، نلتقي بهم كل يوم، لكننا لا نعرف فيم يفكرون، وماذا يريدون. ولكن سنأخذ على عاتقنا الجرأة بتعليمهم. قريباً سنعرف كل شيء، وسيسيطر علينا الرعب». هكذا قال أحد معارفي، الذي كان يجلس ويتحدث معي غالباً في مطبخي. كنت أجادله وأناقشه. حدث هذا في العام الحادي والتسعين... إنه وقت سعيد! كنا نؤمن أن الحرية ستأتي غداً، غداً بكل معنى الكلمة. ستأتي من فراغ، من رغباتنا.

من مذكرات الكاتب فارلام شالاموف: «لقد كنت مشاركاً في المعركة العظيمة التي خسرناها لتجديد الحياة الحقيقي». هذا ما كتبه الرجل الذي أمضى سبعة عشر عاماً في معسكرات الاعتقال الستالينية. وبقي الحنين إلى المثل الأعلى... يمكنني أن أفرز الناس السوفييت إلى أربعة أجيال: جيل "ستاليني"، وجيل "خروتشوفي"، وجيل "بريجنيفي"،

وجيل "غورباتشوفي". أنا من الجيل الأخير. كان من الأسهل علينا القبول بانهيار الأفكار الشيوعية، لأننا لم نعش في ذلك العصر عندما كانت فكرة الشيوعية فتية، قوية، مع السحر الكبير للرومانسية الكارثية والآمال الطوباوية. لقد نشأنا وكبرنا في عصر شيوخ الكرملين. في زمن أيام الصوم العجاف. فالدم المتدفق للشيوعية كان قد أصبح نسياً منسياً. كانت الحماسة تشعر بالغضب، لكن بقيت قوية المعرفة القائلة إن من المستحيل تحويل الطوباوية إلى حياة.

حدث هذا في حرب الشيشان الأولى... تعرّفتُ في المحطة بموسكو على امرأة من هناك تسكن بالقرب من مدينة تامبوف. كانت متوجهة إلى جمهورية الشيشان ذات الحكم الذاتي، من أجل سحب ابنها من الحرب: «لا أريد له أن يموت، كما لا أريد له أن يقتل أحداً». لم تعد الدولة تسيطر على نفس هذه المرأة. لقد أصبحت إنسانة حرة. ومثلها كانوا قِلّة، فالغالبية كانت من الناس الذين تزعجهم الحرية: «لقد اشتريت ثلاث صحف، وفي كل منها حقيقتها الخاصة. فأين الحقيقة الفعلية؟ في السابق، كنت تقرأ صباحاً صحيفة "البرافدا" فتعرف كل شيء. وتفهم كل شيء». كانت الأفكار تصحو ببطء من وضعية التخدير. وإذا ما بدأت الحديث عن الندم، كنت أسمع الجواب: «على أي شيء أندم؟». كل منا كان يشعر بنفسه ضحية، ومشاركاً في الوقت نفسه. قال لي أحدهم: «أنا أيضاً سُجنت»، وقال آخر: «أنا شاركت في الحرب»، وقال ثالث: «أنا نهضت بمدينتي ورفعتها من تحت الأنقاض، وكنت أحمل الطوب على كتفي ليلاً ونهاراً». لقد حدث هذا بشكل مفاجئ تماماً: فالجميع كانوا ثملين بالحرية، لكنهم غير مهيئين بعد للحرية. وأين هي، الحرية؟ إنها في المطبخ فقط، حيث استمروا كعادتهم في انتقاد السلطة وشتمها. كانوا ينتقدون يلتسين وغورباتشوف. ينتقدون يلتسين لأنه خان روسيا. ولماذا ينتقدون غورباتشوف؟ لأنه خان

كل شيء. القرن العشرين كله. وسيكون عندنا الآن، كما هو عند الآخرين، كما هو عند الجميع. كنا نعتقد أننا سننجح هذه المرة.

لقد تغيرت روسيا وكرهت نفسها لأنها تغيرت. إن روسيا هي "المغولي الخشبي"، هكذا قال ماركس عن روسيا.

المدنية السوفييتية... أسارع فأسجل آثارها. وجوه معروفة. لا أسأل عن الاشتراكية، بل عن الحب والغيرة، والطفولة، والشيخوخة. أسأل عن الموسيقى والرقص وقصات الشَّعر. أسأل عن آلاف التفاصيل للحياة المنصرمة. إنها الطريقة الوحيدة لحصرِ الكارثة في إطار المألوف ومحاولة رواية شيء ما، وتخمين شيء ما. لا أملَّ من التعجب من مدى أهمية الحياة الإنسانية العادية. والكمية اللانهائية للحقائق البشرية... الوقائع وحدها تهتم بالتاريخ، أما العواطف فتبقى خارج الإطار. فمن غير المألوف إدراجها ضمن التاريخ. فأنا أنظر إلى العالم بعيني العلوم الإنسانية وليس بعيني المؤرخ. فيذهلني الإنسان...

فقدت أبي. ولم يعد في استطاعتي إنهاء حديث واحد من أحاديثنا... وقد قال إنه كان من الأهون عليه أن يموت في الحرب بدلاً من الفتيان الذين تُطلق عليهم النار اليوم ويموتون في الشيشان. في الأربعينيات كانوا ينتقلون من جحيم إلى جحيم آخر. قبل الحرب، كان والدي يدرس في مدينة منسك في المعهد العالي للصحافة. وكان يتذكر، بأنه بعد عودتهم إلى المعهد من الإجازة الصيفية، غالباً لم يكونوا يصادفون إطلاقاً أي أستاذ من أساتذتهم المعروفين، فقد اعتُقلوا جميعهم. إنهم لم يكونوا يفهمون ماذا كان يجري، لكنه كان رهيباً. كان رهيباً، وكأنهم في حرب.

كان بيني وبين والدي قليل من الأحاديث الصريحة. كان يشفق عليّ. فهل كنت أنا أشفق عليه؟ تصعب عليّ الإجابة عن هذا السؤال...

كنا عديمي الرحمة تجاه والدينا. كان يبدو لنا، أن الحرية مسألة في غاية البساطة. وانقضت فترة زمنية غير طويلة. فانحنينا نحن تحت عبئها، لأنه لم يعلمنا أحد ما هي الحرية. كانوا يعلموننا فقط، كيف يمكن الموت في سبيل الحرية.

تلك هي الحرية! وهل انتظرنا هذه الحرية؟ كنا جاهزين للموت من أجل مثلنا العليا. وأن نقاتل في سبيلها. في حين أنه بدأت حياة "تشيخوفية"[1]. بدون تاريخ. وانهارت جميع القيم باستثناء قيمة الحياة. الحياة عامة. وظهرت أحلام جديدة: تشييد منزل، شراء سيارة جيدة، غرس عنب الثعلب[2]... لقد تبين أن الحرية هي إعادة الاعتبار للبرجوازية الصغيرة، الملجومة عادة في الحياة الروسية. إنها حرية صاحب الجلالة -الاستهلاك. حرية عظمة الظلام، ظلام الرغبات والغرائز الخفية من الحياة البشرية، والتي لدينا تصور تقريبي عنها. لقد أُرغمنا على معايشة التاريخ لكننا لم نحياه. وأما الآن، فلا حاجة إلى الخبرة العسكرية، ومن المطلوب أن ننساها. آلاف من الانفعالات، والأوضاع والاستجابات الجديدة... فجأة كل شيء من حولنا تغير وأصبح شيئاً آخر: اليافطات، الأشياء، النقود، العلَم... والإنسان نفسه أيضاً. لقد أصبح أكثر ألواناً، وانفراداً، ونسفنا الكتل البشرية المتراصة، وتناثرت الحياة إلى جزر صغيرة، وإلى ذرات، ونُوى. كما وردت في قاموس دال للغة الروسية الحرية- الإرادة... الإرادة... الفسحة... الامتداد. وتحول الشر الكبير إلى قصة بعيدة، إلى قصة بوليسية سياسية. لم يعد هناك من يتحدث عن الأفكار، إنهم يتحدثون عن القروض، والفائدة، والأسهم، أما الأموال فلم يعودوا يتلقونها لقاء أعمالهم، لكنهم كانوا "يحصِّلونها"، "يربحونها".

---

(1) نسبة إلى الكاتب الروسي الشهير أنطون تشيخوف (1860-1904).

(2) نوع من النباتات ذات الثمار، يؤكل طازجاً ويشتهر بصناعة المربى.

وهل سيستمر هذا طويلاً؟ «كذبة النقود في الروح الروسية لا يمكن بلعها»، هكذا قالت الشاعرة الروسية تسفيتايفا. وكأن أبطال الكاتبين أستروفسكي وسلتيكوف - شدرين قد بُعثوا من جديد وبدؤوا يتمشون في شوارعنا.

كل من ألتقيه كنت أسأله: «ما هي الحرية؟». كان الآباء والأبناء يجيبون بطريقة مختلفة. ليس ثمة من تجربة مشتركة بين من وُلد في الاتحاد السوفييتي ومن وُلد بعد انهيار الاتحاد السوفييتي. إنهم أشخاص من كوكبين مختلفين.

الآباء: الحرية هي انعدام الخوف؛ ثلاثة أيام في شهر أغسطس/ آب، عندما انتصرنا على الانقلاب؛ إن الإنسان الذي يختار في السوبر ماركت المرتديلا من أصل مئة نوع، هو أكثر حرية من ذلك الذي يختارها من عشرة أنواع؛ أن تكون معصوماً، لكننا لن نتمكن أبداً من بلوغ الأجيال المعصومة؛ إن الإنسان الروسي لا يفهم الحرية، إنه في حاجة إلى قوزاق[1] وسوط.

الأبناء: الحرية هي الحب؛ أما الحرية الداخلية فهي قيمة مطلقة، حيث لا يخاف المرء من رغباته؛ وامتلاك الكثير من المال، حيث سيكون لديك كل شيء؛ وحيث يمكنك العيش بشكل لا تفكر فيه في الحرية. الحرية هي الوضع الطبيعي.

أبحث عن اللغة المناسبة. لدى الإنسان عدة لغات: لغة يخاطب بها الأطفال، وثمة لغة أخرى يتحدث فيها عن الحب... وثمة لغة ثالثة عندما نتحدث مع أنفسنا، ونجري أحاديثنا الداخلية. ففي الشارع، وفي العمل، وفي الرحلات - في كل منها تُسمع لغة مغايرة، ولا تتغير الكلمات وحدها، بل ويتغير شيء آخر. حتى أن الإنسان يتكلم في الصباح بلغة مغايرة للغته في المساء. وأما ما يحدث ليلاً بين اثنين فيختفي من التاريخ نهائياً. ونحن

---

(1) قوزاق: مزارعون ورعاة أحرار مسلحون كانوا يقيمون في أطراف روسيا وأكرانيا، ويساهمون في حماية حدود الدولة - المترجم.

نتعامل فقط مع تاريخ إنسان النهار. الانتحار موضوع ليلي، حيث يوجد الإنسان على الحدود بين الوجود والعدم. النوم. أريد أن أفهم هذا بدقة، إنسان النهار. سمعتُ: «ألا تخشين أن تعجبك؟».

ننطلق متوجهين إلى سمولينسك. توقفنا في إحدى القرى أمام محل تجاري. كم هي مألوفة، جميلة، طيبة هذه الوجوه! (أنا نفسي نشأت في قرية) وكم هي مذلة بائسة الحياة من حولهم! تحدثنا عن الحياة. «تسألين عن الحرية؟ ادخلي إلى مخزننا التجاري: الفودكا متوفرة بعلاماتها التجارية كلها: "ستاندرت"، "غورباتشوف"، "بوتينكا"، المرتديلا مكومة، وكذلك الجبن والسمك. الموز متوفر بكثرة. وأية حرية تريدينها؟ إن هذه تكفينا». «وهل أعطوكم قطعاً من الأرض؟». «ومن سيعمل فيها؟ تريدين؟ خذي. عندنا شخص اسمه فاسكا كروتوي أخذ قطعة أرض. ابنه الصغير عمره ثمانية أعوام، وهو يسير وراء المحراث مع أبيه. وإذا ما رغبت في العمل عنده، فلن تتمكني من سرقة أي شيء، ولن تذوقي طعم الراحة. إنه فاشي!».

عند دوستويفسكي، في "أسطورة المفتش الكبير"، يدور حوار حول الحرية. حول أن طريق الحرية صعب، مفعم بالآلام والمآسي... «ولِمَ علينا أن نعرف هذا الخير والشر المشؤومين طالما أنه مُكلف بهذا الشكل؟». على الإنسان دوماً أن يختار: الحرية أو الرفاهية وترتيب الحياة، الحرية مع الآلام أو السعادة دون حرية. وغالبية الناس تفضل الطريق الثاني.

يقول المفتش الكبير للمسيح الذي عاد إلى الأرض: «لماذا جئتنا اليوم تزرع الاضطراب في حياتنا؟ ذلك أنك إنما جئت لتبث فينا الاضطراب، ما في ذلك ريب، وأنت لا تجهل ذلك».

ولاحترامك الكبير له (أي للإنسان)، تصرفت وكأنك لم تعد تتعاطف معه، لأنك طالبته بالكثير... ولو كان احترامك له أقل لطالبته بأقل من ذلك،

ولكان هذا أقرب إلى الحب، ولكان عبثنا أخف. إنه ضعيف وحقير... وما هو ذنب الروح الضعيفة إذا كانت عاجزة عن وَسع مثل هذه الهبة الرهيبة؟

ليس هناك من هَمٍّ أكثر استمراراً وعذاباً للإنسان، مثل أن يبقى حراً ويبحث بسرعة عمن يركع أمامه... وعمن يسلمه هبة الحرية هذه، التي يولد معها هذا الكائن البائس.

***

في أعوام التسعينيات... نعم كنا سعداء. لم يعد من الممكن العودة إلى سذاجتنا تلك. بدا لنا، وكأن الاختيار قد تم، وأن الشيوعية قد خسرت بلا أمل. في حين أن كل شيء قد بدأ آنذاك...

انقضى عشرون عاماً... «لا تخيفوننا بالاشتراكية»، يقول الأبناء للآباء.

من أحاديثي مع معارفي من الأساتذة الجامعيين: «حدَّثنا قائلاً: في أواخر التسعينيات كان الطلاب يضحكون عندما أتذكر الاتحاد السوفييتي، فقد كانوا واثقين بأن مستقبلاً جديداً ينفتح أمامهم. أما الآن، فقد تغيرت اللوحة... فطلاب اليوم قد عرفوا وأدركوا أن الرأسمالية تعني اللامساواة، والبؤس، والثراء الفاحش، وأمام أعينهم تتراءى حياة آبائهم وأمهاتهم، الذين لم ينالوا أي حصة من البلاد المنهوبة. وهم راديكاليو الميل والتوجه، يحلمون بثورتهم، ويرتدون قمصاناً حمراء عليها صور لينين وتشي غيفارا».

في المجتمع ظهرت حاجة ماسة إلى الاتحاد السوفييتي. وإلى تقديس شخصية ستالين. نصف الشبيبة الروسية ممن تتراوح أعمارهم بين 19 إلى 30 سنة، تعد ستالين "زعيماً سياسياً عظيماً". هذا يحدث في البلد الذي قَتل فيه ستالين من الناس ما لا يقل عمن قتله هتلر في الحرب، ينشأ تقديس جديد لشخصية ستالين؟! وكل شيء سوفييتي أصبح من جديد دارجاً.

مثل القهوة "السوفييتية" - مع الأسماء السوفييتية والأكلات السوفييتية. وظهرت السكاكر "السوفييتية" والمرتديلا "السوفييتية" - برائحتها وطعمها اللذين نعرفهما منذ طفولتنا. وبالطبع، ظهرت أيضاً الفودكا "السوفييتية". في التلفزيون عشرات من البرامج السوفييتية، وفي الإنترنت عشرات المواقع المفعمة بالحنين إلى الاتحاد السوفييتي. وأصبح من الممكن للسائح أن يزور ويتعرف على معسكرات الاعتقال الستالينية من سولوفكي إلى ماغادان. وتَعِد الإعلانات الدعائية السياح بأنهم سيحصلون على ألبسة المعتقلين ذاتها بمختلف الخيارات، كي يشعر السائح بالشعور الكامل للمعتقلين. وسيعرضون على السياح ثكنات تم ترميمها. وفي الختام ينظمون للسياح حفلة صيد الأسماك...

وتنبعث من جديد الأفكار القديمة المنقرضة: عن الإمبراطورية العظمى، وعن "اليد الحديدية"، وعن "الطريق الروسي المتميز"... وقد أعادوا النشيد الوطني السوفييتي، وهناك منظمة الكومسمول الشبيبية، لكنها الآن باسم "شبابنا"، وثمة حزب السلطة وهو طبعة جديدة من الحزب الشيوعي. وسلطة الرئيس الروسي اليوم مطلقة، مثل سلطة الأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي سابقاً. وبدلاً من الماركسية-اللينينية، لدى روسيا الآن الكنيسة الأرثوذكسية...

عشية ثورة العام السابع عشر، كتب يقول ألكسندر غرين: "أما المستقبل فلم يعد في مكانه". انقضى مئة عام ولم يعد المستقبل من جديد في مكانه. لقد حل زمن مستعمل.

المتراس - مكان خطير بالنسبة إلى الفنان. إنه مصيدة، أحبولة. ففيه تتردى حاسة البصر، ويضيق بؤبؤ العين، والعالم يفقد ألوانه. فيه العالم

أبيض وأسود. وفيه لن تستطيع تمييز الإنسان، بل تراه مجرد نقطة سوداء - هدف. أنا قضيت طيلة حياتي في المتاريس، وكنت أرغب حقاً في الخروج منها، وأن أتعلم الفرح بالحياة، وأن أستعيد حاسة النظر. لكن عشرات الألوف من الناس يخرجون إلى الشوارع ويمسكون بأيدي بعضهم بعضاً، ولديهم أشرطة بيضاء على سُترهم؛ رمز الانبعاث والولادة الجديدة، والنور. وأنا معهم.

صادفت في الشارع شباباً وشابات، مرتدين قمصاناً، رسم عليها المطرقة والمنجل وصورة لينين. فهل يعرفون هم ما هي الشيوعية؟

<u>القسم الأول</u>

عزاء نهاية العالم

من ضجيج الشارع وأحاديث المطبخ

(2001-1991)

حكاية الطفل العبيط إيفانشكا والسمكة الذهبية

ما الذي فهمته؟ لقد فهمت أن أبطال عصر واحد يندر أن يصبحوا أبطال عصر آخر، باستثناء العبيط إيفانشكا ويميلي البطلين المحبوبين للحكايات الروسية. إن حكاياتنا تتحدث عن الحظ وعن اللحظة المناسبة. وعن توقع المعونة السحرية، بحيث يصل كل شيء إلى أفواهنا ونحن مرتاحين. نرقد فوق مواقدنا ونحصل على كل شيء. بحيث يقوم الموقد نفسه بخبز الفطائر، وتُنفّذ لنا السمكة الذهبية كل رغباتنا. أريد هذا وأريد ذاك. أريد الملكة الرائعة! وأود العيش في مملكة أخرى... بأنهارها اللبنية وشواطئها السحلبية. نحن حالمون بالطبع. نفوسنا تتعب وتعاني، والعمل لا ينتهي ولا يتناقص، لعدم توفر القوى الكافية لدينا. العمل يراوح مكانه. إن النفس الروسية محيِّرة... يحاول الجميع فهمها... ويقرؤون دوستويفسكي... ماذا يكمن عندهم خلف نفوسهم؟ ولا يوجد خلف النفس عندنا سوى النفس. نحب الحديث في المطبخ، وقراءة كتاب، ومهنتنا الرئيسة هي قارئ، مشاهد. ومع هذا الشعور بتميزنا وخصوصيتنا، على الرغم من أنه لا وجود لأية أسس لهذا التميز، باستثناء النفط والغاز. وهذا من ناحية، هو

ما يعيق التغير في حياتنا، ومن ناحية أخرى، يقدم لنا الإحساس بالمغزى. وتبقى معلقة دوماً في الهواء فكرتنا الثابتة أن على روسيا أن تبدع، لتظهر للعالم شيئاً ما خارجاً عن المألوف. شعب الله المختار. الطريق الروسي الخاص. عندنا ترى الخاملين في كل مكان، جالسين على الأريكة ينتظرون المعجزة. لكنهم ليسوا من أمثال شتولتس البورجوازي[1]. أمثال شتولتس مغامرون، أذكياء، محتقرون لأنهم قطعوا أشجار البتولا المحبوبة وبستان الكرز. أمثال شتولتس يبنون المصانع هناك، ويصنعون النقود. إن أمثال شتولتس غرباء عنا...

المطبخ الروسي... المطبخ الخروتشوفي[2] الرديء - بين تسعة إلى اثني عشر متراً مربعاً "يا للسعادة"، الذي يفصله جدار رقيق جداً عن دورة المياه. التصميم الهندسي السوفيتي. على نافذته البصل المخلل في قطرميزات المايونيز، وفي الأصيص الصبّار ضد الرشح. المطبخ عندنا ليس مجرد مكان لتحضير الطعام، بل هو أيضاً غرفة الطعام، وغرفة الضيوف، ومكتب، ومنبر الخطابة. وهو أيضاً مكان للجلسات العلاجية النفسية الجماعية. في القرن التاسع عشر كانت الثقافة الروسية كلها تعيش في أبنية النبلاء الفاخرة، أما في القرن العشرين فقد انتقلت إلى المطابخ. وكذلك في عهد غورباتشوف البيريسترويكا. إن كل من هو في الستين من عمره عاش حياته في المطبخ. شكراً لخروتشوف! ففي عهده انتقلنا من الشقق الجماعية، وشيدنا المطابخ الفردية، حيث يمكن شتم السلطة دون خوف لأن كل من في المطبخ هم من أهل البيت. وفي المطابخ كانت تتوالد

---

(1) بطل قصة الكاتب الروسي غانتشروف - المترجم.

(2) المطبخ الخروتشوفي: نسبة إلى الأبنية السكنية التي شيدت في روسيا في الخمسينيات وبداية الستينيات في عهد خروتشوف - المترجم.

الأفكار، والمشاريع الخيالية. وفيها كانت تُخترع النكات... كانت النكات تزدهر في المطابخ! الشيوعي هو من قرأ ماركس، والمعادي للشيوعية هو من فهمه. لقد تربينا ونشأنا في المطابخ، وكذلك أبناؤنا، حيث كانوا يصغون معنا إلى أشعار غاليتش وأوكوجافا ويسمعون تسجيلات فيسوتسكي المحظورة، ويلتقطون بأجهزة الراديو إذاعة بي بي سي بالروسية. أما أحاديث المطابخ فكانت حول كل شيء: عن وضعنا المتردي، عن معنى الحياة، عن السعادة للجميع. أتذكر حادثة طريفة... جلسنا في المطبخ لِما بعد منتصف الليل، ابنتنا كانت في الثانية عشرة من العمر، وقد نامت هنا على الأريكة الصغيرة. أما نحن فقد كنا نتناقش بصوت عال. فإذا بها تصرخ من نومها: «ما من داعٍ للحديث عن السياسة! من جديد بدأتم الحديث عن ساخاروف... وسولجينيتسين... وستالين»... (يضحك).

كنا نشرب الشاي، والقهوة، والفودكا باستمرار. أما في السبعينيات فكنا نشرب الروم الكوبي. فيدل كاسترو كان محبوب الجميع! وكذلك الثورة الكوبية، وتشي غيفارا بقبعته. إنه أشبه بنجوم هوليوود! ثرثرة بلا نهاية. والخوف، ألا يسمعنا أحد ما، غالباً يتنصتون علينا. وفي أثناء الحديث، لا بد من أن ينظر أحدهم ساخراً إلى الثريا الكهربائية أو إلى مفتاح الكهرباء: «أتسمع، أيها الرفيق الرائد؟». يبدو وكأنه خطر... وكأنه لعبة... حتى أننا كنا نشعر بنوع من الرضا عن هذه الحياة المزيفة. عدد قليل جداً من الناس كانوا يقاومون علناً، أما الغالبية فكانوا "منشقين مطبخيين". وليس في جيوبهم شروى نقير...

الآن، من المعيب للمرء أن يكون بائساً، غير رياضي... لا وقت يكفي، باختصار. أنا سليل بوّابين وحرّاس. كان هناك أسلوب الهجرة الداخلية هذا. أنت تعيش ولا تلاحظ من حولك، كالمنظر من النافذة. أنا وزوجتي

تخرجنا من كلية الفلسفة في جامعة بطرسبورغ (لينينغراد آنذاك)، فتعينت زوجتي بوابة، وأنا تعينت وقّاداً في غرفة المرجل. أعمل يوماً كاملاً وأستريح يومين. المهندس في ذلك الوقت كان راتبه مئة وثلاثين روبلاً، أما أنا كوقاد، فكان راتبي تسعون روبلاً، أي أنني أوافق على خسارة أربعين روبلاً مقابل الحرية المطلقة. كنا نقرأ الكتب، قرأنا كثيراً من الكتب، كنا نتحدث كثيراً، ونفكر في أننا ننتج أفكاراً. كنا نحلم بالثورة، لكننا نخشى ألا تحدث ونحن على قيد الحياة. عموماً، كانت حياتنا مغلقة، ولم نكن نعرف شيئاً مما يحدث في العالم. كنا مثل "النباتات والزريعة المنزلية". تخيلنا لأنفسنا كل شيء، وكما اتضح فيما بعد، فقد كنا نحلم، نحلم بالغرب، بالرأسمالية، بالشعب الروسي. كنا نعيش في السراب والحلم. فروسيا كما هي في الكتب وكما نتخيلها في مطابخنا لم ولن يكون لها وجود أبداً. كانت موجودة في رؤوسنا فقط.

في البيريسترويكا انتهى كل شيء... اندلعت الرأسمالية... التسعون روبلاً أصبحت عشرة دولارات. من غير الممكن العيش بها. خرجنا من المطبخ إلى الشارع، وهنا تبين أنه لم يكن لدينا أية أفكار، وأننا كنا نجلس ببساطة طيلة هذه الفترة ونتحادث. ومن حيث لا ندري ظهر أناس آخرون تماماً، شباب في ستر قرمزية مع حلقات مذهبة. وبقواعد جديدة للعبة. أنت إنسان، لا يوجد لديك نقود، أنت لا أحد. ومن يهمه أنك قرأت الفيلسوف هيغل كله؟ رجال "العلوم الإنسانية" كلمة كانت تتردد وكأنها تشخيص مرضي. وكأن كل ما تستطيع فعله هو الإمساك بجزء من مؤلفات ماندلشتام في يدك. تم اكتشاف أشياء كثيرة لا نعرفها. الانتلجينتسيا أصبح وضعها بائساً بشكل مزرٍ. في حديقتنا، كان أتباع مذهب كريشنا ينظمون في أيام العطلة مطبخاً ميدانياً يوزعون فيه الحساء مجاناً وصحناً بسيطاً من

الطعام. فكان يتشكل طابور طويل من الأشخاص الهرمين الأنيقين، ممن يعانون من التشنج في حلوقهم. وكان بعضهم يخفون وجوههم. في تلك الفترة كان عندنا في أسرتنا طفلان صغيران. عانينا من المجاعة بكل معنى الكلمة. وبدأت أنا وزوجتي ممارسة التجارة. كنا نأخذ من المصنع بين أربع إلى ست صناديق من البوظة، ونذهب بها لبيعها في السوق، حيث يجتمع كثير من الناس. لم يكن لدينا برّادات، وبعد بضعة ساعات كانت البوظة تميع وتسيل. عندها كنا نوزع البوظة السائلة على الأطفال الجائعين. آه، يا للفرحة! كانت زوجتي تبيع، وأنا أحمل أو أنقل كل ما يطلب مني، كنت مستعداً للقيام بأي عمل باستثناء البيع. هذا الشعور بالحرج لازمنا فترة طويلة.

سابقاً، كنا نتذكر غالباً "حياتنا المطبخية"... أي حب كان سائداً! وأية نساء! كانت هاتِك النسوة يحتقرن الأغنياء. كان من غير الممكن شراؤهن. أما الآن، فلا وقت للعواطف والمشاعر عند أي كان – الجميع يسعون وراء المال. كان اكتشاف المال مثل انفجار القنبلة الذرية...

كيف عشقنا غورباتشوف وكرهناه

إنه زمن غورباتشوف... حشود كبيرة من الناس بوجوههم السعيدة. الـــحـــريـــة! الجميع كانوا يستنشقون نسائمها. الصحف كانت تُباع بسرعة كبيرة مثل الكعك الساخن. إنه عصر الآمال الكبيرة؛ ها نحن قريباً سنصل إلى النعيم. الديمقراطية. كأنها حيوان بري لم تسبق لنا رؤيته. كالمجانين كنا نركض إلى المظاهرات والاجتماعات: الآن سنعرف الحقيقة كلها عن ستالين وعن معتقل غولاغ، وسنقرأ كتاب ريباكوف المحظور

"أبناء حي أربات"، والكتب الأخرى المحظورة والجيدة، وسنصبح ديمقراطيين. كم كنا مخطئين! كانت تلك الحقيقة تصيح من جميع محطات استقبال الإشارات اللاسلكية... بسرعة، أسرعوا! اقرؤوا! أصغوا! لم يكن الجميع مهيئين لهذا... غالبية الناس لم تكن - مزاجياً - معادية للاتحاد السوفييتي، وكانت ترغب في شيء واحد فقط: أن تعيش حياة جيدة. كي تستطيع شراء "الجينز" من ماركة "ويديك"، وأقصى أحلامها شراء سيارة! جميع الناس كانوا يرغبون في اقتناء الثياب الفاخرة الأنيقة، الزاهية، وتناول المأكولات الطيبة. عندما أحضرت إلى البيت رواية سولجينيتسين الرهيبة المحظورة "أرخبيل معسكرات العمل"، أصيبت والدتي بالرعب وقالت: «إذا لم تخرجي أنت وهذا الكتاب من البيت فسأطردك منه». لقد أعدموا زوج جدتي عشية الحرب، لكنها كانت تقول: «لست آسفة على زوجي فاسكا. كانوا محقين في اعتقاله، لأن لسانه طويل». كنت أسألها: «جدتي، لماذا لم تحدثيني بشيء؟». فتجيب «فليقصف الله عمري وحياتي كي لا تتألموا». هكذا عاش آباؤنا وأمهاتنا وآباؤهم وأمهاتهم. تم تسوية كل شيء في الحلبة. البيريسترويكا لم يصنعها الشعب، بل صنعها شخص واحد - إنه غورباتشوف. غورباتشوف وشلة من المثقفين...

غورباتشوف - إنه عميل سري أمريكي... إنه ماسوني... لقد خان الشيوعية وأرسل الشيوعيين إلى سلة المهملات، والشبيبين الشيوعيين إلى القمامة! إنني أكره غورباتشوف لأنه سرق مني وطني، الاتحاد السوفييتي، وهو أغلى ما في الوجود عندي، وأحافظ عليه وأحميه. نعم كنا نقف في الطابور لشراء الفراريج الزرقاء والبطاطا الفاسدة، لكن هذا هو وطننا، وأنا كنت أحبه. أنت عشتِ في "فولتا العليا مع الصواريخ"، وأنا عشت في بلد عظيم. إن روسيا هي دوماً عدو بالنسبة إلى الغرب،

وهو يخافها دوماً، إنها كالشوكة في الحلق. لا أحد في حاجة إلى روسيا قوية، سواء مع الشيوعيين أو من دونهم. ينظرون إلينا كما ينظرون إلى مستودع للنفط والغاز والغابات والمعادن غير الحديدية. إننا نستبدل النفط بالملابس الداخلية. ولكن، كانت هناك حضارة بدون أمتعة وألبسة راقية. إنها الحضارة السوفييتية! كان هناك من يرغب في اختفائها. إنها عملية وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. فالأمريكيون هم الذين يوجهوننا. لقد كافأوا غورباتشوف مكافأة كبيرة... وسوف يُحاكم، عاجلاً أم آجلاً. وآمل بأن يعيش يهوذا هذا إلى يوم السخط الشعبي. كم كان يسرني أن أطلق عليه النار في نقرته في الميدان (يضرب الطاولة بقبضته). حلت السعادة، أليس كذلك؟ ظهرت أنواع المرتديلا والموز. نغرق في البراز ونأكل كل ما هو غريب عنا. بدلاً من الوطن لدينا سوبر ماركت كبير. إذا كان هذا اسمه الحرية، فلست في حاجة إلى مثل هذه الحرية. تفوه! لقد انحدر الشعب إلى ما هو أدنى من العتبة الأرضية، نحن عبيد، عبيد! وكما قال لينين، في عهد الشيوعيين كانت هناك طاهية توجه الدولة: العمال، والحلاّبات، والنسّاجون – أما الآن، فيجلس المجرمون في البرلمان. إنهم أصحاب ملايين الدولارات. هم يستحقون الجلوس في السجن وليس في البرلمان. لقد خدعونا بالبيريسترويكا!

أنا ولدت في الاتحاد السوفييتي، وهو يروق لي. كان والدي شيوعياً، وكان يعلمني القراءة في صحيفة "البرافدا". كنا نشارك في كل عيد بالمسيرات. والدموع تغطي عيوننا من الفرح... لقد كنت طليعياً، وكنت ألبس ربطة العنق الحمراء. فجاء غورباتشوف، ولم أجد الوقت لأصبح شبيبياً، للأسف. أنا سوفيتي، نعم؟ والداي سوفييتيان، جدي وجدتي سوفييتيان. جدي السوفييتي استشهد في ضواحي موسكو في العام الحادي والأربعين... وجدتي السوفييتية كانت في المقاومة... إن السادة

الليبيراليين يطرقون حديدهم. إنهم يريدون أن نعد ماضينا ثقباً أسود. إنني أكرههم جميعاً: غورباتشوف، شافارنادزه، ياكوفليف - اكتبي أسماءهم بأحرف صغيرة. أكرههم أشد الكراهية. أنا لا أريد أن أكون في أمريكا، أريد أن أكون في الاتحاد السوفييتي...

تلك كانت سنوات رائعة، ساذجة... لقد صدّقنا غورباتشوف، أما الآن، فلن نصدّق أحداً أبداً بهذه السهولة. كثير من المواطنين الروس عادوا من مهاجرهم إلى الوطن... كان هناك هذا الانتعاش! كنا نظن أننا سنحطم هذا الكوخ. ونبني شيئاً جديداً. كنت قد أنهيت كلية علوم اللغات بجامعة موسكو، وسجلت في الدراسات العليا. كنت أحلم بأن أتفرغ للعلم. معبودنا من بين أساتذة الجامعة في تلك الأثناء آفيرنيتشيف، كان مثقفو موسكو كلها يحضرون محاضراته. كنا نلتقي، ويغرس أحدنا في نفس الآخر الوهم بأن بلادنا ستتغير قريباً وستصبح بلاداً أخرى، ونحن نناضل من أجل هذا. وعندما علمت أن زميلتي في الجامعة ستهاجر إلى إسرائيل، استغربت كثيراً: «ألا تشعرين بالأسى لمغادرتك وطنك؟ إن كل شيء يبدأ عندنا الآن».

وكلما تحدثنا وكتبنا أكثر عن "الحرية!" كلما اختفى بسرعة أكبر من المحلات التجارية، ليس الجبن واللحم فحسب، بل والملح، والسكر أيضاً. المحلات التجارية الغذائية فارغة. شيء رهيب. كل شيء يباع بالبطاقات، كما في زمن الحرب. كانت تنقذنا جدتنا، فقد كانت طيلة يومها تتنقل من مخزن لآخر وتجمع هذه البطاقات. وقد كانت شرفتنا كلها مغطاة بمسحوق الغسيل، وفي غرف النوم كنا نخزن أكياس السكر والحبوب. وعندما وزعوا بطاقات الجوارب، بكى والدي، قائلاً: «إنها نهاية الاتحاد السوفييتي». كان يشعر بهذا... والدي كان يعمل في مكتب التصاميم

الهندسية في معمل للأسلحة، ويختص بهندسة الصواريخ. وكان هذا العمل يروقه جداً. كان يحمل شهادتين جامعيتين. وبدلاً من الصواريخ بدأ معملهم ينتج الغسالات والمكانس الكهربائية. وقلصوا عدد العاملين في المصنع ومنهم أبي. على الرغم من أنه كان، هو ووالدتي، من المؤيدين المتحمسين جداً للبيريسترويكا وإعادة البناء: حيث كانا يكتبان اليافطات ويوزعان المناشير وتلك كانت النتيجة... فأصيبا بالحيرة والارتباك، ولم يصدقا أن تلك هي الحرية. ولم يهادنا ولم يستسلما. وكان الناس قد بدؤوا يهتفون في شوارع موسكو: «غورباتشوف ثمنه قرش واحد، حافظوا على يلتسين!». وكانوا يحملون صور بريجينيف بأوسمته كلها وصور غورباتشوف على البطاقات التموينية. وبدأت مسيرة القيصر يلتسين إلى الحكم: إصلاحات غايدار الاقتصادية وعملية "اشتر- وبعْ!" التي أكرهها أشد الكراهية... كي أتمكن من العيش وتغطية المصروف، كنت أسافر إلى بولونيا وأحمل معي إلى روسيا أكياس المصابيح الكهربائية ولعب الأطفال. كانت عربة القطار تغص بالمعلمين والمهندسين والأطباء... وكلهم يحملون الأكياس والحقائب. طيلة الليل كنا نجلس ونناقش رواية باسترناك "الدكتور جيفاغو"... ومسرحيات شاتروف... كما نفعل في موسكو في المطابخ.

أتذكر أصدقائي في الجامعة... امتهنا مختلف المهن، ومارسنا مختلف الأعمال باستثناء علوم اللغة - مدراء لوكالات الإعلان، عاملين في المصارف، "أعضاء"... أنا أعمل في وكالة عقارية لدى سيدة، جاءت من الريف، وكانت متفرغة في منظمة الشبيبة الشيوعية. من لديه الآن الشركات؟ والفيلات في قبرص وجزر ميامي؟ إنها لدى العاملين السابقين في المنظمات الحزبية. هذا أقوله، بخصوص أين يجب البحث عن أموال

الحزب... أما زعماؤنا... ممن هم في الستين وما فوق... لقد اشتموا رائحة الدم في الحرب، لكنهم كانوا سذّجاً كالأطفال... كان علينا أن نبقى في الساحات في الليل والنهار، وأن نبلغ النهاية وننظم محاكمة مثل محاكمة نورنبرغ للحزب الشيوعي السوفييتي. لقد تفرقنا بسرعة كبيرة وذهبنا إلى بيوتنا. فقد استولى على السلطة تجار السوق السوداء ومكاتب الصرافة. ورغماً عن إرادة ماركس، نبني الرأسمالية بعد الاشتراكية. (تلوذ بالصمت) لكنني سعيدة، أنني عشت في هذا الوقت. لقد سقطت الشيوعية! سقطت بلا عودة. إننا نعيش في عالم آخر، وننظر إلى العالم بعيون أخرى. لن أنسى أبداً النَفَس الحر لتلك الأيام...

كيف جاء الحب والدبابات تحت النوافذ

كنت عاشقة، ولم يكن في استطاعتي التفكير في شيء آخر. عشت هذا الحب وحده. أيقظتني أمي ذات يوم قائلة: «الدبابات تحت النوافذ! يبدو، أنه انقلاب!». فرددت وأنا نائمة: «ماما، إنها تدريبات». خذي هذا! كانت دبابات حقيقية تقف تحت النوافذ، وأنا لم أشاهد أبداً دبابة عن قرب بهذا الشكل. في التلفزيون كانوا يعرضون باليه "بحيرة البجع"... هرعت صديقة والدتي، قلقة مضطربة، لأنها تأخرت في تسديد الاشتراكات الحزبية خلال عدة شهور. وقالت بأن نصب لينين كان منتصباً في المدرسة، وقد نقلته إلى غرفة المرافق، وماذا ستفعل به الآن؟ كل شيء على الفور عاد كما كان: هذا ممنوع، وذاك محظور. قرأت مذيعة التلفزيون بيان فرض حالة الطوارئ... وكانت صديقة والدتي ترتجف صارخة: «يا إلهي! يا إلهي!». أما أبي فقد بصق على شاشة التلفزيون...

اتصلت بصديقي أوليغ... «سنذهب إلى البيت الأبيض؟». «سنذهب!». علقت نيشاناً عليه صورة غورباتشوف على صدري، وجهّزت سندويشات. في المترو، كان الناس يلوذون بالصمت. والجميع كانوا يتوقعون المصائب. الدبابات في كل مكان... في المدرعات لم يكن يجلس قتلة سفاكون، بل فتيان خائفون بوجوه مذنبة. وكانت العجائز تطعمهم البيض المسلوق والفطائر. انشرحت نفسي عندما رأيت عشرات الألوف من الناس بجوار البيت الأبيض! كان المزاج العام رائعاً. وكان يسيطر علينا الشعور بأننا قادرون على كل شيء. كنا نردد صائحين: «يلتسين، يلتسين! يلتسين!». وقد تم تشكيل فرق الدفاع الذاتي. كانوا يسجلون الشباب وحدهم، ويرفضون تسجيل أسماء كبار السن، فسخطوا، واعترض أحدهم قائلاً: «لقد اغتصب الشيوعيون حياتي! اسمحوا لي على الأقل أن أموت ميتة مشرفة!». فأجابوه: «ابتعد أيها الأب»... الآن يقولون، إننا أردنا حماية الرأسمالية... هذا غير صحيح! أنا كنت أدافع عن الاشتراكية، ولكن عن اشتراكية أخرى، وليس عن الاشتراكية السوفيتية... وقد دافعت عنها حقاً! هكذا كنت أظن. وهكذا كنا جميعاً نظن ونعتقد... بعد ثلاثة أيام خرجت الدبابات من موسكو، إنها كانت دبابات خيِّرة. النصر! وتبادلنا القبلات...

أجلس في المطبخ عند أصحابي من الموسكوفيين. وهنا اجتمعت مجموعة كبيرة: من أصدقاء، وأقرباء قدموا من الريف. تذكرنا أن يوم الغد هو الذكرى السنوية لانقلاب أغسطس/ آب:

- غداً عيد.

- وبماذا نحتفل؟ بالمأساة. الشعب هو الخاسر.

- لقد دفنوا الاتحاد السوفييتي السابق على أنغام موسيقى تشايكوفسكي...

- أول شيء فعلته، أخذت نقودي وركضت إلى المخزن التجاري. فقد كنت أعرف، أنها كانت النهاية، سترتفع الأسعار.

- لقد فرحت: سيزيحون غورباتشوف! لقد مللنا كثيراً من هذا الثرثار.

- الثورة كانت ديكوراً. مسرحية للشعب. أذكر اللامبالاة المطلقة التي لحظتها عند حديثي لأي كان. كنا نتوقع ما جرى.

- أما أنا فقد اتصلت بمكان عملي، وذهبت لأصنع الثورة. أخذت جميع السكاكين التي كانت في بيتنا. كنت أدرك، أنها الحرب... والسلاح ضروري...

- أنا كنت مع الشيوعية! عندنا في الأسرة الجميع شيوعيون. وبدلاً من أغاني النوم، كانت أمي تنشد الأغاني الثورية. كانت تنشدها لأحفادها. «ما بكِ، هل فقدت عقلكِ؟»، قلت لها، فأجابتني: «لا أعرف أغاني غيرها». وجدي كان شيوعياً بلشفياً... وكذلك جدتي...

- وما زلتم تدّعون أن الشيوعية حكاية جميلة؟ لقد اختفى والدا أبي في معسكرات موردوفيا.

- أنا ذهبت إلى البيت الأبيض مع والديّ. قال بابا: «لنذهب إلى هناك، وإلا فلن نحصل أبداً على مرتديلا وكتب جيدة». قلعنا حجارة الرصيف وأقمنا متاريس.

- لقد صحا الشعب الآن، وموقفه من الشيوعيين يتغير. يمكن للمرء أن يفصح عما لديه. أنا كنت أعمل في اللجنة المنطقية للشبيبة الشيوعية. في اليوم الأول، أخذت جميع البطاقات الشبيبية، والاستمارات النظيفة غير المستعملة، والأوسمة والنياشين إلى البيت، وأخفيتها في القبو، ولكن لم يعد هناك مكان لخزن البطاطا. لم أكن أعرف، ولماذا أنا أحتفظ بها،

لكنني تصورت كيف سيأتون فيصادرونها، ويتلفونها، غير أنها كانت رموزاً غالية بالنسبة إليَّ.

- كان من الممكن أن يقدم أحدنا على قتل الآخر... الرب أنقذنا!

- كانت ابنتنا مستلقية في دار التوليد. أتيت لعندها، فصاحت: ماما، هل ستقوم ثورة؟ ستبدأ الحرب الأهلية؟

- أما أنا، فقد أنهيت الكلية الحربية. كنت أخدم في موسكو. لو أُعطينا أمراً باعتقال شخص ما، فمما لا شك فيه أننا كنا سنعتقله، وننفذ الأمر. ولَنفذه كثيرين منا باجتهاد وتميز. لقد مللنا من هذه الفوضى في بلادنا. كل شيء كان في السابق دقيقاً وواضحاً، وكل شيء كما هو مرسوم ومخطط. كان هناك نظام. العسكريون يحبون العيش بنظام، على هذا النحو. وعموماً جميع الناس يفضلون العيش بنظام.

- إنني أخاف من الحرية. فقد يأتي رجل سكير ويحرق لك بيتك الريفي.

- أية أفكار، يا إخوتي؟ الحياة قصيرة، هلمّوا لنشرب!

التاسع عشر من شهر أغسطس، آب 2001- الذكرى العاشرة لانقلاب أغسطس/ آب. أنا في مدينة إركوتسك- عاصمة سيبيريا. أجري مقابلات قصيرة مع المشاة في شوارع المدينة.

سؤال: ماذا كان سيحدث لو انتصرت لجنة الدولة لحالة الطوارئ؟

الجواب:

- لو انتصرت، لحافظت على الدولة العظمى والبلاد الكبيرة...

- انظري إلى الصين، حيث الشيوعيون على رأس السلطة. لقد أصبحت الصين ثاني أكبر اقتصاد في العالم...

- لو انتصرت لجنة الطوارئ لحوكم غورباتشوف ويلتسين واتهما بالخيانة العظمى، خيانة الوطن.

- لتغطت البلاد بالدم... وامتلأت معسكرات الاعتقال بالناس.

- لما خانوا الاشتراكية. ولما انقسم الناس إلى أغنياء وفقراء.

- لما كانت هناك أي حرب في الشيشان.

- لما تجرأ أحد على القول إن الأمريكيين هزموا هتلر.

- أنا بذاتي كنت واقفاً أمام البيت الأبيض. كان يتملكني شعور أنهم خدعوني.

- ماذا كان من الممكن أن يحدث لو انتصر الانقلاب؟ لقد انتصر! أطاحوا بالنصب التذكاري لدزيرجينسكي، القائد الشيوعي، وأبقوا بناء الـ "ك.ج.ب". إننا نبني الرأسمالية بقيادة لجنة أمن الدولة "ك.ج.ب".

- لما تغيرت حياتي...

كيف تعادلت الأشياء مع الأفكار والكلمات

لقد تفتت العالم إلى عشرات القطع المختلفة الألوان. كم كنا نرغب في أن تتحول الأيام الرمادية السوفييتية بأسرع وقت إلى لوحات حلوة لذيذة، كما في السينما الأمريكية! لم يعد هناك إلا القليل ممن يتذكر كيف وقفنا أمام البيت الأبيض... أيام ثلاثة هزت العالم، لكنها لم تهزنا... مئتا ألف يتظاهرون ويتجمعون والبقية يمرون مرور الكرام وينظرون إلى المتظاهرين كما ينظرون إلى بلهاء. شربنا المشروبات الكحولية كثيراً، عندنا يشربون كثيراً دائماً، لكن آنذاك شربوا كثيراً جداً على نحو خاص.

المجتمع أصابه الجمود: إلى أين نتحرك؟ هل ستكون عندنا رأسمالية أم ستكون اشتراكية جيدة؟ الرأسماليون بدناء، جلدهم سميك، مرعبون. هذا ما كانوا يوحون به لنا منذ الطفولة، يضحك. البلاد تغطت بالمعلبات الغذائية وأكشاك البيع التجارية. وظهرت في السوق أشياء وبضائع أخرى تماماً. لم تعد تظهر الجزمات الخرقاء وفساتين العجائز، بل ظهرت الأشياء التي كنا نحلم لها دوماً: سراويل الجينز، المعاطف الجلدية الشتوية... الملابس الداخلية النسائية الرائعة وأواني المطبخ الجيدة... وكل شيء ملون وجميل. أما بضاعتنا السوفييتية فكانت رمادية، زهيدة، كانت أشبه بالبضائع العسكرية. لم يعد أحد يرتاد المكتبات والمسارح. فقد حل محلها البازار والأسواق والمحلات التجارية. الجميع أرادوا أن يكونوا سعداء، وأن يحصلوا على السعادة الآن. كنا مثل الأطفال، الذين يكتشفون عالماً جديداً... لم نعد نصاب بالإغماء في السوبر ماركت... شاب صاحبي عمل بالتجارة. حدثني قائلاً: في المرة الأولى جلبت معي ألف علبة من القهوة السريعة الذوبان (نسكافيه)، اشتروها مني خلال يومين. اشتريت مئة مكنسة كهربائية، كذلك بيعت بسرعة كبيرة. سُترات، كنزات، وأشياء صغيرة، بيعت على الفور. الجميع بدلوا ألبستهم وأحذيتهم وجزماتهم. استبدلوا سياراتهم وأثاثهم المنزلي. قاموا بأعمال الصيانة في بيوتهم الريفية... رغبوا جداً في صنع أسيجة وأسطح جميلة... أبدأ وأصدقائي أحيانا بتذكر تلك الأيام، فنكاد نموت من الضحك... إنهم متوحشون! لقد كان الناس فقراء مدقعين. كان علينا أن نتعلم كل شيء من جديد... في الزمن السوفييتي كان من المسموح لك أن تملك كتباً كثيرة، ولكن كان من غير الممكن أن تملك سيارة غالية الثمن ومنزلاً خاصاً بك. وتعلمنا ارتداء الثياب بأناقة، وتحضير الوجبات الطيبة، وشرب العصير والزبادي صباحاً... قبل هذا الزمن كنت أحتقر المال، لأنني لم أكن أعرف ما هو.

كان من غير المسموح به في أسرتنا الحديث عن المال. كان هذا أمراً معيباً. لقد نشأنا في بلاد كانت فيها النقود غائبة، إن صح التعبير. وأنا، مثلي مثل غيري، كنت أستلم شهرياً مئة وعشرين روبلاً، وكانت تكفيني. لقد جاءت النقود مع قدوم البيريسترويكا. مع قدوم غايدار إلى وزارة الاقتصاد. إنها النقود الحقيقية. وبدلاً من يافطات "مستقبلنا هو الشيوعية" عُلقت يافطات "اشتروا! اشتروا!" أو إن رغبت: اذهب في رحلة سياحية. يمكنك رؤية باريس... أو إسبانيا... احتفالات الفيستا... مصارعة الثيران... لقد قرأت عنها في قصص همنغواي، كنت أقرأها وأنا متأكدة أنني لن أراها في حياتي. كانت عندنا الكتب بدلاً من الحياة... وهكذا انتهت يقظتنا وأحاديثنا الليلية في المطابخ، وبدأت تظهر الأرباح وأرباح الأرباح. لقد أصبحت النقود مرادفة للحرية. وهذا كان يقلق الجميع. لقد عمل بالتجارة الأشخاص الأقوى والأكثر عدوانية. وقد نسوا لينين وستالين. وهكذا تجنبنا الحرب الأهلية، وإلا لكانت عندنا جيوش "بيضاء" وجيوش "حمراء"، و"جماعتنا" و"أعداؤنا"... الأشياء بدلاً من الدم... الحياة! لقد اخترنا الحياة الجميلة. لم يكن هناك من يرغب في الموت مرفوع الرأس، معززاً مكرماً، الجميع كانوا يريدون أن يعيشوا حياة جميلة. أما أن الكعكات لم تكن تكفي الجميع، فهذا شيء آخر...

الزمن السوفييتي... كان للكلمة وضع سحري مقدس. وبحسب قانون العطالة، في مطابخ المثقفين كانوا لا يزالون يتحدثون عن الكاتب باسترناك، ويغلون الحساء، دون أن يتركوا من أيديهم كتب أستافييف وبيكوف، بيد أن الحياة كانت تثبت دوماً أن هذا ليس مهماً. فالكلمات لا تعني شيئاً. في العام الحادي والتسعين... أدخلنا أمنا إلى المستشفى، حيث كانت تعاني من التهاب رئوي شديد، وخرجت من المستشفى بطلة،

فلم تكن تغلق فمها هناك أبداً. حدثتهم عن ستالين، عن اغتيال كيروف، وعن بوخارين... كانوا في المستشفى مستعدين لسماعها ليلاً ونهاراً. كان الناس آنذاك يريدون أن يفتح لهم أحد ما أعينهم. في حين أنها، بالأمس القريب، دخلت المستشفى من جديد، لكنها في هذه المرة بقيت ساكتة طيلة وجودها فيه. كانت قد انقضت خمس سنوات فقط، لكن الواقع كان قد وزع الأدوار بطريقة أخرى. البطلة في هذه المرة، كانت زوجة رجل أعمال كبير... أصيب الجميع بالبكم من أحاديثها... أي بيت كانت تقطن فيه؛ مساحته ثلاثمئة متر مربع! كم عدد الخدم في بيتها: الطباخة، المربية، السائق، عامل الحديقة... بقصد الاستجمام كانت تسافر مع زوجها إلى أوروبا... المتاحف أمر مفهوم، أما المحلات التجارية... المولات! خاتم واحد فقط بأكثر من قيراط، وخاتم آخر... والجواهر المعلقة... والحلق الذهبية... منزل كامل! ولم تلفظ كلمة واحدة عن معسكرات الاعتقال أو ما شابهها. ولكن كان ما كان، وما الفائدة من مناقشة كبار السن الآن؟

دخلت كعادتي إلى مخزن الكتب القديمة. كانت هناك المجلدات التسعة لموسوعة "التاريخ العالمي" و"مكتبة المغامرات"، تلك الطبعة البرتقالية التي تعلقت بها. كنت أنظر إلى كعوب الكتب، وأستنشق طويلاً رائحتها. كانت هناك جبال من الكتب الثمينة القيمة! فقد باع المثقفون مكتباتهم الشخصية. كان الجمهور يعاني من الفقر الشديد طبعاً، لكنهم باعوا كتبهم ليس فقط من أجل المال؛ فقد خيبت الكتب آمالهم. خيبة كاملة، ويأس مطلق. حتى أنه أصبح من غير المناسب طرح السؤال العادي المألوف: «وماذا تقرأ الآن؟». فقد تغيرت أشياء كثيرة في الحياة، لكن الكتب لم يتغير فيها شيء. فالروايات الأدبية الروسية لا تعلم المرء كيف يحقق النجاح في حياته، وكيف يصبح ثرياً... إن أبلوموف الخامل[1]

(1) بطل الكاتب الروسي غانتشروف - المترجم

يتكئ على الأريكة، أما بطل تشيخوف فيشرب الشاي باستمرار ويشتكي من الحياة... (يلوذ بالصمت). يقول الصينيون: «لا قدر الله أن نعيش في عصر التحولات». نادر جداً من بقي منا كما كان سابقاً. لقد اختفى الناس الطيبون اللائقون. حيثما كنت تجد الناس يتدافعون بمرافقهم وأسنانهم...

لم أقل عن السنوات التسعينيات أنها كانت زمناً جميلاً، لقد كانت زمناً مثيراً للاشمئزاز. لقد حدث انقلاب وتَحوُّل في عقول الناس مقداره مئة وثمانون درجة... وهناك من لم يحتمل ففقد عقله، وكانت مستشفيات الأمراض العقلية تغص بنزلائها. زرت ذات مرة صديقي هناك، أحدهم يصرخ: «أنا ستالين! أنا ستالين!»، وآخر يصيح: «أنا بيريوزوفسكي! أنا بيريوزوفسكي!». وهم يشكلون جناحاً كاملاً من متقمصي شخصية ستالين وبيريوزوفسكي. إطلاق النار في الشوارع لا يتوقف، وقد قتل عدد كبير من الأشخاص. كل يوم كانت تجري مواجهات حاسمة. انتزاع... تخليص. قبل أن يسبقك الآخرون إلى ذلك. فنهبوا أحداً ما، وانتزعوا أحداً ما، وأجلسوا أحداً ما. من العرش إلى القبو. ومن ناحية أخرى، هذه العربدة كلها تحدث أمام عينيك...

في البنوك والمصارف كان الناس الذين يريدون بدء أعمالهم وتجارتهم. يقفون في صفوف طويلة: منهم من يريد افتتاح مخبز، ومن يريد بيع الإلكترونيات... أنا أيضاً وقفت في هذا الطابور. واستغربت كثيراً كثرة أعدادنا. عجوز ترتدي قبعتها الصوفية، وفتى في سترته الرياضية. ورجل ضخم يشبه السجين... سبعون عاماً ونيف علّمونا: السعادة ليست في المال. الإنسان يحصل على أفضل شيء مجاناً، كالحب مثلاً. ولكن كان يكفي أن يصرخ أحد من على المنبر: «تاجروا، بيعوا واشتروا، اثروا». حتى نسوا كل شيء. لقد نسوا جميع الكتب السوفييتية. إن هؤلاء الأشخاص لا يشبهون أبداً أولئك الذين كنت أجلس معهم ليلاً حتى الصباح وأعزف

على الغيتار. لقد حفظت بصعوبة ثلاثة أوتار. إن الشيء الوحيد الذي كان يجمعهم مع الجالسين في "المطابخ"، أنهم تعبوا من هذه الأعلام الحمراء القانية ومن هذه البهرجة: اجتماع شبيبة، دروس التوجيه السياسي... إن الاشتراكية كانت تعد الإنسان غبياً...

أنا أعرف جيداً ما هو الحلم. طيلة طفولتي كنت أرجو أن يشتروا لي دراجة ولم يشتروها. عشنا في فاقة وعوز. في المدرسة كنت أبيع سراويل الجينز، وفي المعهد العالي، كنت أبيع البذلات العسكرية السوفييتية برموزها وأنواعها كافة. كان الأجانب يشترونها. إنها تجارة عادية. في العهد السوفييتي كانوا يحظرونها ويسجن من يرتكبها لفترة تتراوح بين ثلاث إلى خمس سنوات. كان أبي يركض خلفي ممسكاً بحزامه الجلدي وصارخاً: «استغلالي حقير! لقد بذلت دمي رخيصاً في ضواحي موسكو، إلا أنني ربّيت هذا الابن "الخرائي"!». كان هذا بالأمس جريمة، واليوم أصبح عملاً مشروعاً. اشتريت المسامير في مكان والقماش المطبوع في مكان آخر، وغلفتهما بكيس من النايلون وبعتها كبضاعة جديدة. وأحضرت النقود للبيت، واشتريت كل شيء وملأت البراد بما لذ وطاب. كان والداي يتوقعان أن تلاحقني الشرطة وتعتقلني (يضحك). تاجرت بالأدوات التقنية المنزلية، وطناجر الغلي السريع، وطناجر البخار... كنت أنقل البضاعة التي أشتريها من ألمانيا في سيارة مع قاطرة. وكل شيء سار على ما يرام... في مكتبي كنت أضع صندوقاً من الكرتون، المستخدم في تعبئة الحواسيب، مليئاً بالمال، على هذا النحو أدركت أن هذه نقود وهذا مال. آخذ وآخذ من هذا الصندوق والمال لا ينفد. بدا لي أنني قد اشتريت كل شيء: سيارة، شقة... ساعة "رولكس"... أذكر هذه النشوة والثمل... يمكنك أن تحقق جميع رغباتك، وخيالاتك الخفية. لقد عرفت عن نفسي: أولاً، لا أتمتع بالذوق؛ ثانياً، أنني معقد. لا أعرف كيفية التعامل مع المال.

لم أكن أعرف أن مبالغ المال الكبيرة يجب أن تدور وتعمل، ولا يمكنها البقاء مجمدة. المال هو اختبار للإنسان مثل السلطة، ومثل الحب... كنت أحلم وسافرت إلى موناكو. في كازينو مونت كارلو خسرت مبالغ كبيرة جداً. لقد سيطر عليَّ الجنون... وكنت عبداً لصندوقي. هل يحوي مالاً؟ وكم؟ يجب أن يزداد المال فيه تدريجياً. لم يعد يهمني ما كان يهمني سابقاً. السياسة... المظاهرات... المسيرات. لقد توفي العالم ساخروف. ورافقتُ جنازته لتشييعه. كان هناك مئات الألوف من الناس المشيعين. وبكى الجميع، وأنا بكيت. وهنا قرأت بالأمس عنه في صحيفة: "توفي أهبل روسيا الكبير". وظننت أنه توفي في الوقت المناسب. وعاد الكاتب الروسي المنفي سولجينيتسين من أمريكا، فذهب الجميع إليه. فلم يفهمنا ولم نفهمه. إنه جاء إلى روسيا، لكن شيكاغو تطل من نافذته...

كنت من أنا، لولا البيريسترويكا؟ كنت مهندساً براتب ضئيل (يضحك). أما الآن فلدي مستوصف للأمراض العينية. أنت تحفرين في ذاتك، تستبطنين، أما أنا فليست لديَّ هذه المشكلة. أنا أعمل ليلاً ونهاراً. اشتريت أحدث التجهيزات، أرسلت جرّاحي العين إلى فرنسا في دورة تدريبية. لكنني لست غيرياً، أنا أعمل بنجاح وأجني المال. حصّلت كل هذا بجهدي أنا وحدي... لم يكن في جيبي سوى ثلاثمائة دولار... بدأت عملي التجاري مع شركاء لو رأيتهم الآن ودخلوا إلى هذه الغرفة لأغميَ عليك. إنهم أشبه بالغوريلا! ولم يعد الآن لهم أي وجود عندي، لقد اختفوا مثل الديناصورات. كنت أمشي واضعاً السترة المصفحة على سطحي وظهري. وقد أطلقوا عليّ النار. ولا يهمني إن كان هناك من يأكل مرتديلا أسوأ مما أتناوله منها. أنتم جميعاً أردتم أن تكون عندنا رأسمالية. كنتم تحلمون بها! ولا تصرخي أنك خُدعت...

لقد نشأنا وسط الجلادين والضحايا

خرجنا ذات مساء من دار السينما. كان رجل يرقد على الأرض في بركة من الدماء. وفي المعطف المطري في ظهره ثقب رصاصة. كان شرطي يقف على مقربة منه. هذه أول مرة أرى فيها إنساناً مقتولاً. لكنني سرعان ما اعتدت على ذلك.

بناؤنا كبير، يتألف من عشرين مدخلاً. في كل صباح، كنا نجد في الفناء جثة، ولم نعد نرتجف أو نتأثر. لقد بدأت الرأسمالية الحقيقية، معمَّدة بالدم. كنت أتوقع أن أصاب بصدمات، لكن لم يحدث أي شيء. بعد ستالين تشكل لدينا موقف آخر من الدم... فنحن نذكر كيف كان أبناء البلد الواحد يقتل أحدهم الآخر... وكذلك القتل الجماعي للناس الذين لم يعرفوا لماذا يقتلونهم... لقد بقي أثره، ولا يزال حاضراً في حياتنا. لقد نشأنا بين الجلاّدين والضحايا... فالعيش معاً، بالنسبة إلينا، أمر طبيعي. ليست هناك حدود بين حالتي الحرب والسلم. الحرب قائمة دوماً. تفتح التلفزيون - الجميع يثرثرون: رجال السياسة، ورجال الأعمال، والرئيس: عمولات، رشاوي، تخفيضات... حياة الإنسان- اِبْصق وامْسح. كما في السجن...

لماذا لم نُدِن ستالين؟ أنا سأجيبك... كي ندين ستالين علينا أن ندين أهلنا وأقاربنا ومعارفنا، والأكثر قرباً منا. سأحدثك عن أسرتي... سجن والدي في العام السابع والثلاثين، ولكن، نحمد الله أنه عاد بعد عشر سنين. عاد مفعماً برغبة شديدة في الحياة... هو نفسه كان يستغرب، أنه بعد ما رآه وما عاناه، يريد أن يحيا... لم يكن هذا شأن جميع المعتقلين أبداً... لقد نشأ جيلي بين الآباء الذين عادوا من معسكرات الاعتقال أو

من الحرب. والشيء الوحيد الذي كان في إمكانهم أن يحدِّثونا عنه هو القمع والعنف والموت. نادراً ما كانوا يضحكون، كانوا يلوذون بالصمت غالباً. كما كانوا يشربون ويكثرون من شرب الكحول... وهي التي خرّبت نفوسهم وقضت عليهم. وهناك صيغة أخرى... أولئك الذين لم يعتقلوهم، كانوا يخشون الاعتقال. وهذا كله لم يستمر شهراً ولا أشهراً، بل استمر سنوات طوال... سنوات طوال! وإذا لم يعتقلوهم، فيتساءلون: لماذا اعتقلوا الجميع ولم يعتقلوني؟ ما الذي فعلته حتى لا أُعتقل؟ كان في إمكانهم اعتقالي أو تحويلي للعمل في مفوضية الشعب للشؤون الداخلية... الحزب يطلب، الحزب يأمر. خيار صعب ومقيت، لكن كان على الكثيرين الإقدام عليه... أما الآن فسأتحدث عن الجلادين... الجلادين العاديين، غير الرهيبين... وشى بوالدي جارنا، العم يورا، ولأمور صغيرة سخيفة، كما قالت والدتي. كنت في السابعة من العمر. كان العم يورا يأخذ أبناءه ويأخذني أيضاً إلى صيد السمك، ويركِّبنا على ظهر الحصان. وقام بإصلاح سور بيتنا. أتدركين، إنها صورة أخرى للجلاد - إنسان عادي، بل إنسان جيد... عادي. وقد اعتقلوا والدي وبعد بضعة أشهر اعتقلوا أخاه. في عهد يلتسين، أعطوني وثائقه، كانت هناك عدة وشايات، إحداها كتبتها العمة أولا... ابنة عمي... امرأة جميلة... مرحة... كانت تجيد الغناء... وكانت قد أصبحت عجوزاً، سألتها: «عمتي أولا، حدثيني عن العام السابع والثلاثين»... «لقد كان هذا العام أسعد أعوام حياتي. كنت عاشقة». أجابتني العمة أولا... لم يعد عمك، شقيق أبيك إلى البيت. اختفى، في السجن أو في معسكر الاعتقال، غير معروف. كان هذا صعباً جداً بالنسبة إليَّ، لكنني طرحت السؤال الذي كان يعذبني: «عمتي أولا، لماذا وشيتي؟»، أجابتني: «وأين كنت ترى الإنسان الشريف في عهد ستالين؟». (يلوذ بالصمت). وكان هناك أيضاً العم

بافل، الذي كان يخدم في سيبيريا في قوات وزارة الداخلية... أتدركين، لا وجود للشر الكيميائي النقي... إنه ليس ستالين وبيريا[1] فقط... إنه أيضاً العم يورا والعمة أولا...

الأول من أيار/ مايو. في هذا اليوم يسير الشيوعيون في شوارع موسكو بمسيرة بعشرات الألوف. العاصمة "تحمرّ" من جديد. الأعلام الحمراء، البالونات الحمراء، قمصان حمراء مزينة بالمطرقة والمنجل. ويحملون صور لينين وستالين. لكن صور ستالين هي الأكثر. يحملون يافطات كُتب عليها "لقد قادتنا رأسماليتكم إلى القبور!"، "الراية الحمراء إلى الكرملين!". تقف موسكو العادية على الأرصفة، وتسير موسكو "الحمراء" على قارعة الشوارع والساحات. يدور بينهما دائماً مناوشات، تصل في بعض الأماكن إلى المشاجرات والضرب. وتعجز الشرطة عن التفريق بين موسكو "الحمراء" وموسكو العادية. وأنا لا أتمكن من تسجيل كل ما أسمعه...

- ادفنوا لينين، بلا مراسم.

- أجراء أمريكا! لماذا بعتم البلاد؟

- أنتم أغبياء، أيها الأخوة.

- لقد سرق يلتسين وعصابته كل شيء منّا. اثملوا! إثروا! ستحل نهايتكم يوماً ما...

- يخافون أن يقولوا للشعب بصراحة، إننا نبني الرأسمالية؟ الجميع مستعدون لحمل السلاح، بمن فيهم أمي - ربة البيت.

- بالحربة يمكن عمل الكثير، بيد أن الجلوس فوقها غير مريح.

---

(1) وزير الداخلية في عهد ستالين.

- لو أمكنني لسحقت البورجوازيين الملعونين بالدبابات!

- الشيوعية اخترعها اليهودي ماركس...

- شخص واحد فقط يمكنه إنقاذنا؛ إنه الرفيق ستالين. لو نهض من قبره وجاء إلينا ليومين فقط... لأعدمهم جميعاً رمياً بالرصاص، وبعدها فليعد ويرقد في قبره.

- المجد لك، يا رب! إني أنحني إجلالاً لجميع القديسين.

- يا كلاب ستالين، إن الدم لم يجف بعد من على أيديكم. لماذا قتلتم الأسرة القيصرية؟ لم تشفقوا حتى على الأطفال.

- لم تقم قائمة لروسيا العظمى بدون العظيم ستالين.

- لقد لوثتم دماغ الشعب...

- أنا إنسان بسيط. إن ستالين لم يمس الناس البسطاء. وفي أسرتنا كلها لم يعانِ أحد أبداً - جميعهم عمال. لقد طارت رؤوس المسؤولين الكبار، أما الإنسان البسيط فعاش مطمئناً.

- يا رجال المخابرات الحمر! سرعان ما ستتفقون بأنه لم يكن هناك أية معسكرات اعتقال، وأن المعسكرات الوحيدة التي كانت هي معسكرات الطلائع. جدي كان بواباً.

- وجدي كان مساح أراضٍ.

- وجدي كان سائقاً...

عند محطة بيلاروسيا بدأت المسيرة. الحشد كان يتفجر بالتصفيق تارة، ويصراخ: «أورا! أورا! عاش!». وفي الختام صدحت الساحة كلها بأغنية بلحن "الفارصوفيات"؛ نشيد "المارسلييزا" الروسي بنص جديد: «سنرمي من سواعدنا قيود الليبيرالية،/ ونطيح أرضاً بالنظام المجرم الدموي». وبعد هذا، قاموا بطي الأعلام الحمراء، ثم سارع بعضهم إلى محطة المترو،

بينما وقف بعضهم الآخر في الطابور أمام أكشاك الفطائر والبيرة. وبدأت الحفلات الشعبية. فرقصوا ومرحوا. وبدأت امرأة كبيرة السن بخمار أحمر اللون بالدوران والدبكة برجليها حول عازف الأكورديون: «نحن نرقص بمرح/ أمام شجرة عيد الميلاد./ نحن في وطننا / بمنتهى السعادة!/ نحن نرقص بمرح،/ نحن نغني بصوت قوي،/ وأغنيتنا هذه / نهديها إلى ستالين»... ولحقتني إلى باب محطة المترو أغاني السكارى: «انفرْ من كل ما هو سيئ، وضاجع كل ما هو جيد».

علينا أن نختار أحدهما: التاريخ العظيم أو الحياة المبتذلة

الضجيج دائم أمام كشك البيرة. رواده مختلفون. هنا تلتقي البروفيسور، والعامل الكادح، والطالب والمتشرد... جميعهم يشربون ويتفلسفون. وكلهم عن الموضوع نفسه؛ عن مصائر روسيا. وعن الشيوعية.

- أنا إنسان أعاقر المشروبات الكحولية. لماذا أشرب؟ حياتي لا تروق لي. أريد أن أقوم بحركة بهلوانية لا يمكن تصورها بمساعدة الكحول، والانتقال على نحو ما إلى مكان آخر. وهناك كل شيء جيد وجميل.

- السؤال مطروح بالنسبة إليَّ بصورة أكثر تحديداً: أين أريد العيش؟ في دولة عظمى أم في دولة عادية؟

- أنا كنت أحب الإمبراطورية... إن حياتي بعد أفول الإمبراطورية مملة. وغير ممتعة.

- الفكرة العظيمة تتطلب دماءً. واليوم لا يرغب أحد في الموت في مكان ما، وفي حرب ما. كما تقول تلك الأغنية: حيثما كان، المال، المال/ حيثما كان المال، الأسياد... وإذا ما كنت مصراً على أنه لدينا

هدف، فما هو هذا الهدف؟ لكل منا سيارة مرسيدس وبطاقة استجمام إلى جزر ميامي؟

- الإنسان الروسي في حاجة إلى الإيمان بشيء ما... أن يؤمن بالسمو، النيِّر، السامي. إن الإمبراطورية والشيوعية مغروستان عندنا في رؤوسنا، تحت القشرة الدماغية. البطولي هو الأقرب لنا.

- كانت الاشتراكية تلزم الإنسان على العيش في التاريخ... وأن يحضر في شيء ما عظيم...

- يا للعنة! نحن روحانيون بشكل خاص لا مثيل له.

- لم تكن عندنا ديمقراطية. فأي ديمقراطيون نحن؟

- إن الحدث العظيم الأخير في حياتنا هو البيريسترويكا.

- روسيا لا يمكنها أن تكون إلا دولة عظمى، أو لا تكون أبداً. نحن في حاجة إلى جيش قوي.

- فليذهب إلى الجحيم بلدك العظيم، وما حاجتي إليه؟ أريد أن أعيش في بلد صغير، مثل الدنمارك. من دون سلاح نووي، ومن دون نفط وغاز. كي لا يضع أحد مسدسه في رأسي. ربما، آنذاك نتعلم غسيل الأرصفة بالشامبو...

- الشيوعية مهمة يعجز الإنسان عن تحقيقها... عندنا دائماً على النحو التالي: إما نريد الدستور تارة، وإما نريد سمك السلمون مع المايونيز...

- كم أحسد الأشخاص الذين كانت عندهم فكرة! ونحن الآن نعيش بدون أفكار. أريد روسيا العظمى! أنا لا أذكرها، لكنني أعرف بأنها كانت.

- كانت بلاداً عظيمة بطابور طويل على ورق التواليت... أذكر جيداً رائحة المطاعم السوفييتية والمحلات التجارية السوفييتية.

- إن روسيا ستنقذ العالم! وبذلك تنقذ نفسها!

- أبي عاش تسعين عاماً. كان يقول إنه لم يكن هناك في حياته شيء جيد سوى الحرب. وهذه وحدها التي نتقنها.
- الله هو اللانهاية الكامنة فينا... ونحن خُلقنا بهيئته وبشبهه...

عن كل شيء...

كنت سوفييتية بنسبة تسعين بالمئة... لم أكن أفهم ما يحدث. أتذكر يوم ألقى غايدار كلمة بالتلفزيون: تعلموا البيع والشراء... السوق سينقذنا... اشتريت في أحد الشوارع زجاجة مياه معدنية وبعتها في شارع آخر، هذه هي التجارة "البزنس". كان الناس يصغون بارتباك وحيرة. وصلت إلى البيت، فأغلقت الباب وشرعت بالبكاء. والدتي أُصيبت بنزيف دماغي، فقد أدخل هذا كله الرعب الشديد في نفسها. ربما كانوا يريدون فعل شيء جيد، ولكن لم يتحلوا بما يكفي من التعاطف مع شعبهم. لن أنسى أبداً الشيوخ الشحاذين الذين كانوا يطلبون صدقة، كانوا يقفون صفاً واحداً كالإبَر على طول الطريق. بقبعاتهم المغسولة القديمة وسترهم المرقعة... كنت أركض ركضاً إلى عملي ومن عملي؛ أخشى رفع عينيَّ ورؤيتهم... كنت أعمل في معمل للعطور. وبدلاً من النقود كان يصرفون لنا رواتبنا بالعطورات... ومستحضرات التجميل.

كانت تدرس في صفنا فتاة فقيرة، قُتل والداها في حادثة سيارة. وبقيت الفتاة عند جدتها. طيلة السنة كانت ترتدي ثوباً واحداً يتيماً لم تبدله. ولم يكن هناك من يشفق عليها. وهكذا سرعان ما أصبح من المعيب لها أن تكون فقيرة بائسة...

لا أشعر بالأسف على الأعوام التسعينيات... زمن هائج عاصف مشرق. أنا، التي لم أهتم يوماً بالسياسة ولم أقرأ الصحف، رشحت نفسي لأكون نائباً. من هم متعهدو البيريسترويكا ومؤيدوها؟ الكتّاب... الفنانون... الشعراء... في المؤتمر الأول لنوّاب الشعب في الاتحاد السوفييتي، كان من الممكن جمع تواقيعهم. زوجي اقتصادي، كاد أن يفقد عقله من هذه العبارة: «بالفِعل نحرق قلوب الناس، هذا لا يقدر عليه إلا الشعراء. أنتم تقومون بالثورة. وماذا بعد؟ ماذا بعد؟ مَن سيبني الديمقراطية؟ من؟ الآن غدا مفهوماً ماذا سينتج عنكم». كان يسخر مني. ولهذا حدث الطلاق وانفصلنا... لكنه كان على حق...

لقد أصبح الوضع مرعباً، ولهذا قصد الشعب دور العبادة. عندما كنت مؤمناً بالشيوعية، لم أكن في حاجة للكنيسة. أما زوجتي فتسير معي لأن راعي الكنيسة يقول لها: «يا حمامتي».

أبي كان شيوعياً شريفاً. أنا لا أتهم الشيوعيين، لكنني أتهم الشيوعية. حتى الآن لا أعرف، ما هو الموقف الذي عليه اتخاذه من غورباتشوف... من يلتسين هذا... إن الطوابير وواجهات المحلات الفارغة تُنسى بسرعة أكبر من العلم الأحمر الذي يرفرف فوق الرايخستاغ[1].

لقد انتصرنا. على من؟ وعلام؟ في إحدى الأقنية التلفزيونية يُعرض فيلم، حيث "الحُمر" الشجعان يضربون "البيض"، وفي قناة أخرى، "البيض" الشجعان يضربون "الحمر". ما هذه الشيزوفرينيا!

---

(1) البرلمان الألماني. المترجم.

نتحدث دوماً عن الآلام والمعاناة... إنها طريقنا إلى المعرفة. الغربيون يبدون لنا ساذجين، لأنهم لا يعانون ولا يتألمون مثلنا، ولديهم أدوية لأية حبة أو بقعة. أما نحن فكنا نرقد في المعسكرات، وفي الحرب غطينا الأرض بالجثث، بأيدينا العارية كنا نستخرج الوقود النووي في تشرنوبيل. والآن نجلس على حطام الاشتراكية. كما كنا بعد انتهاء الحرب. نحن أناس محطمون، مكسَّرون. ولدينا لغتنا. لغة الآلام والمعاناة.

حاولت الحديث عن هذا مع طلابي... فضحكوا مني قائلين: «لا نريد أن نعاني ولا أن نتألم. الحياة بالنسبة إلينا هي شيء آخر». لم نفهم شيئاً حتى الآن عن عالمنا بالأمس، بل نعيش في الجديد. حضارة كاملة - إلى القمامة...

عشر قصص
من الداخل الأحمر

عن جمال الديكتاتورية وسر الفراشة في الإسمنت

يلينا يوريفنا س. - السكرتير الثالث للجنة الحزب المنطقية. 49 عاماً

اثنتان كانتا تنتظراني - يلينا يوريفنا نفسها التي اتفقت معها على اللقاء، وصديقتها الموسكوفية آنا إيلينيتشنا م. التي حلت ضيفة عندها. واندمجت على الفور في الحديث قائلة: «منذ زمن وأنا أود أن يشرح لي شخص ما، ما الذي يجري لنا». لم يتطابق أي شيء في أحاديثهما سوى الاسمين: غورباتشوف، يلتسين... لكن، كان لكل منهما غورباتشوف ويلتسين الخاصين بهما. وأعوامها التسعينيات الخاصة بها.

يلينا يوريفنا:

- وهل بقيت حاجة للحديث عن الاشتراكية؟ ولمن؟ الجميع ما زالوا شهود عيان. كلمة شرف، إنني مستغربة أنكِ أتيتِ لعندي. أنا شيوعية... متفرغة للعمل الحزبي... الآن لا يسمحون لنا بالكلام... يغلقون أفواهنا. لينين قاطع طريق، وستالين... نحن جميعاً مجرمون، على الرغم من أن على يديَّ لا توجد نقطة دم واحدة. ولكن علينا جميعاً الدمغة، دمغة الشيوعيين...

ربما بعد خمسين عاماً أو مئة عام سيكتبون بموضوعية عن حياتنا تلك التي كانت تدعى بالاشتراكية. بدون دموع ولا لعنات. سيبدؤون بنبش القديم، كما نبشوا طروادة القديمة. بالأمس كان من المستحيل قول شيء جيد عن الاشتراكية. أما في الغرب، فبعد انهيار الاتحاد السوفييتي أدركوا أن الأفكار الاشتراكية لم تمت، ولا بد من تطويرها. ولا يجب أبداً تقديسها. ماركس نفسه لم يكن مقدساً، ولا معبوداً، كما جعلوه عندنا. لقد قدَّسناه، وألَّهناه في البداية، ثم بدأنا نصبُّ اللعنات عليه. وشطبنا كل شيء. العلم أيضاً جلب للبشرية كثيراً من المحن والمصائب. فتعالوا إذاً ندمِّر العلماء! فلنلعن آباء القنبلة الذرية، والأفضل لنبدأ بمن اكتشف الذرة! لنبدأ منهم... أولست مُحقَّة؟ (لم يسعني الوقت للإجابة عن سؤالها) صحيح، صحيح أنهم خرجوا بصعوبة من موسكو. ويمكن القول إنهم جاؤوا إلى روسيا. نتمشى في موسكو فيبدو لنا أننا في أوروبا: سيارات فارهة، مطاعم... القبب الذهبية ساطعة! ولكن اسمعي ما يقوله الناس عندنا في الأرياف... روسيا ليست موسكو، روسيا هي مدن سمارا وتولياتي، وتشيليابنسك وأية بلدة أخرى... ما الذي يمكن معرفته عن روسيا من مطابخ موسكو؟ في الحفلات؟ اللعنة - اللعنة - اللعنة... موسكو عاصمة دولة أخرى، وليس ما يوجد خلف الطريق المحلق الدائري. الجنة السياحية. لا تصدقي موسكو...

يفدون إلينا وعلى الفور يحزرون: هؤلاء سوفييت. أناس يعيشون في ظروف بائسة حتى حسب المعايير الروسية. إنهم يشتمون الأغنياء، يحقدون على الجميع، ويشتمون الدولة. وهم يرون أنهم خُدعوا، ولم يقل لهم أحد إنه ستكون هناك رأسمالية، كانوا يظنون أنهم يبدؤون بإصلاح الاشتراكية. تلك الحياة عرفها الجميع، الحياة السوفييتية. وبينما كانوا يصرخون في المسيرات: «يلتسين! يلتسين!». سرقوهم. تقاسموا من

دونهم المصانع والمعامل. والنفط، والغاز، وكل ما هو هبة من الله. بيد أنهم الآن فقط فهموا هذا. أما في العام الحادي والتسعين، فقد هب الجميع والتحقوا بالثورة. أسرعوا إلى المتاريس. كانوا يريدون الحرية، فما الذي حصلوا عليه؟ ثورة يلتسينية... ثورة قطاع طرق... ابن صديقتي كادوا أن يقتلوه بسبب أفكاره الاشتراكية. لقد كانت كلمة "شيوعي" إهانة وشتيمة. كاد أولادهم أن يقتلوا الشاب في فناء المنزل. كان يجلس في التعريشة فتيان يعرفهم، يعزفون على الغيتار ويتحادثون: قريباً سنهاجم الشيوعيين صفاً واحداً، سنعلقهم على أعمدة الكهرباء. ميشكا سلوتسر- والده كان يعمل في اللجنة المنطقية للحزب الشيوعي. إنه فتى مطَّلع، يكثر المطالعة، اقتبس لهم من الكاتب الإنكليزي شيسترتون العبارة التالية: «الإنسان بدون أحلام طوباوية أشد رهبة من إنسان بلا أنف»... ولهذا ضربوه بجزماتهم... وأحذيتهم... «أيها اليهودي! من الذي قام بثورة 1917؟». أذكر هذا البريق في أعين الناس في بداية البيريسترويكا، لن أنساه ما حييت. كانوا مستعدين لإعدام الشيوعيين دون محاكمة، ونفيهم واحداً إثر الآخر... في حاويات القمامة رموا كتب ماياكوفسكي وغوركي... ويسلِّمون مؤلفات لينين إلى مراكز استلام الأوراق المهملة. وقد قمت بجمعها وأخذها... نعم! لا أنفي شيئاً! ولا أخجل من شيء! فأنا لم أغير لوني، ولم أدهن لوني الأحمر بالرمادي. هناك أناس فعلوا هذا: يأتي "الحمر" فيستقبلون "الحمر" بفرح، يأتي "البيض" فيستقبلونهم بسرور. المتشقلبون المتلونون كانوا يصنعون الأعاجيب: بالأمس كان شيوعياً، اليوم هو ديمقراطي متطرف. أمامي وعلى مرأى مني تحول الشيوعيون إلى مؤمنين وليبيراليين. أما أنا فأحب كلمة "رفيق" ولن أتخلى عنها أبداً. إنها كلمة جيدة! كلمة سوفييتية؟ عضّي لسانِك! الإنسان السوفيتي هو إنسان جيد جداً، كان من الممكن أن يسافر إلى الأورال، إلى الصحراء - من أجل الأفكار وليس من أجل الدولار.

ليس أبداً من أجل الأوراق النقدية الأجنبية الخضراء. محطة الدنيبر الكهربائية، معركة ستالينغراد، ارتياد الإنسان للفضاء- هذا كله إنجازه هو، الإنسان السوفييتي. الإنسان السوفييتي إنسان عظيم! يروقني حتى الآن كتابة اسم الاتحاد السوفييتي CCCP. الاتحاد السوفييتي كان بلادي، أما الآن فأنا لا أعيش في بلادي. أنا أعيش في بلاد غريبة.

- لقد وُلدت سوفييتية... جدتنا لم تكن تؤمن بالله، لكنها كانت تؤمن بالشيوعية. أما والدنا فقد كان ينتظر حتى موته عودة الاشتراكية. لقد سقط جدار برلين، وانهار الاتحاد السوفييتي، وبقي ينتظر عودة الاشتراكية. تخاصم مع أعز أصدقائه وأفضلهم لأنه دعا العلم السوفييتي بقطعة قماش حمراء! إن العلم الأحمر علمنا! الأحمر القاني! شارك أبي في الحرب الفنلندية، لكنه لم يفهم من أجل ماذا كانوا يتحاربون، ومع ذلك فقد شارك فيها إدراكاً منه للواجب. لقد التزموا الصمت بخصوص هذه الحرب، ولم يطلقوا عليها اسم حرب، بل اسم حملة. لكن والدنا كان يروي لنا... بصوت خافت، في البيت. كان هذا نادراً لكنه كان يتذكر، عندما يشرب... طبيعة حربه الشتوية: غابة وثلج بارتفاع متر. كان الفنلنديون يحاربون على إسكي التزلج، وفي لباس أبيض، ويظهرون في كل مرة بصورة مفاجئة، كالملائكة. "كالملائكة"، هذا تعبير والدي... كان في استطاعتهم في ليلة واحدة أن يقطعوا قاعدة أمامية، سرية كاملة. الأموات... في ذاكرة أبي دائماً يستلقون في برك من الدماء، مِن الإنسان الراقد يخرج كثير من الدم. كانت الدماء كثيرة لدرجة أنها عبرت طبقات الثلج السميكة. وبعد الحرب، لم يعد في استطاعة والدي ذبح دجاجة أو أرنب. إنه يتأثر بقوة من منظر أي حيوان مقتول أو رائحة الدم الطازج. كان يخشى من الأشجار الكبيرة ذات التيجان الكثيفة، فخلف مثل هذه الأشجار كان

يختفي القناصون الفنلنديون، الذين كانوا يدعونهم بـ "الوقاويق" (تلوذ بالصمت). أريد أن أضيف... من عندي... بعد النصر بلدتنا غرقت في بحر من الأزهار والورود، وكانت عربدة جميلة. والوردة الرئيسة كانت الأضاليا، كان من الضروري حفظ درناتها شتاء، حتى لا تتجمد. يا الله! كنا نغطي درناتها وندفئها، وكأنها طفل صغير. كانت الأزهار تنمو بالقرب من المنازل وخلفها، وعند الآبار وعلى طول السياج. الإنسان بعد الخوف يبدي رغبة كبيرة في العيش والسرور. وبعد ذلك اختفت الأزهار، ولم يعد لها وجود الآن. أنا أذكر... لقد تذكرت الآن... (تصمت) أبي... لقد حارب والدي نصف سنة فقط، ووقع أسيراً. وكيف أُسر؟ كانوا يهاجمون في بحيرة متجمدة، ومدفعية العدو كانت تقصف على الجليد. قليل منهم أمكنه السباحة حتى شاطئ البحيرة، فقد كانوا آنذاك، بلا حول ولا قوة ولا سلاح. شبه عراة. فكان الفنلنديون يمدون لهم أيديهم. كانوا ينقذونهم. فكان هناك من يأخذ بيد الفنلندي ومنهم من يرفض مساعدة العدو. هكذا كانوا يعلِّمونهم. أما أبي فقد أمسك باليد الممدودة إليه، فرفعوه. ما زلت أذكر جيداً دهشة والدي: لقد أعطوني مشروب "الشنابس" الكحولي كي أشعر بالدف. وألبسوني ثياباً جافة. وكانوا يضحكون ويربتون على كتفي: «إنه حي، إيفان حي!». إن والدي لم ير من قبل أعداءً عن قرب. ولم يكن يفهم لماذا كانوا فرحين...

في العام الأربعين انتهت الحملة الفنلندية... تم تبادل الأسرى العسكريين السوفييت بالأسرى الفنلنديين الذين كانوا في الأسر عندنا. سار الأسرى من الطرفين على شكل طابورين، ولكن باتجاهين مختلفين. الأسرى الفنلنديون عندما أصبحوا أمام الجانب الفنلندي، بدأ كل مَنهم يعانق الآخر من الأسرى، ويصافحونهم بالضغط على أيديهم. أما الجانب السوفييتي فقد استقبل أسراه، كما يستقبل الأعداء. اندفع الأسرى الروس

إلى أبناء وطنهم: «إخوتنا! أبناء وطننا!». فصدهم الجانب السوفييتي بالأمر العسكري: «وقوف قف! خطوة إلى الجانب- سنطلق النار!». أحاط الجنود السوفييت مع كلابهم البوليسية بطابور الأسرى، واقتادوهم إلى أكواخ خشبية معدة مسبقاً. وقد وضعوا حول الأكواخ أسلاكاً شائكة. وبدأ التحقيق معهم... «كيف وقعتَ في الأسر؟». سأل المحقق والدي. «الفنلنديون انتشلوني من البحيرة». «أنت خائن! لقد أنقذت جثتك، ولم تنقذ وطنك». وكان أبي أيضاً يعتقد أنه مخطئ. هكذا علّموهم... لم تكن هناك أية محاكمة. اقتادوا جميع الأسرى إلى الساحة وقرؤوا الحكم بحقهم على قارعة الطريق: توقيف ست سنوات في معسكرات الاعتقال لخيانة الوطن. أرسلوهم إلى فاركوتا. وهناك بدؤوا ببناء خط السكك الحديدية في المنطقة الصقيعية. يا إلهي! في العام الحادي والأربعين... الجيش الألماني أصبح في ضواحي موسكو... لم يقولوا لهم إن الحرب قد بدأت؛ فهم أعداء، وسيسرهم هذا الخبر. روسيا البيضاء كلها أصبحت في قبضة الألمان. سيطروا على مدينة سمولنسك. وعندما علموا بذلك، أرادوا فوراً الانتقال إلى الجبهة. كتبوا الرسائل لرئيس المعسكر... ولستالين أيضاً... أنتم أوغاد. اعملوا من أجل النصر في المؤخرة، أما في الجبهة فلسنا في حاجة إلى خونة. أما الأسرى... سمعتها من والدي... استسلموا جميعهم للبكاء... (تصمت). هذا من كان عليك لقاؤه... لكن والدي توفي. فقد قلص معسكر الاعتقال عمره. وكذلك البيريسترويكا. كان يتألم كثيراً. ولم يفهم ما حدث. ما حدث للبلاد، وللحزب. والدنا... في معسكر الاعتقال وخلال ستة أعوام نسي ما هو التفاح وما هو الملفوف... واللحاف والمخدة... ثلاث مرات في اليوم كانوا يقدمون لهم حساء السجن الرخيص. أما رغيف الخبز الكبير فيقسمونه على خمسة وعشرين سجيناً. عوضاً عن المخدة يضعون تحت رؤوسهم قرمة شجرة،

وبدلاً من الفراش ألواح خشب على الأرض. والدنا كان غريباً... ليس مثل الآباء الآخرين... لم يكن قادراً على ضرب حصان أو بقرة، أو رفس الكلب بقدمه. كنت دوماً أشفق على أبي. أما بقية الرجال فكانوا يسخرون منه: «أي رجل أنت؟ أنت امرأة عجوز!». أمي كانت تبكي لأنه... لأنه ليس كبقية الرجال. كان يمسك بيده رأس الملفوف ويتأمله... وكذلك حبة البندورة... في الفترة الأولى كان يلوذ بالصمت بشكل عام، لم يشاركنا أي شيء من أفكاره أو معاناته. بدأ الحديث عما أصابه بعد عشر سنوات. وليس قبل ذلك... نعم... ذات مرة، كان في معسكر الاعتقال ينقل جثث الموتى. خلال اليوم الواحد كان ينقل عشر إلى خمس عشرة جثة. كان الأحياء من المساجين يعودون إلى أكواخهم سيراً على الأقدام، أما الموتى فينقلونهم على مزالق الجليد. كانوا يأمرونهم بنزع الألبسة من الموتى، ثم يلقونهم عراة على المزالق كاليرابيع. أنا أحدثك بلغة أبي وكلماته... حديثي يظهر متقطعاً... بسبب مشاعري... أشعر بالاضطراب، نعم... في السنتين الأولى والثانية من المعتقل، لم يكن يصدق أحد منهم أنه سيبقى حياً؛ كان يتذكر بيته وأهله من كان محكوماً بخمس أو ست سنوات، أما من كان محكوماً بعشر أو خمس عشرة سنة فكان يلوذ بالصمت عن بيته وأهله. لم يكونوا يتذكرون أحداً لا زوجاتهم ولا أبناءهم، ولا آباءهم. كان يقول أبي: «إذا ما بدأت تتذكر فلن تعيش». في حين أننا كنا ننتظر عودته «سيعود أبي... ولن يتعرف عليّ»، «أبونا»... كان بودي أن أتلفظ كلمة بابا مرة بعد مرة. وعاد أخيراً. شاهدت جدتي بالقرب من البوابة الصغيرة رجلاً في معطف عسكري، فصاحت به: «أيها الجندي، عمّن تبحث؟». «ماما، أنت لم تتعرفي عليّ؟». سقطت الجدة في المكان الذي كانت تقف فيه. هكذا عاد أبي... كان متجمداً كله، لم يستطع أبداً تدفئة يديه ورجليه. ماما؟ كانت تقول ماما إن بابا عاد بعد المعتقل طيباً رقيقاً، في حين أنها

كانت تخشى... زرعوا الخوف والرعب في نفسها بأنهم يعودون من هناك شريرين. أما والدنا فقد أراد أن يفرح بالحياة. وكانت لديه أمثال لكل حالة ولكل حادث: «كن رجلاً، الأسوأ سيأتي لاحقاً».

نسيت... نسيت أين حدث هذا... في أي مكان؟ ربما في معسكر العبور؟ كانوا يزحفون على أربع، على أيديهم وأرجلهم، في الساحة ويأكلون الحشائش. هياكل عظمية، جائعون. بحضور أبي لا يصح أبداً أن نشكو، فقد كان يقول: «كي يعيش الإنسان يلزمه ثلاثة أشياء: الخبز والبصل والصابون». ثلاثة أشياء فقط... فقط... لم يعد هناك من أمثالهم، مثل آبائنا، على قيد الحياة... وإذا ما بقي أحد منهم فيجب نقله إلى المتحف، وعرضه في خزائنه تحت الزجاج، كي لا يمسه أحد بيديه. كم عانوا، وكم قاسوا من آلام! عندما أعادوا له اعتباره، منحوه راتب جندي عن شهرين لقاء آلامه كلها. ولكن، عندنا في البيت بقيت صورة كبيرة لستالين معلقة فترة طويلة جداً... هذا أذكره جيداً... عاش والدي بدون حقد، فهو كان يعتقد أن ذلك الزمن كان هكذا. كان زمناً قاسياً. بنينا بلداً قوياً. وأنجزنا البناء، وانتصرنا على هتلر! هذه كلمات أبي...

- نشأتُ فتاة صغيرة جدية، طليعية حقيقية. الآن، ثمة رأي واسع الانتشار، وكأنهم كانوا يرغمون الأطفال على الانتساب إلى منظمة الطلائع. لم يرغموا أحداً. جميع الأطفال كانوا يحلمون بأن يصبحوا طلائعيين. وأن يسيروا معاً على وقع ضربات الطبل وأصوات الأبواق. وأن ينشدوا أغاني الطلائع: «منطقتي مسقط رأسي، كم أحبكِ/ وأين أعثر على منطقة مثلها!»، «السلطة للنسر وفراخ النسر ملايين، بلادنا تفخر بنا»... كانت هناك بقعة سوداء على أسرتنا، لأن والدي كان معتقلاً، وكانت أمي تخشى أن لا يقبلوني في منظمة الطلائع، أو لا يقبلوني مباشرة. وكانت رغبتي

شديدة في أن أكون مع الجميع. بالتأكيد، نعم... «أنتِ مع من: مع القمر أو مع الشمس؟». كان الصبية يطرحون عليّ هذا السؤال في الصف. وعلى الفتاة أن تكون صاحية يقظة! «مع القمر». «صحيح! مع بلاد السوفييت». أما إذا قلت «مع الشمس». «مع الياباني اللعين». فسيضحكون منك ويسخرون. كنا نقسم الأيمان لبعضنا بعضاً على الشكل التالي: "بشرفي الطليعي" أو "بشرفي اللينيني". أما القسم الأكبر والأعظم فهو: "بشرفي الستاليني". كان والديَّ يعرفان بأنني إذا ما قلت بـ"شرفي الستاليني"، فأنا لا أكذب أبداً. يا إلهي! أنا لا أتذكر ستالين، بل أتذكر حياتنا... سجلت في حلقة موسيقية وتعلمت العزف على الأوكورديون. وكوفئت والدتي لعملها المتميز بميدالية. لم تكن حياتنا قذارة فقط... وحياة ثكنة عسكرية فقط... في معسكر الاعتقال، كثيراً ما كان أبي يرى أشخاصاً مثقفين. لم يلتق بعد ذلك في مكان آخر مثل هؤلاء الأشخاص المثقفين. بعضهم كان يقرض الشعر، وكانوا غالباً يبقون أحياء. وكذلك رجال الدين، الذين كانوا يؤدون الصلاة. والدنا كان يريد أن ننهي الدراسة الجامعية. هذا كان حلمه. ونحن جميعاً- كنا أربعة أطفال- أنهينا الدراسة الجامعية. غير أنه علّمنا أيضاً السير وراء المحراث، وقطع الأعشاب. وأنا أعرف كيفية تقديم العلف لثور العربة، وتكويم البيدر. "كل شيء قد نحتاجه"، هكذا كان يرى والدي. وقد كان على حق.

بودي الآن أن أتذكر... بودي أن أفهم ما عشته. ليس حياتي فقط، بل حياتنا... السوفييتية... أنا لست معجبة بشعبي. ولست معجبة بالشيوعيين أيضاً، ولا بقادتنا الشيوعيين. واليوم على نحو خاص. لقد تفتت الجميع، وتبرجزوا، الجميع يريدون أن يعيشوا حياة جيدة لذيذة. وأن يستهلكوا ويستهلكوا. وأن يقبضوا على كل شيء! حتى الشيوعيون لم يعودوا كالشيوعيين. لدينا شيوعيون تقدر مداخيلهم السنوية بمئات الألوف من

الدولارات. إنهم من أصحاب الملايين! لديهم شقق في لندن... وقصور في قبرص... وهل هؤلاء شيوعيون؟ بماذا يؤمنون؟ تسألهم، فينظرون إليك كما ينظرون إلى غبية. «لا تقصي علينا قصصاً سوفييتية. لا حاجة إليها». لقد دمروا تلك البلاد! وباعوها بأسعار منافسة. وطننا... كي يتمكن أحدهم من أن يشتم كارل ماركس ويتنقل في أنحاء أوروبا. إنه زمن رهيب، مثله مثل زمن ستالين... أنا مسؤولة عن كلامي! هل ستسجلين هذا؟ لا أصدق... (وأرى أنها لا تصدق) لم يعد هناك لجان حزبية لا في الأحياء ولا في المناطق. ودّعنا السلطة السوفييتية. فعلام حصلنا؟ العصابات، شريعة الغاب... سلطة السارقين... أسرعوا. من يسرق قطعة أكبر. يا إلهي! تشوبايس "عرّاب البيريسترويكا"... الآن يفتخر، ويرفع أنفه للسماء، يلقي محاضرات في جميع أنحاء العالم. زاعماً، أن الرأسمالية تكونت في البلدان الأخرى خلال مئات السنين، أما عندنا فخلال ثلاثة أعوام. لقد تصرفنا بطريقة جراحية... وإذا ما سرق أحدهم حتى شبع، فالمجد لله، ربما أحفادهم سيكونون شرفاء. أووووف! وهؤلاء ديمقراطيون... (تلوذ بالصمت). قاسوا البذلة الأمريكية، وأطاعوا العم سام. لكن البذلة الأمريكية لا تليق ولا تناسب. إنها ملتوية معوجة عليهم. هذا هو. لم يتراكضوا من أجل الحرية، بل من أجل الجينز... من أجل متاجر السوبرماركت والمولات. باعوا أنفسهم بالعبوات البراقة... والآن في مخازننا يتوفر كل شيء. يا للوفرة. لكن جبال المرتديلا لا ترتبط بالسعادة. ولا بالمجد. كان شعبنا شعباً عظيماً! فحولوه إلى تجّار ونهّابين... ورؤساء مستودعات ومدراء.

جاء غورباتشوف... تحدث عن العودة إلى المبادئ اللينينية. حماسة عامة. إثارة. الشعب ينتظر التغيير والتحولات منذ زمن طويل. كانوا قد صدقوا أندروبوف في وقت ما... لكنه سليل المخابرات السوفييتية

"كـ.ج.ب"... كيف يمكنني أن أشرح لك؟ منذ زمن طويل، لم يعد أحد يخاف الحزب الشيوعي السوفييتي. كان من الممكن للرجال، مقابل كشك البيرة، أن يشتموا الحزب، أما الـ "كـ.ج.ب" فلا يقتربوا منها أبداً... ماذا بك؟ فما تزال حية في الذاكرة... كانوا يعرفون، أنهم باليد الحديدية، وبالحديد المحمي، وبالقبضة الضيقة، سيتمكن رجال المخابرات من إحلال النظام. لا أريد تكرار أشياء مبتذلة، لكن جينات جنكيز خان قد خرّبتنا... وكذلك حق القنانة[1]... لقد اعتادوا، أنه يجب ضرب الجميع، ولن يتحقق شيء بدون ضرب. وأندربوف بدأ بالضرب؛ بشد العزق. الجميع كانوا متراخين مهملين: في وقت العمل والدوام الرسمي كانوا يذهبون إلى السينما، إلى الحمام، يتسوقون في المتاجر. كانوا يشربون الشاي. بدأت الشرطة بتسيير دوريات وحملات دورية ومداهمة. يسألون عن الوثائق الشخصية، ويمسكون بالفارين من العمل في الشارع مباشرة، في المقاهي، في المحلات التجارية، ويبلغون مراكز عملهم. فيفرضون عليهم الغرامات، ويسرحونهم. لكن أندروبوف أصيب بمرض قاس. وسرعان ما توفي. لقد دفناهم... دفناهم... بريجنيف، أندروبوف، تشرننكو... النكتة الأكثر شهرة قبل قدوم غورباتشوف: «ننقل إليكم خبر وكالة أنباء تاس السوفييتية. ستضحكون كثيراً وبقوة، لقد مات الأمين العام الأخير للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي»... ها- ها- ها... كان الشعب يضحك في المطابخ، نضحك على قادتنا. في حظائرنا الصغيرة، في ثرثرتنا المطبخية (تضحك). أذكر جيداً جداً، كيف كانوا يفتحون الراديو أو التلفزيون بصوت عال جداً في أثناء أحاديثهم. إنه عِلم كامل قائم بذاته، كل منا كان يعلِّم الآخر، كيف نتصرف كي لا يسمع شيئاً عملاء المخابرات السوفييتية المتنصتون على الاتصالات الهاتفية- تفتح

(1) من يملك الأرض يملك أيضاً الفلاحين العاملين فيها.

قرص مكبر الصوت في السماعة- كانت الهواتف القديمة مجهزة بثقوب للأرقام- وتضع في إحداها قطعة من قلم الرصاص وتثبتها... يمكن وضع الإصبع أيضاً، لكن الإصبع يُصاب بالتعب... ربما علموكِ أنت هذا أيضاً؟ أتذكرين؟ هناك شيء سري يجب البوح به، فيبتعد المرء لمتر أو ثلاثة عن سماعة الهاتف. التقارير الأمنية، التنصت إلى المكالمات الهاتفية- هذا كان دوماً، في جميع فئات المجتمع، من الأعلى إلى الأدنى، ونحن في لجنة الحزب المنطقية: من لديه تقارير أمنية؟ وقد اتضح فيما بعد، فقد شككت بإنسان بريء، وكان هناك عدة تقارير بحقه. بهؤلاء الأشخاص الذين كانت تُرفع بحقهم التقارير لم أكن أتصور ذلك أبداً... ومن بينهم- عاملة النظافة عندنا. إنها امرأة طيبة، ودودة، بائسة. زوجها مدمن سكّير. يا إلهي! غورباتشوف نفسه... الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي- قرأت في إحدى المقابلات معه، كيف كان في أحاديثه الخاصة الصريحة، في مكتبه، يفعل الشيء نفسه - يرفع صوت التلفزيون أو الراديو إلى أعلى صوته. باختصار، إنه علم قائم بذاته. كان يدعو، من أجل الأحاديث المهمة الصريحة، ضيوفه إلى بيته الريفي، خارج المدينة. وهناك... هناك كانوا يذهبون إلى الغابة، ويتمشون ويتحادثون. فالطيور لا تُرسل تقارير أمنية... الجميع كانوا يخشون شيئاً ما، وكان يخاف أيضاً من يخيف الآخرين. أنا أيضاً كنت أخاف.

السنوات السوفييتية الأخيرة... ما الذي أذكره؟ لم يفارقني الشعور بالخجل. من بريجنيف المغطى صدره بالميداليات والنجوم، ولأن الكرملين دعي بحق في أوساط الشعب بالمأوى المريح للعجزة. أين حليبنا؟ لحومنا؟ حتى الآن لم أفهم أين أخفي هذا كله. كان الحليب ينفد بعد انقضاء ساعة واحدة على فتح المحلات الغذائية. ومن فترة الغداء كان الباعة يقفون أمام صوانيهم وأدراجهم الفارغة النظيفة. أما على

الرفوف فكانت توجد قطرميزات سعة ثلاثة ليترات من عصير البتولا، وأكياس الملح، الرطب دوماً لسبب ما. وعلب سمك الرنكة. وهذا كل شيء! يُنزلون للبيع المرتديلا فتنفد على الفور. أما النقانق والزلابية- فهي للاحتفالات والرفاهية. في لجنة الحزب المنطقية كانوا يوزعون دوماً بعض الحاجيات والأشياء: لهذا المصنع عشر برادات وخمس معاطف فراء، ولهذا الكولخوز[1] طقمان من الأثاث اليوغوسلافي وعشر حقائب نسائية بولونية. كما كانوا يوزعون الطناجر والألبسة الداخلية النسائية... والكولونات... مثل هذا المجتمع لا يمكن الإمساك به إلا في حالة الخوف. أما في الأحوال الطارئة فيجب الإكثار من إطلاق النار والاعتقالات. لكن الاشتراكية مع المنافي وسجاير "البيلومور كانال"[2] قد انتهت. كانت هناك حاجة إلى اشتراكية أخرى ما.

البيريسترويكا... كانت هناك فترة خلالها اقترب فيها الشعب منا من جديد. وانتسبوا إلى الحزب الشيوعي. كانت التوقعات كبيرة لدى الجميع. لكن الجميع آنذاك كانوا سذّجاً- اليساريون واليمينيون، الشيوعيون والمعادون للسوفييت. الجميع كانوا رومانسيين. اليوم نشعر بالخجل من حالتنا تلك، من سذاجتنا. يمجدون الكاتب المنشق سولجينيتسين ويعبدونه. العجوز العظيم المقيم في ولاية فيرمونت! ليس سولجينيتسين وحده، كثيرون آخرون أدركوا أن العيش على هذا النحو، كما نحن نعيش، أصبح مستحيلاً. كذبوا وتورطوا. بمن فيهم الشيوعيون - أتصدقينني أم لا؟ - أيضاً كانوا يدركون هذا. ففقد كان بين الشيوعيين كثير من الناس الشرفاء والأذكياء، والمخلصين أيضاً. أنا شخصياً كنت أعرف كثيراً من هؤلاء، ويتواجدون في الأرياف خاصة. مثل والدي. والدي لم يقبلوا طلب

(1) المزرعة التعاونية.

(2) ماركة سجاير روسية رخيصة - المترجم.

انتسابه للحزب الشيوعي، وقد عانى الأمرين من الحزب، لكنه كان يؤمن به ويصدقه. كان يؤمن بالحزب وبالبلاد السوفييتية. كان كل صباح يبدأ عنده بقراءة صحيفة "البرافدا" من ألفها إلى يائها. الشيوعيون الحقيقيون كانوا بين ممن لا يحملون البطاقة الحزبية أكثر من الذين يحملونها. كانوا شيوعيين بنفوسهم وأرواحهم (تلوذ بالصمت). كانوا في جميع المسيرات يرفعون شعار "الشعب والحزب متحدان!". وهذه العبارة ليست مختلقة، لقد كانت حقيقة. أنا لا أمارس الدعاية أبداً، أنا أروي كل شيء كما كان. لقد نسوا كل شيء... كثيرون انتسبوا إلى الحزب بضمائرهم وليس من أجل المناصب أو من أجل اعتبارات براغماتية: إذا كنت غير حزبي وسرقت- يعتقلونني، أما إذا كنت حزبياً وسرقت- يطردونني من الحزب ولكنهم لا يعتقلوني. أنا أستاء عندما ينظرون إلى الماركسية باحتقار واستهزاء. بل وعلى الأكثر يحيلونها إلى سلة المهملات! إلى القمامة! إنها نظرية عظيمة، وستتغلب على جميع الاضطهادات. وكذلك فشلنا السوفييتي. لأنه ثمة أسباب كثيرة... الاشتراكية ليست مجرد معسكرات اعتقال وتقارير أمنية وستار حديدي، إنها هي أيضاً عالم واضح عادل: يتشارك في كل شيء، يدافع عن الضعفاء وينصرهم، ولا يستأثر لنفسه بكل شيء. يقول كثيرون: كان من المستحيل شراء سيارة، ولكن لم يكن هناك سيارات عند كل واحد. لم يكن هناك من يرتدي بذلة من صنع فيرساتشي، ولم يشتر أحد بيتاً له في جزر ميامي. يا إلهي! زعماء الاتحاد السوفييتي كانوا يعيشون على مستوى رجال الأعمال المتوسطين، ولم يصلوا أبداً إلى مستوى الأوليغارشي. كانوا ضعفاء مادياً. لم يشيدوا لأنفسهم يخوتاً وحمامات بدوش الشمبانيا. تصوروا: في التلفزيون يبثون إعلانات: اشتروا بانيوهات نحاسية قيمتها تعادل قيمة شقة بغرفتين. قولي، لمن هذا كله؟ مسكات الأبواب ذهبية... أهذه هي الحرية؟ الإنسان الصغير العادي- إنه

لا أحد، إنه – صفر. في قاع الحياة. في الزمن السوفييتي كان يمكنه الكتابة إلى الصحيفة، ورفع شكوى إلى لجنة الحزب المنطقية: على رئيسه أو على الخدمة السيئة... على زوج خائن... لا أنفي، كانت هناك سخافات، ولكن من يسمع اليوم لصوت هذا الإنسان الصغير البسيط اليوم؟ ومن يسأل عنه؟ تذكرين أسماء الشوارع السوفييتية– شارع السباكين، شارع المتحمسين... شارع المعمل البروليتاري... الإنسان الصغير كان هو الشخصية الرئيسة... هذا كان ستاراً، إعلاناً دعائياً، كما تقولين، أما الآن، لا حاجة لأحد إلى أن يختبئ. لا يوجد لديك مال– اذهب إلى الجحيم! تحت المقعد! لقد بدلوا أسماء الشوارع: الشارع البرجوازي، شارع الباعة، شارع النبلاء...، ونبيذ "الجنرال". إنه تقديس المال والنجاح. الحياة للأقوى، ذي العضلات الحديدية. ولكن، ليس الجميع قادرين على السير فوق رؤوس الناس، وخطف اللقمة منْ الآخر. فبعضهم لا تسمح لهم طبيعتهم من فعل ذلك، وآخرون يشمئزون من فعل ذلك.

معها... (تشير برأسها إلى صديقتها) نتناقش ونتجادل بالطبع... إنها تثبت لي أن الاشتراكية الحقة في حاجة إلى أشخاص مثاليين، ولا وجود لهم. الفكرة هي هذيان... حكاية... إن إنساننا لن يقدم بأي شكل من الأشكال على استبدال سيارته الأجنبية وجواز سفره مع تأشيرة "شينغين" الأوروبية بالاشتراكية السوفييتية. أما أنا فأؤمن بشيء آخر: إن الإنسانية تسير باتجاه الاشتراكية. باتجاه العدالة. وليس هناك من طريق آخر. انظري إلى ألمانيا... إلى فرنسا... ثمة أيضاً نموذج سويدي. فما هي قيم الرأسمالية الروسية؟ احتقار "الناس الصغار"... احتقار من ليس لديه الملايين وليس لديه سيارة "المرسيدس". بدلاً من العلم الأحمر – المسيح قام! وتقديس الاستهلاك... حيث ينام الإنسان ليس على فكرة سامية، بل على ما لم

يستطع شراؤه اليوم. هل تظنين أن البلاد السوفييتية انهارت لأننا عرفنا حقيقة معسكر اعتقال غولاغ؟ هكذا يظن من يؤلف الكتب. أما الإنسان... الإنسان العادي لا يعيش بالتاريخ، بل يعيش بطريقة أبسط: أحبَّ، تزوجَ، رُزق بأطفال، بنى بيتاً. هل انهارت البلاد بسبب نقص الجزمات النسائية وأوراق التواليت، ولعدم وجود برتقال. ولعدم وجود سراويل الجينز اللعينة! إن محلاتنا التجارية الآن أشبه بالمتاحف، بالمسارح. ويريدون إقناعي بأن ألبسة فيرساشي وآرماني هي كل ما هو ضروري للإنسان. وأن هذا يكفيه. فالحياة هي أهرامات مالية وسندات. والحرية هي المال، والمال هو الحرية. وأن حياتنا لا تساوي قرشاً. وهذا... وذاك... أتفهمين؟ حتى أنني لا أجد الكلمات، وكيف أسمي الأشياء... إنني أشفق على أحفادي الصغار. أشفق عليهم. يغرسون في رؤوسهم هذا كل يوم بالتلفزيون. أنا غير موافقة. كنت وسأبقى شيوعية.

نأخذ استراحة طويلة. مشروبنا هو الشاي نفسه، وفي هذه المرة مع مربى الكرز، المحضّر بوصفة زبة البيت الخاصة.

العام التاسع والثمانين... كنت بحلول هذه الفترة السكرتير الثالث للجنة الحزب المنطقية. أخذوني إلى العمل السياسي من المدرسة، كنت أدرِّس اللغة الروسية والأدب الروسي. أدرّس كاتبيَّ المفضلين: تولستوي وتشيخوف... عندما عرضوا عليَّ هذا المنصب، شعرت بالخوف من هذه المسؤولية الكبيرة. لم أتردد لحظة واحدة، كان لدي تطلع صادق لخدمة الحزب. في ذلك الصيف، جئت إلى بلدتي لقضاء الإجازة. عادة، أنا لا أرتدي أية مجوهرات، أما آنذاك فقد اشتريت عقداً من الخرز وارتديته، فما إن رأته أمي حتى قالت: «أنت، كالقيصرة». وأُعجبت بي... ليس بسبب العقد! أبي قال لي: «لن يأتي لعندك إلى المكتب أحد منا، ولن يطلب أي

طلب. عليك أن تكوني طاهرة، نقية أمام الناس». كان والداي يفتخران بي! كانا سعيدين! أما أنا... أنا ماذا كنت أعاني؟ هل كنت أؤمن بالحزب؟ أجيب بصدق: نعم كنت أؤمن. وما زلت أثق به. ولا تفارقني بطاقتي الحزبية، مهما حصل. هل كنت أؤمن بالشيوعية؟ سأجيب بصدق ولن أكذب: لقد كنت أؤمن بإمكان تحقيق المجتمع العادل. والآن... سبق أن أجبت... نعم أؤمن. سئمت من الأحاديث التي تتشدق بالحديث عن حياتنا السيئة في ظل الاشتراكية. إنني أعتز بالزمن السوفييتي. لم تكن هناك حياة مرفهة، ولكن كانت حياة عادية طبيعية. كان هناك حب وصداقة... فساتين وأحذية... كنا نصغي بشغف وشوق إلى الكتّاب والممثلين والفنانين، وقد أقلعنا الآن عن هذا. فقد شغل السّحَرَة والوسطاء الروحيون مكان الشعراء في الملاعب والمدرجات. ويصدقون السّحَرَة والدجالين كما في أفريقيا. حياتنا السوفييتية... لقد كانت محاولة لمدنية بديلة، إن صح التعبير. وإذا ما تحمست فأقول... كانت سلطة الشعب! لا يمكنني الاطمئنان الآن! أين يمكنك أن تري اليوم الحلاّبات، والخراطين، وميكانيكي المترو؟ لا وجود لهم، لن تريهم لا على صفحات الصحف، ولا على شاشات التلفزيون، ولا في الكرملين، حيث كانوا يقلدونهم الأوسمة والميداليات. لا وجود لهم الآن في أي مكان. الآن أبطال جدد في كل مكان: مصرفيون ورجال أعمال، موديلات وبائعات الهوى... مديرون... قد يمكن للشباب أن يتكيفوا مع الوضع الجديد، أما كبار السن فعليهم أن يموتوا بصمت، خلف أبواب مغلقة. يموتون من البؤس والفقر والنسيان. راتبي التقاعدي هو خمسون دولاراً (تضحك). وقد قرأت أن راتب غورباتشوف التقاعدي أيضاً خمسون دولاراً... يقولون عنا نحن الشيوعيون: «لقد عاش الشيوعيون في القصور وكانوا يأكلون الكافيار بالملاعق. لقد بنوا شيوعية لأنفسهم». يا إلهي! لقد اقتدتك إلى "قصوري" - شقة صغيرة عادية تتألف

من غرفتين، مساحتها سبعة وخمسون متراً مربعاً. لم أُخفِ أي شيء: لا الكريستال السوفييتي ولا الذهب السوفييتي...

– وماذا عن المستوصفات الخاصة، والحصص الخاصة، و"طوابيركم" النموذجية للحصول على الشقق والفيلاّت الحكومية... وبيوت الاستجمام والمنتجعات الحزبية؟

– صدقاً؟ أجل، كانت... كانت... لكن أكثرها هناك (ترفع يدها إلى الأعلى). بيد أنني أنا دوماً كنت في الأسفل، الحلقة الأدنى والسفلى من السلطة. كنت في الأسفل، على مقربة من عامة الشعب، ودوماً على مرأى منه. ربما أصابني منها شيء... لا أجادل... لا أنفي! مثلك، قرأت مثلك في صحف البيريسترويكا... أن أولاد أمناء اللجنة المركزية كانوا يركبون الطائرات للصيد في أفريقيا. وكانوا يشترون الماس والمجوهرات الثمينة... على أية حال، لا يمكن مقارنتهم بحياة "الروس الجدد" الآن. وبقصورهم ويخوتهم. انظري ماذا شيدوا حول موسكو. قصور فارهة! أسيجة حجرية ارتفاعها مترين، أسلاك شائكة مكهربة، مراقبة دائمة بالفيديو، حرّاس مسلحون. كما لو كنتِ في منشأة سرية أو منطقة عسكرية. ماذا هناك؟ هل يقيم فيها بيل غيتس عبقري الكومبيوتر؟ أو غاري كاسباروف بطل العالم في الشطرنج؟ فيها يقيم المنتصرون. كأنه لم تكن هناك حرب أهلية، ولكن هناك منتصرون. إنهم هناك خلف الأسوار الحجرية. ممن يختبئ المنتصرون؟ من الشعب؟ كان الشعب يظن، أنه سيُطرد الشيوعيين ويحل الزمن الرائع. حياة الفردوس. بدلاً من الناس الأحرار ظهر هؤلاء بملايينهم وملياراتهم... سفاكون، مصاصو دماء! يطلقون النار في وضح النهار... حتى أنهم دمروا شرفة أحد رجال الأعمال. لا يخشون أحداً. يطيرون بطائراتهم الخاصة ذات المغاسل المذهبة، ويفتخرون بذلك. رأيت بعيني على شاشة التلفزيون... أحدهم عرض ساعة يده التي يبلغ

ثمنها ثمن طائرة حربية قاذفة. وآخر عرض هاتفه الجوال المزين بالماس. ولن يصرخ أحد بصوته في روسيا كلها، بأن هذا معيب. هذا شناعة. يوماً ما كان الكاتبان الروسيان أوسبينسكي وكورولنكو. الكاتب الكبير شولوخوف كتب رسالة لستالين دفاعاً عن الفلاحين. والآن أنا أريد... أنتِ سألتني، وأريد أن أسألك بدوري: أين نُخْبتنا؟ لماذا أقرأ كل يوم في الصحف رأي الأوليغارشيين بيريوزوفسكي وبوتانين، في أي موضوع، ولا أسمع رأي الكتّاب مثل أكودجافا... وفاضل إسكندر... كيف حدث أنكم تنازلتم عن مكانكم وموقعكم، عن منبركم... وكنتم أول من يركض إلى موائد الأوليغارشيين خدمة لهم؟ إن الانتليجينتسيا الروسية في السابق لم تركض إلى الموائد ولم تخدم. أما الآن فلم يبق أحد- لا أحد أبداً، كي يتحدث عن الروح، سوى القس والخوري. أين رجال البيريسترويكا؟

لدى الشيوعيين من أبناء جيلي لم يكن هناك إلا القليل مما يجمعهم ببافكا كورتشاغين[1]، وبالبلاشفة الأوائل الذين كانوا يحملون الحقائب والمسدسات. ولم يبق من هؤلاء إلا بعض التعابير العسكرية مثل "جنود الحزب"، و"جبهة العمل"، و"معركة من أجل المحصول". نحن لم نعد نشعر بأننا جنود الحزب، لقد كنا خدم الحزب. كَتَبَة الحزب. كان هناك الطقس التالي: المستقبل المنير، في قاعة الأنشطة كانت صورة لينين معلقة، وفي الزاوية كانت تُعلق الراية الحمراء. إنه طقس، شعيرة، مراسم... لم تعد هناك حاجة إلى الجنود، كانت هناك حاجة لمنفذين: «هيا – هيا»، وفي حالة الرفض: «ضع بطاقتك الحزبية على الطاولة». صدر الأمر – أنجز، بلِّغ. إن الحزب ليس هيئة أركان حربية، بل هو جهاز. آلة. آلة بيروقراطية. كان هناك القليل في الجهاز الحزبي من أصحاب الاختصاصات في

---

(1) بافكا كورتشاغين: هو بافل كورتشاغين البطل الرئيس في قصة الكاتب السوفييتي أوسترفسكي «والفولاذ سقيناه» – المترجم.

العلوم الإنسانية، فالحزب لم يكن يثق بهم منذ أيام لينين الذي كتب عن طبقة المثقفين: «إنهم ليسوا بدماغ الأمة، إنهم خراؤها». كان هناك القليل من أمثالي، المختصين بعلوم اللغات. كانت تُصقل الكوادر الحزبية من المهندسين، والميكانيكيين الزراعيين، من أولئك الذين يتعلق اختصاصهم بالمكنات والآلات، واللحوم والحبوب وليس الإنسان. وكانت المعاهد العليا الزراعية هي بياطرة الكوادر الحزبية. كان الحزب في حاجة إلى أبناء العمال والفلاحين من أبناء الشعب. وكان يصل الأمر إلى حد مضحك: فقد كان في الإمكان أخذ الطبيب البيطري للتفرغ للعمل الحزبي، أما الطبيب البشري المعالج - لا. لم أقابل كوادر حزبية من الشعراء الغنائيين أو من علماء الفيزياء. وماذا أيضاً؟ الترقي والرتب، كما في الجيش... الارتقاء إلى الأعلى بطيء للغاية، درجة فدرجة: محاضر في لجنة الحزب المنطقية أولاً، ثم مدير مكتب... موجه... سكرتير ثالث... سكرتير ثاني... أنا اجتزت جميع هذه الدرجات خلال عشر سنوات. الآن تدير البلاد الكوادر العلمية الشابة، ومدراء المخابر، وقد يصبح رئيس الكولخوز أو الكهربائي رئيساً للبلاد. بدلاً من الكولخوز - البلد كله! أهذا يمكن أن يحدث في الثورة وحدها؟ (سؤال- طَرَحته إما عليَّ أو على نفسها) لا أدري، كيف يمكن تسمية ما حدث في العام الحادي والتسعين...

أهي ثورة أم ثورة مضادة؟ لا أحد يحاول حتى تفسير هذا وفي أي بلد نحن نعيش. ماهي الفكرة السامية لدينا عدا عن المرتديلا؟ ماذا نبني... ننطلق إلى الأمام - نحو انتصار الرأسمالية. هكذا؟ لقد كنا نشتم الرأسمالية وننقدها طيلة مئة عام: المسخ... الوحش. أما الآن فنحن نفخر أنه سيكون لدينا كما هو لدى الجميع. إذا ما أصبحنا كالجميع فمن سيهتم بنا؟ نحن الشعب- حامل الراية الإلهية... أمل البشرية التقدمية (بسخرية). لدى الجميع تصور عن الرأسمالية تماماً كتصورهم بالأمس عن الشيوعية.

أحلام؟ يحاكمون ماركس... يحمّلون الذنب للفكرة... الفكرة القاتلة! أما أنا، فأحمل المسؤولية للمنفذين. كانت عندنا ستالينية وليس شيوعية. أما الآن فليس عندنا اشتراكية ولا رأسمالية. وليس عندنا النموذج الشرقي ولا النموذج الغربي. ليس عندنا لا إمبراطورية ولا جمهورية. نثرثر... كيف... أصمتُ... ستالين! ستالين! يدفنونه... يدفنونه... ولا يتمكنون من دفنه. لا أعرف كيف الوضع في موسكو، أما عندنا فصوره معلقة على زجاج السيارات والباصات. سائقو الشاحنات يحبونه بشكل خاص. في بزة الجنرال العسكرية... إنه الشعب! الشعب! وماذا بالنسبة إلى الشعب؟ الشعب قالها بنفسه ولنفسه: سنجعل منه هراوة وأيقونة. مثله مثل الخشبة... ما تفعله بها هو ما ستكونه... إن حياتنا تتقلب بين الكوخ والفوضى. وعقرب الساعة الآن في الوسط بينهما... نصف روسيا ينتظر قدوم ستالين جديد. سيأتي وسيؤمّن النظام (تلوذ بالصمت من جديد) عندنا... في لجنة الحزب المنطقية، كان هناك أيضاً حديث عن ستالين. إنها الأسطورة الحزبية... يتناقلونها من جيل إلى آخر. الجميع كانوا يحبون الحديث حول كيف كانوا يعيشون في عهد السيد... كانت الأنظمة الستالينية على النحو التالي: على سبيل المثال، كانوا يوزعون على رؤساء قطاعات اللجنة المركزية الشاي مع السندويش، أما على المحاضرين فيوزعون الشاي وحده. أوجدوا مرتبة نائب رئيس القطاع. كيف العمل؟ وقرروا أن يقدموا لهم الشاي بدون سندويش ولكن مع محرمة بيضاء. على هذا النحو، تم تمييزهم... تسلقوا إلى جبل الأولمب نحو الآلهة، نحو الأبطال. الآن يجب عليهم أن يتقاربوا ليجدوا لأنفسهم أمكنة أمام المنسف-المعلف... هكذا كان في عهد قيصر، وفي عهد بطرس الأول، وهكذا سيبقى دائماً. تغنّوا بديمقراطييكم... استولوا على السلطة وانطلقوا ركضاً- إلى أين؟ إلى قرن الخصب والوفرة. إن العلف قد قضى على أكثر

من ثورة. أمام أعيننا... حارب يلتسين الامتيازات، ودعا نفسه ديمقراطياً، أما الآن فهو يفضل عندما يلقبونه بالقيصر بوريس. لقد أصبح عرآباً.

أعدت قراءة "الأيام اللعينة" للكاتب إيفان بونين، (تُخرج من الرف كتاباً، تعثر فيه الصفحة المؤشرة بالمطوية وتقرأ): أذكر عاملاً كبير السن أمام بوابة المنزل، حيث كانت سابقاً صحيفة "أخبار أوديسا"، في اليوم الأول لسلطة البلاشفة. وفجأة خرجت من البوابة مجموعة من الصبية برزمة من صحيفة "الإزفستيا" التي طُبعت لتوها، وهم يصرخون: «فرض غرامة على بورجوازيي أوديسا مقدارها 500 مليون!». شخر العجوز، وبلع ريقه من الغضب والشماتة قائلاً: «هذا قليل! قليل!». ألا يذكِّرك هذا بشيء؟ إنه يذكرني أنا... يذكرني بسنوات غورباتشوف... وحركات التمرد الأولى... عندما بدأ الشعب يتجمع في الساحات ويطالب بالخبز تارة، وبالحرية تارة أخرى... بالفودكا والسجاير... الخوف! لقد ظهرت إصابات وسكتات قلبية لدى كثير من العاملين الحزبيين. وكما كان يعلِّمنا الحزب "في وسط الأعداء" كانوا يعيشون في "القلعة المحاصرة". كنا نستعد للحرب العالمية ونتهيأ... وأكثر شيء كنا نخافه هو الحرب النووية، أما الانهيار فلم نتوقعه... أبداً... لقد اعتدنا على احتفالات الأول من أيار/ مايو وحشود الناس في عيد ثورة أكتوبر، اعتدنا على يافطات: "قضية لينين ستعيش قروناً"، و"الحزب قائدنا" أما الآن فليست هناك مسيرات منظمة بل فوضى عارمة. ليس هذا الشعب السوفييتي الذي نعرفه بل شعب آخر لا نعرفه. واليافطات مغايرة: "الشيوعيون إلى المحاكمة!"، "سنقضي على حزب العلوج الشيوعي!" وتذكرت على الفور نوفوتشركاسك... كانت الأخبار محظورة، لكننا كنا نعرف كيف خرج العمال الجائعون في عهد خروتشوف إلى الشوارع... ورموهم

بالرصاص الحي... ومن بقي حياً منهم وزعوهم على معسكرات الاعتقال، وحتى الآن لا يعرف أقاربهم وأهلهم أين هم وماذا حل بهم... أما الآن... الآن زمن البيريسترويكا... ويُحظر القتل وكذلك الاعتقال. يجب محاورتهم، ومن منّا يمكنه أن يخرج إلى الحشود ويلقي كلمة؟ ويبدأ الحوار... وينشر الأفكار... نحن كنا عاملين في الأجهزة الحزبية ولسنا خطباء. أنا، على سبيل المثال، كنت ألقي المحاضرات وأهاجم الرأسمالية، وأدافع عن السود في أمريكا. وفي مكتبي كانت توجد مؤلفات لينين الكاملة... في خمسة وخمسين مجلداً... ولكن من قرأه قراءة حقيقية؟ كانوا يقلبون مؤلفاته في المعاهد العليا قبيل الامتحانات: "الدين أفيون الشعوب" و"كل إله هو جيفة".

كان هناك خوف وذعر حقيقي... المحاضرون، والأمناء في لجان الحزب المنطقية وفي الأقاليم - جميعنا كنا نخاف من التوجه إلى العمال في المصانع، وإلى الطلاب في بيوت الطلبة. كنا نخاف عندما ترنّ أجراس الهواتف. فقد يسألونا عن ساخاروف أو بوكوفسكي... بماذا نجيب؟ هل هما من أعداء السلطة السوفييتية أم لا؟ ما هو تقييمنا لرواية "أولاد حي آربات" لريباكوف أو لمسرحيات شاتروف؟ لم يرِدنا أي أمر من الأعلى... سابقاً كانوا يقولون لكِ: أنت نفذت المطلوب، وطبقت اتجاه الحزب عملياً. أما هنا: المعلمون يُضربون، يطالبون بزيادة رواتبهم، مخرج مسرحي ناشئ يجري البروفات على مسرحية محظورة في نادي مصنع من المصانع... يا إلهي! في أحد مصانع الكرتون نقل العمال مديرهم على عربة المصنع. كانوا يصرخون، ويكسرون الزجاج. ليلاً ربطوا تمثال لينين بحبل حديدي وأسقطوه. وأشاروا إليه بأصابعهم الوسطى. لقد أصيب الحزب بالذعر والجبن... أنا أذكر الحزب المذعور... كنا نجلس في مكاتبنا ونسدل الستائر. كان يناوب أمام مدخل بناء لجنة الحزب المنطقية

مجموعة كبيرة من رجال الشرطة. لقد خفنا من الشعب، أما الشعب فقد كان يخافنا حسب مبدأ العطالة، بصورة لا شعورية. ثم زال خوف الشعب منا... كان يجتمع في الساحات آلاف عديدة من الناس... حفظتُ يافطة تقول: "ستعود سنة 1917، ستعود الثورة!" لقد أصبت بالذهول. كان يقف معهم صبية صغار، فتيان... ذات مرة جاء إلى لجنة الحزب المنطقية وفد من المضربين وصاحوا: «تعالوا خذونا إلى مخزنكم التجاري الخاص! إنه يحتوي على كل شيء بوفرة، أما أطفالنا فيسقطون على الأرض في أثناء الدراسة جوعاً». لم يعثروا في مخزننا الصغير على أية معاطف من الفراء ولا على الكافيار، ومع ذلك فهم لم يصدقونا: «إنكم تخدعون الشعب البسيط». لقد تحرك كل شيء. كل شيء تقلقل. كان غورباتشوف ضعيفاً. كان يناور. وكأنه يؤيد الاشتراكية... بينما يتطلع هو إلى الرأسمالية... كان يفكر أكثر في أن يكون محبوباً في أوروبا وفي أمريكا. هناك كانوا يصفقون له: «غوربي! غوربي! نعم يا غوربي!». أفرط في الكلام عن البيريسترويكا... (تلوذ بالصمت).

لقد كانت الاشتراكية تموت أمام أعيننا. وجاء هؤلاء الصبية الحديديون.

آنا إيليتشنا:

– حدث هذا منذ فترة قريبة، لكنه حدث في زمن آخر... في عهد آخر... في بلد آخر... بقيت هناك سذاجتنا، ورومنسيتنا، وسرعة تصديقنا. هناك من لا يريد أن يتذكر هذا، لأنه غير مريح، لقد أُصبنا بخيبات أمل كثيرة. ولكن، من قال إنه لم يتغير شيء؟ كان من المحظور نقل كتاب العهد القديم عبر الحدود. هل نسيتم هذا؟ نقلت كهدية لأقربائي في كالوغا الطحين والمعكرونة من موسكو. وكانوا سعداء. هل نسيتم؟ لم

يعد هناك من يقف في الطابور لشراء السكر والصابون. ولا وجود لبطاقات تموينية لشراء المعاطف.

لقد أحببت غورباتشوف على الفور! والآن يصبون عليه اللعنات: «خائن الاتحاد السوفييتي»، «غورباتشوف باع البلد مقابل البيتزا!». لكنني أذكر استغرابنا، وذهولنا! أخيراً، أصبح لدينا زعيم عادي طبيعي. لا نخجل منه! يروي أحدنا الآخر، كيف أنه في لينينغراد خرج من سيارته الرئاسية والتقى الشعب، واختلط به، وفي أحد المصانع رفض قبول هدية ثمينة. وفي أثناء سهرة رسمية تقليدية رفض تناول أي مشروب كحولي وشرب الشاي وحده. إنه يبتسم دائماً، يلقي خطبته بدون ورقة مكتوبة. لا يزال شاباً. لم يصدق أحد منا أن السلطة السوفييتية ستنتهي يوماً ما، وستباع المرتديلا في المحلات الغذائية، وأنه لن يتشكل طابور طوله كيلومتر لشراء حمالات الصدر المستوردة. اعتدنا أن نؤمِّن كل شيء من خلال معارفنا: التسجيل في الاشتراك بـ"مكتبة الأدب العالمي"، والحلوى بالشوكولا، والبذلات الرياضية المصنوعة في ألمانيا الديمقراطية. كنا مضطرين إلى مصادقة بائع اللحم من أجل شراء قطعة من اللحم. كانت تبدو لنا السلطة السوفييتية أبدية. وسيعيشها أبناؤنا وأحفادنا! لكنها انتهت بصورة مفاجئة لنا جميعاً. وقد اتضح الآن، أن غورباتشوف نفسه لم يرد هذا، فقد كان يريد تغييراً ما في النظام، لكنه لم يعرف كيف. لم يكن أحد مهيأً. أبداً! حتى أولئك الذين حطموا هذا الجدار. أنا عاملة فنية عادية. لست بطلة، أبداً... ولست شيوعية. وبفضل زوجي، وهو فنان تشكيلي، دخلت إلى الوسط البوهيمي. شعراء، فنانون، رسامون... ولم يكن بيننا أبطال، ولم يكن لدى أحد منا ما يكفي من الجرأة كي يصبح منشقاً، والمكوث في السجن أو في مستشفى الأمراض العقلية بسبب قناعاته. وعشنا بجيوب فارغة.

كنا نجلس في المطابخ، نشتم السلطة السوفييتية ونتصيد النكات

والطرائف. نقرأ الكتب المحظورة. وإذا ما حصل أحدنا على كتاب جديد، كان يمكنه القدوم إلى بيت أصدقائه في أي وقت من الأوقات، حتى ولو في الساعة الثانية أو الثالثة ليلاً، فهو ضيف محبب ومطلوب. أنا أذكر جيداً حياة موسكو الليلية السابقة، الخاصة... كان فيها أبطالها... وجبناؤها وخوّانها... وكانت فيها بهجتها! ومن المستحيل شرح هذه البهجة للإنسان الذي لم يعشها. بادئ ذي بدء، لا يمكنني تفسير بهجتنا. ولا يمكنني تفسير شيء آخر... حياتنا الليلية تلك... إنها لا تشبه أبداً حياتنا النهارية. وفي الصباح، كنا جميعاً نذهب إلى العمل صباحاً ونغدو مواطنين سوفيتيين عاديين. مثلنا مثل الآخرين. كنا نكدح من أجل النظام. فإما أنت مُمتثل متقبل، وإما عليك أن تعمل كناساً أو حارساً، وليس هناك من طريقة أخرى لتحمي نفسك. نعود من العمل إلى بيوتنا... ومن جديد، كنا نشرب الفودكا في المطابخ، ونسمع أغاني فيسوتسكي المحظورة. ونولِّف الراديو من خلال التشويش على "صوت أمريكا". ما زلت حتى الآن أذكر ذلك التشويش الرائع. ونلفق قصص الحب التي لا تنتهي. ونقع في الحب، ونتطلّق. وكثير منا كانوا خلال ذلك يشعرون بأنفسهم بأنهم ضمير الأمة، ويرون أنه يحق لهم تعليم شعبهم. ولكن، ماذا كنا نعرف عن شعبنا؟ نعرف عنه ما قرأناه في رواية "مذكرات صياد" للكاتب الروسي تورغينيف ولدى "المتخلفين" منا. لدى الكتاب مثل راسبوتين... وبيلوفا... حتى أنني لم أكن قادرة على فهم والدي. كنت أصرخ في وجهه: «بابا، إذا لم تُعِد لهم بطاقتك الحزبية، فلن أتكلم معك أبداً». كان أبي يبكي.

كان لدى غورباتشوف سلطة أكثر من سلطة القيصر. سلطة مطلقة، غير محدودة. وجاء غورباتشوف وقال: «لا يمكننا العيش مستقبلاً على هذا النحو». تلك هي جملته الشهيرة. وتحول البلد إلى نادٍ للحوار والنقاش. كنا نتحاور في البيت، في العمل، في وسائل المواصلات. تحطمت أسر

بسبب اختلاف وجهات النظر، تنازع الأبناء مع الآباء. إحدى صديقاتي تنازعت مع ابنها وكنّتِها بسبب لينين، وطردتهما من البيت إلى الشارع، حيث عاشا شتاء خارج المدينة في البيت الريفي البارد. المسارح فرغت من روادها، الجميع كانوا يجلسون في شققهم أمام شاشات التلفزيون. كانت تُبث تقارير مباشرة من المؤتمر الأول لنواب الشعب في الاتحاد السوفييتي. وقبل هذا كانت قد عُرضت على شاشات التلفزيون القصة الكاملة لكيفية اختيارنا لهؤلاء النواب. فهي كانت الانتخابات الحرة الأولى! إنها كانت انتخابات حقيقية! في منطقتنا الانتخابية كان لدينا مرشحان: أحد العاملين الحزبيين وشاب ديمقراطي، مدرس في الجامعة. ما زلت أذكر كنيته: ماليشيف... يورا ماليشيف. وهو الآن، كما عرفت بالصدفة، يعمل في الهندسة الزراعية، يتاجر بالبندورة والخيار، أما آنذاك فقد كان ثورياً! كان يلقي الخطب ويقول أشياء تحريضية مثيرة للفتن! كان يدعو الأدبيات الماركسية بالأدبيات الخفيفة، النفتالينية... وطالب بتغيير المادة السادسة من الدستور، الخاصة بالدور القيادي للحزب الشيوعي السوفييتي، وهي حجر الأساس للماركسية-اللينينية... كنت أصغي إليها، ولم يكن في استطاعتي تصور ذلك. إنه هذيان! ومن يسمح بتغييرها، أو المس بها؟ سينهار كل شيء... إنها مشابك مترابطة... نعم، جميعنا كنا في هذه الغيبوبة. لقد اعتصرتُ الإنسان السوفييتي من نفسي أعواماً طويلة، بالدِّلاء كنت أغرفه من نفسي بالدلاء (تلوذ بالصمت) فريقنا... كنا نحو عشرين متطوعاً مساعداً، كنا بعد انتهاء يوم العمل نقوم بجولات على الشقق في منطقتنا ونبث دعايتنا. ونوزع اليافطات والمناشير: «صوِّت لماليشيف!». وتصوري، لقد فاز! بأغلبية أصوات كبيرة. كان هذا نصرنا الأول! وبعدها تعلقنا جميعنا بالتقارير المباشرة من المؤتمر، حيث كان النواب يتحدثون بصراحة أكثر من أحاديثنا في المطابخ. أو على مقربة

منها. كان الجميع معلقين أمام شاشات التلفزيون، كالمدمنين المهووسين. لم يكن في استطاعتنا الابتعاد عنها. الآن سيرد عليه النائب ترافكين! أجل، بالضبط. وماذا يقول بولديريف؟ الآن سيتكلم... أحسنت!

كنا متعلقين تعلقاً لا يمكن وصفه بالصحف والمجلات، وبالدوريات عموماً أكثر من الكتب. كانت أعداد "المجلات السميكة" تفوق المليون نسخة. صباحاً في المترو تطالعك كل يوم لوحة لا تتغير: كل من في العربة يجلس ويقرأ. وكذلك كل الواقفين. يتبادلون الجرائد فيما بينهم. أناس غير متعارفين، لا يعرف أحدهم الآخر. أنا وزوجي سجلنا أسماء عشرين مجلة، دفعنا راتبنا الشهري كله للاشتراك فيها. بعد انتهاء عملي كنت أسرع إلى البيت، كي أرتدي ردائي المنزلي وأقرأ. منذ فترة قصيرة، توفيت والدتي، كانت تقول: «أنا أموت كالفأرة في القمامة». كانت شقتها الصغيرة المؤلفة من غرفة واحدة تشبه قاعة المطالعة: المجلات والصحف ربطات كبيرة على رفوف الكتب، وفي الخزانة، على الأرض وفي الممشى. المجلات القيمة مثل "العالم الجديد"، "الراية"، "داوغافا"... في كل مكان قصاصات الدوريات في علب. لقد نقلتُ جميع هذه العلب إلى البيت الريفي. فرميها مؤسف، ولمن أعطيها؟ نسلمها لمعامل الورق الآن؟ وكلها قصاصات مقروءة وأعيد قراءتها. ووُضعت خطوطاً كثيرة باللونين الأحمر والأصفر. ووضعت الخطوط الحمر على الأهم. أظن وزنها يبلغ نصف طن، وقد غص البيت الريفي بها.

اعتقادنا كان صادقاً... وإيماننا ساذجاً... لقد صدقنا أننا الآن سنركب الباصات التي تنتظرنا في الشارع لتنقلنا إلى الديمقراطية. سوف نقيم في مساكن جميلة، وليس مساكن "خروتشوفية" رمادية، سوف نشيد طرق أوتوستراد سريعة بدلاً من طرقنا المحفرة الضيقة، وسنصبح كلنا أكثر طيبة. لم يبحث أحد منا عن أدلة عقلانية. وهي لم تكن موجودة. وما حاجتنا

إليها؟ كنا نؤمن بقلوبنا وليس بعقولنا. وانتخبنا في مراكز الانتخاب بقلوبنا. لم يحدثنا أي من المرشحين ماذا علينا أن نفعل: الحرية، هي كل شيء. إذا كنت واقفاً في مصعد مغلق فأمنيتك الوحيدة... أن يُفتح المصعد. وتحل عليك السعادة ما إن تُفتح أبوابه. إنها نشوة! أنت لا تفكر فيما عليك الآن أن تفعله... أخيراً أنت تتنفس بملء رئتيك... فأنت الآن سعيد! صديقتي تزوجت من فرنسي، كان يعمل في السفارة الفرنسية بموسكو. وكان يسمع منها باستمرار العبارة التالية: انظر، أية طاقة كبيرة عند الروس، عندنا! «اشرحي لي، ومن أجل ماذا هذه الطاقة؟»، كان زوجها يسألها. ولم تستطع أن تشرح له شيئاً. أجبته أنا بقولي: لدينا طاقة. هذا كل شيء. لقد رأيت من حولي أناساً أحياء، نشيطين، بوجوه حية. كما كانوا جميلين، جميعهم، في ذلك الزمن! ومن أين أتى هؤلاء الناس؟ بالأمس فقط، لم يكن لهم وجود!

لم نكن نغلق التلفاز في بيتنا أبداً... كنا نتابع برنامج "الأخبار" كل ساعة. كنت قد ولَدت صبياً منذ فترة قصيرة، كنت أخرج معه إلى ساحة البناء للنزهة، مصطحبة راديو ترانزستور. الناس كانوا يتنزهون مع كلابهم مصطحبين أجهزة الترانزستور. ونضحك الآن مع ابننا: أنت منذ طفولتك منغمس في السياسة، وهي تروقه وتهمه فعلاً. يصغي إلى الموسيقى، يتعلم اللغات. والآن يريد رؤية العالم. إنه يعيش مختلفاً عنا. فأبناؤنا لا يشبهوننا. فمن يشبهون إذاً؟ إنهم يشبهون زمنهم، عصرهم، يشبه أحدهم الآخر. أما نحن آنذاك... آه، ثم آه! الآن النائب سوبشاك يلقي كلمته في المؤتمر... الجميع يتركون أعمالهم ويتجمعون أمام شاشة التلفزيون. كان يروقني أن سوبشاك كان يرتدي سترة جميلة مخملية، كما أظن، ويربط ربطة عنقه على "الطريقة الأوروبية". العالِم المنشق ساخروف على المنصة... هل هذا يعني أن اشتراكيتنا قد يكون لها "وجه إنساني"؟ ها هو ذا... بالنسبة إليَّ، كان هذا الوجه هو وجه الأكاديمي ليخاتشوف، وليس الجنرال

ياروزلسكي. لو أنني نطقت باسم "غورباتشوف"، فإن زوجي كان يضيف على الفور «غورباتشوف... ورائيسا مكسيموفنا[1] أيضاً». كانت هذه المرة الأولى التي نرى فيها زوجة الأمين العام للحزب الشيوعي، لا يستحي منها زوجها. قوام جميل، حسنة الهندام. يحب أحدهما الآخر. أحدهم أحضر لنا مجلة بولونية، وقد جاء فيها أن رائيسا زوجة غورباتشوف "شيك" - أنيقة! كم افتخرنا بها! مسيرات لا تنقطع... كانت الشوارع غارقة في المناشير. تنتهي مسيرة لتبدأ مسيرة أخرى. كان الناس يسيرون ويسيرون، وكل منا كان يظن أنه سيصل إلى هناك حيث سيلقى هناك وحياً أو إلهاماً ما. الآن الناس القويمون سيعثرون على الأجوبة القويمة... كانت تنتظرهم في المستقبل حياة غير معروفة، لكنها كانت تجتذب الجميع. كان يبدو وكأننا على أعتاب مملكة الحرية...

لكن الحياة كانت تغدو أسوأ وأسوأ. وقريباً، لن يصبح في الإمكان شراء أي شيء ما عدا الكتب. فهي وحدها على واجهات المحلات التجارية...

يلينا يوريفنا:

التاسع عشر من شهر آب/ أغسطس من العام الحادي والتسعين... أذهب إلى لجنة الحزب المنطقية. أمشي في الممشى وأسمع: في جميع المكاتب، وفي جميع الطوابق، صوت الراديو العالي المفتوح. تنقل لي السكرتيرة طلب "السكرتير الأول" بأن أدخل إلى مكتبه. أدخل إلى المكتب. في مكتب "السكرتير الأول" صوت التلفزيون القوي، وهو نفسه يجلس كئيباً، ممسكاً بالترانزستور، يحاول التقاط محطة "الحرية" تارة

(1) زوجة غورباتشوف.

و"الموجة الألمانية" أو "بي بي سي"... كل ما يمكنه التقاطه. وكان على مكتبته سجل بأسماء أعضاء لجنة الدولة للطوارئ... قال لي السكرتير الأول: «فارينكوف وحده يستحق الاحترام. إنه جنرال نضالي حق. حارب في أفغانستان». دخل السكرتير الثاني... ثم رئيس القسم... وبدأ عندنا الحديث: «يا للرعب! سيراق الدم. سنتغطى بالدماء». «لن يتغطى الجميع، بل سيتغطى من يجب تغطيته». «منذ زمن طويل كان من الواجب إنقاذ الاتحاد السوفييتي». «ستتراكم الجثث كالجبل». «لقد انتهى كل شيء، وصل غورباتشوف إلى مبتغاه. أخيراً سيأتي أشخاص عاديون، جنرالات، سيمسكون بالسلطة. وتنتهي الفوضى». وقرر السكرتير الأول عدم إجراء الاجتماع الصباحي - عن أي شيء سيتحدث؟ لم تصل من فوق أية تعليمات. وفي أثناء حضورنا، اتصل بالشرطة: «ما المسموع عندكم؟». أجابوا: «لا شيء». ثم تحدث عن غورباتشوف ثانية؛ إما أنه مريض، وإما أنه معتقل. والغالبية رجحت الخيار الثالث: أن يكون قد هرب مع أسرته إلى أمريكا. وإلى أين يذهب؟

على هذا النحو أمضينا اليوم جالسين أمام أجهزة التلفزيون والهاتف. كان الوضع مقلقاً: من ستكون يده هي العليا، المسيطرة؟ كنا ننتظر. أكلمِك بصدق، كنا ننتظر. كل هذا كان يذكّر إلى حد بالإطاحة بخروتشوف. فقد أُتخمْت بقراءة المذكرات عن إسقاطه... الأحاديث كلها بالطبع عن شيء واحد... ما هي هذه الحرية؟ الحرية لإنساننا السوفييتي- مثلها مثل النظارات للقرد الصغير. لم يكن هناك من يعرف ماذا سنفعل بها. جميع هذه الأكشاك والسوقيين تعافها روحنا. أذكر كيف التقيت منذ يومين سائقي السابق... لقد فُرز هذا الشاب إلى لجنة الحزب المنطقية بعد أدائه الخدمة العسكرية. برشوة كبيرة ما. كان مسروراً إلى حد كبير. ولكن بدأت التغييرات، وسمحوا بفتح الشركات التعاونية الخاصة فترك العمل

عندنا. واشتغل بالتجارة. لم أتعرف عليه إلا بصعوبة، سترة جلدية، بذلة رياضية. فهذه كانت عندهم، كما أدركت، البذلة الرسمية. افتخر بأنه خلال يوم واحد يكسب أكثر من الراتب الشهري للسكرتير الحزبي الأول. إنها تجارة رابحة، دون خسارة: التجارة بسراويل الجينز. استأجر مع صديقه مغسلة عادية وفيها بدآ يخيطان بناطيل الجينز. تكنولوجيا بسيطة (الحاجة أم الاختراع): بناطيل جينز مبتذلة سوفييتية يضعونها في سائل مبيض، أو في سائل الكلس، ويضيفون إليها طوبة مكسرة من اللِّبْن. فيغلي الغسيل ساعتين- وتظهر على البناطيل خطوط، وبقع ورسوم... إنه فن تجريدي! ثم يجففونها ويلصقون عليها لصاقة "Montana". أدركت على الفور: إذا لم يتغير أي شيء، فإن بائعي الجينز هؤلاء سوف يصبحون قادتنا. رجال السياسة الاقتصادية الجديدة! ويطعمون الجميع، ويلبسونهم، مهما بدا هذا مضحكاً. في الأقبية سيشيدون الفبارك والورشات... وهذا ما حصل. إليكِ النتيجة. هذا الشاب الآن- مليونير أو ملياردير (بالنسبة إليَّ المليون أو المليار مبلغ جنوني)، ثم أصبح نائباً في مجلس الدوما (مجلس النواب الروسي). لديه منزل في جزر الكناري... وآخر في لندن... في عهد القيصر الروسي، كان الكاتبان الكبيران هيرتسن وأوغاريف يعيشان في لندن، والآن "الروس الجدد" يعيشون هناك، هم ملوك الجينز والمفروشات والشوكولا، وملوك النفط أيضاً.

في الساعة التاسعة مساء، دعا السكرتير الأول الجميع للاجتماع في مكتبه. قدّم رئيس اللجنة الأمنية المنطقية "ك. ج. ب." تقريره. حدثنا عن الأمزجة السائدة بين الناس. وحسب قوله، فالشعب يؤيد لجنة الدولة للطوارئ. ولم يمتعض. لقد ملَّ الجميع من غورباتشوف... البطاقات التموينية لجميع المواد الغذائية... الفودكا مفقودة... كان العاملون في اللجنة الأمنية يتنقلون في الشوارع ويسجلون أحاديث الناس. مشاغبات

في الطوابير: «انقلاب! ماذا سيحدث في البلد؟». «هل انقلب عندك شيء ما؟ سريرك في مكانه. والفودكا أيضاً». «وهكذا انتهت الحرية». «نعم! حرية تدمير المرتديلا». «بعضهم أراد الحصول على علكة "تشكلس"، أراد تدخين سجائر "مالبورو"». «حان الوقت منذ فترة طويلة! البلد على حافة الانهيار!». «غورباتشوف - يهوذا! أراد بيع الوطن مقابل حفنة من الدولارات». «سيسيل الدم»... «من غير الممكن التغيير عندنا بدون دم»... «من أجل إنقاذ البلد... والحزب يلزمنا بناطيل جينز، وألبسة داخلية نسائية جميلة ومرتديلا، وليس دبابات». «أردتم حياة جيدة؟ لكم هذه الفجلة الحارة! انسوا ما رغبتم فيه!». (تصمت).

باختصار، الشعب كان ينتظر... مثلنا... بحلول نهاية اليوم، لم يعد هناك كتب بوليسية في المكتبة الحزبية، أخذوا كل شيء (تضحك) كان يمكننا جميعاً قراءة لينين وليس الكتب البوليسية. لينين وماركس. رسولانا المقدسان.

لقد حفظت غيباً المؤتمر الصحفي للجنة الدولة للطوارئ... كانت يدا نائب الرئيس غينادي يانايف ترتجفان. كان يقف مبرراً: «إن غورباتشوف يستحق كل احترام... إنه صديقي»... كانت عيناه تركضان خوفاً... لقد كاد قلبي أن يتوقف عن النبض. ليس هؤلاء الناس من كان في إمكانهم... من كنا ننتظرهم. إنهم أقزام... عاملون حزبيون عاديون... ينقذون البلد! ينقذون الشيوعية! لم يكن هناك من هو قادر على الإنقاذ... على شاشات التلفزيون: شوارع موسكو- بحر من الناس. بحر! كان الشعب ينطلق على القطارات وعلى الحافلات الكهربائية في الأرياف باتجاه موسكو. يلتسين على ظهر الدبابة. تُوزع المناشير... يصيح الحشد: «يلتسين! يلتسين!». النصر! (كان طرف سماط الطاولة يرتجف بعصبية) هذا هو السماط... إنه صيني... البضاعة الصينية تغطي العالم. الصين هي البلد الذي انتصرت

فيه لجنة الدولة للطوارئ... وأين نحن؟ بلد من العالم الثالث. أين أولئك الذين كانوا يصرخون: «يلتسين! يلتسين!»؟ كانوا يظنون أنهم سوف يعيشون كما في أمريكا أو ألمانيا، لكنهم يعيشون كما في كولومبيا. لقد خسرنا... خسرنا بلدنا... في حين أن عددنا نحن الشيوعيين آنذاك، كان يصل إلى خمسة عشر مليون شيوعي! كان في استطاعة الحزب... لكنهم خانوه... من أصل خمسة عشر مليوناً لم يعثر على قائد واحد. ولا قائد واحد! بينما في المعسكر المقابل كان هناك قائد. كان يلتسين! لقد خسرنا كل شيء بحماقة! نصف سكان البلد كانوا يتوقعون انتصارنا. لم يعد هناك بلد واحد. لقد انقسمنا إلى بلدين.

أولئك الذين كانوا يدعون أنفسهم شيوعيين، اعترفوا فجأة أنهم كانوا يكرهون الشيوعية منذ طفولتهم. وسلموا بطاقاتهم الحزبية. كانوا يرمونها ليلاً أمام مقر اللجنة الحزبية المناطقية... كاللصوص. لم يودِّعوا الحزب بطريقة مشرفة. لا، بل بالسر. صباحاً كان عمال التنظيفات يمشون ويجمعون البطاقات الحزبية وبطاقات الشبيبة ويسلمونها لنا. كانوا يجلبونها في أكياس، في أكياس كبيرة من السلوفان... فماذا نعمل بها؟ وأين يمكننا تسليمها؟ لم يصدر أي أمر بذلك. لم ترد أية إشارة من الأعلى. صمت مطلق (فكَّرتْ قليلاً). نعم كان هذا الزمن... أخذ الناس يبدِّلون كل شيء. بالكامل. كانوا يرحلون، بدّلوا وطنهم. وآخرون بدّلوا قناعاتهم ومبادئهم. وآخرون بدلوا أشياء بيتهم، كانوا يبدلون فرشهم وأثاثهم بشكل جماعي. رموا أثاثهم وفرشهم السوفييتي القديم، واشتروا أثاثاً مستورداً... تجار "المكوك" جلبوا كل شيء: أباريق الشاي، أجهزة الهاتف، الأثاث، البرادات... لقد ظهر كل شيء وبكميات كبيرة. «عندي غسالة كهربائية "بوش"». «أنا اشتريت جهاز تلفزيون "سيمنس"». كانت تتردد في كل حديث أسماء الماركات: "باناسونيك"، "سوني"،

"فيليبس"... التقيت جارتي، فقالت لي: «من المعيب أن أفرح بطاحونة القهوة الألمانية... لكنني سعيدة!». بالأمس وقفت في الطابور لشراء مجلد الشاعرة أخماتوفا، والآن، أكاد أجن من طاحونة القهوة. من هذه الآلة التافهة... ورموا بطاقاتهم الحزبية من غير رجعة، كما يرمون ما لا يلزم. كان من الصعب تصديق ذلك... ولكن خلال بضعة أيام تغير كل شيء. وكما نقرأ في المذكرات والذكريات، أن روسيا القيصرية تلاشت خلال ثلاثة أيام، كذلك الشيوعية تلاشت خلال يومين. أمر لا يصدقه العقل... ولكن، والحق يقال، كان هناك من أخفى بطاقته الحزبية الحمراء، واحتفظ بها، احتياطاً لكل طارئ. منذ فترة قصيرة، كنت في زيارة إحدى الأسر فأخرجوا لي من السقيفة تمثالاً نصفياً للينين كانوا يخفونه... فقد يحتاجونه! ربما يعود الشيوعيون، فهم أول من يرفع الراية الحمراء (لاذت بالصمت طويلاً)... في درج مكتبي هناك مئات الطلبات للانسحاب من الحزب... سرعان ما قمنا بتعزيل كل شيء ورمينا الأوراق كافة في صندوق القمامة (تبحث عن شيء بين الأضابير الموضوعة على الطاولة). احتفظت ببعض الأوراق، فقد يطلبونها مني يوماً ما للعرض في المتحف. سوف يبحثون... (تقرأ ورقة):

أنا كنت شيوعية صادقة... وبقلب نظيف انتسبت إلى الحزب. والآن أقول، ليس للحزب عليَّ أية سلطة بعد الآن...

الزمن اقتادني إلى الخطأ... كنت أؤمن بثورة أكتوبر العظمى. وبعد أن قرأت سولجينيتسين، أدركت أن "المثل العليا للشيوعية" كلها مغطاة بالدماء. هذا خداع.

الخوف أرغمني على الانتساب إلى الحزب... إن البلاشفة اللينينيين أطلقوا النار على جدي، أما الشيوعيون الستالينيون فقد قضوا على والديَّ في المعتقلات القميئة...

باسمي وباسم زوجي المتوفى أعلن انسحابي من الحزب...

هذا كان على المرء أن يعيشه... وألا يموت رعباً... في مقر لجنة الحزب المنطقية كان ثمة طابور، كما في المخزن التجاري. إنه طابور الراغبين في التخلي عن بطاقاتهم الحزبية. دخلت لعندي إلى مكتبي امرأة بسيطة، حلاّبة. بكت قائلة: «ماذا عليَّ أن أفعل؟ وكيف أتصرف؟ يكتبون في الصحف، إن البطاقات الحزبية يجب رميها في القمامة». وبررت ذلك بقولها إن عندها ثلاثة أطفال، وإنها تخاف عليهم. فقد انتشرت شائعة تقول إن الشيوعيين سيحالون للمحكمة. وسينفونهم. ويجري الآن تجهيز الأكواخ القديمة لتصبح جاهزة لاستقبالهم... وأنه وصلت إلى مخافر الشرطة أغلال... أحدهم رأى كيف شحنوها في السيارات الشاحنة، المغلقة. أشياء رهيبة، نعم! لكنني حفظت في ذاكرتي أقوال شيوعيين حقيقيين، مخلصين للفكر الشيوعي. معلم شاب... قبل ظهور لجنة الدولة للطوارئ، كان قد قُبل في صفوف الحزب، لكنهم لم يتمكنوا بعد من تسليمه بطاقته الحزبية، فجاء لعندي راجياً: «سرعان ما سيختمون مقركم بالشمع الأحمر. جهزي لي الآن بطاقتي الحزبية، وإلا فلن أستلمها أبداً». في هذه الفترة الحاسمة كشف الناس عن معادنهم ونفوسهم بصورة ساطعة. جاءني بطل من أبطال الجبهة... وقد غطت الأوسمة والميداليات القتالية صدره. كما وضع الأيقونة الكنسية على صدره، وقال: «لا أريد أن أكون في حزب واحد مع هذا الخائن غورباتشوف!». نعم الناس عبروا عن أنفسهم بصورة ساطعة... من معارفي ومن الغرباء. وحتى الأقرباء. سابقاً كانوا يستقبلونني قائلين، مرحبين: «آه، يلينا يوريفنا!»، «كيف صحتك يلينا يوريفنا؟». أما الآن، فما إن يروني من بعيد حتى ينتقلون إلى الطرف الآخر من الشارع، كي لا يحيّوني. مدير أفضل مدرسة في المنطقة... كنا قبل فترة من هذه الأحداث، قد أقمنا في مدرسته محاضرة حزبية علمية

من خلال كتابيْ بريجنيف "الأرض الصغيرة" و"النهضة". آنذاك، في أثناء المحاضرة، ألقى المدير محاضرة رائعة عن الدور القيادي للحزب الشيوعي في أعوام الحرب الوطنية العظمى... ودور الرفيق بريجنيف بشكل خاص... وأنا بنفسي سلمته شهادة لجنة الحزب المنطقية. شيوعي أصيل! لينيني مخلص! يا إلهي! شهر واحد لم يمر على هذا... التقاني في الشارع وبدأ يكيل لي الإهانات: «انتهى زمنك! ستُسألين عن كل شيء! وبادئ ذي بدء عن ستالين!». كدت أن أختنق من الإهانة... هو... نفسه يقول لي... لي أنا الذي أمضى والدي سنوات طويلة في المعتقل... (استعادتْ هدوءها خلال دقائق). لم أشعر بأي حب يوماً ما نحو ستالين. لقد سامحه والدي، أما أنا فلا. أنا لم أسامحه... (تلوذ بالصمت). إعادة الاعتبار "للسياسيين" بدأت بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي. بعد تقرير خروتشوف... أما هذه الحادثة فقد جرت في عهد غورباتشوف... فقد عيّنوني رئيساً للجنة الحزب المنطقية لشؤون إعادة الاعتبار لضحايا الملاحقات السياسية. أنا أعرف، أنهم في البداية، عرضوا رئاسة اللجنة على آخرين: على النائب العام عندنا وعلى السكرتير الثاني للجنة الحزب المنطقية. فرفضا. لماذا؟ ربما خافا. عندنا حتى الآن يخشون من كل شيء له علاقة بلجنة أمن الدولة "ك. ج. ب.". أما أنا فلم أتردد، ولا لدقيقة. قلت: أنا موافقة. كان أبي قد عانى من الملاحقات السياسية. فعلام أخاف؟ في المرة الأولى أخذوني إلى قبو في مكان ما... عشرات الآلاف من الأضابير... "قضية" تقع في صفحتين، وأخرى تقع في مجلد كامل. كما كانت الخطة في العام السابع والثلاثين... تخصيص في "الكشف عن أعداء الشعب واقتلاعهم"، كذلك في أعوام الثمانينيات تم تخفيض عدد المعاد اعتبارهم سياسياً في المناطق والأقاليم. كان من المفروض تنفيذ الخطة المقررة وتجاوزها. إنه الأسلوب الستاليني نفسه: اجتماعات،

عمليات الضخ، التأنيب. هيا، بسرعة... (تهز رأسها) ليال طويلة كنت أجلس وأقرأ، وأقلّب أوراق القضايا. أقولها صادقة، بشرفي... كان شعري يتصبب واقفاً... الأخ يكتب تقريراً ضد أخيه، الجار بحق جاره... اختلفا بسبب الحديقة، بسبب غرفة في الشقة الجماعية. في عرس غنّى أحدهم أهزوجة: «شكراً لستالين الجورجي، لأنه وفر أحذية مطاطية للشعب». هذه وحدها كانت كافية للاعتقال. فالنظام من ناحية، كان يذبح الإنسان، ومن ناحية أخرى- لم يرحم الناس أحدهم الآخر. الإنسان كان مهيأ لذلك...

شقة جماعية عادية... تعيش فيها خمس أسر معاً- سبعة وعشرون شخصاً. مطبخ واحد وتواليت واحد. جارتان ترتبطان بعرى الصداقة: لدى واحدة منهما فتاة عمرها خمس سنوات، والجارة الثانية وحيدة. في الشقة الجماعية يراقب الساكنون أحدهم الآخر، وهذا أمر عادي. ويتبادلون التنصت، أحدهم على الآخر. من كان لديه من الجيران غرفة مساحتها عشرة أمتار مربعة يحسد من يملك غرفة مساحتها 25 متراً مربعاً. هذه هي حياتهم... ذات ليلة تصل إلى الشقة سيارة أمنية "غراب أسود"... يعتقلون المرأة التي لديها فتاة صغيرة عمرها خمس سنوات. وقبل أن يأخذوها تمكنتْ من الصراخ، مناديةً جارتها: «إذا لم أعد، خذي الفتاة الصغيرة إلى غرفتك. لا تسلميها إلى ملجأ الأطفال المشردين». وأخذت صديقتها الطفلة. سجلوا على اسمها الغرفة الثانية... وأخذت الطفلة تناديها أمي... "ماما آنيا"... انقضت سبع عشرة سنة... بعد سبع عشرة سنة أُطلق سراح أمها الحقيقية وعادت إلى الشقة. وبدأت تقبل يدي وقدمي جارتها. الحكايات تنتهي عادة هنا، لكن الحياة وضعت نهاية أخرى. من دون نهاية سعيدة. في عهد غورباتشوف، عندما شرعوا بفتح الأرشيف، سألوا المرأة المعتقلة: «هل ترغبين في رؤية قضيتك والاطلاع

على إضبارتك؟». «نعم، أريد». أخذت إضبارتها... فتحتها... في الأعلى كانت هناك وشاية... تعرفت المعتقلة على خط جارتها... "ماما آنيا"... كتبت وشاية بحق صديقتها أم الطفلة... أتفهمين شيئاً؟ أنا لا أفهم شيئاً. وتلك المرأة أيضاً لم تفهم شيئاً. عادت إلى شقتها وانتحرت شنقاً. (تلوذ بالصمت) أنا ملحدة. لدي أسئلة عديدة للإله... أنا أذكر... أتذكر كلمات والدي: «معسكر الاعتقال يمكن احتماله، أما الناس فمن غير الممكن احتمالهم». وكان يقول أيضاً: «مُتْ أنت اليوم وأنا غداً- هذه الكلمات لم أسمعها للمرة الأولى في معسكر الاعتقال، بل من جارنا. من جارنا كاربوشا»... كان كاربوشا طيلة عمره يتخاصم مع والديه بسبب دجاجاتنا التي كانت تمشي في حديقته. كان يركض تحت نوافذنا ببندقية الصيد... (تلوذ بالصمت).

في الثالث والعشرين من آب/ أغسطس... اعتقلوا أعضاء لجنة الدولة للطوارئ. وزير الداخلية بوغو أطلق النار على نفسه... وقبلها كان قد أطلق النار على زوجته... شعر الناس بالفرح: «بوغو أطلق النار على نفسه وانتحر!». وشنق الجنرال أخرومييف نفسه في مكتبه بالكرملين. وكانت هناك عدة حالات وفاة غريبة أخرى... مدير إدارة اللجنة المركزية نيقولاي كروتشينا سقط من نافذة شقته في الطابق الخامس على الأرض... هل هي انتحار أم قتل؟ حتى الآن يخمنون دون أن يعرفوا الحقيقة... (تصمت) كيف نعيش؟ كيف نخرج إلى الشارع؟ كيف نخرج إلى الشارع ببساطة ونلتقي أحداً. أنا آنذاك... كنت أعيش وحيدة منذ بضعة سنوات. ابنتي تزوجت من ضابط، وانتقلت معه إلى مدينة فورونيج. زوجي مات مريضاً بالسرطان. كنت أعود مساءً إلى شقتي الفارغة. أنا لست إنساناً ضعيفاً، ولكن كانت تخطر في ذهني أفكار رهيبة مختلفة. أقول صادقة: كانت مثل هذه الأفكار عندي... (تصمت). لقد كنا لفترة قصيرة نأتي يوميا للعمل في لجنة الحزب

المنطقية. كل منا كان يغلق على نفسه باب مكتبه. نتابع الأخبار على شاشة التلفزيون. كنا ننتظر. كان عندنا بعض الأمل بشيء ما. أين حزبنا؟ أين حزبنا اللينيني الذي لا يُقهر! لقد انهار العالم... تلقينا اتصالاً هاتفياً من مزرعة تعاونية سوفييتية: الرجال بمذاريهم ومناجلهم، وببنادق صيدهم- كل ما استطاع الأخذ به - اجتمعوا أمام مكاتب المزرعة للدفاع عن السلطة السوفييتية. السكرتير الأول أصدر الأمر التالي: «أرسلوا الناس إلى بيوتهم». كنا نخاف من كل شيء... أما الناس فقد كانت أمزجتهم حاسمة. أعرف مجموعة من الوقائع الدالة. ولكن نحن شعرنا بالخوف والرعب.

إليكِ... في ذلك اليوم... اتصلوا بنا من الإدارة المحلية في المنطقة وأبلغونا: «نحن ملزمون بختم مكاتبكم بالشمع الأحمر. لديكم ساعتان فقط من أجل جمع أشيائكم الشخصية»... (لم تعد تستطيع الكلام لاضطرابها). ساعتان... ساعتان... ختمت لجنة مختصة مكاتبنا... يا لهم من ديمقراطيين! عامل نجار، صحافي شاب، أم لخمسة أطفال... كنت قد رأيتها في المسيرات والمظاهرات. ومن خلال رسائلها إلى لجنة الحزب المنطقية... إلى صحيفتنا... عاشت هي مع أسرتها الكبيرة في كوخ. كانت تتوجه إلى مختلف المسؤولين وتطالب بشقة. كانت تلعن. لفد حفظتُ وجهها... في هذه اللحظة كانت متباهية، ظافرة... عندما وصلوا إلى السكرتير الأول ضربهم بالكرسي. اقتربت إحدى أعضاء اللجنة في مكتبي من النافذة، ومزقت الستارة بصورة استعراضية. ربما، كي لا آخذ الستارة معي إلى البيت؟ يا إلهي! أرغموني حتى على فتح حقيبتي الشخصية... بعد بضع سنوات التقيت في الشارع بأم الأولاد الخمسة هذه. لقد تذكرت الآن اسمها، غالينا آفديي. سألتها: «هل حصلت على شقة أخيراً؟». فهزت بقبضتها مهددة باتجاه بناء الإدارة المحلية قائلة: «هؤلاء الحقراء أيضاً خدعوني». وماذا بعد؟ ماذا بعد. عند باب لجنة الحزب المنطقية كان ينتظرنا

حشد من الناس: «يجب محاكمة الشيوعيين! الآن دورهم إلى سيبيريا؛ إلى المنفى!»، «لو أخذنا رشاشات وأطلقنا نيرانها على نوافذ البناء». التفتُّ إلى الخلف، رأيت خلف ظهري رجلين سكّيرين، هما اللذان تحدثا عن الرشاشات... «ولكن، احذروا، سأرد على النار بالنار». على مقربة منا كان يقف شرطي، فتظاهر بأنه لم يسمع شيئاً. هو من معارفي.

كان دوماً عندي إحساس... وكأنني أسمع صراخاً خلف ظهري... هذا الإحساس لم يكن يراودني وحدي. في المدرسة، اقتربت من ابنة موجهنا في المدرسة تلميذتان من صفها: «لن نتصادق معك بعد الآن. أبوك كان يعمل في لجنة الحزب المنطقية». - أبي إنسان جيد.

- لا يمكن لإنسان جيد أن يعمل هناك. نحن بالأمس شاركنا في الاجتماع الجماهيري.

تلاميذ الصف الخامس... أطفال... حتى الأطفال يثرثرون، وهم مستعدون لإطلاق النار. السكرتير الأول مات، أُصيب بالسكتة القلبية، مات في سيارة الإسعاف قبل وصولها إلى المستشفى. كنت أظن أنه، كما في السابق، ستكون هناك أكاليل الزهور والأوركسترا الجنائزية، أما الآن، فلا شيء من هذا القبيل... في جنازته سار خلف التابوت بضعة أشخاص... مجموعة من الرفاق... أوصت زوجته بأن يرسم على شاهدة قبره المنجل والمطرقة وأن تُكتب الأسطر الأولى من النشيد الوطني السوفييتي "اتحاد قوي من الجمهوريات الحرة" فسخروا منها. كنت دوماً أسمع همساً و- و - و... ظننت أنني سأفقد عقلي... امرأة لا أعرفها، صرخت في وجهي في المخزن التجاري: «أنتم الشيوعيون، لقد ملأتم البلد خراءً!».

ما الذي كان ينقذني؟ كانت تنقذني عدة اتصالات هاتفية... اتصال من صديقتي: «إذا ما نفوك إلى سيبيريا، فلا تخافي. سيبيريا جميلة»، (تضحك). زارت سيبيريا في جولة سياحية. وأُعجبت بها. اتصال من ابنة عمي من

مدينة كييف: «تعالي لعندي. سأعطيك مفاتيح شقتي. يمكنك الاختباء عندنا في البيت الريفي. لن يعثر عليك أحد هناك». «أنا لست مجرمة. ولن أختفي». كان والداي يتصلان بي كل يوم: «ماذا تفعلين؟». «أجهز المرطبانات لمخلل الخيار». كنت طيلة أيام عديدة أجهز المرطبانات وأغليها، وأغلقها بإحكام. لم أكن أقرأ الصحف ولا أشاهد التلفزيون. كنت أقرأ القصص البوليسية، أنتهي من واحدة لأبدأ بقراءة قصة أخرى. كان التلفزيون يبعث على الرعب. وكذلك الصحف.

فترة طويلة لم أستطع إيجاد عمل... كان الجميع يظنون أننا تقاسمنا فيما بيننا أموال الحزب، ولدى كل واحد منا قطعة من بئر نفطي، أو في أسوأ حال محطة وقود. كلا، ليس لديّ محطة بنزين ولا مخزن تجاري ولا كشك. يدعون الشيوعيين الآن بـ"الأورام"، "الأعضاء"... اللغة الروسية الغنية لم نعد نعرفها: القسائم، الدهليز النقدي... شريحة "م. ب. ف.". نتحدث بلغة أجنبية. عدت إلى عملي في المدرسة. أقرأ مع التلاميذ كاتبيَّ المفضلين؛ تولستوي وتشيخوف. وكيف أمور الآخرين؟ إن مصير رفاقي قد سارت بطرق مختلفة... أحد موجهينا أنهى حياته انتحاراً... حدثت إصابة عصبية لدى مدير المكاتب الحزبية، ومكث طويلاً في المستشفى. وأحدهم أصبح رجل أعمال... السكرتير الثاني أصبح مدير سينما. وأحد موجهي الحزب أصبح رجل دين. التقيت به. تحادثنا. يعيش هذا الإنسان حياته الثانية. حسدته. تذكرت، كنت في غاليري فني... شاهدت إحدى اللوحات، أذكرها جيداً: الكثير الكثير من الضوء... وامرأة تقف على جسر. تنظر بعيداً جداً... ضوء شديد... تأثرت بها، لم أستطع الابتعاد عنها. أبتعد، لأعود إليها من جديد. كانت تجتذبني. فقد كان من الممكن أن تكون لدي حياة أخرى. لكنني لا أعرف، أية حياة ستكون؟

آنا إيلينتشنا:

- استيقظت من نومي على صوت هدير... أفتح النافذة... في موسكو! في العاصمة تزحف الدبابات والمدرعات. الراديو! أفتح الراديو بسرعة. بُث بالراديو نداء إلى الشعب السوفييتي: «خطر مميت يهدد الوطن... البلد يتحول إلى جحيم من القمع وشريعة الغاب... سننظف الشوارع من العناصر المجرمة... سنضع نهاية للزمن الضبابي المبهم». كان من غير المفهوم إن كان غورباتشوف قد استقال لأسباب صحية، أو أنه قد اعتُقل. أتصل بزوجي، فقد توجه إلى البيت الريفي: «في البلد انقلاب، السلطة في أيدي»... «غبية! أَغلقي سماعة الهاتف، سيعتقلونك الآن». أفتح التلفزيون. في جميع الأقنية تعرض باليه "بحيرة البجع". ولكن صوراً أخرى تتراءى أمام عيني، فنحن جميعاً أبناء الدعاية السوفييتية: سانتياغو في تشيلي... يحترق قصر الرئاسة... صوت سالفادور آليندي... بدأت الاتصالات الهاتفية: موسكو تغص بالآليات الحربية، الدبابات تقف في ساحة بوشكين، وفي ساحة المسارح... كانت حماتي عندنا في شقتنا في هذه الأثناء، شعرت بخوف شديد: «لا تخرجي إلى الشارع. لقد عشت في زمن الديكتاتورية، وأعرف هذا». أنا لا أريد العيش في ظل الديكتاتورية!

بعد الظهر عاد زوجي من البيت الريفي. جلسنا في المطبخ. دخّنا كثيراً، كنا نخاف من التنصت على جهاز الهاتف... وضعنا الهاتف تحت المخدة... (تضحك) شبعنا من قراءة كتب المنشقين. وسمعنا الكثير من الأقوال والإشاعات. وها نحن نستفيد منه... سمحوا لنا بالتنفس قليلاً، والآن سيغلقون جميع الأبواب. والآن سيضعوننا خلف القضبان، وسيدوسوننا بالإسفلت، فنصبح كالفراشات على الإسمنت... تذكرنا الأحداث الأخيرة في ساحة (تيان آن مين) في بكين. وكيف لاحقوا المتظاهرين برفوش النقّابين في تبيليسي. والانقضاض على مركز

الاتصالات والتلفزيون في فيلنيوس... قال زوجي: «بينما نحن كنا نقرأ كتب الكاتبين المنشقين شالاموف وبلاتونوف، بدأت الحرب الأهلية. في السابق كنا نتناقش في المطابخ ونشارك في المسيرات، أما الآن فسنطلق النار، أحدنا على الآخر». هكذا كان مزاج الجميع... قريباً من الكارثي... لم نطفئ جهاز الراديو ولا لدقيقة واحدة، كنا نقلّب جميع المحطات. في جميع المحطات كانوا يبثون الموسيقى الكلاسيكية. وفجأة، يا للدهشة! التقطنا محطة "راديو روسيا": «أعفي من السلطة الرئيس المنتخب دستورياً... جرت محاولة انقلاب ماجن»... هكذا عرفنا أن آلاف الناس قد خرجوا إلى الشوارع. غورباتشوف في خطر... أنذهب إلى الشارع أم لا؟ لم يُبحث هذا الأمر. يجب أن نخرج! في البداية، حاولت حماتي أن تمنعني: فكري في طفلك، أنت مجنونة، إلى أين سترمين نفسك؟ أنا لُذت بالصمت. لكنها كانت ترى أننا سنخرج: «طالما أنكما أحمقان على هذا النحو، فخذا معكما على الأقل محلول الصودا، ترطِّبان به قطعة من الشاش وتضعانها على الوجه في حال تعرضكما لقنابل مسيلة للدموع». أنا حضرت قطرميزاً يتسع لثلاثة ليترات من هذا المحلول، وقصصت ستارة إلى قطع صغيرة. كما أخذنا معنا كل ما كان لدينا من الطعام، وأخذت من البوفيه جميع المعلبات.

أناس كثيرون، مثلنا، كانوا متوجهين إلى المترو. بعضهم وقف في الطابور لشراء البوظة، وآخرون لشراء الزهور. مررنا أمام جماعة مرحة، سمعت العبارة التالية: «إذا لم أتمكن غداً، بسبب الدبابات، من الوصول إلى قاعة الكونشرتو، فلن أسامحهم أبداً». ركض باتجاهنا رجل يرتدي كلسوناً قصيراً ويحمل كيساً، وفي الكيس زجاجات فارغة. وعندما أصبح على صفنا، قال: «شارع ستروينلنايا – ألا تقولوا لي من أين؟». أبنتُ له

إلى أين عليه أن ينعطف إلى اليمين، ومن ثم إلى الأمام. فأشار بمعنى: شكراً. لا يهمه أي شيء، ولا يفكر في أي شيء، ما يهمه هو أن يستبدل الزجاجات الفارغة بزجاجة فودكا. وماذا، أولم يكن الوضع نفسه في عام 1917؟ بعضهم كان يطلق الرصاص، وآخرون كانوا يرقصون. ولينين كان في المدرعة...

يلينا يوريفنا:

- مهزلة! لقد مثّلوا مهزلة! لو انتصرت لجنة الدولة للطوارئ، لعشنا اليوم في بلد آخر. لو لم يجبن غورباتشوف... لما أعطونا رواتبنا إطارات وألعاب. وشامبو. فالمصنع الذي ينتج المسامير يسدد رواتب العاملين فيه بالمسامير. ومعمل الصابون بالصابون. أخاطب الجميع: انظروا إلى الصينيين... لديهم طريقهم الخاص بهم، وليسوا مرتبطين بأحد، ولا يقلدون أحداً. والعالم كله اليوم يخشى الصينيين (ثانية تتوجه نحوي بالسؤال) أنا واثقة من أنك ستشطبين كلماتي وعباراتي.

- أنا أعدكم؛ ستكون عندي القصتان. أريد أن أبقى مؤرِّخة بدم بارد، وليس مؤرخة بشعلة متقدة. وليكن الزمن هو الحكم. الزمن العادل، لكنه بعيد وليس قريباً. الزمن الذي سيأتي من دوننا، من دون ميولنا وعواطفنا.

آنا إيليتشنا:

- يمكننا الضحك على هذه الأيام ويمكننا تسميتها أوبريت. خطوة في الموضة. أما آنذاك فكل شيء كان يجري بصورة جدية. بشكل صادق، وبشكل حقيقي. ونحن كلنا كنا حقيقيين. أناس عُزَّل وقفوا أمام الدبابات وكانوا مستعدين للموت. أنا كنت أجلس في هذه المتاريس وأشاهد هؤلاء الناس، لقد جاءوا من مختلف أنحاء البلاد. نساء موسكوفيات عجائز أحضرن معهن الهندباء والبرغل، والبطاطا الدافئة الملفوفة بالمناشف.

كنَّ يطعمن الجميع... وعساكر الدبابات أيضاً: «كلوا، أيها الفتيان. لكن لا تطلقوا النار. أمعقول أن تطلقوا النار؟». لم يكن الجنود يفهمون شيئاً... فقد ذُهلوا عندما فتحوا كوة الدبابة. في شوارع موسكو كلها! كانت الفتيات يصعدن إليهم على المدرعات، ويعانقنهم، ويقبلنهم. ويقدمن لهم الفطائر. كانت أمهات الجنود اللواتي قُتل أبناءهن في أفغانستان يبكين قائلات: «أبناؤنا استشهدوا على أرض أجنبية، وأنتم ماذا تفعلون هنا، جئتم لتموتوا على أرضكم؟». ضابط برتبة رائد... عندما أحاطت به النسوة، لم تعد تحتمل أعصابه، فصاح قائلاً: «أنا نفسي أب. لن أطلق النار! أقسم لكم؛ لن أطلق النار! لن نسير ضد الشعب!». كان هناك كثير من المشاهد المضحكة والمؤثرة لدرجة البكاء. فجأة صدر صراخ من الحشد: «هل هناك منكم من يحمل حب فاليدول، هناك رجل في حالة سيئة». وعلى الفور تم العثور على فاليدول. كانت تقف امرأة مع طفلها الصغير المستلقي في العربة (كان من الواجب أن ترى حماتي هذا المشهد!) أخرجت حفاضاً كي ترسم عليه الصليب الأحمر. بم؟ «من لديه حُمرة؟». بدؤوا يرمون لها أقلام الحمرة الرخيصة وأقلام لانكوم... وكريستيان ديور... وشانيل... للأسف... لم يصور أحد هذا، ولم يحفظه بتفاصيله. للأسف. رهافة الحدث، وجماله... يظهران فيما بعد. هذه الرايات والموسيقى... وكل شيء ينصب في نُصب تذكارية من البرونز... أما في الحياة الواقعية فكل شيء مشتت، وقذر، وأرجواني: كان الناس يجلسون على الأرض طيلة الليل أمام شعلة النار، وعلى الصحف والمناشير. جائعون، حانقون. كانوا يشتمون ويشربون المشروبات الروحية ولكن لم يسكروا. كان هناك من يحضر مرتديلا، وجبن، وخبز، وقهوة، وكانوا يقولون إنها من التعاونيات... من رجال الأعمال... ذات مرة رأيت حتى بعض علب الكافيار الأحمر. فاختفى الكافيار على الفور في جيوب بعضهم. كذلك كانوا يوزعون السجائر

مجاناً. جلس إلى جانبي شاب من المساجين، وجلس "النمور" وشباب الموتوسيكل "الروكير" واليانكي، والطلاب مع آلة الغيتار، وأساتذة الجامعات. جميعهم كانوا جنباً إلى جنب. إنه الشعب! هذا كان شعبي! لقد التقيت هناك بأصدقائي وزملائي من الدراسة الجامعية، وكنت لم ألتقِ بهم منذ خمسة عشر عاماً أو أكثر، فمنهم من كان يقيم في فولوغدا، ومنهم في ياروسلافل. لكنهم جميعاً قدِموا إلى موسكو بالقطارات! من أجل الدفاع عن شيء ما مهم بالنسبة إلينا جميعاً. في الصباح أخذنا الأصدقاء إلى شقتنا. فاغتسلوا واستحموا، وتناولوا طعام الفطور، ثم عادوا. عند الخروج من المترو كان يعطون لكل راكب قطعة من التجهيزات أو قطعة من الحجر. "الحجارة هي سلاح البروليتاريا"، كنا نضحك ساخرين. قمنا بتشييد المتاريس. وقلبنا السيارات، وقطعنا الأشجار.

كانت المنصة جاهزة. وفوق المنصة علقوا اليافطات: "لا للطغمة العسكرية!"، "الشعب ليس أوساخاً تحت أقدامكم". كان الخطباء يلقون كلماتهم من خلال مكبر الصوت. فيبدؤون خطبهم بالكلمات العادية. الناس العاديون والسياسيون المعروفون. وبعد دقيقتين من الكلمات العادية التي لم يعد ينتبه إليها أحد، يبدؤون بكيل الشتائم واللعنات. «أنــ...ـك أم هؤلاء الحمقى»... وأم...! شتائم ولعنات كبيرة! «لقد انتهى زمنهم»... يا لها من لغة روسية قوية ومعبرة! شتائم الأم كانت بمثابة مفتاح نضالي. وهي مفهومة للجميع. وكانت مناسبة لتلك الفترة الزمنية. دقائق من النهوض والانتعاش! من القوة الهائلة! لم تكن الكلمات القديمة كافية للتعبير عن هذه اللحظة، أما الكلمات الجديدة فلم تولد بعد... طيلة الوقت كنا ننتظر الانقضاض. وسيطر هدوء لا يصدق، ولاسيما ليلاً. وكان جميع الحضور في أشد حالات التوتر. آلاف الناس، وهدوء مسيطر. أذكر رائحة البنزين الذي كانوا يعبئونه في الزجاجات. إن رائحته هي رائحة الحرب...

هناك كان يقف أناس جيدون! كان يقف هناك أناس رائعون! الآن يكتبون الكثير حول الفودكا والمخدرات. بمعنى، أية ثورة هذه! فالسكارى ومدمنو المخدرات هم من ذهب إلى المتاريس. هذا كذب فاضح! جميع الشرفاء جاؤوا إلى الموت. كنا نعرف أن هذه الآلة كانت تطحن الناس وتحيلهم إلى مسحوق سبعين عاماً... لم يكن يفكر أحد أبداً في أن هذه الآلة الجبارة ستنهار بهذه السهولة دون إراقة كثير من الدماء. الشائعات: لقد لغّموا الجسر، وقريباً سيطلقون القنابل المسيلة للدموع. أحد طلاب معهد الطب يشرح للحشد كيفية التصرّف في حال استخدام القنابل المسيلة للدموع. كان الموقف يتغير كل نصف ساعة. خبر رهيب: ثلاثة شباب استشهدوا تحت جنازير دبابة... ولكن، لم يرتعد أحد، ولم يخرج أحد من الساحة. لقد كان هذا على هذه الدرجة من الأهمية لحياتك، مهما تغيرت الأحوال فيما بعد. ومهما كانت هناك خيبة أمل. لكننا عشنا هذا... نحن كنا هكذا! (تبكي) وفي لحظات الصباح الأولى دوى في الساحة هدير الهتافات: «أورا! أورَا!». ومن جديد الشتائم:... أمك، ودموع، وصراخ. ونقلوا الخبر من فرد لآخر بالتسلسُل: الجيش انتقل إلى جانب الشعب. القوات الخاصة من فصيل "ألفا" رفضت المشاركة في الانقضاض. الدبابات تخرج من العاصمة... وعندما أُعلن عن اعتقال الانقلابيين، أخذ الناس يعانق أحدهم الآخر. كانت سعادة لا يمكن وصفها! انتصرنا! دافعنا عن حريتنا. استطعنا ذلك بوقوفنا معاً! إذاً، نحن قادرون! الناس بثيابهم المتسخة المبللة بماء المطر لم يرغبوا طويلاً في الانصراف والتوجه إلى بيوتهم. كان الناس يتبادلون عناوينهم فيما بينهم. وأقسموا بألا ينسى أحدهم الآخر، وأن يحافظوا على صداقتهم. رجال الشرطة في المترو كانوا شديدي الاحترام للركّاب المسافرين، أنا لم أرَ في حياتي مثل هؤلاء الشرطة المحترمين، لا قبل هذا ولا بعده.

انتصرنا... عاد غورباتشوف من منتجع فوروس إلى بلد آخر تماماً. كان الناس يسيرون في العاصمة ويبتسم أحدهم للآخر. لقد انتصرنا! هذا الشعور لم يفارقني فترة طويلة... كنت أمشي وأتذكر... وكانت هذه المشاهد منطبعة في عينيّ... ما إن صاح أحدهم: «الدبابات! الدبابات جاءت!». أمسك الناس أيدي بعضهم بعضاً وشكلوا طوقاً. الساعة الثانية أو الثالثة ليلاً. كان يقف إلى جانبي رجل، أخرج علبة بسكويت، قائلاً: «أتريدين بسكويت؟»، وكان الجميع يأخذون منه هذا البسكويت. ونضحك لسبب ما. نريد بسكويت... نريد أن نحيا! أنا ما زلت حتى الآن سعيدة لأنني كنت في الساحة. مع زوجي، ومع أصدقائي. آنذاك، كان الناس لا يزالون صادقين. ونشعر بالأسى والأسف لأولئك الناس... لأننا لم نعد كذلك... ونأسف لما كان في السابق.

عند الوداع، سألتهما: كيف أمكنهما المحافظة على صداقتهما القديمة التي عرفت فيما بعد أنها تعود إلى أيام الدراسة الجامعية؟

– بيننا اتفاقية: عدم التطرق إلى هذه المواضيع. تجنب التسبب في الألم إحدانا للأخرى. أما في الماضي فكنا نتجادل ونتناقش ونتخاصم، ونتفارق. تمر سنوات ولا نتحادث ولا نتواصل. لكن هذا مرّ وانقضى.

– الآن نتحدث فقط حول الأبناء والأحفاد. وما هي النباتات التي نزرعها في البيت الريفي...

– يجتمع أصدقاؤنا، ولا نتحدث بكلمة واحدة عن السياسة. كل وصل إلى قناعته بطريقه الخاص. نعيش ونحيا معاً: سادة ورفاقاً، "بيض" و"حمر". ولكن لا يرغب أحد منا أبداً في إطلاق النار. كفانا ما هدرنا من دماء.

عن الإخوة والأخوات، الضحايا والجلادين... وجمهور الناخبين

ألكسندر بورفيريفيتش شاريبلو - متقاعد، 63 عاماً

من حديث جارتي مارينا تيخونوفنا إيسايشيك:

- أناس غرباء، ماذا تريدين؟ يمشون ويمشون... لا موت بلا سبب، والسبب موجود دوماً. الموت يجد السبب.

كان إنسان يحترق في حقله مع حبات الخِيار... سكب الأسيتون على رأسه وأشعله بعود ثقاب. أجلسُ في غرفتي، فتحت التلفزيون، فسمعت صراخاً. صوت قديم، أعرفه... كأنه صوت ساشا، وشاب آخر. طالب سار على مقربة، المدرسة المهنية قريبة من بيتنا، ورأى إنساناً يحترق. فماذا تقولين! ركض، وبدأ يطفئه. هو نفسه بدأ يحترق. عندما وصلت، كان ساشا يرقد على الأرض، كان يئن... رأسه أصفر اللون... أناس غرباء... وعلام تتدخلين في كارثة الغير؟

جميع الناس يرغبون في مشاهدة الموت. أوه! عموماً... عموماً... في قريتنا، حيث عشت فتاة صغيرة مع والديّ، كان يعيش رجل مسن، كان يحب المرور ورؤية كيف يموت الناس. كانت النساء تشعر بالخجل منه، وتطرده من الكوخ: «اذهب، أيها الشيطان!»، وهو جالس لا يتزحزح. عاش طويلاً، حقيقة، إنه شيطان! وعلام النظر؟ إلى أين... في أي اتجاه؟ لا شيء بعد الموت. مات وانتهى ودُفن. أما الحي، وإن كان بائساً، فهو يمشي مع الريح، وحول الحديقة. أما عندما تخرج روحه من جسده،

فلا وجود للإنسان، هناك أرض. الروح هي الروح، وما تبقّى كله أرض. الأرض وحدها. واحد يموت في المهد صغيراً، وآخر يعيش حتى يغطيه الشيب. الناس السعداء لا يريدون الموت... وكذلك المحبوبون. يتساءل المرء. وأين هم الناس السعداء؟ في زمن مضى، كانوا يقولون في الراديو، أننا جميعاً بعد الحرب سنكون سعداء، وكذلك خروتشوف، وعد بذلك كما أذكر... وعد بأن الشيوعية ستحل علينا قريباً. وغورباتشوف أقسم على ذلك، كان يتحدث بطريقة جميلة... باتزان وسلاسة. والآن يلتسين يقسم الأيمان الغليظة على ذلك، ويهدد بأنه سيلقي بنفسه على السكة الحديدية... كنت أنتظر وأنتظر الحياة الجميلة. انتظرت عندما كنت صغيرة... وانتظرت عندما أصبحت شابة... والآن أنا عجوز متقدمة في السن... وباختصار كلهم خدعونا، كلهم كاذبون، فالحياة أصبحت أسوأ. انتظري واصبري، نعم انتظري واصبري. انتظري واصبري... مات زوجي. خرج إلى الشارع، ووقع على الأرض وانتهى، توقف قلبه عن الحركة. كم كنا نعاني من كل شيء، ومن غير الممكن قياس معاناتنا لا بالأمتار ولا بالأوزان. وهَأنذا أعيش، وأعيش. أولادي تفرقوا: ابني يقيم في نوفوسيبيرسك، وابنتي استقرت مع أسرتها في ريغا[1]، ويمكنك اعتبارها الآن خارج الحدود الروسية. في الغربة. هناك الآن لا يتحدثون باللغة الروسية.

الأيقونة معلقة عندي في الزاوية، وعندي قط، كي أتحدث مع أحد ما. فجمرة واحدة ليلاً لا تضيء، وهَأنذا أبذل جهدي، كما ترين... حسناً أن الله أعطى الإنسان الكلب والقط... والشجرة والطير... أعطاها له، كي يفرح الإنسان بالحياة وكي تبدو له طويلة. كي لا يشعر بالسأم. وعندي ما إن أشعر بالسأم حتى أنظر إلى سنابل القمح وكيف تُصفِرّ. لقد جُعت

(1) عاصمة لاتفيا من جمهوريات البلطيق المستقلة منذ 1991.

خلال حياتي، لدرجة أنني أكثر ما أحب كيف ينضج القمح، وكيف تهتز السنابل. وهذا بالنسبة إليَّ مثل لوحة في المتحف بالنسبة إليك... وأنا الآن لا أركض وراء الرغيف الأبيض، فالخبز الأسود مع كوب من الشاي المحلّى أطيب وألذّ. انتظري واصبري... نعم انتظري واصبري... لكل ألَمٍ عندنا دواء واحد: الصبر. وعلى هذا النحو مضت حياتي. وهاك ساشكا... زوجي ساشا بورفيريتش... صبر طويلاً... صبر كثيراً، ولم يحتمل. لقد أنهكه التعب والصبر. جسده يستدعي الاستلقاء، بينما تحثّه روحه على السير (تمسح دموعها). هكذا نحن! هنا نبكي... وكذلك نبكي عندما نرحل...

من جديد بدأ الناس يؤمنون بالله، لأنه ليس ثمة من أمل آخر. في زمن ماض كنا نتعلم في المدرسة، أن لينين هو إله، وكارل ماركس إله أيضاً. جعلنا من المعابد والكنائس مستودعات للحبوب والشمندر. هكذا كان إلى أن بدأت الحرب. بدأت الحرب... ستالين فتح الكنائس، كي تتوجه الصلوات لانتصار السلاح الروسي، وتوجه إلى الشعب: «إخوتي وأخواتي... أصدقائي». وقبلها، من كنّا نحن بالنسبة إليه؟ أعداء الشعب. كولاك[1] وأتباعهم... عندنا في القرية، تم نزع ملكيات جميع الأسر الغنية، فإذا كان عند الفلاح حصانان وبقرتان في بيته فهو كولاك. نفوهم إلى سيبيريا، ورموهم في غابات الصنوبر العارية... كانت الأمهات يخنقن أطفالهن حتى لا يتعذبوا. آه! كوارث... كانت دموع البشر أكثر من المياه في الأرض. وهنا نسمع رجاء ستالين: «إخوتي، أخواتي»... صدقناه. وانتصرنا على هتلر! لقد جاءنا هتلر بمدرعاته ودباباته... بالحديد... وانتصرنا عليه على الرغم من كل شيء. والآن، من أنا؟ من نحن؟ جمهور الناخبين... أنا أشاهد التلفزيون. وأتابع جميع نشرات الأخبار...

---

(1) إقطاعيو روسيا – المترجم.

نحن الآن جمهور الناخبين. فعملنا هو التصويت في الانتخابات بصورة صحيحة، وكفى. ذات مرة كنت مريضة، ولم أذهب إلى مركز الانتخاب، فجاؤوا لعندي بالسيارة. مع صندوق انتخابي أحمر. في هذا اليوم وحده يتذكروننا... هـ-ك -ذ-ا...

مثلما نعيش نموت... أنا أتردد إلى الكنيسة، وأحمل الصليب، ولم أذق طعم السعادة على أية حال. لم أستطع الوصول إليها. ولن أسعى إليها... فالموت سيعاجلني... ولأرحل إلى ملكوت السماوات، فقد مللت الصبر. مثلي مثل ساشكا... يرقد الآن في المقبرة... يستريح... (ترسم إشارة الصليب على صدرها). بالموسيقى والدموع دفنّاه. كان الجميع يبكي. في هذا اليوم يبكون كثيراً، يشفقون على الميت. وعلام يندمون؟ ومن يسمعهم بعد الموت؟ ما بقي من بعده: غرفتان في الكوخ، حقل صغير، وشهادات حمراء وميدالية "الفائز في المباراة الاشتراكية". ولديَّ مثل هذه الميدالية في الخزانة. وكنت مبدعة في عملي ونائبة في مجلس السوفييت. لم يكن ما لدي يكفيني للطعام، ومع ذلك قدموا لي شهادة حمراء. وصوّروني. نحن هنا ثلاث أسر في هذا الكوخ. سكنّا فيه شباباً، كنا نظن أنها لعام أو عامين، فعشنا فيه العمر كله. وسنموت فيه. كننا ننتظر دورنا للحصول على شقة... بعضنا انتظر عشرين عاماً وآخرون انتظروا ثلاثين، كنا ننتظر... والآن جاء غايدار ليضحك ويقول: اشتروا شقة. وبأية أموال؟ نقودنا فقدت قيمتها... الإصلاح النقدي الأول، ثم الثاني... سرقونا ونهبونا! هذا البلد العظيم الكبير رموه في دورة المياه! لكل أسرة غرفتان، سقيفة وحقل صغير. نحن متماثلون. هذا ما استطعنا الحصول عليه بكدِّنا! وهذه ثروتنا! طيلة عمرنا كنا نعتقد أننا يوماً ما سنحيا حياة جيدة. خداع! خدعة كبيرة! الأفضل ألا نتذكر. كنا نصبر، نعمل ونتألم. والآن لم نعد نحيا، بل نودع الأيام.

أنا وساشكا من قرية واحدة... هنا... بالقرب من بريست. كثيراً ما كنا نجلس هنا على المقعد ونتذكر. وماذا أقول أيضاً؟ كان إنساناً جيداً. لم يكن يشرب، لم يكن سكّيراً... على الرغم من أنه عاش لوحده. وماذا يفعل الإنسان الوحيد؟ يشرب، وينام، ويشرب... أمشي في الساحة. أحرك رجلي. أمشي وأفكر: حياتنا على الأرض ليست نهاية كل شيء. في الموت أفق أرحب للروح... وأين ساشكا الآن؟ في أيامه الأخيرة فكّر في جيرانه. لم ينسَ. الكوخ قديم، تم بناؤه بعد الحرب مباشرة، أخشابه قد جفت وتفسخت، ومثله مثل الورق كان من الممكن أن يحترق، وأن تشتعل فيه النيران. في لحظة واحدة! في ثانية واحدة! كان من الممكن أن يحترق حتى التراب... حتى الرمل... كتب رسالة لأبنائه: ربوا الأحفاد تربية جيدة. وداعاً. ووضعها في مكان ظاهر. وذهب إلى البستان... إلى حقله الصغير...

آه، آه! باختصار... وصلت سيارة الإسعاف، وضعوه على الحمّالة، بيد أنه نهض حانقاً، أراد أن يسير على قدميه. «ماذا فعلت يا ساشكا؟». رافقتُه حتى سيارة الإسعاف. «تعبت من الحياة. اتصلي بابني، وليذهب إلى المستشفى». حتى أنه كان يتحدث معي... احترقت سترته، أما كتفه فكان أبيض نظيفاً. ترك خمسة آلاف روبل... آنذاك، كان هذا مبلغاً كبيراً! سحبها من صندوق توفير البريد ووضعها إلى جانب الرسالة. كان يصمّد نقوده طيلة عمره. قبل البيريسترويكا، كان من الممكن بهذا المبلغ شراء سيارة "فولغا" وهي السيارة الأغلى! أما الآن، بهذا المبلغ لا يمكن شراء سوى حذاء وإكليل من الورد. هكذا حدث! كان يرقد على الحمالة واسْود لونه... اسود لونه على مرأى مني... وأخذ الأطباء ذلك الشاب الذي أنقذه، حيث أخذ من على شريط الغسيل ملاءتي الرطبة (كنت قد غسلتها نهاراً) ورماها عليه. شاب غريب... طالب... كان يمشي عابراً

فرأى رجلاً يحترق! يجلس في حقله، تكوّر على نفسه ويحترق. يدخِّن. يسكت! هكذا فيما بعد روى لنا: «يلتزم الصمت ويحترق». إنسان حي... في الصباح، قرع ابني الباب: «مات أبي». كان يرقد في التابوت... رأسه محروق وكذلك يداه... أسود اللون... كانت يداه ذهبيتين! كان يتقن كل المهن. كان نجاراً وبنّاءً. بقي لدى كل واحد من قريتنا ذكرى منه؛ لدى أحدهم طاولة، ولدى آخر رفوف كتب، ومناضد... كان يحدث أنه حتى ساعة متأخرة من الليل يقف في الساحة ويكشط الخشب، كما لو أنني أراه أمامي الآن: واقفاً يكشط الخشب. كان يحب الخشب. ويعرفه من أية شجرة برائحته، بنشارته. كان يقول لكل شجرة رائحتها الخاصة. أفضلها رائحة خشب الصنوبر: «شجرة الصنوبر لها رائحة كرائحة الشاي الطيب، أما خشب القيقب فرائحته مرحة». كان يعمل حتى اليوم الأخير من حياته. لقد صَدَقَ المثل: طالما أنت تعمل يمكنك تأمين خبزك. من غير الممكن إطلاقاً العيش، الآن، على الراتب التقاعدي. أنا نفسي كنت أعمل مربية، ربيت أطفال الغير. يقدمون لي بعض المال فأشتري السكر ومرتديلا "دكتورسكايا". وماذا يكفي تقاعدنا؟ أشتري به الخبز والحليب، ولا أستطيع شراء شحّاطة صيفية. لا يكفي. كان كبار السن سابقاً يجلسون على المقاعد الخشبية في الفناء، دون هم أو غم. يثرثرون وينظِّرون. أما الآن فلا... فمنهم من يجمع الزجاجات الفارغة في الشوارع، ومن يقف بجانب الكنيسة... ومن يطلب صدقة... ومن يبيع السجائر أو البزر أو قسائم الفودكا عند موقف الباص. عندنا، داسوا بأقدامهم رجلاً في قسم المشروبات الروحية من المخزن التجاري. حتى الموت. فالفودكا الآن أثمن من هذا... ما اسمه؟ من الدولار الأمريكي. بالفودكا عندنا تشتري كل شيء. فيأتي لعندك لقاءها عامل التمديدات الصحية والكهربائي. ولا يمكنك استدعاءهم بطريقة أخرى. عموماً... عموماً... هكذا أصبحت

الحياة. كان هناك زمن لا يمكنك شراؤها مقابل أي مبلغ. سواء شكوت للإله أم لم تشكُ، فلن تحصل عليها. هكذا كان مخططاً.

أما ساشكا نفسه، فلم يعد يرغب في هذه الحياة. رفضها. هو نفسه أعاد بطاقة ائتمان الحياة للإله... آه، يا إلهي! تأتي الآن الشرطة وتحضُر. ويحققون... (أنصتت لصوت قادم) ها هو ذا... القطار يصفر... إنه قطار موسكوفي: بريست- موسكو. لا حاجة لي إلى الساعة. أنهض عندما يصفر قطار وارسو في السادسة صباحاً. وهناك قطار منسك، والأول موسكوفي... في الصباح وفي المساء يصفران بصوتين مختلفين. أحياناً، أصغي إلى أصوات القطار طيلة الليل. مع التقدم بالسن يطير النوم من العينين... مع من يمكنني الآن أن أدردش؟ الآن، أجلس وحيدة على المقعد... كنت أهدِّئه: «ساشكا، اعثر لنفسك على امرأة جيدة، تزوج». «ستعود ليزا. سوف أنتظرها». لم أرها منذ سبع سنوات، عندما هجرته. ارتبطت بأحد الضباط. إنها شابة... أصغر منه بسنوات عديدة. كان يحبها حباً شديداً. كانت تضرب التابوت برأسها قائلة: «أنا من حطم حياة ساشكا». يا للهول! عموماً، الحب ليس كالشعرة، وليس من السهل قطعه. ولا يمكنك ربطه بالصليب. فعلام البكاء بعدئذ؟ ومن سيسمعك من تحت الأرض؟... (تلوذ بالصمت) آه، يا إلهي! حتى الأربعين سنة يمكنكِ عمل كل شيء، ويمكنك أن تخطئي. أما بعد الأربعين فعليك أن تتوبي. عندئذ سيسامحك الرب (تضحك). تكتبين كل شيء؟ اكتبي. اكتبي. سأحدثك بالكثير. مصائبي لا يمكن وسعها بكيس واحد (رفعت رأسها إلى الأعلى) انظري... لقد وصلت طيور السنونو... سيحل الدفء. في الحقيقة، سبق أن جاءني مراسل صحفي سألني عن الحرب. يمكنني تحمل كل شيء، شرط ألا تقع الحرب. ليس هناك من شيء أشد رهبة من الحرب! كنا تحت الرشاشات الألمانية، وأكواخنا تطقطق من النار. وحدائقنا تحترق. آه...

آه! كنا أنا وساشكا نتذكر الحرب كل يوم... أبوه فُقد، دون أي خبر، وأخوه استشهد مع رجال المقاومة. طاردوا الأسرى في بريست... أكداس من الناس! كانوا يطاردونهم في الطرقات كالجياد، وكانوا يحتجزونهم في الأرياف، حيث كانوا يموتون ويتساقطون على الأرض كالقمامة. طيلة الصيف كان ساشكا يمشي ويبحث، مع أمه، عن أبيه. كان يبدأ حديثه معي ولا يستطيع أن يتوقف. كانا يبحثان عنه بين الموتى، وبين الأحياء. لم يعد أحد يهاب الموت، فقد أصبح الموت شيئاً عادياً. قبل الحرب كنا ننشد: «من غابات الصنوبر إلى البحار البريطانية/ لا جيش أقوى من الجيش الأحمر»... كنا ننشد بفخر واعتزاز! في الربيع ذاب الجليد... وتحرك... والنهر كله من بعد قريتنا كان مغطى بالجثث، عراة، اسْوَدّ لونهم، باستثناء الأحزمة العسكرية التي كانت تلمع على خصورهم. أحزمة بالنجوم الحمراء. لا بحر بلا ماء، ولا حرب بلا دماء. الله أعطانا الحياة، وفي الحرب كان يحرمنا منها... (تبكي). أمشي وأمشي في الفناء، ويتراءى لي أن ساشكا يقف خلف ظهري. وأسمع صوته أيضاً، فألتفت ولا أرى أحداً. عموماً... عموماً... آه، آه ماذا فعلت يا ساشكا بنفسك؟ وأي عذاب اخترته لنفسك! ولكن ربما: احترق في الأرض، ولن يحترق في السماء. فقد تعب بما فيه الكفاية. فدموعنا لا تذهب هباءً... إنها محفوظة في مكان ما... فكيف يستقبلونه هناك؟ المقعدون يزحفون على الأرض، والمشلولون يرقدون، والخرسان يعيشون. لسنا نحن من نقرر... ليست إرادتنا... (ترسم الصليب على صدرها).

لن أنسى الحرب ما حييت... دخل الألمان إلى القرية... شباب، مرحون. وسُمع ذلك الهدير والدوي! لقد جاؤوا بشاحنات كبيرة، وعلى الدراجات المربوطة بالعربات، وبثلاثة دواليب. وأنا قبل هذا لم أرَ في حياتي هذه الدراجة. كانت السيارات في المزرعة التعاونية شاحنات

بجوانب خشبية، شاحنات منخفضة. أما هذه، فكأن كل شاحنة بيت! ورأيت جيادهم، ليست جياداً بل جبال. وقد كتبوا على المدرسة بالطلاء: «الجيش الأحمر تركمكم!». وبدأ النظام الألماني... كان يقطن عندنا كثير من اليهود: آبرام، يانكل، مردوخ... جمعوهم واقتادوهم إلى مكان. لقد جاؤوا بهم بوسائدهم وأغطيتهم، وقتلوهم جميعاً على الفور. جمعوا اليهود من كل الإقليم وأطلقوا عليهم النار في يوم واحد. ثم رموا بجثثهم في حفرة... آلاف... آلاف من البشر... يروون أن الدماء كانت تسيل فوقهم ثلاثة أيام بلياليها... الأرض كانت تتنفس دماً... كانت الأرض حية... في هذا المكان توجد الآن حديقة عامة. مكان للاستجمام. ولا أصوات تأتي من القبور الجماعية. ولا أحد يصرخ... نعم... هكذا... (تبكي).

لا أعرف... كيف حدث ذلك؟ هل هما اقتربا منها، أو هي عثرت عليهما في الغابة؟ جارتنا أخفت في العنبر صبيين يهوديين، جميلين جداً، كالملائكة! أطلقوا النار على اليهود جميعاً، أما هما فقد اختبآ. ثم هربا. أحدهما عمره ثماني سنوات، والثاني عشر سنوات. وأمي كانت تحمل لهما الحليب... كانت تقول لنا: «أيها الأولاد، لا تنطقوا بكلمة واحدة لأي كان». وكان في تلك الأسرة عجوز متقدم في السن، كان لا يزال يذكر تلك الحرب الأولى... مع الألمان... كان يطعمهما ويبكي «طفلاي، سيمسكون بكما ويعذبونكما. لو كان في استطاعتي، لكان الأفضل أن أقتلكما أنا». هذه الكلمات... الشيطان يسمع كل شيء (ترسم إشارة الصليب) وصل ثلاثة جنود ألمان على الدراجة، ومعهم كلب كبير أسود اللون... أحدهم وشى بهما... دائماً يظهر مثل هؤلاء الناس من ذوي الأرواح السوداء. وكأنهم يعيشون بلا روح... وقلوبهم قاسية وليست بشرية. لا يعرفون الشفقة. ركض الصبيان في الحقل... في حقل الذرة... وجه الألمان الكلب نحوهما... كانوا يجمعون الناس القتلى بالقِطَع...

وبقطع الثياب... كان من المستحيل دفن أي شيء، ولا أحد يعرف تحت أي كنية؟ ربط الألمان جارتنا إلى الدراجة بحبل... فظلت تركض إلى أن تقطع قلبها... (لم تعد تمسح دموعها). في الحرب كان يخاف الإنسان من الإنسان. سواء أكان من بلده أو غريباً. تتحدث في النهار، فيسمع الطيور حديثك، تتحدث ليلاً، فتسمع الفئران حديثك. أمي علمتنا الصلاة. إن كنت بدون إله فالدودة يمكنها أن تبلعك.

في التاسع من أيار/ مايو... في عيدنا... نشرب مع ساشكا كأساً لكل منا... ونبكي... من الصعب جداً بلع الدموع... عموماً... عموماً... عندما كان في العاشرة من عمره، كان يقوم في أسرته مقام الأب والأخ. وأنا عندما انتهت الحرب، أكملت عامي السادس عشر. وباشرت العمل في معمل الإسمنت. كان عليَّ أن أساعد أمّي. كنا نحمل أكياس الإسمنت بوزن خمسين كيلوغراماً للكيس، وننقل إلى ظهر الشاحنة الرمل والمعدن والتجهيزات. في حين أنني كنت أريد متابعة الدراسة... وكنا نحمل العلف للبقرة ونحرث الأرض بوساطتها... كانت البقرة تخور وتعوي من هذا العمل... وماذا لو؟ وماذا لو؟ ندفع شجر البلوط، ونجمع كيزان الصنوبر في الغابة. ومع ذلك كنت أحلم: بأن أتخرج من المدرسة، وأصبح معلّمة. آخر يوم في الحرب... كان الجو دافئاً... أذهب وأمّي إلى الحقل... وكان الشرطي يتنقل على ظهر حصانه: «النصر! لقد وقع الألمان صك الاستسلام!». كان يركب حصانه في الحقول ويصرخ مخاطباً الجميع: «النصر! النصر!». ركض الناس في أنحاء القرية. وأخذوا يصرخون، ويبكون، ويشتمون. وبدؤوا يفكرون في اليوم التالي: كيف سنعيش بعد الآن؟ الأكواخ فارغة، والريح تدوي في العنابر. كنا نستعمل معلبات المحفوظات الغذائية الفارغة أكواباً... بقيت معلبات الجنود الألمان... وشموع من خراطيش الطلقات. نسينا الملح في أثناء الحرب، كنا نمشي

وقد انتشرت عظام الناس. عندما انسحب الألمان أخذوا معهم الخنازير، واستولوا على آخر الدجاجات. وقبل ذلك جاء رجال المقاومة وأخذوا البقرة... لم تسمح لهم أمي بأخذ البقرة. فأطلق أحد رجال المقاومة النار في الهواء، فأصاب سطح الكوخ. ووضعوا مكنة الخياطة وأثواب أمي في كيس. فهل كانوا أنصاراً مقاومين أم قطاع طرق؟ والسلاح بأيديهم... عموماً... عموماً... فالإنسان يريد أن يحيا، وحتى في الحرب. في الحرب يعرف الإنسان أشياء كثيرة... لا وحش أسوأ من الإنسان. هو الإنسان الذي يقتل أخاه الإنسان، وليست الطلقة. إنسان يقتل إنساناً... يا عزيزتي!

ذهبت أمي إلى عرافة... وقرأت لها المستقبل: «كل شيء سيكون على ما يرام». ولم يكن لدى أمي شيئاً تعطيه للعرّافة. وجدت أمي شمندرتين في القبو ففرحت. وكذلك فرحت العرافة. سافرتُ للانتساب إلى دار المعلمين، كما كنت أحلم. هناك طلبوا مني تعبئة استبانة... كتبت كل شيء ووصلت إلى سؤال: هل كنتِ أو كان أهلك في الأسر أو تحت الاحتلال؟ أجبت: نعم، بالطبع كانوا... استدعاني مدير دار المعلمين إلى مكتبه: «أيتها الفتاة، خذي وثائقك». كان المدير من الذين حاربوا في الجبهة، وكان بيد واحدة، وبكُمٍّ فارغ. وهكذا عرفت، أننا... وجميع من كان تحت الاحتلال... غير جديرين بالثقة. ولم يعد أحد يخاطبنا «إخوتي وأخواتي»... بعد أربعين عاماً... ألغوا هذه الاستبانة. أربعون عاماً! حياتي انتهت إلى أن ألغوا الاستبانة. «ومن تركنا تحت الاحتلال؟». «لا ترفعي صوتك، أيتها الفتاة»... أغلق المدير الباب، كي لا يسمعني أحد. «بصوت خافت... بصوت خافت»... كيف يمكنك أن تواجهي القدر؟ أتقطعين الماء بالمنجل... أما ساشكا فقد تقدم بطلب للانتساب إلى المدرسة الحربية... وقد كتب في الاستمارة، أن أسرته كانت تحت الاحتلال، وأن أباه فُقد من دون أثر. ففصلوه على الفور... (تلوذ بالصمت) هل عندك

مانع أنني أحدثك عن نفسي وعن حياتي؟ لقد عشنا جميعاً حياة متشابهة. بشرط ألا يعتقلوني بسبب هذا الحديث. هل ما زالت هناك سلطة سوفييتية أم أنها سقطت نهائياً؟

من هول المصيبة نسيت الأحداث الخيرة السارة... كيف كنا شباباً وأحببنا وعشقنا. أنا في عرس ساشكا رقصت واحتفلت... كان يحب ليزكا، وبقي يلاحقها ويغازلها فترة طويلة. وجف عوده بسببها! وقد أحضر لها الطرحة البيضاء من منسك. حمل خطيبته إلى الكوخ على يديه... هذه عادتنا القديمة المتبعة... العريس يحمل عروسه على يديه، كما يحمل الطفل، كي لا يلحظها عفريت المنزل، ولا يتعقبها. فالعفريت لا يحب الغرباء، ويطردهم. فهو سيد البيت، ويجب أن تروقه. أوه... (لوّحت بيدها جانباً). الآن لم يعد أحد يصدق أي شيء. لا العفاريت ولا الشيوعية. يعيش الناس دون أي إيمان! ربما ما زالوا يؤمنون بالحب... «لاذع مر!»[1] كنا نصرخ على الطاولة في عرس ساشكا. وكيف كنا نشرب آنذاك؟ زجاجة واحدة للمائدة كلها، عشرة أشخاص... الآن زجاجة لكل شخص. كان لا بد من بيع البقرة، من أجل حفلة عرس الابن أو الابنة. كان يحب ليزكا... كما أنك لا تستطيع مقاومة القلب، كذلك لا يمكنك أن تجر صاحبه من إذنه. عموماً... عموماً كانت تتبرج وتحتفل وتنتقل من شاب لآخر كالقطة. وما إن كبُر الأولاد، حتى هجرت ساشكا نهائياً، دون أدنى التفاتة إلى الوراء. أنا كنت أنصحه: «ساشكا اعثرْ على امرأة جيدة. ستصبح سكّيراً مدمناً». «سأنهي كأسي هذا، وأشاهد الرقص على الجليد في التلفزيون، وأرقد للنوم». ولكن حتى اللحاف السميك لا يدفئ من ينام وحيداً. وحتى في الجنة يشعر المرء بالسأم إن كان وحيداً. كان

---

(1) «لاذع، مر»: عادة روسية قديمة يصرخ المدعوون في العرس إلى أن يقبّل العريس عروسه، كي يزيل الطعم المر - المترجم.

يشرب، لكنه لم يصبح سكيراً، أبداً، كغيره. آه! عندنا جار كان يشرب حتى ماء الكولونيا، ومستحضر لوسيون والكحول المخفف، ومستحضرات الغسيل... ومع ذلك بقي حياً. والآن بلغ ثمن زجاجة الفودكا مثل ثمن المعطف سابقاً. أما المازة؟ ثمن نصف كيلو من المرتديلا يعادل نصف راتبي التقاعدي. اشربوا الحرية! كلوا الحرية! سلّمتم دولة عظمى! دون طلقة واحدة... هناك شيء لا أفهمه أبداً، لماذا لم يسألنا أحد عن رأينا؟ طيلة عمري كنت أبني هذه الدولة العظمى. هكذا كانوا يقولون لنا، وهكذا كانوا يعِدوننا.

أنا كنت أقطع أشجار الغابة، وأحمل على ظهري عوارض السكك الحديدية... سافرت وزوجي إلى سيبيريا. في حملة البناء الشيوعي. أذكر أنهار ينيسي، بريوسا، مانا... كنا نبني الخط الحديدي آباكان- تايشيت. نقلونا إلى هناك بعربات البضائع في القطار: طبقتان من الأرصفة المطروقة، دون فرش ولا بياضات، وتحت رؤوسنا نضع قبضاتنا. وعلى الأرض فتحة... و دلو من أجل البراز (نغطيه بملاءة). يقف القطار في الحقل، فنجمع القش: فهو فراشنا! لم يكن هناك ضوء في العربات الحديدية. طيلة الطريق كنا ننشد الأغاني الشبيبية! بُحّت حناجرنا. سبعة أيام استمرت رحلتنا في القطار... وصلنا أخيراً! غابات الصنوبر من حولنا، سماكة الثلج بطول الإنسان. سرعان ما انتشر داء الإسقربوط، كان كل سن من أسناننا يتمايل ويترنح. القمل. أما معدل العمل فحدثي ولا حرج! الرجال الصيادون أخذوا يصطادون الدببة. وعندها ظهر اللحم في قدورنا، بينما كان غذاؤنا الوحيد هو العصيدة. حفظت منذ تلك الأثناء، أن النار تطلق على عين الدب من أجل صيده. كنا نعيش في أكواخ دون حمامات ودون دوش. في الصيف كنا نذهب إلى المدينة ونغتسل في النوافير (تضحك) أتريدين الإصغاء، سأضيف وأزيد...

نسيت أن أروي لك كيف تزوجت... كنت في الثامنة عشر من عمري. وكنت أعمل آنذاك في معمل الطوب. فقد أغلقوا معمل الإسمنت، وذهبت للعمل في معمل الطوب. في البداية، كنت طيّانة. في ذلك الزمن كانوا يقطعون الطوب بطريقة يدوية، بواسطة الفروش... أفرغنا الشاحنة ووضعنا الطين في الساحة بطبقة مستوية، كي "تنضج". بعد نصف سنة صرت أنقل العربات من الضغط إلى الفرن- بالطوب الطري، وبالعكس بالطوب المحروق، الساخن. كنا نُخرج بأنفسنا الطوب من الفرن... بحرارة مجنونة! خلال يوم عمل الوردية نسحب بين خمسة إلى ستة آلاف لبِنة. وحتى عشرين طن. كنا نعمل نساء وفتيات... كان هناك شباب، لكن الشباب، بصورة رئيسة، كانوا يقودون الشاحنات. بدأ أحدهم يلاطفني ويتبعني... يقترب، يضحك... ويضع يده على كتفي... ذات مرة، قال لي: «أتذهبين معي؟». «أذهب». حتى أنني لم أسأل إلى أين. وهكذا تجندنا في سيبيريا. لبناء الشيوعية! (تلوذ بالصمت). أما الآن... آه! عموماً... عموماً... كل شيء عبث... تعذبنا عبثاً... من الصعب الاعتراف الآن، ومن الصعب العيش معه. كم عملنا! كم بنينا! وكل شيء بأيدينا. إنه زمن قاس! كنت أعمل في معمل الطوب... تأخرت مرة على العمل، نمت. بعد الحرب، كانت عقوبة التأخر على العمل... تأخرت عشر دقائق، فعقوبتك السجن. أنقذني رئيس العمال: «قولي إنني أرسلتك إلى المقلع»... ولو وشى بي أحد ما لسجنوه هو أيضاً. بعد العام الثالث والخمسين أُلغيت عقوبة السجن بسبب التأخير. بعد موت ستالين بدأ الناس يضحكون، أما قبلها فكانوا يعيشون بحذر شديد، ودون ابتسامة.

وماذا أتذكر الآن؟ أأبحث عن المسامير في الرماد؟ لقد احترق كل شيء! حياتنا كلها... انهار كل شيء لنا... كنا نبني... كنا نبني... لقد ذهب ساشكا لاستصلاح الأراضي البكر. كان هناك يبني الشيوعية! المستقبل

المضيء. كان يقول إنهم كانوا ينامون في الخيام شتاءً بدون أكياس النوم. بثياب عملهم. كانت يداه تتجمدان هناك. وعلى أية حال، كان فخوراً: «نشق الطريق الطويل/ مرحبا بالأرض البكر!». كانت عنده بطاقة حزبية، كتيب أحمر عليه صورة لينين، كان عزيزاً عليه. إنه نائب ومبدع، مثلي أنا. لقد انقضت حياتنا، طارت، ولن نجد لها أثراً... البارحة وقفت في الطابور ثلاث ساعات لشراء الحليب، ولم يكفِني. أحضروا لي طرداً ألمانياً إلى البيت، مع هدايا: حبوب، شوكولا، صابون... للفائزين من الخاسرين. لست في حاجة إلى طرد ألماني. لم... آخذه (ترسم علامة الصليب)... الألمان مع كلابهم... الصوف يلمع على كلابهم... يسيرون في الغابة، ونحن في المستنقع. وماء المستنقع يصل إلى حناجرنا. نساء ومتقدمون في السن. والأبقار تقف إلى جانب الناس. يلوذون بالصمت. الأبقار صامتة، كالبشر. الجميع يدرك كل شيء. أنا لا أريد السكاكر الألمانية والبسكويت الألماني! أين حصتي؟ أين أعمالي؟ كنا نؤمن ونصدق بأنه يوماً ما ستكون حياة جيدة. انتظر، اصبر... نعم، انتظري، اصبري... حياتنا كلها أمضيناها في الثكنات، وبيوت العمال المشتركة، وفي الأكواخ.

وماذا تفعلين؟ هكذا نحن... يمكن معايشة كل شيء، باستثناء الموت. لا يمكنك معايشة الموت... ثلاثين عاماً عمل ساشكا في معمل المفروشات والموبيليا. احدودب ظهره. قبل عام، أحالوه إلى التقاعد. وأهدوه ساعة. لكنه لم يبق دون عمل. كان الناس يفدون إليه ويقدمون طلباتهم. هـ كـ ذا... ومع ذلك لم يكن مرحاً، كان ملولاً. توقف عن حلاقة ذقنه. ثلاثين عاماً في معمل واحد، إنها نصف حياة. أصبح المعمل بيته. ومن المعمل جلبوا له تابوتاً، كان يلمع، وفي الداخل كان مغطى بالمخمل. في مثل هذه التوابيت لا يدفنون سوى قطاع الطرق والجنرالات. يا للعجب! الجميع لمسوه بأيديهم. عندما أخرجوا التابوت من الكوخ، ونثروا الحبوب على

العتبة. هكذا يجب، كي يسهل على الأحياء البقاء دون المتوفى. تلك هي عاداتنا القديمة... وضعوا التابوت في الفناء... طلب أحد أقارب المتوفى: «أيها الناس الطيبون، سامحوه». أجابه الجميع: «الله غفور مسامح». وماذا يسامحون؟ فقد عشنا متحابين، بود وصداقة، كأسرة واحدة. ليس لديك ما تحتاجه، أنا أعطيك. لم يعد عندي، أنت تحضر لي. كنا نحب أعيادنا. كنا نبني الاشتراكية، أما الآن فيبثون بالراديو أن الاشتراكية انتهت. ونحن... نحن بقينا...

القطارات تطرق... وتطرق... أيها الغرباء ماذا تريدون؟ ماذا؟ حالات الموت ليست متماثلة... أنا وضعت ابني الأول في سيبيريا، أصابه مرض الخناق وقضى عليه. ومع ذلك أنا أحيا. البارحة ذهبت وزرت قبر ساشكا، جلست بقربه. حدثته كيف بكته ليزكا. كانت تضرب رأسها بالتابوت. الحب لا يحسب السنوات...

سنموت... وكل شيء سيكون على ما يرام...

عن الهمس والصراخ... والبهجة

مرغريتا بوغريبيتسكايا - طبيبة، 57 عاماً

- عيدي... السابع من نوفمبر/ تشرين ثاني... عيد كبير، ساطع... العرض العسكري في الساحة الحمراء - هو الانطباع الأكثر سطوعاً في طفولتي...

أبي حملني على كتفيه، وربط على يدي بالوناً أحمر. في الأعلى وفوق صفوف المشاركين صور لينين وستالين وماركس... أكاليل وباقات من البالونات الحمراء والزرقاء والصفراء. اللون الأحمر هو لوني المفضل. إنه لون الثورة، لون الدم المسفوك باسمها... ثورة أكتوبر الكبرى! وهي الآن: انقلاب عسكري... مؤامرة بلشفية... كارثة روسية... ولينين، عميل ألماني! أما الثورة فقد صنعها الفارون من السجون والبحارة السكارى. أنا أغلق أذنيّ، لا أرغب في سماع هذا... إنه أكبر من قدرتي. طيلة حياتي عشت مقتنعة بأننا الأكثر سعادة، نحن الذين ولدنا في بلد رائع لا مثيل له. لا وجود لبلد آخر مثله! فعندنا الساحة الحمراء، وهناك على برج سباسكي تدق الأجراس التي يدقق وفقها الناس الوقت في جميع أنحاء العالم. هكذا كان يقول لي أبي... وأمي، وجدتي... «يوم السابع من نوفمبر/ تشرين ثاني، يوم أحمر في التقويم»... وقبله كنا لا ننام ليال طويلة، كانت أسرتنا كلها تصنع الأزهار والورود من الورق المضغوط، ونقصُّ القلوب من الكرتون. ثم نلونها. في الصباح ماما وجدتي تبقيان في البيت

لإعداد غداء العيد. في هذا اليوم كان الضيوف يزوروننا بالتأكيد. وكانوا يحضرون معهم علبة من الكاتو والنبيذ... لم يكن هناك أكياس سلوفان آنذاك... وجدتي كانت تحضِّر فطائرها الشهيرة بالملفوف والفطر، أما ماما فكانت تحضِّر سلطتها المميزة "أوليفيه" وتسلق الهلام اللحمي الذي يحبه الجميع. أما أنا فمع والدي في الاحتفال!

الشوارع تغص بالناس، وعلى سُتر الجميع ومعاطفهم شرائط حمراء. يلوح الجميع بمناديلهم الحمراء، والأوركسترا العسكرية تعزف الألحان، على المنصة قادتنا... تصدح أغنية: «عاصمة العالم، عاصمة الوطن/ تتلألئين بكوكبة الكرملين/ الكون كله يفتخر بك/ موسكو- أيتها الجميلة الصوّانية»... كان يود الجميع أن يصيحوا صيحة النصر«أورا!». ومن مكبرات الصوت العملاقة تتردد الهتافات: «المجد لكادحي معمل ليخاتشوف الحائز على ميداليتي لينين والراية الحمراء مرتين! أورا، يا رفاق!». «أورا! أورا!»، «المجد لاتحاد شبيبتنا الشيوعي اللينيني البطل... للحزب الشيوعي... لمحاربينا القدماء المجيدين»... «أورا!». يا للجمال! يا للبهجة! كان الناس يبكون، فقد طفح كيل الفرحة... كانت الأوركسترا تعزف المارشات والأغاني الثورية: «أعطيَ الأمر له بالتوجه إلى الغرب/ لكنها ملزمة بالتوجه باتجاه آخر/ الشبيبيون ذهبوا/ إلى الحرب الأهلية»... إنني أحفظ كلمات جميع الأغاني عن غيب، لم أنس أياً منها، وكثيراً ما أرددها بيني وبين نفسي (تردد أغنية بصوت خافت): «فسيحة كبيرة ممتدة أنت يا بلادي الحبيبة/ فيها الكثير من الغابات والسهول والأنهار/ لا أعرف بلداً آخر مثلها/ حيث يستنشق الإنسان الهواء بحرية»... بالأمس عثرت في الخزانة على أسطوانات قديمة، أنزلت من الرف البيك- آب (الفونوغراف)، وأمضيت الأمسية كلها مع الذكريات. كم كنا نحب أغاني دونايفسكي وليبيديف- كوماتش! (تلوذ بالصمت) وهأنذا في الأعالي. بابا

يرفعني على يديه... أعلى، ثم أعلى... وتبدأ اللحظة الأهم- الآن ستظهر وتهدر على الرصيف الشاحنات العسكرية الجبارة بصواريخها المغطاة، والدبابات، وبعدها ستأتي المدفعية. «احفظي هذا طيلة حياتك!». يصرخ والدي محاولاً التغطية على الهدير. وأنا أعرف أنني سأحفظها. في طريقنا إلى البيت نعرِّج على المخزن التجاري الغذائي وأنا أحصل على مشروبي المفضل "بوراتينو". في هذا اليوم كان يُسمح لي بتناول كل شيء: الصفارات السكرية، والحلويات على شكل ديوك على العيدان.

كنت أحب موسكو ليلاً... هذه الأضواء... عندما بلغت الثامنة عشر من العمر... وفي الثامنة عشر أحببت. وعندما أدركت أنني أحببت، ذهبت، ركبت المترو، ولن تحزري أبداً إلى أين ذهبت! ذهبت إلى الساحة الحمراء، تلك كانت رغبتي الأولى، أن أكون في هذه اللحظات في الساحة الحمراء. جدار الكرملين، أشجار التنوب السوداء مغطاة بالثلج وحديقة ألكسندروف المغطاة بالكثبان الثلجية. كنت أنظر إلى هذا كله وكنت أعرف أنني سأكون سعيدة. بالتأكيد سأكون سعيدة.

منذ فترة قصيرة كنت وزوجي في موسكو. وللمرة الأولى... للمرة الأولى لم نذهب إلى الساحة الحمراء. ولم نركع ولم ننحنِ. للمرة الأولى... (دموع في عينيها). زوجي أرمني، تزوجنا طلاباً. عنده بطانية وعندي سرير قابل للطي، هكذا بدأنا حياتنا. بعد أن تخرجنا من معهد الطب العالي في موسكو، تم تعييننا للعمل في مدينة منسك. جميع صديقاتي توزعن بمناطق مختلفة: واحدة في مولدافيا، وأخرى في أوكرانيا، وبعضهن إلى إيركوتسك، وقد لقبناهم بـ"الديسمبريين". بلادنا واحدة – اذهب إلى حيث تريد! لم تكن هناك آنذاك حدود أو تأشيرات أو جمارك. زوجي رغب في الذهاب إلى وطنه، إلى أرمينيا. وعدني قائلاً: «سنذهب إلى سيفان، وسترين جبال آرارات. وتجربين خبز "لا فاش"

الأرمني». ولكن اقترحوا علينا منسك. فقررنا: «لنذهب إلى بيلاروسيا!». «لنذهب!». إنها روح الشباب، أمامنا كثير من الوقت، ويبدو لنا أنه يكفي لكل شيء. وصلنا إلى منسك، فأعجبتنا. أنى ذهبت، وحيثما تحركت؛ بحيرات وغابات، مستنقعات وغابات، وسهول نادرة وسط هذه الغابات. أولادنا نشأوا هنا، طعامهم المفضل فطائر العجة مع البطاطا و"الماتشانكا" البيلاروسية. «يشوون البطاطا، يسلقون البطاطا»... و"الخاش" الأرمني في المرتبة الثانية... كنا نسافر كلنا إلى موسكو في كل عام. وكيف لا؟ لا يمكنني العيش من دون موسكو، كان عليَّ أن أمشي وأتجول في موسكو. وأن أشم هواءها. كنت أنتظر... دون صبر، أنتظر هذه الدقائق الأولى، عندما يقترب القطار من محطة بيلاروسيا، حيث يتردد المارش وقلبي يقفز من عبارات قائد القطار: «أيها الرفاق المسافرون، قطارنا وصل إلى عاصمة وطننا. المدينة الشامخة موسكو!». «موسكو التي تفور وتغلي، ولم ينتصر عليها أحد/ موسكو مدينتي، بلدي المفضل»... ونخرج من عربة القطار على وقع موسيقى هذه الأغنية.

ماذا... أين نحن؟ استقبلتنا مدينة غريبة... كانت الريح تحمل إلى الشوارع الأغلفة المتسخة، وبقايا الصحف، وتحت أقدامنا تتهشم علب البيرة المعدنية. في المحطة... وعند المترو... صفوف رمادية من الناس حيثما كان، جميعهم كانوا يبيعون أشياء مختلفة: ملبوسات نسائية داخلية وستائر، أحذية قديمة، ألعاب أطفال، سجائر تباع بالسيجارة الواحدة. كما في أفلام الحرب. هناك فقط رأيت هذا. وفوق أوراق مقطعة، وعلى علب الكرتون الموضوعة على الأرض، وضعوا المرتديلا، واللحم والسمك. في مكان كانت مغطاة بورق السلوفان المقطع، وفي مكان آخر دون أي غطاء. وكان الموسكوفيون يشترون، ويتاجرون. جوارب صوفية، محارم ورقية. هنا مسامير، وإلى جانبها تماماً الطعام والثياب. لهجات ولغات

أوكرانية، بيلاروسية، مالدافانية: «نحن جئنا من فينيتسا»... «ونحن من بريست»... كثير من الفقراء المعدمين... ومن أين جاؤوا بهذه الأعداد الكبيرة؟ ومقعدون... كما في السينما... لدي تشبيه واحد.. كما في فيلم سوفييتي قديم. وكأنني كنت أشاهد فيلماً...

في شارع أربات القديم، شارعي المفضل، رأيت صفوفاً من التجار يبيعون المنتوجات اليدوية التقليدية الروسية: ماتريوشكا، والسماورات، والأيقونات، وصور القيصر وعائلته. وصور الجنرالات البيض المعارضين لثورة أكتوبر: كولتشاك ودينيكين، تمثال صغير نصفي للينين... كانت أشكال "الماتريوشكا" متنوعة تحمل صور غورباتشوف ويلتسين. لكنني لم أتعرف على مدينتي موسكو. ما هذه المدينة؟ وعلى الإسفلت مباشرة وفوق لبِنات كان يجلس رجل عجوز ويعزف على الأوكورديون. وقد علق الميداليات على صدره. كان يغني الأغاني الحربية. وقد وضع على قدميه قبعة وفيها نقود معدنية. كان يغني أغانينا المفضلة: «تضطرم النار في موقد ضيق/ وعلى الحطبات صمغ، كالدمعة»... رغبت في الاقتراب منه... ولكن أحاط به الأجانب... وأخذوا يلتقطون له الصور. كانوا يخاطبونه بصوت عال بالإيطالية والفرنسية والألمانية. ويصفقون على كتفيه: «هيّا! هيّا!». كانوا يشعرون بالمرح، وكانوا راضين. وكيف لا! كانوا يخافون منا خوفاً شديداً... أما الآن... الصورة أمامهم! نفايات، قمامة... الإمبراطورية - بح! وإلى جانب مجسمات الماتريوشكا والسماورات تكومت كالجبل الأعلام الحمراء والشعارات، البطاقات الحزبية والشبيبية. والجوائز ومراتب الشرف الحربية السوفييتية! وأوسمة لينين والراية الحمراء، والميداليات! "ميدالية الشجاعة" و"ميدالية المآثر القتالية". ألمسها... أمرر يدي عليها... ولا أصدق! "ميدالية الدفاع عن سيفاستوبل" و"ميدالية الدفاع عن القوقاز". كلها حقيقية. عزيزة على قلوبنا. بذلة عسكرية

سوفييتية: سترات، معاطف، قبعات مع نجومها الحمراء... والأسعار- بالدولارات... «بكم؟». سأل رجل وأشار إلى "ميدالية الشجاعة". «أبيعها بعشرين دولاراً». «حسناً، أعطني واحدة». «ألف روبل». «وميدالية لينين؟». «مئة دولار»... «وضميرك بكم تبيعه؟!». كان زوجي مستعداً للمشاجرة. «هل أنت مجنون؟ من أية قعر أتيت؟ إنها مستلزمات عصر التوتاليتارية». هكذا كان عليك أن تقول... وكأنها الآن مجرد «قطع حديدية»، لكنها تروق للأجانب، فالرموز والمستلزمات السوفييتية دارجة الآن عندهم. بضاعة مطلوبة. فصرخت... وناديت للشرطي... صائحة: «انظر! انظر!». أكد لنا الشرطي قائلاً: «إنها أشياء عصر التوتاليتارية... نحن نلاحق تعاطي المخدرات والإباحية»... البطاقة الحزبية بعشرة دولارات - أليست هذه إباحية؟ أو هذا العلم الأحمر مع صورة لينين بالدولارات؟ كان لدينا شعور أننا نقف وسط ديكورٍ ما. ويسخرون منّا. لقد وصلنا إلى غير المكان المناسب. كنت واقفة أبكي. وكان الإيطاليون على مقربة مني يقيسون المعطف العسكري والقبعة بنجمتها الحمراء. «جيد! جيد!». أما بالنسبة إلى الروس...

المرة الأولى التي زرت فيها ضريح لينين كنت مع أمي. أذكر أن السماء كانت تُمطر مطراً خريفياً بارداً. وقفنا في الطابور ست ساعات. درجات... قاعة شبه مظلمة... أكاليل... همس: «امشوا، لا تعيقوا الحركة». بسبب دموعي لم أرَ شيئاً. لكن لينين بدا لي منيراً... كنت صغيرة، كنت أقنع أمي: «ماما، أنا لن أموت أبداً». أجابتني أمي: «ولماذا تقولين هذا؟ الجميع يموتون. حتى لينين نفسه مات». حتى لينين... لا أعرف كيف أحدثك عن هذا كله... لكنني في حاجة... أنا أريد. كنت أريد أن أتحدث... أتكلم، ولكن لا أعرف مع من. وعن أي شيء؟ عن كيف كنا سعداء بصورة مذهلة! أنا الآن مقتنعة بهذا بصورة مطلقة. لقد نشأنا فقراء وسذّجاً، لكننا

لم نفكر في هذا ولم نحسد أحداً. كنا نذهب إلى المدرسة بعلب هندسة وأقلام رخيصة بأربعين كوبيكاً. صيفاً، تعثرين على حذاء قماشي، تنظفينه بمعجون الأسنان فيغدو جميلاً! شتاءً، في جزمات مطاطية. الجو صقيع، والنعل ينكمش. فتشعرين بالمرح! كنا نؤمن بأن غداً سيكون أفضل من اليوم، وبعد غد سيكون أفضل من الأمس. كان لدينا مستقبل. وماضي. كل شيء كان عندنا!

كنا نحب وطننا بلا حدود. السيارة السوفييتية الأولى «أورا!». عامل أمّي اكتشف سر الفولاذ السوفييتي الذي لا يصدأ «أورا!». فيما بعد، فقط فيما بعد، عرفنا أن هذا السر معروف للعالم أجمع منذ زمن طويل. أما آنذاك: نحن أول من نطير عبر القطب، ونتعلم توجيه الشفق القطبي الشمالي... سنغير اتجاه مجاري الأنهار الكبيرة... وسنسقي الصحاري الأبدية... الإيمان! الإيمان! الإيمان! إنه شيء فوق العقل. كنت أستيقظ على صوت النشيد الوطني بدلاً من المنبه: «اتحاد للجمهوريات الحرة لا تنتهك حرمته / شكلته للأبد روسيا العظيمة»... في المدرسة كنا ننشد أغاني كثيرة... أنا أذكر أغانينا (تردد أغنية): «الآباء كانوا يحلمون بالحرية والسعادة/ ولهذا الهدف ناضلوا غير مرة/ وفي الصراع صنع لينين وستالين/ وطن أجدادنا لنا»... في البيت كنا نتذكرها ونرددها. في اليوم التالي بعد أن قبِلوني في منظمة الطلائع، عُزِف النشيد الوطني في الصباح الباكر بالراديو، فقفزت من سريري ووقفت على السرير أحيي النشيد الوطني إلى أن انتهى. قَسَم الطلائع: «أنا... أنتسب إلى صفوف... أمام رفاقي... أعِدُ رسمياً: أن أحب وطني بحرارة»... كان البيت محتفلاً على شرفي، بالفطائر اللذيذة. ربطة العنق الحمراء لم تكن تفارقني، كنت أغسلها وأكويها كل صباح، بحيث لا تكون عليها أية تجاعيد. وحتى في المعهد الجامعي كنت أربط وشاحي ربطة طلائعية. بطاقتي الشبيبية لا تزال محفوظة عندي... حتى

الآن... كبّرتُ عمري سنة إضافية، كي أنتسب بسرعة إلى منظمة الشبيبة الشيوعية. كنت أحب الشارع، حيث يوجد مكبر صوت الراديو... فالراديو كان حياتنا، هو كل شيء. تفتح النافذة فتسمع صوت الموسيقى الرائعة من الراديو[1]، وأية موسيقى! ما إن تسمعها حتى تقف وتمشي مشية نظامية في الشقة. كما لو كنت في صف عسكري... ربما كان هذا سجناً، لكنني أشعر بالدفء في هذا السجن. هكذا اعتدنا... وحتى في الدور (الطابور) حتى الآن نقف واحداً إثر الآخر، ملتصقين، كي نكون معاً. ألم تلاحظي ذلك؟ (ثانية تردد أغنية): «ستالين- مجدنا النضالي/ ستالين يحلّق بشبابنا إلى الأعلى/ بالأغاني مناضلاً ومنتصراً/ شعبنا يسير خلف ستالين»...

نعم! نعم! نعم! كان الموت حلمنا الأكبر! نُقدم على التضحية بالنفس. قَسَم الشبيبة الشيوعية: «أنا مستعدة لتقديم حياتي، إذا ما طلب شعبي مني». هذه لم تكن مجرد كلمات، هكذا تربينا فعلاً. إذا ما سار صف من الجنود في الشارع كان جميع المارة يقفون احتراماً... بعد النصر، كان الجندي إنساناً غير عادي... عندما انتسبت إلى الحزب كتبت التصريح التالي: «اطلعت على برنامج الحزب وعلى نظامه الداخلي وأعترف بهما. مستعدة لتقديم جميع قواي وحتى حياتي لوطني إذا ما تطلب الأمر ذلك». (تنظر إليّ بانتباه) وأنتِ، من تظنينني؟ بلهاء؟ طفلة؟ أجل... بعض معارفي يضحكون بصراحة قائلين: اشتراكية عاطفية، مُثُل عليا... هكذا أبدو في أعينهم. باهتة، ساذجة! منغولية! أنتِ، مهندسة النفس الإنسانية. تريدين طمأنتي وتشفقين عليّ؟ الكاتب عندنا هو أكبر من مجرد كاتب. إنه معلم. أب روحي. هكذا كان سابقاً، أما الآن فلا. كثير من الناس يؤدون الصلاة في

---

(1) كان جهاز الراديو الذي يبث إذاعة موسكو المركزية موجوداً - وبصورة مجانية والزامية - في كل شقة، وفي كل بيت، وفي كل غرفة من غرف الأبنية السكنية الجماعية في جميع أنحاء الاتحاد السوفييتي - المترجم.

الكنيسة، والمؤمنون منهم قلة قليلة. غالبيتهم من المعانين المتألمين. مثلي أنا... مصابة... أنا لا أؤمن بالشريعة، بل أؤمن بقلبي. لا أعرف الصلاة، لكنني أصلي... أبونا عندنا، ضابط سابق، في جميع الصلوات يتحدث عن الجيش، عن القنبلة الذرية، عن أعداء روسيا وعن مؤامرات الماسونيين. أنا أريد كلمات أخرى، صلوات أخرى تماماً... وليس هذه. ولكن في كل مكان أسمع هذه الكلمات... كلها كراهية... ليس هناك من مكان يمكن للمرء أن يجلب لروحه الطمأنينة. أفتح التلفزيون، فأجد الشيء نفسه... اللعنات وحدها... الجميع يتخلون عما كان. يلعنون كل شيء. مخرجي المفضل مارك زاخاروف، لم أعد أحبه ولم أعد أثق به كما في السابق... لقد أحرق بطاقته الحزبية، وقد شاهدته في التلفزيون... علانية، أمام الملأ. إن هذا ليس مسرحاً! إنها حياة! حياتي أنا. وهل من الممكن التصرف بها على هذا الشكل؟ بحياتي؟... لا أريد هذه المشاهد الاستعراضية (تبكي).

أنا لا أستطيع... أنا من أولئك الذين لا يستطيعون اللحاق.. الانتقال بسرعة من القطار الطائر إلى الاشتراكية إلى القطار المنطلق إلى الرأسمالية... أنا أتأخر... يضحكون على "المواطن السوفييتي": إنه حيوان، إنه أبله. يضحكون عليَّ ويسخرون مني... لقد أصبح "الحمر" وحوشاً و"البيض" فرساناً. إن قلبي وعقلي ضد هذا، لا أقبل بهذا فيزيولوجياً. لا أهضمه. لا أستطيع، أنا عاجزة... كنت أحبي غورباتشوف، على الرغم من أنني كنت أنتقده... إنه كان... لقد اتضح هذا الآن، مثلنا جميعاً، كان حالماً. كان مصباحاً كاشفاً يمكن القول هكذا. لكنني لم أكن مستعدة لتقبل يلتسين... ولتقبل إصلاحات غايدار. لقد اختفت أموالنا في يوم واحد. أموالنا وحياتنا... كل شيء فقد قيمته خلال لحظة. بدلاً من المستقبل المضيء أخذوا يقولون: اثروا، اغتنوا، أَحِبّوا المال... انحنوا لسلطان الوحش، المال! الشعب كله لم يكن مهيأً لهذا. لم يحلم أحد بالرأسمالية،

أقول عن نفسي بدقة، لم أكن أحلم بها... كانت تعجبني الاشتراكية. تلك كانت أعوام بريجنيف... النباتية... لم أعش سنوات أكلة لحوم البشر. كنت أغني أغاني المطربة باخموتوفا: «تحت جناح الطائرة يغني بحر غابات الصنوبر الأخضر»... كنت مستعدة لأن أرتبط بصداقة متينة وأن أبني "المدن السماوية الزرقاء". كنت أحلم! «أنا أعرف أنه ستكون مدينة». و«هنا ستكون مدينة- حديقة»... كنت أحب ماياكوفسكي. أشعاره وأغانيه الوطنية. لقد كان هذا مهماً آنذاك. كان يعني بالنسبة إلينا الشيء الكثير. لن يقنعني أحد أبداً أن الحياة أعطيت لنا فقط من أجل أن نأكل الطعام اللذيذ وننام. وأن البطل هو من اشترى شيئاً في مكان وباعه في مكان آخر أغلى بثلاثة كوبيكات. (هذا ما يوحون به إلينا الآن). إذاً، كانوا حمقى وأغبياء الذين قدموا حياتهم من أجل الآخرين. من أجل المثل العليا السامية. لا! لا! البارحة كنت واقفة أمام الصندوق في المخزن... وكانت تقف أمامي امرأة عجوز، كانت تعد نقودها في محفظتها، وتعيد حسابها، وأخيراً اشترت مئة غرام من أرخص أنواع المرتديلا، المخصصة للكلاب... وبيضتين. وأنا أعرفها جيداً... لقد عملت معلمة طيلة حياتها...

لا يمكنني أن أشعر بالسرور من هذه الحياة الجديدة! ولن أكون سعيدة فيها، فأنا لن أعرف السعادة أبداً عندما أكون وحيدة. والحياة تحاصرني وتدفعني إلى هذه الطينة. إلى الأرض. على أولادي أن يعيشوا وفق قوانين هذه الحياة الجديدة. وهم ليسوا في حاجة إليَّ، إنني كلّي مضحكة. حياتي كلها... راجعت أوراقي منذ فترة قصيرة، وعثرت على يومياتي عندما كنت صبية شابة: الحب الأول، القبلة الأولى، وصفحات كاملة تتحدث عن حبي لستالين وعن أني مستعدة للموت كي أراه. إنها مذكرات فتاة مجنونة... أردت أن أرميها ولكنني لم أستطع. خبأتها. أخاف أن يطلع عليها أي كان. سوف يسخر، ويضحك عليَّ. لم أظهرها لأحد أبداً...

(تصمت). أذكر أشياء كثيرة، لا يمكن شرحها بالعقل السليم. أنا نسخة فريدة، أليس كذلك! أي طبيب نفسي سيشعر بالسرور لو رآني... أليس كذلك!؟ أنت حسنة الطالع... (تبكي، وتضحك).

اسأليني... عليك أن تسألي، كيف يمكن الجمع بين سعادتنا وبين اعتقال الناس ليلاً ومداهمة بيوتهم؟ فهناك من اختفى، وهناك من بكى وانتحب خلف الباب. لكنني لا أذكر هذا أبداً. لكنني أذكر كيف كان يزهر الليلك ربيعاً، والنزهات الجماعية، والأرصفة الخشبية الدافئة من أشعة الشمس. رائحة الشمس. الاستعراضات الباهرة للرياضيين، وأسماء لينين وستالين المتشكلة من تشابك الأجسام البشرية والورود في الساحة الحمراء. لقد طرحت على أمي هذا السؤال...

ماذا نذكر نحن عن بيريا[1] عن لوبيانكا[2]. لاذت أمي بالصمت... تذكرت مرة عندما عادت أمي وأبي من الإجازة الصيفية في القرم. كان طريقهما عبر أوكرانيا. حدث هذا في سنوات الثلاثينيات... في زمن التطبيق القسري للمزارع التعاونية... كانت هناك مجاعة كبيرة هائلة في أوكرانيا. وقد ارتبطت هذه المجاعة في أوكرانيا بالموت... كانت الملايين تموت... قرى كاملة... لم يكن هناك من يدفن الموتى... كانوا يقتلون الأوكرانيين لأنهم رفضوا الانتساب إلى المزارع التعاونية (الكولخوزات). كانوا يقتلونهم جوعاً. الآن، عرفت هذا... كانت عندهم زاباروجسكايا سيتش[3]، والشعب كان لا يزال يذكر الحرية التي كان يتنعم بها... وهناك أرض شديدة الخصوبة؛ تغرس عوداً فتنمو منه شجرة. أما

(1) وزير الداخلية في عهد ستالين – المترجم.

(2) مقر المخابرات السوفييتية الـ ك. ج. ب. في موسكو – المترجم.

(3) زابارجوسكايا سيتش: منطقة في أوكرانيا كان يحكمها الكازاك الأحرار في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وفق قوانينهم، وتتمتع باستقلال ذاتي – المترجم.

هم فكانوا يموتون... كانوا يَنفُقون كالقطيع. أخذوا منهم كل شيء، ولم يتركوا لهم شيئاً لحاجاتهم الشخصية. وحاصروهم بالوحدات العسكرية، كما في معسكر الاعتقال. الآن أصبحت أعرف هذا... لدي صديقة أوكرانية في مكان عملي، وهي سمعت بهذا كله من جدتها... حيث قامت أم في قريتهم بتقطيع ابنها بالفأس، كي تطعم بقية أسرتها الكبيرة، قتلت ابنها بيدها... لقد حدث هذا كله. كانوا يخشون من أن يخرج الطفل من بيته. كانوا يمسكون بالأطفال، كما يمسكون بالقطط والكلاب. ينقبون عن الحشرات في أرض مزارعهم الصغيرة ويأكلونها. ومن استطاع رحل إلى المدينة إلى القطارات. كانوا ينتظرون أن يرمي لهم أحد من الركاب قشرة من الخبز... وكانوا الجنود يرفسونهم بجزماتهم العسكرية، ويضربونهم بأعقابها... كانت القطارات تنطلق مسرعة دون توقف أمامهم. كان العاملون في العربات الحديدية يغلقون النوافذ ويسدلون الستائر. ولم يكن أحد يسألهم عن أي شيء. كانوا يعودون إلى موسكو، ويحضرون معهم النبيذ والفواكه، ويفتخرون باسمرار بشرتهم ويتذكرون البحر (تصمت). كنت أحب ستالين... أحببته فترة طويلة. حتى أنني أحببته آنذاك، عندما بدؤوا يكتبون عنه بأن كان قصير القامة، أحمر لون البشرة، يده منكمشة. أطلق النار على زوجته. وسحبوا جثته من الضريح ورموها خارجه. ومع ذلك فقد كنت أحبه.

بقيت طويلاً فتاة ستالينية. طويلاً جداً... أجل هذا كان! حصل معي... حصل معنا... ومن دون تلك الحياة أبقى فارغة اليدين. من دون أي شيء... سأكون متسولة! كنت أفتخر بجاري، العم فانيا-البطل! عاد من الحرب من دون قدميه الاثنتين. كان يتحرك في الفناء بعربة خشبية بدائية. كان يدعوني "صديقتي مرغريتا". كان يصلح للجميع أحذيتهم وجزماتهم. كان يغني وينشد، وهو سكران: «أعزائي، إخوتي وأخواتي... / أنا حاربت

في المعركة ببطولة»... بعد موت ستالين ببضعة أيام، زرته، فقال: «ما العمل يا مرغريتا؟ لقد نَفَق هذا»... هكذا يتحدث عن محبوبي ستالين! أمسكت بجزمتي مهددة: «كيف تجرؤ؟ أنت بطل! تحمل وساماً». بقيت أفكر في نفسي يومين: أنا طليعية، يعني أن من واجبي أن أذهب إلى لجنة أمن الدولة وأخبرهم ما قاله العم فانيا. عليّ أن أقدم طلباً. وهذا موضوع جدي تماماً... نعم! مثل البطل الروائي بافليك ماروزوف... كان في إمكاني الوشاية حتى بأبي... بأمي... نعم! لقد كنت مهيأة... أجل! كنت جاهزة! عدت من مدرستي لأجد العم فانيا واقعاً في المدخل. فقد سقط من على عربته، ولم يكن في استطاعته النهوض، فشعرت بالشفقة عليه.

تلك أنا... كنت أجلس وألصق أذني براديو موسكو، وأسمع كل ساعة التقرير الصحي عن وضع الرفيق ستالين. وكنت أبكي. من كل قلبي. أجل، كان هذا! كان! كان هناك زمن ستاليني... وكنا نحن ستالينيين... أمي من أسرة نبيلة. قبل الثورة بعدة أشهر تزوجت من ضابط، حارب فيما بعد في الحرس الأبيض. افترقا في مدينة أوديسا، هو هاجر مع بقايا وحدات دينيكين من الحرس الأبيض، أما أمي فلم تستطع ترك أمها المشلولة. أخذوها إلى اللجنة الأمنية باعتبارها زوجة ضابط في الحرس الأبيض. لكن المحقق الذي استلم قضيتها أحب أمي. وأنقذها بطريقة ما... لكنه ألزمها بالزواج منه. بعد انتهاء خدمته عاد ذات يوم من العمل سكيراً وضربها بالمسدس على رأسها. ثم اختفى، دون أن نعرف أين. تلك هي ماما... المرأة الجميلة التي تعشق الموسيقى، وتعرف عدة لغات، هي أيضاً كانت تحب ستالين بلا حدود. وهددت والدي، بأنه إن كان غير راض لسبب ما: «فسأذهب إلى لجنة الحزب المنطقية، وأقول لهم أي شيوعي أنت». في حين أن أبي... أبي كان قد شارك في الثورة... وفي العام 1937 تم اعتقاله... ولكن سرعان ما أُطلق سراحه، لأن أحد البلاشفة البارزين،

الذي كان يعرفه شخصياً، قد دافع عنه. وقدم له ضمانة. ولكن لم يعيدوا والدي إلى صفوف الحزب. وهي تلك الضربة التي لم يستطع تحملها. في السجن قلّعوا أسنانه وضربوه على رأسه. ومع ذلك فلم يتغير وبقي شيوعياً. اشرحي لي هذا... هل تظنين أنهم أغبياء؟ أو أنه ساذج؟ لا، فقد كانوا أشخاصاً أذكياء ومثقفين. لقد قرأت أمي شكسبير وغوته بلغتهما الأصلية، أما أبي فقد تخرج من أكاديمية تيميريازوف. أما الشعراء بلوك... ما ياكوفسكي... إينيسا آرماند؟ فهم شعرائي المفضلون... ومُثُلي العليا... نشأت بتواصلي معهم... (استغرقت في التفكير).

في زمن مضى، تعلمت الطيران في النادي الجوي. قد تستغربين كيف بقينا أحياء وعلي أية طائرات كنا نطير! ليست طائرات بل طائرات يدوية من صنعنا - دفوف خشبية مغطاة بالشاش القطني. أما جهاز التدوير فهي يد ودوّاسة. ولكن، بالمقابل عندما تطيرين ترين الطيور وترين الأرض من الأعلى. تحسين بالجناحين! السماء تُغيِّر الإنسان... الارتفاع يغير الإنسان... أتدركين ما أتحدث عنه؟ أتحدث عن حياتنا تلك... لا أشفق على نفسي، بل أشفق على ما كنا نحبه.

كنت أتذكر بصدق... حتى أنني لا أعرف... لمَ أشعر بالخجل الآن عندما أروي هذا لأحد ما؟

حلّق غاغارين في الفضاء... خرج الناس إلى الشوارع، ضحكوا، تعانقوا، بكوا. لا يعرف أحدهم الآخر. عمال في ثياب العمل خرجوا من مصانعهم، أطباء في أرديتهم البيضاء أطاحوا بأرديتهم إلى السماء: «نحن الأوائل! رَجُلنا في الفضاء». لقد كان هذا مذهلاً، هذه الدهشة. حتى الآن لا يمكنني أن أسمع بهدوء هذه الأغنية: «ونحلم ليس بهدير المطار الفضائي/ ولا بهذه الزرقة المتجمدة/ نحلم بالعشب، بالعشب أمام منازلنا/ العشب الأخضر، الأخضر»... الثورة الكوبية... الشاب فيدل كاسترو... كنت

أصرخ: «ماما! بابا! لقد انتصروا! فيفا كوبا!»[1]، (تردد الأغنية): «كوبا، يا حبيبتي!/ جزيرة الغروب الأرجواني/ تحلق الأغنية فوق الكوكب صادحة/ كوبا، يا حبيبتي!». جاء إلينا في المدرسة المحاربون القدماء في معارك إسبانيا... أنشدنا معهم أغنية "غرينادا"[2]: «غادرت كوخي وذهبت للحرب/ من أجل إعطاء الأرض للفلاحين في غرينادا»... كانت معلقة عندي فوق طاولتي صورة الزعيم الإسباني الشيوعي دولوريس إيباروري. نعم... كنا نحلم بغرناطة... ثم بكوبا... وبعد عدة عقود من السنين كان فتيان آخرون، مثلنا تماماً، يغنون عن أفغانستان. ليس من السهل أن ننخدع. ولكن، على أية حال، على أية حال! أنا لن أنسى هذا! لن أنسى أبداً كيف ذهب صفنا، الصف العاشر كله إلى الأرض البكر. كنا نسير على شكل طابور، بحقائبنا الظهرية ورايتنا الخفاقة. وبعضهم كان يحمل غيتاراً أيضاً على ظهره. كنت أفكر في نفسي: «إن هذا بطل!». كثير منهم عادوا فيما بعد مرضى: لم يجدوا لهم مكاناً في الأرض البكر، فنقلوهم إلى مكان آخر في الغابة ليبنوا سكة حديدية، حيث كانوا يحملون القضبان الحديدية ويسيرون في المياه الجليدية التي تغطي أجسامهم حتى الخصر. كانت تنقصهم الآليات والتكنولوجيا... ويأكلون البطاطا المعفنة، وأصيبوا جميعاً بمرض الإسقربوط. لكنهم كانوا هؤلاء الفتيان! وكانت هناك فتاة تودعهم بسرور وسعادة. إنها أنا! ذاكرتي لن أعطيها لأحد. لا للشيوعيين، ولا للديمقراطيين، ولا للوسطاء والسماسرة. إنها أنا! ذاكرتي لوحدي! يمكنني أن أستغني عن الكثير: لست في حاجة إلى مال كثير، ولا إلى الطعام الباهظ الثمن ولا إلى ثياب الموضة... ولا إلى سيارة الفاخرة... فنحن بسياراتنا "لادا" تجولنا في الاتحاد السوفييتي كله: لقد وصلت إلى

---

(1) عاشت كوبا - المترجم.

(2) غرناطة.

كاريليا... وإلى بحيرة سيفان... وإلى جبل بامير. فهذا كله كان وطني. وطني الاتحاد السوفييتي. يمكنني العيش دون الكثير. ولا يمكنني دون ما كان عندي (صمتتْ طويلاً، طويلاً جداً لدرجة أنني ناديتها).

لا تخافي... أنا بخير... الآن، بخير... ما زلت أجلس في بيتي... أنظر إلى القطة، وأغزل القفازات. هذا العمل البسيط، كغزل الصوف، يساعدني أكثر من أي شيء آخر... وما الذي قيدني؟ لا... أنا لم أصل إلى النهاية. باعتباري طبيبة، كنت أتصور كل شيء، بالجزئيات كافة. الموت شنيع، لا وجود لموت جميل. لقد رأيت الذين انتحروا وشنقوا أنفسهم. في الدقائق الأخيرة يحصلون على الرعشة، إما إنهم غارقون في البول، وإما في البراز. ومن عينيه يصبح الإنسان أزرق اللون... بنفسجياً... هذه الفكرة وحدها مريعة للمرأة. لم تكن عندي أية أوهام بخصوص الموت الجميل. ولكن... ثمة شيء يطرحك... يستحثك، يرغمك على الاندفاع. وأنتِ في رعشة يائسة... ثمة تنفس ونبض... وثمة قفزة... وعندها يصعب على المرء أن يمتلك نفسه. رميت حبلَ الغسيل. ركضت إلى الشارع. تبللت بالمطر! كم هذا جميل! (تسكت) بقيت فترة طويلة لا أتحدث... ثمانية أشهر كنت راقدة في كآبة. لم أعد أتقن المشي. ثم نهضت آخر الأمر. وتعلمت المشي من جديد. أنا كائنة... وثانية على أرض صلبة... لكنني كنت في حالة سيئة... لقد بعجوني كالبالون... عمَّ أتحدث أنا؟ كفى! هذا يكفي... (تجلس باكية) يكفي...

العام التسعون... في شقتنا ذات الغرف الثلاث بمنسك كان يعيش خمسة عشر شخصاً، ومن بينهم رضيع. أول من جاء من باكو أقارب زوجي؛ أخته وأسرتها وأبناء عمه. حلّوا ضيوفاً علينا، وجلبوا معهم كلمة "الحرب". دخلوا إلى بيتنا صارخين، بعيون منطفئة... حدث هذا خريفاً أو شتاءً... كان الطقس بارداً. نعم وصلوا خريفاً، لأن عددنا ازداد في الشتاء.

شتاءً، من طاجيكستان... من مدينة دوشانبيه وصلت أختي مع أسرتها ووالدي زوجها. هكذا حدث تماماً... نعم... كنا ننام في كل مكان، وصيفاً كنا ننام حتى في الشرفة. كانوا لا يتحدثون، بل كانوا يصرخون... كيف كانوا يركضون، والحرب كانت تركلهم. أحرقت كعابهم. أما هم... جميعهم، مثلي أنا سوفييتيون... جميعهم سوفييتيون. مئة بالمئة! وبهذا كانوا يفخرون. وفجأة لا وجود لشيء من هذا. أبداً! استيقظوا صباحاً، ألقوا نظرة من النافذة فوجدوا أنفسهم تحت علم آخر. في بلد آخر. الآن هم غرباء.

كنت أصغي. وأصغي. وهم يتحدثون...

أي زمن كان! جاء غورباتشوف... وفجأة تحت النوافذ، تبادل إطلاق النار. يا إلهي! في العاصمة... في دوشانبيه... جلسوا جميعهم أمام شاشة التلفزيون خائفين من أن تفوتهم آخر الأخبار. في المعمل كنا نساء عاملات، وغالبيتنا روسيات. أنا أسأل: «أيتها الفتيات، ماذا سيحصل؟». «الحرب ستبدأ. بدؤوا بذبح الروس». بعد بضعة أيام نهبوا مخزناً تجارياً... ثم مخزناً آخر...

... في الأشهر الأولى كنت أبكي، ثم توقفت عن البكاء. فالدموع تنفد بسرعة. أكثر ما يخفن منه هم الرجال، معارفهن والأغراب. يأخذونهن عنوة إلى البيت، إلى السيارة... «جميلة! أيتها الفتاة، تعالي نتضاجع»... فتاة جارتنا، طلاب صفها اغتصبوها. الفتيان الطاجيكيون الذين نعرفهم. ذهبت أمها إلى أسرة أحدهم، فصرخوا عليها: «لماذا جئت إلى هنا؟ انقلعي إلى روسيا. سريعاً، لن يبقى منكم أحد أنتم الروس. ستركضون في كلسونكم الداخلي».

... لماذا ذهبنا إلى هناك؟ ببطاقة عمل شبيبية. كنا نبني محطة نوركسك

الكهرومائية، ومعمل الألومنيوم... أنا تعلمت اللغة الطاجيكية: الشاي خانة، بيالا، أريك، آرتشا، تشينارا... كانوا يدعوننا بـ "شوراوي" أي الإخوة الروس.

... حلمت بالجبال المزهرة؛ أشجار اللوز تزهر. استيقظت والدموع تغطيني...

... في مدينة باكو كنا نسكن في بناء من تسعة طوابق. في الصباح، أخرجوا الأسر الأرمنية إلى الساحة... اجتمع الجميع حولهم، اقترب منها كل من كان موجوداً، وكل منهم ضرب الأرمن بشيء ما. صبي صغير، في الخامسة من العمر، اقترب وضربهم بمسطرين صغير. فربتت عجوز أذربيجانية على رأسه...

... أما أصدقاؤنا، وهم أيضاً أذربيجانيون، لكنهم خبأونا عندهم في القبو. ورموا قمامة وصناديق لتغطيتنا. في الليل كانوا يجلبون لنا الطعام...

... صباحاً ركضت مسرعاً إلى عملي، الجثث في الشوارع. مرمية، جالسة متكئة إلى الجدران، وكأنها لأحياء. غطوا بعضها بالسماط، وبقي بعضها الآخر مكشوفاً. لم يجدوا الوقت الكافي. غالبية الجثث كانت عارية... رجالاً ونساءً... الجثث الجالسة كانت بلباسها، حيث من غير الممكن نزع الثياب عنها...

... سابقاً، كنت أظن أن الطاجيك كالأطفال، لا يؤذون أحداً. خلال نصف سنة وربما أقل، أصبح من الصعب التعرّف على دوشانبيه، وعلى ناسها. المشارح غاصة بالجثث. في الصباح، وقبل التنظيف، جلطات من الدم الجامد... كالهلام اللحمي...

أياماً كاملة كانوا يسيرون بموازاة بنائنا مع اليافطات: «الموت للأرمن! الموت!». رجالاً ونساءً. شباباً وشيوخاً. حشد غاضب، لا وجود

لوجه إنساني بينهم. الصحف كانت تغص بالإعلانات: «أستبدل شقتي المؤلفة من ثلاث غرف والموجودة في مدينة باكو بأية شقة في أية مدينة من روسيا»... نحن بعنا شقتنا بثلاثمئة دولار فقط. بثمن البراد. ولو لم نبعها بهذا المبلغ البخس، كان من الممكن أن يقتلونا...

أما نحن فاشترينا بثمن شقتنا سترة نسائية صينية لي وحذاءً شتوياً لزوجي. وتركنا هناك الأثاث والمفروشات والأواني المنزلية... والسجاد... تركنا كل شيء...

... كنا نعيش دون كهرباء ودون غاز... دون ماء... في السوق الأسعار كاوية. على مقربة من بنائنا افتتح كشك. كانت تُباع فيه الورود وأكاليل الدفن. ورود وأكاليل فقط...

... ليلاً، كتب أحدهم على جدار البناء المجاور بالألوان: «عليك أن تشعر بالخوف، أيها الروسي الحثالة! دباباتك لن تنفعك». أُبعد الروس جميعاً من المناصب القيادية... وكانوا يطلقون عليهم النار من الزاوية... المدينة أصبحت قذرة بسرعة، وأصبحت كالقرية. وكأنها مدينة أغراب، وليست مدينة سوفييتية...

كانوا يقتلون الروس لأي سبب... لأنهم لم يولدوا هناك، ويتحادثون بالروسية. وإذا ما اعترض أحدهم يوجهون نحوه السلاح... وكيف كنّا نعيش قبل ذلك؟ كان عندنا النخب الأول في الأعياد هو "نخب الصداقة" و"يس كيس سيروم إم" (باللغة الأرمنية - أنا أحبك) و"مان ساني سيفيرام" (باللغة الأذربيجانية - أنا أحبك). كنا نعيش معاً بود وصداقة...

... الناس البسطاء... معارفنا الطاجيكيون كانوا يغلقون أبواب بيوتهم على أبنائهم، ولم يسمحوا لهم بالخروج، كي لا يعلّموهم... كي لا يرغموهم على القتل.

نهاجر، ننزح... ركبنا القطار، وبدأ البخار يخرج من عجلاته. الدقائق الأخيرة. أحدهم رش عجلات القطار برشة طلقات من الرشاش. كان الجنود قد شكلوا ما يشبه الرواق، وأغلقوا الطريق إلينا. ولولا الجنود لما تمكنا من الركوض أحياء إلى عربات القطار. إذا ما وجدت أن التلفزيون يعرض على شاشته الحرب، أشعر على الفور... بتلك الرائحة... رائحة اللحم البشري المحترق... رائحة مقرفة... تدفعك إلى الغثيان...

بعد نصف عام عانى زوجي من النوبة القلبية الأولى... وبعد نصف عام آخر عانى من النوبة القلبية الثانية... وعانت أخته من السكتة الدماغية. بسبب هذا كله... فقدت عقلي... أتعرفين كيف يفقد الشَّعر عقله؟ يغدو قاسياً، صلباً، كشبكة صيد السمك. الشعر أول ما يفقد عقله وتوازنه... فمن يحتمل؟ كارينا الصغيرة... نهاراً هي طفلة طبيعية، وما إن يحل الغروب من وراء النافذة، حتى ترتجف. وتصرخ: «ماما، لا تغادريني! عندما سأنام سيقتلونك أنت وأبي!». كنت أركض صباحاً إلى عملي وأرجو أن تدهسني سيارة. لم أذهب إلى الكنيسة سابقاً أبداً، أما الآن، فأنا أقف وأصلي على ركبتيَّ ساعات، راجية: «يا مريم العذراء! أتسمعينني؟». جافاني النوم، ولم أعد قادرة على تناول الطعام. أنا لست سياسية، ولا أعرف السياسة. ببساطة، أشعر بالرعب. ماذا تريدين أن تسأليني؟ لقد حدثتك بكل شيء... انتهيت!

عن المارشال الأحمر الوحيد والأيام الثلاثة للثورة المنسية

سيرجي فيودوروفيتش أخروميف (1923-1991)، مارشال الاتحاد السوفيتي، بطل الاتحاد السوفيتي (1982). رئيس أركان القوات المسلحة السوفيتية (1984-1988) الحائز على جائزة لينين (1980). منذ عام 1990 المستشار العسكري لرئيس الاتحاد السوفيتي.

من مقابلات في الساحة الحمراء (ديسمبر/ كانون أول، 1991)

كنت طالبة...

حدث كل شيء بسرعة فائقة... بعد ثلاثة أيام انتهت الثورة... في نشرة الأخبار بالتلفزيون قالوا: أعضاء لجنة الدولة للطوارئ اعتُقلوا... وزير الداخلية بوغو أطلق الرصاص على نفسه، المارشال أخروميف شنق نفسه... ناقشنا هذا طويلاً بين أفراد أسرتي. أذكر أن أبي قال: «إنهم مجرمو حرب. كان يجب أن يكون مصيرهم كمصير الجنرالين الألمانيين شبير وغيسا». كلهم كانوا ينتظرون محاكمة نورمبرغ...

كنّا شباباً... الثورة! بدأت أفتخر ببلدي، عندما خرج الناس إلى الشارع ضد الدبابات. وقبل هذا، جرت أحداث في فيلنيوس، وريغا، وتبيليسي. في فيلنيوس، دافع الليتوانيون عن مركزهم التلفزيوني، لقد عرضوا هذا كله علينا بالتلفزيون، ومن نحن؟ وهل نحن قمامة؟ خرج إلى الشارع أناس، لم يخرجوا سابقاً أبداً؛ كانوا يجلسون في المطابخ ويبدون امتعاضهم. أما

الآن فقد خرجوا... أنا وصديقتي أخذنا معنا المظلتين، من أجل المطر، ومن أجل الصراع (تضحك). كنت فخورة بيلتسين، عندما كان يقف فوق الدبابة، أدركت أن هذا هو رئيسي! رئيس الحقيقي. كان هناك الكثير من الشباب والشابات، من الطلاب. لقد تربينا على برنامج كوروتيش التلفزيوني "الوميض" وبرنامج "الستينيات". الوضع عسكري... صاح أحدهم بمكبر الصوت: «أيتها النساء، اذهبن. سيحدث إطلاق نار، وستسقط جثث كثيرة». إلى جانبي شاب أرسل زوجته الحامل إلى البيت، كانت تبكي: «ولماذا أنت باق؟». «هذا واجب».

نسيت شيئاً مهماً... كيف بدأ هذا اليوم... عندما استيقظت، كانت أمي تبكي بصوت عال. كانت تنوح. سألت أمي أبي: «وما هي حالة الطوارئ؟ ما رأيك، ماذا فعلوا بغورباتشوف؟». أما جدتي فكانت تركض من التلفزيون إلى الراديو: «ألم يعتقلوا أحداً؟ ألم يطلقوا النار على أحد؟». وُلدت جدتي في العام الثاني والعشرين. طيلة حياتها كانوا يطلقون النار على بعضهم، ويتبادلون إطلاق النار. ويعتقلون بعضهم البعض. هكذا مضت حياتها... وبعد أن توفيت جدتي، كشفت ماما السر العائلي. رفعت الستارة... هذه الستائر... في العام السادس والخمسين جلبوا أبي هيكلاً عظمياً لجدتي وأمي من معسكر الاعتقال. جلبوه من كازاخستان. جاء مع مرافقيه ضعيفاً، مريضاً، هيكلاً عظمياً. فلم يعترفا به لأحد من المرافقين... لقد خافتا... قالتا لهم إنه لا يخصهما، إنه قريب بقرابة بعيدة. عاش معهم بضعة شهور، ثم وضعوه في المستشفى. شنق نفسه في المستشفى. عليَّ أن أتعايش مع هذا، مع هذا السر. عليَّ أن أفهم هذا... (كررت قولها) عليَّ أن أتعايش مع هذا... كان أكثر ما يخيف جدتنا أن لا يظهر ستالين جديد وتندلع الحرب، طيلة حياتها كانت تنتظر الاعتقال والجوع. كانت تزرع على النافذة البصل الأخضر في صناديق،

وتخلِّل الملفوف في طناجر كبيرة. كانت تشتري السكر والزبدة بكميات كبيرة من باب الاحتياط. كانت السقيفة عندها ممتلئة بأنواع مختلفة من الجريش، والشعير. كانت تعلِّمني دوماً: «أنت اسكتي! اسكتي!». التزمي الصمت في المدرسة... في الجامعة... هكذا تربّيت، وسط هؤلاء الناس. لم يكن هناك ما يدفعنا إلى أن نحب السلطة السوفييتية. نحن جميعاً نؤيد يلتسين! أما صديقتي فلم تسمح لها أمها بالخروج من البيت: «أنت لن تخرجي إلا على جثتي! ألا تفهمين أن كل شيء عاد من جديد؟». كنا ندرس في جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب. كان يدرس فيها طلاب من مختلف أنحاء العالم، كثير منهم كان يتصور أن الاتحاد السوفييتي هو بلد البالالايكا[1] والقنابل الذرية. كنا نشعر بالانزعاج. أردنا أن نعيش في بلد آخر...

كنت أعمل ميكانيكاً في المعمل...

عرفت بالانقلاب في منطقة فورونيج، كنت ضيفاً عند عمتي. كل هذا العويل والتهويل عن عظمة روسيا- هراء كامل. وطنيون متنكرون! يجلسون أمام صندوق الزومبي (التلفاز). ليبتعدوا خمسين كيلومتراً على الأقل عن موسكو... وليلقوا نظرة إلى الأبنية، وإلى كيف يعيش الناس. وإلى أعيادهم المخمورة... لا وجود تقريباً للرجال في القرية. لقد انقرضوا. وعيهم بمستوى وعي القطيع؛ يسكرون حتى الموت، إلى أن يسقطوا على الأرض. يشربون كل ما يُحرق: من غسول الخيار إلى بنزين السيارات. يسكرون ثم يتخاصمون. في كل أسرة هناك من سُجن أو مسجون. الشرطة عاجزة عن مكافحتهم. النساء لا يستسلمن، يعملن في الحقول. وإذا ما بقي رجلان لا يسكران، فقد رحلا إلى موسكو بحثاً عن

(1) البالالايكا: آلة وترية موسيقية شعبية روسية تشبه البزق - المترجم.

العمل. وصاحب المزرعة الوحيد (في تلك القرية التي أقصدها) أحرقوا له مزرعته ثلاث مرات، إلى أن رحل إلى جهنم، وابتعد عن أعينهم! كانوا يكرهونه بكل معنى الكلمة...

الدبابات في موسكو... المتاريس... في القرية ليس هناك من اهتم بهذا الخصوص، أو من انزعج. كان يزعج الجميع أكثر من أي شيء آخر خنفساء كولورادو الذي يلتهم البطاطا وخلد الملفوف. وهذه الخنفساء تعيش طويلاً. أما الشباب المراهقون فلا تفكر عقولهم إلا في بذور عباد الشمس والفتيات. أين يمكن هتك عذرية فتاة مساء؟ لكن الشعب يميل أكثر إلى تأييد لجنة الدولة للطوارئ. هذا ما فهمته... لم يكونوا شيوعيين جميعاً، ولا يؤيدون جميعهم الدولة العظمى. كانوا يخافون من التغيير، لأن الفلّاح كان هو الخاسر دائماً بعد جميع التغييرات. أذكر قول جدنا: «سابقاً كنا نعيش عيشة إيرا... يه، إيرا... يه، وفيما بعد أسوأ وأسوأ». قبل الحرب وبعدها كنا نعيش من دون جوازات سفر. لم يعطوا القرويين جوازات سفر، ولم يسمحوا لهم بالإقامة في المدينة. عبيد... سجناء. عُدنا من الحرب بالميداليات. اجتحنا نصف أوروبا! ولكن عشنا من دون جوازات سفر.

في موسكو عرفت أن جميع أصدقائنا هم على المتاريس. كان يشاركون في هذا الانقلاب (يضحك). أنا أيضاً كان في إمكاني الحصول على ميدالية...

أنا مهندس...

من هو المارشال أخروميف؟ سوفييتي متشدد. أنا عشت سوفييتياً،

ولا أود أن أصبح سوفييتياً من جديد. أما المارشال فهو متشدد، مخلص بصدق للفكرة الشيوعية. لقد كان هذا عدوِّي. لقد أثار الكراهية في نفسي عندما سمعت كلماته. كنت أدرك أن هذا الرجل سيحارب حتى النهاية. بالنسبة إلى انتحاره؟ واضح أنه تصرف غير عادي، وهو يستدعي الاحترام. يجب احترام الموت. لكنني أطرح على نفسي السؤال التالي: وإذا ما انتصروا؟ خذي أي كتاب مدرسي... لم يحصل أي انقلاب في التاريخ من دون إرهاب، وبالضرورة كل شيء ينتهي بسفك الدم. بقطع الألسن وقلع الأعين. كما في القرون الوسطى. لا حاجة للمرء هنا إلى أن يكون مؤرخاً...

سمعت صباحاً من التلفزيون عن عجز غورباتشوف عن إدارة البلاد بسبب مرضه الشديد... رأيت الدبابات تحت النوافذ... أتصل بأصدقائي - جميعهم يؤيدون يلتسين، وضد الطغمة العسكرية. سوف ندافع عن يلتسين! أفتح البراد - وضعت قطعة من الجبن في جيبي. كان الكعك على الطاولة - أخذته. وماذا بالنسبة إلى السلاح؟... كان سكين المطبخ على الطاولة... أمسكته بيدي ثم أعدته لمكانه (فكّر قليلاً) وماذا لو... وماذا لو انتصروا؟

يُعرض الآن على شاشة التلفزيون: المايسترو الكبير روستروبوفيتش وصل بالطائرة من باريس ويجلس مع رشاشه، الفتيات يضيِّفن الجنود البوظة... باقة من الورد على الدبابة... لوحاتي الأخرى... الجدّات الموسكوفيات يوزعن السندويش على الجنود، ويدخلونهم إلى حمامات بيوتهن لقضاء الحاجة. أدخلوا فرقة الدبابات إلى العاصمة من دون حصص غذائية جافة ومن دون حمامات. تَبرز من كُوى الدبابات رقاب الشباب الرفيعة! أما عيونهم! فكانت خائفة مرعوبة. هم لا يفهمون أي شيء. لليوم الثالث يجلسون على مدرعاتهم، حانقين، جائعين، نعسانين. أحاطت بهم

النساء من كل جانب: «أولادنا، وأنتم ستطلقون علينا النار؟». يلوذ الجنود بالصمت، في حين صرخ أحد الضباط: «إذا ما أُعطينا الأمر، سنطلق النار». أما الجنود، وكأن ريحاً صرصر هبت عليهم فأنزلوا رؤوسهم من كوى الدبابات. هذه هي! لوحاتي لا تتطابق مع لوحاتكِ... نقف في حصارنا للدبابات، وننتظر الهجوم. إشاعات: سيطلقون الغازات قريباً، القناصة على الأسطح... تقترب منا امرأة عجوز وقد صفت ميدالياتها على كنزتها: «عمّن تدافعون؟ عن الرأسماليين؟». «نعم يا جدة، وأنت عمّن تدافعين؟ نحن نقف دفاعاً عن الحرية». «أما أنا فقد كنت أدافع عن السلطة السوفييتية، عن العمال والفلاحين. وليس عن الأكشاك والجمعيات التعاونية. آه، لو أعطوني الآن رشاشاً»...

كل شيء كان معلّقاً على شعرة. كنا نشم رائحة الدم. لا أذكر عيداً...

أنا وطني...

اسمحوا لي بالتعبير عن رأيي... يقترب رجل بمعطف مفتوح الأزرار، مصنوع من صوف الخرفان، يحمل صليباً ضخماً على صدره - نحن نعيش في زمن العار من تاريخنا. نحن جيل الجبناء والخونة. وهذا الحكم سوف يطلقه علينا أبناؤنا. «إن البلد العظيم قد باعه آباؤنا مقابل الجينز والمالبورو والعلك»ـ هذا ما سيقولونه عنا. لم نستطع أن ندافع عن وطننا الاتحاد السوفييتي. إنها جريمة رهيبة. بعنا كل شيء! لن أعتاد أبداً على علم الألوان الثلاثة، ستبقى رايتنا الحمراء أمام عينيّ. راية بلد عظيم! راية النصر العظيم! ما الذي كان من الواجب أن يفعلوه بنا... بالناس السوفييت... كي نغمض أعيننا وننتصر في هذا الفردوس الرأسمالي المنـ...ك؟ لقد باعونا بالفانتا وبسطات المرتديلا، والأغلفة الساطعة. لقد عَمونا، وشوَّشونا. لقد

استبدلنا كل شيء بالعربات اليدوية والألبسة. لا حاجة إلى الأقاصيص... بأن وكالة المخابرات المركزية ومؤامرات بجيزينسكي هي التي أسقطت الاتحاد السوفييتي... ولماذا لم تقم مخابراتنا، الـ ك.ج. ب. بإسقاط أمريكا؟ ليس البلاشفة البلداء، ولا المثقفون الأوغاد من قضى عليه، كي يسافروا إلى الخارج ويقرؤون رواية سولجينيتسين "أرخبيل معسكرات غولاغ". ولا تنقبوا عن المؤامرة اليهودية - الماسونية. نحن قضينا على كل شيء بأنفسنا. وبأيدينا. كنا نحلم بأن يفتتحوا عندنا محلات "ماكدونالد" للهامبرغر الساخن وأن يشتري كل منا "مرسيدس"، وفيديو بلاستيكي. وكي يبيعوا في الأكشاك أفلام البورنو...

إن روسيا في حاجة إلى يد قوية، حديدية. إلى رقيب يحمل العصا. لهذا: عاش ستالين العظيم! أورا! أورا! كان في استطاعة أخروميف أن يكون مثل بينوتشيت عندنا... الجنرال ياروزلسكي... خسارة كبيرة...

أنا شيوعي...

أنا كنت مؤيداً للجنة الدولة للطوارئ، على الأصح مؤيداً للاتحاد السوفييتي. كنت نصيراً متحمساً للجنة الدولة للطوارئ، لأنه كان يعجبني العيش في إمبراطورية. «كبير أنت يا بلدي الحبيب»... في العام التاسع والثمانين أرسلوني في مهمة إلى فيلنيوس. قبل السفر استدعاني كبير مهندسي المصنع (كان هو قد زارها) وحذرني: «لا تتحدث معهم باللغة الروسية. حتى علبة الكبريت في المخزن التجاري لن يبيعوها لك إذا كنت تتحدث بالروسية. أنت لم تنسَ لغتك الأوكرانية؟ تحدث باللغة الأوكرانية». لم أصدق، ما هذا الهراء؟ أما هو: «كن حذراً في المطعم، قد يسممونك أو يذرون لك في الصحن زجاجاً مطحوناً. أنت هناك ستكون

محتلاً، أتفهم؟». في حين كان رأسي محشواً بصداقة الشعوب والأخوّة السوفييتية وما شابه ذلك. لم أصدق إلى أن وصلت إلى محطة فيلنيوس. خرجت من رصيف السكة الحديدية... منذ الدقيقة الأولى أفهموني عندما سمعوا اللغة الروسية، أنني وصلت إلى بلد أجنبي. لقد كنت محتلاً. من روسيا القذرة، المتخلفة. إيفان الروسي. همجي.

ورقصة البجعات الصغيرة هذه... باختصار، سمعت عن لجنة الدولة للطوارئ صباحاً في المخزن التجاري. ركضت إلى البيت: هل قتلوا يلتسين أم لا؟ بِيد مَنْ المركز التلفزيوني؟ من يقود الجيش؟ اتصل بي صاحبي: «أولاد الكلبة، الآن سيرصون العزق من جديد. وسنصبح براغي ومسامير». فثرت قائلاً: «وأنا بيدي الاثنتين، أنا أؤيد الاتحاد السوفييتي!». وفي لحظة واحدة استدار مئة وثمانين درجة: «نهاية ميخائيل ميتشين! سيذهب لحراثة الأرض في سيبيريا!». أتفهمين؟ كان من الواجب الحديث مع الناس، الإيحاء لهم، استدراجهم. والخطوة الأولى السيطرة على المركز التلفزيوني في "أستانكينو" والبث الدائم أربعاً وعشرين ساعة: سننقذ بلدنا! الوطن السوفييتي في خطر! والإسراع ببحث مسألة أتباع سابشاك وأفاناسيف[1] وبقية الخونة. أما الشعب، فكان مؤيداً للاتحاد السوفييتي.

لا أصدق انتحار المارشال أخروميف. لم يكن في استطاعة ضابط نضالي تعليق حبل المشنقة لنفسه... حبل علبة الكاتو... مثل السجين. هكذا ينتحرون في الزنزانة، جالسين بأرجل منحنية. في الحبس الانفرادي. ليست هذه من التقاليد النضالية. فالضباط يكرهون حبل المشنقة. ليس هذا انتحاراً بل قتلاً متعمداً. قتله أولئك الذين قتلوا الاتحاد السوفييتي. كانوا يخشونه؛ فهو ذو سمعة رفيعة في الجيش، وكان في إمكانه تنظيم مقاومة.

---

(١) من أشد أنصار الانقلاب على الاتحاد السوفييتي.

لم يكن الشعب آنذاك مضللاً، متفرقاً، مشتتاً، كما هو الآن. كانوا لا يزالون يعيشون متماثلين ويقرؤون الصحف نفسها. وليس كما هو الأمر الآن: هناك من يكتفي بالحساء الرخيص ومن لا يكتفي بالجواهر.

وإليكِ هذا... لقد رأيته بنفسي... فتيان شباب وضعوا سلماً على جدار بناء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي في ساحة ستارايا، لم يعد هناك من يحرسه آنذاك. سلم سيارة الإطفاء العالي. صعدوا إلى الأعلى... بالمطارق والأزاميل أخذوا ينتزعون الأحرف المذهبة من عبارة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي. وآخرون في الأسفل كانوا يقصون ويوزعون قطعاً صغيرة للذكرى. أزالوا المتاريس، الأسلاك الشائكة كذلك يوزعونها للذكرى.

هكذا حفظت سقوط الشيوعية...

من مواد التحقيق

في 24 آب/ أغسطس 1991 وفي الساعة التاسعة و50 دقيقة مساءً في المكتب رقم 19-أ في بناء الكرملين بموسكو، اكتشف الضابط المناوب كوروتييف جثة مارشال الاتحاد السوفييتي سيرجي فيودوروفيتش أخروميف (ولد عام 1923)، المعين مستشاراً لرئيس الاتحاد السوفييتي.

كانت الجثة في وضعية الجلوس على مقربة من رف نافذة المكتب. كان يستند ظهر الجثة إلى القفص الخشبي، الذي يغطي مشعات التدفئة المركزية. وكانت الجثة بلباس مارشال الاتحاد السوفييتي. لم تكن هناك أية شوائب على اللباس. على الرقبة كان هناك حبل منزلق، مصنوع من خيط صناعي مزدوج، وكانت العقدة تحيط بالرقبة بشكل كامل. الطرف العلوي للعقدة كان مثبتاً على يد إطار النافذة مُلصق بشريط لاصق من نوع

"سكوتش". لم تُكتشف أية أضرار جسدية على الجثة، باستثناء الأضرار المرتبطة بشنقه لنفسه...

عند فحص محتويات مكتب المارشال في الأعلى تم اكتشاف خمس مذكرات موضوعة بمكان ظاهر. جميع المذكرات مكتوبة بخط اليد. وضعت المذكرات مصفوفة فوق بعضها بعناية. تم إجراء الجرد بترتيب المذكرات الموضوعة فوق بعضها نفسه...

أخروميف يرجو تسليم المذكرة الأولى لأسرته، وفيها يعلمها أنه اتخذ قراراً بالانتحار: كان واجب المقاتل والمواطن بالنسبة إليَّ، دوماً، هو الأهم. أنتم، أفراد أسرتي، كنتم بالمركز الثاني. واليوم ولأول مرة أضع واجبي تجاهكم في المركز الأول. أرجوكم، أن تعيشوا برجولة هذه الأيام. ساعدوا وادعموا أحدكم الآخر. لا تخلقوا ذريعة لشماتة الأعداء...

المذكرة الثانية موجهة لمارشال الاتحاد السوفييتي س. سوكولوف. وقد جاء فيها رجاء لسوكولوف وللجنرال لوبوف بالمساعدة في الدفن وعدم ترك أفراد أسرته في هذه الأيام القاسية بالنسبة إليهم.

ورد في المذكرة الثالثة رجاء بتسديد دين لمطعم الكرملين وإيصال نقدي مربوط بدبوس بقيمة 50 روبلاً.

المذكرة الرابعة بلا عنوان: «لا يمكنني العيش عندما يموت وطني ويتم تدمير كل ما اعتبرته معنى حياتي. إن عمري وحياتي السابقة يعطيانني الحق في أن أنهي حياتي. لقد ناضلت حتى النهاية».

أما المذكرة الخامسة فكانت موضوعة بصورة منفصلة: «أنا أستاذ سيئ في إعداد أداة للانتحار. المحاولة الأولى (في الساعة 9:40) لم تنجح، انقطع الحبل. أجمع قواي لتكرار المحاولة من جديد»...

تحليل خط اليد أثبت أن: جميع المذكرات مكتوبة بيد أخروميف...

حدثتني ناتاليا، الابنة الصغرى لأخروميف الذي أمضى ليلته الأخيرة عندها، فقالت: «قبل شهر آب/ أغسطس سألنا والدي غير مرة: هل الانقلاب ممكن عندنا؟ كثيرون كانوا غير راضين عن مسار بيريسترويكا غورباتشوف؛ بثرثرته، وضعفه، وتنازلاته الأحادية الجانب في المباحثات السوفييتية - الأمريكية بخصوص نزع السلاح، وبالوضع الاقتصادي المتردي للبلاد. لكن أبي لم يكن يحب هذه الأحاديث، كان مقتنعاً بأنه لن يكون هناك أي انقلاب في دولتنا. لو أن الجيش أراد القيام بانقلاب، لكلّفه هذا ساعتين فقط. ولكن في روسيا لا يمكن تحقيق أي شيء بالقوة. فنزع القيادة غير المناسبة ليست هي المشكلة الكبرى. المشكلة ما العمل بعده؟».

في 23 من شهر آب/ أغسطس عاد أبي من العمل في وقت مبكر. تناولنا مع كامل أفراد أسرتنا طعام العشاء. اشترى بطيخة كبيرة وجلسنا طويلاً على مائدة العشاء. الأب، حسب أقوال ابنته، كان صريحاً. اعترف بأنه يتوقع أن يعتقلوه. لم يكن هناك من يقترب منه في الكرملين ويتحدث إليه. وقد قال: «أنا أدرك أن الوضع سيكون صعباً عليكم، وستنهال على أسرتنا أوساخ كثيرة. ولكن لم يكن في استطاعتي التصرف بطريقة أخرى». طرحت عليه ابنته السؤال التالي: «ألست نادماً لأنك ركبت الطائرة وجئت إلى موسكو؟». أجاب أخروميف: «لو لم آتِ للعنت نفسي طيلة عمري».

قبيل النوم، وعد أخروميف حفيدته بأن يأخذها غداً إلى الحديقة والأرجوحة. كان قلقاً حول من سيستقبل زوجته التي ستصل بالطائرة من سوتشي. وطلب إعلامه على الفور بوصولها. وحجز لها سيارة من كراج الكرملين...

اتصلت الابنة بأبيها صباحاً في الساعة 9:35. كان صوته عادياً طبيعياً... ولمعرفتها بطبع والدها، لا تثق الابنة بانتحاره...

كنت قد أقسمت على خدمة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية... وطيلة حياتي أخدمه. فماذا عليَّ الآن أن أفعل؟ ومن عليَّ أن أخدمه؟ طالما أنني ما زلت حياً، طالما أنني ما زلت أتنفس، سأناضل من أجل الاتحاد السوفييتي...

البرنامج التلفزيوني "وجهة نظر"، 1990.

كل شيء يتحول الآن إلى اللون الأسود... يجري نفي كل ما حدث في البلاد بعد ثورة أكتوبر... نعم آنذاك كان هناك ستالين، وكانت السياسة الستالينية. نعم كان هناك قمع وقهر للشعب، أنا لا أنفي هذا. كل هذا كان موجوداً. ومع ذلك، هذا يجب بحثه وتقييمه بصورة موضوعية وعادلة. ولا حاجة إلى إقناعي بهذا، فأنا ابن هذا الزمن، هذه السنوات. أنا بنفسي كنت أرى كيف كان الناس يعملون، وبأي إيمان... والمسألة ليست في التخفيف من شيء ما أو إخفائه. لا حاجة إلى إخفاء أي شيء. فعلى خلفية ما جرى في البلد، وهو ما يعرفه الجميع، أي تلاعب يمكن أن يكون بإخفاء الوقائع. لكننا ربحنا في حربنا ضد الفاشية، ولم نُهزم. لقد حققنا النصر، والنصر كان حليفنا.

أذكر جيداً سنوات الثلاثينيات... هكذا كبرنا ونشأنا، مثلي أنا، عشرات الملايين. ونحن بنينا الاشتراكية بوعي. كنا مستعدين للإقدام على أية تضحيات. أنا لست موافقاً على أنه في سنوات ما قبل الحرب لم يكن عندنا شيء سوى الستالينية، كما يقول الجنرال فولكوغونوف. إنه معاد للشيوعية. لكن كلمة "معاد للشيوعية" لم تعد اليوم شتيمة. أنا شيوعي، وهو معاد للشيوعية. أنا معاد للرأسمالية، أما هو، فلا أعرف

من هو: مدافع عن الرأسمالية أم لا؟ هذا ليس أكثر من إثبات للواقعة. وجدال فكري. ولم يكتفوا بانتقادي، ولكن يهاجمونني بصورة صريحة، لأنني أسميه "منقلباً"... فحتى فترة قصيرة، كان فولكوغونوف يدافع عن النظام السوفييتي، عن المثل العليا الشيوعية، مثلي أنا. وفجأة، حصل عنده انعطاف حاد. وليقل لماذا خان القسم العسكري...

كثيرون فقدوا اليوم الإيمان. وأولهم كان بوريس نيقولايفتش يلتسين. فالرئيس الروسي يلتسين كان سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، ومرشحاً لمكتبه السياسي. أما الآن، فهو يقول علناً، أنه لا يؤمن بالاشتراكية ولا بالشيوعية، ويرى أن كل ما فعله الشيوعيون كان خطأً. لقد أصبح معادياً متشدداً للشيوعية. وهناك آخرون غيره. وليست أعدادهم بالقليلة. ولكن أنتم تتوجهون إليّ... أنا، من حيث المبدأ، غير موافق... أنا أرى تهديداً لوجود بلدنا، وهو تهديد واضح للعيان. وهذا التهديد الآن، كما كان في العام الحادي والأربعين...

ن. زينكوفيتش. القرن العشرون. الجنرالات الكبار في أعوام الصدمات. م. أولما- بريس، 2005.

في السبعينيات، أنتج الاتحاد السوفييتي من الدبابات أكثر بعشرين مرة من الولايات المتحدة الأمريكية

سؤال غ. شخنازاروف مساعد السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي م. غورباتشوف (في الثمانينيات): «لماذا إنتاج مثل هذه الكمية الهائلة من الأسلحة؟»

جواب رئيس الأركان س. أخروميف: «لأننا بتضحياتنا الكبيرة

أوجدنا مصانع من الدرجة الأولى لا تقل جودة عن المصانع الأمريكية. فهل تأمرنا بأن نتوقف عن إنتاج الأسلحة وننتج الطناجر؟».

يغور غايدار. موت الإمبراطورية م. الموسوعة السياسية الروسية، 2007.

في اليوم التاسع من عمل المؤتمر الأول لنواب الشعب في الاتحاد السوفييتي، ظهرت في القاعة منشورات تخبر بأن الأكاديمي ساخروف أعلن في مقابلة مع إحدى الصحف الكندية: «في أثناء الحرب الأفغانية كانوا يطلقون النار من الحوامات السوفييتية على جنودهم المحاصرين، كي لا يستسلموا ويقعوا في الأسر»...

على المنصة السكرتير الأول للجنة مدينة تشركاسك للشبيبة الشيوعية س. تشرفونوبيسكي، محارب قديم في الحرب الأفغانية، وهو بدون رجلين، يساعدونه كي يصل إلى المنصة. يقرأ نداء المحاربين القدماء في أفغانستان: «السيد ساخاروف يؤكد أن ثمة معلومات حول إطلاق النار من الحوامات السوفييتية على الجنود السوفييت... نحن قلقون جداً من الاضطهاد غير المسبوق للجيش السوفييتي في وسائل الإعلام الجماهيرية. نحن ممتعضون من أعماقنا من هذه الكذبة الاستفزازية اللامسؤولة من جانب هذا العالم المشهور. إنها هجمة مقصودة ضد جيشنا وشعبنا وحزبنا... (تصفيق). كانت نسبة الشيوعيين في القاعة أكثر من 80% من الحضور. ولكن لم تتردد على لسان أي منهم كلمة الشيوعية، حتى في تقرير الرفيق غورباتشوف. لكنني سأذكر اليوم ثلاث كلمات هي: الدولة العظمى، الوطن، الشيوعية. علينا أن نناضل من أجلها ضد العالم كله»...

تصفيق. جميع النواب يقفون ما عدا الديمقراطيين والمطران ألكسي.

معلمة من أوزبكستان:

أيها الرفيق الأكاديمي! أنت بتصرفك المشين هذا قد شطبت أعمالك كلها. لقد ألحقت إهانة بجيشنا كله، بجميع شهدائنا. وأنا أعبر عن احتقاري الكامل لك...

المارشال أخروميف:

إن ما قاله الأكاديمي ساخروف هو كذب. لم يحدث أي شيء من هذا في أفغانستان. أعلن هذا بمسؤولية كاملة. أولاً، لقد خدمت سنتين ونصف في أفغانستان، وثانياً، باعتباري النائب الأول لرئيس الأركان العامة، ثم رئيساً للأركان العامة، كنت أتابع يومياً موضوع أفغانستان، وأعرف كل أمر صادر، والأعمال القتالية في كل يوم. لم يحدث شيء من هذا!

ف. كوليسوف. البيريسترويكا. سجل. 1985-1991. Lib.ru.. الأدب المعاصر.

- الرفيق المارشال، ماهي المشاعر التي تحس بها لمعرفتك أن لقب بطل الاتحاد السوفيتي حصلت عليه لحربك في أفغانستان؟ وقد حدد الأكاديمي ساخروف رقماً: خسائر الشعب الأفغاني مليون شخص...

- أتظنني سعيداً لحصولي على نجمة البطل؟ الأمر نفّذته، ولكن هناك الدم وحده... القذارة... وقد قلت غير مرة، إن القيادة العسكرية كانت ضد هذه الحرب، مدركاً أن الأعمال الحربية هناك ستجرنا إلى ظروف صعبة لا نعرفها. فقد وقف الإسلام الآسيوي كله ضد الاتحاد السوفييتي. نحن نفقد وجهنا في أوروبا. قيل لنا بصرامة: «منذ متى كان الجنرالات في بلدنا يتدخلون في السياسة؟». لقد خسرنا الحرب دفاعاً عن الشعب الأفغاني... ولكن لا ذنب في هذا لجيشنا...

حديث لأخبار التلفزيون. 1990.

... تقريري عن درجة مشاركتي في الأعمال الإجرامية لما يدعى "لجنة الدولة لحالة الطوارئ"

في 6 آب/ أغسطس من هذا العام، بناء على قراركم سافرت في إجازة إلى المنتجع العسكري في مدينة سوتشي، حيث مكثت حتى 19 آب/ أغسطس. وقبل رحيلي إلى المنتجع وفي أثناء وجودي في المنتجع حتى صباح 19 آب/ أغسطس لم أكن أعرف أي شيء عن التحضير للمؤامرة. ولم يخبرني أحد، حتى تلميحاً، عن تنظيمها ومنظميها، أي أنني لم أشارك أبداً في التحضير لها وتنفيذها. في صباح 19 آب/ أغسطس، وعند سماعي بالتلفزيون لوثائق "اللجنة" المذكورة، اتخذت على مسؤوليتي قراراً بالطيران إلى موسكو، في الساعة 8 مساءً التقيت بنائب رئيس الاتحاد السوفييتي يانايف غ. ي. وقلت له إنني موافق على البرنامج الذي وضعته "اللجنة" في توجهها إلى الشعب، واقترحت عليه بدء العمل فيها بصفتي مستشاراً عسكرياً لرئيس الاتحاد السوفييتي. وافق يانايف غ. ي. على ذلك، ولكن لانشغاله، حسب قوله، حدد وقت اللقاء التالي حوالي الساعة 12 من 20 آب/ أغسطس. وقال لي، إن "اللجنة" لم تنظم المعلومات عن الوضع ومن المستحسن أن أهتم بهذا...

في صباح 20 آب/ أغسطس، التقيت بعضو لجنة الدولة لحالة الطوارئ و. د. باكلانوف، الذي كُلف بلقائي والعمل في المسألة نفسها. قررنا العمل حول المسألة معاً... شكلنا مجموعة عمل من ممثلي الدوائر المعنية ونظمنا عملية جمع وتحليل الوضع. عمليا، أعدَّت جماعة العمل هذه تقريرين: الأول في الساعة التاسعة من مساء اليوم نفسه، والثاني في صباح يوم 21، وقد تم بحثهما في اجتماع "اللجنة".

علاوة على ذلك، في 21 من الشهر عملت في تحضير تقرير يانايف غ. ي. لرئاسة السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي. في مساء 20 وصباح 21

آب/ أغسطس شاركت في اجتماع "اللجنة"، وبعبارة أدق، في ذلك الجزء الذي جرى بحضور الضيوف المدعوين. ذلك هو العمل الذي شاركت في 20 و21 آب/ أغسطس من هذا العام. بالإضافة إلى ذلك، في 20 آب نحو الساعة الثالثة ظهراً التقيت بوزير الدفاع يازوف د. ت. بناء على طلبه. وقال إن الوضع يزداد تعقيداً، وعبر عن شكِّه بنجاح ما هو مقرر. وبعد حديثنا، طلب أن نذهب سوية إلى نائب وزير الدفاع الجنرال آتشالوف ف. آ. حيث كان يجري العمل على خطة احتلال بناء السوفييت الأعلى لجمهورية روسيا الفدرالية الاتحادية السوفييتية. واستمع من آتشالوف لمدة ثلاث دقائق حول تركيب القوات المشاركة وفترة التنفيذ. لم أطرح أية أسئلة على أي منهما...

لماذا طرتُ إلى موسكو بمبادرتي الشخصية - لم يستدعني أحد من سوتشي- وبدأت العمل في "اللجنة"؟ لقد كنت واثقاً، أن هذه المغامرة ستفشل، وقدمت إلى موسكو، كي أتأكد من ذلك ثانية. والمسألة تكمن في أنني، واعتباراً من عام 1990، كنت مقتنعاً، كما أنا مقتنع اليوم، أن بلدنا يسير إلى الهلاك. وأن أوصاله ستتقطَّع قريباً. بحثت عن طريقة للإعلان عن ذلك بصوت عال. وكنت أحسب، أن مشاركتي في تأمين عمل "اللجنة" وما يرتبط بهذا من جلسات بحث ستعطيني إمكانية التعبير عن هذا بصورة مباشرة. قد يبدو قولي هذا غير مقنع وساذج، لكن هذه هي الحقيقة. ولم تكن هناك أية دوافع نفعية في قراري هذا...

رسالة لرئيس الاتحاد السوفييتي م. س. غورباتشوف. 22 آب/ أغسطس. 1991.

... إن غورباتشوف غال، لكن الوطن أغلى! وليبق للتاريخ أثر على

الأقل، أننا وقفنا ضد موت هذه الدولة العظمى. وليحكم التاريخ من كان على حق، ومن المذنب...

من المذكرة. آب/ أغسطس 1991.

من حديث ن. (طلب مني عدم ذكر اسمه ووظيفته في جهاز الكرملين).

لقد كان هذا شاهد عيان نادر. من أقدس المقدسات- من الكرملين القلعة الرئيسة للشيوعية. شاهد عيان على تلك الحياة التي كانت مخفية عنّا. كانت هذه الحياة محمية وخافية عنا مثل حياة الأباطرة الصينيين، والآلهة الأرضيين. رجوته طويلاً كي يتحدث.

من أحاديثنا الهاتفية

وما علاقة التاريخ بهذا؟ تطلبين وقائع "ساخنة"، أشياء متبّلة ذات رائحة؟ الجميع يركض نحو الدم، نحو اللحم. الموت أصبح بضاعة. يحملون إلى السوق كل شيء. أي رَجل ساذج سيكون مسروراً... سيجلب لنفسه الأدرينالين... الإمبراطورية لا تسقط كل يوم. ترقد ووجهها في القذارة! وليس كل يوم ينهي مارشال الإمبراطورية حياته بالانتحار... يعلق نفسه في الكرملين على مشعات التدفئة المركزية.

لماذا غادر الحياة؟ لقد غادر بلده الحياة، وهو غادرها معه، لم يعد يجد نفسه هنا. إنه... هكذا أظن... قد تصور كيف سيحدث كل شيء. كيف سيطيحون بالاشتراكية. الثرثرة ستنتهي بالدم. النهب والسلب والسرقة. كيف سيحطمون النصب التذكارية. وكيف سيحولون الأرباب السوفييتية إلى نفايات المعادن، إلى خردة. سيبدؤون بتهديد الشيوعيين بمحاكمة نورمبرغ... ومن هم القضاة؟ كان شيوعيون سيحاكمون شيوعيين. من

انفصل عن الحزب يوم الأربعاء سيحاكمون من انفصل عن الحزب يوم الخميس. وكيف يمكن تبديل اسم لينينغراد... مهد الثورة؟... وكيف يصبح شتم الحزب الشيوعي السوفييتي موضة دارجة، ويقلدهم الجميع في ذلك؟ وكيف ستسير المسيرات بألوف عديدة في الشوارع بيافطات: "يسقط الحزب الشيوعي السوفييتي!" و"بوريس على حق!". وأي سرور وبهجة على وجوههم! مات البلد، وهم كانوا سعداء. دُمِّر! أَسقِط! هذا عيد بالنسبة إلينا دوماً... عيد! لو أعطوا الأمر "واجِه" لبدأت المذابح... "اليهود والمفوضون إلى الجدار!". كان الشعب ينتظر هذا. ولكان مسروراً. ولنظّموا مصيدة للمتقاعدين العجّز وكبار السن. أنا نفسي عثرت في الشارع على منشورات بعناوين القادة العاملين في اللجنة المركزية- الاسم، البناء، رقم الشقة، وقد علقوا صورهم في كل مكان ممكن. كي يعرفوهم. ومن مكاتبهم كانوا يهربون مع أكياس من السلوفان. مع حقائبهم. كثيرون كانوا يخشون النوم في شققهم، واختبأوا لدى أقاربهم. كان لديهم معلومات... كانوا يعرفون، كيف حدث كل شيء في رومانيا... حيث أطلقوا النار على الرئيس الروماني الشيوعي تشاوشيسكو وزوجته، وعلقوا على الجدران صور ضباط الأمن والنخبة الحزبية. وأسقطوهم في الخنادق... (وقفة طويلة). أما هو... فقد كان شيوعياً مثالياً رومانسياً. كان يؤمن بـ"الذرى المشرقة للشيوعية"، بالمعنى الحرفي للكلمة، وبأن الشيوعية قد جاءت وستبقى إلى الأبد. هذا الاعتراف اليوم أخرق... أبله... (وقفة) لقد كان لا يقبل ما بدأ يحدث. كان يرى كيف تحرك الوحوش الشباب... طلائع الرأسمالية... ورؤوسهم مشبعة بالدولار وليس بماركس ولا بلينين...

... ما هذا الانقلاب، عندما لا يطلقون النار؟ لقد هرب الجيش بجبن من موسكو. وبعد اعتقال أعضاء لجنة الدولة للطوارئ كان ينتظر أن

يأتوا سريعاً من ورائه ويقتادوه بالأصفاد. من بين جميع مساعدي الرئيس ومستشاريه هو وحده كان يؤيد "الانقلابيين" كان يؤيدهم علناً. بينما بقي الآخرون ينتظرون. إن الجهاز البيروقراطي هو آلة ذات قدرة كبيرة على المناورة... على البقاء. ليس لدى البيروقراطية قناعات ولا مبادئ، وكل هذا ميتافيزيقية عكرة. المهم أن يبقوا على كراسيهم، كي ينهبوا كما كانوا ينهبون، الخروف الملفوف بالورق، والكلاب السلوقية. إن البيروقراطية هي حصاننا. حتى أن لينين نفسه كان يقول: البيروقراطية أشد خطراً من عدو الثورة دينيكين. يُقدَّر حق التقدير شيء واحد، الولاء الشخصي. ولا تنس مَن معلمك، ويده التي تطعمك (وقفة). لا أحد يعرف حقيقة لجنة الدولة لحالة الطوارئ. الجميع يكذبون. وهكذا... في الحقيقة، كانت قد حُبكت لعبة كبيرة، لا نعرف دوافعها الخفية وجميع المشاركين فيها. دور غورباتشوف الضبابي... ما الذي قاله للصحفيين عندما عاد من منتجع فوروس؟ «على أية حال لن أقول لكم كل شيء أبداً». وفعلاً، لن يقول! (وقفة) وربما هذا كان إحدى أسباب خروجه (وقفة). فالمسيرات بمئات الألوف... كان لها أثر كبير... كان من الصعب جداً المحافظة على الحالة العادية الطبيعية... لم يكن يخاف على نفسه... ولم يستطع التسليم بأن كل شيء سيُداس قريباً، وسيُغطى بالإسمنت المسلح: النظام السوفيتي، حركة التصنيع الكبرى... النصر العظيم... ويتضح أنه حتى الباخرة "أفرورا" لم تُطلق النار، ولم يكن هناك أي انقضاض على القصر الشتوي[1]. يشتمون الأزمنة... زمننا حقير. فارغ. أُغرِق كل شيء بالألبسة وأجهزة الفيديو. أين البلد العظيم؟ ولو حدث شيء ما اليوم لما انتصرنا على أحد. ولما حلق غاغارين في الفضاء.

---

(1) المقصود هنا: أحداث ثورة أكتوبر 1917، حيث أطلقت باخرة «أفرورا» النار وتم الانقضاض على القصر الشتوي - المترجم.

فجأة، وفي نهاية أحد أحاديثنا، سمعت أخيراً: «حسناً، تفضلي». في اليوم التالي، التقينا عنده في البيت. كان ببزة سوداء وربطة عنق، بالرغم من حرارة الطقس. إنه الزي الرسمي في الكرملين.

- وهل كنتِ عند... (يذكر عدة أسماء معروفة) وعند... (يذكر اسماً آخر يرد على لسان الجميع) روايتهم - أنه قُتل! - أنا لا أصدقها. يبدو أنه ثمة شائعات حول شهود عيان... وقائع... وأن الحبل رفيع للغاية، ليس للشنق، وبه يمكن فقط خنق إنسان، وأن مفتاح المكتب كان معلقاً في القفل من الخارج... يقولون أشياء كثيرة... الناس يحبون أسرار القصور. أنا سأقول لك شيئاً آخر: شهود العيان يمكن التحكم بهم. إنهم ليسوا روبوتات. التلفزيون يحركهم. الصحف. الأصدقاء... مصالح التعاونيات... من لديه الحقيقة؟ أنا أفهم أن الحقيقة يبحث عنها أناس متخصصون: قضاة، علماء، رجال دين. أما الباقون فكلهم تحت سلطة أطماعهم وانفعالاتهم... (وقفة) لقد قرأت كتبكِ... عبثاً تثقين إلى هذه الدرجة بالإنسان... بالحقيقة الإنسانية... إن التاريخ هو حياة الأفكار. والزمن هو الذي يكتب التاريخ وليس الناس. أما الحقيقة الإنسانية، فهي المسمار الذي يعلق عليها كل شخص قبعته.

علينا أن نبدأ من غورباتشوف... فلولاه لعشنا حتى الآن في الاتحاد السوفييتي. ولكان يلتسين السكرتير الأول للجنة الحزب المنطقية في سفردلوفسك، ولَبَقي يغور غايدار مصححاً للمقالات الاقتصادية في صحيفة "البرافدا" ولآمن بالاشتراكية. ولبقي سابشاك يلقي محاضراته في جامعة لينينغراد (وقفة) ولبقي الاتحاد السوفييتي طويلاً. أما القول بأنه كان تمثالاً ضخماً على أرجل من طين؟ إنه هراء كامل! لقد كنا دولة عظمى جبارة، وكنا نملي إرادتنا على كثير من البلدان. أمريكا نفسها كانت

تخافنا. تقولين كنا نعاني نقصاً في الكولونات النسائية وسراويل الجينز؟ كي ننتصر في الحرب النووية لم نكن في حاجة إلى الكولونات بل إلى الصواريخ والقاذفات الحديثة. وكانت متوفرة لدينا. وكانت من النوع الأول. ولانتصرنا في أي حرب. إن الجندي الروسي لا يهاب الموت. هنا، نحن آسيويون... (وقفة) لقد صنع ستالين دولة يستحيل اختراقها من الأسفل، فقد كانت منيعة قوية. أما من الأعلى فكانت ضعيفة لا يمكن الدفاع عنها. لم يكن أحداً يفكر في أن تدميرها سيبدأ من الأعلى، وأن قيادة البلد العليا ستسير على طريق الخيانة. مُنحلّون! وأن السكرتير العام سيكون الثوري الأكبر، المتحصن في الكرملين. لقد كان من السهل تدمير هذه الدولة من الأعلى. فالانضباط الصارم والسلم الهرمي في الحزب قد أساءا إليه. حدث فريد في التاريخ... كما لو أن الامبراطورية الرومانية بدأ يوليوس قيصر بتدميرها... كلا، إن غورباتشوف ليس قزماً، وليس ألعوبة في أيدي الصُّدف، وليس عميلاً للمخابرات الأمريكية... فمن هو إذاً؟

"قابِر الشيوعية" و"خائن الوطن" و"الفائز بجائزة نوبل" و"السوفييتي المفلس"، "مثقف الستينيات الأكبر" و"الألماني الأفضل"، "النبي" و"يهوذا"، "الإصلاحي العظيم" و"الممثل العظيم"، "غوربي العظيم" و"غورباتش"، "إنسان القرن" و"هيروسترات"... وكلها عن شخص واحد.

لقد هيأ أخروميف نفسه للانتحار قبل بضعة أيام: فهناك مذكرتان كتبهما في 22 آب/ أغسطس، وثالثة في 23 آب/ أغسطس ورابعة في 24 منه. فما الذي حدث في هذا اليوم؟ في 24 آب/ أغسطس بث الراديو والتلفزيون السوفييتي بيان غورباتشوف حول تخليه عن صلاحيات السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي ونداءه لكي يحل الحزب نفسه: «يجب اتخاذ قرار صعب، لكنه صادق». لقد استقال السكرتير العام من دون صراع. ولم يتوجه إلى الشعب وإلى ملايين الشيوعيين... لقد

خان. خان الجميع. يمكنني تصور ما عاناه أخروميف في هذه الدقائق. لا أستبعد، ومن المحتمل جداً، أنه في طريقه إلى عمله، شاهد كيف ينزلون الأعلام السوفييتية من المؤسسات الحكومية. من أبراج الكرملين. وما هي مشاعره آنذاك وهو الشيوعي والمحارب القديم؟ لقد فقدت حياته كلها معناها... لا يمكنني أن أتصوره في حياتنا اليوم، غير السوفييتية. جالساً في هيئة الرئاسة تحت العلم الثلاثي الألوان، وليس تحت العلم الأحمر. ليس تحت صورة لينين بل تحت النسر القيصري. إنه لا ينسجم أبداً مع مثل هذا المظهر. لقد كان مارشالاً سوفييتياً... أتفهمين؟ سوفييتياً! فقط هكذا، وليس بشكل آخر. فقط هكذا.

لقد كان المارشال أخروميف غير مرتاح في الكرملين. كان كـ"الغراب الأبيض"... "ضابط متشدد"... ولم يتأقلم، كان يقول، إن «الرفاقية النزيهة لا توجد إلا في القوات العسكرية». لقد عاش حياته كلها في الجيش ومع القوات. مع الناس العسكريين. نصف قرن من الزمن. ارتدى البذلة العسكرية في السابعة عشرة من عمره. إنه زمن طويل! حياة كاملة! انتقل إلى الكرملين عند استقالته من منصب رئيس الأركان العامة. واستقالته كتبها بنفسه. كان يعتقد، من ناحية، أنه كان من الواجب الانسحاب من الجيش في الوقت المناسب (شبعت من رؤية عربات الموتى)، وأن يفتح الباب للشباب، ومن ناحية أخرى، بدأت نزاعات بينه وبين غورباتشوف. فغورباتشوف لم يكن يحب الجيش، مثله مثل خروتشوف، الذي كان يدعو الجنرالات والعسكريين عامة بالطفيليين. كان بلدنا عسكرياً، فاقتصاد البلد كان يخدم الجيش بنسبة 70%. وأفضل العقول، الفيزيائيون وعلماء الرياضيات جميعهم كانوا يعملون في مجال الدبابات والقنابل. والأيديولوجية أيضاً كانت عسكرية. أما غورباتشوف فقد كان رجلاً مدنياً بكل معنى الكلمة. فخلفية الأمناء العاملين للحزب قبله هي الحرب، أما

غورباتشوف فخلفيته هي كلية الفلسفة في جامعة موسكو. كان يسأل العسكريين: «هل تنوون الحرب؟ أنا لا أنوي الحرب. إن عدد الجنرالات وأمراء البحر في موسكو لوحدها أكثر مما هو في العالم كله». لم يتحدث أحد سابقاً مع العسكر على هذا النحو، فقد كانوا هم الأشخاص المهمّين. لم يكن وزير الاقتصاد في المكتب السياسي يلقي تقريره بل وزير الدفاع: كم أنتجنا من المعدات الحربية والأسلحة وليس من مسجلات الفيديو. لهذا كان ثمن جهاز الفيديو عندنا مساوياً لثمن الشقة السكنية. وهنا، يتغير كل شيء... وبالطبع، اعترض العسكريون وثاروا. كانوا يقولون: نحن في حاجة إلى جيش كبير وقوي، فأراضي وطننا شاسعة... تعادل نصف العالم. يحترموننا طالما بقينا أقوياء، وإذا ما أصبحنا ضعفاء، لن نقنع أحداً أبداً بأي "تفكير جديد". أخروميف شخصياً، كان يلقي التقارير مرات عديدة... وكان الفرق الرئيس بينها... حول النزاعات الصغيرة، ولن أذكر الآن أي شيء منها. لقد اختفت من خطب غورباتشوف الكلمات التي كان يعرفها كل مواطن سوفيتي مثل: "دسائس الإمبريالية العالمية" و"الضربة الجوابية"، و"مثيرو الفتن فيما وراء المحيط"... لقد شطب جميع هذه العبارات. لم يكن عنده سوى عبارات "أعداء الشفافية" و"أعداء البيريسترويكا". كان في مكتبه يشتم الأم (كان شتَّاماً!) وكان يدعو العسكريين بالحمقى (وقفة)... فعبارات مثل "الهاوي" و"غاندي الروسي" ليست أسوأ التعليقات التي كانت تتردد في أروقة الكرملين. كانت هذه صدمة كبيرة "للثيران القدامى"، كانوا يشعرون بالكارثة: سيغرق هو نفسه، وسيغرق الجميع. بالنسبة إلى أمريكا نحن "إمبراطورية الشر"، يهددوننا بالحملة الصليبية، "حرب النجوم"... أما قائدنا الأعلى للجيش مثل هذا الكاهن البوذي: «العالم باعتباره بيتاً مشتركاً»، و«تحولات دون قسر أو دم»، و«الحرب لم تعد استمراراً للسياسة». وما شابه ذلك. لقد

كافح أخروميف وصارع طويلاً، لكنه شعر بالتعب. كان يظن في الفترة الأولى أن التقارير التي تُرفع للقيادة غير صحيحة، وأنهم يخدعون القيادة، ثم أدرك فيما بعد، أنها خيانة. وقدم تقريره بالاستقالة. لقد قبل غورباتشوف الاستقالة، لكنه لم يتركه بعيداً عنه. فعينه مستشاراً عسكرياً.

كان من الخطر مس هذا التصميم، الستاليني... السوفيتي... سمّهِ كما تشائين... كانت دولتنا تقوم دوماً على نظام التعبئة. منذ أيامها الأولى. وهي غير معدة للحياة السلمية. ثانياً... هل تظنين أننا كنا عاجزين عن إنتاج جزمات نسائية مثل المشهورة وصدارات نسائية جميلة وأجهزة فيديو بلاستيكية؟ بل نستطيع بسهولة كاملة. لكن كان عندنا هدف آخر... والشعب (وقفة) الشعب ينتظر أشياء بسيطة. وفرة الخبز وكعك الزنجبيل. والقيصر! لم يرغب غورباتشوف في أن يصبح قيصراً، ورفض ذلك. أما إذا أخذنا يلتسين... عندما أدرك في العام الثالث والتسعين أن كرسي الرئاسة قد اهتز من تحته، فلم يجبن ولم يفقد شجاعته وأمر بقصف البرلمان. الشيوعيون في العام الحادي والتسعين خافوا من إطلاق النار... وغورباتشوف سلّم السلطة دون دماء... أما يلتسين فقد أطلق النار من الدبابات. وارتكب مذبحة... فأيّدوه. إن بلدنا قيصري بذهنيته، وبلاشعوره، وبجيناته. القيصر مطلوب من الجميع. يتذكر الناس القيصر إيفان الرهيب، الذي ملأ المدن الروسية بالدماء وخسر حرب ليفون، بخوف وإعجاب. ومثله مثل بطرس الأول وستالين، وألكسندر الثاني المخلِّص الذي أعطى روسيا الحرية... قتلوهم... عند التشيك يمكن أن يحكم الكاتب فاتسلاف هافل، أما نحن، فنحن في حاجة ليس إلى الأكاديمي ساخروف، بل إلى قيصر. القيصر - الأب! السكرتير العام أو الرئيس عندنا تعني القيصر (وقفة طويلة).

يريني دفتر مذكراته الذي يحوي مقتبسات من أقوال مؤسسي

الماركسية. أسجل لنفسي مقتبساً من لينين، حيث قال: «إنني موافق على العيش في زريبة خنازير - على أن تكون فيه السلطة سوفييتية». أعترف بأنني لم أقرأ لينين.

وإليكِ جانباً آخر... هذا جانب آخر... للتفريغ والاستراحة... فحديثنا، كما يقال، في حلقة ضيقة، على الطاولة. لدينا طبّاخنا في الكرملين. وجميع أعضاء المكتب السياسي كانوا يطلبون منه تقديم السمك المملح، وشحم الخنزير، والكافيار الأسود، أما غورباتشوف فكان يصر أكثر على العصيدة. على السَلَطات. وكان يطلب عدم تقديم الكافيار الأسود له: «الكافيار الأسود مناسب مع الفودكا، أما أنا فلا أشربها». فقد كان طعامه يقوم، هو وزوجته رائيسا مكسيموفنا، على نظام الحمية الغذائي، على أيام الصوم. لم يكن يشبه أحداً من أمناء الحزب العامّين السابقين. كان يحب زوجته بنعومة، وليس أبداً على الطريقة السوفييتية. كانا يتنزهان متأبطي الأيدي. أما يلتسين، على سبيل المثال، فكان يطلب منذ الصباح قدحاً من الفودكا وخيارة مخللة. هذا على الطريقة الروسية (وقفة). الكرملين هو قفص الثعابين. سأحدثك... واكتبي دون ذكر اسمي... قدمي المعلومات بصورة سرية... أنا الآن متقاعد... جمع يلتسين فريقه، وطرد "الغورباتشوفيين"، طردهم بشكل أو بآخر. لهذا أنا أجلس معك، لأنني متقاعد، وإلا لما سكتُّ كنصير. لا أخاف من جهاز التسجيل لكنه يزعجني. أتعرفين، إنها عادة. كانوا يفحصوننا بجهاز مثل جهاز رونتجن... (وقفة) قد يبدو شيئاً تافهاً، لكن هذا يميز الإنسان... لقد جاء أخروميف إلى الكرملين وتخلى فوراً عن الراتب المضاعف عدة مرات. طلب أن يتركوا راتبه كما كان: «هذا يكفيني». مَن مِنّا دون كيشوت؟ ومَن، قولي لي، يعد دون كيشوت طبيعياً؟ عندما صدر قرار اللجنة المركزية للحزب

الشيوعي السوفيتي والحكومة السوفيتية (بدأ الصراع على الامتيازات) حول التسليم الإلزامي للهدايا الأجنبية التي تزيد قيمتها على 500 روبل إلى خزينة الدولة، كان أخروميف أول من نفذه، وهو من القلائل الذين نفذوه. إنها أخلاق الكرملين... أن يخدم المرء، وأن ينحني، وأن يعرف على من سيكتب، ومن يداري في الوقت المناسب. على من يسلم، ولمن يحني رأسه قليلاً. وحساب كل شيء مستقبلاً... أين أعطوك المكتب؟ إلى جانب الرئيس، في الطابق نفسه؟ إن لم يكن كذلك، فأنت لست رجلاً... مجرد موظف تافه... ماهي أجهزة الهاتف التي وضعوها في مكتبك؟ هل لديك هاتف "دوّار"؟ وهل لديك هاتف كُتب عليه "الرئيس" للتواصل المباشر مع "القمة"؟ هل أعطوك سيارة من كراج الكرملين للمهام الخاصة؟

أَقرأ كتاب تروتسكي[1] "حياتي". حيث تحدث بشكل رائع عن مطبخ الثورة... الجميع الآن يؤيدون بوخارين. وشعاره: "أثروا، اغتنوا، اجمعوا الثروة". لقد جاء مناسباً. وفي اللحظة المناسبة. كان بوخارين يقترح "أن نكبر في الاشتراكية". كان يدعو ستالين بـ"جنكيز خان". لكنه أيضاً ليس شخصية وحيدة الجانب... كان مستعداً، كالجميع، لرمي الناس في فرن الثورة العالمية، دون أي حساب. وللتربية بالإعدامات. هذا ليس ستالين أول من اخترعه... جميعهم عسكريون، بعد الثورة، بعد الحرب الأهلية. بعد الدماء المراقة... (وقفة) ثمة ملاحظة لدى لينين تقول: إن الثورات تأتي عندما تشاء، وليس بإرادة أحد ما. نعم... هكذا كذلك... البيريسترويكا... الغلاسنوست[2]... كل شيء خرج من بين أيدينا... لماذا؟ لم يكن عدد الناس الأذكياء قليلاً في أعلى مراتب السلطة. فقد قرؤوا بجيزينسكي...

(1) تروتسكي وبوخارين: من كبار قادة الحزب الشيوعي الروسي، المعارضين للينين أثناء ثورة أكتوبر 1917 - المترجم.

(2) سياسة الشفافية في جميع المؤسسات الحكومية السوفيتية، أطلقها غورباتشوف.

ولكن كان عندهم التصور التالي: سنصلح، سندهن وسنتابع طريقنا لاحقاً. لم يكونوا يعرفون إلى أية درجة ملَّ شعبنا من كل شيء سوفييتي. هم أنفسهم لم يكونوا يؤمنون إلا قليلاً بـ"المستقبل المشرق"، لكنهم كانوا يؤمنون بأن الشعب يؤمن (وقفة). لا... لم يقتلوا أخروميف... ولنرم جانباً نظريات المؤامرة... لقد كان الانتحار حجته الأخيرة. ومع ذلك، فعند رحيله، قال الشيء المهم: نسقط إلى الهاوية. كان عندنا بلد شاسع كبير، وهذا البلد انتصر في حرب رهيبة. وها هو سينهار. الصين لم تنهر. وكذلك كوريا الشمالية، حيث يموت الناس من الجوع. وكوبا الاشتراكية ما تزال واقفة، ونحن نختفي. لم يستولوا علينا بالدبابات والصواريخ، بل دمروا مركز قوتنا. دمروا روحنا. النظام تعفّن، والحزب تعفّن. وربما، ولهذا بالذات... هذا كان أيضاً أحد أسباب انتحاره...

ولد المارشال أخروميف في قرية نائية بموردوفيا، حيث فقد والديه صغيراً. ذهب إلى الحرب عندما كان طالب ضابط في المدرسة الحربية البحرية. كان متطوعاً. وقد استقبل يوم النصر في المستشفى العسكري - كان مصاباً بوهن عصبي كامل، وكان وزنه ثمانية وثلاثين كيلوغراماً (وقفة). لقد انتصر جيشنا المريض، المنهك. كان جيشاً مستنزفاً، كان أفراده مصابين بأمراض الإنفلونزا والسعال والتهاب جذور الأعصاب والتهاب المفاصل... وقرحة المعدة... هكذا أذكر جيشنا. أنا وأخروميف من جيل واحد - جيل الحرب (وقفة). ومن طالب ضابط ارتقى إلى أعلى قمة في الهرم العسكري. لقد أعطته السلطة السوفييتية كل شيء: رتبة مارشال- أعلى رتبة عسكرية، ونجمة بطل الاتحاد السوفييتي، وجائزة لينين... ليس لأمير ولا لولي العهد، بل لابن أسرة فلاحية بسيطة. من الضواحي النائية... ولآلاف من أمثاله أعطت السلطة السوفييتية الفرصة. للفقراء... للناس الصغار... وكان يحب السلطة السوفييتية.

قُرِع الجرس. ودخل أحد معارفه. ناقشا طويلاً مسألة ما في الردهة. وعندما عاد إلى الغرفة: رأيت أنه مزعوج قليلاً، ولم يعد يتحدث برغبة كالسابق، ولكن لحسن حظي اندمج فيما بعد في الحديث.

لقد عملنا معاً... دعوته ليجلس معنا... رفض؛ فهذا سر حزبي، ومن المحظور الكشف عنه. وعلام اطلاع الغرباء عليه؟ (وقفة) لم أكن صديقاً لأخرومييف، لكنني كنت أعرفه منذ سنوات طويلة. لم يخاطر أحد بحياته من أجل إنقاذ البلاد. هو وحده. أما نحن فقد بدأنا السعي للحصول على الرواتب التقاعدية المتميزة ومن أجل الاحتفاظ بالفيلات الحكومية. لا يمكنني أن أسكت...

قبل غورباتشوف لم يكن الشعب يرى قادتنا إلا على منصة ضريح لينين: قبعات فرو المِنك والوجوه الحديدية. إليكِ هذه النكتة: «لماذا اختفت قبعات فرو المنك؟». «لأن موظفي لجنة الحزب المركزية يتكاثرون بسرعة أكبر من تكاثر فأر المنك»، (يضحك). لم أسمع في أي مكان هذا القدر الكبير من النكات كما سمعت في الكرملين. وهي نكات سياسية... ومعادية للاتحاد السوفيتي... (وقفة) البيريسترويكا... لا أذكر بدقة، ولكن يبدو لي أنني سمعت هذه الكلمة لأول مرة في الخارج ومن الصحافيين الأجانب. عندنا كان يستخدمون أكثر كلمات: "تسريع" و"الطريق اللينيني". وفي الخارج تحديداً بدأ "الازدهار الغورباتشوفي"، فالعالم كله أُصيب بـ"هوس غوربي". هناك كانوا يطلقون اسم بيريسترويكا على كل ما يحدث عندنا. جميع التغييرات والتحولات. إذا ما انطلق موكب غورباتشوف في الشارع كان آلاف المواطنين يقفون على طول الطريق. البكاء، الابتسامات. أنا أذكر هذا كله... لقد أحبونا! اختفى الخوف من عناصر "ك. ج. ب". والأهم تم الإعلان عن نهاية الجنون النووي... وقد شكرنا العالم على هذا. عشرات السنين كان الجميع يخاف من الحرب

الذرية، حتى الأطفال. اعتادوا النظر أحدهم إلى الآخر من الخندق. ومن خلال تسديد السلاح... (وقفة) في البلدان الأوروبية بدؤوا يتعلمون اللغة الروسية... وفي المطاعم بدؤوا يقدمون الأطباق الروسية: حساء البورش، والشوشبرك الروسي "البيلميني"... (وقفة) لقد عملت عشر سنوات في الولايات المتحدة الأمريكية وفي كندا. عدت إلى روسيا في عهد غورباتشوف... رأيت كثيراً من الناس المخلصين، الصادقين الشرفاء، الراغبين في المشاركة في كل شيء... وكنت قد رأيت أمثالهم عندما حلّق غاغارين في الفضاء... يا لها من وجوه مشرقة! كان لدى غورباتشوف كثير من المؤيدين، لكنهم كانوا أقل من أي مكان آخر بين الموظفين الحزبيين المتفرغين. في اللجنة المركزية... في اللجان الحزبية المنطقية... لقبوه بـ"أمين المنتجعات" لأنهم نقلوه إلى موسكو من ستافروبول، حيث كان يحب الأمناء وأعضاء المكتب السياسي الاستجمام. كما لقبوه بـ"أمين المياه المعدنية" و"ابن العصير" لحملته المعادية للمشروبات الكحولية. وتراكمت المآخذ: عندما كان في لندن، لم يزر قبر كارل ملركس... حدث غير مسبوق! عاد من كندا، فمدح أمام الجميع كل شيء هناك. فهذا جيد وذاك جيد... وأما عندنا... مفهوم، الوضع عندنا... أحدهم لم يحتمل: «ميخائيل سيرغييفيتش، وعندنا أيضاً سيكون هكذا بعد مئة عام». «أنت متفائل». بالمناسبة، كان يخاطب الجميع بلغة المفرد... (وقفة). قرأت لدى كاتب صحفي "ديمقراطي"، أن جيل الحرب، أي نحن، مكثنا أكثر من اللازم في السلطة. فقد انتصرنا، ودافعنا عن البلاد، وكان علينا التخلي عن السلطة، لأنه لم يكن لدينا أي تصور عن الحياة سوى العيش حسب المعايير العسكرية. ولهذا السبب تخلفنا لهذه الدرجة عن العالم... (بلهجة عدوانية) «يا صبيان شيكاغو»... «أيها المصلحون بالسراويل الزهرية»... أين البلد العظيم؟ لو كانت هي حرب، لانتصرنا... (يهدئ نفسه طويلاً).

وشيئاً فشيئاً كان يبدو غورباتشوف أكثر شبهاً بالواعظ منه بالسكرتير العام للحزب. لقد أصبح نجماً تلفزيونياً. وسرعان ما ملَّ الجميع سماع مواعظه: "العودة إلى لينين"... "قفزة نحو الاشتراكية المتطورة"... كان يُطرح هذا السؤال: فما الذي بنيناه عندنا إذاً- "الاشتراكية غير المتطورة"؟ ما الذي عندنا؟ (وقفة) أنا أذكر، أننا في الخارج كنا نرى غورباتشوف آخر، لا يشبه إلا قليلاً غورباتشوف الذي عرفناه في روسيا. هناك كان يشعر بنفسه حراً. كان يمزح بصورة ناجحة، موفقة، ويصيغ أفكاره بدقة. أما في بلده، في روسيا، كان يتآمر، ويدس، ويناور. ولهذا كان يبدو ضعيفاً. كان ثرثاراً، لكنه لم يكن ضعيفاً، كما لم يكن جباناً. كل هذا غير صحيح. إنه سياسي بارد، ماهر، محنك. ولماذا غورباتشوف هو اثنان، لماذا "غورباتشوفان"؟ لو كان في روسيا صريحاً، كما هو في الخارج، لقضمه "كبار السن" في لحظة واحدة وابتلعوه. وثمة سبب آخر؛ فهو، هذا ما أظنه، لم يعد شيوعياً منذ فترة طويلة... لم يعد يؤمن بالشيوعية. فهو بصورة سرية أو لاشعورية كان اشتراكياً-ديمقراطياً. لم يكن يعلن هذا بشكل واسع، لكن الجميع كانوا يعرفون أنه في شبابه درس في جامعة موسكو مع زعيم ربيع براغ ألكسندر دوبشيك وحليفه زدينيك ملينارج. كانوا أصدقاء. وقد كتب ملينارج في مذكراته أنه عندما كانوا يقرؤون عليهم في الاجتماع الحزبي المغلق في الجامعة تقرير خروتشوف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي، كانوا يشعرون بتلك الصدمة، لدرجة أنهم كانوا يتمشون الليل كله في شوارع موسكو. وفي الصباح كانوا يتمشون على هضاب لينين، مثلما كان ذات يوم الكاتبان هيرتسن وأوغاريف، وأقسموا على النضال طيلة حياتهم ضد الستالينية (وقفة) والبيريسترويكا كلها جاءت من هنا... من الربيع الخروتشوفي.

كنا قد بدأنا بهذا الموضوع... من ستالين وحتى بريجنيف كان يتزعم

البلاد السوفييتية القادة الذين كانوا يحاربون. الذين عاشوا زمن الإرهاب. وقد تشكلت آراؤهم في ظروف القمع والقهر. والخوف الدائم. ولم يكن بمقدورهم أن ينسوا العام الحادي والأربعين... والانسحاب المشين للجيش السوفيتي حتى ضواحي موسكو. وكما كانوا يوجهون الجندي بالكلمات: احفظ سلاحك في المعركة. لم يحسبوا الناس، لكنهم كانوا يحسبون الطلقات... ومن المنطقي والطبيعي، أن الناس بمثل هذه الذاكرة كانوا يؤمنون بأنه من أجل النصر على العدو يجب برشمة الدبابات والطائرات والحرص عليها. وكلما حافظ عليها أكثر كان أحسن. لقد تراكم في العالم من الأسلحة، لدرجة أنه كان في إمكان الاتحاد السوفيتي وأمريكا أن يقتل أحدهم الآخر ألف مرة. ومع ذلك فقد تابعوا البرشمة. وها قد جاء جيل آخر... إن أعضاء فريق غورباتشوف بكامله كانوا أطفالاً في سنوات الحرب، وقد انطبعت في شعورهم فرحة السلام... والمارشال جوكوف، الذي استعرض عرض النصر العسكري على حصانه الأبيض، كانوا من جيل آخر... ومن عالم آخر. فالأوائل لم يثقوا بالغرب، وكانوا يرون فيه عدواً، أما الجيل الثاني فكانوا يريدون العيش كالغرب. بالطبع، كان غورباتشوف يخيف "كبار السن"... كانت تخيفهم أحاديثه عن "بناء عالم خال من السلاح النووي"، وداعاً لمبدأ ما بعد الحرب "مبدأ توازن القوى"، فالقول بأنه في "الحرب النووية ليس هناك منتصر". وهذا يعني إنقاص "الدفاع" وتقليص الجيش. فمعامل الأسلحة المتقدمة ستنتج قدوراً وعصَّارات... أليس كذلك؟ وقد كانت هناك فترة كان فيها الجنرالات في حالة حرب تقريباً مع القيادة السياسية. وضد السكرتير العام للحزب. ولم يكن في استطاعتهم مسامحته في خسارة الحلف الشرقي (حلف وارسو) وخروجنا من أوروبا، وبخاصة من جمهورية ألمانيا الديمقراطية. حتى أن "كول" مستشار ألمانيا الغربية كان مذهولاً من خطأ حسابات

غورباتشوف: فقد عرضوا علينا مبالغ كبيرة مقابل الانسحاب من أوروبا، فرفض غورباتشوف ذلك. لقد ذُهلوا من سذاجته. من البساطة الروسية. هكذا كان يرغب، كي يحبوه... كي يلبس الهيِّبون الفرنسيون قمصان مزينة بصوره... لقد سُلمت مصالح الاتحاد السوفييتي بحماقة وبصورة مشينة. فقد أخرجنا جيشنا إلى الغابة، إلى السهل الروسي. وعاش الضباط والجنود في الخيام. في الخنادق. إعادة البناء... مثلها مثل الحرب... إن هذا كان شبيهاً بالولادة الجديدة.

في مباحثات نزع السلاح السوفييتية-الأمريكية، كان الأمريكيون يحصلون دوماً على ما يريدون. ويصف المارشال أخروميف في كتابه "بعيني المارشال والدبلوماسي"، كيف كانت تجري المناظرات الحامية حول صاروخ "أوكا" (أُطلق عليه في الغرب اسم CC-23). كان الصاروخ جديداً، ولم يكن هناك عند أحد غيرنا مثله، وكان الجانب الأمريكي يهدف إلى تدميره. ولكن لم يخضع هذا الصاروخ للتدمير، حسب شروط الاتفاق: خضعت للتدمير الصواريخ المتوسطة المدى من 1000 إلى 5500 كم، والأقل منها من 500 إلى 1000 كم. كان نصف القطر القتالي لصاروخ "أوكا" 400 كم. رئاسة الأركان السوفييتية دعت الأمريكيين: تعالوا نتفق بشرف: نقوم بحظر الصواريخ ليس من 500، بل من 400 كم إلى 1000 كم. ولكن، في هذه الحالة كان على الأمريكيين التضحية بصاروخهم المطوّر "لينس-2" الذي يتراوح مداه بين 450- 470 كم. ودار صراع ضار طويل فيما وراء الكواليس... وخفية عن المفاوضين العسكريين اتخذ غورباتشوف قراراً بتدمير صاروخ "أوكا". وعندها قال أخروميف جملته الشهيرة: «ربما علينا على الفور طلب اللجوء السياسي من سويسرا المحايدة وعدم العودة إلى الاتحاد السوفييتي؟». لم يستطع أخروميف أن يشارك في انهيار ما قدم حياته كلها من أجله (وقفة). لقد أصبح العالم

قطباً واحداً، وهو يخضع الآن لهيمنة أمريكا. أصبحنا ضعفاء، ودفعونا هنا على الفور إلى الهامش، وحولونا إلى بلاد مهزومة من الدرجة الثالثة. لقد انتصرنا في الحرب العالمية الثانية... وخسرنا الحرب العالمية الثالثة... (وقفة) هذا ما كان لا يطاق بالنسبة إليه...

في 14 كانون أول/ ديسمبر 1989... تشييع الأكاديمي ساخاروف. آلاف الناس في شوارع موسكو، وحسب معطيات الشرطة، شارك عدد يتراوح بين سبعين إلى مئة ألف شخص. أمام قبره كان يقف يلتسين، سوبشاك، ستاروفويتوفا... كتب السفير الأمريكي جيك ميتلوك في مذكراته، أن حضور هذا العدد الكبير في جنازة "رمز الثورة الروسية"، "المنشق الروسي الأكبر" كان طبيعياً، وقد استغرب كثيراً عندما رأى جانباً، شخص المارشال س. أخروميف لوحده. عندما كان ساخاروف على قيد الحياة، كانا عدوين، كانا خصمين لدودين (وقفة). لكن أخروميف جاء لتشييعه ووداعه. ولم يأت أحد من الكرملين سواه... وكذلك من رئاسة الأركان.

أعطوا قليلاً من الحرية وظهرت من كل مكان سحنة البرجوازي الصغير. وكان هذا، بالنسبة إلى أخروميف، الزاهد والنزيه، ضربة قوية. في صميم القلب. لم يستطع التصديق بأن الرأسمالية يمكن أن تظهر عندنا. بمواطنينا السوفييتيين، وبتاريخنا السوفييتي... (وقفة) لا تزال حتى الآن أمام عينيّ صورة: كيف ركضت فتاة شقراء في المنزل الريفي الحكومي، الذي عاش فيه أخروميف مع عائلته المؤلفة من ثمانية أشخاص، وصاحت: «انظروا - برّادان وتلفزيونان! ومن هو هذا المارشال أخروميف، كي يكون عنده تلفزيونان وبرادان؟». أما اليوم فلاذوا بالصمت... ولم ينطقوا بصوت واحد... حيث جميع الأرقام القياسية السابقة من حيث البيوت الريفية، والشقق والسيارات وغيرها من

الامتيازات قد تم تجاوزها منذ زمن. فالسيارات الفارهة، والمفروشات الغربية في مكاتبهم، واستجمامهم في إيطاليا وليس في القرم... عندنا في مكاتبنا كان الأثاث روسياً، وكنا نركب السيارات السوفييتية. ونلبس البذلات والأحذية السوفييتية. خروتشوف من أسرة عامل منجم... كوسيغين من أسرة فلاح... كلهم، كما قلت، من جيل الحرب. وتجربة حياتهم محدودة بالطبع. وليس الشعب وحده، بل وقادة الشعب كانوا يعيشون وراء "الستار الحديدي". كلهم كانوا يعيشون كما لو كانوا في حوض للسمك... (وقفة) ثانية، قد يكون هذا شيئاً شخصياً، لكن وصمة عار المارشال جوكوف بعد الحرب لا ترتبط فقط بغيرة ستالين من مجد جوكوف وشهرته فحسب، بل وترتبط بعدد ما جلبه من ألمانيا من عديد السجاجيد، والمفروشات، وأسلحة الصيد، التي كان يحتفظ بها في منزله الريفي. على الرغم من أن كل هذه الخيرات كان من الممكن أن تحملها سيارتان صغيرتان. لكن البلشفي لا يمكن له أن يملك مثل هذا القدر من الممتلكات... هذا مضحك بالنسبة إلى زمننا الحالي... (وقفة) كان غورباتشوف يحب الرفاهية... في فورس بنوا له فيلا... جلبوا لها الرخام من إيطاليا والقرميد من ألمانيا... ورمل شاطئه البحري من بلغاريا... ولم يكن أي زعيم غربي يملك مثل هذا. ولو قارنا فيلا ستالين في القرم بفيلا غورباتشوف لكانت فيلا ستالين أشبه ببيت الطلبة. كان أمناء الحزب العامون يتغيرون... وزوجاتهم بصورة خاصة...

من كان يدافع عن الشيوعية؟ ليس أساتذة الجامعات ولا أمناء لجنة الحزب المركزية... بل أستاذة الكيمياء اللينينغرادية نينا أندرييفا هي التي شرعت بالدفاع عن الشيوعية... وقد أحدثت مقالتها الشهيرة "لا يمكنني التنازل عن المبادئ" ضجة كبيرة. وأخروميف أيضاً كان يكتب... ويلقي الخطب... وقد قال لي: «يجب الرد عليهم». كانوا يهاتفونه، ويهددونه:

«أنت مجرم حرب»، وذلك بسبب أفغانستان. قليل من كان يعرف أنه كان ضد الحرب في أفغانستان. ولم يجلب معه من كابول الماس ولا الأحجار الكريمة الأخرى، ولا اللوحات من المتحف الوطني الأفغاني مثل بقية الجنرالات. كانوا دوماً يهاجمونه في الصحافة... لأنه كان يمنع "المؤرخين الجدد" من إثبات أنه لم يكن عندنا أي شيء، وأن ما وراءنا هي الصحراء. ولم يكن هناك نصر. كانت هناك مفارز الحجز وكتائب التغريم. فالسجناء هم من ربح الحرب، وهم من وصل إلى برلين تحت الرشاشات. وأي نصر هذا؟ لقد ملأوا أوروبا بالجثث... (وقفة) كانوا يهينون الجيش ويذلونه. فهل يمكن أن ينتصر مثل هذا الجيش في العام الحادي والتسعين؟ (وقفة) وهل كان في استطاعة هذا المارشال أن يحتمل هذا وينجو منه؟

تشييع أخروميف... أمام قبره كان يقف أقرباؤه وبضعة أصدقاء. ولم تؤدى له التحية العسكرية. ولم تمنح صحيفة البرافدا شرف نشر نعوة رئيس الأركان السابق لجيش يتألف من أربعة ملايين مقاتل. وزير الدفاع الجديد شابوشنيكوف (كان وزير الدفاع السابق في السجن مع "الانقلابيين" الآخرين) كان مهتماً في تلك الفترة بفرحة الانتقال إلى شقة يازوف، التي طردوا منها زوجته على جناح السرعة. إنها مصالح أنانية... ولكن سأقول شيئاً مهماً... يمكن اتهام أعضاء لجنة الدولة للطوارئ بكل شيء، ولكن ليس بسعيهم إلى تحقيق أغراض شخصية، أو بالجشع... (وقفة) كان هناك همس في أروقة الكرملين حول أخروميف: «لم يركب الحصان الرابح». كان الموظفون يلجؤون إلى يلتسين (يكرر السؤال) مفهوم الشرف؟ لا تطرحي أسئلة ساذجة... الناس الطبيعيون أُخرجوا من الموضة... ظهرت مقالة – نعوة في مجلة "التايم" الأمريكية. كتبها الأدميرال ويليام كروف، الذي كان يشغل في أثناء رئاسة ريغان منصب رئيس لجنة رؤساء أركان

الولايات المتحدة الأمريكية (مثل رئيس الأركان عندنا). فقد كانا قد التقيا مرات عديدة في مباحثات الشؤون العسكرية. وكان يحترم أخرومييف لعقيدته الراسخة على الرغم من أنها كانت غريبة عنه. لقد انحنى العدو احتراماً له (وقفة).

الإنسان السوفييتي وحده يمكن أن يفهم الإنسان السوفييتي. ولم أكن لأتحدث لآخر...

من حياة بعد الحياة

في الأول من أيلول/ سبتمبر تم دفن مارشال الاتحاد السوفييتي س. ف. أخرومييف في مقبرة ترويكورسكي الخاصة لكبار الشخصيات بموسكو (فرع من مقبرة نوفوديفيتشي بموسكو).

ليلاً، بين الأول والثاني من أيلول/ سبتمبر قام مجهولون بفتح قبر أخرومييف، وجاره في المقبرة الجنرال سريدنيف الذي دُفن قبله بأسبوع. وتفترض لجنة التحقيق، أن قبر سريدنيف كان القبر الأول الذي نبشه المجرمون، من باب الخطأ... وقد سرق اللصوص بذلة أخرومييف المارشالية مع الكتّافيات الذهبية وقبعته المارشالية، التي تدفن في القبر، حسب التقاليد المرعية. كما سرقوا كثيراً من الأوسمة والميداليات.

وأكد المحققون واثقين، أن تدنيس قبر المارشال أخرومييف قد تم لاعتبارات مالية وليس سياسية. فبذلات كبار القادة العسكريين تباع بأثمان باهظة لدى تجار العاديات. وبذلة المارشال هي أغلاها ثمناً...

صحيفة «كوميرسانت». 9 أيلول/ سبتمبر 1991.

أنا أعمل مهندس تصاميم...

قبل شهر آب/ أغسطس كنا نعيش في بلد، وبعده نعيش في بلد آخر. قبل آب/ أغسطس كان اسم بلدي الاتحاد السوفييتي CCCP...

من أنا؟ أنا واحد من أولئك الحمقى الذين كانوا يدافعون عن يلتسين. كنت واقفاً أمام البيت الأبيض، وكنت مستعداً للاستلقاء تحت الدبابة. لقد خرج الناس إلى الشارع بملء إرادتهم، بحماستهم. لكنهم كانوا مستعدين للموت من أجل الحرية وليس من أجل الرأسمالية. أنا اعتبر نفسي إنساناً مُغرَّراً به. لست في حاجة إلى الرأسمالية، التي اقتادونا إليها... وانزلقنا إليها... بأي شكل من أشكالها، لا الرأسمالية الأمريكية ولا الرأسمالية السويدية. ليس من أجل أية "نقود" قمت بالثورة. كنا نصرخ "روسيا" بدلاً من "الاتحاد السوفييتي". أنا آسف لأنهم لم يطردونا آنذاك بخراطيم المياه ولم يطلقوا على الساحة رشتين من رشاشاتهم. كان من الواجب اعتقال مئتين أو ثلاثمئة شخص، كي يتفرق الباقي في الزوايا (وقفة)... أين الآن أولئك الذين دعونا إلى الساحة: "فلتسقط مافيا الكرملين!"، "الحرية غداً!"؟ ليس عندهم شيئاً يقولونه لنا. توجهوا إلى الغرب، وهم يشتمون هناك الاشتراكية. يجلسون في مخابر شيكاغو... ونحن... هنا...

روسيا... كانوا يمسحون أقدامهم بها. وكل واحد يصفعها. لقد حولوها إلى مقلب للقمامة الغربية من ألبسة مستعملة، وأدوية منتهية صلاحيتها. قمامة! (يشتم الأم) ملحق للمواد الخام، وأنبوب للغاز... السلطة السوفييتية؟ لم تكن مثالية، لكنها كانت أفضل من السلطة الآن. وأجدر. عموماً، الاشتراكية كانت تناسبني: لم يكن لدينا أثرياء ثراءً فاحشاً،

ولم يكن هناك فقراء... وبؤساء وأطفال مشردون... كان في استطاعة كبار السن أن يعيشوا على رواتبهم التقاعدية، ولم يكونوا يجمعون الزجاجات الفارغة في الشوارع، والرواسب. ولم ينظروا بأعين محرومة، ولم يقفوا بأيد ممدودة طلباً للصدقة... كم من الناس قُتلوا بسبب البيريسترويكا! هذا ما يجب إحصاؤه (وقفة). إن حياتنا السابقة قد اقتلعت من جذورها، ولم يبق منها حجر على حجر. قريباً، لن يكون هناك ما يقوله الأب لابنه. «بابا إن الطفل البطل بافليك موروزوف، غبي، والطفل البطل مارات كازيي[1] شاذ»، يقول لي ابني عند قدومه من المدرسة، وأنت علمتني أنهم أبطال... لقد علمته ما علموني. وعلمته بطريقة صحيحة. «يا لها من تربية سوفييتية رهيبة»... لكن هذه "التربية السوفييتية الرهيبة" قد علمتني ألا أفكر في نفسي فقط، بل وفي الآخرين. في من هم أضعف مني وفي من يتألم. بالنسبة إليَّ كان الشهيد غاستيلو[2] هو البطل... وليس أولئك أصحاب السُّترات القرمزية... بفلسفتهم: قميصك أقرب إلى جسدك، دُهنك يدفئك أكثر، نقودك أقوى رنيناً. «بابا، لا تنطق بالتوافه». بـ"الصور البلاغية الإنسانية"... أين علموه هذا؟ الناس الآن آخرون... رأسماليون... أتفهمين؟ إنه يتشرب هذا كله، عمره اثنا عشر عاماً. لم أعد بالنسبة له قدوة. لماذا كنت أدافع عن يلتسين؟ خطبته وحدها، حيث قال يجب نزع الامتيازات من الموظفين الحزبيين البيروقراطيين، جلبت له ملايين المؤيدين. كنت مستعداً للإمساك برشاش وإطلاق النار على الشيوعيين. لقد أقنعوني... لكننا لم نكن ندرك أنهم يعدّون لنا بديلاً. يغشّوننا. خداع رهيب! لقد وقف يلتسين

---

(1) بافليك موروزوف ومورات كازيي: من أبطال قصص أدب الأطفال السوفييتي – المترجم.

(2) غاستيلو (1907-1941): طيار سوفييتي بطل، وجه طائرته المحترقة على رتل الدبابات النازية واستشهد فيها – المترجم.

ضد "الحمر" وتظاهر أنه من "البيض". إنها كارثة... سؤال: ماذا كنا نريد؟ اشتراكية ناعمة... إنسانية... وماذا نملك الآن؟ رأسمالية شرسة. تبادل إطلاق النار. مواجهات عنيفة. يفرزون- مَن صاحب الكشك، ومَن مالك المصنع. وصعد إلى القمة الغوغائيون... وتجار السوق السوداء والصيارفة واستولوا على السلطة... ومِن حولنا الأعداء والوحوش المفترسة. إنهم أبناء آوى! (وقفة). لا يمكنني أن أنسى... لا يمكنني أن أنسى كيف كنا نقف أمام البيت الأبيض... لمن كنا نقدم حبات الكستناء المشوية من النار؟ (يشتم الأم)، أبي كان شيوعياً حقيقياً. شريفاً، صادقاً. كان يعمل في المنظمة الحزبية في مصنع كبير. شارك في الحرب الوطنية العظمى. كنت أقول له: «الحرية! سنصبح بلداً متحضراً... عادياً»... فكان يجيبني: «سوف يعمل أبناؤك خدماً عند السيد. هل تريد هذا؟». كنت شاباً... غبياً... كنت أضحك عليه... كنا ساذجين للغاية. لا أعرف لماذا جرى كل شيء على هذا النحو؟ لا أعرف. ليس كما كنا نريد. كان في رأسنا شيء آخر. البيريسترويكا، إعادة بناء... كان في هذا شيء رائع... (وقفة) بعد عام أغلقوا مكتبنا، مكتب التصاميم الهندسية، أصبحت وزوجتي بلا عمل. فكيف عشنا؟ حملنا إلى سوق البازار كل ممتلكاتنا الثمينة: الكريستال، والذهب السوفييتي، وأهم شيء لدينا وهو الكتب. أسابيع كاملة كنا نأكل البطاطا المسلوقة. أنا اشتغلت بـ"البزنس". كنت أبيع في السوق "الأعقاب"، أعقاب السجائر. قطرميز "الأعقاب" بسعة ليتر... وآخر بسعة ثلاثة ليترات... كان والدا زوجتي (وهما مدرِّسان في الجامعة) يجمعان من الشوارع قطرميزاً من "أعقاب السجائر" سعة ثلاثة ليترات، وأنا كنت أبيعها. وكان الناس يشترون، ويدخنون. أنا نفسي كنت أدخنها. وزوجتي كانت تعمل عاملة تنظيف في المكاتب. وفي فترة من الزمن كنا نبيع شوشبرك "البيلميني" عند تاجر طاجيكي. لقد دفعنا غالياً ثمن سذاجتنا.

لقد انتهينا... والآن نربي الفراريج أنا وزوجتي، إنها تبكي دون انقطاع. آه لو أعيد كل شيء كما كان... ولا حاجة إلى أن تضربيني بالحذاء... إنه ليس حنيناً إلى المرتديلا الرمادية بروبلين وعشرين كوبيكاً...

أنا رجل أعمال...

الشيوعيون ملعونون ورجال مخابرات... أنا أكره الشيوعيين. إن التاريخ السوفييتي يتلخص في مفوضية الشعب للشؤون الداخلية (المخابرات)، ومعتقل غولاغ، والمنظمة الأمنية لقتل الخونة. إنني أتقيأ من اللون الأحمر، والقرنفل الأحمر... زوجتي اشترت بلوزة حمراء: «ماذا بكِ، هل فقدت عقلك!». أنا أضع علامة المساواة بين ستالين وهتلر. وأطالب بمحكمة نورنبرغ للبغايا الحمر. الموت لجميع الكلاب الحمر!

تحيط بنا من جميع الجهات النجوم الخماسية. والأقانيم البلشفية، كما كانت قائمة لا تزال مرفوعة في الساحات. أمشي بالشارع مع طفلي، فيسألني: «مَن هذا؟». هذا نصب تذكاري لروزا زملياشكا، التي أغرقت القرم بالدم. وكانت شخصياً تحب إطلاق النار على ضباط الحرس الأبيض... ولا أعرف بم أجيب طفلي؟

طالما أن المومياء... الفرعون السوفييتي... سيبقى راقداً في الساحة الحمراء في معبده الوثني سنبقى نعاني ونتألم. سنبقى ملعونين...

أنا صانعة حلويات...

كان في إمكان زوجي أن يحدثك... أين هو؟ (تلتفت إلى جانبيها) أما أنا – ماذا؟ أصنع الكاتو والحلويات...

العام الحادي والتسعون؟ كنا شباباً ظريفين... جميلين. لم نكن حشداً. لقد رأيت كيف كان رجل يرقص. يرقص ويصيح: «كـ... س للطغمة! كـ... س للطغمة!». (تغطي وجهها بيديها). أرجوكِ، لا تسجلي! لا، لا! لا يمكنك أن تحذفي كلمة من الأغنية، لكن الكلمة غير مطبوعة. لم يكن شاباً هذا الرجل... كان يرقص... لقد انتصرنا عليهم وفرحنا. أما عندهم فيقال، أن لوائح الذين سيعدمون رمياً بالرصاص كانت جاهزة. يلتسين كان الأول... منذ فترة قصيرة شاهدتهم جميعاً على شاشة التلفزيون... هذه الطغمة... كانوا عجائز وأغبياء. أما آنذاك، فقد كنا ثلاثة أيام في وضع يائس للغاية: أمعقول أنها النهاية؟ خوف جسدي رهيب. هذا هو روح الحرية... لقد أحس به الجميع... والخوف – من فقدانه. إن غورباتشوف هو إنسان عظيم... فتح البوابة... كنا نحبه، ولكن ليس طويلاً، سرعان ما أصبح يثير السخط من كل شيء: كيف كان يتحدث، وماذا يقول، وعاداته، وزوجته (تضحك. نكتة) في أنحاء روسيا تنطلق عربة الترويكا: رايسا[1] ميشكا[2] والبيريسترويكا. أما نايِنا يلتسين... فيحبونها أكثر، وهي دوماً خلف ظهر زوجها. أما رايسا فكانت تسير إلى جانبه، وقد تسبقه أحياناً. ويقول المثل عندنا: إما إنك القيصر أو عليك ألا تعيقي القيصر.

الشيوعية – مثلها مثل قانون منع المشروبات الكحولية: فكرة جيدة، ولكن لا يمكن تطبيقها. هكذا يقول زوجي... الشيوعيون "الحمر" قديسون... كانوا موجودين... لنأخذ مثلاً، الكاتب نيقولاي أستروفسكي... إنه قديس! كم من الدماء سالت وأريقت. لقد بذلت روسيا من الدماء الحد الأقصى، على الحروب والثورات... ولم تعد هناك قوى، ولا أي جنون لإراقة مزيد من الدماء. لقد عانى الناس عندنا بما فيه الكفاية. وهم الآن

---

(1) زوجة غورباتشوف.

(2) لقب غورباتشوف.

يذهبون إلى الأسواق لانتقاء الستائر والمنسوجات، وورق الجدران، والمقالي بمختلف أنواعها. يحوز على إعجابهم كل شيء لامع، لأن كل شيء عندنا كان رمادياً. ونفرح كالأطفال، بالغسالات الحديثة التي تحوي سبعة عشر نظاماً للغسيل. لقد توفي والداي: أمي منذ سبع سنوات، وأبي منذ ثماني سنوات، لكنني حتى الآن أستخدم علب الكبريت التي خزنتها أمي من باب الاحتياط، وكذلك أنواع الحبوب، والملح. كانت أمي تشتري كل شيء (آنذاك كان يقال "حصلت على شيء" وليس "اشتريت شيئاً") وتخزنها احتياطاً لليوم الأسود... والآن نتردد على الأسواق والمخازن، كما في المعارض، كل شيء موجود أكواماً. نود أن ندلِّل ونرحم أنفسنا. إنها علاج نفسي... نحن جميعاً مرضى نفسياً... (استغرقت في التفكير) كم كان من الواجب أن نعاني ونتألم كي نحتاط ونخزن مثل هذه الكمية من عيدان الثقاب. لا يمكنني إطلاقاً حتى مجرد التفكير في أن أسمِّي هذا نظرة برجوازية، ونزعة تقديس الأشياء. إنها علاج... (تلوذ بالصمت) ويوما بعد يوم، يُقلّ الناس من تذكُّرهم للانقلاب، وبدؤوا يخجلون. ولم يعد هناك شعور بالنصر. لأنني لم أكن أرغب أبداً في أن يُقضى على الدولة السوفييتية. وكيف حطمناها! بفرح وسرور! أنا نصف حياتي عشتها في تلك الدولة... لا يصح شطب هذا... وافقيني! فكل شيء مبرمج في رأسي على الطريقة السوفييتية. ولم يرسخ بعد ولم ينفذ إليه شيء آخر. ولا يتذكر الناس الآن إلا القليل من الجوانب السيئة، ويفتخرون بالنصر، وبأننا كنا أول من حلّق في الفضاء. لقد نسينا أن مخازننا التجارية كانت فارغة... ولم نعد نصدق ذلك...

بعد الانقلاب مباشرة ذهبت إلى جدي في القرية... ولم أترك الراديو الترانزستور من يدي. صباحاً ذهبت مع جدي لتقليب تربة الحقل. بعد مضي خمس إلى عشر دقائق، رميت بالفَرش من يدي: جدي، اسمع...

يلتسين يخطب... وثانية: جدي تعال إلى هنا... صبر جدي وصبر ثم لم يعد يحتمل: «أنت احفري التربة أعمق، ولا تصغي إلى ثرثرتهم. إن خلاصنا في هذا التراب، في الأرض: هل ستعطي محصولاً وافراً من البطاطا أم لا». لقد كان جدي حكيماً. مساءً جاء جاره لزيارته. رميت لهما بموضوع للنقاش حول ستالين. قال الجار: «لقد كان إنساناً جيداً، لكنه عاش طويلاً». وقال جدي: «أنا عشت حياة أطوَل من هذا الوغد». وأنا كنت أمشي دوماً مع الترانزستور. لقد شعرت باضطراب من فرحي. المصيبة الأكبر - النواب ذهبوا إلى تناول طعام الغداء. التأثير تقطّع.

ماذا يوجد لدي؟ ماذا بقي لدي؟ لدي مكتبة ضخمة وتسجيلات صوتية. هذا كل شيء! ولدى والدتي، وهي مرشحة للدكتوراه في العلوم الكيميائية، كتب أيضاً ومجموعة نادرة من المعادن. دخل شقتها لص... استيقظتْ ليلاً، فوجدت وسط شقتها (غرفة واحدة مع المنافع) شاباً ضخم الجثة. وقد فتح الخزانة وبدأ يرمي كل ما فيها. يرمي مقتنياتها على الأرض قائلاً: «الإنتليجينتسيا الملعونة... لا يوجد عندها حتى معطف فراء جيد»... ثم فتح باب الشقة وخرج. لم يكن هناك ما يسرقه من عندها. ذلك هو وضع المثقفين عندنا. وقد بقينا على حالتنا كما كنّا. أما مَن حولنا، فهناك من يبني قصراً، ويشتري السيارات الفارهة الباهظة الثمن. أما أنا، فمنذ ولادتي حتى الآن لم أر الماس...

إن الحياة في روسيا هي كالرواية الخيالية. لكنني أريد العيش هنا... مع الناس السوفييت... ومشاهدة الأفلام السوفييتية. ولتكن هي كذب وزيف، ولتكن هذه الأفلام قد أنتجت بناء على توصية من الأعلى، لكنني أعشقها. (تضحك). أرجو الله ألا يراني زوجي على شاشة التلفزيون.

أنا ضابط...

الآن دوري... اسمحي لي بكلمة. (شاب في الخامسة والعشرين من عمره) سجّلي: أنا وطني روسي أرثوذكسي. أخدم ربنا. أخدم بمثابرة واجتهاد... مستعيناً بالصلوات... من الذي باع روسيا؟ اليهود. الذين ليس لهم جذور. ومن اليهودي بكى الإله أكثر من مرة.

مؤامرة عالمية... نحن نتعامل مع مؤامرة ضد روسيا. إنها خطة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية... ولا أريد أن أصغي... لا تقولي لي إن هذا تزوير! اسكتي! إنها خطة آلين دالاس مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية... «بزرعنا الفوضى، نحن نستبدل بصورة غير ملحوظة قيمهم بالقيم المزيفة. سوف نجد لنا شركاء في الرأي وحلفاء في روسيا نفسها... نحن سنجعل من الشباب مستهترين، مبتذلين، سوقيين عَوْلميين. هكذا سنفعل»... مفهوم؟ اليهود والأمريكيون أعداؤنا. يانكي مغفلون. خطبة الرئيس كلنتون في الاجتماع المغلق للقمة السياسية الأمريكية: «لقد حققنا ما كان ينوي فعله الرئيس ترومان بوساطة القنبلة النووية... لقد تمكنا، دون إراقة الدماء، من إخراج الدولة التي تشكل المنافسة الرئيسة لأمريكا على الهيمنة على العالم»... إلى متى سيتكبر علينا أعداؤنا؟ قال يسوع: لا تخافوا ولا ترتعبوا، كونوا صلبين وشجعان. الرب سيرحم روسيا وسيقودها على طريق الآلام إلى المجد العظيم... (لا أستطيع إيقافه عن الكلام) في العام الحادي والتسعين أنهيت الكلية الحربية، وحصلت على نجمتين. برتبة ملازم. كنت فخوراً ولم أخلع بذلتي العسكرية. ضابط سوفييتي! حامي الوطن! أما بعد انهيار لجنة الدولة للطوارئ فقد كنت أذهب إلى عملي بلباسي المدني، وأرتدي بذلتي العسكرية هناك. أي عجوز كان من الممكن أن يقترب مني عند موقف الباص ويسألني: «لماذا لم تدافع عن الوطن يا بنيْ؟ يا ابن الكلبة!

لقد أديت القسم». كان الضباط يؤدون خدمتهم جياعاً. فقد كان من غير الممكن براتب الضابط شراء أكثر من كيلوغرام من المرتديلا. تسرحت من الجيش. عملت فترة من الزمن في حماية البغايا. الآن أعمل حارساً في إحدى الشركات. اليهود! كل شيء حدث بسببهم... ولا يمكن للإنسان الروسي تحقيق أي تقدم. لقد صلبوا السيد المسيح... (يضع في جيبي منشوراً) اقرئيه... لا يمكن للشرطة، ولا لجيش سوبشاك وتشوبايس... ونيمتسوف[1]... أن يقفوا أمام غضب الشعب العادل. «حاييم، هل سمعت بأن مذبحة ستقوم قريباً؟». «أنا لا أخاف. أنا روسي من حيث جواز السفر». «غبي، سيضربونك لسحنتك وليس لجواز سفرك». (يرسم علامة الصليب).

للأرض الروسية نظام الروسي! سيبقى اسم أخروميف وماكاشوف... والأبطال الآخرين... على راياتنا! الله لن يتركنا...

- أنا طالب...

أخروميف؟ من هذا؟ ما هذه الشخصية؟

- لجنة الدولة للطوارئ... ثورة آب/ أغسطس...

- عفواً... لست على اطلاع...

- كم عمرك؟

- تسعة عشر عاماً. أنا لا أهتم بالسياسة. بعيد عن هذه العروض. لكن ستالين يروقني. إنه شخصية مهمة. قارني حكّام اليوم بقائد يرتدي معطفاً

---

(1) سوبشاك وتشوبايس ونيمتسوف: من كبار الاقتصاديين ورجال الأعمال ورجال الدولة الذين أيدوا يلتسين وساهموا مساهمة كبيرة في تحويل الاقتصاد الاشتراكي الروسي إلى اقتصاد رأسمالي وأثروا ثراءً فاحشاً - المترجم.

عسكرياً. لصالح مَن هذه المقارنة؟ لصالحه هو... أنا لست في حاجة إلى روسيا العظيمة. ولن أرتدي جزمة عسكرية غبية، ولن أحمل رشاشاً على كتفي. لا أريد أن أموت! (سكت قليلاً) الحلم الروسي: حقيبتي في يدي، وكل ما تبقى على قضيبي... سأرحل من روسيا! إلى أمريكا! لكنني لا أريد السفر والعمل هناك نادلاً طيلة حياتي. أنا أفكر.

عن استعطاء الذكريات وشبق المعنى

إيغور بوغلازوف - تلميذ في الصف الثامن، 14 عاماً

من حديث الأم:

- أظن أنها خيانة... أنا أخون مشاعري، أخون حياتنا. أخون كلماتنا... فقد قيلت لواحد منا فقط، وأنا أُدخِل إنساناً غريباً إلى عالمنا. هل هذا الإنسان جيد أم سيئ؟ هذا ليس مهماً. هل سيفهمني أم لن يفهمني... أذكر امرأة كانت تقف في السوق وتبيع التفاح، وكانت تحدث الجميع أنها دفنت ابنها. عندها أقسمت بيني وبين نفسي: «لن يحدث هذا لي أبداً». نصمت أنا وزوجي حول هذا الموضوع، نبكي، ولكن كلاً على حدة، كي لا يراه الآخر. وتكفيني كلمة واحدة كي أبدأ أنوح. في العام الأول لم أستطع أبداً أن أهدأ: لأي هدف؟ لماذا فعل هذا؟ أريد أن أفكر... أطمئنُ نفسي: لم يكن ينوي الرحيل عنّا... أراد أن يجرِّب... أن يلقي نظرة... في سن الشباب يقلقهم: وماذا هناك؟ وبخاصة الشبان يقلقهم... بعد موته فتشت دفاتره، نقبت في أشعاره. كنت أنقب كالكلب البوليسي (تبكي). قبل أسبوع من يوم الأحد الفائت... كنت أقف أمام المرآة أمشط شعري... اقترب مني، عانقني من كتفيّ: وقفنا معاً نحن الاثنان، نظرنا في المرآة وابتسمنا: «إيغور - التصقتُ به - كم أنت جميل. أنت جميل لأنك ولدت عن حب. نتيجة حب كبير». فعانقني بشدة أكثر: «ماما، أنت دوماً لا يمكن مجاراتك». أخذتني قشعريرة من البرد من فكرة: آنذاك أمام المرآة، هل كان قد فكر في هذا أم لا... هل كان قد فكر؟

الحب... أجد من الغريب أن ألفظ هذه الكلمة. أن أتذكر، أن هناك حب. في حين أنني آنذاك كنت أفكر أن الحب أكبر من الموت... وأقوى من أي شيء آخر... تعارفت مع زوجي في الصف العاشر. جاء فتيان من المدرسة المجاورة إلى حفلة الرقص عندنا. لا أذكر أمسيتنا الأولى، لأنني لم أرَ فاليكا - هذا اسم زوجي- هو انتبه لي لكنه لم يقترب مني. حتى أنه لم يرَ وجهي، رأى خيالي فقط. وكأنه سمع من مكان ما صوتاً: «هذه هي زوجتك المقبلة». هذا ما اعترف به لي فيما بعد... (تبتسم) وقد يكون هذا من اختراعه؟ إنه حالم، خيالي. لكن المعجزة كانت معنا دوماً، فحملتني معها في الأرض. كنت مرحة، مرحة إلى حد الجنون، لا يمكن إيقافها. هكذا كنت. كنت أحب زوجي، وكان يروقني مغازلة الرجال الآخرين، على سبيل المزاح: أنت تمشي، والفتيان ينظرون إليك، ويروقكِ أنهم ينظرون إليك، وليكن بشيء من الحب. «وعلام الكثير لي أنا وحدي؟». كثيراً ما كنت أردد هذه الأغنية إثر صديقتي المحبوبة مايا كريستالينسكايا. كنت أحلق في الحياة وأطير، والآن أشعر بالأسف، لأنني لم أحفظ كل شيء، فلن أكون الآن أبداً فرحة بهذا الشكل. كي يحب المرء يجب أن يتحلى بكثير من القوة، أما الآن فأنا إنسانة أخرى. لقد أصبحت عادية (تصمت) أحياناً أود ذلك... أما في الغالب فلا أشعر بالسرور عندما أتذكر نفسي كيف كنت...

إيغور ابني في الثالثة - الرابعة من العمر... كنت أحمِّمه، فيقول: «ماما، أحبكِ، كما أحب "الأميلة اللائعة"». كافحت طويلاً مع حرف "الراء"... (تبتسم) يمكن العيش على هذا، أنا الآن أعيش على هذه الذكريات الرائعة... أنتقيها وأجمعها واحدة إثر أخرى... أنا مدرسة اللغة الروسية والأدب في المدرسة. لوحة بيتية تقليدية: أنا مع كتبي، وهو قرب خزانة المطبخ. وبينما هو يُخرِج من الخزانة الطناجر والمقالي، والملاعق

والشُوَك، أحضر نفسي لدروس الغد. كبُر إيغور. وأنا أجلس وأكتب، وهو كذلك يجلس وراء طاولته الصغيرة ويكتب. تعلّم القراءة والكتابة باكراً. عندما كان في الثالثة من عمره كنت أحفِّظه غيباً قصيدة ميخائيل سفيتلوف: «كاخوفكا، كاخوفكا، بندقيتي الوطنية... / أيتها الطلقة الساخنة، حلّقي!». هنا لا بد من التوقف والحديث بتفصيل أكثر... كنت أريد أن يكبر رجلاً، قوياً، وكنت أنتقي له قصائد عن الأبطال، والحرب والوطن. ذات مرة صرخت أمي قائلة: «فيرا، توقفي عن قراءة القصائد الحربية له. فهو لا يلعب إلا بالحرب». «جميع الصبيان يحبون اللعب بالحرب». «أجل، ولكن إيغور يحب أن يطلقوا عليه النار، وهو يسقط ويموت! فهو يسقط على الأرض برغبة شديدة وثمالة، حتى أنني أشعر بالرعب. يصيح بالصبية الآخرين: أنتم أطلقوا النار، وأنا سأسقط. ولم أسمعه أبداً يقول عكس ذلك». (بعد وقفة طويلة) لماذا لم أسمع كلمة أمي؟

كنت أهديه ألعاباً حربية: دبابة، جنوداً من رصاص، بندقية قناص... فهو صبي، يجب أن يكون مقاتلاً. ورد في كتالوج بندقية القناص: «على القناص أن يقتل بهدوء وبصورة انتقائية... عليه أولاً أن يتعرف جيداً على الهدف»... لسبب ما، كان يعدُّ هذا طبيعياً، ولم يكن يخيف أحداً. لماذا؟ أرواحنا كانت مهجزة للحرب. «إذا ما حدثت حرب غداً، إذا ما سرنا في حملة عسكرية غداً»... لا أجد أية تفسيرات أخرى. ليست لدي تفسيرات أخرى... الآن أصبح من النادر إهداء الأطفال سيوفاً... أو مسدسات... طاخ- طاخ! أما نحن... أذكر كم استغربت، عندما حدثنا أحد المعلمين في المدرسة، أن الألعاب الحربية ممنوعة في سويسرا. فكيف نجعل من الطفل رجلاً؟ حامياً للوطن؟ (بصوت متقطع) «حافظ على تطلعك إلى الموت، إلى الموت/ أيها المغني والفارس الفقير»... مهما كانت مناسبة اجتماعنا... دائماً... بعد خمس دقائق نتذكر الحرب. وكثيراً ما

كنا ننشد الأغاني الحربية. فهل هناك أناس مثلنا في مكان آخر؟ لقد عاش البولنديون في ظل الاشتراكية، وكذلك التشيك والرومانيون، لكنهم، مع ذلك، مختلفون... (تلوذ بالصمت) لا أعرف الآن كيف سأعيش. بأي شيء سأتمسك؟ بأي شيء..

(تقول بصوت متقطع هامس. ويبدو لي أنها تصرخ).

أُغلق عينيّ: فأرى كيف يرقد في التابوت... لقد كنا سعداء... فلماذا قرر أن الموت أجمل بكثير؟

قادتني صديقي إلى الخيّاطة: «عليك أن تخيطي لنفسك فستاناً جديداً. عندما أكون مكتئبة أخيط لنفسي ثوباً جديداً»...

... في الحلم، كان أحدهم يربت على رأسي... في العام الأول كنت أهرب من البيت إلى الحديقة، حيث كنت أصرخ... وتخاف الطيور...

كان في العاشرة من عمره، لا في الحادية عشرة... كنت أذهب إلى البيت حاملة حقيبتين ثقيلتين. بعد يوم كامل من العمل في المدرسة. أدخل البيت. كلاهما مستلقيان على الديوان: أحدهما مع صحيفته، والثاني مع كتابه. الفوضى عارمة في الشقة! جبال من المواعين غير المغسولة! يستقبلانني بترحاب! أمسك المكنسة بيدي. أعمل متراساً من الكراسي. «اخرجا!». «أنا مستعجلة!». «ارميا ما في أيديكما- على من أسكب أولاً؟». «ماما- فتاتي الصغيرة، لا تزعلي»، يخرج ابني إيغور أولاً، لقد أصبح بطول والده «ماما- فتاتي الصغيرة»، هو اسمي في المنزل. ابني الذي اخترعه... صيفاً كنا عادة نسافر إلى الجنوب، «إلى أشجار النخيل التي تعيش أقرب شيء إلى الشمس». (بفرح) أتذكر كلماتنا... كلماتنا... كنا ندفِّئ له أنفه الملتهب. حتى شهر آذار/ مارس نبقى غارقين في الديون، فنقتصد: نأكل الشوشبرك كحساء، وكوجبة أساسية، ومع الشاي (تلوذ بالصمت). أتذكر

لوحة ساطعة... بلدة غورزوف المشمسة، والبحر... الأحجار والرمل كلها بيضاء من الأمواج والشمس... بقيت صور كثيرة، أخفيها عن نفسي. أخشى... ألا أنفجر من الداخل... وفوراً- انفجار! ذات مرة ذهبت من دونه. فرجعت من منتصف الطريق. «إيغور! ادخل إلى الشقة، ستذهب معنا. لا يمكننا الذهاب من دونك!». فيصرخ «أور-را!!!». ويتعلق برقبتي (بعد وقفة طويلة) لا يمكننا الذهاب من دونه...

لماذا لم يمنعه حبنا؟ في فترة سابقة، كنت أؤمن بأن الحب قادر على كل شيء. كان قد حدث هذا الأمر... ولم يعد بيننا... بقيت طويلاً في وضعية المصعوقة. «فيرا». يناديني زوجي. لا أسمع. «فيرا»... وفجأة أُصاب بالهيستريا! كيف كنت أصرخ، وكيف ضربت الأرض بأقدامي- أصرخ على أمي- على أمي الحبيبة: «أيتها القبيحة، أيتها القبيحة السمينة! أنت ربّيْتينا مشوهين، قبيحين مثلك! ماذا كنا نسمع منك طيلة عمرنا؟ عليكم العيش من أجل الآخرين... من أجل هدفٍ سامٍ... أن ترموا أنفسكم تحت الدبابة، أن تحترقوا في الطائرة من أجل الوطن. الثورة المدوية... الموت البطولي... الموت كان دوماً أجمل من الحياة. لقد كبرنا مشوهين ومهووسين. وأنا ربيت ابني إيغور مثلكِ. وأنت المذنبة في كل شيء! أنت!». كشّت أمي وتقلصت وأصبحت فجأة صغيرة... صغيرة. عجوزاً صغيرة. شعرت وكأنني أُصبت بطعنة في قلبي. لأول مرة منذ أيام عديدة شعرت بألم شديد، وقبل هذا وضعوا على قدميَّ في الترولي حقيبة ثقيلة - ولم أشعر بألم. ليلاً انتفخت أصابع قدميّ، وعندئذ تذكرت حقيبة السفر (تذرف دموعها) هنا، عليَّ أن أتوقف وأحدثك عن أمي... أمي من جيل مثقفي ما قبل الحرب. كانت من أولئك الناس الذين تلمع الدموع في أعينهم عندما كانوا يعزفون "النشيد الأممي". لقد عاشت الحرب وكانت تتذكر دوماً أن الجندي السوفييتي علّق العلم الأحمر

فوق الرايخستاغ[1]: «بلادنا انتصرت في حرب عالمية!». خلال عشرة... عشرين... أربعين عاماً كانت تُكرر لنا هذه العبارة-التعويذة. كالصلاة... هذه كانت صلاتها... «نحن لم نملك شيئاً، لكننا كنا سعداء». كانت قناعة أمي هذه مطلقة. ومن العبث الجدال معها. ليف تولستوي - «مرآة الثورة الروسية»، كانت تحبه لروايته «الحرب والسلام»، وكذلك لأنه، وهو الكونت، أراد أن يوزع كل أملاكه على الفقراء، من أجل خلاص روحه. هكذا كانت، ليس أمي وحدها، بل وجميع أصدقائها المثقفين السوفييت الأوائل، الذين تربوا على مبادئ تشرنيشفسكي، دوبراليوبوف، نكراسوف... وعلى الماركسية... تصوري هذه اللوحة، أن تجلس أمي وتطرِّز أو تزين بيتنا بشكل ما، على نحو خاص: بالمزهريات الفخارية، وأشكال الفِيَلة وغيرها... ماذا تقولين! هذا ضياع عقيم للوقت. هذه نزعة سوقية! الأهم هو العمل الروحي... الكتب... طقم واحد يمكنك ارتداءه عشرين عاماً، ومعطفان يكفيان للعمر كله، أما العيش من دون كتب بوشكين أو من دون مؤلفات غوركي الكاملة فالحياة مستحيلة. أنتِ تشاركين في مشروع عظيم، والمشروع العظيم قائم... هكذا كانوا يعيشون...

عندنا، في مركز المدينة تقع المقبرة القديمة. فيها أشجار كثيرة، وشجيرات الليلك. وفيها يتنزهون، كما في حديقة نباتية. كبار السن قلة، والشباب والصبايا يضحكون، ويتبادلون القبلات. ويسمعون الموسيقى من المسجلات... يعود ابني ذات يوم في وقت متأخر: «أين كنتَ؟». «تنزهت في المقبرة». «وما الذي أخذك فجأة إلى المقبرة؟». «إنها ممتعة. تنظرين إلى أعين الناس الذين فارقوا الحياة».

... أفتح الباب في غرفته... كان واقفاً بطوله على إفريز النافذة، والأفاريز

(1) البرلمان الألماني - المترجم.

عندنا غير قوية، وغير مستوية. ونحن في الطابق السادس! جمدت. من غير الممكن الصراخ له، كما في طفولته، عندما كان يصعد إلى أعلى غصن في الشجرة أو إلى الجدار القديم العالي للكنيسة المهدمة: «إذا ما شعرت أنك لن تثبت، فعاير سقوطك بحيث يكون عليّ أنا». لم أصرخ، ولم أبكِ كي لا يخاف. وخرجت خارج الغرفة محاذية الجدار كي لا يراني. بعد خمس دقائق بدت لي دهراً كاملاً، دخلت غرفته من جديد، فكان قد نزل من على الإفريز وأصبح داخل الغرفة. هنا، هجمت عليه: قبلته، وضربته، وهززته قائلة: «لماذا؟ قل لي، لماذا؟». «لا أعرف. جَرّبت».

... ذات يوم، بالقرب من المدخل المجاور، شاهدت أكاليل العزاء. أحدهم تُوفي. مات. عدت من العمل وسألت زوجي عن ابننا، فقال إنه ذهب للعزاء. سألته: «لماذا؟ المتوفى شخص لا نعرفه». «المتوفى فتاة شابة. كانت ترقد في التابوت جميلة جداً. بينما كنت أعتقد أن الموت رهيب». (تصمت). حلَّق في دائرة... كان شيء ما يجذبه إلى هناك... (تصمت) لكن باب الموت مغلق... ولن نستطيع الدخول إليه.

يضع رأسه بين ركبتيه ويسأل: «ماما، كيف كنتُ عندما كنت صغيراً؟». فأحدثه... كيف كان يقف على الباب بانتظار وصول بابا نويل. كان يسألني بأي سيارة باص يمكن الوصول إلى مملكة الثلاث تسعات وإلى دولة الثلاث عشرات[1]. رأى في القرية تنوراً روسياً، بقي ينتظر طيلة الليل، متى سيتحرك التنّور وينطلق، كما في الحكاية. كان سريع التصديق...

في الشارع، أذكر أن الثلج كان كثيراً... يركض نحوي: «ماما! أنا اليوم قبّلت فتاةً!». «قبلتَ فتاةً؟!». «نعم. كان اليوم عندي الموعد الغرامي الأول». «وأنت أخفيت عني هذا؟». «لم ألحق بعد، قلت لأندريه وديمكا،

---

(1) أي بعيداً، كما في حكايات الأطفال - المترجم.

وذهبنا ثلاثتنا». «وهل يذهبون إلى الموعد الغرامي ثلاثة؟». «كنت أخشى الذهاب لوحدي». «فكيف كنتم ثلاثتكم في الموعد الغرامي؟». «جيد جداً. كنت أسير معها حول التل ممسكاً بذراعها وكنا نتبادل القبلات. أما ديمكا وأندريه فكانا يقفان حارسين لنا». يا إلهي! «ماما، وهل يمكن لتلميذ الصف الخامس أن يتزوج من تلميذة الصف التاسع؟ إذا ما كان هذا حباً بالطبع!»...

أما هذا... هذا... (تبكي طويلاً) لا يمكنني الحديث عنه...

شهرنا المفضل شهر آب/ أغسطس. نسافر خارج المدينة ونستمتع بالصحراء. نضحك... ونضحك... ونضحك... (تصمت) لماذا أبكي؟ لقد استمتعنا بأربع عشرة سنة كاملة... (تبكي).

أقلي وأشوي في المطبخ. النافذة مفتوحة. أسمع حديثه مع أبيه على الشرفة. إيغور: «بابا، ما هي الأعجوبة؟ أظن أنني فهمت. أصغِ إليّ... كان يا ما كان... كان هناك جَد وجَدّة، وكانت عندهما الدجاجة ريابا. باضت الدجاجة بيضة، ليست عادية، بل ذهبية. ضرب الجد البيضة فلم تنكسر، ضربت الجدة البيضة فلم تنكسر. ركض الفأر، وضرب بذيله، فسقطت البيضة وانكسرت. الجد يبكي، والجدة تبكي»... الأب: «من وجهة النظر المنطقية - هذا عبث مطلق. ضرباها مراراً ولم يكسراها، وبعد ذلك يبكيان فجأة! لكن، منذ كم من السنين، ليس السنين بل القرون- يسمع الأطفال هذه الحكاية، كالشِّعر؟». إيغور: «أما أنا يا أبي، فكنت أظن أن كل شيء يمكن فهمه بالعقل». الأب: «أشياء كثيرة لا يمكن فهمها بالعقل، كالحب مثلاً». إيغور: «وكذلك الموت».

منذ طفولته كان ينظم الأشعار... عثرت على الطاولة، وفي جيوبه، وتحت الديوان، على منشورات مكتوبة. كان يضيِّعها، يرميها، ينساها. حتى أنني لم أكن أصدق، أنه هو الذي كتبها: «أمعقول أنك أنت الذي كتبته؟». «وماذا في الأمر؟». أقرأ: «الناس يزور أحدهم الآخر/ الوحوش

يزور أحدهم الآخر»... «هذا قديم، لقد نسيته». «وهذه الأسطر؟». «أية أسطر؟». أقرأ: «على الغصن الخشن وحده / تقاطرت قطرات من النجوم»... عندما أصبح في الثانية عشرة من عمره، كتب أنه يريد أن يموت. رغبتان - أريد أن أحب وأريد أن أموت. «أنا وأنت تكللنا / بالمياه الزرقاء»... أيضاً؟! إليكِ: «لستُ لكِ أيتها الغيوم الفضية / لستُ لكِ أيتها الثلوج السماوية»... لقد قرأ عليَّ هذا. قرأه! ولكن في سن الشباب يكتبون كثيراً عن الموت...

في بيتنا كانت الأشعار تتردد دائماً، مثل أشعار ماياكوفسكي، سفتلوف... وشاعري المفضل سيميون غودزنكو: «عندما يتوجهون إلى الموت - ينشدون/ وقبل هذا يمكن البكاء/ إن أرهب ساعة في المعركة/ هي ساعة انتظار الهجوم». هل لاحظتِ؟ بالطبع، وعلام السؤال؟ نحن كلنا تربينا على هذا... الفن يهوى الموت، وفننا يهواه على نحو خاص. تقديس التضحية والموت يسير في دمائنا. الحياة على تمزيق الشريان الأبهر. «آه، الشعب الروسي لا يحب الموت ميتة طبيعية!». هذا ما قاله الكاتب الكبير غوغول. وكان فيسوتسكي ينشد: «قليلاً أيضاً سأقف على الحافة»... على الحافة!! الفن يحب الموت، ولكن هناك الكوميديا الفرنسية. لماذا لا يوجد عندنا، تقريباً، فن الكوميديا؟ «إلى الأمام من أجل الوطن!»، «الموت أو الوطن!». كنت أعلِّم تلاميذي: أضيء للآخرين، وأحترق أنا. كنت أعلمهم مأثرة البطل دانكو، الذي اقتلع قلبه من صدره لينير به الدرب للآخرين. لم نكن نتحدث عن الحياة... إلا القليل... البطل! البطل! البطل! الحياة كانت تتألف من الأبطال... من الضحايا والسفاحين... لم يكن هناك آخرون (تصرخ وتبكي) الذهاب إلى المدرسة، يعدُّ بالنسبة إليَّ الآن عذاباً وأشغالاً شاقة. الأطفال ينتظرون... إنهم ينتظرون الكلمات والمشاعر... وماذا أقول... ماذا يمكنني أن أقول لهم؟

كان كل شيء... على هذا الشكل بالضبط... في وقت متأخر من المساء، كنت في فراشي، أقرأ رواية "المعلم ومرغريتا"[1] كان لا يزال يعد منشقاً، وقد أحضروها لي مطبوعة على الآلة الكاتبة. وصلت إلى الصفحات الأخيرة... تذكرين، ترجو مرغريتا إطلاق سراح المعلم، أما فولاند - روح الشيطان - فيقول: «ما من داعٍ للصراخ في الجبال، فقد اعتاد على المنحدرات، وهذا لن يزعجه. لا حاجةَ لك إلى أن تطلبي من أجله، يا مرغريتا، فقد سبق أن طلب إطلاق سراحه ذاك الذي كان يسعى كثيراً إلى لحديث معه»... وفجأة قوة غير مدركة دفعتني إلى الغرفة الأخرى، إلى الديوان، حيث كان ينام ابني. جثوت على ركبتيّ وأخذت أحدثه همساً، وكأنني أصلّي: «إيغور، لا حاجة. عزيزي، أرجوك، لا حاجة!». - وبدأت أفعل، ما أصبح محظوراً عليّ، ما إن كبُر: بدأت أقبل يديه، ورجليه. فتح عينيه: «ماما، ماذا بك؟». أجبته على الفور: «لقد انزاح اللحاف عنك. وقد أعدته كما يجب». وغفا. أما أنا... لم أدرك ماذا حصل لي. كان مرحاً، كان يقلِّدني «سريعة، شعلة من نار». كنت أنطلق بسهولة في حياتي.

اقترب يوم عيد ميلاده... وعيد رأس السنة... أحد الأصدقاء وعد بتأمين زجاجة شمبانيا، حيث كان يندر شراء شيء ما من المحلات التجارية، كل شيء نحصل عليه عن طريق المعارف ومعارف المعارف. وبثمن أعلى. عن طريق المعارف كنا نحصل على المرتديلا المدخنة، والشوكولاتة... كان الحصول على كيلوغرام من فاكهة اليوسفي نجاحاً كبيراً. فاليوسفي لم تكن مجرد فاكهة، بل شيئاً غريباً، فعيد رأس السنة وحده كان يفوح باليوسفي. كنا نجمع خلال عدة أشهر المقبلات والمازة المتميزة لمائدة رأس السنة. ومن أجل هذه المناسبة، كنت قد خبأت علبة من كبد السمك وقطعة من السمك الأحمر. كل هذا كنا نقدمه على طاولة

---

(1) للكاتب المسرحي ميخائل بولغاكوف - المترجم.

عيد رأس السنة... (تلوذ بالصمت). لا، لا أريد إنهاء حديثي بهذه السرعة. كانت عندنا أربع عشرة سنة كاملة. أربع عشرة سنة ما عدا عشرة أيام...

ذات مرة، كنت أنظف السقيفة فعثرت على رزمة من الرسائل. عندما كنت راقدة في دار التوليد، كنت وزوجي نتراسل كل يوم، بالرسائل والمذكرات، وأحياناً عدة رسائل في اليوم الواحد. كنت أقرأها وأضحك... كان إيغور في السابعة من عمره... ولم يستطع أن يفهم، أنه كان لا يزال جنيناً، وكنت أنا وأبوه فقط. أقصد أنه كان كأنه موجود، وكنا في الرسائل نتحدث عنه دوماً: ها هو ذا الجنين قد انقلب، وها هو يدفعني... ويتحرك... فسألني: «أنا متُّ ذات مرة، ومن ثم عدت إليكم ثانية، أليس كذلك؟». ذُهلت كثيراً من سؤاله. لكن الأطفال... يتحدثون أحياناً على هذا النحو، كالفلاسفة، كالشعراء... كان عليَّ أن أكتب أقواله... «ماما، جدي توفي... هذا يعني أنه قد دُفن، وهو ينمو ويكبر»...

في الصف السابع أصبح لديه صديقة... فأحبها بصدق. كنت أقول له: «أنت لن تتزوج أول فتاة تحبها، ولن تتزوج من بائعة!». لقد اعتدت على فكرة أنه سيأتي يوم أتقاسم فيه حبه مع فتاة ما. وكنت أهيئ نفسي لذلك. صديقتي لديها ابن أيضاً، من عمر إيغور، وقد اعترفت لي ذات يوم قائلة: «لم أتعرف بعد على خطيبة ابني، وقد بدأت أكرهها». إلى هذه الدرجة كانت تحب ابنها. لا يمكنها حتى أن تتصور أنه سيأتي يوم وتضطر إلى إعطاء ابنها لامرأة أخرى. فما الذي كان يمكن أن يحدث عندنا؟ معي؟ لا أعرف... أنا كنت أحبه بجنون... بجنون... وسيأتي يوم، أفتح فيه باب بيتي، وأرى النور ينبعث من مكان ما، ليس من مكان ما، بل من الحب.

كنت رأيت حُلمين رهيبين. الأول- أغرق أنا وابني. كان يتقن السباحة جيداً، وقد خاطرت ذات يوم بالسباحة معه في البحر بعيداً عن الشاطئ. فعدت باتجاه الشاطئ، شاعرة بأن قواي لا تسمح لي، فأمسكت به متشبثة

بقوة. صاح إيغور: «اتركيني!». «لا يمكنني!». لقد أمسكت به، وأخذت أجذبه إلى القاع. وقد تمكن من الإفلات من يدي، وأخذ يدفعني باتجاه الشاطئ. يسندني ويدفعني. وهكذا وصلنا معاً إلى الشاطئ. ويتكرر كل شيء في الحلم، لكنني بقيت ممسكة به. ونحن لا نغرق، ولا نتجه إلى الشاطئ. يجري تزاحم في الماء... أما الحُلم الثاني- بدأ يهطل المطر، لكنني أحس أنه ليس بالمطر، بل الأرض تنهال وتتساقط. رمل. بدأ يتساقط الثلج، ولكنني أشعر من خلال الخشخشة أنه ليس ثلجاً، بل تراباً. المعول يطرق، طق- طق، طق- طق...

الماء... كان الماء يسحره... كان يحب البحيرات، الأنهار، الآبار. والبحر بشكل خاص. لديه أشعار كثيرة عن الماء. «ما إن ابيضت النجمة الهادئة، ظهر الماء. الظلام». وكذلك: «ويسيل الماء... والسكينة». (توقف) ونحن الآن لم نعد نتوجه إلى البحر.

العام الأخير... كثيراً ما كنا نجتمع للعشاء معاً. وكنا نتحدث بالطبع، عن الكتب. ونقرأ معاً الكتب المحظورة، مطبوعة على الآلة الكاتبة... "الدكتور جيفاغو"، أشعار "مندلشتام"... أذكر كيف تناقشنا حول من هو الشاعر؟ وما هو مصير الشاعر في روسيا؟ وكان رأي إيغور: «على الشاعر أن يموت باكراً، وإلاّ فهو ليس شاعراً. من المضحك جداً أن نرى شاعراً كبيراً في السن». وهذا... ما لم أنتبه إليه... ولم أولِه ما يستحقه من أهمية. كان يتناثر مني ويتناثر، كما تتناثر الهدايا من كيس عيد الميلاد... تقريباً، لدى كل شاعر روسي أشعار عن الوطن. أحفظ كثيراً منها عن ظهر قلب. كنت أقرأ شاعري المحبوب ليرمانتوف: «أحب الوطن، لكن حبي غريب». والشاعر يسينين: «أحبك أيها الوطن الوديع»... وكنت سعيدة عندما اشتريت رسائل الشاعر بلوك... مجلد كامل! رسالته لأمه بعد قدومه من الخارج... كتب يقول إن الوطن قد أظهر له على الفور خطم الخنزير

ووجهه الإلهي... كنت أركز، بالطبع، على الإلهي... (يدخل زوجها إلى الغرفة. فيعانقها ويجلس إلى جانبها) وماذا أيضاً؟ إيغور كان يسافر إلى موسكو، إلى ضريح الشاعر والمغني فيسوتسكي. حلق شعره كاملاً، وأصبح شديد الشبه بالشاعر ماياكوفسكي (تسأل زوجها) - أتذكر؟ كيف أنّبته؟ كان شَعره جميلاً، غير عادي.

الصيف الأخير... كان مُسْمرّاً من الشمس، طويلاً، قوياً. كانوا يقدرون عمره من حيث مظهره بثمانية عشر عاماً. ذهبت معه في العطلة المدرسية إلى تالين. كانت تلك الزيارة الثانية بالنسبة إليه، فقادني إلى كل مكان فيها، إلى الأزقة والشوارع كافة. خلال ثلاثة أيام أنفقنا كمية كبيرة من النقود. كنا ننام في إحدى المدن الجامعية. نعود من جولتنا الليلية بالمدينة، نمسك بيد أحدنا الآخر، نضحك، نفتح باب بيت الطلبة. اقتربنا من مناوبة الحراسة، فلم تسمح لنا بالدخول: «بعد الساعة الحادية عشرة يمنع الدخول مع النساء». فهمست لابني في أذنه: «اصعد، وأنا سأتبعك». ذهب، فخاطبت المناوبة همساً: «ألا تستحين! هذا ابني!». فرحتُ... كل شيء على ما يرام! فجأة، ليلاً، شعرت بالرعب. بالخوف من أنني لن أراه أبداً بعد الآن. الخوف من شيء ما جديد. لم يحدث شيء بعد.

الشهر الأخير... توفي أخي. أسرتنا لا تضم إلا القليل من الرجال، فأخذت معي إيغور، كي يساعدنا. آه، لو كنت أعرف... كان يرى الموت أمامه... «إيغور، ضع الأزهار في مكان آخر. أحضر الكراسي. اشترِ لنا خبزاً». هذه الأعمال العادية في حضرة الموت... خطرة... قد يحدث اختلاط بين الموت والحياة. هذا ما أدركه الآن. وصلت سيارة الباص. جلس جميع الأقارب، ولم أجد ابني بينهم. «إيغور أين أنت؟ تعال إلى هنا». يدخل - جميع المقاعد مشغولة. شارات ما غامضة... إما بسبب الدفعة، وإما... الباص انطلق، فتح أخي الميت عينيه للحظة. هذا فأل سيئ

- ستحدث وفاة أخرى في الأسرة. شعرنا بالخوف على أمي المريضة بالقلب. عندما أنزلنا التابوت إلى القبر، سقط شيء ما إلى القبر... أيضاً علامة سيئة...

اليوم الأخير... صباحاً. أغسل وجهي، أحس: يقف ابني عند فتحة الباب، ممسكاً عضادة الباب بكلتا يديه، وينظر، ينظر إليَّ. «ما بك؟ اجلس وراجع دروسك. سأعود قريباً». استدار صامتاً وذهب إلى غرفته. بعد انتهاء عملي التقيت بصديقتي. فقد حاكت له بلوفر على الموضة من الصوف، وهذه كانت هديتي له في عيد ميلاده. وصلت إلى البيت، فأنّبني زوجي: «ألا تدركين أن من المبكر بالنسبة إليه ارتداء هذه الأشياء الفاخرة؟». في أثناء تناول طعام الغداء، سكبت له شرحات الدجاج التي يحبها. عادة يطلب مقداراً إضافياً، أما الآن، فقد عض واحدة وتركها. «هل حدث شيء ما في المدرسة؟». لاذ بالصمت. وهنا بكيت فجأة، بكيت كثيراً، وكانت دموعي تتساقط غزيرة. وبصوت عال كنت أبكي، لأول مرة منذ عدة سنوات. لم يحدث لي هذا في أثناء تشييع أخي. شعر إيغور بالخوف الشديد، لدرجة أنني بدأت أهدِّئه: «قس البلوفر، البِسه. هل يعجبك؟». «جداً!». ألقيت نظرة عليه بعد فترة قصيرة في غرفته - كان يقرأ مستلقياً. في الغرفة الأخرى، كان الأب جالساً يرقن على الآلة الكاتبة. كنت أشعر بوجع في رأسي، فغفوت على الفور. عندما يحدث الحريق يكون نوم الناس ثقيلاً أكثر من العادة... تركته... كان يقرأ أشعار بوشكين... أما كلبتنا "تيمكا" فكانت راقدة في الردهة. لم تنبح، ولم تئنّ. لا أذكر، كم مضى من الوقت، فتحت عينيّ: زوجي يجلس على مقربة مني. «وأين إيغور؟». «في الحمام، أغلق الباب على نفسه. ربما يردد أشعاراً». خوف غريب أخرس أنهضني. أركضُ، أطرقُ باب الحمام، أطرق الباب. أضربه بيديَ، وبقدميّ. صمت مطبق. أصرخ، أنادي، أتضرع. صمت مطبق. زوجي يبحث عن مطرقة،

فأس. كَسَر الباب... كان معلقاً من رقبته، بسرواله القديم وكنزته، وخفه المنزلي... على حزام ما... أمسكت به، حملته. كان طرياً، دافئاً. أخذنا نجري له تنفساً صناعياً. استدعينا الإسعاف...

كيف نمت؟ ولماذا لم تشعر الكلبة تيمكا بأي شيء؟ إن الكلاب شديدة الحساسية، حتى أنها تسمع أفضل منا نحن بعشرات المرات. لماذا... كنت أجلس وأنظر في نقطة واحدة. أعطوني حقنة، واستلقيت في مكان ما. أيقظوني صباحاً: «فيرا، انهضي. فلن تسامحي نفسك إن لم تنهضي». «حسناً، الآن سأضربك على مزاحك. أنا سأريك». فكرت في نفسي. وعلى الفور بدأت أدرك، أنه ليس هناك من أضربه.

كان يرقد في التابوت... مرتدياً ذلك البلوفر الذي جهزته لعيد ميلاده.

لم أبدأ بالصراخ على الفور... بعد بضعة شهور... ولكن من دون دموع. كنت أصرخ، لكنني لم أكن أبكي. فقط، عندما شربت ذات مرة كأساً من الفودكا بكيت. بدأت أشرب كي أبكي... وأتشبث بالناس... عند أحد أصدقائنا جلسنا يومين، دون أن نخرج من الشقة. والآن، أنا أدرك، كم عانوا، وكيف سببنا لهم من الألم. لقد هربنا من شقتنا... انكسر الكرسي في المطبخ، حيث كان يجلس عادة - أنا لم أمسّه، كان هذا الكرسي يقف مكانه، فقد لا يعجبه أن أرمي كرسيّه المفضل. باب غرفته لم نستطع فتحه، لا أنا ولا زوجي. أردنا تبديل الشقة مرتين، حتى أننا جهزنا الوثائق اللازمة، وطمأنّا من رغب في الشقة، وأننا سنجمع حوائجنا. لا يمكنني أن أخرج من الشقة، يبدو لي أن ابني هنا في مكان ما، ولا أراه... إنه هنا، في مكان ما... كنت أتنقل بين المحلات التجارية، أنتقي ثيابه: هذا البنطال - بلونه المفضل، وهذا القميص. في فصل الربيع، من أي عام... لا أذكر... أدخل إلى البيت، وأقول لزوجي: «أتعرف؟ لقد حزت اليوم على إعجاب رجل. أراد تحديد موعد غرامي معي». فيجيبني زوجي: «كم أنا مسرور بك! يا

فيرا. أنت ستعودين»... كنت شاكرة جداً لزوجي على هذه الكلمات. والآن، أريد أن أتحدث عن زوجي... هو فيزيائي، كان أصدقاؤنا يمزحون معنا قائلين: «أنتما سعيدا الحظ. اجتمعتما في حنجور واحد فيزيائي وشاعرة غنائية». كنت أحبه... ولماذا كنت، وليس أحبه؟ لأنني لم أعرف نفسي بعد في حياة جديدة... أنا لست جاهزة لذلك... ولن أتمكن من أن أكون سعيدة بعد...

ليلاً، أستلقي بعينين مفتوحتين. صوت الجرس. أسمع بوضوح أنه جرس الباب. صباحاً، أخبر زوجي، فقال: «لكنني لم أسمع أي جرس». ليلاً، صوت جرس الباب مرة أخرى. أنا صاحية ولا أنام، أنظر إلى زوجي، استيقظ هو أيضاً. «هل سمعت؟». «نعم، سمعت». لدينا، أنا وزوجي، هذا الشعور، وكأننا لسنا وحدنا في الشقة. والكلبة تيما تركض على شكل دائرة حول السرير، وكأنها تتبع أثراً ما. أنا أسقط في مكان ما، في مكان دافئ. وأرى الحلم التالي... غير مفهوم أين كنت، يأتي لعندي إيغور في البلوفر نفسه الذي دفنّاه فيه. «ماما، أنت تنادينني ولا تدركين مدى صعوبة أن آتي لعندك. كفّي عن البكاء». أمد يدي وألمسه، إنه طري. «هل كنت مسروراً في البيت؟». «جداً». «وهناك؟». ولم يلحق أن يجيب حتى اختفى. منذ تلك الليلة توقفت عن البكاء. وبدأ يظهر لي في الحلم صغيراً، صغيراً، وأنا أنتظر أن يكبر حتى أتحدث معه...

لم يكن هذا حُلماً. بل أنا كنت مغلقة عينيّ... انفتح الباب في الغرفة، أراه أمامي إنساناً راشداً، لم أره من قبل أبداً، دخل للحظة واحدة. كان وجهه على نحو، بحيث أدركت أنه لم يعد يهتم بأي شيء يحدث هنا. أحاديثنا عنه، ذكرياتنا. لقد أصبح بعيداً جداً عنا. لكن، لا يمكنني بأي شكل قطع صلتي به. لا يمكنني ذلك... فكّرت طويلاً... وقررت أن أحمل وأن ألد... ولكن من غير المسموح لي، فقد تأخرت، كان يخشى الأطباء

من حملي، لكنني حملت وولدت. ولدت بنتاً. ونحن نعاملها، وكأنها ليست ابنتنا، بل ابنة إيغور. أخاف جداً أن أحبها، كما كنت أحب إيغور... لا يمكنني أن أحبها، كما كنت أحبه. إذاً، أنا مجنونة! مجنونة! أبكي كثيراً، أتردد وأتردد إلى المقبرة. وآخذ دوماً ابنتي معي، وأنا لا أتوقف عن التفكير في الموت. هذا لا يجوز. يرى زوجي، أن علينا أن نرحل من هنا، إلى بلد آخر. كي نغيِّر كل شيء: الطبيعة، والناس، والأبجدية. أصدقاؤنا يدعوننا إلى إسرائيل. يهاتفوننا كثيراً: «ما الذي يمسك بكم ويبقيكم؟». (بصوت عال، كالصراخ) ما الذي يمسك بنا؟ ما هو؟

لدي فكرة رهيبة: وربما قد يكون هو قد قص عليكِ قصة أخرى تماماً؟ أخرى تماماً...

من أحاديثي مع أصدقائه

... كل شيء معلق على هذا الصمغ العجيب.

كنا آنذاك في أول مرحلة شبابنا... والشباب هو مرحلة جنونية، لا أدري من رأى أنها مرحلة عمرية رائعة. أنتِ صعبة المراس، أنتِ سخيفة، أنت تتأثرين بكل شيء، أنت لست محمية من جميع الجوانب. أما بالنسبة إلى والديك، أنت ما زلت صغيرة، وهما ينمّيانك. أنت دوماً تحت وصاية أحد ما، ولا يمكن لأحد الاقتراب منك. الشعور... أذكر جيداً هذا الشعور... كما في المستشفى، عندما كنت أرقد في قاعة معزولة بالزجاج. لمرض معد من الأمراض. يتظاهر والداك (هكذا أنت تظنين) أنهما يريدان أن يكونا معكِ، وفي الواقع، هما يعيشان في عالم آخر. إنهما بعيدان جداً... وكأنهما قريبان، لكنهما بعيدان... لا يدرك الوالدان، أن الأمر جدي لدى أبنائهما. الحب الأول رهيب. وخطير بشكل مميت. صديقتي كانت ترى

أن إيغور أنهى حياته بسبب حبه لها. هذه سخافة! سخافة بنات... جميع بناتنا كن مغرمات به. أوه! جميل جداً، علاوة على ذلك، كان يتصرف وكأنه أكبر منّا جميعاً، ولكن ثمة شعور، أنه وحيد للغاية. كان ينظم الشعر. والشاعر يجب أن يكون بارداً ووحيداً. أن يستشهد في مبارزة. كان في رؤوسنا جميعاً كثير من الهراء الشبابي.

تلك السنوات كانت سنوات سوفييتية... شيوعية... تربّينا على لينين، على الثوريين المتحمسين، المتحمسين جداً، نحن لم نعتبر الثورة خطأً وجريمة، لكننا لم نتولّع بالمبادئ الماركسية- اللينينية. كانت الثورة قد أصبحت تجريداً... أكثر ما أتذكره هو الأعياد، وانتظار هذه الأعياد. أتذكر كل شيء بصورة ساطعة... الشوارع تغص بالناس. تتردد كلمات ما من مكبرات الصوت، هناك من يؤمن بهذه الكلمات بصورة كاملة، ومن يؤمن بها بصورة جزئية، ومن لا يؤمن بها إطلاقاً. ولكن، أظن أن الجميع كانوا سعداء. كثير من الموسيقى. أمي كانت شابة، جميلة. كلنا كنا معاً... وأتذكر أن اجتماعنا معاً هو السعادة... تلك الروائح، تلك الأصوات... ضربات مفاتيح الآلة الكاتبة، صراخ بائعات الحليب القادمات من القرى: «حليب! حليب!». لم تكن هناك برّادات عند الجميع، وكانت أواني الحليب الزجاجية تُحفظ في الشرفات. أما أكياس الفراريج فكانت معلقة على طاقة النافذة الصغيرة. وبين النوافذ المزدوجة كنا نضع القطن مع البهرجات التجميلية والتفاح. وكانت تنبعث من الأقبية روائح القطط... أما رائحة الكلور القماشي الذي لا يجارى للمطعم الشعبي السوفييتي؟ قد يبدو أن كل هذا غير مترابط، بعضه ببعض، لكنه الآن اندمج عندي في شعور واحد. في إحساس واحد. أما الحرية فلها روائح أخرى... ولوحات أخرى... وكل شيء مختلف. بعد رحلتي الأولى إلى خارج البلاد... حدثتْ في عهد غورباتشوف... عاد صديقي من الخارج بالكلمات التالية: «تفوح

من الحرية رائحة صلصة لذيذة». ما زلت أذكر أول سوبر ماركت رأيته في برلين - مئة نوع من المرتديلا ومئة نوع من الجبن. كان هذا بالنسبة إليَّ غير مفهوم. بعد إعادة البناء كانت في انتظارنا اكتشافات جديدة وانفعالات وأفكار جديدة عديدة. وهي لم توصف بعد، ولم تدخل التاريخ. لم تكن هناك صيغة لها... لكنني في عجلة من أمري... أنا أنتقل من زمن إلى آخر... فالعالم الكبير سينفتح أمامنا لاحقاً. أما آنذاك فقد كنا نحلم به... نحلم بما هو غير موجود، بما كنا نريده... كان من الجيد أن نحلم بالعالم الذي لم نكن نعرفه. كنا نحلم... وكنا نعيش حياة سوفييتية، تحوي قواعد موحدة للعب، والجميع كانوا يلعبون بها. أحدهم يقف على المنصة. إنه يكذب، والجميع يصفق، لكن الجميع يعرف أنه يكذب، وهو يعرف ذلك، والجميع يعرف أنه يكذب. لكنه يقول كل هذا وهو مسرور بالتصفيق. ولم يكن هناك شك في أننا سوف نعيش هكذا وعلينا البحث عن مكان للجوء. كانت أمي تصغي لغاليتش المحظور[1]... وأنا كنت أصغي لغاليتش... تذكرت أيضاً... كيف أردنا السفر إلى موسكو للمشاركة في تشييع الشاعر والمطرب المعارض فيسوتسكي، لكن الشرطة لم تسمح لنا بالخروج من القطار الكهربائي... وكنا نصرخ بأغانيه: «أنقذوا أرواحنا!/ نحن نختنق من مرض الربو»... «لم تصب الهدف، سبّقت، أخّرت، سبّقت، والمدفعية تضرب أنصارها»... يا للفضيحة! أصدرت المديرة أمراً بالحضور إلى المدرسة مع والديّ. ذهبتْ معي أمي. وكان سلوكها في المدرسة رائعاً... (استغرقت في التفكير) كنا نعيش في المطبخ... البلد كله كان يعيش في

---

(1) غاليتش: ألكسندر غينزبرغ (1918-1977) شاعر وموسيقي ومطرب وكاتب مسرحي يهودي معارض، كانت الشبيبة السوفييتية تتناقل مؤلفاته وأعماله المطبوعة على الآلة الكاتبة أو المسجلة على الكاسيت سراً. وفي عام 1974، سُمح له بمغادرة الاتحاد السوفييتي واستقر في باريس - المترجم.

المطابخ... نجلس عند أحدهم، نشرب القهوة، نسمع الأغاني، نتحدث عن الشعر، علبة محفوظات مفتوحة والخبز الأسود المقطع أمامنا. كنا في حالة جيدة. كانت لدينا طقوسنا: الزوارق، والخيام والرحلات سيراً على الأقدام. ننشد الأغاني أمام مشاعل النار. وكانت لدينا علامات عامة، يعرف بها أحدنا الآخر. وكانت هناك موضة دارجة، ومتعة ومرح. لم يعد وجود لهذه الجمعيات المطبخية السرية. ولا وجود لصداقتنا تلك التي كنا نظنها بأنها خالدة. نعم... كان هناك توجهٌ ضابط نحو الأبدية... لم يكن هناك شيء أسمى من الصداقة. كان كل شيء معلقاً على هذا الصمغ العجيب.

في الحقيقة، لم يعش أحد منا في الاتحاد السوفييتي، كل واحد عاش في حلقته ومجموعته. حلقة السياح، حلقة متسلقي الجبال... فبعد الدروس والمحاضرات كنا نجتمع في أحد المقرات السكنية-الاستثمارية، حيث خصصوا لنا غرفة. كنا ننظم مسرحاً، وأنا كنت أمثل في هذا المسرح. وكانت هناك حلقة أدبية. أذكر، أن إيغور كان يلقي هناك أشعاره، حيث كان يقلد الشاعر ماياكوفسكي بصورة رائعة، وكان لا يجارى. وكان لقبه "الطالب". كان يأتي إلينا شعراء كبار، ويتحاورون معنا بصراحة. ومنهم عرفنا حقيقة أحداث براغ (1968)، والحرب في أفغانستان. وماذا أيضاً؟ كنا نتعلم العزف على الغيتار. وكان هذا إلزامياً! فالغيتار كان في تلك السنوات في قائمة الأدوات الضرورية. وقد كنا مستعدين للجلوس على ركبنا والإصغاء إلى شعرائنا المفضلين. كان يجتمع حول الشعراء أعداد كبيرة جداً من الشباب في الملاعب. وكانت الشرطة على الخيول تناوب وتراقب. فالكلمة كانت جريمة. والوقوف في الاجتماع وقول الحقيقة كان جريمة ويشكل خطراً. أما الخروج إلى الساحة... فقد كانت تعد هجمة ومخاطرة ومتنفساً. كانت الكلمة تتدفق إلى كل شيء... أما اليوم، فلم

تعد مقبولة، يجب عمل شيء ما وليس الكلام. يمكنك الآن أن تقولي كل شيء، لكن الكلمة لم يعد لها أية سلطة. نود أن نؤمن بها لكننا لا نستطيع. لا أحد يهتم بأي شيء، أما المستقبل فهو خرائي ومقرف. لم نكن هكذا... أوه! أشعار، أشعار... كلمات، كلمات...

(تضحك). في الصف العاشر عشت قصة حب. كان يقيم في موسكو. ذهبت إليه لمدة ثلاثة أيام فقط. في الصباح أخذنا من أصدقائه في المحطة طبعة منسوخة من ذكريات ناديجدا مندلشتام، وكان الجميع يسعى لقراءتها. وكان من الواجب إعادة الكتاب في صباح اليوم التالي الساعة الرابعة صباحاً. يجب إحضاره بحلول وقت وصول القطار إلى المحطة. ليلة كاملة كنا نقرأ، دون توقف، مرة واحدة ذهبنا واشترينا الحليب والخبز. حتى أننا نسينا القبلات، كنا نتبادل أوراق الكتاب صفحة إثر أخرى. حدث كل شيء في حالة من الهذيان، في حالة من الارتعاش... لأنك تمسك هذا الكتاب بيديك... وتقرأه... وبعد ليلة واحدة ركضنا ليلاً في المدينة الخالية من الناس إلى المحطة، ولم تكن وسائل المواصلات قد بدأت حركتها. أذكر جيداً هذه المدينة في الليل، كيف كنا نسير، والكتاب كان في حقيبتي. كنا نحمله خائفين، وكأنه سلاح سري... هكذا كنا نؤمن أن الكلمة يمكنها أن تهز العالم.

سنوات غورباتشوف... حرية وبطاقات تموينية. قسائم... بطاقات... لكل شيء من الخبز حتى الحبوب والجوارب. كنا نقف في الطابور خمس أو ست ساعات... لكنكِ تقفين مع كتاب لم تكوني سابقاً قادرة على شرائه، وتعرفين أنه سيعرض مساءً الفيلم الذي كان محظوراً، وبقي على الرف عشر سنين. يا للكيف! أو طيلة اليوم وفي رأسك فكرة أن برنامج "وجهة نظر" سيعرض في الساعة العاشرة... لقد أصبح مقدما هذا البرنامج ألكسندر ليوبيموف وفلاديسلاف ليستييف بطلين شعبيين. لقد

عرفنا الحقيقة... أنه لم يكن غاغارين وحده، بل وبيريا... في الحقيقة، أنا الحمقاء كانت تكفيني حرية الكلمة، لأنه وكما اتضح فيما بعد، أنني كنت فتاة سوفييتية، وكل ما هو سوفييتي مغروس في نفسي أعمق مما كان يبدو لي. كان يكفيني أن يسمحوا لي بقراءة دوفلاتوف وفيكتور نكراسوف، وأن أسمع تسجيلات غاليتش. لم أكن أحلم بالسفر إلى باريس، والتنزه في شارع المونمارت... أو رؤية قصر "العائلة المقدسة" للمهندس المعماري غاودي... فقط اسمحوا لنا بالقراءة وبالحديث. بالقراءة! مرضت ابنتنا أولاً، وكان عمرها أربعة أشهر، أصيبت بانسداد الشعب الهوائية. جننت من الخوف. أخذوني معها إلى المستشفى، ولكن كان من الممنوع عليها أن تستلقي ولو لدقيقة واحدة، يجب أن تبقى في وضعية الوقوف مستندة على يديّ، ففي هذه الوضعية وحدها كانت تهدأ وتتوقف عن البكاء. كنت أسير في ردهات المستشفى وهي مستندة على يدي. وعندما كانت تغفو لنصف ساعة، فماذا كنت أفعل برأيك؟ أنا لم أعرف النوم وكنت متعبة مرهقة، ماذا كنت أفعل؟ كان تحت إبطي كتاب سولجينيتسين "أرخبيل غولاغ" - فأفتحه على الفور. كانت طفلتي تموت على يد، وفي اليد الأخرى كتاب سولجينيتسين. لقد بدلت الكتب حياتي. هذا كان عالمنا، عالم الكتب.

ثم حدث شيء ما... هبطنا على الأرض. فجأة انكسر الشعور بالسعادة والنشوة. بالكامل وبشكل كلي. وأدركت أن هذا العالم الجديد ليس عالمي، وليس لأجلي. إنه في حاجة إلى أشخاص آخرين. كانوا بجزماتهم يضربون الضعاف على الأعين! وارتفع القاع إلى القمة... عموماً، حدثت ثورة أخرى... لكن أهداف هذه الثورة كانت أرضية: لكل واحد منزل وسيارة. أليس قليلاً هذا بالنسبة إلى الإنسان؟ امتلأت الشوارع بمنتفخي الأوداج والعضلات في سراويلهم الرياضية. ذئاب!

أغرقوا الجميع. أمي كانت تعمل معلمة خياطة في معمل خياطة. بسرعة... بسرعة كبيرة أغلقوا المصنع... كانت أمي تجلس في البيت وتخيط سراويل نسائية وملابس داخلية. وجميع صديقاتها كن يخِطن السراويل والملابس الداخلية، تراهنَّ في كل شقة، حيثما دخلتِ. وقد كنا نعيش في بناء شيده المصنع للعاملين فيه. فكلهن كن يخطن السراويل وحمالات الصدر النسائية، ولباس السباحة (مايوهات). وبناء على توصيات معارفهن، كنّ يلصقن عليها الماركات الأجنبية المستوردة. بعدها كانت النسوة يجتمعن في مجموعات ويحملن بضاعتهن في أكياس ويبعنها في أنحاء روسيا. في هذه الفترة كنت أدرس في الدراسات العليا. (بمرح). أذكر حادثة كوميدية مضحكة جرت في المكتبة الجامعية، وفي مكتب العميدة. حيث كانت هناك براميل ممتلئة بمخلل الخيار والبندورة، والفطر والملفوف. كانوا يبيعون المخللات ويسددون بقيمتها رواتب الأساتذة والمدرسين. وفجأة امتلأت الكلية كلها بالبرتقال. أو كانت هناك صناديق تحوي قمصان رجالية... كانت الإنتليجيتسيا الروسية العظيمة تعيش بقدر استطاعتها. كان المثقفون يتذكرون الوصفات القديمة... لما كانوا يأكلونه في سنوات الحرب... في زوايا الحدائق النائية، وفي منحدرات خطوط السكك الحديدية كانوا يزرعون البطاطا... وكانوا يأكلون البطاطا أسابيع كاملة - فهل هذه مجاعة أم لا؟ أو مخلل الملفوف؟ لقد كرهته طيلة حياتي. وتعلمت تحضير "الشيبس" من قشور البطاطا وبقاياها، وكان أحدنا ينقل للآخر هذه الوصفة العجيبة: نرمي هذه البقايا والقشور في الزيت الحامي الذي يغلي ونكثر من الملح. لم يكن هناك حليب، لكن البوظة كانت متوفرة في السوق. كنا نغلي السَّميد مع البوظة. فهل بإمكاني أن أتناولها الآن؟

كانت صداقتنا أول شيء سقط... ظهرت لدى الجميع أشغال مختلفة؛

فقد كان من الضروري عمل أي شيء لتحصيل المال. كان يبدو لنا في السابق أن هذه النقود ليس لها أية سلطة علينا... أما هنا، فقد كان كل شيء يقيِّم بروعة الأوراق الخضراء، فهي ليست روبلات سوفييتية، وليست قطعاً من الورق المقصوص. فتيات وفتيان الكتب والقراءة... وغرف النباتات... اتضح أننا غير قادرين على التكيف مع الحياة الجديدة التي كنا ننتظرها. كنا ننتظر شيئاً آخر وليس هذا. لقد قرأنا عربة كاملة من الكتب الرومانسية، لكن الحياة كانت تركلنا على نُقرنا ومؤخراتنا باتجاه آخر. بدلاً من فيسوتسكي - كيركوروف. وموسيقى البوب! وهذا يلخص كل شيء... منذ فترة قصيرة اجتمعنا عندي في المطبخ، وهذا يحدث الآن نادراً، وسألنا، هل غنى فيسوتسكي أشعار أبراموفيتش؟ كانت هناك آراء مختلفة. لكن الغالبية أكدت أنه غنّى. وكان السؤال التالي: مقابل كم من النقود؟

إيغور؟ بقي في ذاكرتي شبيهاً بالشاعر ماياكوفسكي. إنه جميل ووحيد (تلوذ بالصمت)... هل شرحت لكِ شيئاً ما؟ وهل نجحت في هذا...

... لقد أصبح البازار جامعتنا.

مرت سنوات عديدة... لا يزال هذا سؤالاً بالنسبة لي: لماذا؟ لماذا قرر ذلك؟ كنا أصدقاء، لكنه قرر كل شيء بنفسه... وماذا تقولين لإنسان على الحافّة؟ ماذا؟ في سنوات الشباب، أنا نفسي كنت أفكر في الانتحار، وغير مفهوم لماذا. أحب أمي، أبي... أخي... عندنا كل شيء في المنزل على ما يرام... هناك شيء يجري. هناك بعيداً... هناك شيء ما... ما هو؟ شيء ما... هناك... هناك عالم كامل، أكثر سطوعاً، أكثر أهمية، من العالم الذي تعيشين فيه، هناك شيء ما أكثر أهمية يجري. وهناك يمكنكِ أن تقتربي من سر ما، ولا يمكنكِ أن تبلغيه بطريق آخر، من الناحية العقلانية أنت لا

تندمجين معه. لكنك تريدين... فلأُجرّب... أقف على الإفريز... وأقفز من الشرفة... لكنكِ لا تنوين الموت، بل تريدين الارتقاء إلى الأعلى، تريدين التحليق، ويبدو لك أنك ستحلقين. تتصرفين كما لو كنتِ في حلم... في إغماء... عندما ترجعين إلى نفسك، تتذكرين ضوءاً ما، صوتاً ما... وشعوراً بأنك في تلك الحالة كنت مرتاحة... شعرتِ بأنك هناك أفضل من هنا...

كنا مجموعة أصدقاء... صُحبة... كان معنا ليوشكا... توفي منذ فترة قصيرة نتيجة جرعة زائدة. فاديم اختفى في التسعينيات. اشتغل بتجارة الكتب. بدأت كمزحة... فكرة مجنونة... وما إن بدأت النقود تنهمر عليه، هجم عليه قطاع الطرق بمسدساتهم. كان يدفع لهم الديّة تارة، ويهرب منهم تارة أخرى- كان ينام في الغابة فوق الأشجار. في تلك السنوات توقف قطاع الطرق عن المشاجرة، وكانوا يميلون أكثر إلى القتل. أين هو؟ لا أثر له... وحتى الآن لم تعثر عليه الشرطة... دفنوه في مكان ما. أركادي هرب إلى أمريكا: «الأفضل أن أعيش في نيويورك تحت الجسر». بقيت أنا وإيليوشا... إليوشا تزوج بعد قصة حب كبيرة. كانت زوجته تصبر على أفعاله الغريبة عندما كانت موضة الشعراء والرسامين دارجة، وبعدها ظهرت موضة الوسطاء الماليين والمحاسبين. هجرته زوجته. بدأ يعاني من اكتئاب شديد. يخرج إلى الشارع فيصاب بنوبة ذعر شديدة. ويرتجف كل جسمه من الخوف. يجلس في البيت. مثل طفل كبير مع والديه. يكتب أشعاراً- صرخة الروح... في شبابنا كنا نستمع إلى التسجيلات نفسها ونقرأ الكتب السوفييتية نفسها. وكنا نركب الدراجات نفسها... في الحياة السابقة كان كل شيء عندنا بسيطاً: نرتدي حذاءً واحداً لفصول السنة كافة، وسترة واحدة، وبنطالاً واحداً. كانوا يربوّننا كما يُربى المحاربون الصغار في اسبارطة القديمة: إذا ما أمر الوطن، فسنجلس حتى على الأشواك.

كان عيداً من الأعياد الحربية... أخذو أطفال روضتنا إلى النصب التذكاري للطليعي البطل مارات كازيي: «أيها الأطفال، انتبهوا»، قالت المربية «هذا الفتى بطل، نسف نفسه بقنبلة يدوية وقضى على كثير من الجنود الفاشيين. عندما تكبرون، عليكم أن تصبحوا مثله». أن ننسف أنفسنا مثله بالقنبلة اليدوية؟ أنا لا أذكر هذا... هذا ما قالته ماما... ليلاً كنت أبكي بكاءً شديداً: عليّ أن أموت، سأرقد في مكان ما لوحدي، دون ماما وبابا... بما أنني أبكي، فأنا لست بطلاً على الإطلاق... ومرضت.

... عندما كنت في المدرسة. كان لدي حلم؛ أن أكون في عداد الفصيل المناوب أمام النار الخالدة في مركز المدينة. كانوا يأخذون أفضل التلاميذ. وكانوا يخيطون لهم معاطف عسكرية، ويلبسونهم قبعات من الفرو تغطي الأذنين، وكفوفاً عسكرية. لم يكن هذا عملاً إلزامياً، بل شرفاً كبيراً أن يكون التلميذ ضمن هذا الفصيل. كنا نستمع إلى الموسيقى الغربية، ونتراكض وراء سراويل الجينز، فقد ظهرت عندنا... رمز القرن العشرين، مثله مثل رشاش كلاشينكوف... كان أول بنطال جينز عندي من ماركة "مونتانا" - كم كان هذا فاخراً! أما في الليل فقد حلمت بأنني أرمي نفسي مع القنبلة اليدوية على العدو...

... توفيت جدتي، فانتقل جدي للعيش معنا. ضابط متطوع سابق، برتبة مقدّم. لديه كثير من الأوسمة والميداليات، وكنت دوماً أسأله: «جدي، لقاء ماذا منحوك هذا الوسام؟». «للدفاع عن أوديسا». «وأية مأثرة قمت بها؟». «كنت أدافع عن أوديسا». ونقطة على السطر. لهذا، كنت أستاء منه. «جدي، تذكرْ شيئاً نبيلاً سامياً». «من أجل هذا، عليك ألا تخاطبني، بل اذهب إلى المكتبة. وخذ كتاباً واقرأ». كان جدي رائعاً، كان أحدنا ينجذب للآخر بصورة كيميائية. توفي في شهر نيسان/ أبريل، لكنه كان يرغب في العيش حتى شهر أيار/ مايو. ليوم عيد النصر.

... في سن السادسة عشرة، استدعوني، كما هو مفروض، إلى مديرية التجنيد: في أي فصيل من القوات المسلحة ترغب؟ صرَّحت للمفوض، أنني سأنهي المدرسة وسأتطوع للمشاركة في الحرب في أفغانستان. «أحمق». قال لي المفوض. لقد أعددت نفسي طويلاً لهذا الغرض: كنت أقفز بالمظلة، وأدرس الرشاش... نحن الطلائع الأخيرة لبلاد السوفييت. كن مستعداً!

... من صفنا رحل فتى إلى إسرائيل... عقدنا اجتماعاً عاماً لتلاميذ الصف وبدأنا نقنعه: إذا كان والداك يرغبان في الرحيل، فليرحلا، ولكن عندنا بيوت جيدة للأطفال، وأنت ستكمل دراستك فيها وستبقى في الاتحاد السوفييتي. كان هو بالنسبة إلينا خائناً. وقد فصلوه من الشبيبة الشيوعية. في اليوم التالي توجه طلاب صفنا إلى الكولخوز لجني البطاطا، هو أيضاً جاء، ولكن أخرجوه من الباص. حذرتنا مديرة المدرسة وبيدها المسطرة: من يبدأ المراسلة معه، فسيصعب عليه إنهاء المدرسة. وعندما رحل، أخذنا جميعاً نراسله بمودة...

... في زمن البيريسترويكا... معلمونا أنفسهم قالوا لنا: انسوا كل ما علمناكم إياه سابقاً، واقرؤوا الصحف. كنا ندرس بالصحف. تم إلغاء امتحان التخرج بمادة التاريخ، ولم نضطر إلى حفظ مؤتمرات الحزب الشيوعي السوفييتي غيباً. في مسيرة عيد ثورة أكتوبر الأخيرة وزعوا علينا أيضاً يافطات وصور القادة، لكنها بالنسبة إلينا، كانت بمثابة كرنفال البرازيليين.

أذكر كيف كان الناس يتنقلون بأكياس من النقود السوفييتية في المحلات التجارية الفارغة...

انتسبت إلى الجامعة... كان تشوبايس في تلك الفترة يروِّج للسندات، كان يعِد بأن السند الواحد سيعادل قيمة سيارتين من ماركة "فولغا"، في حين

أنه الآن لا يساوي إلا كوبيكات. كان زمن الأقوياء! كنت أوزع منشورات في المترو... كلنا كنا نحلم بالحياة الجديدة... كنا نحلم... ونحلم بأن المرتديلا ستتواجد بكثرة على طاولات المحلات التجارية، وبالأسعار السوفييتية، وأن أعضاء المكتب السياسي للحزب سيقفون في الطابور العام كغيرهم لشرائها. إن المرتديلا هي المعيار والمؤشر الدال عندنا. عندنا حب وجودي للمرتديلا... موت الآلهة! المصانع للعمال! الأرض للفلاحين! الأنهار للقنادس! الأوكار للدببة! وقد حلت المسلسلات المكسيكية بصورة رائعة محل المواكب في الشوارع وبث مؤتمر نواب الشعب... درستُ في الجامعة سنتين... ثم تركت الجامعة. أشفقت على والديّ، فقد قالوا لهما صراحة: أنتم سوفييتيون بائسون، حياتكم انتهت بلا مقابل. أنتم مذنبون في كل شيء، بدءاً من سفينة نوح. الآن، لا أحد يحتاجكم أو يريدكم. كانا يكدحان طيلة حياتهما، والنتيجة صفر. كل هذا حطمهما، ودمر عالمهما، فهما لم يندمجا، ولم يتكيفا مع هذا المنعطف الخطير. أخي الصغير بعد انتهاء دوامه في المدرسة كان يغسل السيارات وينظفها، ويبيع في المترو علب العلكة وغيرها من التوافه، وكان يحصِّل من المال أكثر من راتب والدنا... كان أبي عالماً، لديه دكتوراه في العلوم! من النخبة السوفييتية! ظهرت المرتديلا في المحلات التجارية، فركض الجميع لمشاهدتها. رأوا الأسعار، واو! على هذا النحو دخلت الرأسمالية إلى حياتنا...

أنا أصبحت حمّالاً. وكان هذا من حسن حظي! كنت وصديقي نفرّغ شاحنة من السكر - فيعطوننا مقابل جهدنا نقوداً وشوالاً من السكر. ولكن ماذا يعني شوال السكر بالنسبة إلينا في "التسعينيات"؟ إنها ثروة كبيرة! المال! المال! بداية الرأسمالية... في يوم واحد كان يمكنك أن تصبح مليونيراً أو تتلقى رصاصة في جبينك. الآن يتذكرون... مهددين:

كان من الممكن أن تحدث حرب أهلية... كنا على حافّتها! أنا لم أكن أشعر بهذا. أذكر أن الشوارع أصبحت فارغة من الناس، ولا أحد على المتاريس. توقف الناس عن الاشتراك بالصحف وقراءتها. الرجال في فناء المنزل كانوا يشتمون غورباتشوف، ومن ثم يلتسين من بعده، لأن الفودكا ارتفع سعرها كثيراً. وتحولت إلى شيء مقدس! سيطر على الجميع شغف لا يمكن تفسيره. كانت تفوح في الهواء رائحة النقود. الأموال الكبيرة. والحرية المطلقة- لا حزب ولا حكومة. كان الجميع يريدون أن يحصلوا على المال، ومن لم يكن قادراً على تحصيل المال كان يحسد من يستطيع ذلك. كان هناك من يتاجر، ومن يشتري... ومن يغطّي، ومن ينتحر... حصلتُ على المبالغ المالية الأولى... ذهبت مع أصدقائي إلى المطعم. طلبنا مارتيني وفودكا "رويال" - كانت آنذاك أفضل أنواع الفودكا - أردنا أن نمسك الأقداح بأيدينا ونفتخر. دخنّا سجائر "مالبورو". كل شيء- كما قرأنا في روايات ريمارك. عشنا في الأفلام واللوحات... محلات تجارية ضخمة جديدة... مطاعم... وكأنها ديكورات من حياة غريبة... من حياة غريبة...

... تاجرت بالسجق المشوي. وتراكمت لديَّ مبالغ طائلة...

... شحنتُ فودكا إلى تركيا... أسبوعاً كاملاً بقيت جالساً في عربة شحن مغلقة للسكك الحديدية. المعاول كانت جاهزة. لتحطيم العربة. لو عرفوا ماذا نشحن- لقتلونا! شحنّا في طريق العودة مناشف موبّرة...

كنت أبيع ألعاب أطفال... ذات مرة اشتروا مني شحنة كاملة بالجملة وسددوا ثمنها بشاحنة من المشروبات الغازية التي قايضتها بشاحنة من البذور المعدة لاستخراج الزيت وقايضت البذور بالزيت التي بعت جزءاً منه وقايضت الجزء الباقي بطناجر "تيفال" ومكاوي...

... الآن أتاجر بالورود والأزهار... تعلمت "تمليح" الورود... تضع

الملح المكلّس في علبة كرتونية وتغطيها بالملح بما لا يقل عن سنتمتر واحد، وتضع فيها ورود نصف متفتحة وفوقها تضع الملح أيضاً. ثم توصي على غطاء وكيس كبير من السلوفان. وتربطها بإحكام. بعد شهر... بعد سنة تُخرج الورود من العلبة وتغسلها بالماء... تفضلوا في أي يوم وفي أية ساعة. وأحلى باقة لأحلى زيارة...

لقد أصبح البازار جامعتنا... ربما هناك مبالغة عندما أقول جامعة، لكن البازار هو مدرسة الحياة الابتدائية، هذا قول دقيق. كانوا يدخلون إلى محل الأزهار، كما يدخلون إلى متحف. أو إلى مكتبة. كان الفتيان والفتيات يدخلون إلى محل الأزهار صفوفاً طويلة وكأنهم في غيبوبة... بوجوه مجنونة... ها هما شاب وفتاة يقفان أمام مزيل الشعر الصيني... وتشرح له الفتاة، أهمية مزيل الشعر: «أنت ترغب في هذا، أليس كذلك؟ أنت تريدني أن أكون شبيهة بـ»... نسيت اسم الممثلة... مثل مارينا فلادي، أو كاترين دينيف مثلاً. ملايين من العلب الجديدة والمرطبانات. كنا نحملها إلى البيت كنصوص مقدسة، ومع استخدامنا لمحتوياتها لم نرم بالمرطبانات، بل كنا نضعها على رفوف الكتب أو في البوفيه خلف الزجاج. كنا نقرأ المجلات الأولى اللامعة البراقة، وكأنها من كتب الأدب الكلاسيكي، أو العقائد الجليلة، فخلف هذه القشور- ثمة حياة رائعة. كان دور الانتظار على أول مطعم من مطاعم "مكدونالد" يقدر بالكيلومترات... تحقيقات تلفزيونية. كان المثقفون الكبار يحافظون على العلب والمحارم الورقية التي يأخذونها من المطعم. ويعرضونها بفخر على ضيوفهم.

أحد معارفي المقربين... زوجته تعمل في عملين في آن واحد، كان لديه اعتزاز وكبرياء: «أنا شاعر. لن أذهب وأبيع الطناجر. إنني أشعر بالقرف». كنا، مع الجميع نسير في الشوارع ونصرخ: «الديمقراطية! الديمقراطية!». ولم يكن عندنا أي مفهوم، ماذا وراءها. لم يكن أحد ينوي بيع الطناجر. أما

الآن... فليس أمامنا أي خيار: إما أن تُطعم أسرتك، أو تتمسك بالمثل العليا السوفييتية. أو- أو... من دون صيغ أخرى... تقرض الشعر، تعزف على الغيتار، فيربتون على كتفك: «هيا! هيا!»، وجيوبك فارغة. وأولئك الذين رحلوا من البلاد السوفييتية؟ يبيعون الطناجر، وينقلون طلبات البيتزا... ويلصقون العلب في معمل الكرتون... هناك لم يشعروا بالخجل.

هل فهمتِني؟ كنت أحدثك عن إيغور... عن جيلنا الضائع - طفولة شيوعية وحياة رأسمالية. إني أكره الغيتار! ويمكنني تقديمه هدية.

عن كتابٍ مقدس آخر ومؤمنين آخرين

فاسيلي بتروفيتش ن. – عضو في الحزب الشيوعي منذ عام 1922، 87 عاماً

– نعم... كنت أريد... لقد أعادني الأطباء من هناك... وهل يعرفون من يعيدون؟ أنا ملحد، بالطبع، لكنني مع تقدمي في السن، لم أعد ملحداً واثقاً. أنت وحيد... مع هذه الفكرة، أنه يجب أن أغادر... إلى مكان ما... أجل... نظرة أخرى... نعم... إلى الأرض... إلى الرمل... لا يمكنني أن أنظر بهدوء إلى الرمل العادي. أنا متقدم في السن، عجوز منذ زمن. أجلس مع القطة قرب النافذة (يهدهد القطة الجالسة على ركبتيه) نفتح جهاز التلفزيون...

وبالطبع... لم أكن أفكر يوماً في أنني سأعيش إلى زمن يبدؤون فيه بوضع النصب التذكارية للجنرالات البيض. سابقاً، كانت هناك نصب تذكارية للأبطال – لمن؟ للقادة الحمر... فرونزه، شورس... أما اليوم فهي للجنرال الأبيض دينيكين، ولكولتشاك... مع أن من يذكر كيف كان أتباع كولتشاك يعلقوننا على أعمدة الكهرباء ما يزالون على قيد الحياة. لقد انتصر "البيض"... أليس كذلك؟ أما أنا، فقد كنت أحارب، وأحارب، وأحارب. من أجل ماذا؟ كنت أبني وأبني... ماذا؟ لو كنت كاتباً، لشرعت في كتابة ذكرياتي. استمعت منذ فترة قصيرة بالمذياع لبث إذاعي عن معملي. كنت فيه المدير الأول. كانوا يتحدثون عني وكأنني فارقت الحياة. لكنني حي...

لم يستطيعوا أن يتصوروا، أنني ما زلت هنا... نعم! نعم... (نضحك ثلاثتنا، يجلس معنا حفيده. يستمع) أنا أشعر بنفسي وكأنني قطعة منسية في مخزن متحف. جرّة عليها طبقات من الغبار. كانت إمبراطورية كبيرة - من البحر إلى البحر، مما وراء القطب إلى المناطق شبه الاستوائية. أين هي الآن؟ سقطت دون قنبلة... دون هيروشيما... انتصرت عليها صاحبة الجلالة: المرتديلا والسجق! انتصر العلف الجيد! سيارة المرسيدس. لا يحتاج الإنسان إلى شيء آخر، ولا تعرضوا عليه شيئاً آخر. لا حاجة أخرى لديه. فقط الخبز والمَشاهد! وهذا أكبر اكتشاف في القرن العشرين. ورَدٌّ على جميع المفكرين الإنسانيين العظام، وعلى حالمي الكرملين. أما نحن... جيلنا... كانت لدينا مخططات أخرى. كنا نحلم بالثورة العالمية: «نحن على حسرة جميع البورجوازيين / سنشعل حريقاً عالمياً». سنبني عالماً جديداً، ونجعل الجميع سعداء. كان يبدو لنا أن هذا ممكن، كنت أؤمن بهذا مخلصاً. مخلصاً للغاية! (يسعل سعالاً شديداً). الربو يذبحني. انتظري... (وقفة). هَأنذا قد عشت... عشت حتى الزمن المقبل، الذي كنا نحلم به. وكنا نموت من أجله، ونقتل. كان هناك كثير من الدم... دمنا، ودم الغريب... «اذهبْ واستشهد بلا لوم!/ فالموت لأجل هدف- قضية ثابتة/ حيث يسيل الدم من تحته»... «ذلك القلب الذي يكره متعباً لن يتعلم الحب»... (مستغرباً) ما زلت أذكر... لم أنسَ! تصلب الشرايين لم يقضِ على كل شيء. ولا بشكل نهائي. كنا نحفظ الشعر الوطني في دروس الثقافة السياسية... كم مر من السنين؟ الجواب رهيب...

ما الذي يروِّعني؟ ما الذي يقتلني؟ لقد تحطمت الفكرة! حلّت اللعنة على الشيوعية! كل شيء تحطم وتكسر! أنا هَرِم فقد عقله. مهووس دموي... قاتل محترف... هكذا إذاً؟ أنا أعيش طويلاً، لا يصح العيش

طويلاً. لا يصح... أبداً... لا يصح... من الخطر العيش طويلاً. زمني انتهى قبل أن تنتهي حياتي. على المرء أن يموت مع زمنه. مثل رفاقي... لقد استشهدوا مبكراً، في العشرين أو الثلاثين من عمرهم... ماتوا سعداء... بإيمانهم! والثورة في قلوبهم، كما كان يقال آنذاك. أنا أحسدهم. أنتِ لن تفهميني... أنا أحسدهم... «استُشهد طبّالنا الشاب»... استُشهد بكل معنى الكلمة! من أجل قضية سامية! (مستغرقاً في التفكير) أنا طيلة الوقت كنت أعيش مع الموت، لكنني لم أفكر في الموت إلا قليلاً. وفي هذا الصيف نقلوني إلى البيت الريفي. كنت أنظر وأنظر إلى الأرض... إنها حيّة...

- الموت والقتل - هل هما الشيء نفسه؟ لقد عشتَ بين القتلة.

- على مثل هذه الأسئلة (بانزعاج)... كان يجب أن تُحكمي بقسوة. نفياً إلى الشمال أو إعداماً- الخيار صغير ومحدود. في زمني لم تكن تُطرح مثل هذه الأسئلة. لم يكن عندنا مثل هذه الأسئلة! نحن كنا نتصور الحياة العادلة، دون فقراء وأغنياء. كنا نموت من أجل الثورة، كنا نموت مثاليين... نزيهين... لم يبق أحد من أصدقائي منذ زمن طويل. بقيت أنا وحدي. لا وجود لأحد من جلسائي... في الليالي أتحادث مع الأموات... وأنتِ؟ أنتِ لا تعرفين مشاعرنا ولا كلماتنا: مصادرة، طلب تقسيم، محروم، لجنة فقراء... انهزامي، عدو... إنها كتابات سنسكريتية بالنسبة إليك! كتابة هيروغليفية! الشيخوخة هي الوحدة والعزلة، بادئ ذي بدء. آخر عجوز من معارفي في المدخل المجاور توفي قبل خمس سنوات، وربما أكثر... قبل سبع سنوات... من حولي أناس لا أعرفهم. يفدون لعندي: من المتحف، من الأرشيف... من الموسوعة... أنا مرجع، دليل... أرشيف حي... ولا وجود لجلساء لي... مع من كان بودي أن أتحاور؟ كان بودي أن أتحاور مع لازار كاغانوفيتش... لم

يبق إلا القليل منا، ومن ليس في هزال الشيخوخة، أقل. إنه أكبر مني، فقد أكمل التسعين. كنت أقرأ في الصحف... (يضحك). يكتبون في الصحف، أن كبار السن في الفناء يرفضون لعب الدومينو معه، أو ورق الشدة. يطردونه: "قاتل!". وهو يبكي من الإساءة. في وقت من الأوقات، كان مفوضاً شعبياً حديدياً. كان يوقع قوائم المحكومين بالموت رمياً بالرصاص، قتل عشرات الآلاف من الناس. عمل على مقربة من ستالين ثلاثين عاماً. أما في شيخوخته فليس هناك من يلعب معه بورق الشدة... العمال العاديون يحتقرونه... (بعدها أخذ يتكلم بصوت هامس. لا يمكنني فهم ما يقول. أستوعب بضع كلمات متقاطعة). أمر رهيب... رهيب جداً العيش طويلاً.

... أنا لست مؤرخاً، بل ولست متخصصاً في العلوم الإنسانية. صحيح أنني عملت فترة من الزمن مدير مسرح، مسرح مدينتنا. كنت أعمل، حيثما يرسلني الحزب في أي قطاع. كنت مخلصاً في خدمتي للحزب. لا أذكر من الحياة إلا قليلاً، أذكر العمل وحده. كانت البلاد ورشة عمل... فرناً... ورشة حدادة! أما الآن فلا يعملون. كنت أنام في اليوم ثلاث ساعات. ثلاث ساعات... لقد تخلفنا عن البلدان المتقدمة لخمسين أو لمئة سنة. لقرن كامل. كانت خطة ستالين- اللحاق بها خلال خمس عشرة إلى عشرين سنة. قفزة ستالينية شهيرة. وكنا نؤمن بأننا سنلحق بها! الآن الناس لا يؤمنون بأي شيء، كانوا يؤمنون آنذاك. يؤمنون بسهولة. كانت شعاراتنا: «سنضرب الدمار الصناعي بالأحلام الثورية!»، «على البلاشفة الأخذ بالتقنية واستيعابها!»، «سنلحق بالرأسمالية!». أنا لم أكن أعيش في البيت... كنت أعيش في المعمل... في ورشة البناء. نعم في الساعة الثانية... الثالثة بعد منتصف الليل كان في إمكاني الاتصال بالهاتف. لم يكن ستالين ينام، كان يرقد في وقت متأخر جداً، وبالتالي، نحن لم

نكن ننام. الكوادر القيادية. من الأعلى إلى الأسفل. لدي وسامان وثلاث نوبات قلبية. كنت مدير معمل أطر السيارات، ورئيس تروست البناء، ومنها نقلوني إلى مصنع تجهيز اللحوم. وترأست الأرشيف الحزبي. وبعد نوبتي القلبية الثالثة استلمت إدارة المسرح... إن زمننا... زمني... كان زمناً عظيماً! لم يكن أحد يعيش لنفسه. لهذا نشعر بالاستياء... سيدة لطيفة أجرت معي مقابلة منذ فترة قصيرة. بدأت "تثقفني"، في أي زمن رهيب كنا نعيش. هي كانت تقرأ في الكتب، أما أنا فكنت أعيش فيه. أنا ولدت في هذا الزمن. أنا من تلك السنوات. وبدأت تحدثني: «أنتم كنتم عبيداً. عبيد ستالين». إنها غرّة! أنا لم أكن عبداً! لم أكن! وأنا الآن نفسي لا يمكنني الخروج من الشكوك... لكنني لم أكن عبداً... إن رؤوس الناس محشوة بمخلوطة. اختلط لديهم كل شيء: كولتشاك وتشابايف، دينيكين وفرونزه... لينين والقيصر... الجندي الأحمر - الأبيض. خليط عجيب. كأنهم يرقصون على أكتاف الناس! لقد كان هذا زمناً عظيماً! لن نعيش أبداً بعد الآن في مثل هذه البلاد القوية والكبيرة. كنت أبكي عندما انهار الاتحاد السوفييتي... لقد لعنونا على الفور. وشهّروا بنا وافتروا علينا. لقد انتصر العادي، ضيق الأفق. القملة. الحشرة.

إن وطني هو ثورة أكتوبر... لينين... الاشتراكية... كنت أحب الثورة! والحزب هو أغلى شيء عندي. سبعون سنة وأنا في الحزب. بطاقتي الحزبية هي إنجيلي وتوراتي. (يخطب منشداً) - «سنحطم عالم القهر والظلم كله/ من أساسه، ومن ثم / سنبني عالمنا الجديد/ من كان محروماً من كل شيء، سيصبح مالكاً لكل شيء». كنا نريد بناء مملكة الله على الأرض. إنه حلم جميل، لكنه غير قابل للتحقيق، فالإنسان ليس مستعداً بعد لهذا. ليس مكتملاً بعد. نعم... ولكن مِن بوغاتشوف

والديسمبريين[1]... إلى لينين نفسه... جميعهم كان يحلم بالمساواة والإخاء. من دون فكرة العدالة ستكون روسيا أخرى وناس آخرون. وستكون بلاد مغايرة تماماً. نحن لم ننسَ الشيوعية بعد. لا تأملي. والعالم لم ينسَها. فالإنسان سوف يحلم دوماً بمدينة الشمس. منذ كان لا يزال مرتدياً جلد الحيوان، ويعيش في الكهوف، وكان يحلم بالعدالة. تَذكّري الأغاني السوفييتية والأفلام السوفييتية... أي حلم جميل هذا! أما "المرسيدس" فهي ليست حلماً...

(لم ينبس حفيده بكلمة طيلة حديثنا. وجواباً على أسئلتي سيروي بعض النكات).

من النكات التي رواها لي الحفيد:

العام السابع والثلاثون... حزبيان بلشفيان متقدمان في السن في المعتقل. قال أحدهما: «لا، لن نعيش نحن حتى تعم الشيوعية، إنما أبناؤنا سيعيشون». الثاني: «يا لهم من بؤساء!».

أنا عجوز... شيخ منذ زمن طويل... لكن الشيخوخة أيضاً ممتعة. أنت تدرك أن الإنسان حيوان... وفجأة يتبين أن هناك كثيراً من الحيوانات... إنه الوقت، كما قالت رانيفسكايا، حيث الشمع على قالب الكاتو ليوم عيد الميلاد أغلى من الكاتو نفسه، وأن نصف البراز يذهب للتحاليل (يضحك) لا شيء يشفي من الهرم والشيخوخة- لا الأوسمة ولا الميداليات... أبداً... يهدر محرك البراد، وتدق الساعة. ولا يحدث أي شيء آخر. (تحدثنا عن

---

(1) بوغاتشوف: (1740-1775) قائد وبطل شعبي روسي ثار على القيصر وأُعدم - المترجم.
الديسمبريون: أمراء روس نبلاء ثوريون. قاموا بعصيان على الحكم القيصري المستبد عام 1825 - المترجم.

حفيده. الحفيد في المطبخ يحضر الشاي) أطفال هذا الجيل... الكومبيوتر وحده في رؤوسهم... حفيدي الصغير، في الصف التاسع، قال لي: «سأقرأ عن إيفان الرهيب، ولا أريد القراءة عن ستالين. سئمت من "ستالينك"». لا يعرفون أي شيء، وقد سئموا. طيب! جميعهم يلعنون العام السابع عشر. «إنهم حمقى - يتحدثون عنّا نحن- لماذا قاموا بالثورة؟». لا يزال كل شيء في ذاكرتي... أذكر الناس بعيونهم الحارّة. قلوبنا كانت تشتعل! لا يصدقني أحد! لكنني لم أفقد عقلي... أذكر... نعم... هؤلاء الناس لم يريدوا شيئاً لأنفسهم، ولم يكن هناك، كما هو الآن، أنا بالمرتبة الأولى. كان لدينا نحن طاسة من الحساء... بيت صغير... بستان... نحن! نحن! يأتي لعندي أحياناً صديق ابني، أستاذ في الجامعة. يسافر إلى الخارج ويلقي محاضرات هناك. نختلف ونتخاصم حتى تُبح أصواتنا. أنا أحدثه عن توخاتشيفسكي، فيجيبني قائلاً: قائد الجيش الأحمر سمم فلاحي تومبوف بالغاز، وعلق البحارة في كرونشتادت. يقول لي: أولاً، أنتم أطلقتم النار على النبلاء والقساوسة... هذا في العام السابع عشر... وفي العام السابع والثلاثين أطلقوا عليكم النار أنتم... ووصلوا حتى إلى لينين. أنا أحب لينين وسيبقى معي! سأموت ولينين في قلبي! الآن... انتظري... (سعال شديد. وبسبب السعال، لم يعد حديثه مفهوماً) في السابق بنينا الأسطول، وغزونا الفضاء، أما الآن - القصور واليخوت... أعترف صادقاً، لا أفكر في أي شيء غالباً. هل تعمل أمعائي أم لا؟ هذا مهم منذ الصباح. وهكذا تنتهي الحياة.

كنا في عمر يتراوح بين ثماني عشرة سنة وعشرين... عمّ كنا نتحدث؟ كنا نتحدث عن الثورة وعن الحب. كنا أنصاراً متعصبين للثورة. لكننا كنا نتناقش كثيراً حول كتاب ألكسندرا كولونتاي "الحب نحل الكادحين". كانت المؤلفة تدافع عن الحب الحر، أي الحب من دون أي شيء

آخر... «كما لو تشرب كأساً من الماء». من دون آهات ولا ورود، من دون غيرة ولا دموع. كان يعدّ آنذاك الحب بالقبلات والرسائل الغرامية عادة بورجوازية قميئة. وكل هذا على الثوري الحقيقي أن يكبته في نفسه. حتى أننا عقدنا اجتماعاً حول هذا الموضوع. واختلفت آراؤنا: واحد يؤيد الحب الحر، ولكن مع العواطف والمشاعر، وآخر من دون عواطف. أنا كنت أؤيد العواطف، قبلة على الأقل. نعم! نعم... (يضحك) وفي هذه الفترة بالذات، أحببت فتاة، وكنت أهتم بزوجتي المقبلة. كيف أهتم؟ كنا نقرأ معاً غوركي: «العاصفة! ستهب العاصفة قريباً!... طائر البطريق الغبي كان يخفي بحياء جسمه السمين بين الصخور»... ساذجة؟ لكنها رائعة أيضاً. رائعة، يا للشيطان! (يضحك كما الشباب. وألاحظ أنه لا يزال جميلاً) الرقص... الرقصات العادية... كنا نعدّها برجوازية صغيرة. كنا ننظم محاكمات ونعاقب الفتيان الشبيبيين الذين كانوا يرقصون ويهدون فتياتهم الأزهار. حتى أنني كنت ذات مرة رئيس المحكمة المختصة بالرقص. وبسبب هذا، بسبب قناعتي "الماركسية" لم أتعلم الرقص. ثم ندمت. لم يكن في استطاعتي أبداً الرقص مع امرأة جميلة. دب! كنا ننظم أعراساً للشبيبيين. من دون شموع، ومن دون أكاليل الورد. ومن دون قساوسة. وبدلاً من الأيقونات صور لينين وماركس. كان لدى خطيبتي شعر طويل، وقد قصته بحلول العرس. كنا نحتقر الجمال. بالطبع، كان هذا خطأً. مغالاة، كما يقال... (يسعل من جديد. ويؤشر بيده، كي لا أغلق المسجل) لا بأس، لا بأس... لا حاجة عندي للتأجيل... سرعان ما أتحلل قريباً وأتحول إلى فوسفور وكلس وغيره. وممن ستعرفين الحقيقة؟ لم يبق إلا الأرشيف. الأوراق. نعم... أنا عملت في الأرشيف وأعرف: الأوراق تكذب أكثر من الناس.

عم أتحدث؟ عن الحب... عن زوجتي الأولى... عندما رُزقنا بابن،

أسميناه أكتوبر. على شرف الذكرى السنوية التاسعة لأكتوبر العظيم. كنت أريد أن أُرزق بابنة أيضاً. ضحكت زوجتي وقالت: «إذا كنت تريد مني طفلاً آخر، فهذا يعني أنك تحبني». «وأي اسم سنطلق على ابنتنا؟». كان يعجبني اسم ليوبلينا، فهو يتألف من كلمتين «أحب لينين». كتبت زوجتي على ورقة جميع الأسماء المؤنثة التي تحبها: ماركسانا، ستالينا، انغلزينا[1]، إيسكرا[2]... تلك كانت الأسماء الدارجة آنذاك. وبقيت هذه الورقة على الطاولة.

رأيت الحزبي البلشفي الأول في قريتي... طالب شاب في معطف عسكري. ألقى خطبة في الساحة بالقرب من الكنيسة: «الآن بعضهم يرتدي الجزمات، وآخرون يرتدون الأخفاف. وعندما ستصبح السلطة بلشفية، سيغدو الجميع متماثلين». كان يصرخ الفلاحون: «وكيف هذا؟». «هذا سيكون زمناً رائعاً، حيث سترتدي زوجاتكم أثواباً حريرية وأحذية نسائية بكعب عال. ولن يكون هناك أثرياء وفقراء. سيعيش الجميع في أحسن حال». أمي سترتدي فستاناً حريرياً، وأختي سترتدي حذاء بكعب عال. أنا سوف أدرس... جميع الناس سيعيشون كإخوة، والجميع سيكون متساوين. وكيف لا أحب هذا الحلم! لقد وثق الفقراء والمحرومون من الملكية بالبلاشفة. وانضمت الشبيبة كلها إلى البلاشفة. كنا نسير في الشوارع ونصرخ «لتسقط الأجراس - هيا إلى الجرارات!». أما عن الله فقد عرفنا أنه لا وجود لله. كنا نسخر من رجال الدين، وكسرنا الأيقونات في بيوتنا. وبدلاً من الطوافات الكنسية - مسيرات بأعلام حمراء... (وقفة) أظن أنني حدثتكِ عن هذا؟ تصلب الشرايين... أنا عجوز هرم... منذ زمن طويل... نعم... أصبحت الماركسية ديننا. وكنت سعيداً لأنني

---

(1) مشتق من إنغلز - المترجم.

(2) وتعني بالروسية: الشعلة - المترجم.

أعيش ولينين في زمن واحد. نجتمع معاً وننشد "النشيد الأممي". في الخامسة أو السادسة عشرة أصبحت شبيباً شيوعياً. ثم شيوعياً. ثم جندي الثورة. (يلوذ بالصمت). أنا لا أخشى الموت... في عمري... لكنني أشعر بعدم الارتياح... لسبب واحد: سيتعامل أحد ما مع جسدي. التعامل مع الجسد... دخلت مرة إلى الكنيسة. وتعرفت على الأب. قال لي: «عليك بالاعتراف». أنا عجوز هرم... فهل هناك إله أم لا؟ سأعرف قريباً (يضحك).

شبه جائعين، شبه عراة... لكن أيام السبت للعمل التطوعي طيلة العام نشارك فيها، وحتى في فصل الشتاء. صقيع! زوجتي ترتدي ثوباً خفيفاً، إنها حامل. نحمل إلى المحطة الفحم، الأخشاب، نحمل بعربات اليد. فتاة لا نعرفها، كانت تعمل إلى جانب زوجتي، سألتها: «إن معطفك صيفي رقيق. أليس عندك آخر، أكثر سماكة؟». «ليس عندي». «أتعرفين، لدي معطفان. كان عندي معطف جيد، وحصلت من الصليب الأحمر على معطف جديد. قولي لي عنوانك، وسأحضره لك مساء». في المساء جلبت لها المعطف الجديد، وليس معطفها القديم. لم تكن تعرفنا، كان يكفي أننا أعضاء في الحزب، وهي حزبية أيضاً. كنا كالأخوة والأخوات. في منزلنا كانت تعيش فتاة عمياء، هي عمياء منذ طفولتها، وكانت تبكي إن لم نأخذها إلى سبت العمل التطوعي. قد لا تتمكن من مساعدتنا كثيراً، لكنها ستردد الأغاني معنا. الأغاني الثورية!

رفاقي... راقدون في قبورهم تحت البلاطات الحجرية... وقد حُفر على الحجارة: عضو في حزب البلاشفة من العام العشرين... من العام الرابع والعشرين... منذ العام السابع والعشرين... وبعد الموت كان من المهم: ما هو دينك؟ كانوا يدفنون الحزبيين في أماكن خاصة، وكان

التابوت مغطى براية حمراء. أذكر يوم موت لينين... كيف؟ مات لينين؟ غير ممكن! إنه قديس... (يطلب من حفيده، فيحضر لي من الرف تماثيل نصفية صغيرة للينين. مصنوعة من البرونز، والحديد الصب، والخزف) تجمعت مجموعة كاملة. كلها هدايا. وبالأمس... أذاع الراديو، أن يد لينين قد قُطعت من تمثال لينين القائم في مركز المدينة. لبيعها خردة... لقاء كوبيكات... كان أيقونةً. إلهاً! والآن – معدن. يبيعونه ويشترونه بالكيلوغرام... وأنا ما زلت حياً... لقد لعنوا الشيوعية! وأصبحت الاشتراكية قمامة! يقولون لي: «ومَن يأخذ اليوم الماركسية مأخذ الجد؟ إن مكانها في كتب التاريخ المدرسية». ولكن من منكم يمكنه القول إنه قرأ آخر مؤلفات لينين؟ وهل تعرفون ماركس بكامل مؤلفاته؟ هناك ماركس المبكر... وماركس في آخر حياته... فما يشتمونه اليوم على أنه اشتراكية لا علاقة له أبداً بالفكرة الاشتراكية. الذنب ليس ذنب الفكرة. (بسبب سعاله لم أعد أفهم ما يقوله) لقد فقد الناس تاريخهم... وبقوا من دون عقيدة... فمهما سألتهم تجد فراغاً في عيونهم. يعلمون تلاميذ المرحلة الابتدائية رسم إشارة الصليب، والشمعة يمسكون بها باليد اليمنى كما يمسكون بكأس الفودكا. لقد أعادوا النسر ذا الرأسين القديم... واللافتات بالأيقونات... (فجأة، بوضوح كامل) رغبتي الأخيرة– اكتبي الحقيقة. حقيقتي أنا وليس حقيقتك. كي يبقى صوتي مسموعاً...

يعرض عليَّ صوره. مع بعض التعليق أحياناً.

اقتادوني إلى القائد العسكري. «كم عمرك؟». سألني القائد. «سبعة عشر عاماً»، كذبت. لم أكمل العام السادس عشر. وهكذا أصبحت عسكرياً في الجيش الأحمر. أعطونا لفيفة ونجوماً حمراء للقبعات. وما هذا الجيش الأحمر من دون نجوم حمراء؟ وأعطونا بنادق. كنا نشعر

بأننا حُماة الثورة. وفجأة- المجاعة، والأوبئة. الحمى المتكسة... حمى التيفوئيد... التيفوس الطفحي... ونحن سعداء...

من منزل إقطاعي مهدّم، أحدهم أخرج بيانو... موجود في الحديقة، تحت المطر. يطارد الرعاة الأبقار إلى مقربة من البيانو ويضربون عليه بالعصي. وقد أحرقوا المنزل في أثناء سكرهم. وسرقوا محتوياته. وأي من الفلاحين في حاجة إلى بيانو؟

نسفوا الكنيسة... حتى الآن لا يزال في أذني صراخ العجائز، العاملات في الكنيسة: «أيها الأطفال، لا تفعلوا هذا!». كنَّ يرجينهم. يتمسكن بأرجلهم. عاشت الكنيسة مئتي عام. مكان للصلاة. وبنوا مكانها مرحاضاً للعموم. وأرغموا رجال الكنيسة على العمل فيه عمالاً للنظافة. ينظفون الخراء. الآن، طبعاً... أنا أفهم الآن... أما آنذاك فكان الأمر مضحكاً...

... كان رفاقنا مضطجعين في السهل... وقد حفروا نجوماً على الجبين والصدر. نجوماً حمراء. وبطونهم مشقوقة، ووضعوا التراب في الشقوق: تريدون التراب- خذوا! مشاعرنا- الموت أو النصر! فلنَمتْ، لكننا نعرف من أجل ماذا نموت.

... قرب النهر رأينا ضباطاً من الحرس الأبيض اخترقتهم الحراب. لقد اسودوا من الشمس. كانت تبرز كتّافياتهم العسكرية من بطونهم... كانت بطونهم محشوة بأشرطة الكتّافيات... لم نشعر بالشفقة! لقد رأيت أناساً موتى بقدر ما رأيت من الأحياء...

اليوم أشعر بالشفقة على الجميع: على "البيض"، وعلى "الحمر". أشعر بالشفقة.

- «تشعر بالشفقة... بالشفقة؟». (بدا لي أن حديثنا سينتهي هنا).

- نعم... طبعاً... "قيم إنسانية عامة"... "إنسانية تجريدية"... أشاهد التلفزيون، أقرأ الصحف. إن الشفقة عندنا كانت كلمة رجال الدين. اضربْ الشنيع الأبيض! تقيدْ بالنظام الثوري! كان شعار السنوات الأولى من الثورة: ندفع البشرية بيد حديدية إلى السعادة! الحزب قال - أنا أصدقه! أنا أصدق وأؤمن.

مدينة أورسك بالقرب من مدينة أورنبورغ. ليلاً ونهاراً تنقل عربات السكك الحديدية المخصصة للبضائع أسر الكولاك الإقطاعية. إلى سيبيريا. نحن نحرس المحطة. أفتح إحدى العربات: في الزاوية شنق نفسه رجل نصف عار بحزامه. أم تهدهد طفلاً صغيراً على يديها، وصبي أكبر يجلس بجانبها. بيده يأكل برازه، وكأنه عصيدة. «أغلق الباب!». يصيح المفوض. «إنه ابن زانية، إقطاعي! غير صالحين للحياة الجديدة!». المستقبل يجب أن يكون جميلاً... وبعدها كل شيء سيكون جميلاً... وقد كنت أصدق! (بصوت عال) كنا نؤمن بحياة جميلة ما. طوباوية... لقد كانت طوباوية... وأنتِ؟ لديكِ أيضاً طوباويتك - السوق. الجنة السوقية. السوق يجعل الجميع سعداء! خرافة! يسير في الشوارع القتلة رجال العصابات في ستر قرمزية، السلاسل الذهبية حتى كروشهم. إنها رأسمالية كاريكاتورية، كما على صفحات المجلة السوفيتية "التمساح". تقليد فاشل! بدلاً من ديكتاتورية البروليتاريا- شريعة الغاب: عض من هو أضعف منك، وانحنِ لمن هو أقوى. أقدم شريعة على الأرض... (نوبة سعال. وقفة). ابني كان يحمل القبعة العسكرية "بوديوني" بنجمة حمراء... في سنوات طفولته كانت هذه أفضل هدية في يوم الميلاد. أنا لا أتردد إلى المحلات التجارية منذ زمن طويل. فهل تباع هناك قبعات "بوديوني"؟ لبسوها فترة طويلة. حتى في عهد خروتشوف

كانوا يلبسونها. وما هي الموضة الآن؟ (يحاول الابتسام) أنا أصبحت متخلفاً... طبعاً... أنا عتيق... ابني الوحيد... مات... أكملُ حياتي مع زوجته وأحفادي. ابني كان مؤرخاً وشيوعياً عن قناعة. أما أحفادي؟ (باستهزاء) أحفادي يقرؤون الدالاي لاما. بدلاً من "رأس المال" عندهم "ماهابهاراتا". الكابالا... الآن كلٌّ يؤمن بما يهواه. نعم. نعم... الآن هكذا... الإنسان دوماً يسعى إلى الإيمان بشيء ما. بالله أو بالتقدم التقني. بالكيمياء، بالبوليمرات، بالعقل الكوني. والآن يؤمنون بالسوق. لنفرض أننا سنشبع، وماذا بعد؟ أدخل إلى غرفة أحفادي، فيها كل شيء غريب: قمصان، جينز، كتب، موسيقى، فرشاة أسنان، حتى الفرشاة أجنبية. على الرفوف توجد زجاجات وعلب فارغة من "البيبسي" و"الكوكاكولا"... كلها أشياء غريبة! يدخلون إلى السوبرماركت كما يدخلون إلى المتحف. تحتفلون بعيد الميلاد في "ماكدونالد". مفاجأة! «جدي، ذهبنا إلى مطعم "بيتزا هات!"». إلى مكة! يسألونني: «هل كنت حقيقة تؤمن بالشيوعية، ولماذا لا تؤمن بالروبوتات المحاكية للبشر؟». كنت أحلم: السلام للأكواخ، الحرب على القصور، وهم يريدون أن يصبحوا من أصحاب الملايين. يزورهم أصدقاؤهم. أسمع أحاديثهم: «الأفضل أن أعيش في بلد ضعيف، بشرط توفر اللبن والبيرة الجيدة»، «الشيوعية من الرواسب!»، «طريق روسيا هو الملكية. اِحمِ القيصر يا الله!». يضعون أغاني: «كل شيء سيكون رائعاً، أيها الملازم غاليتسين/ وسيصيب المفوضين الحمر ما يستحقونه»... وأنا حي أرزق... أنا ما زلت هنا... حقيقة... أنا لم أفقد عقلي بعد... (ينظر إلى حفيده الذي يلوذ بالصمت) المحلات التجارية تغص بالمرتديلا والسجق، ولا وجود لأناس سعداء. أنا لا أرى أشخاصاً بأعين حارة دافئة.

من نكات الحفيد:

يتحدث أستاذ في الجامعة مع حزبي بلشفي هرم. الأستاذ: «وقع خطأ في فكرة الشيوعية». أتتذكر الأغنية: «يا قاطرتنا حلّقي إلى الأمام/ وتوقفي عند الكومونة»... البلشفي العجوز: «بالطبع، أذكرها. وما هو الخطأ؟»: الأستاذ: «القاطرة لا تطير».

في البداية اعتقلوا زوجتي... ذهبت إلى المسرح ولم تعد. عدت إلى البيت من العمل: ابني ينام مع القط على السجادة الصغيرة. انتظر أمه طويلاً وغفا. كانت زوجتي تعمل في معمل الأحذية. مهندسة حمراء[1]. قالت لي: «شيء غريب يحدث. أخذوا جميع أصدقائي. ثمة خيانة ما». «أنا وأنتِ لسنا مذنبين، ولن يأخذونا». كنت مقتنعاً بهذا... مقتنعاً قناعة مطلقة... صدقاً! بداية كنت لينينياً، ثم ستالينياً. حتى العام السابع والثلاثين كنت ستالينياً. كنت أصدق كل ما كان يقوله ستالين ويفعله. نعم... إنه عظيم... عبقري... زعيم جميع الأزمنة والشعوب. حتى عندما أعلنوا بوخارين، توخاتشيفسكي، وبليوخر[2] أعداء الشعب، كنت أصدقه. فكرة منقذة... سخيفة. كنت أفكر هكذا: إنهم يخادعون ستالين، فقد تطلع الخونة إلى الأعلى. الحزب سيتولى هذا الأمر. وها هم اعتقلوا زوجتي، مناضلة شريفة ومخلصة للحزب.

بعد ثلاثة أيام جاؤوا في إثري... أول عمل قاموا به اشتموا رائحة الموقد: ألا يفوح منه الدخان، ليتأكدوا أنني لم أحرق شيئاً. كانوا ثلاثة. واحد منهم تجول في البيت واختار لنفسه أشياءً: «لن تحتاج إلى هذا بعد الآن». نزع ساعة الجدار من مكانها. لقد أصبت بالذهول... لم أتوقع شيئاً

---

(1) المقصود شيوعية - المترجم.

(2) من زعماء الحزب الشيوعي السوفييتي - المترجم.

من هذا... وفي الوقت نفسه كان في هذا شيء إنساني، أوحى بالأمل. تلك هي القذارة الإنسانية... أجل... إذاً، لديهم عواطف هؤلاء الناس... استمر التفتيش والبحث من الساعة الثانية ليلاً حتى الصباح. كان في البيت كثير من الكتب، وقد فتشوا كل كتاب. وفتشوا جيوب الملابس. وقصوا المخدات... كان لديَّ كثير من الوقت للتفكير. وبدأت أتذكر... بسرعة... كانت المداهمات قد أصبحت جماهيرية. كل يوم كانوا يأخذون واحداً. الوضع رهيب. كانوا يأخذون رجلاً، فيلوذ بالصمت جميع من حوله. ومن العبث السؤال. شرح لي المحقق في التحقيق الأول: «أنت مذنب لأنك لم تبلّغ عن زوجتك». لكن هذا حدث في السجن... أما آنذاك فقد قلّبت في ذاكرتي كل شيء. كل شيء... لم أتذكر إلا شيئاً واحداً... تذكرت المؤتمر الحزبي الأخير في المدينة... قرؤوا تحية الرفيق ستالين، فوقفت القاعة كلها بمن فيها. موجة من التصفيق: «المجد للرفيق ستالين، صانع وملهم انتصاراتنا!»، «المجد لستالين!»، «المجد للقائد!». خمس عشرة دقيقة... نصف ساعة... كان الجميع ينظر أحدهم إلى الآخر، ولكن لم يقدم أحد على الجلوس أولاً. الجميع واقفون. لسبب ما جلست. بصورة عفوية. اقترب مني اثنان في ثياب مدنية: «يا رفيق، لماذا تجلس؟». قفزت واقفاً! قفزت واقفاً كالملدوغ. في أثناء الاستراحة كنت أنظر دوماً إلى الخلف. كنت أنتظر أن يقتربوا مني ويعتقلوني... (وقفة).

بحلول الصباح توقف البحث والتفتيش. أمروني: «جهز نفسك». المربية أيقظت ابني... قبل المغادرة تمكنت من أن أهمس في أذن ابني: «لا تخبر أحداً عن بابا وماما». وهكذا نجا. (يحرك المسجل قريباً منه). سجلي، طالما أنني ما زلت حياً... "م.ح". "ما زلت حياً"... هكذا أسجل على بطاقات التهنئة. صحيح، أنه لم يعد لديَّ من أرسلها إليه... يسألونني كثيراً: «لماذا بقيت صامتاً؟». «هكذا كان الزمن». كنت أعتقد أن الخونة هم

المذنبون - ياغودا، يجوف - وليس الحزب أبداً. من السهل الحكم بعد خمسين عاماً، والضحك على غبي مسن... في تلك الفترة كنت أمشي مع الجميع، أما الآن، فلم يبق منهم أحد...

مكثت في زنزانة منفردة شهراً كاملاً. قبر حجري- عند الرأس أعرض، عند القدمين أضيق. روضت غراباً على نافذتي، كنت أطعمه عصيدة الشعير من الصحن. منذ تلك الأثناء، أصبح الغراب طيري المفضل. في الحرب... المعركة انتهت. صمت. التقطوا الجرحى، والموتى راقدون. لا وجود لأي طائر، الغراب وحده يطير.

... استدعوني للتحقيق بعد أسبوعين. وهل كنت أعرف، أن أخت زوجتي في الخارج؟ «زوجتي، شيوعية شريفة». على الطاولة أمام المحقق وشاية موقعة. لم أصدق عيني! من جارنا. تعرفت على الخط، على التوقيع. يمكنني القول، كان رفيقي من أيام الحرب الأهلية. عسكري... برتبة رفيعة... كان متعلقاً إلى حد ما بزوجتي، وأنا كنت أغار. نعم... كنت أغار... كنت أحب زوجتي حباً شديداً... زوجتي الأولى... أعاد المحقق علي تلاوة أحاديثنا بالتفصيل. أدركت أنه لم أخطئ... نعم، إنه جارنا... جميع الأحاديث كانت بحضوره... كانت قصة زوجتي كما يلي: إنها من قرية قريبة من منسك. بيلاروسية. بعد معاهدة بريست انتقل قسم من أراضي بيلاروسيا إلى بولندا. بقي هناك والداها وأختها. سرعان ما توفي والداها، أما أختها فقد كانت تكتب لنا: «أنا أفضل أن أذهب إلى سيبيريا من أن أبقى في بولندا». كانت تريد العيش في الاتحاد السوفييتي. آنذاك، كانت الشيوعية ذات شعبية في أوروبا. وفي العالم كله. كثيرون كانوا يعتقدون بها. وليس الناس البسطاء فحسب، بل والنخبة الأوروبية. كتّاب مثل أراغون، باربيوس... كانت ثورة أكتوبر "أفيوناً للمفكرين". هذا ما قرأته... الآن أقرا كثيراً (يأخذ نفساً). زوجتي "عدو"... إذاً، لا بد من "عمل معاد

للثورة"... أرادوا أن يفبركوا "منظمة"... "منظمة إرهابية سرية"... «مع من كانت تلتقي زوجتك؟ لمن سلمت المخططات؟». أية مخططات! نفيت كل شيء. ضربوني. ركلوني بجزماتهم. كلنا شيوعيون. عندي بطاقة حزبية، وعندهم بطاقات حزبية. وعند زوجتي بطاقة حزبية.

... زنزانة عامة مشتركة... في الزنزانة خمسون سجيناً. لقضاء حاجة كانوا يخرجوننا مرتين في اليوم. وفي الوقت المتبقي؟ وكيف تشرح لسيدة؟ عند المدخل كان هناك حوض كبير... (بحقد) حاولي أن تجلسي أو تتغوطي بحضور الجميع! كانوا يطعموننا سمكاً مملحاً ولم يعطوا ماءً. خمسون سجيناً... جواسيس إنكليز... ألمان... عجوز ريفي، أمّيّ... اعتقلوه لإشعاله النار في الإسطبل. اعتقلوا طالباً بسبب نكتة... على الجدار صورة ستالين معلقة. المراسل يقرأ تقريراً عن ستالين. الكورس يغني أغنية عن ستالين. الفنان ينشد قصيدة عن ستالين. فما هذا؟ أمسية مكرسة للذكرى المئوية لوفاة بوشكين (أضحك. وهو لا يضحك) عوقب الطالب عشر سنوات في معسكر الاعتقال دون حق المراسلة. كان هناك سائق، معتقل لأنه يشبه ستالين. حقيقة، كان يشبهه. مدير مغسلة عامة، حلاق غير حزبي، صقّال. الأكثرية كانوا أناساً بسطاء. وكان هناك عالم، مختص بالفلكلور. كان يروي لنا حكايات ليلاً، وقصص أطفال، وكان الجميع يصغي. وشت أم بابنها عالم الفولكلور. امرأة بلشفية عجوز. مرة واحدة أرسلت له سجائر قبل نقله إلى معسكر الاعتقال. نـعـم... كان معنا اشتراكي ثوري، غير شيوعي معتقل، وقد عبر صراحة عن فرحه: «كم أنا سعيد، أنكم أنتم شيوعيون وتجلسون معي هنا، ولا تفهمون مثلي!». إنه معاد للثورة! كنت أظن أنه لم يعد هناك سلطة سوفييتية. ولم يعد هناك ستالين.

من النكات التي رواها الحفيد:

محطة السكك الحديدية... مئات من الناس. رجل في سترة جلدية يبحث بيأس عن شخص ما. عثر عليه! اقترب من الآخر الذي يرتدي سترة جلدية أيضاً: «يا رفيق، أنت حزبي أم غير حزبي؟». «حزبي». «إذاً قل لي، أين المرحاض هنا؟».

انتزعوا كل شيء: الحزام، ربطات الحذاء، وعلى أية حال يمكن للمرء أن يقتل نفسه. كانت لدي مثل هذه الفكرة. أجل... كانت... أن أشنق نفسي بالبنطال أو مطاط الكلسون. كانوا يضربونني على بطني بكيس من الرمل. كل شيء سلت مني، كما من الدودة. علقت البنطال على كلاليب. كما في القرون الوسطى! منك ينزف شيء ما، لم تعد تسيطر على جسمك. ينزف من كل مكان... تحمل هذا الألم... إنه عار! الموت أسهل... (التقط أنفاسه) التقيت في السجن برفيقي القديم... نيقولاي فيرخوفتسيف، عضو في الحزب من العام الرابع والعشرين. كان يدرِّس في الكلية العمالية. كل شيء مألوف... في الحلقة الضيقة... كان أحدهم يقرأ صحيفة "البرافدا" بصوت عال، وورد الخبر التالي: طُرح في مكتب اللجنة المركزية موضوع تلقيح الأحصنة. فبدأ يمزح بأن اللجنة المركزية ليس عندها من مسائل أخرى للبحث سوى تلقيح الأحصنة. قال هذا نهاراً، فأخذوه ليلاً، أغلقوا الباب على أصابعه، وكسروا أصابعه مثل قلم الرصاص. أبقوه عدة أيام وهو يضع القناع المضاد للغاز (يصمت قليلاً). غير معروف كيف يتحدث الآن عن هذا... عموماً، همجية. ومذلة. أنت قطعة لحم... ترقد في الخراء... كان من نصيب فيرخوفتسيف محقق سادي. لم يكونوا كلهم ساديين... من فوق كان يرِدهم حد معين، خطة للتعامل مع الأعداء- شهرية وسنوية. وهكذا هم يتبدلون، يشربون الشاي،

يتصلون بالهاتف مع أسرهم، يغازلون الطبيبات اللواتي يتم استدعائهن عندما يفقد المعتقل وعيه من العذاب. عندهم مناوبة... ورديات... وتنقلب حياتك كلها. مثل هذه الأشياء... المحقق المشرف على قضيتي كان في السابق مدير مدرسة، وكان يقنعني: «أنت إنسان ساذج. نحن نضربك ونضع تقريراً عند محاولة الهرب. أتعرف أن غوركي قال إذا لم يستسلم العدو، يتم القضاء عليه». «أنا لست عدواً». «افهمْ: ليس رهيباً بالنسبة إلينا الإنسان النادم فحسب، بل وكذلك الإنسان المنهار، المحطَّم». كنت معه نتناقش حول هذا الموضوع... أما المحقق الثاني فكان ضابطاً متطوعاً. كان من الواضح، أنه كان متكاسلاً في تعبئة جميع هذه الأوراق. كانوا دوماً يكتبون شيئاً ما. ذات مرة، أعطاني لفافة تبغ. كان المحققون يبقون فترة طويلة، عدة أشهر. كانت تنشأ بين الجلادين والضحايا علاقات إنسانية... لا يمكنني القول إنها إنسانية، لكنها علاقات ما. لكن الأولى لا تنفي الثانية... «وقِّعْ». أقرأ المحضر. «أنا لم أقل هذا». كانوا يضربون. يضربون باجتهاد. وكانوا فيما بعد يطلقون النار عليهم. يرسلونهم إلى معسكرات الاعتقال.

حدث هذا صباحاً... يفتح باب الزنزانة. الأمر: «اخرج!». أنا كنت مرتدياً القميص وحده. أريد أن ألبس. «لا!». قادوني إلى قبو من الأقبية... كان ينتظرني المحقق ومعه ورقة: «وقِّعْ، نعم أم لا؟». رفضت التوقيع. «إذاً اتجه إلى الحائط!». طاخ! طلقة نار فوق رأسي... «هل ستوقع؟». طاخ! وهكذا ثلاث مرات. أخذوني خارج القبو إلى دهاليز ما... كم من الأقبية في هذا السجن! لم أكن أشك في ذلك. كانوا يقتادون المعتقل على نحو، بحيث لا يرى شيئاً. ولا يتعرف على أحد. إذا ما كان هناك من يسير باتجاهك، يعطيك السجان أمراً: «سحنتك إلى الجدار!». لقد

اكتسبت خبرة. كنت أراقب وأختلس النظر. وهكذا التقيت مع رئيسي في دورة القادة الحمر. وبأستاذي السابق في المدرسة الحزبية السوفييتية... (يلوذ بالصمت) كنا صريحين أنا وفيرخوفتسيف في أحاديثنا: «مجرمون! إنهم يقتلون السلطة السوفييتية. وسيُحاسَبون على هذا». عدة مرات كانت تحقق معه امرأة، محققة: «عندما يعذبونني تصبح جميلة. أنت تفهم، تغدو جميلة آنذاك». إنه إنسان انطباعي حساس. منه عرفت أن ستالين كان في شبابه ينظم الشعر... (يغلق عينيه) أنا الآن، يحدث أنني أستيقظ والعرق البارد يغطيني وكأنني في كابوس: فقد كان في إمكانهم أن يرسلوني للعمل في الأمن "المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية". وكنت سأذهب. بطاقتي الحزبية في جيبي. بطاقة حمراء.

جرس الباب يُقرع. وصلت الممرضة. قاست ضغطه، حقنته حقنة. طيلة هذا الوقت، بقي الحديث متواصلاً على الرغم من تقطعِّه.

... فكرت ذات مرة: الاشتراكية لا تحل مسألة الموت. ولا مسألة الهرم. وكذلك معنى الحياة الميتافيزيقي. كلها لا تحلها. إنها تتجنبها. فقط في الدين هناك أجوبة على هذه الأسئلة. نـــعـــم... في العام السابع والثلاثين لو كانت عندي هذه الأفكار لـ...

هل قرأتِ كتاب ألكسندر بيليايف "الإنسان، كائن برمائي"؟ يتحدث الكتاب عن عالم عبقري يريد أن يجعل ابنه سعيداً ويحوله إلى إنسان – كائن برمائي. لكن الابن سرعان ما شعر بالكآبة والحزن وحده في هذا المحيط. إنه يريد أن يكون كالجميع: أن يعيش على الأرض، ويحب فتاة عادية. وهذا أصبح مستحيلاً. ويموت. أما أبوه فكان يتصور أنه تغلغل إلى السر... وأنه إله! هذا رد على جميع الطوباويين العظام!

... الفكرة كانت رائعة! ولكن ماذا تفعلين بالإنسان؟ الإنسان لم يتغير منذ عصر روما القديمة...

الممرضة خرجت. أغلق عينيه.

انتظري... سأنتهي على أية حال... لديَّ من القوة ما يكفيني لساعة. نتابع... بقيت في السجن عاماً كاملاً. وهيأت نفسي للمحاكمة. للانتقال للمعسكر. واستغربت: لماذا يمهلونني؟ فكما أدرك، لم يكن عندهم أي منطق. آلاف القضايا... فوضى... بعد مضي عام استدعاني محقق جديد... أحالوا قضيتي لإعادة النظر. وأطلقوا سراحي، وألغوا جميع التهم. إذاً، حصل خطأ. الحزب يثق بي! لقد كان ستالين مُخرجاً مسرحياً كبيراً... في هذه الفترة عزل "القميء الدموي" يجوف[1]. وقد حوكم. وأُعدم رمياً بالرصاص. وبدأت عملية إعادة الاعتبار. فتنفس الشعب الصعداء: لقد وصلت الحقيقة إلى ستالين... بيد أن هذه كانت مجرد استراحة قبيل الحملة الدموية الجديدة... إنها لعبة! لكن الجميع صدقوا. وأنا صدقت أيضاً. ودعت فيرخوفتسيف... فأراني أصابعه المكسرة قائلاً: «لقد مضى عليَّ هنا اثنا عشر شهراً وسبعة أيام. لن يطلق أحد سراحي. سيخافون». نيقولاي فيرخوفتسيف... عضو في الحزب الشيوعي منذ العام 1924. أُعدم رمياً بالرصاص في العام الحادي والأربعين عندما اقترب الألمان من المدينة. لقد أعدم رجال الأمن جميع المعتقلين الذين لم يتمكنوا من ترحيلهم. أطلقوا سراح المراهقين الجنائيين، أما المعتقلين "السياسيين" فيجب إعدامهم كخونة. دخل الألمان إلى المدينة وفتحوا

(1) مسؤول الشرطة السرية في عهد ستالين، ورئيس عملية «التطهير الأعظم» التي قام فيها بعدد كبير من الإعدامات الجماعية. لاحقاً قام ستالين بعزله، واتهمه أنه عميل للغربِ وآمر بإعدامه.

بوابات السجن - كانت هناك جبال من الجثث. وقبل أن تتفسخ الجثث كان الألمان يقتادون سكان المدينة إلى السجن كي يروا بأعينهم السلطة السوفييتية.

وجدت ابني عند الغرباء، فقد أخذته المربية إلى القرية. كان يتأتئ ويتلعثم، ويخاف من الظلام. أخذنا نعيش معاً. كنت أحاول الحصول على معلومات ما عن زوجتي. وفي الوقت نفسه، استعدت عضويتي في الحزب كي يعيدوا إليّ بطاقتي الحزبية. عام جديد... وشجرة رأس السنة تزين البيت. كنت أنا وابني ننتظر ضيوفاً. قُرع جرس الباب. أفتح، تقف على عتبة الباب امرأة بثياب مهلهلة: «جئت أنقل لك سلاماً من زوجتك». «هي حيّة ترزق!». «قبل عام كانت حيّة. عملت معها فترة من الزمن في حظيرة خنازير. سرقنا من الخنازير بطاطا مجلّدة، وبفضلها لم نمت. ولا أعرف هل هي حية الآن أم لا». وذهبت مسرعة. لم أتشبث بها... فقد كنا ننتظر ضيوفاً... (يصمت) ساعة الكرملين تعلن بدء السنة الجديدة. فتحنا زجاجة شمبانيا. القدح الأول «نخب ستالين!». نــعـــم...

العام الحادي والأربعون...

كان الجميع يبكون... أما أنا فصرخت من السعادة - الحرب! سأذهب لأحارب! بهذا سيسمحون لي. ويرسلونني. طلبت إرسالي إلى الجبهة. لم يوافقوا على أخذي فترة طويلة. المفوض العسكري كان من معارفي: «لا يمكنني. لدي في يدي تعليمات دقيقة مفادها عدم تجنيد الأعداء». «وهل أنا عدو؟ أنا عدو؟!». «زوجتك تنفذ عقوبتها في معسكر الاعتقال، حسب المادة 58، نشاط معاد للثورة». سقطت مدينة كييف... المعارك قرب ستالينغراد... كنت أحسد كل إنسان يرتدي البذلة العسكرية، إنه يدافع عن الوطن! الفتيات كن يذهبن إلى الجبهة... أما أنا؟ أكتب رسالة

إلى لجنة الحزب المنطقية: أعدموني أو اسمحوا لي بالذهاب إلى الجبهة! بعد يومين استلمت دعوة الحضور في الساعة الرابعة والعشرين إلى مركز التجمع. لقد كانت الحرب خلاصاً وإنقاذاً بالنسبة إليَّ... فهي الفرصة الوحيدة لأعيد لنفسي اسماً مشرِّفاً. شعرت بالفرح.

... الثورة أذكرها جيداً. أما فيما بعد، اعذريني، بشكل أسوأ. حتى الحرب أذكرها أقل، مع أنها أقرب زمنياً. أذكر أنه لم يتغير أي شيء. ما عدا السلاح، بحلول نهاية الحرب تم استبداله - بدلاً من السيوف والبنادق، تسلحنا بقذائف "كاتيوشا". وحياة الجنود؟ كما في السابق، سنوات طويلة كنا نتناول حساء من الشعير، وعصيدة من جريش الدخن، كنا نرتدي ملابسنا الداخلية القذرة أشهراً عديدة. دون استحمام. والنوم على الأرض العارية. ولو كنا آخرين، ولو لم نضحِّ، فكيف كنا سننتصر؟

... نهضنا إلى المعركة... يطلقون علينا النار بالرشاشات! انبطحنا جميعاً على الأرض. فبدأت مدافع الهاون تطلق قذائفها، وتحول الناس إلى أشلاء. سقط إلى جانبي مفوض عسكري: «لماذا تنبطح أيها المعادي للثورة! تقدم إلى الأمام! سأطلق عليك النار!».

... بالقرب من كورسك التقيت بالمحقق الذي كان يحقق معي. مدير المدرسة السابق... ظهرت في رأسي فكرة: «والآن، أيها القميء، أنت بين يدي. أطلق عليه النار في المعركة بهدوء». ظهرت هذه الفكرة... نعم، أردت. لم ألحق. حتى أننا تحادثنا مرة. «الوطن عندنا واحد». هذه كلماته. كان إنساناً جريئاً. بطولياً. استشهد بالقرب من كينيغسبرغ. ماذا أقول... يمكنني القول... فكرت في أن الله فعل ما أريد... لن أكذب...

عُدت جريحاً إلى منزلي مرتين. أحمل ثلاثة أوسمة وميداليات. استُدعوني إلى لجنة الحزب المنطقية: «للأسف، لا يمكننا أن نعيد لك

زوجتك. زوجتك استشهدت. لكننا نعيد شرفك إليك»... أعادوا لي بطاقتي الحزبية. وأنا كنت سعيداً! كنت سعيداً...

(قلت له إن هذا لا يمكن أن أفهمه أبداً. اغتاظ).

حسب قوانين المنطق لا يصح محاكمتنا. قانونياً! افهمي! يمكن محاكمتنا فقط بقوانين الدين. بالإيمان! سوف تحسدينا! ما هو السامي، العظيم عندكم؟ لا شيء أبداً. الرفاهية وحدها. كل شيء للمعدة... للمعي الاثنا عشري... إملاء البطن وتلبية الرغبات... أما أنا... جيلي... كل شيء لديكم الآن نحن بنيناه، المصانع، السدود... المحطات الكهربائية... وأين ما بنيتموه أنتم؟ ونحن انتصرنا على هتلر... بعد الحرب... عندما يولد طفل لدى أسرة ما - هذه فرحة! وفرحة غير تلك التي كانت قبل الحرب، إنها فرحة أخرى. كان في إمكاني البكاء... (يغلق عينيه. شعر بالتعب). آه... كنا نؤمن... أما الآن، فقد أصدروا علينا الحكم: كنتم تؤمنون بالطوباوية... كنا نؤمن! روايتي المفضلة هي رواية تشرنيشفسكي "ما العمل"... الآن لم يعد أحد يقرأها. إنها مملة. يقرؤون العنوان وحده - السؤال الروسي الأبدي: ما العمل؟ كانت هذه الرواية بالنسبة إلينا تعليماً شفوياً. كتاب الثورة المدرسي. كنا نحفظ صفحات كاملة منها عن ظهر قلب. حلم فيرا بافلوفنا الرابع... (يقرأه كقصيدة شعرية): «بيوت من الكريستال والألومنيوم... قصور كريستالية! حدائق ليمون وبرتقال في مراكز المدن. لا وجود للمتقدمين بالسن تقريباً، والناس لا يهرمون إلا في عمر متأخر جداً، لأن الحياة رائعة. الآلات وحدها تصنع كل شيء، أما الناس فيكتفون بالانتقال وتوجيه الآلات... والمكنات تحصد وتخيط. الحقول ممتلئة وبوفرة كبيرة. الأزهار كبيرة كالأشجار. الجميع سعداء، فرحون. يسيرون بثياب جميلة - رجالاً ونساءً. يمارسون حياة حرة في العمل والمتعة. أماكن عمل كثيرة، متوفرة للجميع. والجميع راضون عن

أعمالهم. أمعقول أنهم نحن؟ أمعقول أن هذه أرضنا؟ وسيعيش الجميع على هذا النحو؟ المستقبل مشرق ورائع»... ذلك هو الحلم... (يومئ باتجاه حفيده)... إنه يسخر ويضحك... أنا أهبل بالنسبة إليه. هكذا نعيش.

لدى دوستويفسكي جواب لتشرنيشفسكي: «ابنوا قصركم الكريستالي، وأنا سأضربه بحجر... وليس فقط لأنني جائع وأعيش في قبو، بل هكذا، حسب مزاجي»..

قال غاضباً: هل تظنين أن الشيوعية، هذا الوباء كما تكتب صحف اليوم، قد جلبوه لنا بعربة مختومة من ألمانيا؟ ما هذا الهراء! الشعب ثار. لم يكن هناك هذا "العصر الذهبي" في ظل القيصر، الذي تذكّروه اليوم فجأة. هذه أساطير! وحول أن أمريكا أطعمتنا الخبز والحبوب، وأن مصائر أوروبا كانوا يقررونها. كان الجندي الروسي يموت من أجل الجميع، هذه حقيقة. لكننا كنا نعيش... كان عندنا في الأسرة جزمة واحدة لخمسة أطفال. كنا نأكل البطاطا والخبز، أما في الشتاء فكنا من دون خبز. كنا نأكل البطاطا وحدها... وتسألين: من أين جاء الشيوعيون؟

كم لديَّ من الذكريات... ولِمَ؟ لِمَ، قولي؟ وماذا أفعل بها اليوم؟ كنا نحب المستقبل. وأناس المستقبل. كنا نتناقش، متى سيحل هذا المستقبل. بعد مئة عام- بالضبط. لكن هذا كان يبدو لنا بعيداً جداً... (يلتقط أنفاسه).

أُطفئ المسجِّل.

بدون مسجل... حسناً... عليَّ أن أروي هذا لشخص ما...

كان عمري خمسة عشر عاماً. جاء رجال الجيش الأحمر لعندنا إلى القرية. على أحصنتهم. سكارى. فصيلة. كانوا ينامون حتى المساء، وفي المساء كان يجمعون جميع الكومسومولين[1]. قائد الفصيلة خطب قائلًا:

---

(1) أعضاء منظمة الشبيبة الشيوعية - المترجم.

«الجيش الأحمر يجوع. لينين يجوع. أما الإقطاعيون الكولاك فيخفون الخبز. يحرقونه». كنت أعرف أن خالي سيميون، شقيق والدتي... قد نقل أكياس الحبوب إلى الغابة ودفنها. كنت شبيبياً. وكنت قد أديت القسم. جئت إلى الفصيلة واقتدتهم إلى ذلك المكان. حمّلوا عربة كاملة. شد قائد الفصيلة على يدي وقال: «اكبرْ، أيها الأخ، بسرعة». صحوت صباحاً على صراخ أمي: «كوخ سيميون يحترق». عثروا على خالي سيميون في الغابة... فقطّعه رجال الجيش الأحمر بسيوفهم قطعاً... كنت في الخامسة عشر من عمري. الجيش الأحمر يجوع... لينين... كنت أخاف من الخروج إلى الشارع. جلست في الكوخ وبدأت أبكي. لقد عرفت أمي كل شيء. ليلاً سلمتني أمي ربطة: «اذهب، يا ابني! أنت لست شريفاً فليسامحك الله».

(أغلق عينيه بيديه. لكنني أرى - إنه يبكي).

أريد أن أموت شيوعياً. هذه رغبتي الأخيرة...

في التسعينيات نشرت جزءاً من هذا الاعتراف. بطلي أعطى هذه القصة لشخص ما كي يقرأها، واستشار أحدهم، فأقنعوه، أن نشر هذا الاعتراف بكامله "سيلقي ظلاً سيئاً على الحزب". وهذا أكثر ما كان يخشاه. بعد موته تم العثور على وصيته: لم يوص لأحفاده بشقته الكبيرة، المؤلفة من ثلاث غرف في مركز المدينة، بل أوصى بها «للحزب الشيوعي المحبوب، الذي له أكبر الفضل عليَّ». وقد نشروا هذا الخبر في صحيفة المدينة المسائية. مثل هذا العمل لم يكن مفهوماً. الجميع كانوا يسخرون من المسن المجنون. ولم يضع أحد شاهدة على قبره حتى الآن.

الآن قررت نشر هذه القصة بكاملها. فهي كلها ترجع لزمن كامل أكثر مما هي لشخص واحد.

عن قسوة الشرارة وآفاق الخلاص

تيمريان زيناتوف – محارب قديم، 77 عاماً

من الصحف الشيوعية:

تيمريان خابولوفيتش زيناتوف – أحد المدافعين الأبطال عن قلعة بريست التي كانت أول من تلقى ضربات الجيوش الهتلرية في صباح 22 حزيران/ يونيو 1941.

القومية: تتري. قبل الحرب: طالب ضابط في مدرسة الفوج (فوج المشاة الثاني والأربعون من فرقة المشاة الرابعة والأربعين). جُرح في الأيام الأولى من الدفاع عن القلعة. وقع أسيراً. هرب مرتين من معسكر الاعتقال الألماني– المرة الثانية كانت ناجحة. أنهى الحرب في صفوف الجيش السوفييتي جندياً، كما كان. لدفاعه البطولي عن قلعة بريست كوفئ بوسام الحرب الوطنية من الدرجة الثانية. بعد الحرب تنقل في جميع أنحاء البلاد السوفييتية– عمل في منشآت البناء في أقصى الشمال، وشارك في بناء الخط الحديدي الرئيسي بايكال– آمور، وبعد تقاعده بقي في سيبيريا في أوست–كوتا.

وعلى الرغم من أن أوست–كوتا تبعد عن بريست آلاف الكيلومترات، كان تيمريان زيناتوف يأتي كل عام إلى قلعة بريست، ويهدي العاملين في متحف القلعة قوالب الكاتو. كان يعرفه الجميع. فلماذا كان يتردد كثيراً إلى القلعة؟ إنه، مثل رفاقه في الفوج، الذين كان يلتقي بهم، لم يكن يشعر

بنفسه محمياً إلا في القلعة. فهنا، لم يكن هناك من يشك في أحد بأنهم كانوا أبطالاً حقيقيين، وليس مختلقين. لم يكن هناك في القلعة من يجرؤ أن يرمي بوجههم عبارة: «لو لم تنتصروا لاشترينا الآن بيرة بافاريا. ولعشنا في أوروبا». يا لكارثة أنصار البيريسترويكا! لو عرفوا، أنه إذا لم ينتصر أجدادهم، لأصبحنا نحن بلاد الخادمات ورعاة الخنازير. وكان هتلر قد قال: يجب تعليم الأطفال السلافيين الحساب حتى المئة فقط...

في المرة الأخيرة وصل زيناتوف إلى بريست في أيلول/ سبتمبر عام 1992، وكان كل شيء عادياً: التقى بأصدقائه في الفوج، وتنزه في أنحاء القلعة. لاحظ، بالطبع، أن أعداد الزوار قد تناقص بشكل ملحوظ. فقد حل وقت أصبح فيه من الدارج الإساءة إلى ماضينا السوفييتي وأبطاله...

حان وقت السفر... في يوم الجمعة ودع الجميع، وقال إنه سيسافر في يومي العطلة إلى بيته. ولم يكن في استطاعة أحد أن يفكر في أنه قد جاء في هذه المرة كي يبقى هنا إلى الأبد.

عندما جاء العاملون في المتحف يوم الاثنين إلى عملهم، قُرع جرس مكتب النقل عند المدعي العام: المُدافع عن قلعة بريست الذي عاش هنا في البوتقة الدموية للعام الحادي والأربعين، قد رمى بنفسه تحت القطار...

سيتذكر أحد ما فيما بعد ذلك العجوز المتأنق الذي كان يحمل حقيبته ووقف طويلاً على الرصيف. وقد عثروا معه على سبعة آلاف روبل كلفة دفنه، أحضرها معه من البيت ومذكرة كتبها قبل موته يلعن فيها حكومة يلتسين-غايدار على هذه الحياة المذلة المهينة والفقيرة التي أقامتها. وعلى خيانتها للنصر العظيم. وطلب فيها أن يدفنوه في القلعة.

من مذكرته قبل الموت:

لو متُّ آنذاك من جروحي، لعرفت بأنني استشهدت في سبيل

الوطن. أما الآن فأموت من حياة الكلاب. وليكتبوا هذا على شاهدة قبري... لا تعدوني مجنوناً...

أريد أن أموت واقفاً بدل أن أزحف على ركبتي راجياً مساعدة الفقراء كي أعيش شيخوختي وأصل إلى القبر بيد ممدودة! لهذا، أيها المحترمون لا تقسوا في حكمكم عليّ وقدِّروا وضعي. أترك هذا المبلغ، إذا لم يسرقوه، آمل بأنه سيكفي لدفني... لا حاجة إلى التابوت... ادفنوني في ثيابي كما أنا، ولكن لا تنسوا أن تضعوا في جيبي بطاقة المدافع عن قلعة بريست-لأحفادنا. كنا أبطالاً ونموت في الفقر والبؤس! كونوا بصحة، ولا تبكوا على تتري تمرد وحده عن الجميع: «أموت ولا أستسلم، وداعاً يا وطني!».

بعد الحرب عُثر في أقبية قلعة بريست على عبارة مكتوبة على الجدار بالحربة: «أموت، ولا أستسلم. وداعاً يا وطني! 22/ 7/ 1941». وبقرار من اللجنة المركزية اعتبر هذا السطر رمزاً لبطولة الشعب السوفييتي وولاءً لقضية الحزب الشيوعي السوفييتي. ويؤكد من بقي حياً من المدافعين عن قلعة بريست، أن كاتب هذا السطر هو طالب ضابط في مدرسة فوج المشاة، التتري غير الحزبي تيمريان زيناتوف، لكن منظري الحزب الشيوعي كان يناسبهم أكثر، أن هذا السطر بقلم الجندي المجهول المستشهد.

أخذت السلطة في مدينة بريست على عاتقها نفقات الدفن. ودفنوا البطل تحت بند "نفقات جارية لوسائل الرفاهية".

الحزب الشيوعي لروسيا الاتحادية. عرض منهجي. الإصدار رقم 5

... لماذا رمى بنفسه الجندي القديم تيمريان زيناتوف؟ أبدأ من المناطق البعيدة... من رسالة وصلت إلى صحيفة "البرافدا" من فيكتور ياكفليفيتش

ياكفليف من قرية لينينغرادسكايا في إقليم كراسنودار، المشارك في الحرب الوطنية العظمى، والمدافع عن موسكو في العام الـ41 والمشارك في عرض موسكو على شرف الذكرى السنوية الـ55 للنصر. إن الاستياء الكبير هو الذي دفعه للكتابة إلى هيئة التحرير...

منذ فترة قصيرة سافر إلى موسكو بصحبة صديقه (عقيد سابق ومحارب قديم)، وارتديا بهذه المناسبة السترة الاحتفالية الرسمية مع منصة الأوسمة والميداليات. خلال اليوم، كانا قد شعرا بالتعب من ضجيج العاصمة، وعندما وصلا إلى محطة لينينغراد، رغبا في الجلوس في مكان ما قبل وصول القطار. لم يجدا مكاناً فارغاً، وعندها دخلا إلى قاعة فارغة، حيث كان هناك بوفيه وكنبات وثيرة. اقتربت على الفور منهما فتاة كانت توزع المشروبات في القاعة، وأشارت لهما بجلافة بالخروج: «لا يحق لكما الدخول. هنا قاعة رجال الأعمال!». لاحقاً مقطع من الرسالة: أجبتها بتهور: «يعني هذه القاعة للصوص والمستغلين، وغير مسموح لنا؟ كما كان يوماً ما في أمريكا: ممنوع دخول الزنوج والكلاب». وماذا يمكننا القول، حيث كل شيء واضح. اتجهنا إلى المخرج وخرجنا. لكنني تمكنت من أن ألاحظ كيف كان بضعة ممن يدعون برجال الأعمال - وبعبارة أبسط- المحتالين، يقهقهون، ويأكلون، ويشربون... لقد نسوا الآن أننا سفكنا دماءنا هنا... لقد أخذ منا هؤلاء الأوغاد أتباع تشوبايس، وفيكسيلبيرغ، وغريف[1]. المال، والشرف. والماضي، والحاضر. لقد انتهى كل شيء! والآن، يجنِّدون أحفادنا، كي يحموا ملياراتهم. أريد أن أسأل: من أجل ماذا كنا نحارب؟ كنا نجلس في الخنادق، الماء حتى الركب في الخريف، وفي الشتاء في الصقيع الشديد كان الثلج حتى الركب، ولم نكن نخلع ثيابنا وننام مثل البشر أشهراً طويلة. هكذا كان

---

(1) من وزراء حكومة يلتسين الكبار - المترجم.

بالقرب من كالينين، وياخروما، وموسكو... هناك كنا لا نتوزع ولا ننقسم إلى أغنياء وفقراء...

يمكن القول، بالطبع، أن المحارب القديم غير محق- فليس جميع رجال الأعمال "لصوصاً ومستغلين". ولكن لننظر بعينيه إلى بلادنا بعد المرحلة الشيوعية... إلى غطرسة أسياد الحياة الجدد، وإلى قرفهم من "أناس الأمس"، الذين تفوح منهم "رائحة الفقر"، كما يكتبون في المجلات البرآقة. ويحسب رأي كتّاب هذه المجلات أن القاعات الكبيرة تقيم احتفالات كبيرة في يوم النصر، حيث يدعى مرة واحدة في العام المحاربون القدماء ويلقون على شرفهم خطب المديح المرائية. إنهم اليوم في الواقع فائضون، ولا يحتاج أحد إليهم. وإنها لساذجة أفكارهم حول العدالة. وولاؤهم لنمط الحياة السوفييتية...

في بداية فترة رئاسته، أقسم يلتسين أنه سينبطح على سكة القطار، إذا ما سمح بانحدار مستوى حياة الشعب. فهذا المستوى لم ينخفض فحسب بل سقط إلى الهاوية. لكن يلتسين لم ينبطح على سكة القطار. بل رمى المحارب القديم تيمريان زيناتوف بنفسه تحت القطار في خريف عام 1992 تعبيراً عن احتجاجه...

موقع صحيفة "البرافدا". عام 1997.

خلف المائدة التذكارية

حسب عادتنا: الأموات في القبور - والأحياء خلف الطاولة. اجتمع عدد كبير من الناس. بعضهم جاء من مناطق بعيدة: من موسكو، كييف، سمولنسك... وجميعهم كانوا بستراتهم الرسمية وعليها أوسمتهم وميدالياتهم كما في يوم النصر. كانوا يتحدثون عن الموت كحديثهم عن الحياة.

- نخب رفيقنا الشهيدا رشفة مرة. (يقف الجميع).

- بواسع رحمته...

- آه يا تيمزيان... تيمريان خابولوفيتش... كان يشعر باستياء كبير. نحن كلنا مستاؤون أشد الاستياء. فقد اعتدنا على الاشتراكية. على الوطن السوفييتي- الاتحاد السوفييتي. ونعيش الآن في بلدان مختلفة، وبنظام حكم آخر. وتحت رايات أخرى. وليس تحت علمنا الأحمر المنتصر... لقد هربت إلى الجبهة عندما كنت في السابعة عشر من عمري.

- لو قدر لأحفادنا أن يخوضوا الحرب الوطنية العظمى لخسروها. إنهم بلا أفكار، وبلا حلم كبير.

- إنهم يقرؤون كتباً أخرى، ويشاهدون أفلاماً أخرى.

- تُحدِّثهم... وهذا بالنسبة إليهم أشبه بالحكاية... يتساءلون: لماذا كان المقاتلون يستشهدون إنقاذاً لعلم الفوج؟ كان من الممكن خياطة علم جديد. كانوا يحاربون، ويُقتلون- من أجل مَن؟ من أجل ستالين؟ نعم من أجلك، أيها الأحمق!

- كان علينا الاستسلام ولعق حذاء ألمانيا...

- جلبوا وثيقة تشييع أبي، فطلبت على الفور الالتحاق بالجبهة.

- إنهم ينهبون وطننا السوفييتي... إنهم يبيعونه... لو علمنا أن هذا ما سيحدث، لتريثنا قبل...

- لقد ماتت أمي في الحرب، أما أبي فقد مات قبلها من مرض السل. ذهبت للعمل منذ كنت في الخامسة عشر من عمري. كانوا يعطوننا نصف رغيف من الخبز يومياً، ولا شيء آخر، وكان هذا الخبز مخلوطاً بالسيللوز والصمغ. وقعدت مرة فاقدة الوعي من الجوع... وسقطت مرة ثانية... فذهب إلى مديرية التجنيد: «لا تسمحوا بموتي. أرسلوني إلى الجبهة».

وتمت تلبية طلبي. كانت عيون المسافرات والمودعات مجنونة! امتلأت عربة النقل بالفتيات. كن ينشدن: «أيتها الفتيات لقد وصلت الحرب حتى إلى الأورال/ أيتها الفتيات هل ولى شبابنا؟». في المحطات كان زهر الليلك متفتحاً... بعض الفتيات كن يضحكن، وبعضهن الآخر كن يبكين...

– كلنا كنا مؤيدين للبيريسترويكا، ولغورباتشوف. ولكن ليس لما نتج عنها..

– غورباتش... عميل.

– أنا لم أكن أفهم ما كان يقوله غورباتشوف... كلماته غير مفهومة، لم أسمع بها سابقاً أبداً... ماهي الحلوى التي كان يعدنا بها؟ ولكن كان يروقني الاستماع إليه... ثم تبين أنه ضعيف، فقد سلم حقيبة مفاتيح الأسلحة النووية من دون معركة. كما سلم حزبنا الشيوعي...

– الإنسان الروسي في حاجة إلى تلك الفكرة التي تدخل الجليد إلى الجلد وتشبه صيحة الرعب.

– لقد كنا بلاداً عظيمة...

– نخب وطننا! نخب النصر! حتى الثمالة! (يقرعون كؤوسهم).

– الآن النجوم للنصب الذكارية... أما أنا فأتذكر كيف كنا ندفن فتياننا... نرمي في الحفرة أي شيء نصادفه، ونغطيها بالرمال، وعلى الفور يأتي الأمر العسكري: إلى الأمام- إلى الأمام! فنترك كل شيء ونركض. معركة جديدة. ومن جديد تمتلئ الحفرة بالجثث. كنا نتراجع ونهجم من حفرة لأخرى. تصلنا التعزيزات، وبعد يومين أو ثلاثة تتحول إلى جثث. لم يبق على قيد الحياة سوى أشخاص معدودين، سعيدي الحظ! وبحلول نهاية العام الثالث والأربعين تعلَّمنا كيف نحارب. بدأنا

نحارب بطريقة صحيحة. وتناقصت أعداد الشهداء... آنذاك، أصبح لديَّ أصدقاء...

- أمضيت الحرب كلها في الخط الأول، ولم أُصب بخدش واحد، أبداً! وأنا ملحد. وصلت إلى برلين... ورأيت مخبأ الوحش...

- انطلقنا إلى المعركة ببندقية واحدة لأربعة جنود. يقتلون الأول، فيمسك الثاني بالبندقية، يقتلون الثاني، فيمسكها الثالث... بينما كانت لدى الألمان رشاشات جديدة.

- في البداية كان الألمان متغطرسين. فقد أخضعوا أوروبا كلها. ودخلوا إلى باريس. كانوا قد خططوا الانتهاء من الاتحاد السوفييتي خلال شهرين. وإذا ما أُسر الجرحى منهم، فكانوا يبصقون في وجوه أخواتنا الممرضات. ويقطِّعون الضمادات. ويصرخون «يعيش هتلر!». أما في نهاية الحرب فأخذوا يصرخون: «أيها الروسي، لا تطلق النار! يسقط هتلر!».

- أكثر شيء كنت أخشاه أن أموت بصورة مشينة. فإذا ما جبُن أحد، أو هرب- كان القائد يقتله على الفور... كان هذا أمراً عادياً...

- ماذا أقول... كانوا يربوننا على الطريقة الستالينية: سوف نحارب في أراضي الغير، و«من غابات التايغا إلى البحور البريطانية/ الجيش الأحمر هو الأقوى»... لن نرحم الأعداء! أيام الحرب الأولى... أتذكرها وكأنها كابوس مُطبق... وقعنا في الحصار... الجميع يتساءلون سؤالاً واحداً: ما الأمر؟ أين ستالين؟ لا توجد طائرة واحدة من طائراتنا في السماء... دفنا بطاقاتنا الحزبية والشبيبية وسرنا في دروب الغابة... حسناً، يكفي... لا حاجة إلى أن تسجلي هذا... (يبعد عن نفسه المسجلة). كان الألمان ينشرون دعايتهم، وكانت مكبرات الصوت تعمل عندهم ليل نهار: «يا إيفان الروسي، استسلم! الجيش الألماني يضمن لك الحياة والخبز». كنت

مستعداً لإطلاق الرصاص على نفسي. وماذا أُطلق! لا شيء! لم يكن عندنا طلقات... نحن الجنود كنا في الثامنة عشر والتاسعة عشر من العمر... كان القادة يشنقون أنفسهم بشكل جماعي. من يشنق نفسه بحزامه، ومن بشيء آخر... بطرق مختلفة، علقوا أنفسهم على أشجار الصنوبر... إنها نهاية العالم، كـ... أمك!

- الوطن أو الموت!

- كانت لدى ستالين خطة- نفي جميع العائلات التي وقعت في الأسرِ إلى سيبيريا. ثلاثة ملايين ونصف من الأسرى! لن تنفي الجميع! يا أبا شنب، يا آكل لحم البشر!

- العام الحادي والأربعون، العام الملعون...

- قل كل شيء... الآن أصبح مسموحاً...

- لسنا معتادين...

- نحن في الجبهة كنا نخشى أن يصارح أحدنا الآخر. كانوا يسجنون الناس قبل الحرب... وبعد الحرب أيضاً كانوا يسجنونهم... أمي كانت تعمل في المخبز، وجرى فيه تفتيش عثروا في كفيها على فتات من الخبز، وكان هذا كافياً للاتهام بالخيانة. وصدر حكم بسجنها عشر سنوات. أنا في الجبهة، والدي في الجبهة، وبقي أخي وأختي الصغيران عند جدتهما. كانا يرجوانها: «جدتي لا تموتي قبل أن يعود بابا وساشا (أي أنا) من الحرب». لم يعثروا لأبي على أثر.

- أي أبطال نحن؟ لم يكونوا يعاملوننا أبداً معاملة الأبطال. لقد ربينا أنا وزوجتي أولادنا في كوخ، وبعد ذلك أعطونا سكناً في شقة جماعية. ونحصل الآن على كوبيكات معدودة... إنها دموع وليست راتباً تقاعدياً... يعرضون على شاشة التلفزيون كيف يعيش الألمان. في حالة جيدة! إن من خسر الحرب يعيشون أفضل بمئة مرة ممن انتصر فيها.

- الله نفسه لا يعرف ما معنى أن تكون إنساناً صغيراً.

- أنا كنت، وسأبقى، شيوعياً! من دون ستالين ومن دون حزب ستالين لما انتصرنا. الديموقراطية، كـ... أملِكِ! إنني أخاف من ارتداء أوسمتي الحربية. «أيها العجوز الخرِف، أين كنت تخدم؟ في الجبهة أم في السجون والمعتقلات؟». هذا ما أسمعه من الشباب. وهم يشربون البيرة ويسخرون.

- أقترح إعادة النصب التذكارية لقائدنا ستالين العظيم إلى أماكنها السابقة. إنهم يخفونها خلف الأبواب كالقمامة.

- ضعها عندك في البيت الريفي...

- إنهم يريدون إعادة كتابة تاريخ الحرب. ينتظرون عندما نفطس نحن جميعاً.

- نحن الآن، باختصار، "سوفييتيون معتوهون"...

- إن ما أنقذ روسيا هو أنها كبيرة جداً. الأورال... سيبيريا...

- الأشد رهبة، النهوض والتقدم نحو الهجوم. الدقائق العشر الأولى... الخمس الأولى... من كان الأول في نهوضه إلى المعركة الهجومية، لم يكن لديه أية فرصة للبقاء حياً. أيها الشيوعيون، إلى الأمام!

- نخب قوة وطننا الحربية! (يقرعون كؤوس بعضهم بعضاً).

- باختصار... لا نريد قتل أحد. غير مستحب. ستعتاد... تتعلّم...

- بالقرب من ستالينغراد انتسبت إلى الحزب. كتبت في طلبي: «أريد أن أكون في الصفوف الأولى من المدافعين عن الوطن... لن أبخل بحياتي الشابة»... كانت مكافآت قوات المشاة نادرة. فزت بميدالية واحدة هي "ميدالية الشجاعة".

- كدمات الحرب كانت تؤثر فينا... أصبحتُ مقعداً، لكنني ما زلت صامداً.

- أذكر: أسرنا اثنين روسيين بكنية فلاسوف... قال الأول: «انتقمت لأبي»... المخابرات السوفييتية أطلقت النار على أبيه... وقال الثاني: «لم أرغب في أن أموت في مركز الاعتقال الألماني». شابان في مقتبل العمر، أحدهما من عمري. عندما تتكلم مع الإنسان، وتنظر في عينيه... يصعب عليك أن تقتله... في اليوم التالي حققوا معنا جميعاً في قسم خاص: «لماذا تبادلتم الحديث مع الخائنين؟ لماذا لم تطلقوا عليهما النار على الفور؟». بدأت أبرر... وضع المحقق من القسم الخاص مسدسه على الطاولة قائلاً: «أنت عاهر، تتحدث في الحقوق أيضاً؟! كلمة أخرى منك و..». لم يرحم أحد آل فلاسوف. كان جنود الدبابات يربطونهم إلى الدبابات، ويشغلون محركاتها- وبمختلف الاتجاهات... قطَعوهم قطعاً... خونة! فهل كانوا جميعهم خونة؟

- كنا نخاف من عناصر القسم الخاص أكثر من الألمان. حتى الجنرالات كانوا يخشونهم...

- الخوف... كان الخوف مسيطراً طيلة الحرب...

- ولكن لو لم يكن ستالين... ومن دون "اليد الحديدية" لما عاشت روسيا...

- أنا كنت أحارب ليس دفاعاً عن ستالين بل دفاعاً عن الوطن. أقسم بأولادي وأحفادي لم أسمعهم يوماً يصرخون: "دفاعاً عن ستالين!".

- لا يمكن أن نربح الحرب من دون الجندي.

- كـ... أمك...

- علينا أن نخاف من الله وحده. فهو الحكم.

- لو كان الله موجوداً..

(جوقة متنافرة) «هذا يعني أننا بحاجة إلى نصر آخر!/ نصر واحد للجميع، ولن نبخل بالثمن»...

- طيلة حياتي يداي إلى جانبي! لم أجرؤ على النطق بكلمة. والآن سأتكلم...

في طفولتي، وكما أذكر نفسي، كنت أخاف أن أفقد أبي... أخذوا أبي ليلاً، واختفوا في المجهول. وهكذا اختفى خالي فيليكس، الموسيقي. أخذوه بسبب سخافة... بسبب هراء. في المخزن التجاري قال لي بصوت عال: «هذا هو العام العشرون للسلطة السوفيتية، ولا وجود في المحلات التجارية لبنطال جيد». الآن يكتبون، أن الجميع كانوا ضد... وأنا أقول إن الشعب كان يؤيد الاعتقالات. لنأخذ أمي... كان أخوها معتقلاً، وكانت تقول: «حدث خطأ مع أخي فيليكس. عليهم بحث المسألة. ولكن لا بد من الاعتقال، انظر كم من الأشياء القميئة من حولنا». كان الشعب يؤيد... الحرب! بعد الحرب كنت أخاف أن أتذكر الحرب... حربي أنا. أردت الانتساب للحزب، فلم يقبلوني: «وأي شيوعي أنت، إذا كنت في الغيتو؟». كنت أسكت... وأسكت. كانت في فصيلة الأنصار معنا روزتشكا، فتاة يهودية جميلة. كانت تُحضر معها الكتب. في السادسة عشر من عمرها. كان القادة يضاجعونها بالدور... «لا تزال لديها هناك شعرات الأطفال... ها-ها»... حملت روزتشكا... أبعدوها إلى الغابة، وأخذوا يطلقون عليها النار كالكلبة. وُلد الأطفال، وهذا أمر مفهوم، فالغابة مليئة بالأطفال الأصحاء. كان يُمارس الآتي: يولد طفل - فيرسلونه مباشرة إلى القرية. إلى المزرعة. ومن يأخذ رضيعاً يهودياً؟ لم يكن يحق لليهود الولادة. عدت بمهمة: «أين روزتشكا؟». «وما علاقتك؟ لاوجود لها». يعثرون على غيرها. مئات اليهود الذين هربوا من الغيتو، كانوا يتنقلون في الغابات. كان الفلاحون يمسكون بهم، ويسلمونهم للألمان لقاء بُود[1] من

---

(1) مقياس وزن روسي يعادل 16 كغ تقريباً - المترجم.

الحنطة، لقاء كيلوغرام من السكر. اكتبي... لقد صمتت طويلاً... اليهودي طيلة حياته يخاف شيئاً ما. حيثما وقع حجر، فهو يصيب يهودياً.

لم نتمكن من الخروج من منسك التي تحترق بسبب جدتي... الجدة كانت قد رأت الألمان في العام الثامن عشر، وكانت تقنع الجميع أن الألمان أمة مثقفة، ولن يمسوا السكان المدنيين. كان ضابط ألماني يستأجر شقة في منزلهم، وكان كل مساء يعزف على البيانو. بدأت أمي تتردد: نرحل أم لا نرحل؟ وبسبب هذا البيانو... أضعنا كثيراً من الوقت. دخل الجنود الألمان المدينة على دراجاتهم النارية. استقبلهم بالخبز والملح أشخاص يرتدون قمصاناً مطرزة. بالفرح. وكان هناك كثير من الناس كانوا يظنون: ها قد جاء الألمان وستبدأ الحياة الطبيعية. كثيرون كانوا يكرهون ستالين ولم يعودوا يخفون ذلك. في الأيام الأولى من الحرب حدث كثير من الأشياء الجديدة وغير المفهومة...

كلمة "يهودي قذر" سمعتها في الأيام الأولى من الحرب... بدأ جيراننا يطرقون بابنا صارخين: «أنتم، أيها اليهود، حلت نهايتكم! أنتم مسؤولون عن دم المسيح!». كنت فتى سوفييتياً. أنهيت الصف الخامس، كان عمري اثني عشر عاماً. لم أستطع أن أفهم ما يقولونه. لماذا يقولون هكذا؟ وحتى الآن لا أفهم هذا... كانت أسرتنا مختلطة. أبي يهودي، وأمي روسية. كنا نحتفل بعيد الفصح، ولكن بطريقة خاصة: كانت أمي تقول إن اليوم هو عيد ميلاد إنسان طيب. وكنا نخبز الفطير. أما في عيد الفصح اليهودي (عندما صفح الإله عن اليهود) كان أبي يجلب خبز الفطير من عند جدتي. لكن هذا لم نكن نشهره لأن الزمن هكذا كان... كان علينا أن نلتزم الصمت.

خاطت أمي لنا جميعاً نجوماً صفراء... ولم يستطع أحد منا الخروج من البيت عدة أيام. كنا نشعر بالخجل... أصبحت الآن هرماً، وما زلت أذكر هذا الشعور... كيف كنا نشعر بالخجل... كانت تتناثر في كل مكان

بالمدينة منشورات: "اقضوا على المفوضين واليهود"، "أنقذوا روسيا من سلطة البلاشفة اليهود". وقد دسّوا لنا منشوراً من تحت الباب... وسرعان ما انتشرت الشائعات: اليهود الأمريكيون يجمعون الذهب، من أجل افتداء جميع اليهود ونقلهم إلى أمريكا. الألمان يحبون النظام ولا يحبون اليهود، لهذا سيضطر اليهود إلى تمضية فترة الحرب في الغيتو... كان الناس يبحثون عن معنى ما يحدث... يبحثون عن خيط ما... فحتى الجحيم يريد الإنسان أن يفهمه. أذكر... أذكر جيداً، كيف انتقلنا إلى الغيتو. آلاف من اليهود كانوا يسيرون في المدينة... مع أطفالهم، ومخداتهم... وقد أخذت معي، وهذا مضحك، مجموعتي من الفراشات. هذا مضحك الآن... كان سكان منسك مصطفين على الأرصفة: بعضهم كان ينظر إلينا بفضول، وآخرون بشماتة، وبعضهم كان واقفاً يبكي. لم أنظر إلى الجانبين إلا قليلاً، كنت أخاف من أن أرى أحداً من معارفي الفتيان. كنت أشعر بالخجل... أذكر شعوراً دائماً بالخجل...

انتزعت أمي خاتم الزواج من إصبعها، ولفته في محرمة وقالت لي إلى أين أذهب. مررت ليلاً من تحت الأسلاك الشائكة... وفي المكان المتفق عليه كانت تنتظرني امرأة، أعطيت الخاتم لها، فأعطتني طحيناً في وعاء. وفي الصباح، وجدنا أنها وضعت لنا الكلس الأبيض بدلاً من الطحين. وهكذا خسرنا خاتم أمي. لم يكن عندنا أشياء أخرى ثمينة... بدأنا ننتفخ من الجوع... بالقرب من الغيتو كان يناوب فلاحون يحملون أكياساً كبيرة. ليلاً ونهاراً. كانوا ينتظرون المذبحة المنظمة دورياً. عندما كانوا يأخذون اليهود للإعدام، كان يسمحون للفلاحين بنهب بيوتهم الفارغة. كان رجال البوليس يبحثون عن الأشياء الثمينة، أما الفلاحون فكانوا يجمعون في أكياسهم كل شيء يجدونه. وهم يقولون لنا: «لن تحتاجوا الآن إلى أي شيء».

ذات يوم سيطر الهدوء على الغيتو، كما يحدث قبيل المذبحة. مع أنه لم تُسمع طلقة واحدة. في ذلك اليوم لم يطلق النار على أحد... سيارات... سيارات كثيرة... كانوا يفرغون السيارات من أطفال ببذلات وأحذية جيدة، ومن نساء بمآزر بيضاء، ومن رجال يحملون حقائب غالية. كانت حقائب جيدة جداً! جميعهم كانوا يتحدثون باللغة الألمانية. بُهت الحرس والجنود، وبخاصة رجال الشرطة، ولم يصرخوا، ولم يضربوا أحداً بالهراوات، ولم يطلقوا الكلاب الهادرة من مقاودها. إنه مشهد... مسرح... كان هذا شبيهاً بالمسرحية... وفي هذا اليوم عرفنا أنهم جلبوا يهوداً من أوروبا. وأطلقوا عليهم اسم "يهود هامبورغ"، لأن غالبيتهم جاؤوا من مدينة هامبورغ. وكانوا انضباطيين، مطيعين. ولم يتحايلوا ولم يخادعوا الحرس، ولم يختبئوا في الأماكن المخفية... لقد كانوا محكومين... وكانوا ينظرون إلينا باستعلاء. فنحن فقراء بثياب سيئة مهلهلة. نحن آخرون... لم نكن نتحدث باللغة الألمانية.

أطلقوا النار عليهم جميعاً. عشرات الآلاف من يهود "هامبورغ"...

هذا اليوم... كل شيء كان مجهولاً، مغلفاً بالضباب... كيف طردونا من بيوتنا؟ كيف نقلونا؟ أذكر ساحة كبيرة خلف الغابة... اختاروا الرجال الأقوياء وأمروهم بحفر حفرتين عميقتين. ونحن كنا نقف وننتظر. بداية، رموا الأطفال الصغار في حفرة... وأخذوا يهيلون التراب فوقهم... لم يبكي الآباء ولم يترجوا شيئاً. كان الهدوء مسيطراً. لماذا؟ اسألي. أعتقد أنه إذا ما هاجم ذئب رجلاً، فهذا الرجل لن يترجاه ولن يستعطفه لإبقائه حياً. أو إذا ما هاجمه خنزير بري... كان الألمان ينظرون إلى الحفرة ويضحكون، ويرمون لهم بالسكاكر. ورجال الشرطة كانوا في حالة سكر شديد... كانت جيوبهم مليئة بالساعات اليدوية... وكانوا يدفنون الأطفال... ويأمرون الجميع بأن يرموا بأنفسهم في الحفرة الثانية. كنا نقف: أمي وأبي وأنا

وأختي الصغيرة. اقترب دورنا... أدرك القائد الألماني أن أمي روسية، وأشار إليها بيده: «أنتِ اذهبي». صاح أبي بأمي: «اركضي!». لكن أمي تمسكت بأبي وبي: «أنا معكم». ونحن كلنا كنا ندفعها بعيداً... ونرجوها أن تذهب... كانت أمي أول من قفز إلى الحفرة...

هذا كل ما أذكره... عاد إليّ وعيي لأن أحدهم ضربني على رجلي بشيء حاد. فصرخت من الألم. وسمعت همساً: «وهنا واحد حي». كان هناك رجال يحملونَ معاولهم وينبشون في الحفرة وينزعون من القتلى الجزمات والأحذية... وكل ما يمكن نزعه... ساعدوني في الخروج من الحفرة إلى الأعلى. فجلست على حافة الحفرة وأخذت أنتظر... وأنتظر... هطل المطر. وكانت الأرض دافئة. أعطوني على الفور قطعة من الخبز: «اركض أيها اليهودي الصغير فقد تنقذ نفسك».

كانت قريتنا خالية من أي إنسان... أما الأبنية فهي على حالها. أردت أن آكل، وليس هناك من أطلب منه. وهكذا كنت أمشي وحيداً. في الطريق كانت هنا جزمة مطاطية مرمية أو جرموق... أو منديل... وخلف الكنيسة رأيت الناس المحترقين. جثث سوداء. وكانت تفوح رائحة البنزين واللحم المشوي... هربت إلى الخلف، إلى الغابة. أكلت الفطر والثمار البرية. ذات مرة التقيت برجل مسن، كان يحضِّر موقد الحطب. أعطاني المسن بيضتين، وحذرني قائلاً: «لا تدخل إلى القرية. الفلاحون سيمسكون بك ويسلمونك إلى مكتب الآمر الألماني. منذ فترة قصيرة أمسكوا بطفلين يهوديين».

ذات يوم غفوت واستيقظت على طلقة نارية فوق رأسي. قفزت: «الألمان؟». كانوا شباباً يمتطون الجياد. إنهم الأنصار! ضحكوا وأخذوا يتناقشون فيما بينهم: «ولماذا نأخذ طفلاً يهودياً؟». «لنأخذه... وليقرر القائد ما يراه». اقتادوني إلى فصيل الأنصار، أجلسوني في مخبأ منفرد.

وضعوا حارساً... ثم استدعوني للتحقيق: «كيف ظهرت في موقع الفصيل؟ من أرسلك؟». «لم يرسلني أحد. خرجت من حفرة النار». «وربما أنت جاسوس؟». صفعوني على وجهي مرتين، ورموني من جديد في المخبأ. وبحلول المساء جلبوا إلى مخبئي رجلين شابين، يهوديين، وكانا يرتديان سترتين جلديتين جيدتين. ومنهما عرفت، أنهم لا يقبلون اليهود في الفصيل من دون سلاح. وإذا لم يكن لدي اليهودي سلاح، عليه أن يحضر ذهباً. شيئاً ما من الذهب. كان لدى الرجلين ساعة ذهبية وعلبة سيجار، وأظهروهما لي، طلبا مقابلة القائد. وسرعان ما اقتادوهما. ولم ألتقِ بهما أبداً بعد ذلك... أما علبة السيجار الذهبية فقد رأيتها فيما بعد عند قائدنا... ورأيت السترة الجلدية... أنقذني العم ياشا أحد معارف والدي. كان يعمل حذّاءً، وكان الحذّاؤون موضع تقدير في الفصيل كالأطباء. وأخذت أساعده في عمله...

نصيحة العم ياشا الأولى: «استبدل كنيتك». كانت كنيتي فريدمان... فأصبحت لوميكو. النصيحة الثانية: «اسكتْ، وإلا ستتلقى رصاصة في ظهرك. ليس هناك من يُحاسب عن اليهودي». وهذا ما حدث... الحرب - هي مستنقع يسهل الوقوع فيه ويصعب الخروج منه. وثمة مثل يهودي آخر: عندما تهب ريح قوية تصعد القاذورات إلى الأعلى. إن الدعاية النازية قد عَدت الجميع، وأصبح الأنصار ميالين لمعاداة السامية. كان عددنا نحن اليهود في الفصيل أحد عشر شخصاً... ثم خمسة... وكانوا بحضورنا يتبادلون الحديث: «أي محاربين أنتم؟ يقتادونكم، كالخراف، إلى المرعى»... «اليهود جبناء»... كنت ألوذ بالصمت. كان عندي صديق نضالي، شاب يائس... دافيد غرينبورغ... كان يرد عليهم. ويتجادل معهم. قتلوه بطلقة في ظهره. وأعرف مَن قتله. وهو اليوم بطل يسير حاملاً أوسمته. يستعرض عضلاته ويظهر بطولته! قتل يهوديين

لنومهما في أثناء نوبة الحراسة، حسب ادعائه... وثمة آخر كنت أحسده على مسدسه الجديد "بارابيلوم"... وإلى أين أهرب؟ إلى الغيتو؟ كنت أريد أن أدافع عن الوطن... وأنتقم لأهلي... أما الوطن؟ كان لدى قادة فصائل الأنصار تعليمات سرية من موسكو: لا تثقوا باليهود، ولا تقبلوهم في فصائلكم، واقضوا عليهم. كانوا يعدّوننا خونة. الآن عرفنا هذا بفضل البيريسترويكا.

أُشفق على الإنسان... وكيف تموت الجياد؟ الحصان لا يختبئ، مثل غيره من الحيوانات: كالكلب، والقطة، حتى البقرة تهرب، أما الحصان فيقف وينتظر، متى يقتلونه. إنها لوحة قاسية، خطيرة... في الأفلام السينمائية يندفع الفرسان بالصراخ وسيوفهم فوق رؤوسهم. هذا هراء! خيال! في فصيلنا كان هناك فرسان في فترة من الفترات، وسرعان ما أعادوا تشكيلهم. لا يمكن للجياد الانطلاق في الثلوج المتراكمة، ناهيك عن الركض، إنها ترتبك في الكثبان الثلجية، أما الألمان فكان عندهم دراجات نارية بعجلتين وبثلاث عجلات، وفي الشتاء كانت تنطلق على الزلاجات. كانوا ينطلقون باندفاع ويطلقون النار على جيادنا، وعلى فرساننا. قد يشفقون على الجياد الجميلة، وهذا يبدو واضحاً، فبينهم كان كثير من الشباب الريفيين...

أمر عسكري: إحراق كوخ العميل المتعاون مع العدو... مع أسرته... وأسرته كبيرة: الزوجة، وثلاثة أولاد، والجد والجدة. كانوا يحاصرونهم ليلاً... ويغلقون باب الكوخ بالمسامير لمنع خروجهم... ويرشّون على الكوخ الكيروسين ثم يحرقونه. كانوا يصرخون فيه ويعولون ويبكون... خرج صبي من النافذة... أراد أحد الأنصار إطلاق النار عليه، لكن آخر لم يسمح له. فيعيدونه ثانية إلى النار. كنت في الرابعة عشرة من العمر... لم أكن أفهم شيئاً... كل ما استطعته هو أنني حفظت هذا. وهَأنذا قد

رويت... لا أحب كلمة "بطل" لا وجود للأبطال في الحرب... إذا ما أمسك الإنسان بالسلاح، فهو لن يكون إنساناً جيداً. ولن يتمكن من أن يكون كذلك.

أذكر الحصار... قرر الألمان تطهير مؤخراتهم، فوجهوا فرق البوليس السري الألماني ضد الأنصار المقاومين. كانوا يعلقون المصابيح الكشافة على المظلات ويقصفوننا بالقنابل ليلاً ونهاراً. وبعد القصف، يطلقون النار بالرشاشات. كان الفصيل ينسحب مجموعات صغيرة، حاملين الجرحى معهم، بعد تغطية أفواههم، أما الجياد فكنا نلبسها كمامات خاصة. كنا نترك كل شيء، نترك مواشينا المنزلية، الأبقار والخراف، التي كانت تركض وراءنا... كنا نضطر إلى إطلاق النار عليها... اقترب الألمان منا كثيراً، بحيث كنا نسمع أصواتهم: «رائحة سجائر»... كان يحتفظ كل واحد منا بطلقة أخيرة... ولكن ثمة متسع من الوقت دوماً للموت. بقي منا ثلاثة في مجموعة الحماية... ليلاً كنا نفتح بطون الجياد الميتة، ونُخرج منها كل شيء، ونُدخل أنفسنا فيها. بقينا على هذه الحالة يومين كاملين، كنا نسمع أصوات الألمان يتنقلون هنا وهناك. ويطلقون النار. وأخيراً، حل هدوء كامل. عندها خرجنا من بطون الجياد: وقد تغطينا بالدماء والأحشاء... والخراء... أشبه بالمجانين. حل الليل... والقمر يضيء...

أقول لكم، حتى الطيور كانت تساعدنا... عندما يسمع الغراب صوت إنسان غريب كان يصيح بالتأكيد. يعطي إشارة. لقد اعتادوا علينا، أما الألمان فكانت رائحتهم مختلفة: عندهم ماء الكولونيا، والصابون العطر، والسجائر، والمعاطف من أفضل الجوخ العسكري... وجزمات نظيفة مدهونة... أما عندنا فتبغ خام مفلوت، ولفائف على القدمين، وأخفاف من جلد البقر مربوطة بحزامات ملفوفة على الرجل... وألبسة داخلية صوفية... وكنا ننزع ثياب القتلى الألمان الداخلية باستثناء الكلاسين!

وكانت الكلاب تقضم وجوههم وأيديهم. حتى الحيوانات انجرت إلى الحرب...

مرت سنوات عديدة... نصف قرن... لكنني لم أنسَ هذه المرأة... كان لديها طفلان صغيران. وقد أخفتهما في سرداب مع جريح من الأنصار. وشى أحد الأشخاص بذلك للألمان... فعلقوا مشانقهم في وسط القرية، مبتدئين بالطفلين... كيف كانت الأم تصرخ! صراخها لم يكن كصراخ البشر... بل كصراخ الحيوان... فهل على الإنسان أن يُقدم على هذه التضحيات؟ لا أعرف. (يلوذ بالصمت). يكتب الآن عن الحرب من لم يكن مشاركاً فيها. أنا لا أقرأ ما يكتبون... ولا تستائي مني، أنا لا أقرأ...

تحررت منسك... وانتهت الحرب بالنسبة إليَّ. لم يجندوني في الجيش لصغر سني. عمري خمسة عشر عاماً. أين أسكن؟ سكن أناس غرباء في شقتنا. طردوني: «يهودي طائش»... لم يريدوا إعطائي أي شيء: لا الشقة، ولا أي شيء. اعتادوا على فكرة أن اليهود لن يرجعوا أبداً...

(جوقة متنافرة). «تضطرم النار في الموقد/ وعلى الحطبات صمغ يخرج كالدموع/ ويحدثني الأوكورديون في الكوخ الترابي/ عن ابتسامتك وعينيكِ»..

– بعد الحرب تغير الناس ولم يعودوا كما كانوا. وأنا نفسي عدت من الحرب إلى المنزل عنيفاً حاداً.

– لم يكن ستالين يحب جيلنا. كان يكرهه لأننا أحسسنا بالحرية، فالحرب كانت حرية بالنسبة إلينا! فقد كنا في أوروبا، ورأينا كيف يعيش الناس. كنت أذهب إلى العمل عبر نصب ستالين، وكان عرق بارد يخترقني، فربما كان يعرف فيمَ كنت أفكر؟

- «إلى الوراء! إلى المعلف!». قيل لنا. وذهبنا.

- يا لهم من ديمقراطيين! لقد دمروا كل شيء... نتمرغ في الخراء...

- نسيت كل شيء... والحب نسيته... أما الحرب فأتذكرها...

- عامان أمضيتهما مع رجال المقاومة. في الغابة. بعد الحرب بسبع- ثماني سنوات... عموماً لم يكن في استطاعتي النظر إلى الرجال. فقد شاهدت بما فيه الكفاية! كان هناك نفور. ذهبت مع أختي إلى المصح... كان الرجال يتابعونها، وترقص معهم، أما أنا فكنت أريد الهدوء وحده. تزوجت في سن متأخرة، كان زوجي أصغر مني بخمس سنوات. كان كفتاة صغيرة.

- ذهبت إلى الجبهة، لأنني كنت أصدق كل ما كانت تكتبه صحيفة "البرافدا". كنت أطلق النار. كانت لدي رغبة قوية في أن أقتل! أن أقتل! في السابق كنت أريد نسيان كل شيء، لكنني لم أستطع. أما الآن فكل شيء مآله النسيان. أذكر شيئاً واحداً، أن رائحة الموت في الحرب مختلفة... فرائحة القتل خاصة، مميزة... عندما يموت شخص واحد فقط، تبدئين بالتفكير: من هو؟ من أين هو؟ هناك من ينتظره...

- بالقرب من وارسو... قدمت لي عجوز بولونية ثياباً رجالية، وهي تقول: «انزعي ثيابك كلها. سأغسلها. لماذا تبدون وسخين، نحيلين؟ وكيف انتصرتم؟»... كيف انتصرنا؟!

- أعطني... وبدون عواطف...

- انتصرنا... نعم. لكن نصرنا العظيم لم يجعل بلدنا عظيماً.

- سأموت شيوعياً... البيريسترويكا هي عملية وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لتدمير الاتحاد السوفييتي.

- ماذا بقي في الذاكرة؟ أكثر شيء مزعج، هو أن الألمان كانوا

يحتقروننا. كيف كنا نعيش... حياتنا... كان هتلر يدعو السلافيين بالأرانب البرية...

- وصل الألمان إلى قريتنا. الطقس ربيع. في اليوم التالي بدؤوا يعملون حوضاً للزهور وشرعوا ببناء مرحاض عمومي. لا يزال الكبار في السن يتذكرون حتى الآن، كيف كان الألمان يغرسون شتلات الورود...

- في ألمانيا... كنا ندخل إلى المنازل: كانت الخزائن تحوي كثيراً من الثياب الجيدة، والبياضات، والحلي. كانت هناك جبال من المواعين والأدوات المنزلية. وقبل الحرب كانوا يقولون لنا إنهم يعانون الأمرين من الرأسمالية. كنا نشاهد ونلوذ بالصمت. حاول أن تمدح قدّاحة أو دراجة ألمانية. ستقع تحت طائلة المادة الثامنة والخمسين لـ"دعايتك المعادية للسوفييت". في فترة من الزمن... كانوا يسمحون بإرسال طرود بريدية إلى بيوتنا على النحو التالي: للجنرال خمسة عشر كيلوغراماً، للضابط عشرة كيلوغرامات، وللجندي خمسة. اكتظت المراكز البريدية بالطرود. كتبت لي أمي: «لا حاجة إلى الطرود. بسبب طرودك سيقتلوننا». أنا أرسلت إلى البيت قداحة، وساعة، وقطعة قماش من الحرير... سكاكر كبيرة من الشوكولا... ظنوا أنها صابون...

- لم يتبقَ فتيات ألمانيات بأعمار تتراوح بين عشرة إلى ثمانية عشرة عاماً لم نضاجعهن! لهذا، فإن الأولاد المولودين في العام السادس والأربعين كانوا "شعباً روسياً".

- الحرب تمسح كل شيء... وقد مسحت...

- هذا هو النصر! النصر! طيلة أيام الحرب كان الناس يتخيلون أنهم سيعيشون حياة رغيدة بعد الحرب. احتفلوا يومين أو ثلاثة. ثم شعروا بالجوع، أرادوا أن يأكلوا شيئاً، وأن يرتدوا لباساً. أرادوا الحياة.

ولا وجود لأي شيء. الجميع كانوا يرتدون اللباس العسكري الألماني. الكبار والصغار. كانوا يخيطونه ويقصرونه. كانوا يعطوننا الخبز بالبطاقات التموينية، وكان الدور يصل إلى كيلومترات. كان السخط مسيطراً في الجو. كان من الممكن قتل الإنسان ببساطة، دون سبب.

- أذكر... لعلعة وهديراً طيلة اليوم... كان المقعدون يتنقلون على منصات يدوية وعلى كراسٍ بدواليب من صنع أيديهم. أما الأرصفة فكانت من الزلط. وكانوا يسكنون في الأقبية وشبه الأقبية. وكانوا يسكرون ويرتمون في الخنادق، ويتسولون. كانوا يقايضون أوسمتهم بالفودكا. يقتربون من الدور ويرجون: «اسمحوا لي بشراء قطعة خبز». وكان الدور يغص بنساء متعبات: «أنت حي، أما زوجي فيرقد في قبره». ويطردنهم. تحسنت أوضاعهم المعيشية قليلاً، وصاروا يحتقرون المقعدين. لا أحد يريد أن يتذكر الحرب. أصبح الجميع مشغولاً بهموم الحياة وليس بالحرب. وقد أبعدوهم ذات يوم من المدينة. كان رجال الشرطة يمسكون بهم ويحمّلونهم بالسيارات، كالخنازير. فيشتمون... ويصرخون... ويتوسلون...

- أما عندنا في المدينة فكانت هناك دار للمقعدين. شباب دون أيدٍ، دون أرجل، وكلهم يحملون الأوسمة. وسمحوا بتوزيعهم في البيوت... كان هناك تصريح رسمي بذلك... كانت النساء يشتقن إلى مداعبة رجل، فهجمن وأخذنهم من دار المقعدين: كان هناك من ينقلهم على عجلة، ومن ينقلهم في عربة الأطفال. كن يردن أن تكون في بيوتهن رائحة رجل، كي يعلقن قميصاً رجالياً على الحبل في الفناء. وسرعان ما أعادوهم إلى دار المقعدين... فالرجل ليس لعبة... ولا فيلماً سينمائياً. حاولي أن تحبي نصف الرجل هذا. فهو شرير وحاقد، إنه يعرف أنه قد تعرض للخيانة.

- هذا هو يوم النصر...

- أما أنا فسأحدثكِ عن قصة حبي... وصل الألمان إلى قريتنا على سيارات كبيرة، كان لا يظهر منهم إلا الخوذات. كانوا شباباً، مرحين، يقرصون الفتيات. في الفترة الأولى كانوا يسددون ثمن كل شيء: ثمن الدجاجة، ثمن البيض. إنني أروي هذا ولا أحد يصدقني. إنها الحقيقة الخالصة! كانوا يسددون ثمن ما يأخذونه بالماركات الألمانية... وما لي وللحرب؟ عندي قصة حب! كان في رأسي شيء واحد: متى أراه؟ كان يأتي، ويجلس على المتجر، وينظر طويلاً إليّ. يبتسم. «لماذا تبتسم؟». «هكذا». قبل الحرب كنا ندرس سوية في المدرسة. والده توفي من مرض السل، أما جده فقد سيطروا على أملاكه ونفوه مع أسرته إلى سيبيريا. كان يتذكر، كيف كانت أمه تلبسه مثل الفتيات وتعلِّمه بأن يهرب إلى المحطة إذا ما أتوا من أجل اعتقاله، ويركب القطار ويرحل. كان اسمه إيفان... وكان يسميني: «حبيبتي لوبشكا»... هكذا فقط... لم يكن الحظ حليفنا، ولم نعرف طعم السعادة. وصل الألمان، وسرعان ما عاد جدّه، عاد حاقداً، بالطبع. وحيداً. دفن أسرته كلها في أرض الغربة. كان يحدثنا كيف كانوا ينقلونهم في أنهار سيبيريا، ويشحنونهم في غابات التايغا المظلمة. أعطوا لعشرين أو ثلاثين شخصاً منشاراً وفأساً. كنا نأكل أوراق الشجر... ونلوك لحاء الشجر... كان جده يكره الشيوعيين! ولينين وستالين! وبدأ ينتقم منذ اليوم الأول. كان يؤشر للألمان: هذا شيوعي... وهذا... وكانوا يأخذون هؤلاء الرجال إلى مكان غير معروف... إنني لم أفهم الحرب طيلة فترة طويلة...

كنا نغسل الحصان معاً على النهر. ونستمتع بالشمس! نجفف التبن معاً وكنت أشعر برائحته الفواحة! لم أكن أعرف هذا سابقاً، ولم أكن أحس به هكذا. من دون حب كنت فتاة بسيطة، عادية إلى أن أحببت. أرى حلماً

- نبوءة... النهر عندنا صغير، وأنا أغرق في هذا النهر، فيجذبني تيار من تحت الماء، ووجدت نفسي تحت الماء. لم أفهم كيف، وعلى أي شكل، ولكن كان هناك شخص ما يرفعني، يدفعني إلى الأعلى لكني كنت عارية، لسبب ما، من دون ثياب. أسبح إلى الضفة. كان ذلك ليلاً، وهذا حدث صباحاً. على الضفة كان يقف أناس، أبناء قريتنا كلهم. أخرجُ من الماء عارية... عارية تماماً...

كان في أحد البيوت حاكي (فونوغراف). وكانت الشبيبة تجتمع فيه. كنا نرقص. كنا نقرأ الحظ على الخطيب والزوج المتوقع، ونقرأ الحظ بسفر المزامير، وعلى الراتينج[1]... وبحبات الفاصولياء... للحصول على الراتينج كان على الفتاة أن تذهب وحيدة إلى الغابة وأن تعثر على شجرة صنوبر عتيقة، كبيرة السن، فالصنوبرة الصغيرة لا تصلح، ولا توجد فيها ذاكرة. وتنهار قواي. إن كل هذا حقيقة... وما زلت حتى الآن أصدق هذا... أما حبات الفاصولياء، فكنا نجمعها حفنات ونحسب: سأتزوج، لن أتزوج. كنت في الثامنة عشرة من عمري... ثانية، بالطبع، لا يتحدثون عن هذا في الكتب... بوجود الألمان صارت الحياة أحسن مما كانت عليه في ظل السلطة السوفييتية؛ فقد فتح الألمان الكنائس المغلقة، وحلوّا الكولخوزات ووزعوا الأرض، هكتارين لكل شخص، وحصان واحد لاثنين من الملّاك. وحددوا ضريبة ثابتة: في الخريف كنا نسلِّم الحبوب والبازلاء والبطاطا وخنزيراً صغيراً من كل بيت. كنا نسلمها ويبقى عندنا ما يكفينا. وجميعنا كنا راضين. أما في ظل السوفييت فكنا نعاني من الفقر. كان رئيس العمال يضع في دفتره إشارات بعدد أيام العمل. وفي الخريف كنا لا نحصل على مقابل أيام العمل هذه على لا شيء! أما عند الألمان فكان يتوفر عندنا اللحم والزبدة. حياة أخرى! ويشعر الناس بالفرح لأننا

---

(1) مادة صمغية تخرج من الصنوبريات.

حصلنا على حريتنا وأصبح النظام ألمانياً... لم تطعم الحصان، يضربونك بالسوط. لم تكنس الأرض حول الفناء... أذكر تلك الأحاديث: اعتدنا على الشيوعيين، وسنعتاد على الألمان. نتعلم العيش على الطريقة الألمانية. هكذا كان... لا يزال كل شيء حياً في ذاكرتي... في الليل كان الجميع يخشون زوار الغابة، كانوا يزورون البيوت من دون دعوة. دخل اثنان لعندنا ذات مرة، أحدهم يحمل فأساً، والثاني شوكة: «أيتها الأم، أعطنا شحم الخنزير، والفودكا البيتية. ولا تصدري ضجة كبيرة». أحدثك كما كان في الحياة، وليس كما يكتبون في الكتب. لم يكونوا يحبون الأنصار ورجال المقاومة في الفترة الأولى...

حددنا موعد عرسنا... بعد الحصاد. عندما تنتهي أعمال السقاية، وتنتهي الحزمة الأخيرة من المحصول بالاحتفال وتتزين النساء بالأزهار... (تلوذ بالصمت). ذاكرتي تضعف لكن روحي تذكر كل شيء... بعد الظهر بدأ يهطل المطر. ركض الجميع من الحقل، وعادت ماما إلى البيت. كانت تبكي: «يا إلهي! يا إلهي! خطيبك إيفان سجل اسمه عند الشرطة الألمانية. ستكونين زوجة متعاون مع الألمان». «لا، لا أريد!». وأخذنا نبكي معاً. مساءً جاء إيفان، فجلس، وأطرق بعينيه إلى الأرض. «إيفان، يا حبيبي، لماذا لم تفكر فينا؟». «لوبكا... حبيبتي لوبشكا»... جده أرغمه على ذلك. هذا العجوز الشيطاني! هدده قائلاً: «إن لم تسجل نفسك مع المتعاونين في الشرطة الألمانية سيرسلونك إلى ألمانيا، ولن ترى حبيبتك لوبكا! انسَها!». كان جده يحلم... كان يريد أن تكون زوجة حفيده ألمانية... كان الألمان يعرضون أفلاماً عن ألمانيا، تظهر روعة الحياة فيها. كثير من الفتيات والشباب كانوا يصدقون، وكانوا يسافرون إليها. قبل السفر نظموا احتفالاً. كانت فرقة الآلات النحاسية تعزف الموسيقى. ركبنا القطار بأحذيتنا... (تخرج حبوباً من حقيبتها). صحتي سيئة... يقول الأطباء إن

الطب عاجز... سأموت قريباً... (تلوذ بالصمت). أريد أن يبقى حبي. أنا لن أكون، وليقرأ الناس قصة حبي...

كانت تدور رحى الحرب من حولنا، وكنا نحن سعيدين. عشنا سنة كزوجين. أنا حامل. كانت محطة السكة الحديدية قريبة جداً من بيتنا. كانت عربات القطار الألمانية تنطلق إلى الجبهة محملة بالجنود وهم شباب مرحون. كانوا ينشدون الأغاني بصوت عال. يروننا: «الفتيات! الفتيات الجميلات!». ويضحكون. وهنا نقص عدد الشباب وازدادت أعداد المتقدمين في العمر. الشباب كانوا مرحين، أما المسنون فيسيرون حزينين. ولم يعد هناك أي مرح. الجيش السوفييتي ينتصر. كنت أسأل: «إيفان، ماذا سيحل بنا؟». «لست مولعاً بسفك الدم. أنا لم أطلق النار على إنسان أبداً». (تلوذ بالصمت). أبنائي لا يعرفون شيئاً من هذا، لم أعترف لهم. ربما قبل نهايتي الأخيرة... قبل موتي... سأقول لهم شيئاً واحداً: الحب سم قاتل...

بعد منزلين من منزلنا، كان يسكن شاب، كان معجباً بي، وكان يدعوني إلى الرقص دائماً. ولا يرقص إلا معي. «سأرافقك». «لديّ من يرافقني». شاب جميل... ذهب إلى الغابة. إلى الأنصار. قال من رآه إنه كان يرتدي قبعة بشريط أحمر. قرع باب بيتنا ليلاً: «من؟». «الأنصار». يدخل هذا الشاب برفقة شاب آخر أكبر منه سناً. بدأ المعجب حديثه قائلاً: «كيف تعيشين أيتها المتعاونة مع الشرطة الألمانية؟ أردت أن أزورك منذ زمن. وأين زوجك؟». «ومن أين لي أن أعرف؟ لم يحضر اليوم إلى البيت. يبدو أنه بقي في الحامية». وهنا، أمسك بي ودفعني إلى الجدار: «أيتها اللعبة الألمانية... أيتها القحبة... أيتها العاهرة... اخترتِ عميلاً ألمانياً، ابن كولاك إقطاعي، وتظاهرت أمامه بأنك عذراء». وهنا بدا وكأنه يخرج مسدساً من عُبِّه، فارتمت أمي أمامهما على ركبتيها: «أطلقا النار، يا شباب،

أطلقا النار. كنت ألعب مع أمهاتكما في طفولتي. ولتبكيا عليّ فيما بعد». وكأن كلمات أمي أثّرت فيهما. فتحادثا فيما بينهما وخرجا (تصمت). الحب مُرٌّ كالعلقم...

كانت الجبهة تقترب منا أكثر فأكثر. وأصبح صوت المدفعية مسموعاً. في الليل طرق ضيوف الباب. «من؟». «الأنصار». يدخل الشاب المعجب بي ومعه شاب آخر. أشار المعجب بي إلى مسدسه: «بهذا المسدس قتلت زوجك». «لا، لا، غير صحيح!» - «الآن ليس لديك زوج». كنت أظن أنني سأقتله... أنني ســ... أفقأ له عينيه... (تصمت). وفي الصباح جلبوا زوجي إيفان... على الزلاجة... ملفوفاً بالمعطف... عيناه مغمضتان، ووجهه طفولي. إنه لم يقتل أحداً... كنت أصدقه! وما زلت أصدقه! كنت أرتمي على الأرض وأنوح. كانت أمي تخشى أن أفقد عقلي ويولد الجنين ميتاً أو مشوهاً، ركضتْ إلى المرأة الساحرة. إلى العجوز ستاسا. فقالت لأمي: «أنا أعرف مصيبتك. لكنني هنا عاجزة. فلتصلِّ ابنتك ولتدعُ الله». وعلّمتها كيف الدعاء والصلاة... عندما ينقلون إيفان لدفنه، عليَّ ألا أسير مثل بقية الناس خلف التابوت، بل في الأمام. وحتى المقبرة. أي عبر القرية كلها... وباقتراب الحرب من نهايتها ذهب كثير من الرجال إلى الغابة. انضموا إلى الأنصار. وفي كل كوخ كان هناك من استشهد (وقفة). وأنا سرت... أمام نعش عميل الألمان... كنت في الأمام، ووالدتي من خلفي. خرج جميع السكان من أكواخهم، ووقفوا على البوابات، ولكن لم ينطق أحد منهم بكلمة سيئة. كانوا ينظرون ويبكون.

عاد السوفييت إلى السلطة... عثر هذا الشاب عليَّ من جديد... جاء على الحصان: «بدؤوا يهتمون بأمرك». «من؟». «كيف من؟ الجهات الأمنية». «لا يهمني أين سأموت. فليرسلوني إلى سيبيريا». «أي أمٍّ أنتِ؟ عندك طفل». «أنت تعرف ابن مَن»... - «آخذك كما أنت». وتزوجت منه.

تزوجت من قاتل زوجي. ووضعت له ابنة... (تبكي). كان يحب الاثنين بالتساوي: ابني وابنته. لن أغتابه. أما أنا... أنا... كنت أمشي بكدماتي، بقروحي المدمّاة. يضربني ليلاً، وفي الصباح يجثو على ركبتيه، ويطلب أن أسامحه. كان يحرقه شغف ما... كان يغار من الميت... في الصباح كان الناس نياماً، أما أنا فأنهض باكراً. كان عليَّ أن أستيقظ باكراً، كي لا يستيقظ من نومه... ولا يعانقني... ليلاً كانت النوافذ معتمة، وأنا ما أزال في المطبخ. كانت طناجري ومواعيني تلمع من النظافة. وأنتظر حتى ينام. عشت معه خمسة عشر عاماً، مرض مرضاً شديداً، ومات في فصل الخريف. (تبكي). أنا غير مذنبة... ولم أتمنَّ موته. حانت لحظة الموت... الدقيقة الأخيرة... كان يرقد ووجهه إلى الجدار، وفجأة التفت نحوي قائلاً: «هل تحبينني؟». فلذت بالصمت. ضحك، كما حدث في تلك الليلة عندما أخرج المسدس... «أما أنا فقد كنت أحبك طيلة حياتي. كنت أحب لدرجة أنني كنت أريد قتلك، عندما عرفت أنني سأموت. طلبت من ياشكا سمّاً، (كان جارنا يقتل الحيوانات في الغابة ويسلخ جلودها). لا أستطيع الاحتمال: أنا سأموت، وسيكون عندك رجل آخر. أنت جميلة».

كان يرقد في تابوته... وكأنه كان يضحك... كنت أخشى الاقتراب منه. ولكن كان عليّ أن أقبّله.

(الكورس). «انهضي أيتها البلاد الشاسعة/ انهضي إلى المعركة المميتة... / وليغلِ الغضب النبيل كالموجة/ تدور الحرب الشعبية/ الحرب المقدسة»...

- نغادر غاضبين حانقين...

- قلت لبناتي: عندما أموت، فليُسمع صوت الموسيقى وحدها، وليلذ المشيعون بالصمت.

- بعد الحرب كان الأسرى الألمان يحملون الأحجار. كانوا جائعين. يطلبون الخبز. ولم يكن في استطاعتي تقديم قطعة خبز لهم. أحياناً، أتذكر هذه اللحظة بالذات... هذه... غريب، أن مثل هذه اللحظات تبقى طويلاً...

على الطاولة كانت باقات الورد إلى جانب صورة كبيرة لتيمريان زيناتوف. كان يبدو لي طيلة الوقت أنني أسمع صوته أيضاً في هذا الكورس. إنه معنا.

من حديث زوجة زيناتوف:

- لا يمكنني أن أتذكر إلا القليل... البيت، الأسرة... لم يكن يهتم بهما أبداً. كان دوماً يتحدث عن القلعة والقلعة. لم يكن ينسى الحرب أبداً... كان يعلم الأطفال أن لينين إنسان جيد، وأننا نبني الشيوعية. قدِم ذات يوم من عمله، وبيده صحيفة: «سنذهب إلى بناء منشأة عظيمة. الوطن يدعونا». وكان أطفالنا صغاراً. سنذهب، وانتهى. الوطن يأمرنا... وهكذا ذهبنا معه إلى بناء الخط الحديدي الرئيس بايكال- آمور... إلى بناء الشيوعية... كنا نبني! كنا نؤمن بأن كل شيء ينتظرنا في المستقبل! كنا نؤمن بشدة بالسلطة السوفييتية. من أعماقنا. والآن هرمنا.

غلاسنوست (العلنية)، البيريسترويكا... نجلس ونسمع الراديو. لم يعد هناك أثر للشيوعية... أين تلك الشيوعية؟ لا وجود للشيوعية... ومن غير المفهوم من يقف هناك في القمة... غايدار سرق كل شيء... الشعب يتشرد... هناك من يسرق شيئاً ما من الكولخوز أو من المصنع... ومن يخادع... وهكذا يعيش الناس... أما زوجي... فكان يعيش بين الغيوم... في مكان عالٍ ما دوماً... ابنتي تعمل في صيدلية، أحضرت ذات مرة أدوية نادرة مفقودة كي تبيعها وتكسب شيئاً ما. فكيف عرف؟ وكيف شم

الرائحة؟ «يا للعار! أي عار!» كان يصرخ. وطردها من البيت. ولم أستطع تهدئته بأي شكل. المحاربون القدماء الآخرون يستفيدون من الامتيازات الممنوحة لهم... بالقانون... كنت أرجوه: «اذهب، فقد يعطونك أنت أيضاً شيئاً ما». فصاح قائلاً: «أنا كنت أحارب من أجل الوطن، وليس من أجل الامتيازات». يرقد ليلاً بعينين مفتوحتين ويلوذ بالصمت. أناديه، لا يجيب. لم يعد يتحدث معنا. كان يعاني معاناة شديدة. لا يعاني من أجلنا، من أجل الأسرة، ولا من أجل الجميع. كان يعاني من أجل البلد. هكذا كان هذا الإنسان. تعبنا كثيراً معه... أعترف لك بصدق - كامرأة وليس ككاتبة... لم أكن أفهمه...

استخرجَ البطاطا وجمعها من الأرض، ارتدى أفضل ثيابه وانطلق إلى قلعته. ولم يوصي لنا بأي شيء. ترك ما عنده للدولة، للناس الغرباء... ولم يترك لنا كلمة واحدة...

عن عذوبة المعاناة ونزوة الروح الروسية

قصة حب

أولغا كَريموفا – موسيقية، 49 عاماً

– كلا... كلا، هذا مستحيل... مستحيل بالنسبة إليَّ. كنت أظن أنني يوماً ما... سأروي لشخصٍ ما... ليس الآن... ليس الآن. كل شيء عندي تحت الحظر، مسدود بالطوب، مغطى بالجبس. ها هو ذا تحت التابوت... غطيت كل شيء وحفظته في تابوت... لم يعد هناك حريق، ولكن ردة فعل مجهولة تتحرك. تتشكل بلّورات مجهولة. أخاف أن أمسَّ شيئاً. أخاف...

الحب الأول... هل يمكن هكذا تسميته؟ زوجي الأول... إنها قصة رائعة. بقي يتابعني ويهتم بي عامين. كنت شديدة الرغبة في الزواج منه، لأنني كنت في حاجة إليه كله، كي لا يذهب إلى أي مكان. كله لي! حتى أنني لا أعرف لماذا أنا في حاجة إليه كله. كي لا نفترق أبداً، وأراه دوماً وأعمل أية مشاجرات، وأن يضاجعني، ويضاجعني، ويضاجعني بلا نهاية. لقد كان الرجل الأول في حياتي. أول مرة كان مُذهلاً... لذيذاً... كنت أتساءل ببساطة، ما هذا الذي يحدث؟ مرة أخرى، الشعور نفسه... وعموماً... إنها تقنية ما... الجسد... الجسد، الجسد... الجسد وحده! وبقينا هكذا نصف عام. وعموماً، لم يكن من الضروري أن أكون أنا معه، كان يمكنه العثور لنفسه على أخرى. ولكن لسبب ما، تزوجنا... كنت في الثانية والعشرين من عمري. ندرس معاً في المعهد الموسيقي، لدينا كل

شيء مشترك. ثم حدث هذا... انفتح شيء ما في ذاتي... لكنني أغفلت هذه اللحظة... عندما أحببت جسد الرجل... ها هو ذا كله لكِ... لقد كانت قصة رائعة... كان من الممكن أن تستمر بلا نهاية، ولكن كان من الممكن أيضاً أن تنتهي في نصف ساعة... فتركته. كان يتضرع إليّ بأن أبقى. ولسبب ما قررت أن أتركه. فقد تعبت كثيراً منه... يا إلهي، كم كنت مُتعبة منه! وقد حملت، أصبح بطني منتفخاً... فلماذا هو؟ كنا نتضاجع، ثم نتشاجر، ثم أبكي بعد ذلك. لم يكن في استطاعتي الصبر أكثر. لم أكن قادرة على الصفح.

خرجت من البيت، أغلقت الباب وفجأة شعرت بالفرح، أنني أتركه الآن. أتركه نهائياً. سافرت إلى أمي، فلحقني على الفور ليلاً، وكان مذهولاً للغاية: ها هي حامل، فلماذا غير راضية دوماً، وماذا تريد أيضاً؟ ماذا تريدين أيضاً؟ لكنني قَلبت الصفحة... كنت مسرورة جداً لأنه كان عندي، كما كنت مسرورة لأنه خرج من حياتي. إن حياتي هي حصالة دوماً. كان وانتهى، كان وانتهى.

آه، كم كانت جميلة ولادتي لآنكا!...... أولاً، مياه الحمل خرجت مني... كنت أمشي عدة كيلومترات، وفي أحد الكيلومترات، كنت أمشي في الغابة، وخرجت مني مياه الحمل. عموماً، كنت لا أعرف هذه الأمور جيداً. ماذا عليّ الآن، تهيئة نفسي والذهاب إلى المستشفى؟ انتظرت حتى المساء. كان الجو شتاءً بارداً. الآن لا أصدق. كانت درجة الحرارة أربعين تحت الصفر. كان لحاء الشجر يطقطق. ومع ذلك قررت الذهاب. بعد أن فحصني الطبيب: «ستستمر ولادتك يومين». اتصلتُ بأمي: «ماما، أحضري لي الشوكولا سأبقى في المستشفى طويلاً». وقبيل الفحص الطبي الصباحي ركضت الممرضة وقالت: «اسمعي، لقد برز رأس الطفل. سأستدعي الطبيب». وهَأنذا في سرير الولادة... كانوا يقولون لي:

«ها هو ذا، الآن، الآن». لا أذكر كم من الوقت مضى... ولكن، قريباً... قريباً جداً... عرضوا عليّ كتلة: «لقد وضعتِ بنتاً». وزنوا الوليدة، 4 كيلوغرامات. «اسمعي لا يوجد أي تمزق عندك. الوليدة كانت تشفق على أمها». وعندما أحضروها لي في اليوم التالي: عيناها: بؤبؤان سوداوان يعومان. ولم أعد أرى شيئاً غيرها...

بدأت عندي حياة جديدة، مغايرة تماماً. كان يروقني كيف تغير جسمي، وكيف أصبحت أبدو. عموماً، أصبحت أجمل على الفور... واحتلت ابنتي آنكا على الفور مكانتها، كنت أعبدها، لكنها لم تكن أبداً عندي مرتبطة بالرجال. وبأن لديها أب. وكأنها سقطت لعندي من السماء! من السماء! وتعلمت الكلام، يسألونها: «آنكا، ألا يوجد أب عندك؟». «عندي جدة بدلاً من الأب». «وكلب، أليس عندك كلب؟». «عندي هامستر صغير بدلاً من الكلب». هكذا كنا معاً، أنا وابنتي... طيلة حياتي كنت أخشى أنني فجأة قد لا أكون أنا. حتى عندما كنت أعالج أسناني، كنت أرجو: «لا تضربوني حقنة مخدر. ولا تجردوني من الألم». أحاسيسي هي أحاسيسي، الجيدة منها والمريضة، لا تفصلوني عن ذاتي، عن أناي. وكنت أنا وآنكا معجبين ببعضنا البعض. على هذا النحو التقينا به... إنه غليب...

لو لم يكن غليب هو نفسه، لما تزوجت ثانية أبداً. كان عندي كل شيء: طفلة، عمل، حرية. وفجأة إنه... سخيف، ضعيف البصر... يكاد لا يرى... يعاني من ضيق التنفس... أدخلت إلى عالمي إنساناً بهذا العبء الثقيل من الماضي، اثنتي عشرة سنة من الاعتقال في المعسكرات الستالينية... أخذوه إلى المعتقل صبياً في السادسة عشرة من عمره... أعدموا والده المسؤول الكبير في الحزب رمياً بالرصاص... أما أمه فقد جمّدوها حتى الموت في برميل مملوء بالماء الجليدي، في مكان ناء، حيث الثلوج المتراكمة. قبله لم أكن أفكر أبداً في مثل هذا... كنت طليعية... ثم شبيبية... وحياتي

رائعة! بديعة! فكيف أقدمت على هذا؟ كيف؟ يمر زمن، والألم يتحول إلى معرفة. إلى معرفة أيضاً. مرت خمس سنوات، وهو غير موجود... خمس سنوات... حتى أنني شعرت بالشفقة، كيف أنه لم يكن يعرفني كما أنا عليه الآن. الآن أصبحت أفهمه أكثر، لقد كبرتُ قبله ونَموْت، ولكن من دونه. لم أستطع طويلاً العيش وحيدة، لم أكن أريد الحياة. لم أكن أخشى الوحدة، كان هناك سبب آخر، لا يمكنني العيش من دون حب. أشعر في حاجة إلى هذا الألم... هذه الشفقة... من دون هذا... كنت أشعر بالرعب، بمثل هذا الرعب أشعر عندما أكون في البحر. عندما أسبح بعيداً بعيداً عن الشاطئ: أنا وحدي... وهناك، في الأسفل، ظلام دامس... لا أعرف ماذا هناك...

نجلس على الشرفة... تحركت أوراق الشجر وظهر صوت حفيفها. بدأ هطول المطر.

أوه، غراميات الشاطئ... وقتها قصير. لا تستمر إلا لفترة قصيرة. هذا هو النموذج الصغير للحياة. يمكن البدء بها بصورة جميلة، ويمكن الخروج منها بشكل جميل. وهذا ما لا يحصل معنا في الحياة، هذا ما كنا نتمناه. ولهذا نحب كثيراً السفر إلى مكان ما... والالتقاء بأحد ما... لدي جديلتان، وثوب بحبات بازلاء زرقاء، اشتريته قبل يوم من سفري من مخزن "عالم الأطفال". البحر... أسبح بعيداً جداً عن الشاطئ، إن أكثر ما أحبه في العالم هو السباحة. منذ الصباح أقوم بتمارين رياضية تحت شجرة الأكاسيا البيضاء. يمشي رجل عادي، بملامح عادية جداً، اجتاز مرحلة الشباب، رآني، ولسبب ما شعر بالفرح. يقف وينظر: «أتريدين أن أقرأ لك مساء بعض القصائد الشعرية؟». «ربما، أما الآن فسأسبح بعيداً جداً!». «سأنتظرك». وانتظرني، بقي منتظراً عدة ساعات. كان يقرأ الشعر بصورة سيئة، وكان يعدل باستمرار نظارته. لكنه كان مؤثراً. أدركت...

أدركت ما يشعر به... حركاته... نظارته، وهذا الاضطراب الذي يظهر عليه. لكنني لا أذكر أبداً ماذا كان يقرأ. ولم كان من الواجب أن يكون مهماً؟ آنذاك هطل المطر أيضاً. كان الجو ماطراً. أذكر هذا... لم أنسَ شيئاً... المشاعر... مشاعرنا، وكأنها كائنات منفصلة عنا، المعاناة، الحب، الرقة. تعيش مستقلة، هي لا تتعلق بنا. لماذا تختارين فجأة هذا الرجل، وليس ذاك، مع أن الثاني قد يكون أفضل. أو تصبحين جزءاً من حياة غريب، دون أن ترددي. ولكن، كان قد تم اختيارك... أُرسلت إليك إشارة. «كنت أنتظرك بفارغ الصبر». يستقبلني في الصباح التالي. ويتحدث معكِ بصوتٍ لسبب ما أصدقه وأثق به في هذه اللحظة، على الرغم من أنني لم أكن أبداً جاهزة. بل العكس صحيح. لكن شيئاً يتغير من حولي... ليس هذا حباً بعد، لكن لدي هذا الشعور، وكأنني حصلت فجأة على الكثير الكثير. لقد سمع الإنسان إنساناً آخر. تواصل معه. أسبح بعيداً جداً. أعود إلى الشاطئ. إنه ينتظرني. ويقول من جديد: «سيكون كل شيء في أحسن حال». ولسبب ما أصدقه من جديد. في المساء شربنا شمبانيا: «إنها شمبانيا حمراء، لكنها، من حيث سعرها، شمبانيا عادية». أعجبتني جملته. كان يقلي البيض المخلوط: «لدي مسألة طريفة مع مخلوط البيض. أشتري البيض بالعشرات، أقلي بيضتين، وتبقى دوماً عندي بيضة واحدة». إنها عبارات رقيقة.

ينظر الجميع إلينا ويتساءلون: «هل هو جدك؟ هل هو والدك؟». وأنا أرتدي ثوباً قصيراً... وعمري ثمانية وعشرون عاماً... أما هو، فبعد فترة أصبح جميلاً. برفقتي. يبدو لي أنني أعرف سراً... فهذا الباب لا يُفتح إلا بالحب... بالحب وحده... «كنت أتذكرك». «وكيف كنت تتذكرني؟». «بودي أن نذهب معاً إلى مكان ما. بعيد.. بعيد. ولست في حاجة إلى أي

شيء، فقط كي أشعر بأنك إلى جانبي. لدي هذه الرقة والحنان نحوك؛ فقط أن أنظر وأسير بجانبك». أمضيت معه ساعات سعيدة، مفعمة بالطفولة. «ربما نذهب معاً إلى جزيرة من الجزر، حيث سنرقد على الرمل». الناس السعداء هم دوماً أطفال. يجب حمايتهم، فهم رقيقون ومضحكون. وضعفاء. هكذا كنت أشعر بنفسي معه، وكيف يجب أن يكون عموماً، لا أدري. معه على هذا الشكل، ومع الآخرين بشكل آخر. كيف تخلق... «التعاسة هي أفضل معلّم»، هكذا كانت أمي تقول. ونتوق إلى السعادة. كنت أستيقظ ليلاً بفكرة راسخة: ما الذي أفعله؟ لم أعد أعرف نفسي، وبسبب هذا التوتر... أنا... لدي... كان يلاحظ قائلاً «يبدو التوتر على عنقك دوماً». ماذا أفعل؟ إلى أين أنحدر؟ ثمة هوة عميقة هناك.

ها هي سلة الخبز... ما إن يرى الخبز حتى يشرع بأكله بشكل منهجي. وبأية كمية كانت. لا يصح أن نترك الخبز. الخبز هو حصة. ويأكل الخبز ويستمر في أكله. يأكل كل ما يجده من الخبز. لم أكن أفهم على الفور...

كان يحدثني عن المدرسة... في دروس التاريخ كانوا يفتحون الكتب المدرسية، ويرسمون على صور المارشال توخاتشيفسكي والمارشال بليوخر قضبان السجن. كانت مديرة المدرسة تأمرهم بذلك. وكانوا خلال ذلك يغنّون ويضحكون. كأنها لعبة. وبعد انتهاء الدروس كانوا يضربونه ويكتبون على ظهره بالطبشور «ابن عدو الشعب».

خطوة إلى الجانب، يطلقون النار، تَهربُ وتركض إلى الغابة، الوحوش تمزقك. في الكوخ ليلاً يمكن لزملائك أن يذبحوك. هكذا، ببساطة، أمسك بكَ وذبحكَ. من دون أي كلام... من دون أي شيء... إنه معسكر الاعتقال، كل يعيش لنفسه. كان عليَّ أن أفهم هذا...

بعد اختراق حصار لينينغراد بدأت مرحلة المحاصرين. هياكل عظمية... عظام... لا يشبهون البشر إلا قليلاً... اعتقلوهم لأنهم احتفظوا

ببطاقات الخبز، مقدار خمسين غراماً من الخبز (وهي الحصة اليومية) للأم المتوفاة أو الطفل المتوفى ولم يسلموها للدولة... وقد حُكم عليهم لهذا السبب بست سنوات من السجن. يومان في معسكر الاعتقال، صمت رهيب. حتى رجال الحرس العسكري كانوا يلتزمون الصمت...

عمل فترة من الزمن في غرفة المرجل النارية... وأنقذه أحدهم بعد أن كان ميؤوساً منه. كان الوقّاد أستاذاً موسكوفياً في علوم اللغة، وهو كان ينقل له الحطب على العربة. كانا يتحاوران: هل يمكن للإنسان المثقف الذي قرأ بوشكين وأصغى إلى موسيقى باخ أن يطلق النار على أناس مدنيين عزل؟

ولماذا اخترته هو؟ هو بالذات؟ إن النساء الروسيات يرغبن في العثور على هؤلاء البؤساء. جدتي كانت تحب رجلاً، فقرر والداها أن يزوجاها من رجل آخر. كم كانت لا تطيقه! كم كانت لا تريد الزواج منه! وقررتْ بأنه عندما سيسألها الكاهن في الكنيسة: ستتزوجينه بإرادتك؟ سترفض. لكن الكاهن كان ثملاً، وبدلاً من سؤالها، كما هو مفروض، قال لها: «أنت لا تغضبيه، ولا تزعجيه، فقد قضم الصقيع قدميه في أثناء الحرب». وكان عليها، بالطبع، أن تتزوجه. وهكذا ارتبطت جدتي طيلة حياتها بجدنا الذي لم تحبه أبداً. مقدمة رائعة لحياتنا كلها... «أنت لا تغضبيه ولا تزعجيه، فقد قضم الجليد قدميه في أثناء الحرب». هل كانت أمي سعيدة؟ ماما... أبي عاد من الحرب في العام الخامس والأربعين... محطماً، منهكاً. مريضاً من جروحه. المنتصرون! زوجاتهم وحدهن يعرفن ما هي الحياة مع هؤلاء المنتصرين. كانت أمي تبكي في أحيان كثيرة بعد أن عاد أبي. مضت سنوات عديدة حتى تمكن المنتصرون من الاندماج في الحياة الطبيعية. إلى أن اعتادوا عليها. أذكر قصص والدي، وكيف كان يفقد عقله في الفترة الأولى من جملٍ مثل: "أوقد الحمام"،

"سنذهب لصيد السمك". إن رجالنا معذبون، وهم جميعاً متضررون، إما بعد الحرب أو بعد السجن. بعد الاعتقال. الحرب والسجن - هما الكلمتان الروسيتان الأساسيتان. النساء الروسيات... لم يكن لدى المرأة الروسية أبداً زوج طبيعي. إنها تعالجه، وتطببه. تعامل رجلها كبطل تارة وكطفل تارة أخرى. تنقذه. وحتى يومنا هذا. ما زالت تقوم بدورها نفسه. سقط الاتحاد السوفييتي... الآن لدينا- ضحايا انهيار الإمبراطورية. الانهيار. حتى غليب نفسه كان أكثر جرأة بعد المعتقل. كانت عنده عزة نفس وكبرياء: هَأنذا قد بقيت حياً! هَأنذا قد تحملت! كم رأيت من الأهوال! لكنني أكتب الكتب، وأقبل النساء... كان فخوراً. أما هؤلاء فالخوف مزروع في أعينهم. الخوف وحده... جرى تقليص الجيش وتسريح كثيرين منه، والمصانع توقفت عن العمل... المهندسون والأطباء يبيعون ما تيسر لهم في البازار. مرشحون للدكتوراه في العلوم. كم كان عددهم كبيراً من حولنا! وقد رُميَ بهم من القطار. يجلسون على قارعة الطريق، ينتظرون شيئاً ما. صديقتي كان زوجها طياراً، قائد سرب الطائرات. تم تسريحه من الخدمة ووضعه في الاحتياط. وعندما فقدت عملها، أعادت تأهيل نفسها على الفور، كانت مهندسة فأصبحت حلاّقة. وهو يجلس طيلة نهاره في البيت، ويشرب ويسكر من الاستياء والإهانة، يشرب لأنه، وهو الطيار الحربي الذي خاض حرب أفغانستان، عليه الآن أن يغلي العصيدة للأطفال. وها هو الاستياء عنده على الجميع. الغضب. راجع دائرة التجنيد، طلب التطوع للحرب حيثما كان، بمهمة خاصة، رُفض طلبه. فالطلبات كثيرة جداً. لدينا عشرات الآلاف من العسكريين العاطلين عن العمل، الذين لا يعرفون سوى الرشاش والدبابة، وهم غير صالحين لحياة أخرى. تضطر نساؤنا إلى أن يكنّ أقوى من الرجال. يتنقلن بحقائبهن المنقوشة في كل أنحاء العالم. من بولندا وحتى الصين.

يشترين ويبعن. ويتحملن أعباء البيت، والأولاد والوالدين الهرمين، وأزواجهن أيضاً... والبلاد. من الصعب شرح هذا لأحد ما آخر. بل من المستحيل. ابنتي تزوجت من إيطالي... اسمه سيرجو... وهو صحفي. عندما يأتون لعندي، نقيم هنا في المطبخ. حلقة نقاش. باللغة الروسية... حتى الصباح... سيرجو يعتقد أن الروس يحبون المعاناة، وهذه نزوة الروح الروسية. أما بالنسبة إلينا، فالمعاناة هي "معركة شخصية"، "طريق للخلاص". أما هم، الإيطاليون، ليسوا مثلنا، إنهم لا يرغبون في المعاناة، يحبون الحياة المعطاة للفرح وليس للمعاناة. وهذا ليس عندنا، نادراً ما نتحدث عن الفرح... عن أن السعادة هي عالم قائم بذاته. عالم مذهل! كم يحوي من الزوايا، والنوافذ والأبواب، وكلها في حاجة إلى مفاتيح. أما نحن فتجذبنا دوماً أزقة الكاتب الروسي بونين المظلمة. ها هما... قادمان مع ابنتهما من السوبر ماركت، هو يحمل الحقائب. في المساء يمكن لها أن تعزف على البيانو، وهو يحضر طعام العشاء. أما أنا فكل شيء كان عندي بطريقة أخرى: هو يأخذ الحقائب، وأنا آخذها منه: «أنا بنفسي، أنت غير قادر». يدخل إلى المطبخ: «مكانك ليس هنا، اذهب إلى مكتبك». كنت دوماً أضيء مع الضوء المنعكس.

مضى عام، وربما أكثر... كان عليه أن يأتي لعندي إلى البيت ليتعرف على الجميع. كنت قد حذرته من أن أمي إنسانة جيدة، أما ابنتي فمغايرة بعض الشيء... ليست مثل الجميع... ولا أضمن أنها ستستقبله بترحاب. آه! ابنتي آنكا... كانت تحمل كل شيء إلى أذنها: اللعبة، الحجر، الملعقة... يأخذ الأطفال كل شيء إلى أفواههم، أما هي فتأخذها إلى أذنها - كيف يُسمع صوتها! أنا بدأت بتدريسها الموسيقى منذ صغر سنها، لكنها طفلة غريبة، ما إن أضع أسطوانة على الحاكي حتى تدير ظهرها وتخرج. لم تكن تروقها أية موسيقى لأي كان، كان يهمها فقط الصوت

الموسيقى الصادر من داخلها. وها هو غليب يصل إلى البيت، كان مرتبكاً جداً، قص شعره بشكل غير موفق، وكان شعره قصيراً، لم يكن جميلاً بصورة مميزة. وأحضر معه أسطوانات. وبدأ يروي كيف أنه كان يمشي... وكيف اشترى هذه الأسطوانات... وآنكا حاسة السمع عندها مرهفة للغاية... فهي لا تسمع الكلمات، بل بطريقة أخرى... تسمع نغماتها... أخذت الأسطوانات على الفور: «يا لها من أسطوانات رائعة!». هذا ما حصل... بعد فترة قصيرة وضعتني في موقف محرج: «كيف يمكنني ألا أسميه بابا؟». هو لم يسعَ إلى أن يحوز على إعجابها، ببساطة، كان مهتماً بها. وظهر بينهما حب على الفور... حتى أنني شعرت بالغيرة، إنهما يحبان أحدهما الآخر أكثر مني. ثم أقنعت نفسي بأن لدي دوراً آخر... (تلوذ بالصمت). ها هو يسألها: «آنكا أنت تتلعثمين؟». «الآن، لا أتلعثم كثيراً، أما في السابق، كنت أتلعثم أكثر». لن تشعري بالملل معها. كان من الممكن تسجيل حديثها. إذاً: «كيف يمكنني ألا أسميه بابا؟». نجلس في الحديقة... ابتعد غليب لشراء السجائر وعاد: «ما هو موضوع الحديث؟». غمزتُ آنكا كي لا تقل، فهو سخافة على أقل تقدير. فقالت: «إذاً، أنت قولي له». وماذا بقي؟ سأعترف له: إنها تخشى ألا تدعوك خطأ بابا. فقال: «المسألة طبعاً ليست بسيطة، ولكن إذا كنت ترغبين جداً فسميني». «ولكن كن حذراً»، قالت آنكا بصوت جاد، «لدي أب آخر، لكنه لا يعجبني، وأمي لا تحبه». هكذا أنا وآنكا دوماً. نحرق الجسور. وفي طريق العودة إلى البيت، اتفقنا وأصبح بابا. كانت تركض وتصرخ: «بابا! بابا!». وفي اليوم التالي، أعلمت الجميع في روضة الأطفال: «بابا يعلمني القراءة». «ومن هو أبوكِ؟». «اسمه غليب». وبعد يوم واحد حملت صديقتها خبراً من بيتها إلى الحضانة: «آنكا، أنت تكذبين، ليس لديك أب. وأبوك هذا ليس أباك الحقيقي». «لا، ذاك لم يكن أبي الحقيقي، وهذا أبي الحقيقي». من

العبث الجدال مع آنكا، فقد أصبح غليب «بابا»، أما أنا؟ أنا لست زوجته بعد... لا...

عندي إجازة... أسافر من جديد. يركض غليب خلف عربة القطار ويلوح طويلاً بيده مودعاً. وفي القطار تبدأ عندي قصة حب. يتوجه مهندسان شابان من خاركوف إلى سوتشي، مثلي أنا. يا إلهي! أنا شابة! البحر. الشمس. نسبح، نتبادل القبل، نرقص. أشعر بسهولة وبساطة، لأن العالم بسيط، تشا- تشا- تشا كازاتشوك وانتهى- وأنا على طبيعتي. يحبونني... يحملونني على راحاتهم... يحملونني على أيديهم في الجبال ساعتين... عضلات فتية، ضحكة شباب. شعلة النار حتى الصباح... أحلم حلماً... السقف ينفتح. والسماء زرقاء... أرى غليب... أذهب معه إلى مكان ما. نسير على شاطئ البحر، وهناك حصاة كبيرة لم تشذبها الأمواج، وأحجار حادة، كالمسامير. أنا أسير مرتدية حذائي، وهو حاف، يشرح لي: «بالسير حافي القدمين صوت الحصى أعلى». لكنني أعرف، إنه يشعر بالألم. وبسبب الألم بدأ يرتقي... يتبخر فوق الأرض... أراه طائراً، لكن يديه، لسبب ما، مطويتان، كما لدى الميت... (تتوقف). يا إلهي! أنا مجنونة... يجب عليَّ ألا أعترف لأحد... في أغلب الأوقات لدي إحساس، أنني سعيدة في هذه الحياة... سعيدة! ذهبت إليه في المقبرة... أتذكر، إنني أمشي. أشعر أنه هنا على مقربة. وإحساس حاد بالسعادة، بودي أن أبكي من هذه السعادة. أن أبكي. يقولون إن الموتى لا يزوروننا. لا تصدقي.

تنتهي الإجازة، وأعود. يرافقني المهندس إلى موسكو نفسها. أعِدُ بأن أحدث غليب بكل شيء... أحضر لعنده... على طاولته كان هناك تقويم، مُسوَّد كله، ورق الجدران في المكتب كُتب عليه كله، وحتى على الصحف التي كان يقرأها، في كل مكان كتب عليه ثلاثة أحرف فقط، أحرف كبيرة،

صغيرة، طباعية، بخط اليد. عدة نقاط... عدة نقاط... أساله: «ما هذا؟». فسرها لي قائلاً: «يبدو أنها النهاية». وهكذا افترقنا، ولكن يجب شرح هذا لابنتي آنكا بشكل ما. حضرنا لنأخذها معنا، فكانت تريد أن ترسم قبل أن تخرج من البيت! ولم تلحق أن ترسم، تجلس في السيارة وتنوح. أما هو فقد اعتاد أنها مجنونة على هذا النحو، لكنه كان يرى أن هذه موهبة عندها. لقد كان مشهداً عائلياً: آنكا تبكي، وهو يهدئها، وأنا بينهما... ينظر إليَّ على هذا النحو طويلاً... وأنا... لقد كانت هذه دقيقة واحدة... ثانية... أنا أدرك: إنه إنسان وحيد منعزل، بصورة جنونية. بصورة جنونية! و... أنا سأتزوجه... عليَّ أن أتزوجه... (بكت). أية سعادة أننا لم نفترق. ولم أمرَّ مرور الكرام. يا لها من سعادة! لقد أهداني حياة كاملة! (تبكي). إذاً، سأتزوج... إنه يشعر بالرعب، إنه يخاف، لأنه كان قد تزوج مرتين. كانت زوجتاه تخونانه، كانتا تتعبان معه... ولا يصح تحميلهما أي ذنب... فالحب أشغال شاقة. أما بالنسبة إليَّ فهو عمل. تزوجت من دون عرس، ومن دون فستان العرس الأبيض. كل شيء كان متواضعاً. بينما كنت أحلم دوماً، أنه سيكون عندي عرس وفستان أبيض، وسأرمي من الجسر في الماء باقة من الورد. تلك كانت أحلامي.

كان لا يحب عندما تُطرح عليه الأسئلة... كان عنده شيء شبيه بالتبجح... كي يكون هذا مضحكاً... شيء من المعتقل، وإخفاء كل ما هو جاد خلف هذا المظهر. شريحة مغايرة. على سبيل المثال، كان يصغِّر كلمة "حرية" دوماً ولا ينطقها كما الآخرين. في دقائق نادرة... كان يروي بطريقة لذيذة، مستهترة... أنا، ببساطة، كنت أشعر بفرحته التي كان يحملها من هناك: كيف وجد قطعتين من إطار العجلات، وربطهما على جزمته اللبادية، وتم نقلهم إلى معتقل آخر، وفرح كثيراً لوجود قطعتي الإطار

لديه. أحضروا لهم، في مرحلة ما، نصف شوال من البطاطا، وعندما أصبح حراً حيث كان يشتغلون بالأشغال الشاقة، أعطاهم شخص ما قطعة كبيرة من اللحم. وليلاً، في غرفة المرجل، حضّروا حساء: «تعرفين، كم كان هذا الحساء لذيذاً! رائعاً!». وعند إطلاق سراحه حصل على تعويض عن والده. وقالوا له: «علينا أن نسدد لك قيمة الكوخ والأثاث»... وحسبوا له مبلغاً كبيراً من المال. اشترى لنفسه بذلة جديدة، وقميصاً جديداً، وحذاءً جديداً، واشترى كاميرا وذهب إلى أفضل مطعم في موسكو "ناسيونال"، وطلب أغلى المأكولات، وشرب الكونياك مع الكعكة الجيدة. وفي النهاية، عندما شبع، طلب من أحدهم أن يصوره في أسعد لحظات حياته هذه. وكان يتذكر قائلاً: «أرجع إلى شقتي، حيث كنت أسكن، أدرك في نفسي، أنني لا أشعر بالسعادة. بهذه البذلة والكاميرا... لماذا لا وجود للسعادة؟ استرجع في ذاكرته قطعتي الإطار، وذاك الحساء في غرفة المرجل، هناك كانت سعادتي». وحاولنا أن نفهم... أين تقيم هذه السعادة؟ كان لا يمكنه أن يضحي بمعسكر الاعتقال بأي ثمن كان... ولا أن يستبدله بأي شيء كان... هناك كان كنزه السري، وثروته. لقد مكث في المعسكر من السادسة عشرة من عمره وحتى الثلاثين تقريباً... احسبي... كنت أسأله: «وماذا لو لم يعتقلوك؟». كان ينبذ هذه الفكرة قائلاً: «لكنت غبياً ولركبت سيارة سباق حمراء. من أحدث السيارات الدارجة». فقط في أواخر أيامه... في نهاية حياته... عندما كان راقداً في المستشفى... تحدث للمرة الأولى معي بصورة جادة: «الحياة مثلها مثل المسرح. من الصالة تشاهد حكاية جميلة، والممثلين الرائعين، والأنوار السرية، ولكن عندما تجد نفسك وراء الكواليس... وراء الكواليس مباشرة، بقايا من الألواح الخشبية، وقطع القماش، ولوحات مرمية لم تكتمل رسومها... وزجاجات الفودكا الفارغة... بقايا الطعام... لا وجود لأية حكاية.

الظلمة... الأوساخ المرمية... اقتادوني مرة إلى ما وراء الكواليس... أتفهمين؟».

رُمي به إلى اللصوص... صبياً... ماذا كان هناك؟ لا أحد يعرف أبداً...

جمال الشمال الذي لا يوصف! الثلج الأبكم... والضوء الصادر عنه حتى في الليل... وأنت حيوان عامل. يدسون بك في الطبيعة، ويعيدونك إلى الوراء إلى مكان ما. وقد سمى هذا بـ"التعذيب بالجمال". أما مَثَله المفضل: «لقد أبدع الخالق بخلق الورود والأشجار أكثر من إبداعه بخلق الناس».

أما عن الحب... وكيف أَحبَّ للمرة الأولى... كانوا يعملون في الغابة. اقتادوا على الطريق طابوراً من النساء. عندما رأت النساء الرجال، توقفن ولم يبرحن مكانهن. كان قائد الحرس يصرخ: «هيا إلى الأمام! إلى الأمام!» والنساء واقفات. «إلى الأمام، كـ... س أمهاتكم!». «أيها المواطن القائد، اسمح لنا بالرجال، لا يمكننا الصبر أكثر. سوف نصرخ ونعوّي!». «ماذا بكن؟ هل أصبتن بالسعار، بداء الكلب! بالسأم!». يقفن مكانهن: «لن نتحرك إلى أي مكان». أمر القائد: «نصف ساعة لكنَّ. تفرقنَ!». في لحظة واحدة تناثر الطابور في كل مكان. لكنهن رجعن في الوقت المحدد. بالضبط. عدن سعيدات (تصمت). أين تعيش هذه السعادة؟

هناك كان يكتب الشعر. أحدهم وشى به لقائد المعسكر: «إنه يكتب الشعر». استدعاه القائد إلى مكتبه: «اكتب لي رسالة غرامية شعراً». كان يتذكر أن القائد طلب منه ذلك واستحى. كانت محبوبته تقطن بعيداً في الأورال.

عاد إلى بيته بالقطار في الرف العلوي. أسبوعين استمرت رحلته بالقطار. في كل أنحاء روسيا. كان طيلة هذه الفترة راقداً في رفه العلوي، كان يخاف من النزول إلى الأسفل. ليلاً كان ينزل ليدخن سيجارة: كان

خوفه من أن يضيِّقه رفاق الطريق بشيء ما، فيبكي. ويدور الحديث معهم. ويعرفون أنه قادم من المعسكر... استقبله أقرباؤه البعيدون من جهة والده. كانت عندهم فتاة صغيرة. عانقها، فبكت. كان فيه شيء ما... كان إنساناً وحيداً إلى حد الجنون... ومعي أيضاً... أنا أعرف: معي أيضاً...

أخذ يعلن الآن للجميع بفخر: «لدي أسرة». كان كل يوم يشعر بالدهشة من الحياة الأسرية الطبيعية، وكان بهذا يفتخر كثيراً. لكن الخوف... الخوف عنده على أية حال... لم يستطع العيش من دونه. من دون الخوف. كان يستيقظ في الليالي والعرق الشديد يغطيه: أن لا ينهي الكتاب (كان يكتب كتاباً عن أبيه)، أن لا يحصل على طلب جديد للترجمة (كان مترجماً تقنياً عن اللغة الألمانية)، أن لا يتمكن من إطعام أسرته. فجأة قد أتركه... كان الخوف يسيطر عليه أولاً، ومن ثم الخجل من هذا الخوف. «غليب، أنا أحبك. إذا ما رغبت في أن أرقص في الباليه من أجلك فسأفعل... أنا قادرة على كل شيء من أجلك». في المعسكر بقي حياً، أما في الحياة العادية، إذا ما أوقف شرطي سيارة يركبها يمكن أن يؤدي هذا به إلى سكتة قلبية... أو إذا ما تلقى اتصالًا من إدارة المنازل... «فكيف بقيت حياً هناك؟». «كنت محبوباً جداً في طفولتي». تنقذنا كمية الحب التي تلقيناها. إنها هي احتياطي القوة والثبات عندنا. فالحب وحده... هو الذي ينقذنا. إن الحب هو ذلك الفيتامين الذي لا يقدر الإنسان من دونه على الحياة، فيتخثر دمه، ويتوقف قلبه. أنا كنت ممرضة... ومربية... وممثلة... كنت كل هؤلاء.

كنا سعيدي الحظ، هذا ما أعتقده... كان زمناً مهماً... البيريسترويكا! كان لدينا بالطبع، إحساس بالعيد. كان يبدو لنا بأننا قريباً سنحلق في السماء. كانت الحرية متدفقة في الهواء. «غليب، هذا الوقت وقتك! يمكنك أن تكتب كل شيء. وأن تطبع وتنشر». هذا الوقت كان بادئ ذي بدء، وقتهم...

وقت جيل الستينيات... وكان انتصاراً لهم. لقد رأيته سعيداً: «لقد عشت حتى الانتصار الكامل لمعاداة الشيوعية». لقد حدث الشيء الأهم، الذي كان يحلم به: سقطت الشيوعية. الآن يزيلون النصب التذكارية البلشفية وضريح لينين من الساحرة الحمراء، ولن تحمل الشوارع أسماء القتلة والسفاحين... إنه زمن الآمال العريضة! جيل الستينيات، ومهما قالوا عنهم اليوم، أنا أحبهم جميعاً. سُذّج؟ رومانسيون؟ نعم! كان يقرأ الصحف أياماً كاملة. كان يذهب صباحاً إلى كشك الصحف قرب بيتنا. يحمل حقيبة كبيرة. يصغي إلى الراديو ويتابع التلفزيون. إلى أقصى الحدود. آنذاك، كلنا كنا مجانين على هذا الشكل. الحـُ... ـر... ـيّة! هذه الكلمة ذاتها كانت تُسكِرنا. جميعنا كبرنا على الكتب المحظورة المنسوخة على الآلة الكاتبة أو الصادرة في الخارج. لقد كبِرنا على الكلمة المحظورة. على الأدب! كما كنا نقول! كما كان الجميع يقول بروعة كبيرة! أنا أحضِّر طعام الغداء أو العشاء، هو يجلس على مقربة مني، ماسكاً الصحيفة، ويقرأ لي: «قالت سوزان زونتاغ: الشيوعية - هي فاشية بوجه إنساني... وأيضاً... أيضاً اسمعي»... قرأت معه بردياييف... هاييك... كيف كنا نعيش سابقاً من دون هذه الصحف والكتب؟ لو عرفنا هذا كله سابقاً... لتغير كل شيء... للكاتب جاك لندن قصة حول هذا الموضوع: يمكن العيش في قميص الإذعان، ولكن لا بد من أن ننضغط، ونقمع أنفسنا ونعتاد. بل ويمكن حتى أن نحلم. هكذا عشنا. حسناً، فكيف سنعيش الآن؟ لم أكن أعرف كيف؟ لكنني كنت أتصور أننا جميعاً سنعيش حياة جيدة. لم يكن عندنا أدنى شك... وبعد موته عثرت في يومياته على المذكرة التالية: «أعيد قراءة تشيخوف... قصة "الحذّاء والقوة الشيطانية" إنسان يبيع روحه للشيطان ويقايضها بالسعادة. فما هي السعادة حسب تصور الحذّاء؟ تلك هي، أن يركب في سيارة أجرة بثياب جديدة وبجزمة من جلد الكروم، وأن

تجلس إلى جانبه امرأة سمينة ضخمة الثديين، وأن يمسك بيده قطعة من لحم الخنزير، وفي يده الثانية قدحاً كبير من نبيذ الخبز. ولا شيء آخر»... (استغرقتْ في التفكير). كما يبدو، كانت عنده شكوك... لكنه كان ظامئاً متعطشاً إلى شيء جديد، طيب ومشرق، وعادل جداً. كنا نركض سعداء إلى جميع المسيرات والمظاهرات والاجتماعات... قبلها كنت أخشى الحشد. كان لدي انفصال عن الحشد، عن هذه المسيرات الاحتفالية، والرايات. أما هنا فكل شيء كان يروقني... حولي وجوه حميمة... لن أنسى أبداً هذه الوجوه! أشتاق إلى ذلك الزمن، وأعرف أن كثيرين يشتاقون إليه مثلي. أول رحلة سياحية معه خارج الاتحاد السوفييتي إلى برلين. اقتربت من مجموعتنا السياحية سيدتان ألمانيتان بعد أن سمعتا اللغة الروسية: «روس؟». «نعم». «بيريسترويكا! غوربي!». وبدأتا تعانقاننا. أفكر الآن: أين تلك الوجوه؟ أين أولئك الأشخاص الجميلون الذين رأيتهم في الشوارع في أعوام التسعينيات؟ وهل هاجروا جميعاً؟

عندما علمت أنه مصاب بالسرطان، استلقيت طيلة الليل والدموع تغطيني، وفي الصباح أسرعت إليه في المستشفى. جلسنا على قاعدة النافذة، كان مصفَّراً وسعيداً للغاية، كان دوماً يشعر بالسعادة عندما يتغير شيء ما في حياته. كان أولاً معسكر الاعتقال، ثم كان المنفى، ثم بدأت حرية الإرادة، وها هو ذا تغيير جديد... الموت بمثابة إحدى التغيرات... «أتخافين أن أموت؟». «أخاف». «لكن أولاً، لم أعدك بشيء. وثانياً، هذا لن يكون قريباً». «حقيقة؟». أنا، كعادتي، كنت أصدقه. فمسحت دموعي على الفور وأقنعت نفسي بأن عليَّ أن أساعده من جديد. ولم أعد أبكي... حتى النهاية لم أبكِ... دخلت صباحاً إلى قاعته، وهنا بدأت حياتنا من جديد، سابقاً كنا نعيش في البيت، أما الآن فنعيش في المستشفى. عشنا نصف سنة أخرى في مركز الأمراض السرطانية...

كان يقرأ أقل. ويحدثني أكثر...

كان يعرف من وشى به. صبي... كان عنده في الحلقة في دار الطلائع. إما بمبادرة منه، أو أُرغم على كتابة رسالة: كان يشتم الرفيق ستالين، مبرراً ذلك باعتقال أبيه باسم «عدو الشعب». أظهر له المحقق في أثناء التحقيق هذه الرسالة. طيلة حياته، كان غليب يخشى... ألا يعرف الواشي، إنه يعرف ذلك... عندما أخبروه، بأن ذلك الصبي قد تزوج ورُزق بابن معاق، شعر بالخوف... فقد يكون هذا انتقاماً ربانياً؟ وبالصدفة، حدث أننا أقمنا فترة من الزمن على مقربة منه، وكنا نلتقي غالباً في الشارع، وفي المخزن التجاري. ونتبادل التحية. مات غليب، وحدّثتُ صديقتنا المشتركة عن ذلك... فلم تصدق: «معقول؟ هذا غير ممكن، إنه يتحدث عن غليب دوماً بشكل جيد، وأنهما كان أصدقاء في الطفولة». أدركت أن عليّ أن ألوذ بالصمت. هذه المعرفة للإنسان خطيرة... كان يعرف هذا... كان من النادر أن يأتي لعندنا زملاؤه في المعتقل، لم يكن يبحث عنهم. وعندما كانوا يفدون إلى بيتنا، كنت أشعر بنفسي غريبة، لقد جاؤوا من هناك، حيث لم أكن هناك. كانوا يعرفون عنه أكثر مما أعرفه أنا. اكتشفت أن لديه حياة أخرى لا أعرفها... أدركت أن المرأة يمكنها أن تتحدث عن الإهانات التي لحقت بها، أما الرجل فلا يتحدث، وأن من الأسهل على المرأة الاعتراف، لأنها في أعماقها مهيأة للعنف، فحتى العملية الجنسية ذاتها... المرأة كل شهر تبدأ الحياة من جديد... هذه الدورات الشهرية... الطبيعة نفسها تساعدها في هذا. من بين النساء اللواتي سُجنَّ في المعتقل، ثمة كثير من الوحيدات. أنا لم ألتقِ إلا بالقليل جداً من الأزواج، اللذين كانا معاً، هو وهي، في المعتقل. كان هناك سر ما، يفرق بينهما ولا يوحِّد. كانت النساء يسمينني "المحبوبة"...

«هل تجدين متعة معنا؟». كان يسألني بعد خروج الضيوف من زملائه

في المعتقل. «ما هذا السؤال؟». كنت أشعر بالاستياء، أتعرفين ما الذي كنت أخشاه؟ عندما كان هذا ممتعاً، كان عندنا رقيب في الفمّ، أما الآن، حيث يمكننا أن نروي كل شيء، فقد تغير الزمن. وكأن ليس هناك من يسمع. ولا يقرأ. يسلِّمون الناشرين مخطوطات جديدة عن المعتقلات، فيعيدونها لأصحابها، دون أن يقرأوها: ثانية عن ستالين وبيريا؟ ليس مشروعاً تجارياً. فقد أُصيب القارئ بالتخمة.

اعتاد أن ينازع الموت... لم يكن يخشى هذا الموت الصغير... كان رؤساء فرق المساجين، السارقون، المعينون بالواسطة، يبيعون مخصصاتهم من الخبز، ويلعبون في القمار، ويطعمونهم القار الأسود، كانت المعدة تلتصق منه. أما غليب فتوقف عن اِلأكل، كان يقتصر على شرب الماء.

صبي من المعتقلين ركض هارباً... عن قصد ركض كي يطلقوا عليه النار... في الثلج... وتحت أشعة الشمس... الرؤية واضحة جداً. أطلقوا عليه النار في رأسه، ثم قيدوه بحبل، ووضعوه على مقربة من كوخنا - انظروا! بقي واقفاً هناك طويلاً... حتى فصل الربيع...

يوم الانتخابات... حفلة موسيقية في الدائرة الانتخابية. يغني كورس المعسكر. يقف المعتقلون السياسيون، والخونة، والعاهرات، والسارقون - وينشدون أغنية عن ستالين: «ستالين رايتنا! ستالين سعادتنا».

عند نقله من معتقل إلى آخر التقى فتاة. كانت تُحدثه كيف أن المحقق كان يقنعها لتوقيع بروتوكول: «ستذهبين إلى جهنم... لكنك جميلة، ستحوزين على إعجاب قائد ما. وهكذا تنقذين نفسك».

ربيعاً، كل الوضع رهيباً على نحو خاص. كل شيء في الطبيعة يتغير... كل شيء يبدأ بالحياة... الأفضل ألا تسألي أحداً كم بقي له من الزمن في

المعتقل. إن أية فترة زمنية في الربيع هي أبدية! الطيور تحلق، لا أحد يرفع رأسه. ربيعاً، لا ينظرون إلى السماء...

نظرتُ إلى الباب، كان يلوح بيده مودعاً. سأعود بعد بضعة ساعات، فقد الوعي. طلب شيئاً من أحد: «انتظر، انتظر». ثم توقف عن الطلب، وكان يكتفي بالرقود. بقي ثلاثة أيام. وقد اعتدت عليه. وها هو ذا يرقد، وأنا أقيم هنا. وضعوا لي سريراً إلى جانبه. ها هو اليوم الثالث... أصبح من الصعب إعطاؤه الحقن الداخلية... جلطات في الدم... كان عليَّ أن أسمح للأطباء بالتوقف عن الحقن، ولن يشعر بالألم، إنه لا يحس. وبقيت معه لوحدنا نحن الاثنان. بلا حقن، بلا أطباء، لم يعد أحد يدخل لعنده. كنت أرقد بقربه. شعرت بالبرد. استلقيت إلى جانبه تحت اللحاف وغفوت. استيقظت... لثانية واحدة رأيت في الحلم أننا نام عندي في البيت، فُتح باب الشرفة... ولم يستيقظ بعد... كان من الصعب عليّ أن أفتح عينيّ... فتحتهما، وتذكرت كل شيء... هنا بدأت أتقلب... أمسكت بيديه، «آخ..». سمعني. بدأت عنده سكرة الموت... وأنا كنت جالسة... كنت أمسك بيديه، سمعت آخر ضربات قلبه. بقيت طويلاً جالسة على هذا الشكل... استدعيت الممرضة، ساعدتني في إلباسه قميصه السماوي، لونه المفضل. سألتها: «هل يمكنني الجلوس؟». «نعم، تفضلي. ألا تخافين؟». ومن أي شيء أخاف؟ لقد كنت أعرفه... كما تعرف الأم طفلها... في الصباح أصبح جميلاً... اختفى من وجهه الخوف، وزال التوتر، وكل متاعبه الحياتية. ورأيت ملامحه الدقيقة الأنيقة. وجهه وجه أمير شرقي. هذا هو غليب! هكذا هو في الواقع! لم أكن أعرفه هكذا.

كان عنده رجاء واحد هو: «اكتبي على الحجر الذي سيرقد فوقي، أنني كنت إنساناً سعيداً. كانوا يحبونني. العذاب الأكبر عندما لا يحبونك».

(تلوذ بالصمت). تلك هي حياتنا القصيرة... لحظات! أنا أرى كيف تنظر أمي الهرمة مساء في الحديقة... وبأية عينين...

نجلس طويلاً صامتين.

لا يمكنني... لا أقدر على العيش من دونه... وما يزال الرجال يغازلونني. ويهدونني الورود.

في اليوم التالي رن جرس البيت بصورة مفاجئة.

طيلة الليل كنت أبكي... أتأوه من الألم... كنت دوماً أخرج... وأخرج... أهرب إلى جانب آخر. بصعوبة بالغة بقيت حية... وبالأمس عدت إلى هناك... أعادوني... كنت أمشي وضمادات الشاش تغطيني، أخذت أنزع الضمادات هذه، واتضح أنه لم يُشفَ شيء عندي. كنت أظن أن تحت هذه الضمادات قد ظهر جلد آخر، لم يظهر أي جلد. لم يختف أي قرح... كل شيء كما كان... أخاف أن أنقله لأحد ما. لن يتحمل أحد. لا يمكن تحمل هذا بيدين عاديتين...

قصة طفولة

ماريا فويتيشونَك - كاتبة، 57 عاماً

أنا مستوطنة. ولدت في أسرة ضابط بولندي منفي، مستوطن، حصل على أرض في كريسي الشرقية بعد انتهاء الحرب السوفييتية-البولندية في عام 1921. في عام 1939 تم ضم بيلاروسيا الغربية إلى الاتحاد السوفيتي (بموجب معاهدة التحالف مولوتوف - ريبنتروب السرية)، ونُفي آلاف المستوطنين البولونيين المستعمِرين مع أسرهم إلى سيبيريا باعتبارهم "عنصراً سياسياً خطيراً" حسب ما جاء في مراسلات بيريا-ستالين. تلك هي القصة الكبيرة، ولديَّ قصتي الصغيرة...

لا أعرف يوم ميلادي... ولا حتى سنة الولادة... كل شيء عندي تقريبي. لم أعثر على أية وثائق تخصني. أنا موجودة، وغير موجودة. لا أذكر شيئاً وأذكر كل شيء. أظن أن أمي رحلت مع المنفيين وهي حامل بي. لماذا؟ تقلقني دوماً صافرات القطارات... ورائحة النائمين... وبكاء الناس على محطات القطار... يمكنني أن أسافر وأركب القطار الفاخر ذا العلامة الشهيرة، ولكن ما إن يقرقع إلى جانبي قطار الشحن، حتى تظهر الدموع في عيني. أنا أعجز عن رؤية عربات الحيوانات وسماع أصوات قرقعتها... فقد نقلونا بهذه العربات. لم أكن قد رأيت النور. لكنني كنت موجودة. ليست عندي في أحلامي وجوه... أو موضوعات... جميع أحلامي تقتصر على الأصوات... والروائح...

إقليم آلتاي. مدينة زمينيغورسك، نهر زمييفكا... نقلوا المنفيين إلى خارج المدينة. عند البحيرة. أصبحنا نعيش على الأرض. في الخنادق. وُلدت تحت الأرض، وهناك ترعرعت. الأرض منذ طفولتي فيها رائحة بيتي. السقف يدلف، وتسقط كتلة تراب، سقطت وقفزت نحوي. كانت ضفدعاً. لكنني كنت صغيرة، ولم أكن أعرف من عليّ أن أخاف منه. أنام مع عنزتين، على حصيرة دافئة من جلد الماعز... أول كلمة سمعتها "مـااااع" وليس "ماما". أختي الكبرى فلادا كانت تتذكر، وهذا ما أدهشني، أن العنزات لا تتكلم مثلنا. يا لدهشتي! فقد كنت أظن أنها مثلنا. كان العالم بانوراما كاملة لا تتجزأ. وحتى الآن لا أشعر بهذا الفرق بيننا، بين الناس والحيوانات. كنت دوماً أتكلم معها... وهي تفهمني... أما الجعلان والعناكب... فكانت أيضاً إلى جانبي... كانت جعلاناً ملونة زاهية. إنها لُعبي. في الربيع، كنا معاً نتنقل إلى الأماكن المشمسة، ونزحف على الأرض، ونبحث عن الطعام. كنا نشعر الدفء. أما في الشتاء فكنا نخفت، كالأشجار، ونستسلم للنوم من الجوع. كانت لدي مَدْرستي الخاصة، كنت

أتعلم، ليس من الناس وحدهم. كنت أسمع صوت الأشجار والأعشاب. أكثر ما كان يمتعني هي الحيوانات، إنها ممتعة فعلاً. وكيف يمكنني الانفصال عن هذا العالم... عن تلك الروائح؟ لا يمكنني ذلك. أخيراً ظهرت الشمس! حلَّ الصيف! أنا في الأعلى... من حولي الجمال طاغ، ولم يكن هناك من يُعِدُّ لأحد طعاماً. وكل شيء يصدر أصواتاً، وكل شيء زاه بالألوان. أتذوق كل عشبة، وكل ورقة... وكل وردة... وجميع الجذور... أكلت كثيراً من نبات البنج، وكدت أن أموت. لوحات كاملة في ذاكرتي... أذكر جبل اللحية الزرقاء والضوء الأزرق على هذا الجبل... الإضاءة... كان الضوء الأزرق يأتي من الجانب الأيسر بالذات، من سفح الجبل. كان يسير من الأعلى إلى الأسفل... كم كانت هذه المشاهد جميلة! أخشى أن موهبتي لا تكفي لوصفه... لإحيائه. فالكلمات هي مجرد إضافات على هذه الحالة، لمشاعرنا. شقائق النعمان الحمراء، أزهار الزنبق والسوسن، مارين الجذر... كل هذا كان يمتد أمام العينين، وتحت الأقدام. أو لوحة أخرى... أجلس قرب بيت ما. تزحف بقعة الشمس على الجدار... وبألوان مختلفة... تتبدل ألوانها باستمرار. وأجلس طويلاً في مكاني. ولولا هذه الألوان الزاهية لربما كنتُ فقدت الحياة، ولم أكن لأبقى حية. لا أذكر ماذا كنا نأكل... وما إذا كان لدينا طعام مما يأكله البشر...

في المساء كنت أرى كيف كان يسير أناس سود. بلباس أسود ووجوه سوداء. إنهم المنفيون، كانوا عائدين من المناجم... جميعهم كانوا يشبهون أبي. لا أعرف، هل كان أبي يحبني. وهل كان يحبني أحد ما؟

ذكرياتي قليلة جداً... كانت الذكريات تنقصني. أبحث في الظلام، وأسعى لاستخراجها من هناك. نادراً... نادراً جداً أن أتذكر شيئاً ما، مما لا أذكره. أشعر بالمرارة لكنني سعيدة. آنذاك أكون سعيدة جداً.

لا أستطيع تذكر شيء عن فصل الشتاء... في الشتاء كنت أجلس في

الكوخ الترابي طيلة اليوم. كان النهار مشابهاً للمساء. كل شيء يبدو وكأنه في الغسق. دون أية بقعة ملونة... هل كانت عندنا أشياء ما عدا عن القصعات والملاعق؟ ليست هناك أية ملابس... بحيث أن شيئاً ما من الملابس... كنا نتأرجح بأشياء من الخِرَق. دون أية بقعة ملونة... والأحذية... ماذا كان عندي من الأحذية؟ الجزمة المطاطية... أذكر الجزمات... كان عندي جزمة كبيرة وقديمة، كما عند أمي. وربما هي لأمي... في دار الأطفال أعطوني أول معطف وأول قفازات. وقبعة. أذكر في الظلمة كان بالكاد يلمع وجه أختي فلادا... أياماً كاملة كانت ترقد وتسعل، فقد مرضت في المناجم، أُصيبت بمرض السل. كنت أعرف هذه الكلمة... لم تكن أمي تبكي... لا أذكر أنها كانت تبكي، كانت تتكلم قليلاً، ثم يبدو أنها توقفت عن الكلام. عندما كانت سعلتها تخف، كانت فلادا تناديني: «كرري ورائي... هذا بوشكين». أكرر: «الصقيع والشمس، يوم رائع! وأنت ما زلت غافياً أيها الصديق الرائع!». وأتصور في نفسي الشتاء. كما هو عند بوشكين.

أنا عَبْدة الكلمة... أثق بالكلمة ثقة مطلقة... دوماً أنتظر الكلام من الإنسان، ومن الإنسان الذي لا أعرفه أيضاً، بل أنتظره من الذي لا أعرفه أكثر. يمكن أن أشعر بالأمل من الإنسان الغريب. وكأنني نفسي أود أن أتكلم... وأقرر... أنا جاهزة. وعندما أبدأ بالحديث مع شخص ما، ثم في الموضع نفسه، الذي كنت أتحدث عنه، لا أجد أي شيء. هناك فراغ، وأنا أفقد هذه الذكريات. ثمة هوة للحظة واحدة. وعليَّ أن أنتظر طويلاً كي تعود. ولهذا أصمت. إنني أعالج كل شيء في نفسي. المسارات والمتاهات، والجحور...

قصاصات... من أين جاءتني هذه القصاصات والقراضات؟ بألوان مختلفة، وكثير منها باللون القرمزي. أحد ما أحضرها إليَّ. من هذه

القصاصات كنت أخيط دُمىً بأشكال أشخاص صغار، كنت أقص شعري، وأعمل لها تسريحات من شعري. هؤلاء كانوا أصدقائي... لم أرَ هناك دمى، ولم أكن أعرف شيئاً عن الدمى. كنا آنذاك نعيش في المدينة ولكن ليس في بناء، بل في قبو. نافذة واحدة دون إطلالة. ولكن آنذاك أصبح لدينا عنوان: شارع ستالين، البناء رقم 17. كما هو لدى الآخرين... كما هو لدى الجميع... لقد أصبح لدينا عنوان. هناك كنت ألعب مع فتاة واحدة... هذه الفتاة لم تكن من القبو، بل من الشقة. كانت ترتدي الفساتين والأحذية. أما أنا فكنت أرتدي جزمة أمي المطاطية... أحضرت لها هذه القصاصات وعرضتها عليها، في الشارع كانت تبدو أكثر جمالاً مما هي في القبو. أخذت ترجوني أن أعطيها إياها، وأن تستبدلها بشيء ما. فرفضت نهائياً. جاء أبوها: «لا تصاحبي هذه البنت المتسولة». أدركت بأنه دفعني. كان عليَّ أن أذهب بهدوء، أن أغادر هذا المكان بسرعة. بالطبع هذه كانت كلمات راشدين وليس كلمات أطفال. لكن شعوري... أذكر شعوري آنذاك... تشعرين بكثير من الألم، أنه لم يعد هناك تجاه نفسك استياء أو شفقة، وأصبح لديك فجأة كثير من الحرية. ولكن ليست لديك شفقة تجاه نفسك... عندما تشعرين بالشفقة فالإنسان لا يكبت كثيراً في نفسه، فهو لم يبتعد بعد عن الناس. أما إذا كان قد ابتعد، فلا حاجة لديه إلى الناس، ويكفيه ما كبته في نفسه. لقد تأثرت كثيراً وأخفيت هذا بعمق في نفسي... من الصعب إثارة استيائي، ولا أبكي إلا نادراً. أشعر بالضحك من جميع المصائب العادية، ومن المظالم النسائية... إنها بالنسبة إليَّ مشهد... مشهد من الحياة... ولكن إذا ما سمعت طفلاً يبكي... لا أمرُّ مرور الكرام أبداً من أمام الفقير والمتسول... أبداً. فأنا أذكر هذه الرائحة، رائحة الفقر والمصيبة... وأية أمواج تأتي، ما زلت حتى الآن مشاركة فيها. إنها رائحة طفولتي، وأقمطتي.

أسير مع أختي فلادا... نحمل وشاحاً ناعماً... شيء جميل بالنسبة إلى عالم آخر. طلبية جاهزة. كانت فلادا تعرف حياكة الصوف، وكنا نعيش على ما تتقاضاه. سددت لنا المرأة أجرة الحياكة، ثم قالت: «تعالا لأقطف لكما زهراً». كيف؟ باقة من الزهور؟ تقف متسولتان، بثوبين باليين من الأكياس... جائعتين، مرتجفتين من البرد... وتهدينا باقة ورد! نحن كنا نفكر في الخبز وحده، وهذه المرأة حزرت بأننا قادرتان على التفكير في شيء آخر. كنتِ مغلقةً على نفسكِ في كوخ، وفُتحت لك نافذة صغيرة... فتحوها فتحة كاملة... واتضح أنه علاوة على الخبز... علاوة على الطعام... يسمح لنا أيضاً بباقة من الزهور! يعني أننا لا نختلف بشيء عن الآخرين. نحن... مثلهم... كان هذا خرقاً للقواعد: «تعالا لأقطف لكما زهراً». لن أقطف، لن أجمع، بل أزين بها حديقتي. منذ تلك اللحظة، كان هذا مفتاحي... أُعطيت مفتاحاً... وهذا ما قلبني رأساً على عقب... أذكر باقة الزهر هذه... باقة كبيرة من زهر الكوزمو... أغرسها دوماً الآن في بيتي الريفي (كنا نجلس بالذات في بيتها الريفي، تنمو فيها الأزهار والأشجار وحدها). سافرت منذ فترة قصيرة إلى سيبيريا... إلى مدينة زمينيغورسك... عدت إلى هناك... بحثت عن شارعنا... بيتنا... قبونا... لكن لا وجود للبيت، فقد تم هدمه. كنت أسأل الجميع: «وهل تذكرون؟». تذكَّر شخص كبير السن، أي نعم، في القبو كانت تسكن فتاة جميلة، كانت مريضة. إن الناس يتذكرون الجمال أكثر من المعاناة. وقد أهدتنا المرأة باقة الزهر لأن فلادا جميلة.

ذهبت إلى المقبرة... عند البوابة كان هناك كوخ للحراسة بنوافذ محمية بأسلاك. قرعت الباب طويلاً. ظهر الحارس، كان أعمى... ما هذه العلامة؟ «قل لي أين كانوا يدفنون المنفيين؟». «آه... هناك» ولوح بيده إلى الأعلى أو إلى الأسفل. اقتادني بعضهم إلى الزاوية الأبعد... كان هناك

التراب وحده... التراب وحده... لم أستطع النوم ليلاً، لأنني كنت ألهث. من التشنجات... كنت أشعر كأن أحداً كان يخنقني... هربت من الفندق إلى المحطة. سيراً على الأقدام عبر المدينة كلها. كانت المحطة مغلقة. جلست على القضبان الحديدية وانتظرت حتى الصباح. كان يجلس على المنحدر شاب وفتاة يتبادلان القبل. ظهر ضوء النهار. جاء القطار. عربة فارغة... ندخل: أنا وأربعة رجال في سترات جلدية، حليقو الذقون، يشبهون المجرمين. بدؤوا يضيِّفونني خياراً وخبزاً. «سنلعب بالورق؟». لم أشعر بالرهبة.

منذ فترة بدأت أتذكر... كنت في الترولي... كيف كانت فلادا تغني: «كنت أبحث عن قبر حبيبتي/ ولكن ليس من السهل العثور عليه...». وتبين أنها كانت أغنية ستالين المفضلة... عندما كانوا ينشدونها، كان يبكي... فشعرت على الفور بنفور منها، من هذه الأغنية. كانت صديقة فلادا تزورها... تدعوها إلى الرقص. أذكر هذا كله... كنت في السادسة أو السابعة من عمري... كنت أرى كيف كن يربطن الكلاسين بشريط بدلاً من المطاط. بحيث لا تنقطع... هناك بعض المنفيين... المساجين كانوا يقتلونهم غالباً. كنت أعرف الحب أيضاً. كان يتردد على فلادا شاب جميل، عندما كانت تمرض، كانت ترقد على بعض الخرق، وكانت تسعل. وكان ينظر إليها نظرة مليئة بالحب...

هذا يؤلمني، لكن هذا يخصني. ولا يمكنني أن أهرب منه... لا يمكنني القول إنني أخذت بكل شيء، بفضل هذا الألم، لكنني في حاجة إلى كلمة ما أخرى. لن أعثر عليها الآن. أعرف أنني في هذه الحالة بعيدة عن الجميع. أنا وحيدة. عليَّ أن أمسك بالمعاناة بيدي وأتحكم فيها وأخرج منها، حاملة معي شيئاً ما منها. إن هذا هو الانتصار، وفي هذا معناه. أنتِ لست بأيدٍ فارغة... وإلا علامَ كان الانحدار إلى الجحيم؟

ها هو ذا أحدهم يقتادني إلى النافذة: «انظري، إنهم ينقلون والدك»... كانت امرأة لا أعرفها تجر شخصاً أو شيئاً ما على الزلاجة... مغطىً بلحاف ومربوطاً بحبل... بعد ذلك، أنا وأختي دفنا والدتنا. بقينا نحن الاثنتان. فلادا كانت تمشي بصورة سيئة، كانت قدماها تمنعانها من السير. وجلدها أصبح رقيقاً كالورقة. أحضروا لها زجاجة... كنت أظن أنها دواء، لكنها كانت نوعاً من الحمض. سم. «لا تخافي»... نادتني وأعطتني الزجاجة. كانت تريد أن ننتحر نحن الاثنتان معاً. أخذت الزجاجة... ركضت ورميتها في الموقد. فانكسرت الزجاجة... كان الموقد بارداً، فلم نطبخ شيئاً منذ زمن. بكت فلادا: «أنت مثل أبيك». عثر علينا أحدهم... ربما صديقاتها؟ كانت فلادا ترقد دون وعي... نقلوها إلى المستشفى، وأنا نقلوني إلى دار الأطفال. أبي... أريد أن أتذكره، ولكن مهما حاولت، لا أرى وجهه، وجهه ليس محفوظاً في ذاكرتي. بعد ذلك رأيته شاباً، في الصورة الفوتوغرافية عند عمتي... حقيقة... أنا أشبهه... وهذه صلتي به. أبي تزوج من فتاة ريفية جميلة. من أسرة فقيرة. أراد أن يجعل منها سيدة، لكن أمي كانت تضع فوق رأسها دوماً منديلاً وتنزله قريباً من حاجبيها. ليست ابنة ملاك. في سيبيريا لم يعش أبي طويلاً معنا... فقد ذهب وعاش مع امرأة أخرى... وكنت قد وُلدت... لقد كنت عقوبة! لعنة! لم يكن هناك قوة لدى أحد ما ليحبني. ولدى أمي كذلك؛ لم تكن عندها هذه القوة. وقد تبرمج هذا في خلاياي: يأسها، إهانتها... وانعدام الحب... ينقصني الحب دوماً، حتى عندما يحبونني، أنا لا أثق، أحتاج دوماً إلى براهين. إشارات. إنني في حاجة إليها كل يوم، كل دقيقة. من الصعب أن يحبني أحد... أنا أعرف... (تصمت طويلاً). أحب ذكرياتي... أحب ذكرياتي لأنها كلها حية هناك. هناك عندي كل شيء: ماما... بابا... فلادا... عليَّ أن أجلس حتماً خلف طاولة طويلة. بمفرش أبيض. أعيش وحيدة، ولكن عندي في المطبخ

طاولة كبيرة. فقد يكونوا جميعاً معي... قد أمشي وفجأة أكرر حركة أحد ما. ليست حركتي... قد تكون حركة فلادا... أو حركة أمي... يبدو لي أننا نتلامس بأيدينا...

أنا في مأوى الأطفال... في مأوى الأطفال كانوا ينشئون اليتامى أبناء النازحين المنفيين حتى الرابعة عشر من العمر، وبعد ذلك يرسلونهم إلى المناجم. وفي الثامنة عشر من عمري أصبت بمرض السل... مثل فلادي... إنه القدر، المصير. كانت تقول فلادا، هناك بعيداً لدينا بيت. لكنه بعيد جداً. هناك بقيت الخالة ماريليا، شقيقة والدتي... فلاحة أمية. كانت تمشي وتتسول. كان الغرباء يكتبون لنا رسائل. لا أفهم حتى الآن... كيف؟ كيف أمكنها ذلك؟ وصل أمر إلى ملجأ الأطفال: إرسالي أنا وأختي إلى عنوان معين؛ إلى بيلاروسيا. في المرة الأولى لم نصل إلى منسك، أنزلونا في موسكو من القطار. تكرر كل شيء: بدأت الحمى عند فلادا، فنقلوها إلى المستشفى، وأنا إلى العزل الصحي. ومن مركز العزل الصحي، إلى مكان الاستقبال والتوزيع. وهو بناء قبو تفوح منه رائحة الكلور. أناس غرباء... أنا دوماً أعيش بين أناس غرباء... طيلة حياتي. خالتي كانت تكتب... وتكتب... بعد نصف سنة عثرت عليَّ في مركز الاستقبال. من جديد، صرت أسمع كلمات "بيت"، "خالة"... اقتادوني إلى القطار... عربة مظلمة، ما عدا الممر. ظلال الناس. كانت معي المربية. وصلنا إلى منسك واشترينا تذكرتين إلى بوستافا... جميع هذه الأسماء أعرفها... كانت فلادا تطلب مني: «أنت احفظي. احفظي: عزبتنا سوفتشينو». من بوستافا ذهبنا سيراً على الأقدام إلى غريدكي... إلى قرية خالتي... جلسنا قرب الجسر لأخذ قسط من الراحة. وفي هذه الفترة وصل جارها من عمله في الوردية المسائية على الدراجة. سألنا من نحن. أجبناه أننا جئنا لعند الخالة ماريليا. فقال: «نعم، أنتما في الطريق الصحيح». ويبدو أنه قد قال

لخالتي إنه رآنا... فركضت لاستقبالنا... رأيتها وقلت: «إن هذه الخالة تشبه أمي». وهذا كل شيء.

حليقة الشعر بشكل كامل، أجلس على مقعد طويل في كوخ الخال ستاخ، شقيق والدتي. الباب مفتوح، من خلال الفتحة، أرى أن الناس يفدون ويفدون... يتوقفون ناظرين إليّ بصمت... لوحة فنية كاملة! لا يتكلم أحد مع الآخر. يقفون ويبكون. صمت مطبق. جاءت القرية كلها... كانوا يغطون سيل دموعي، كل منهم كان يبكي معي. جميعهم كانوا يعرفون أبي، وبعضهم كان يعمل عنده. وسمعت منهم غير مرة فيما بعد: «في الكولخوز كان يضعون "إشارات" على ما يأخذونه منا، أما آنتيك (أبي) فكان يسدد لنا الثمن دائماً». هذه هي تركتي. نقلوا بيتنا من القرية إلى عزبة الكولخوز الرئيسة، ولا يزال حتى الآن يستقر فيه المجلس الزراعي. أعرف كل شيء عن الناس، أعرف أكثر مما كنت أرغب. في اليوم نفسه، عندما نقل الجيش الأحمر أسرتنا على العجلة إلى المحطة، أخذ هؤلاء الناس... العمة أجبيت... جوزيف... العم ماتي من بيتنا كل شيء، كل إلى كوخه. ودمروا جميع البيوت الصغيرة. وأخذوا أخشابها. وحفروا الحديقة الصغيرة. أشجار التفاح. ركضت العمة... وأخذت أصيص الزهور من النافذة للذكرى... لا أريد أن أتذكر هذا. أطرده من ذاكرتي. أذكر كيف أن القرية كانت تنشئني وتربيني، وتحملني على الراحات. «تعالي إلينا مانتشكا، لقد جهزنا الفِطر»... «تعالي أسكب لك الحليب»... وصلت اليوم، وفي اليوم التالي تغطى وجهي بالبثور. كانت تسبب الحرقة في عيني. لم أستطع فتح جفوني. اقتادوني بيدي للحمام. كان يؤلمني كل جسمي، ويحرقني، كي أرى العالم بعينين أخريين. لقد كان هذا انتقالاً من تلك الحياة إلى هذه... والآن كنت أسير في الشارع، وكل من يراني كان

يوقفني: «يا لك من فتاة! آه، يا لك من فتاة!». ومن دون هذه الكلمات لكانت عيناي مثل عيني الكلب الذي انتزعوه من البئر. لا أعرف كيف كنت سأنظر إلى الناس...

كانت تعيش عمتي وعمي في بيت المؤونة. فقد احترق كوخهما في الحرب. جهزا بيت المؤونة، كانا يظنان مؤقتاً، وبقيا فيه. سقف من القش، نافذة صغيرة. كانت البطاطا في زاوية، وفي الزاوية الأخرى خنزير صغير يزعق. لم تكن هناك أية دفوف خشبية على الأرض- الأرض مغطاة بالأعشاب والقش. وسرعان ما جلبا فلادا إليهما. لم تعش طويلاً وتوفيت. كانت فرحة أنها تموت في بيتها. وكانت كلماتها الأخيرة: «وماذا سيحل بمانتشكا؟».

كل ما كنت أعرفه عن الحب، أعرفه من بيت المؤونة الذي كانت تسكن فيه عمتي...

كانت عمتي تناديني «يا فرختي... يا جعلي... يا نحلتي». كنت طيلة الوقت أتمتم وأبربر وأقلع. لم أكن أصدق... إنها تحبني! يحبونني! أنت تكبرين، ويتنعمون بالنظر إليك، تلك هي الرفاهية. تستوي جميع عظامك، وعضلاتك. كنت أرقص لها "الرقصة الروسية" و"التفاحة". فقد علموني هاتين الرقصتين في المنفى... كنت أغني «ثمة طريق في مسار تشويسك./ كثير من السائقين يعبرونه»... «أموت ويدفنوني في الأرض الغريبة/ وستبكي أمي العزيزة/ الزوجة تجد لها زوجاً آخر/ أما الأم فلن تعثر على ابنها»... أركض في اليوم كثيراً، بحيث تصبح قدماي زرقاوين، مشققتين، لم تكن هناك أية أحذية. تستلقين مساء للنوم، فتغطيك العمة بطرف قميص نومك، وتدفئهما. كانت عمتي تلفني كطفل صغير. ترقدين في مكان ما خلف بطنها... كما في الرحم... لهذا لا أذكر الشر... لقد نسيت الشر... إنه مخفي في نفسي في مكان بعيد... كنت أستيقظ صباحاً

على صوت عمتي: «لقد خبزت فطائر، ستأكلين». «عمتي، أريد أن أنام». «كلي ونامي». كانت تدرك أن الطعام والفطائر بالنسبة إليَّ كالدواء. الفطائر والحب. أما عمنا فيتاليك فكان راعياً، كان يحمل على كتفه سوطاً وأنبوباً من لحاء شجرة البتولا. كان يرتدي سترة عسكرية وبنطالاً. كان يحضر لنا من المرعى مخلاة تحوي الجبن وقطعة من شحم الخنزير، وكل ما كان أصحاب القطيع يضيِّفونه. يا للبؤس المقدس! لم يكن يعني شيئاً بالنسبة إليهم، ولم يلحق بهم إساءة أو إهانة. كم هذا مهم... قيّم بالنسبة إليَّ... صديقة لي تشكو: «ليس لدينا مال لشراء سيارة جديدة»... وتشكو أخرى: «طيلة حياتي كنت أحلم، ولم أشترِ لنفسي معطفاً من فرو المنك»... وكأنني أسمع من خلال زجاج... الشيء الوحيد الذي آسف عليه، أنني لم أعد الآن قادرة على ارتداء الميني جوب... (نضحك معاً).

كان لدى عمتي صوت غير عادي... خافق مضطرب، مثل صوت إيديت بياف... كانوا يدعونها إلى الغناء في الأعراس. وفي المآتم وعند الدفن. وكنت دوماً أذهب معها... أركض إلى جانبها... أذكر: ها هي ذي تقف طويلاً إلى جانب القبر... تقف طويلاً... وفي إحدى اللحظات تبتعد بطريقة ما عن الجميع، ثم تقترب أكثر. تقترب ببطء... إنها ترى أن لا أحد يستطيع أن يقول لهذا الإنسان المتوفى الكلمات الأخيرة. يريدون أن يقولوا شيئاً، ولكن لا يقدرون جميعهم. فتبدأ بالنوح: «إلى أين آنتشكا ابتعدت عنا؟ تركت النهار المضيء والليل... من سوف يمشي الآن في فناء بيتك... من سيقبِّل أطفالك... من سيستقبل مساء بقرتك؟»... تنتقي الكلمات بهدوء... كل كلماتها واقعية، بسيطة، لكنها سامية. حزينة. وفي هذه الكلمات البسيطة تظهر الحقيقة الأخيرة. النهائية. وصوت يضطرب ويرتجف... وإثرها يبدأ الجميع بالبكاء. وقد نسي الجميع أن بقرتها لم تُحلب كما يجب، وأن زوجها بقي سكِّيراً في البيت. تتبدل الوجوه، تبتعد

البهرجة، ويظهر النور على وجوههم. جميعهم يبكون. أنا أشعر بالخجل... وأشفق على عمتي... تعود إلى البيت مريضة: «آه، مانتشكا، رأسي يضج». لكن هكذا كان قلب عمتي... أركض من المدرسة... أمام النافذة الصغيرة، تمسك العمة بإبرة كبيرة بحجم الإصبع وترفو ثيابنا وتغني: «النار نطفئها بالماء/ الحب لا يمكننا إطفاؤه»... أنا أستنير بهذه الذكريات...

من عزبتنا... من بيتنا لم يبقَ سوى الأحجار. لكنني أستمتع بدفئها، أنجذب إليها. أذهب إلى هناك كما أذهب إلى القبر. يمكنني أن أمضي ليلتي هناك في السهل. أمشي بحذر، أخشى أن أدوس. لا وجود للإنسان، لكن الحياة قائمة. هدير الحياة... هدير الكائنات الحية المختلفة... أمشي وأخاف أن أهدم بيت أحد. أنا نفسي يمكنني أن أسكن حيثما كان، كالنملة. عندي تقديس للبيت. كي تنمو فيه الأزهار... ويكون جميلاً... أذكر، كيف كانوا في ملجأ الأطفال يقودونني إلى غرفتي، حيث سأعيش. أسِرّة بيضاء... أبحث بعينيّ: هل السرير المحاذي للنافذة مشغول؟ هل ستكون لدي خزانتي؟ أبحث، أين سيكون بيتي.

الآن... كم من الزمن نحن نجلس ونتحدث؟ خلال هذه الفترة بدأت العاصفة... جاءت الجارة... رن الهاتف... كل هذا كان يؤثر فيَّ، وأستجيب لهذا كله. أما على الورق فتبقى كلمات... ولا شيء غيرها: لن تكون الجارة، ولا رنين الهاتف... كان يحضر كل ما لم أقله، لكنه كان يخطر في ذاكرتي. غداً ربما، قد أتحدث عن كل شيء بطريقة أخرى. بقيت الكلمات، وأنا سأنهض وأتابع طريقي. تعلمت الحياة على هذا الشكل. أنا أقدر. أمشي وأذهب.

من الذي أعطاني هذا؟ كل هذا... هل الله أم الناس؟ لو أن الله أعطاني لعرف لمن يعطي. لقد كبرت مع المعاناة والآلام... وهذا هو إبداعي... هذه هي صلاتي. كم من المرات كنت أود أن أروي هذا كله لأحد ما! لقد

كنت أبوح. ولكن لم يسألني أحد مرة: «وماذا بعد... ماذا؟». طيلة وقتي كنت أنتظر الناس الطيبين أو السيئين، لا أعرف، لكنني دوماً أنتظر الناس. طيلة حياتي أنتظر أن يعثر عليَّ أحد ما وأروي له كل شيء... وسيسألني: «وماذا بعد؟». الآن بدؤوا يقولون: المذنب هو الاشتراكية... ستالين... وكأنه كانت لدى ستالين سلطة كما هي لدى الله. كان لكلٍّ ربه. لماذا كان يصمت؟ عمتي... قريتنا... أذكر أيضاً ماريا بتروفنا أريستوفا، المعلمة التي حازت على لقب الجدارة، التي كانت تزور فلادا في المستشفى بموسكو. امرأة غريبة... وهي التي نقلتها إلينا إلى القرية، حملتها على أيديها... لم تكن فلادا قادرة على السير أبداً... كانت ماريا بتروفنا ترسل إليها أقلام الرصاص والحلوى والسكاكر. وكانت تكتب لها الرسائل. وفي مركز الاستقبال والتوزيع، حيث حمموني، وطهروني من الجراثيم... على سقالة عالية... وكليّ رغوة... قد أقع، وأتحطم على الإسمنت. أتزحلق... أسقط... امرأة غريبة... ممرضة كانت تمسك بي وتضمني إلى صدرها: «أنت كتكوتتي الصغيرة».

لقد رأيت الله.

عن زمنٍ يحسب فيه كل من يَقتل أنه يخدم الرب

أولغا ف. – طبوغرافية، 24 عاماً

صباحاً. كنت أجثو على ركبتيّ... أجثو وأبتهل: «يا الله! يمكنني الآن! أريد الآن أن أموت!». على الرغم، من أنه الصباح... واليوم في بدايته...

إنها لرغبة قوية... في الموت! ذهبت إلى البحر. جلست على الرمل. كنت أقنع نفسي بألا أخاف من الموت. الموت هو الحرية... كان البحر يضرب الشاطئ بأمواجه... حل الليل، ثم أصبح الصباح من جديد. في المرة الأولى لم أقرر أي شيء. كنت أمشي وأمشي. كنت أصغي إلى صوتي: «يا إلهي، أنا أحبك! يا إلهي»... وباللغة الأبخازية: سارا بارا بزيا بزوي (أنا أحبك)... كم من الألوان والأصوات من حولي... وأنا أريد أن أموت.

أنا روسية. ولدت في أبخازيا وفيها عشت طويلاً. في مدينة سوخومي. عشت فيها حتى الثانية والعشرين من عمري. حتى العام الثاني والتسعين... إلى أن بدأت الحرب. إذا ما احترق الماء فكيف نطفئه؟ هكذا يقول الأبخازيون. هكذا يقولون عن الحرب... كان الناس يتنقلون في سيارات الباص نفسها، ويدرسون في المدارس نفسها، ويقرؤون الكتب نفسها، ويعيشون في بلد واحد، وكان الجميع يتعلمون اللغة الروسية. وهم الآن يقتل أحدهم الآخر: الجار جاره، التلميذ يقتل زميله في الصف. الأخ يقتل أخته! ويتحاربون هنا، بالقرب من بيوتهم... وكم من الوقت؟

قبل عام واحد... قبل عامين... كانوا يعيشون كالأخوة، وجميعهم كانوا شبيبين وشيوعيين. كنت أكتب في مادة التعبير المدرسية: "أُخوةٌ إلى الأبد"... "اتحاد راسخ لا يتزعزع"... أن تقتل الإنسان! هذه ليست بطولة وليست مجرد جريمة... إنها رعب فظيع! لقد كنت أرى هذا... يستحيل عليَّ الفهم... لا أفهم... سأحدثك عن أبخازيا... كنت أحبها كثيراً... (تتوقف). وما زلت أحبها الآن... على الرغم من كل شيء أحبها... على الجدار في كل بيت أبخازي يُعلّق خنجر. عندما يولد صبي أقاربه يهدونه خنجراً وذهباً. وإلى جانب الخنجر يُعلق على الجدار قرن للنبيذ. يشرب الأبخاز النبيذ من القرن، كما لو أنه كأس، لا يصح وضع القرن على الطاولة حتى تشربَ محتواه من النبيذ حتى الثمالة. وحسب العادات الأبخازية، لا يحسب الوقت الذي يمضيه الأبخازي مع ضيوفه على المائدة، لأن الإنسان كان يشرب النبيذ ويفرح. فكيف يحسب الوقت عندما يَقتل؟ ويطلق النار على الآخر... كيف؟ الآن أفكر كثيراً في الموت.

(تنتقل إلى الهمس) في المرة الثانية... لم أتراجع... أغلقت باب الحمام على نفسي... قلعت جميع أظافري حتى اللحم. كنت أخرمش نفسي، أضرب رأسي في الحائط، في الطين، في الكلس، ولكن في الدقيقة الأخيرة أردت الحياة من جديد. وانقطع الحبل... في النهاية، أنا بقيت حية، يمكنني أن ألمس جسمي. لكن ثمة شيء واحد... لا يمكنني التوقف عن التفكير فيه... إنه الموت.

عندما كنت في السادسة عشرة من عمري، توفي أبي. ومنذ تلك الأثناء أنا أكره مراسم الدفن... هذه الموسيقى... أنا لا أفهم، لماذا يمثلون هذه المسرحية؟ كنت أجلس على حافة القبر، وكنت أدرك آنذاك، أن هذا ليس أبي، لا وجود لأبي هنا. كان ثمة جسد بارد. جلد. كنت طيلة تسعة أيام أحلم بحلم... أحد ما كان يناديني... كان يدعوني إليه طيلة الوقت... ولم

أكن أفهم: إلى أين؟ لعند من؟ بدأت أفكر في أقاربي... كثير منهم لم أرهم ولم أعرفهم أبداً، جميعهم ماتوا قبل أن أولد. ولكن فجأة رأيت جدتي... توفيت جدتي منذ فترة طويلة، حتى أنه لم تبق عندنا صورتها، لكنني تعرفت عليها في الحلم. عندهم هناك كل شيء بطريقة مختلفة... كأنهم أحياء وكأنهم أموات، لا يغطيهم أي شيء، ونحن يغطينا جسدنا، وهم غير محميين بأي شيء. ثم رأيت أبي... كان أبي لا يزال مرحاً، لا يزال أرضياً، أعرفه كله. أما جميع الناس الآخرين فكانوا مختلفين... غريبين... وكأنني كنت أعرفهم، لكنني نسيتهم. الموت هو البداية... بداية شيء ما... لكننا لا نعرف بداية أي شيء... أفكر وأفكر. كان بودّي أن أنطلق من هذا الأسر، كنت أريد أن أختفي. بالأمس القريب... كنت أرقص صباحاً أمام المرآة: أنا جميلة، أنا شابة! سوف أشعر بالفرح! سوف أحب!

الأول... شاب روسي جميل... بجمال نادر! يقول الأبخاز عن أمثاله: «رجل أسرة». كان معفراً قليلاً بالتراب، في حذائه الرياضي وبذلته العسكرية. في اليوم التالي انتزعوا حذاءه منه. ها هو قتيل... وماذا بعد، ماذا هناك؟ في الأرض، ماذا؟ تحت أرجلنا... تحت نعالنا... هناك في الأسفل، أو في السماء... وماذا في السماء؟ ومن حولي الصيف، والبحر يضج. والزيزان. أرسلتني أمي إلى المخزن التجاري. وهو قتيل. تتنقل في الشوارع شاحنات محملة بالأسلحة، ويوزعون الرشاشات، كما يوزعون الخبز. لقد رأيت النازحين الهاربين، كانوا يبدون لي نازحين، وتذكرت هذه الكلمة المنسية، تذكرت من الكتب. كان هناك كثير من النازحين: بعضهم على السيارات، وبعضهم على الجرارات، ومنهم من كان يمشي سيراً على الأقدام... (تسكت). تعالي لنتحدث عن موضوع آخر؛ عن السينما مثلاً... أنا أحب السينما، ولكن تروق لي الأفلام الغربية. لماذا؟ ليس فيها أي شيء يذكّرني بحياتنا. وفيها يمكنني أن أخترع لنفسي ما أريد... أن أتخيل... وأن

أُلبس نفسي وجهاً آخر، لأنني مللت من وجهي. من جسدي... حتى من يديَّ... لا يعجبني جسدي، إنني محدودة جداً بهذا كله. لدي جسد واحد هو نفسه، دوماً جسدي نفسه، لكنني متغيرة، أنا أتغير... أنا نفسي أصغي لكلماتي وأفكر، أن من غير الممكن قول هذا، إنني لا أعرف هذه الكلمات، وذلك لأني غبية وأحب كثيراً الخبز مع الزبدة... لأنني لم أحب بعد. ولم أولِّد بعد. وأقول هذا... لا أعرف، لماذا؟ من أين هذا كله في ذاتي؟ شاب آخر... شاب جورجي... كان مستلقياً في الحديقة العامة. كان هناك منطقة رملية في مكان منها، وكان مستلقياً على الرمل. كان مستلقياً وينظر إلى الأعلى... لم ينقله أحد، لم يمسك به أحد فترة طويلة. أنا رأيته... وأُدرك، أن عليَّ الهرب إلى مكان ما... عليَّ الهرب... وإلى أين أهرب؟ هربت إلى الكنيسة... لم يكن فيها أحد. جثوت على ركبتي وصلّيت عن الجميع. آنذاك لم أكن قد تعلمت الصلاة، لم أتعلم بعد الحديث معه... (تبحث في حقيبتها). أين الحبوب؟ غير مسموح لي! القلق غير مسموح... بعد هذا كله مرضت، وعرضوني على الطبيب النفسي. أمشي وأسير في الشارع... وفجأة أريد أن أصرخ...

أين أرغب أن أعيش؟ بِودّي أن أعيش في الطفولة... حيث كنت مع أمي، كما في العش. يا رب! أنقذ السذّج والعميان! في المدرسة، كنت أحب الكتب والقصص الحربية والأفلام الحربية. كنت أتصور أن كل شيء جميل هناك... ففيها السطوع... والحياة المشرقة، حتى أنني كنت أشعر بالأسى لأنني فتاة ولست شاباً: وإذا ما حدثت حرب؟ فلن يأخذوني إليها. أما الآن فلا أقرأ كتب الحرب. حتى أفضلها لا أقرأه... الكتب عن الحرب... إنها تخدعنا. حقيقة، فالحرب قذرة ورهيبة. لست واثقة الآن – هل يمكن الكتابة عن هذا؟ ألا أكتب الحقيقة كلها؟ أو ألا أكتب أبداً؟

أن أتحدث عن هذا... وكيف سأكون بعدها سعيدة؟ أنا لا أعرف... أنا مرتبكة، مشوشة... تعانقني أمي: «بنيتي، ماذا تقرئين؟». «"كانوا يقاتلون من أجل وطنهم" لشولوخوف. عن الحرب». «لماذا تقرئين هذه الكتب؟ إنها ليست عن الحياة، يا بنيتي. الحياة شيء آخر»... أمي كانت تحب قراءة كتب عن الحب... أمي! حتى أنني لا أعرف: هل هي على قيد الحياة أم لا؟ (تصمت). في البداية، كنت أظن أنه لا يمكنني العيش هناك... في سوخومي لا يمكنني العيش... عموماً، لم تعد لدي القدرة على العيش. كما أن كتب الحب لا تنقذني. والحب موجود، أنا أعرف أنه موجود. أنا أعرف... (تبتسم للمرة الأولى).

ربيع العام الثاني والتسعين... جيراننا - فاختانغ وغونالا: هو جورجي، وهي أبخازية، باعا بيتهما وفرشهما وعزما على الرحيل. جاءا لوداعنا: «ستنشب الحرب. ارحلوا إلى روسيا، إذا كان لديكم أحد هناك». لم نصدق. الجورجيون كانوا دوماً يسخرون من الأبخازيين، ولم يحب الأبخازيون الجورجيين. نعم... هاها! (تضحك). «هل يمكن للجورجي أن يحلق في الفضاء؟». «لا». «لماذا؟». «جميع الجورجيين سيموتون من التفاخر، وجميع الأبخازيين من الغيرة». «لماذا الجورجيون قصار جداً؟». «ليس الجورجيون قصاراً، لكن جبال الأبخازيين عالية جداً». كنا نضحك، ولكن كنا نعيش معاً. كنا نهتم سوية بالكروم... ونصنع النبيذ... إن صناعة النبيذ عند الأبخاز هي كالدين. ولكل صانع نبيذ سره الخاص... انتهى شهر أيار... حزيران... بدأ موسم الشواطئ والبحر... الثمار الأولى... أية حرب هذه! أنا وأمي لم نفكر في الحرب، كنا نجهز شراب الكومبوت من الفواكه، ونغلي الفواكه لصنع المربى. كنا كل يوم سبت ننزل إلى البازار. البازار الأبخازي! هذه الروائح الجميلة... والأصوات... تفوح رائحة براميل النبيذ وخبز الذرة، وجبن الغنم، والكستناء المشوية.

ورائحة البرقوق الناعمة والتبغ، وأوراق التبغ المضغوطة. أنواع الجبن معلقة... الجبن المفضل عندي هو جبن "ماتسوني"... يدعون المشترين باللغات الأبخازية والجورجية والروسية. بجميع اللغات: «آه، يا حبيبي. لا ترغب... لا تشترِ، ولكن جرّب!». لم يُبَعْ الخبز في المدينة منذ شهر حزيران/ يونيو. قررت أمي تخزين الطحين احتياطاً. في يوم السبت... نركب الباص، جلست إلى جانبنا امرأة من معارفنا مع طفلها. كان الطفل يلعب، ثم بدأ يبكي، بصوت عالٍ، وكأن أحداً ما أرعبه. سألت المرأة فجأة: «يطلقون النار؟ هل تسمعين: يطلقون النار؟». سؤال مجنون! اقتربنا من البازار، فالتقينا بحشد، أناس يهربون مرعوبين. يطير ريش الدجاج... الأرانب تحت الأرجل... البط... لا يتذكرون أبداً الحيوانات... إنها تتألم... أنا أذكر قطة جريحة. وكيف صرخ الديك، كانت شظية تظهر من تحت جناحه... حقيقة، هل أنا غير طبيعية؟ إنني أفكر كثيراً في الموت... والآن لست مشغولة بشيء غيره... وها هو صراخ! هذا الصراخ ليس صراخ إنسان واحد، بل حشد كامل من الناس يصرخ، وأشخاص مسلحون، من دون بذلات عسكرية، ولكن بالرشاشات يركضون وراء النساء، يخطفون منهن حقائبهن، أغراضهن: أعطني هذا... اخلعي هذا... «إنهم مجرمون؟». همست أمي في أذني. خرجنا من الباص ورأينا الجنود الروس. «ما هذا؟». سألتهم أمي. أجابها ملازم: «ماذا بك، ألا تفهمين؟ إنها الحرب». أمي تخاف كثيراً، سقطت فاقدة وعيها. جررتها إلى فناء داخلي. جلبوا لنا إبريقاً من الماء من إحدى الشقق... يطلقون القذائف في مكان ما... أصوات انفجارات... «أيتها النساء! أيتها النساء! هل أنتن في حاجة إلى الطحين؟». يقف شاب مع كيس من الطحين، يرتدي رداءً أزرق كالذي يرتديه الحمالون، لكنه كان مغطى بالطحين بكامله. بدأت أضحك، فقالت أمي: «تعالي لنشتري، فقد تكون الحرب حقيقة». اشترينا

منه الطحين. وأعطيناه النقود. وهنا أدركنا أننا اشترينا طحيناً مسروقاً. اشتريناه من سارق.

لقد عشت وسط هؤلاء الناس... أعرف عاداتهم ولغتهم... أنا أحبهم. فمن أين جاء هؤلاء؟ وبمثل هذه السرعة؟ غير الإنسانية! أين كانت تكمن؟ أين... هل من مجيب؟ خلعت من رقبتي الصليب الذهبي وخبأته في الطحين، وكذلك خبأت الجزدان والنقود. مثل امرأة عجوز... أصبحت أعرف كل شيء... من أين؟ الطحين... عشرة كيلوغرام... حملتها على صدري حتى بيتنا، خمسة كيلومترات. كنت أمشي بهدوء... لو قتلوني في تلك اللحظة، لما تسنى لي أن أخاف... أما الناس... الوافدون... كثير منهم كانوا على الشاطئ... غرقوا في الذعر والدموع. أنا كنت هادئة... غالباً كنت أعاني من الصدمة؟ كان الأفضل لو أنني صرخت... صرخت، مثل الجميع... هكذا أظن الآن... توقفنا للاستراحة على مقربة من الخطوط الحديدية. كان يجلس على السكة شباب: كان لدى بعضهم ريشة سوداء على رؤوسهم، ولدى البعض الآخر ريشة بيضاء. وجميعهم يحملون السلاح. كانوا يشاكسونني، ويضحكون. وغير بعيد عنهم كانت شاحنة تصدر دخاناً... خلف المقود كان يجلس السائق المقتول... يرتدي قميصاً أبيض اللون... رأوه! ركضوا على الفور عبر بستان اليوسفي... وأنا يغطيني الطحين «ارمِه! ارتكيه!». طلبت مني أمي. «كلا، ماما، لن أتركه. الحرب بدأت، ولا طحين عندنا». تلك هي الصور... تتحرك باتجاهنا سيارة "جيغولي"... نصرخ. تمر السيارة من جنبنا ببطء، كما في الجنازة. في المقاعد الأمامية شاب وفتاة، وفي المقاعد الخلفية جثة امرأة. شيء رهيب... ولكن ليس رهيباً كما كنت أتصور سابقاً... (تصمت). بودي دوماً أن أفكر في هذا. عند شاطئ البحر سيارة "جيغولي" أخرى: كان زجاج السيارة الأمامي محطماً... بقعة كبيرة من الدم... حذاء نسائي

مرمي... (تصمت). أنا بالطبع، مريضة... مريضة... لماذا لا أنسى شيئاً؟ (تصمت). بسرعة! كان بودي أن أصل بسرعة إلى بيتي، إلى مكان ما أعرفه. أن أهرب إلى مكان ما... فجأة أزيز... الحرب - فوق، في الأعلى! طائرات عمودية خضراء... وعلى الأرض... رأيت الدبابات، لم تكن تسير كقافلة، بل فرادى، وفي الدبابات كان يجلس جنود برشاشاتهم. وكانت الأعلام الجورجية ترفرف فوقها. كانت القافلة تسير بفوضوية: بعض الدبابات تتحرك بسرعة إلى الأمام، وبعضها يتوقف أمام الأكشاك التجارية. يخرج الجنود من مدرعاتهم وبأخامص بندقياتهم الرشاشة يكسرون أقفالها. كانوا يأخذون الشمبانيا، والسكاكر والحلويات وزجاجات الكولا، والسجائر. وخلف الدبابات كانت تسير سيارة باص "إيكاروس"، ممتلئة بالفرش والمقاعد. ولماذا المقاعد؟

في البيت ركضنا مباشرة إلى التلفزيون... كانت تُعزف الموسيقى السيمفونية. وأين الحرب؟ لم يكونوا يعرضون الحرب على التلفزيون... قبل الذهاب إلى السوق، كنت قد جهزت البندورة والخيار من أجل حفظها في المرطبانات. وغليتُ المرطبانات على النار. وها قد عدنا، وبدأت بتعبئتها. كان عليَّ أن أعمل شيئاً ما، أن أشغل نفسي بشيء. في المساء تابعنا المسلسل المكسيكي "الأغنياء يبكون أيضاً". مسلسل عن الحب.

صباحاً. استيقظنا باكراً على أصوات الهدير. كانت تسير الآليات الحربية في شارعنا. كان الناس يخرجون إلى الشارع وينظرون. توقفت آلية عند بيتنا. الطاقم روسي. أدركت أنهم مأجورون. نادوا أمي: «أيتها الأم، أعطنا ماء». أحضرت لهم أمي الماء والتفاح. شربوا الماء ولم يأخذوا التفاح. وقالوا: «البارحة، سمَّموا واحداً منا بالتفاح». التقيت في الشارع امرأة من معارفي: «كيف أنت؟ أين أفراد أسرتك؟». مرت من أمامي، وكأننا لا يعرف أحدنا الآخر. ركضت وراءها، أمسكتها من كتفها: «ماذا

بك؟». «أنت لم تفهمي شيئاً حتى الآن؟ من الخطر أن تتحدثي معي، عندي زوج... زوجي جورجي». وأنا... لم أفكر أبداً من هو زوجها؛ أبخازي أم جورجي؟ وما الفرق بالنسبة إليَّ؟ هو صديق جيد. عانقتها بكامل قوتي! ليلاً جاء لعندها شقيقها وأراد أن يقتل زوجها. قالت له أخته: «اقتلني أنا أيضاً». وكنت قد درست مع شقيقها في مدرسة واحدة. كنا أصدقاء. وفكرت، كيف يمكنني أن ألتقي به؟ ماذا سيقول أحدنا للآخر؟

بعد بضعة أيام، شيع الشارع كله الشاب آخريك... آخريك شاب أبخازي نعرفه. كان في التاسعة عشر من عمره. ذهب مساء إلى صديقته وضربوه بالسكين في ظهره. تسير أمه من وراء النعش: تبكي تارة، وتلتفت تارة وتضحك. لقد فقدت عقلها. قبل شهر كان الجميع سوفييت، والآن الجورجي يقتل الأبخازي... والأبخازي يقتل الجورجي... والروسي...

كان يقيم في الشارع المجاور شاب آخر... كنت أعرفه بالطبع، وليس بالاسم بل بالوجه. كنا نتبادل السلام. شاب طبيعي من هيئته. طويل القامة، جميل. لقد قتل معلمه القديم؛ الجورجي، قتله لأنه كان يعلمه في المدرسة اللغة الجورجية. ويضع له أدنى درجة "اثنين". فكيف هذا؟ هل تفهمين؟ الجميع كانوا يدرسون في المدرسة السوفييتية: الإنسان للإنسان، صديق... صديق ورفيق وأخ... أمي عندما سمعت بهذا... صَغُرت عيناها أولاً، ثم كبرتا، كبرتا جداً... يا إلهي، أنقذ السذج والعميان! ساعات أجثو في الكنيسة على ركبتي. الهدوء سائد هناك... على الرغم من أن الكنيسة الآن تغص بالناس، وجميعهم يرجون شيئاً واحداً... (تصمت). أتظنين أنه سينتج عندك شيء؟ تأملين بأن من الممكن الكتابة عن هذا؟ أتأملين؟ نعم... أنت تأملين... أما أنا فلا آمل.

أستيقظ ليلاً... أنادي أمي... ماما أيضاً مستلقية بعينين مفتوحتين: «لم أكن يوماً ما سعيدة مثل سنوات هرمي. وفجأة... الحرب». يتحدث

الرجال دوماً عن الحرب. يحبون السلاح، شبابهم وشيبهم... أما النساء فيتذكرن الحب... المتقدمات في السن يتحدثن كيف كنَّ شابات وجميلات. النساء لا يتحدثن أبداً عن الحرب... إنهن فقط يصلين من أجل أزواجهن... تذهب أمي كل يوم إلى الجيران خائفة، مرعوبة: «في بلدة غاغرا أحرقوا إستاد جورجيا بكامله». «آه يا أمي!». «كما سمعت أن الجورجيين يخصون الأبخاز». «ماما!». «لقد فجروا مزرعة القرود... ليلاً كان الجورجيون يركضون خلف أحدهم، كانوا يظنون أنه أبخازي، أما الأبخاز فقد اصطدموا به، وظنوا أنه جورجي. كان يلاحقونه، ويطلقون النار. وفي الصباح وجدوا أنه قرد جريح. وعلى الفور أعلن الجورجيون والأبخاز عن هدنة وهبوا لإنقاذه. ولو كان إنساناً لقتلوه»... لم يكن عندي أي جواب لأمي. كنت أصلي من أجل الجميع وأبتهل: «إنهم يسيرون كالزومبي، كما لو أنهم في غيبوبة. يسيرون ويعتقدون أنهم يصنعون خيراً. وهل يمكن صنع الخير والرشاش والسكين في اليد؟ يدخلون إلى بيت، وإذا لم يجدوا أحداً، يطلقون النار على الحيوانات، على الفرش والأثاث. تخرج إلى المدينة، بقرة مستلقية بضروع مدمّاة، ممزقة... عبوات الفواكه المحفوظة يطلقون عليها النار... يطلقون النار... بعضهم في هذا الاتجاه، وآخرون في الاتجاه الآخر. وحاولي أن ترشديهم! (تصمت). لم يعد يبث التلفزيون شيئاً، مجرد صوت... بدون صورة... لقد كانت موسكو بعيدة جداً.

كنت أتردد إلى الكنيسة... وهناك أتحدث... وأتحدث... في الشارع كنت أوقف كل من أراه. ثم أبدأ أتحدث مع نفسي. تجلس أمي على مقربة مني، تصغي وأنا أراها، إنها نائمة، كانت متعبة لدرجة أنها تنام وهي تمشي. تغسل المشمش وتنام. وأنا كأنني لعبة بـزمبرك مربوط... أروي وأروي... ما سمعته من الآخرين وما رأيته بنفسي... جورجي... جورجي شاب...

رمى الرشاش وأخذ يصيح: «إلى أين وصلنا؟! لقد جئت لأستشهد في سبيل الوطن، وليس كي أسرق برّاد الآخرين! لماذا تدخلون إلى بيت غريب وتأخذون براداً ليس لكم؟ لقد جئت لأموت من أجل جورجيا»... فاقتادوه إلى مكان ما من يده، وربتوا على رأسه. جورجي آخر وقف بِطولِه واقترب ممن يطلقون عليه النار: «إخوتي الأبخاز! لا أريد أن أقتلكم، وأنتم لا تطلقوا عليّ النار». أطلق الجورجيون النار عليه في ظهره... وهناك شاب روسي أو جورجي، لا أدري، ارتمى والقنبلة اليدوية بيده تحت سيارة عسكرية. وصاح بكلمات. لم يسمع أحد ما قاله. واحترق الأبخاز في السيارة... هم أيضاً كانوا يصرخون... (تصمت). ماما... ماما... ماما وضعت أصص الورود والأزهار على النوافذ. كانت تنقذني... وتطلب مني: «انظري يا بنيتي، إلى الأزهار والورود! إلى البحر!». إن أمي إنسان نادر، لديها قلب كبير... كانت تعترف لي: «أستيقظ باكراً جداً، أشعة الشمس تمر من بين الأشجار... وأفكر: سأنظر إلى نفسي الآن في المرآة، كم عمري من السنين؟». إنها تعاني من الأرق، وتعاني من الألم في رجليها. لقد عملت ثلاثين عاماً عاملة معلمة في معمل الإسمنت، لكنها في الصباح لا تعرف كم عمرها من السنين. بعد ذلك تنهض، وتنظف أسنانها، وتنظر إلى نفسها في المرآة، فتنظر إليها امرأة كبيرة السن... تبدأ بتحضير الطعام وتنسى ذلك. أسمعها وهي تغني... (تبتسم). أمي... صديقتي... منذ فترة قصيرة حلمتُ: أغادر جسدي... أرتفع عالياً... عالياً... يعجبني هذا الوضع.

لم أعد أذكر، ما الذي كان في الأول، وما الذي حدث فيما بعد. لا أذكر... في الأيام الأولى كان اللصوص يرتدون أقنعة... يشدّون جوارب نسائية سوداء على وجوههم. وسرعان ما نزعوا أقنعتهم. يمشي: يحمل في يده مزهرية من الكريستال، وفي يده الأخرى رشاش، وعلى ظهره سجادة. كانوا يحملون أجهزة التلفزيون، والغسالات الكهربائية...

ومعاطف الفرو... والأوعية المنزلية... لم يشعروا بالقرف من أي شيء، كانوا يجمعون ألعاب الأطفال من البيوت المهدمة... (تتحدث همساً). والآن عندما أرى سكيناً عادياً في المخزن... أشعر بالسوء... في السابق، لم أكن أفكر أبداً في الموت. تعلمت في المدرسة، ثم في المعهد الطبي المتوسط. كنت أتعلم وأعشق... أفيق ليلاً وأحلم. متى حدث هذا؟ منذ زمن طويل... لم أعد أذكر شيئاً في هذه الحياة. أذكر شيئاً آخر... قطعوا للطفل أذنيه، كي لا يسمع الأغاني الأبخازية. وقطعوا للشاب... عـضـ... أنت تفهمين ذلك بنفسك... هذا... كي لا تلد زوجته منه... تقف الصواريخ النووية في مكان ما، والطائرات والدبابات، ومع ذلك كانوا يذبحون الإنسان بالسكين. كانوا يطعنون بالمذراة، ويقطِّعون بالفأس... ولكن لو كنت قد فقدت عقلي تماماً... لما كنت لأفهم شيئاً... فتاة في شارعنا... بنفسها علقت مشنقتها وشنقت نفسها... الفتاة كانت تحب شاباً، فتزوج من غيرها. دفنوها في ثوب أبيض. لم يكن هناك من يصدق، من هي: في هذا الوقت تقتل نفسها بسبب الحب؟ لو أنهم اغتصبوها... أتذكر العمة سونيا، صديقة أمي... ليلاً ذبحوا جيرانها، أسرة جورجية، كانت تصادقها. وطفلين صغيرين. كانت العمة سونيا ترقد على الفراش أياماً كاملة بعينين مغلقتين ولم ترغب في الخروج إلى الشارع: «يا فتاتي، ولماذا الحياة بعد هذا؟»، كانت تسألني. كنت أطعمها الحساء بالملعقة، لم تكن قادرة على البلع.

في المدرسة كانوا يعلموننا أن نحب الإنسان الذي يحمل سلاحاً... حامي الوطن! أما هؤلاء... فليسوا مثله... والحرب ليست كتلك الحرب... إنهم جميعاً صِبية، صبيان يحملون الرشاشات. وهم أحياء- رهيبون، وهم أموات يرقدون بلا حراك، وأشعر نحوهم بالشفقة. كيف أمكنني أن أبقى حية؟ أنا... أنا... أحب أن أفكر في أمي. كيف كانت في

الأمسيات تسرح طويلاً شعرها... كانت تعِدني: «يوماً ما سأحدثك عن الحب. ولكنني سأحدثك وكأنه حدث ليس معي، بل مع امرأة أخرى». كان هناك حب بينها وبين أبي. حب كبير. في البداية، كان لدى أمي زوج آخر، ذات يوم، كانت تكوي قميصه، بينما هو كان يتناول طعام العشاء. وفجأة (هذا لا يمكن أن يحدث إلا مع أمي) قالت له بصوت عال: «لن ألِدَ منك». وأخذت حاجياتها وخرجت من البيت. ثم ظهر أبي... كان يتبعها ويمشي إثرها، وينتظرها ساعات في الشارع، كانت أذناه تتجمدان. وتمكن ذات يوم من أن يقبِّلها...

قبيل الحرب توفي أبي... توفي أبي بتمزق القلب. جلس مساء أمام شاشة التلفزيون ومات. وكأنه خرج إلى مكان ما... «بنيتي! عندما تكبرين»... كان لدى أبي مخطط كبير بخصوصي. و... و... (استسلمت للبكاء). بقينا وحدنا. أنا مع أمي. مع أمي التي تخاف من الفئران... لا يمكنها أن تنام في البيت وحدها. من الحرب تغلق وجهها بالمخدة... بعنا كل ما هو ثمين في بيتنا: التلفزيون، وحامل السيجار الذهبي، والذي كان مقدساً عند أبي وحافظ عليه طويلاً، وصليبي الذهبي. وقررنا الرحيل، ومن أجل الرحيل من سوخومي كان لا بد من دفع رشوة. يرتشي العسكريون والشرطة، ويطلبون مبالغ كبيرة من المال! لم تعد القطارات تأتي. والبواخر الأخيرة غادرت منذ زمن، وكانت مكتظة بالنازحين في عنابرها وعلى ظهورها، كالسمك المملح في البرميل. كان المال عندنا يكفينا لشراء تذكرة واحدة... تذكرة واحدة باتجاه واحد... إلى موسكو. لم أكن أرغب في السفر من دون أمي. كانت ترجوني شهراً كاملاً: «ارحلي، يا ابنتي! ارحلي!». أنا كنت أريد أن أذهب إلى المستشفى العسكري... للاعتناء بالجرحى... (تصمت). لم يسمحوا لي في الطائرة بأخذ أي شيء معي سوى حقيبة وثائقي. من دون أشياء،

ومن دون فطائر أمي: «افهمي الظروف، إنها الحرب». وإلى جانبي مر عبر الجمارك رجل مدني، لكن الجنود كانوا يخاطبونه "الرفيق الرائد"، وحملوا له حقائبه في علب كبيرة من الكرتون. كانوا يحملون صناديق محملة بالنبيذ واليوسفي. كنت أبكي... طيلة الطريق كنت أبكي... كانت تهدئني امرأة كان يسافر معها صبيان: ابنها وابن جيرانها. كان الصبيان منتفخين جوعاً... أنا لم أكن أرغب... لم أكن أريد السفر... لقد فصلتني أمي عن نفسها، ودفعتني بالقوة إلى الطائرة. «ماما، إلى أين أذهب؟»، «أنت تذهبين إلى بيتك. إلى روسيا».

موسكو! موسكو... عشت أسبوعين في محطة القطار. وكان مثلي كثيرون بالآلاف... في جميع محطات موسكو- في محطة بيلاروسيا، وسوفيلوفسكايا، وكييفسكايا... مع أسرهم، مع أطفالهم وعجائزهم. من أرمينيا، من طاجيكستان... من باكو... يعيشون على المقاعد، على الأرض. كان يحضِّرون طعامهم هناك. ثمة مآخذ كهربائية في الحمامات... وبالقرب من المصعد توجد مآخذ... تسكبُ الماء في وعاء، وتدخل فيه الغلّاية الكهربائية. تضيف الشعيرية واللحم... والحساء جاهز! عصيدة السميد للأطفال! يبدو لي أن جميع محطات القطارات في موسكو كانت تفوح بروائح المعلبات وحساء خارتشو، والبلوف[1]، وبراز الأطفال والحفاضات القذرة. كانوا يجففونها على مشعات التدفئة المركزية وعلى النوافذ. «ماما، إلى أين أذهب؟». «أنت تذهبين إلى بيتك. إلى روسيا». وهَأنذا في بيتي. لم يكن هناك أحد ينتظرنا في البيت. ولم يستقبلنا أحد. ولم يكن هناك من يلتفت إلينا، ولم يسألنا أحد. إن موسكو كلها اليوم محطة. محطة كبيرة واحدة. خان. نفذت نقودي بسرعة. مرتين أرادوا اغتصابي: المرة الأولى جندي لا أعرفه، والمرة الثانية شرطي.

---

(1) الرز مع اللحم والجزر - المترجم.

الشرطي رفعني من الأرض: «أين وثائقك؟». وأخذ يجرني إلى المخفر. كانت عيناي مجنونتين... وأطلقت صراخاً رهيباً. ويبدو أنه خاف... وهرب: «أنت حمارة!». في النهار كنت أمشي في المدينة... وقفت عند الساحة الحمراء... وفي المساء كنت أتجول في المخازن الغذائية. شعرت بالجوع، وكنت أريد أن آكل شيئاً، امرأة لا أعرفها اشترت لي فطيرة باللحم. لم أطلب منها شيئاً... كانت تأكل، وكنت أنظر إليها كيف كانت تأكل... فأشفقت عليّ. مرة واحدة... لكن هذه "المرة الواحدة" رسخت في ذاكرتي طيلة حياتي. كانت امرأة متقدمة جداً في السن. فقيرة. كنت أود أن اذهب إلى أي مكان... المهم ألا أجلس في المحطة... ولا أفكر في الطعام، ولا أفكر في أمي. وعلى هذا الشكل لمدة أسبوعين (تبكي). في سلة المهملات في المحطة كان من الممكن العثور على قطعة من الخبز... وعلى عظم دجاجة... وهكذا عشت إلى أن جاءت شقيقة والدي التي لم نكن نعرف عنها شيئاً منذ مدة طويلة، هي حية أم ميتة؟ عمرها ثمانون سنة. كان عندي فقط رقم هاتفها. كنت أتصل بها يومياً، لم يكن هناك من مجيب. عمتي كانت في المستشفى. فقررت أنها قد ماتت.

حدثت معجزة! كنت أنتظرها طويلاً... وحدثت... جاءت عمتي إليّ. «أولغا... تنتظرك في المخفر عمتك من مدينة فورونيج». الجميع ضجوا، تحركوا... المحطة كلها: من؟ ما هي كنيتها؟ ركضنا فتاتين: فقد كانت هناك فتاة أخرى بالكنية نفسها، ولكن باسم آخر. وكانت قد وصلت من مدينة دوشانبيه. كم بكت طويلاً لأن هذه ليست عمتها... ولن يأخذوها هي...

الآن أعيش في فورونيج... عملت في كل شيء، حيث يطلبونني للعمل، أغسل المواعين والصحون في مطعم، حارسة في منشأة بناء، تاجرت بالفواكه عند تاجر أذربيجاني، إلى أن أخذ يتحرش بي. الآن

أعمل طوبوغرافية. عاملة مؤقتة للأسف، فالعمل يروقني. سرقوا مني شهادة إنهاء المعهد الطبي المتوسط في محطة موسكو. ومعها جميع صور والدتي. نتردد مع عمتي إلى الكنيسة. أجثو على ركبتيّ وأبتهل: «يا الله! يمكنني الآن! أريد الآن أن أموت!». أسأله في كل مرة: هل أمي حية أم لا؟ شكراً لك... شكراً لأنكِ لا تخافين مني. ولا تديرين وجهك وعينيك مثل الآخرين. لأنكِ تصغين إليّ. ليست لدي هنا أية صديقات، وليس هناك من يعتني بي. أنا أروي... وأروي... كيف كانوا يستلقون... شابات... جميلات... (ابتسامة مجنونة على وجهها). عينان مفتوحتان... عينان مفتوحتان باتساع...

بعد نصف عام وردتني رسالة منها: «أرحل إلى الدير. أريد أن أعيش. وسوف أصلي عن الجميع».

عن العلم الأحمر الصغير وابتسامة الساطور

آنا ما- يا - مهندسة معمارية، 59 عاماً

الأم:

- أنا... أنا لم أعد أحتمل... آخر ما أتذكره هو الصراخ. صراخ مَن؟ لا أعرف. صراخي؟ أو أن جارتي كانت تصرخ، فقد شمت في بهو الدرج رائحة غاز. استدعت الشرطة (تنهض وتتوجه إلى النافذة). فصل الخريف. في الأمس كان أصفر اللون... والآن أصبح أسود اللون بسبب الأمطار. والنور، حتى في النهار أصبح بعيداً. منذ الصباح، الدنيا غائمة. أُشعل جميع المصابيح، وتبقى مشعلة طيلة النهار. النور ينقصني... (تعود وتجلس أمامي).

في البداية رأيت حلماً، أنني قد مُتّ. في طفولتي رأيت كثيراً كيف يموت الناس، ثم نسيت هذا... (تمسح دموعها). لا أفهم، لماذا أبكي؟ أنا أعرف كل شيء... أعرف كل شيء عن حياتي... في الحلم كان يحلق كثير من الطيور. كانت تَقرع النافذة بمناقيرها. استيقظت، وكان لدي شعور أن هناك من يقف عند رأسي. وأن هناك من بقي فوق رأسي. أردت أن أستدير، لأرى من هذا؟ خوف غريب، وإحساس بأن عليّ ألا أفعل هذا. ممنوع! (تلوذ بالصمت). أنا عن شيء آخر... كنت أريد الحديث عن شيء آخر... وليس عن هذا أولاً... أنت سألتني عن الطفولة... (تغطي وجهها بيديها). هأنذا أحس... أحس برائحة أمي وزوجة أبي الذكية... أرى جبالاً، وبرجاً

خشبياً، وجندياً فوقه. شتاءً في معطف من صوف الخرفان، وربيعاً في معطف عسكري. وأسِرّة حديدية، كثير من الأسرة الحديدية، سريراً بجانب آخر... كان يبدو لي سابقاً: إذا ما حدّثتُ بهذا أحداً ما، فسأود الهروب من هذا الإنسان، كي لا أراه أبداً بعد ذلك. كل هذا يخصني أنا... وهو كامن بعيداً جداً... أنا لم أعش أبداً وحيدة، كنت أعيش في معسكر في كازاخستان، كان يُدعى "كارلاك"، وبعد المعسكر. في المنفى. كنت أعيش في ملجأ للأطفال، وفي سكن جماعي... وفي شقة جماعية... دوماً هناك كثير من الأجسام الأخرى، والأعين الأخرى. أصبح عندي شقتي الخاصة، عندما بلغت العام الأربعين. أعطوني وزوجي شقة مؤلفة من غرفتين، وكان عندنا أطفال يكبرون. كنت أركض إلى الجيران حسب عادتي في السكن الجماعي، أقترض الخبز تارة، والملح تارة أخرى، والكبريت ثالثة، لهذا لم يشعروا بمحبة نحوي. أنا لم أعش أبداً وحدي... ولم أعتد على العيش وحدي... كما كنت أرغب دوماً في استلام الرسائل. كنت أنتظر الرسائل! وأنتظرها الآن... تكتب لي صديقة، رحلت مع ابنتها إلى إسرائيل. تسألني: «ماذا عندكم هناك؟ أية حياة بعد الاشتراكية... وأية حياة لدينا؟ تمشي في شارع تعرفينه: مخزن فرنسي، ألماني، بولندي، وجميع تسمياتها بلغات أجنبية. كل شيء غريب... الجوارب، السكاكر، الحلويات، الجزمات... البسكويت والمرتديلا... لا يمكنني العثور على منتوجنا، السوفييتي. وكل ما أسمعه من جميع الجهات: الحياة صراع، القوي يهزم الضعيف، وهذا قانون الطبيعة. على المرء أن يربّي لنفسه قروناً وحوافر، ودرعاً حديدياً، لا أحد يحتاج إلى الضعفاء. حيثما كنتِ أكواع، وأكواع، وأكواع. إنها فاشية، إنها صلبان معقوفة! أنا أعيش الصدمة... واليأس! هذا ليس لي. هذا ليس لي! (تلوذ بالصمت). لو كان هناك أحد ما إلى جانبي... لو كان أحد ما... زوجي؟ لقد هجرني. وأنا أحبه... (ابتسمت فجأة). تزوجنا في

الربيع، عندما أزهر الكرز واقترب الأرجوان من الإزهار. ورحل أيضاً في فصل الربيع. لكنه يتردد... يتردد لعندي في الحلم ولا يمكنه أبداً أن يصفح عني... يتحدث ويتحدث بما هو غير مفهوم. أما في النهار... فأكاد أصاب بالصمم من الهدوء. وبالعماء. لدي علاقات بالماضي، سواء مع الإنسان، أو مع جميع الأحياء... أذكر، نشروا في مجلة "نوفي مير"[1] رواية سولجينتسين "يوم واحد من حياة إيفان دينيسوفيتش" وقرأها الجميع. وكانت صدمة رهيبة! كم من الأحاديث! أنا لم أكن أفهم، لماذا هذا الاهتمام وهذه الدهشة؟ كل شيء مألوف، وطبيعي بالمطلق بالنسبة إليَّ: المساجين المعتقلون، المعتقل، دلو البراز... والمنطقة.

في العام السابع والثلاثين اعتقلوا أبي، كان يعمل في الخطوط الحديدية. كانت أمي تركض وتسعى، وتثبت أنه غير مذنب، وأن ثمة خطأ. كانت تنساني. تنسى كل شيء عني. وعندما تذكرتْ، أرادت أن تتخلص مني في بطنها، لكن الوقت كان قد فات. كانت تشرب كل عقار قذر مميت... غطَست في الحمام الساخن. ووضعتْ طفلة سابقة لأوانها... لكنني بقيت على قيد الحياة. لسبب ما، مرات عديدة بقيت حية. مرات عديدة! وسرعان ما اعتقلوا أمي وأنا معها، لأنه كان من المحظور ترك طفلة لوحدها في الشقة، كان عمري أربعة أشهر. وتمكنت أمي من أن ترسل شقيقتيّ إلى أخت والدي في القرية، ولكن وصل تبليغ من لجنة أمن الدولة بإعادة الأطفال إلى سمولنسك. وقد أخذوهما من المحطة مباشرة: «البنتان ستكونان في ملجأ الأطفال. فقد تكبران وتصبحان شبيبتين شيوعيتين. حتى أنهم لم يعطوا عنواناً. وقد عثرنا عليهما كبيرتين بعد أن تزوجتا، وكان عندهما أطفالهما. بعد سنوات طويلة جداً... في المعتقل عشت مع أمي حتى الثالثة من عمري. كانت أمي تتذكر أن الأطفال الصغار

---

(1) العالم الجديد - المترجم

كانوا يموتون في الغالب. كانوا يضعون الأطفال الموتى في براميل كبيرة، ويتركونهم فيها حتى الربيع. وكانت الفئران تقضمهم. ويدفنون ما تبقى منهم في الربيع... وعند عمر الثلاث سنوات يأخذون الأطفال من أمهاتهم ويضعونهم في كوخ للأطفال. منذ الرابعة... لا غالباً منذ السنة الخامسة بدأت أذكر بعض الأشياء... مقاطع منها... في الصباح، وعبر الأسلاك الشائكة كنا نرى أمهاتنا: كانوا يحصونهن ويقتادونهن إلى الشغل الشاق. كانوا ينقلونهن خارج المنطقة، حيث كان يمنع علينا السير. وعندما كانوا يسألونني: «من أين أنت أيتها الصغيرة؟». كنت أجيب: «من المنطقة». كان "ما وراء المنطقة الاعتقالية" عالماً آخر، غير مفهوم، مخيف، غير موجود بالنسبة إلينا. كانت هناك صحراء، رمل، وأوراق شوكية جافة. كان يبدو لي أن الصحراء هناك بلا نهاية، ولا وجود لحياة أخرى غير حياتنا. كان يحمينا جنودنا، وكنا نفخر بهم. لديهم نجوم على قبعاتهم... كان عندي صديق، روبيك تسيرينسكي... كان يقودني إلى الأمهات من خلال الحفر تحت الأسلاك الشائكة. يوقفون الجميع صفاً واحداً للذهاب إلى المطعم، وكنا نحن نختفي خلف الباب. «أنت تحبين العصيدة؟». كان يسألني روبيك. وأنا دوماً كنت أريد أن آكل وكنت أحب العصيدة، ولكن من أجل أن أرى أمي، كنت موافقة على كل شيء. وكنا ندخل إلى الكوخ، حيث الأمهات، لكن الكوخ كان فارغاً، والأمهات في الشغل. كنا نعرف ذلك، ومع ذلك كنا نتسلل، حيث كنت أشم كل شيء. الأسِرّة الحديدية، الحوض الصغير لمياه الشرب، والطاسة المعلقة بسلسلة، كل هذا كانت فيه رائحة أمهاتنا. الأرض... كانت مشبعة برائحة الأمهات... أحياناً كنا نجد بعض الأمهات، حيث كنَّ مستلقيات على الأسِرَّة يسعلن. وكانت إحدى الأمهات تسعل دماً... قال روبيك إنها أم الفتاة الصغيرة تومشكا، أصغرنا سناً. لكن هذه الأم سرعان ما توفيت. ثم ماتت تومشكا نفسها،

وبقيت أفكر طويلاً: لمن عليّ أن أقول إن تومشكا ماتت؟ فأمها كانت قد ماتت قبلها... (تلوذ بالصمت). بعد سنوات طويلة تذكرت هذا... لم تصدقني أمي: «كان عمرك أربع سنوات فقط». كنت قد قلت لها أنها كانت تمشي بحذائها القماشي ذي النعل الخشبي، ومن قطع صغيرة كانت تخيط سترات كبيرة. وشعرتْ من جديد بالدهشة وبدأت تبكي. أذكر... أذكر رائحة قطعة البطيخ الأصفر، التي أحضرتها لي أمي بحجم الزر، في خرقة. وكيف دعاني الصبيان ذات مرة لنلعب مع القطة، ولم أكن أعرف ما هي القطة. أحضروا القطة مما وراء منطقة الاعتقال، حيث لم تكن هناك قطط في المنطقة، ولم تكن قادرة على العيش، لأنه لم يكن يبقى أية بقايا من الطعام، حيث كنا نجمعها. كنا دوماً ننظر إلى ما تحت أقدامنا كي نعثر على شيء ونأكله. كنا نأكل عشبة من الأعشاب، والقشور، ونلحس الحصى. كنا نودّ كثيراً أن نقدم شيئاً ما للقطة، ولم يكن لدينا شيئاً، وكنا نطعمها بِريقنا بعد الغداء! وكانت تأكل. كانت تأكل! أذكر ذات يوم أرادت أمي أن تعطيني كراميل، «آنتشكا، خذي كراميل!». نادتني أمي من خلال الأسلاك الشائكة. فطردها الحراس... وقعتْ على الأرض... فجرّوها على الأرض من شعرها الأسود الطويل... كان شعوري رهيباً، لم يكن لديَّ أي تصور ما هي الكراميل. ولم يكن يعرف أحد من الأطفال ما هي الكراميل. خاف الجميع وأدركوا أن من الواجب إخفائي، ودفعوني إلى المنتصف. الأطفال دوماً يضعونني في المنتصف: «لأن آنتشكا تقع». (تبكي). لا أفهم، لماذا أبكي؟ فأنا أعرف كل شيء... أعرف كل شيء عن حياتي... ها أنا قد نسيت، عم أتحدث؟ لم أُنهِ فكرتي... أليس كذلك؟ غير منتهية؟

لم يكن عندي خوف واحد... كانت عندي مخاوف كثيرة، كبيرة وصغيرة. كنا نخاف أن نكبر، أن نصبح في الخامسة من العمر. ففي الخامسة كانوا ينقلوننا إلى ملجأ الأطفال، كنا ندرك أن هذا بعيد جداً...

بعيد عن أمهاتنا... كما أذكر نقلوني إلى ملجأ الأطفال رقم ثمانية، البلدة رقم خمسة. كل شيء كان بالأرقام، وبدلاً من الشوارع هنالك الخطوط: الخط الأول، الخط الثاني... شحنونا في شاحنة ونقلونا. كانت الأمهات يركضن، يتمسكن بجسم الشاحنة، يصرخن، يبكين. أذكر كيف كانت الأمهات يبكين دوماً، بينما كان من النادر أن يبكي الأطفال. لم نكن نحن غريبي الأطوار، لم نعرف الدلال. لم نعرف الضحك. أما البكاء فقد تعلمناه في الملجأ. في ملجأ الأطفال كانوا يضربوننا بقوة. كانوا يقولون لنا: «من الممكن ضربكم بل وقتلكم، لأن أمهاتكم أعداء الشعب». لم نكن نعرف آباءنا. «أمك سيئة». لا أذكر وجه المرأة التي كانت تكرر وتكرر لي هذه الجملة. «أمي جيدة. أمي جميلة». «أمك سيئة. إنها عدوّنا». لا أذكر، هل هي نطقت بهذه الكلمة، قَتْلكم؟ لكن شيئاً من هذا... كلمات من هذا النوع. كلمات رهيبة... أية كلمات... حتى أنني كنت أخشى أن أحفظها. لم يكن عندنا مربون، ولا معلمون، لم نسمع مثل هذه الكلمات، كان عندنا قادة. رؤساء! كانوا يحملون في أيديهم دوماً مساطر طويلة... كانوا يضربوننا بسبب ومن غير سبب... كان بودي أن يضربوني ويضربوني بشدة، بحيث تبقى ثقوب على جسمي، وعندها سيتوقفون عن الضرب. لم تكن عندي ثقوب، ولكن بالمقابل، كانت النواسير المتقيحة تغطي جسمي كله. كنت أفرح، فصديقتي أولشكا كانت لديها حلقات معدنية في عمودها الفقري، وكان من الممنوع ضربها. كنا جميعنا نحسدها... (تنظر طويلاً إلى النافذة). لم أروِ هذا لأحد. كنت أخاف... وماذا كنت أخاف؟ لا أعرف... (تستغرق في التفكير). كنا نحب الليل. الليل المظلم. كانت تأتي إلينا ليلاً العمة فورسيا، الحارسة الليلية. كانت طيبة، كانت تقص علينا حكاية "أليونشكا والقبعة الحمراء"، وتحمل في جيبها قليلاً من القمح، وتعطي عدة حبات لكل من يبكي. كانت ليلشكا أكثرنا بكاءً،

كانت تبكي في الصباح وفي المساء. كنا جميعاً مصابين بداء الجرب، دمامل حمراء ثخينة على البطن، وبالإضافة إلى ذلك، كان لدى ليلشكا بثور تحت الإبطين، وكانت تنفجر بالقيح. أذكر أن الأطفال كان يشي أحدهم بالآخر، وكانوا يشجعوننا على ذلك. وكانت ليلشكا تشي أكثر من الجميع... الطقس الكازاخستاني قاس جداً، كان درجة الحرارة شتاء أربعين تحت الصفر، وفي الصيف أربعين فوق الصفر. ماتت ليلشكا من البرد شتاء. لو أنها عاشت حتى ظهور العشب... ربيعاً... لما ماتت. لا... (تغص بمنتصف الكلمة).

كانوا يعلموننا... أكثر ما كانوا يعلموننا أن نحب الرفيق ستالين. أول رسالة في حياتنا كتبناها له إلى الكرملين. حدث هذا كما يلي... عندما تعلمنا الأحرف، وزعوا علينا أوراقاً بيضاء، وبالإملاء كنا نكتب رسائل لزعيمنا الطيب المحبوب. كنا نحبه كثيراً، وكنا نثق بأننا ستلقى جواباً وأنه سيرسل لنا هدايا، هدايا كثيرة! كنا ننظر إلى صورته، وكان يبدو لنا أنه جميل جداً. الأجمل في العالم! حتى أننا كنا نتراهن، من يقدم أكثر من حياته مقابل يوم واحد من حياة الرفيق ستالين. في الأول من أيار/ مايو كانوا يعطوننا جميعاً أعلاماً حمراء صغيرة، وكنا نسير ونلوح بها بفرح. كنت الأقصر، لذا كنت أقف في المؤخرة وكنت أعاني، بأنني لن أحصل على عَلَم. فقد لا تكفي! كانوا دوماً يعلموننا، يقولون لنا: «الوطن هو أمنا! الوطن أمكم!». ونحن كنا نسأل دوماً من نلتقيه من الكبار: «أين أمي؟ وأي منهن أمي؟». لم يكن هناك من يعرف أمهاتنا... الأم الأولى جاءت إلى ريتا ميلنيكوفا. كان لديها صوت رائع. كانت تغني لنا ترنيمة: «نم، يا فرحتي، نم./ لقد أُطفئت الأنوار في البيت... / وليس هناك من بابا يُفتح/ والفأر ينام خلف المدفأة»... لم نكن نعرف هذه الأغنية، وقد حفظناها على الفور. ونطلب أن تغنيها من جديد. لا أذكر متى كانت تنتهي

من الغناء، لأننا كنّا ننام. كانت تقول لنا إن أمهاتنا جيدات، جميلات، وإن جميع الأمهات جميلات، وإن أمهاتنا كلهن يغنين هذه الأغاني. كنا ننتظر... ثم عشنا خيبة أمل كبيرة، فهي لم تقل الحقيقة. كانت تأتي أمهات أخرى، غير جميلات، مسنّات، ولم يكن قادرات على الغناء. كنا نبكي... نبكي بشدة... لم نكن نبكي من فرحة اللقاء، بل من الانزعاج: منذ تلك الأثناء وأنا لا أحب الكذب... ولا أحب أن أحلم... كان من المستحيل تهدئتنا بغير الحقيقة، ومن المستحيل خداعنا: أمك حيّة، لكنها كانت ميتّة. ثم أخذت أنفي... لا وجود لأم جميلة... أو لا وجود لأمي... أبداً. كلنا كنا جميعاً نميل دوماً إلى الصمت الطويل. لا أذكر أحاديثنا... أذكر اللمسات... صديقتي فاليا كنورينا تلمسني، فأعرف فيما تفكر، لأننا جميعاً كنا نفكر في الشيء نفسه. كنا نعرف أحدنا عن الآخر أشياء حميمية: من يتبول ليلاً، ومن يصرخ في الحلم، ومن يتعثر في الكلام. كنت دوماً أُجلِّس أسناني بالملعقة. في غرفة واحدة أربعون سريراً حديدياً... في المساء يصدر الأمر: اشبكوا كفوفكم، وتحت الخدّ، والجميع على الجانب الأيمن. وعلينا أن نعمل هذه الحركات معاً. وانتهى! إنها كانت وحدة جامعة، ولتكن وحدة حيوانية، وحدة صراصير، ولكن هكذا كانوا يربّونني. أنا حتى الآن هكذا... (تلتفت إلى النافذة، كي لا أرى وجهها في هذه الدقائق). نرقد ليلاً ونرقد ونبدأ بالبكاء... نحن جميعاً: «الأمهات الجيدات قد وصلن»... فقالت فتاة: «أنا لا أحب ماما! لماذا تأخرت طويلاً ولم تأتِ لعندي؟». أنا أيضاً كنت مزعجة من أمي. أما في الصباح فكنا كلنا نغني ككورس... (وتبدأ على الفور بترديد الأغنية). «الصباح يُزيِّن بنور ناعم/ جدران الكرملين القديم./ تستيقظ من الفجر/ الأرض السوفييتية كلها»... أغنية جميلة. بالنسبة لي لا تزال جميلة حتى الآن.

الأول من أيار/ مايو! كنا نحبه أكثر من جميع الأعياد. في هذا اليوم

كانوا يعطوننا معاطف جديدة وفساتين جديدة. جميع المعاطف متماثلة، وكذلك جميع الفساتين متماثلة. تبدئين تعمّرينها، تضعين علامة، ولو كانت عقدة صغيرة أو ثنية، أن هذا لكِ... جزء منكِ... كانوا يقولون لنا، إن الوطن- هو أسرتنا، وهو يهتم بنا. قبيل الاصطفاف بمناسبة الأول من أيار كانوا يُحضرون إلى الساحة راية حمراء كبيرة. وكان يقرع الطبل. حدثت معجزة ذات مرة! قدم إلينا جنرال وهنّأنا. كنا نقسم جميع الرجال إلى جنود وضباط، وهذا كان جنرالاً. كان يرتدي سروالاً بشريطين. ارتقينا إلى حافة النافذة العالية، كي نرى كيف كان يجلس في السيارة ويلوح بيده لنا. سألتني فاليا كنورينا مساءً: «ألا تعرفين، ما معنى بابا؟» لم أكن أعرف (تصمت). كان عندنا ستوبكا... يكتف يديه، وكأنه يتحدث مع شخص ما، ويدور في الممر. يرقص مع نفسه. كان يضحكنا، لكنه لم يكن يعر أحداً اهتمامه. وذات يوم توفي، توفي دون أن يمرض. مات على الفور. بقينا فترة طويلة لم ننسه... كانوا يقولون إن أباه كان قائداً حربياً كبيراً جداً، وجنرالاً أيضاً. وبعد ذلك ظهرت عندي أورام تحت الإبط، وكانت تنفجر. وكان تؤلمني جداً لدرجة أنني كنت أبكي. إيغور كوروليوف قبّلني في الخزانة. كنا ندرس في الصف الخامس. وبدأت أتعافى. لقد بقيت حية... ثانية! (تكاد تطلق صرخة). وهل هذا أمر مهم لأحد ما؟ سمِّ لي: لِمن؟ هذا غير مهم وغير ضروري منذ زمن. لا وجود لبلادنا، ولن تقوم لها قائمة، ونحن موجودون... قدماء ومقرفون... بذكريات رهيبة وأعين مسمومة... نحن موجودون! وماذا بقي اليوم من ماضينا؟ بقي فقط أن ستالين سقى الأرض بالدماء، وغرس فيها خروتشوف الذرة، وكان الجميع يضحكون على بريجنيف... وأبطالنا؟ بدؤوا يكتبون في الصحف عن زويا كوسمودميانسكايا أنها كانت مريضة بالشيزوفرينيا بعد ما أُصيبت في طفولتها بالتهاب السحايا وكان لديها هوس بإحراق البيوت.

إنها مريضة نفسياً. أما ألكسندر ماتروسوف فقد رمى بنفسه وهو سكران على الرشاش الألماني، ولم يكن ينقذ رفاقه. وبافكا كورتشاغين لم يعد بطلاً... إنهم زومبي، روبوتات سوفييتية! (هدأت قليلاً). أما أنا فما زالت تراودني أحلام المعتقل حتى الآن... حتى الآن لا يمكنني النظر بهدوء إلى الكلاب البوليسية... وأخاف من أي شخص يلبس البذلة العسكرية... (من خلال دموعها). لا يمكنني العيش على هذا النحو أكثر... فتحت عينيّ... فتحت عينات الغاز الأربعة... أغلقت فتحات النوافذ الصغيرة، وأغلقت الستائر بشكل كتيم. لم يبق لدي شيء رهيب عندما أموت... (تسكت). ولم يبق هناك ما يبقيني حية... مثل رائحة رأس طفل صغير... لا توجد لدي حتى شجرة تحت النافذة... أسْطُح... أسطح... (تصمت). وضعتُ باقة ورد على الطاولة... فتحت الراديو... وأخيراً... أرقد... أرقد على الأرض... وكل أفكاري من هناك... على أية حال... هَأنذا أخرج من بوابات المعتقل... بوابات حديدية، وهي تغلق بصرير خلف ظهري. أنا حرة، لقد أطلقوا سراحي. أمشي وأقنع نفسي: لا تلتفتي إلى الخلف! كنت أموت من الخوف، ألا يلحقني أحد ويعيدني. ويكون عليّ أن أعود. قطعت مسافة صغيرة ورأيت على الطريق شجرة بتولا... شجرة بتولا عادية... ركضت إليها، أعانقها، وألصق جسدي بكامله بها، وعلى مقربة كانت هناك شجيرة، عانقتها أيضاً. كم من السعادة كانت في العام الأول... من كل شيء! (تستغرق في الصمت). شمت الجارة رائحة الغاز... كسر رجال الشرطة الباب... صحوت في المستشفى، والفكرة الأولى: أين أنا؟ هل من جديد في المعتقل؟ وكأنه لم تكن عندي حياة أخرى، وليس لدي شيئاً آخر. عدت أسمع الأصوات أولاً... ثم الألم... كل شيء كان يسبب لي الألم: أية حركة، بلع الهواء، تحريك اليد، فتح عينيّ. كان جسدي هو العالم كله. ثم اتسع العالم وأصبح أعلى: رأيت الممرضة في ردائها

الأبيض... والسقف الأبيض... لم أعد إلى الحياة إلا ببطء شديد. كانت تموت فتاة إلى جانبي، بقيت تنازع عدة أيام، كانت ترقد وكلها مغطاة بالأنابيب، وأنبوب في فمها، لم يكن في استطاعتها الصراخ. ولماذا كان من غير الممكن إنقاذها؟ أنا أيضاً كنت أنظر إلى هذه الأنابيب وأتصورها بتفاصيلها: هَأنذا أرقد... لقد متُّ... لكنني لا أعرف أنني متُّ ولم يعد لي وجود. فقد سبق أن كنت هناك... (توقفت). أولم تمليّ من سماعي؟ لا؟ قولي يمكنني أن أسكت...

أمي... أمي قدمت لعندي عندما أصبحتُ إلى الصف السادس. بقيتْ في المعتقل اثنتي عشرة سنة. ثلاث سنوات كنت معها، وتسع سنوات بصورة منفصلة. والآن حولونا إلى البلدة وسمحوا لنا بالسفر معاً. كان هذا صباحاً... كنت أمشي في الفناء... ناداني شخص ما: «آنتشكا! آنيو تشكا!». لم يكن هناك من يناديني، لم يكن هناك من يناديني باسمي. رأيت امرأة بشعر أسود، وصرختُ: «ماما!». عانقتني بصراخ رهيب: «مثل بابا!». كنت في شبابي أشبه أبي كثيراً. يا للسعادة! كم من المشاعر المختلفة، كم من الفرح! عدة أيام لم أكن أتذكر نفسي من السعادة، لم أشعر بعد ذلك أبداً بمثل هذه السعادة. كم من المشاعر المتنوعة... ولكن سرعان ما اتضح، أننا لا نفهم إحدانا الأخرى. نحن غرباء. أردت الانتساب إلى الشبيبة الشيوعية، كي أناضل ضد الأعداء غير المرئيين الذين يريدون تدمير حياتنا الأفضل. أما هي فكانت تنظر إليّ وتبكي... وتلوذ بالصمت... دوماً كانت تخاف من شيء ما. في كاراغاندا أعطونا وثائقنا وحولونا إلى المنفى، إلى مدينة بيلوفو. إنها بعيدة، بعد أومسك. في أعماق سيبيريا... بقينا في القطارات شهراً كاملاً. نسافر ونسافر، وننتظر وننتقل من قطار لآخر. في أثناء الطريق كنا نسجل وجودنا في فرع أمن الدولة، وكانوا دوماً يحددون لنا حركتنا. من المحظور السكن في منطقة محاذية للحدود، من المحظور السكن على

مقربة من المنشآت الدفاعية، والمدن الكبرى. قائمة طويلة من الأماكن المحظورة. حتى الآن لا يمكنني رؤية الأنوار المسائية في المنازل. كانوا يطردوننا ليلاً من المحطات، كنا نمشي في الشارع. العواصف الثلجية، الصقيع. كانت الأنوار مشعلة في المنازل، وكان فيها أناس، كان يعيشون في الدفء ويغلون الشاي. كان علينا أن نقرع الأبواب... وهذا هو الشيء الأشد رهبة... لم يكن هناك من يسمح لنا بالمبيت... «تفوح منا رائحة المساجين». كما كانت أمي تقول. (تبكي. دون أن تلاحظ أنها تبكي). في بيلوفو بدأنا نعيش في شقة، في جورة أرضية. ثم عشنا في كوخ أرضي، وأصبح هذا كوخنا. مرضت بالسل، ولضعفي كنت عاجزة عن الوقوف على قدمي، وأسعل بصورة رهيبة. شهر أيلول/ سبتمبر... جميع الأطفال يتهيؤون للمدرسة، وأنا لا أستطيع المشي. نقلوني إلى المستشفى. أذكر أنه في المستشفى دوماً كان هناك من يموت. ماتت سونتشكا... فانتشكا... مات سلافيك... لم أكن أخاف الموتى، لكنني لم أكن أريد الموت. كنت أطرز وأرسم بصورة جميلة جداً، والجميع كان يمدحني: «يا لك من فتاة موهوبة! عليك أن تدرسي». فأخذت أفكر: ولماذا إذاً عليَّ أن أموت؟ ويمعجزة ما بقيت حية... ذات يوم فتحت عينيّ فوجدت على الطاولة باقة من زهر الكرز. ممَّن؟ لكنني أدركت أنني سأعيش... سوف أعيش! عدت إلى البيت؛ إلى الكوخ الأرضي. أمي كانت تعاني في هذه الفترة من سكتة دماغية دورية. لم أستطع التعرف عليها... رأيت امرأة هرمة. في اليوم نفسه نقلوها إلى المستشفى. لم أعثر في البيت على أي طعام، ولا رائحته. خجلت من أن أطلب من أحد... عثروا عليّ على الأرض أتنفس بصعوبة. أحدهم أحضر طاسة من حليب الماعز الدافئ... هذا كل شيء... هذا كل ما أذكره عن نفسي... كيف كنت أموت ثم أعيش... ثم أموت... (ثانية التفت إلى النافذة). تحسنت صحتي قليلاً... اشترى الصليب الأحمر لي

تذكرة سفر، وأجلسوني في القطار. أرسلوني إلى بلدي سمولنسك إلى ملجأ الأطفال. وهكذا عدت إلى بيتي... (تبكي). لا أعرف لماذا... لماذا أبكي؟ فأنا أعرف كل شيء، كل شيء عن حياتي... وهناك أكملت عامي السادس عشر... وأصبح عندي أصدقاء، وأخذوا يغازلونني... (تبتسم). كانوا شباباً جميلين، راشدين. ولكن كانت عندي تلك الميزة: كنت أخاف عندما أحوز على إعجاب أحد ما. رهيب أن تلفتي انتباه أحد. لقد لاحظك. كان من المستحيل مغازلتي، لأنني كنت آخذ معي صديقتي إلى الموعد الغرامي. وعندما كانوا يدعونني إلى السينما لم أكن أذهب وحدي. في الموعد الأول مع زوج المستقبل ذهبت مع صديقتين. بقي زوجي يتذكر هذا طويلاً...

يوم موت ستالين... أخرجوا كامل سكان ملجأ الأطفال إلى الرتل، ووضعوا الراية الحمراء. واستمرت وقفتنا في الرتل طيلة مدة الجنازة، نحو ست أو ثماني ساعات. كان هناك من سقط على الأرض... أنا كنت أبكي... لقد كنت أعرف كيف سأعيش من دون أمي. ولكن كيف سأعيش من دون ستالين؟ كيف العيش من دونه؟ لسبب ما كنت أخشى أن تشتعل الحرب (تبكي). ماما... بعد أربع سنوات... كنت أدرس في معهد العمارة المتوسط... عادت أمي من المنفى. عادت إلى الأبد. عادت هي مع حقيبة خشبية، وفيها بطة من الزنك (ما زالت حتى الآن عندي، لا أستطيع رميها). وملعقتان من الألومنيوم وكومة من الجوارب النسائية الممزقة. كانت أمي تؤنبني: «أنت ربة منزل سيئة. لا تعرفين الرتق». كنت أعرف الرتق، لكنني كنت أدرك أن هذه الثقوب الكبيرة في الجوارب النسائية لا يمكن رتقها من قبل أية معلمة خياطة! كان راتبي الشهري الطلابي ثمانية عشر روبلاً، وراتب أمي التقاعدي أربعة عشر روبلاً. كان هذا نعيماً بالنسبة إلينا - يمكنكِ أكل الخبز كما ترغبين، وكان يكفينا للشاي. كانت عندي

بذلة رياضية وفستان من القطن خطته بنفسي. كنت أذهب إلى المعهد المتوسط في البذلة الرياضية شتاءً وخريفاً. وكان يبدو لي... كان لديَّ هذا التصور... أن عندنا يتوفر كل شيء. عندما أدخل إلى بيت عادي، إلى أسرة عادية، أجلس كالذئبة. علام كل هذه الأشياء؟ كل هذه الملاعق والشوك والفناجين؟ كانت تربكني الأشياء البسيطة... أبسط الأشياء... لماذا، مثلاً، زوجان من الأحذية؟ لا أزال حتى الآن غير مبالية بالأشياء، وغير مهتمة بالأشياء المنزلية. اتصلت بي كِتّي: «أبحث عن فرن غاز بلون بني». بعد الصيانة، تنتقين للمطبخ كل شيء بلون بني- موبيليا، ستائر، أوعية منزلية، كما هي في مجلة أجنبية. تمسك لساعات سماعة الهاتف. شقتها مغطاة بالدعايات والصحف، تقرأ كل شيء في زاوية "أبيع-أشتري"، «وهذا أريده! وهذا»... في السابق كان كل شيء بسيطاً في البيت عند الجميع، آنذاك كنا نعيش، عموماً، ببساطة. أما الآن؟ لقد تحول الإنسان إلى معدة... إلى كرش... أريد! أريد! أريد! (لوحت بيدها). نادراً ما أزور ابني... في بيتهم هناك كل شيء جديد، وغالي الثمن. كما في المكتب. (تصمت). نحن غرباء... أهل غرباء... (تصمت). أريد أن أتذكر أمي عندما كانت شابة. لكنني لا أذكرها شابة... أذكرها مريضة فقط. لم يعانق أحدنا الآخر أبداً، ولم نتبادل القبلات، ولم تكن بيننا كلمات الدلال. لا أذكر... فقدتنا أمهاتنا مرتين: المرة الأولى عندما أخذونا من بيوتهن صغاراً، والمرة الثانية عندما عُدن إلينا هرمات، ونحن كبار. الأطفال كانوا غرباء... لقد بدَّلوا لهن أولادهن... كانت تربيهم أم أخرى: «الوطن أمكم... أمكم». «أيها الصبي، أين أبوك؟». «ما يزال في السجن». «وأين أمك؟». «الآن في السجن». كنا نتصور والدينا في السجن وحده. هناك بعيداً جداً... لم يكونوا يوماً إلى جانبنا... في فترة من الزمن كنت أريد أن أهرب من أمي إلى ملجأ الأطفال. وكيف لا؟ كيف... كانت لا تقرأ الصحف ولا تأتي إلى

المسيرات الرسمية، ولا تسمع الإذاعة. لم تكن تحب الأغاني التي كانت تؤثر في شغاف قلبي... (تغني بصوت خافت): ولن يتمكن العدو أبداً/ من أن يحني رأسكِ/ عزيزتي عاصمتي/ عاصمتي موسكو الذهبية...». كان الشارع يجتذبني، وكنت أذهب إلى العروض العسكرية، وأحب الأعياد الرياضية. حتى الآن أذكر هذا التحليق! أنت تمشين مع الجميع، أنتِ أصبحت جزءاً من شيء كبير ضخم... هناك كنت سعيدة، وليس مع أمي. وهذا خطأ لن أصححه أبداً. سرعان ما توفيت أمي. لم أعانقها وأنظر إليها إلَّا ميتة. كانت آنذاك راقدة في النعش، واستيقظ عندي هذا الحنان! هذا الحب! كانت ترقد في جزمتها اللبادية... لم يكن عندها لا حذاء ولا صندل، أما حذائي فلم يكن يدخل في قدميها المتفخختين. كم قلت لها من كلمات الملاطفة والدلال، وكم من الاعترافات! فهل سمعتها أمْ لم تسمعها؟ كنت أقبلها وأقبلها، وأقول لها كم أحبها... (تبكي). كنت أشعر أنها لا تزال هنا... كنت واثقة...

تخرج إلى المطبخ. وسرعان ما نادتني: «الغداء على الطاولة. أنا دائماً أتغدى لوحدي، وبودي أن أتناول طعام الغداء مع أحد ما».

لا يصح أبداً العودة... لأن... نعم... كيف كنت أركض إلى هناك! كم كنت أريد! خمسون عاماً... بعد خمسين عاماً كنت أعود إلى هذا المكان... في ذهني نهاراً، وليلاً، كنت هناك...

الشتاء... كنت أشاهد الشتاء في أحلامي غالباً... في الشارع صقيع قاتل، بحيث لا ترين كلباً ولا طائراً. الهواء زجاجي، والدخان من المداخن يخرج عمودياً إلى السماء. أواخر الصيف يتوقف العشب عن النمو طولاً، ويتغطى بغبار سميك. وأنا... فكرت مرة في الذهاب إلى هناك. وكانت قد بدأت البيريسترويكا. وجاء غورباتشوف... والمسيرات... كان الجميع

يسيرون في الشوارع. ويشعرون بالفرح. اكتبي ما تريدين، اصرخي بما تريدين وحيثما تريدين. الحُـر يِّـة! الحـر يِّـة! مهما كان، هناك ما ينتظرنا في المستقبل لكن الماضي انتهى. نتوقع شيئاً ما آخر... عاجزون عن الصبر... وجاء الخوف من جديد. فترة طويلة كنت أخشى أن أفتح الراديو صباحاً: فجأة قد ينتهي كل شيء؟ أو ألغوا الحرية. كنت غير واثقة فترة طويلة. قد يأتون ليلاً وينقلوننا إلى الملعب الرياضي. كما حصل في تشيلي... إستاد واحد كاف "للأذكياء"، والباقي سيلوذون بالصمت من تلقاء أنفسهم. ولكن لم يأت أحد... ولم ينقلونا... بدؤوا ينشرون في الصحف ذكريات سجناء معتقل غولاغ. وصورهم، أعينهم! كيف كانت أعينهم! كانوا ينظرون وكأنهم من العالم الآخر... (تسكت). وقررت: أريد... عليَّ أن أذهب إلى هناك! لماذا؟ أنا نفسي لا أعرف... ولكن عليَّ الذهاب... أخذت إجازتي... الأسبوع الأول... الثاني... لم أستطع أن أعزم أمري، أعثر على أسباب مختلفة: تارة عليّ الذهاب إلى طبيب الأسنان، تارة أخرى لم أدهن بعد باب الشرفة. هراء فارغ. صباحاً... حدث هذا صباحاً... أدهن باب الشرفة وأكلم نفسي: «غداً سأسافر إلى كاراغاندا». هكذا قلت بصوت عالٍ. وأدركت أنني سأسافر. أسافر، لقد قررت! ما هي كاراغاندا؟ إنها سهب نظيف، عار لمئات الكيلومترات، محرق صيفاً. في عهد ستالين شُيِّدت على هذا السهب عشرات من المعتقلات والمعسكرات: ستبلاغ، كارلاغ، آلجير... بيسشانلاغ... نقلوا إليها مئات الألوف من المعتقلين... العبيد السوفييت. مات ستالين، فدمروا الأكواخ، وأزالوا الأسلاك الشائكة وأصبحت مدينة. مدينة كاراغاندا... أسافر! الطريق طويل... تعرّفت في القطار على امرأة... معلمة من أوكرانيا. كانت تبحث عن قبر أبيها، وهذه هي المرة الثانية التي تسافر فيها إلى كاراغاندا: «لا تخافي». كانت تعلّمني فقد اعتادوا

هناك أن يفد إلى مدينتهم أناس غرباء من كل أنحاء العالم ويتحدثون مع الأحجار». كان معها رسالة من أبيها، وهي رسالته الوحيدة لها من المعسكر: «...على أية حال، تبقى الراية الحمراء هي الأفضل»... هكذا اختتم رسالته... بهذه الكلمات... (تستغرق في التفكير). هذه المرأة... كانت تحدثني، أن أباها وقع وثيقة بأنه جاسوس بولندي. قَلَب المحقق المقعد الخشبي الذي كان يجلس عليه أبوها، ودق مسماراً في إحدى قوائم المقعد، وأجلسه عليه وكان يدور حول محور. وهكذا حقق هدفه: «حسناً، أنا جاسوس». المحقق: «جاسوس لمن؟». سأل الأب بدوره المحقق: «ولمن الجواسيس عادة؟». أعطاه خيارين - ألماني أو بولندي. «اكتب بولندي». كان يعرف باللغة البولندية كلمتين: "دزنكوي باردزو" أي (شكراً جزيلاً) و"فشيستكو يدنو" أي (كله مثل بعضه). كلمتان... أما أنا... فلا أعرف شيئاً عن أبي... ذات مرة اعترفت أمي... بأنه فقد عقله من التعذيب في السجن. وكان يشرب هناك دوماً المسكرات... كان يسافر معنا في غرفة القطار شاب. كنا نتحادث طيلة الليل، ونبكي... في الصباح نظر إلينا هذا الشاب: «يا للرعب! وكأنني أمام فيلم رعب!». عمره ثمانية عشر أو عشرون عاماً. يا إلهي! كم قاسينا وعانينا، وليس هناك من نروي له. فنحن نروي لبعضنا بعضاً...

ها هي مدينة كاراغاندا... أحدهم أخذ يمزح: «اخرجوا! إلى المخرج مع أشيائكم!». من يضحك... ومن يبكي؟ في المحطة... أول ما سمعته من الكلمات: «شالاوا... كورفا... لياغوفيي»[1] لغة المساجين المألوفة. على الفور تذكرت جميع هذه الكلمات... على الفور! انتابتني قشعريرة. لم أستطع أبداً تهدئة هذا الرجفان في داخلي، طيلة الفترة التي مكثتها، كان كل شيء يرتجف في أحشائي. المدينة ذاتها لم أستطع

(1) شرموطة... قحبة... رجال الشرطة - المترجم.

التعرف عليها، بالطبع، ولكن من ورائها، وخلف الأبنية الأخيرة، يبدأ المنظر الطبيعي الذي أعرفه. عرفت كل شيء... فهنا رمل ناشف وغبار أبيض... ونسر في أعالي السماء... كما أن أسماء القرى مألوفة - فولني، ساغورودوك... جميع نقاط المعسكر السابقة. كنت أظن، لن أتذكر، لكنني تذكرت. في الباص جلس إلى جانبي رجل مسن، أدرك أنني لست من السكان المحليين: «عمّن تبحثين؟». وبدأ حديثه: «هناك كان معسكر... أما الأكواخ؟ فقد هدّموها قبل عامين. ومن طوب الأكواخ بنى الناس لأنفسهم سقائف وحمامات. ووزعوا الأراضي لبناء البيوت الريفية والفِلل. وأحاطوا البساتين بأسلاك المعسكر الشائكة. لدى ابني هناك قطعة أرض... تعرفين أنه منظر غير مريح... في مزارع البطاطا الواطئة تُقتلع العظام في الربيع من الثلج. ولا يشعر أحد بالقرف، لأنهم اعتادوا، الأرض كلها هنا مليئة بالعظام والأحجار. يرمونها على الحدود ويدوسونها بجزماتهم. يمهدونها. لقد اعتادوا على ذلك. لم يمسوا سوى الأرض السوداء... يحركونها»... توقف تنفسي. كما لو أنني في حالة إغماء. التفت المسن إلى النافذة وقال مؤشراً: «هناك، خلف هذا المخزن التجاري، ردموا المقبرة. وخلف الحمام». أجلس دون تنفس. وماذا كنت أنتظر؟ أنه ستقام هنا أهرامات! وأن أهل كوراغاندا سينثرون المجد؟ «الخط الأول... الآن شارع... الخط الثاني... شارع»... أنظر في النافذة ولا أرى شيئاً، عمياء من الدموع. في المحطات والمواقف كانت الكازاخيات يبعن الخيار، والبندورة، وعنب الثعلب بالدلاء... «فقط من المناطق الواطئة. من بساتينهم». يا إلهي! يا إلهي... عليَّ أن أقول... كان من الصعب عليَّ أن أتنفس، شيء ما حدث لي هناك. وخلال بضعة أيام جف جلدي كله، وأخذت أظافري تتقصف. شيء ما حدث لجسمي كله. كان بودي أن أسقط على الأرض وأستلقي. ولا أنهض.

السهب... إنه كالبحر... مشيت ومشيت ثم سقطت... سقطت بالقرب من صليب حديدي صغير، مدفون في الأرض حتى شريطه. بدأت أصرخ، حدثت معي حالة هيستيرية. ولا أحد من حولي... الطيور وحدها... (بعد استراحة قصيرة). أقمت في فندق. في المساء في المطعم حزمة كبيرة من الدخان... الفودكا... تناولت مرة واحدة طعام العشاء فيه... خلف طاولتي كان رجلان يتناقشان بأصوات ممجوجة... الأول: «أنا حتى الآن أبقى شيوعياً. كان علينا أن نبني الاشتراكية. من كان سيكسر ظهر هتلر من دون مصانع ماغنيتكا وفاركوتا الحربية؟». الثاني: «لقد كنت أتحدث هنا مع كبار السن المحليين... وهم جميعاً كانوا يخدمون أو يعملون في المعسكر... لا أدري كيف أسميهم... طباخين، حراساً، موظفين بالرشوة. لم يكن هنا أي عمل آخر، وهذه وظيفة مشبِعة: راتب، وحصة غذائية وألبسة. هكذا يقولون: العمل. فالمعسكر بالنسبة إليهم هو عمل! خدمة حكومية! أما أنت فتتحدث عن جرائم ما، عن الروح والخطيئة. الشعب نفسه كان معتقلاً. والشعب نفسه كان يعتقل ويحرس، لم يكن هناك غرباء، ولم يُستدعوا من مكان ما، بل الشعب نفسه. شعبنا. إنهم الآن يرتدون القمصان المقلّمة. جميعهم ضحايا. المذنب هو ستالين وحده. فكِّر بنفسك... حساب بسيط... كان من المطلوب مراقبة ملايين المعتقلين، واعتقالهم، والتحقيق معهم، ومطاردتهم حسب مراحل اعتقالهم، وإطلاق النار على بعد خطوة منهم. هناك من كان يعمل... وعُثر على ملايين المنفِّذين»... أحضر لهما النادل الزجاجة الأولى، ثم الثانية... كنت أصغي... كنت أصغي! وهما كانا يشربان دون أن يثملا. أنا... كنت كالمشلولة، كنت جالسة ولم يكن في استطاعتي الخروج. الأول: «حدثوني أن الأكواخ بقيت طويلاً فارغة. مغلقة. ولكن في الليل كانت الريح تنقل من هناك صراخاً وأنيناً». الثاني: «شعوذة. أساطير. إن

مصيبتنا كلها أن السفاحين والضحايا هم السوفييت أنفسهم». وثانية: «لقد استلم ستالين روسيا عارية، فارغة، جافة، وتركها بقنابل ذرية»... هناك لم أغلق عيناي ثلاثة أيام بثلاث ليال. نهاراً، كنت أمشي وأمشي حتى السهب. كنت أزحف. حتى حلول الظلمة وإشعال الأنوار.

ذات مرة نقلني رجل بسيارته إلى المدينة، في الخمسين من العمر أو أكثر، من عمري. كان ثمِلاً قليلاً. وكثير الحديث. «تبحثين عن القبور؟ أتفهمك، يمكنني القول إننا نعيش في المقبرة. ونحن... باختصار، لا يحبون عندنا تذكر الماضي. محّرم، تابو! كبار السن ماتوا، إنهم آباؤنا، ومن ما يزال حياً، يلزم الصمت. تربيتهم، كما تعرفين، ستالينية. غورباتشوف، يلتسين... هما من أبناء اليوم... ومن يعرف، ماذا سيحدث غدا؟ إلى أين ستتجه». ومن كلمة لأخرى، عرفت أن أباه كان ضابطاً «مع الرتب على الكتف». في عهد خروتشوف، حاول السفر والانتقال من هنا، ولم يسمحوا له. جميعهم وقعوا وثائق بعدم إفشاء أسرار الدولة: سواء من كان معتقلاً، أو من اعتقَل غيره. ومن كان يحرس. كان من المستحيل السماح بخروجهم، فقد كانوا جميعهم يعرفون كثيراً، أكثر من اللازم. وقال إنه سمع أنهم لم يسمحوا بخروج حتى من كان يرافق قوافل المعتقلين. قد يبدو أنهم تخلصوا هنا من الحرب، ولكن كان في إمكانهم العودة من الجبهة بعد الحرب، أما من هنا، فمن المستحيل الخروج. إنها المنطقة... النظام... أدخلهم في صفوفه بلا عودة. كان يمكن للصوص والمجرمين وقطاع الطرق فقط الخروج من هنا. أما الباقون فقد عاشوا بعد ذلك معاً، وحدث أنهم كانوا يعيشون في بناء واحد، وفي ساحة واحدة. كان يكرر: «آه، حياتنا قاسية، كعلبة صفيح!». وكان يتذكر حادثة من طفولته... كيف تواطأ "المعتقلون" وخنقوا حارساً سابقاً... لأنه كان وحشاً... وكانوا في أثناء سُكرهم يعملون المشادات، ويشكلون أحدهم مع الآخر جداراً. كان

أبوه يشرب المسكرات كثيراً، يشرب ويبكي: «كـ... أمكم! طيلة حياتنا والقفل في فمنا. نحن حبة رمل صغيرة»... الوقت ليلاً. السهب. ننطلق معاً نحن الاثنان - ابنة الضحية وابن... كيف أسميه ابن الجلّاد؟ ابن سفاح صغير... إن الجلادين الكبار لا يمكنهم أبداً الاستغناء عن الجلادين الصغار. يحتاجون إليهم بأعداد كبيرة، أولئك الذين يقومون بالأعمال القذرة... وهكذا، نحن التقينا... وعم نتحدث؟ عن أننا لا نعرف شيئاً عن أبوينا، فقد التزما الصمت حتى الموت. أخذا أسرارهما معهما. ولكن يبدو أنني أمسكت بالرجل بالجرم المشهود، وسببت له إزعاجاً قوياً. حدثني أن أباه لم يكن يأكل السمك أبداً، ثم تحدث كيف أن السمكة تتغذى بجسم الإنسان. ارمِ إنساناً عارياً في البحر، بعد بضعة شهور لا يبق منه سوى العظام. عظامٌ بيضاء. كان يعرف هذا... من أين يعرف؟ عندما كان صاحياً يقظاً كان يلوذ بالصمت، وعندما يكون سكيراً كان يقسم أنه كان يعمل في كل مكان أعمالاً كتابية. يداه نظيفتان... كان يريد أن يثق ابنه بقوله هذا. فلماذا إذاً لم يكن يأكل السمك؟ كان يصاب بالإقياء من السمك. بعد موت الأب، عثر الابن على وثائق تثبت أن الأب كان يعمل عدة سنوات بالقرب من بحر أوخوتسك. هناك أيضاً كانت معسكرات... (تصمت). سكيراً... كان يثرثر... وينظر، ينظر إليّ هكذا حتى أنه صحا من سكره. صحا من سكره وخاف. لقد فهمت أنه شعر بالخوف. ثم فجأة صرخ بحقد بكلمات ما... بمعنى أنه يكفي نبش قبور الموتى! هذا يكفي! أنا أدركت... منهم، من الأبناء، لم يطلب أحد تواقيع بعدم إفشاء الأسرار، لكنهم أنفسهم كانوا يدركون أن ألسنتهم يجب أن تبقى خلف أسنانهم. في الوداع مد لي يده. أما أنا فلم أمد يدي... (بكت).

كنت أبحث حتى اليوم الأخير، كنت أبحث... وفي اليوم الأخير نصحوني: «اذهبي إلى يكاتيرينا دمتشوك. عجوز ستكمل عامها التسعين،

وتذكر كل شيء». اقتادوني إلى بيتها. رأيت بيتاً من الطوب بسياج عال. قرعت على خوخة الباب... خرجت... هرمة جداً... شبه عمياء. «قالوا لي إنك كنت تعملين في ملجأ الأطفال؟». «كنت معلمة». «لم يكن عندنا معلمون، بل كان عندنا رؤساء». لم تحر جواباً. ابتعدت وأخذت تسقي الحوض من الخرطوم. وأنا واقفة... ولم أخرج... لم أخرج! عندها اقتادتني دون رغبة إلى داخل البيت: في الغرفة صليب عليه المسيح، وفي الزاوية أيقونة. وتذكرت صوتها... لم أتذكر وجهها، بل صوتها، «أمك عدو. يمكن ضربك بل وقتلك». تعرفت عليها! أو ربما كنت أرغب كثيراً في أن أتعرّف؟ كان يمكنني ألا أسال، لكنني سألتها: «ربما، تتذكرينني؟ ربما»... «لا... لا أذكر أحداً. كنتم صغاراً، وكنتم تكبرون بصورة سيئة. ونحن كنا نتصرف حسب التعليمات». وضعت الشاي وأحضرت البسكويت... كنت أجلس وأصغي إلى شكاواها: ابنها مدمن كحول وأحفادها يشربون. زوجها توفي منذ زمن طويل، راتبها التقاعدي ضئيل. تعاني من أوجاع الظهر، الحياة في مرحلة الهرم مملة. هذا وضعي. هذا هو! التقينا بعد خمسين عاماً... كنت أتصور أنها هي... أتخيل في نفسي... التقينا وماذا في الأمر؟ وزوجي توفي منذ زمن، وتقاعدي ضئيل. وأعاني من وجع الظهر. أسعى وأبذل جهدي، ولا شيء غير ذلك. (تلزم الصمت). غادرت في اليوم التالي... ماذا بقي؟ الحيرة... والاستياء... ولكن لا أعرف ممّن! والسهب أراه في الحلم دوماً، أراه في الثلج تارة، وفي شقائق النعمان تارة أخرى. في مكان واحد، حيث كانت تقوم الأكواخ، يوجد مقهى وفي المكان الآخر بيوت ريفية. الأبقار ترعى. لم تكن هناك حاجة إلى العودة. لا! نبكي بمرارة، ونعاني على هذا النحو. ولماذا؟ لماذا كان كل هذا؟ ولكن بعد عشرين... خمسين عاماً... سيختفي كل شيء أثراً بعد عين، ويتحول إلى غبار، وكأننا لم نكن. سيبقى سطران في كتاب التاريخ

المدرسي. مقطع واحد. تبدأ الآن موضة سولجيتسين بالاختفاء وموضة تاريخ سولجيتسين. في السابق كانوا يعتقلون كل من يجدون عنده رواية سولجينتسين "أرخبيل غولاغ". كانوا يقرؤونها سراً، مضروبة على الآلة الكاتبة، ومنسوخة بخط اليد. كنت أثق... أثق بأنه إذا ما قرأها آلاف الناس، فسيتغير كل شيء. وسيحدث الندم، وتحضر الدموع. فما الذي حدث؟ كلما كان يكتبونه على الطاولة، ويطبعونه، وكل ما كانوا يفكرون فيه سراً قد صرحوا به. وماذا؟ هذه الكتب موجودة على بقايا رفوف الكتب يغطيها الغبار. ويمر الناس من أمامها مرور الكرام... (تصمت). نحن موجودون... ولا وجود لنا... حتى الشوارع التي كنت أعيش بجانبها لم يعد لها وجود. كان هناك شارع لينين. كل شيء تغير: الأشياء، الناس، النقود. كلمات جديدة ظهرت. كان هناك "رفاق"، والآن "سادة"، لكن هؤلاء "السادة" عندنا لا يتكيفون. الجميع يبحثون لأنفسهم عن جذور النبلاء. هذه هي الموضة! ومن أين جاء الأمراء والنبلاء من جديد. أما في السابق، فكانوا يفخرون بأنهم من العمال والفلاحين. جميعهم يرسمون علامة الصليب ويصومون. ويبحثون بجدٍ - هل الملكية ستنقذ روسيا أم لا؟ يحبون القيصر الذي كانت تسخر منه كل طالبة. بلادي غريبة عني، غريبة! سابقاً، عندما كان يجتمع الضيوف، كنا نناقش الكتب والمسرحيات... أما الآن: من اشترى وماذا اشترى؟ ماهي أسعار العملات؟ والنكات. دون شفقة، يمكن الضحك على الجميع. كل شيء مضحك. «بابا، من هو ستالين؟». «كان ستالين زعيمنا». «أنا كنت أظن أن الزعماء عند المتوحشين وحدهم». يُطرح سؤال على الراديو الأرمني: «ماذا بقي من ستالين؟». يجيب الراديو الأرمني: «بقي من ستالين غياران من الألبسة الداخلية، جزمة، عدة ستر واحدة منها للمراسم والأعياد، وأربع روبلات وأربعون كوبيكاً من العملة السوفييتية. وإمبراطورية جبارة». السؤال

الثاني: «كيف وصل الجندي الروسي إلى برلين؟». «إن الجندي الروسي ليس جريئاً لدرجة أن يتراجع». لم أعد أقوم بزيارات للضيوف. ونادراً ما أخرج إلى الشارع. وماذا أرى هناك؟ عيد الجشعين عابدي الذهب! لم تبق هناك أية قيم، سوى المحفظة والحقيبة. وأنا؟ أنا فقيرة، ونحن جميعاً فقراء. جيلي كله... الناس السوفييت السابقون... ليست لديهم حسابات في البنوك، ولا عقارات. وممتلكاتنا ومفروشاتنا سوفييتية أيضاً، وليس هناك من يعطي كوبيكاً ثمناً لها. أين رأسمالنا؟ كل ما هو موجود لدينا هي آلامنا، وما كنا نعانيه. لدي وثيقتان على ورقتين عاديتين من دفاتر التلاميذ: "أعيد اعتبارها"... و"أعيد اعتبارها... نظراً لانعدام قوام الجريمة"... واحدة لأبي وأخرى لأمي. في فترة ما... كنت أفتخر بابني... طيار حربي، كان يخدم في أفغانستان. الآن هو يتاجر في السوق... ضابط برتبة رائد. وسامان قتاليان! الآن تاجر بسطة! كان هذا يسمى سابقاً "استغلالاً"، اليوم يسمى "بيزنس". يحمل إلى بولندا الفودكا والسجائر وزلاجات، ويجلب من هناك الألبسة، والخردوات! يحمل إلى إيطاليا الكهرمان، ويجلب منها الأدوات الصحية المنزلية: المراحيض، والصنابير، والبانيوهات. تفوه! في أسرتنا منذ بدايتها لم يكن فيها باعة متجولون! كانوا يحتقرونهم! فلأكن من شريحة "السوفييت"... فهذه أفضل من "بع-اشترِ"...

هَأنذا أعترف لكِ... في الماضي كان الناس يعجبونني أكثر... كانوا ناسنا... لقد عشت تاريخي كله مع تلك البلاد. أما نحو هذه البلاد، كما هي الآن، فأنا لا مبالية، إنها ليست بلادي. (أرى أنها تعبت. أغلق المسجل. قدمت لي على ورقة رقم هاتف ابنها). أنت طلبت مني... ابني سيحدثك... لديه ما يخصه... تاريخه... أنا أعرف أن بيننا هوة... أعرف هذا... (من خلال دموعها). والآن اتركيني. أريد أن أبقى وحدي.

الابن:

لم يسمح لي طويلاً بالتسجيل. ثم فجأة اقترح عليّ هو بنفسه أن أسجل: «ما سأقوله سجليه... هنا نحن أمام التاريخ، وليس النزاعات العائلية، آباء وأبناء. لا تذكري الكنية. أنا لا أخاف، لكنه يزعجني».

... أنت تعرفين كل شيء... ولكن... ماذا يمكننا قوله عن الموت؟ ليس هناك من شيء مفهوم... ي-ي... آه- آه... و... و! مشاعر لا نعرفها أبداً...

حتى الآن تروقني الأفلام السوفييتية، ففيها أشياء لا تجدينها في الأفلام المعاصرة. وهذه "الأشياء" كنت أحبها أيضاً. كنت أحبها منذ طفولتي. وماذا بالتحديد؟ لا يمكنني التعبير. كنت أهتم بالتاريخ، وكنت أقرأ كثيراً، الجميع كانوا آنذاك يقرؤون، كنت أقرأ عن جماعة تشيليوسكين- وتشكالوف[1]... عن غاغارين وكوروليوف... لكنني بقيت مدة طويلة لا أعرف أحداث عام 1937. ذات مرة سألت أمي: «أين توفي جدي؟». فأغمي عليها. فقال أبي: «لا تسأل أمك أبداً عن هذا». كنت من أطفال أكتوبر، طليعياً، ومن غير المهم ما إذا كنت أؤمن بهذا أم لا. قد لم أكن مؤمناً؟ على الأغلب لم أكن أفكر... الكومسومول[2]. الأغاني أمام النار المشتعلة: إذا ما تبين أن الصديق فجأة / ليس صديقاً، ليس عدواً، بل مجرد باسم صديق... / ثم... (يشعل سيجارة). ما هو حلمي؟ حلمي كان

(1) تشيليوسكينتسي: جماعة من البحارة السوفييت قادت أول باخرة تعبر البحر المتجمد الشمالي والقطب الشمالي عام 1934. وقد غرقت سفينتهم وتم إنقاذها من قبل طيارين سوفييت. وحازوا على لقب أبطال الاتحاد السوفيتي - المترجم.
- تشكالوف: طيار سوفييتي قاد أول رحلة بطائرة تجريبية سوفييتية عام 1937 من موسكو إلى فانكوفر في الولايات المتحدة الأمريكية دون توقف. حاز على لقب بطل الاتحاد السوفيتي - المترجم.

(2) الشبيبة الشيوعية - المترجم.

أن أصبح عسكرياً. أن أطير! أن أكون ذا هيبة وجمال. جميع الفتيات كن يطمحن بالزواج من عسكري. كاتبي المفضل هو كوبرين. أنا ضابط! بذلة جميلة... موت بطولي! منادمة الرجال. الصداقة. كان هذا جذاباً، وينظر إليه الشباب بحماسة وإعجاب. ووالداي أيداني. كانا يربيانني حسب الكتب السوفييتية: "الإنسان أسمى"، "الإنسان المستحيل"، "الإنسان-كلمة فخر واعتزاز". كانوا يحدثونني عن الإنسان الذي لا وجود له... لا وجود له في الطبيعة... أنا ببساطة لا أستطيع أن أفهم، لماذا كان هناك هذه الأعداد الكبيرة من المثاليين؟ والآن اختفوا، ولم يعد لهم وجود. وأية مثالية لدى جيل البيبسي؟ إنهم براغماتيون. أنهيت المدرسة الحربية الجوية وكنت أخدم في كامتشاتكا، على الحدود، هناك حيث لا يوجد شيء سوى الثلج والتلال. الشيء الوحيد الذي كان يروقني في بلادي هو الطبيعة. المناظر الطبيعية الخلابة. نعم إنها تروقني! بعد عامين حولوني إلى الأكاديمية الحربية وأنهيتها بامتياز. نجوم جديدة على كتفيّ! منصب! ولو استشهدت لشيعوني على عربة مدفع ومع الأسهم النارية... (مع التحدي). أما الآن؟ تغيير الديكور... تحولت من ضابط سوفييتي برتبة رائد إلى رجل أعمال. أبيع الأدوات الصحية المنزلية الإيطالية... ولو تنبأ لي بهذا أيُّ متنبئ مثل نوستراداموس قبل عشر سنوات لما قبلت حتى بضربه؛ بل لضحكت من هذه النكتة. لقد كنت سوفييتياً بالمطلق، كان من المعيب أن أحب النقود، يجب أن أحب الحلم وحده (يدخِّن ويسكت). إنه أمر مؤسف... ينسى المرء أشياء كثيرة، لأن كل شيء يحدث بسرعة كبيرة. كما في المشكال (صندوق الدنيا). في البداية أحببت غورباتشوف، ثم خاب أملي فيه. كنت أذهب إلى المظاهرات وأصرخ مع الجميع: «يلتسين نعم! غورباتشوف لا!». كنت أصرخ: «فلتسقط المادة السادسة!». حتى أنني كنت ألصق بعض المنشورات. كنا نتحاور ونقرأ، ونقرأ ونتحاور. ماذا كنا نريد؟ كان

أهلنا يريدون أن يرووا كل شيء وأن يقرؤوا كل شيء. كانوا يحلمون بالعيش في الاشتراكية الإنسانية... الاشتراكية ذات الوجه الإنساني... والشباب؟ نحن... كنا مثلهم نحلم بالحرية. ولكن ما هي الحرية؟ مجرد نظريات... كنا نريد العيش كما في الغرب. وأن نسمع موسيقاه، ونرتدي الثياب مثل الغربيين، ونسافر إلى مختلف أنحاء العالم مثلهم. كان فيكتور تسوي يغني: «نريد التغيير... التغيير»... لم يكونوا يفهمون إلى أين وصلوا. كلهم كانوا يحلمون... ولم يكن هناك في المخازن الغذائية سوى عبوات ثلاثة ليترات من عصير البتولا ومخلل الملفوف. وعلب أوراق الغار. المعكرونة والزبدة والحبوب... وحتى السجائر تباع بالبطاقات... في طوابير الفودكا يمكن أن يقتلوك! سمحوا بنشر الكتّاب المحظورين بلاتونوف وغروسمان... أخرجوا القوات السوفييتية من أفغانستان. أنا بقيت حياً وكنت أظن أن كل من كان هناك هم أبطال. عدنا إلى الوطن، ولا وجود للوطن! بدلاً من الوطن بلاد جديدة، كان بودها أن تبصق علينا! كان الجيش ينهار، وأخذوا يسوِّدون سمعة العسكريين، ويشتمونهم. إنهم قتلة! تحولوا من حماة الوطن إلى قتلة. كان الجميع يتهموننا بكل شيء: الأحداث في أفغانستان، وفي فيلنيوس وفي باكو. وطالبوا بسفك دمائنا. كان من غير الآمن السير في المدينة بالبذلة العسكرية، يمكنهم أن يقتلوك. كان الناس مفعمين بالحقد لأنه لا وجود للمواد الغذائية ولا للحاجيات، ولا أحد يفهم شيئاً. في الفوج عندنا لم تكن الطائرات تطير لعدم وجود الوقود. طواقم الطيارين كانوا على الأرض يلعبون بالورق ويكرعون الفودكا. براتب الضابط كان من الممكن شراء عشرة أرغفة من الخبز لا غير. أطلق صديقٌ النار على نفسه... وآخر انتحر... كانوا يهربون من الجيش كل إلى جهة، فجميع العسكريين لديهم عائلاتهم... عندي طفلان وكلب وقط... فكيف نعيش؟ نقلنا الكلب في إطعامه من اللحم

إلى اللبن، وكنا نحن أنفسنا نمضي الأسابيع على العصيدة وحدها. كل هذا ينمحي من الذاكرة... أجل يجب تسجيله، طالما بقي هناك من يذكر. نحن الضباط... كنا في الليل نفرّغ العربات الحديدية من البضائع، ونعمل حرّاساً. ونعبِّد الطرق بالأسفلت. وكان يعمل معي مرشحون للدكتوراه في العلوم، وأطباء، وجراحون. حتى أنني أذكر كان بيننا عازف بيانو شهير من الفلهارمونيا. تعلمت تركيب السيراميك والأبواب المسلحة. وقيسي على ذلك... وبدأ البيزنس... كان هناك من يجلب الحواسيب... ومن يجلب سراويل الجينز "فاريل"... (يضحك). اتفق اثنان: أحدهم يشتري برميلاً من النبيذ والآخر يبيعه. من الأيدي! ذهب الأول للبحث عن النقود، ويفكر الثاني أين يبيعه؟ إنها نكتة وحقيقة. وقد حضر لعندي أمثالهما: جلبوا أبواط رياضية مختلفة، فبعناهم بثمنها طائرة عمودية... (وقفة).

لكننا تمكنا من البقاء أحياء! بقينا أحياء... والبلاد استعادت حياتها! ولكن ماذا نعرف عن الروح؟ نعرف أنها موجودة فقط. أنا... أصدقائي... كل شيء عندنا طبيعي... لدى واحد منا شركة بناء، ولدى آخر مخزن تجاري للمواد الغذائية؛ أجبان، لحوم، مرتديلا، وثالث يتاجر بالمفروشات. لدى أحدهم رأسمال في الخارج، ولدى آخر فيلا في قبرص. أحدهم مرشح سابق للعلوم، والثاني مهندس. أناس أذكياء متعلمون. إنهم في الصحف يسخرون ويصورون "الروسي الجديد" بأنه يحمل سلسالاً من الذهب بوزن عشرة كيلوغرامات، ومانع الصدمات في سيارته من الذهب، والعجلات من الفضة. إنه فولكلورا في البيزنس الناجح يمكن أن تجِدي أي واحد، باستثناء الأغبياء. نجتمع... نحضِر معنا الكونياك الثمين، لكننا نشرب الفودكا. نشرب الفودكا وفي آخر الليل نتعانق ونغني صارخين الأغاني الكومسومولية: «الكومسومولين- متطوعون... / نحن أقوياء بصداقتنا الحقيقية الصادقة...». نتذكر كيف كنا نذهب لجمع محصول البطاطا

عندما كنا طلاباً ونتذكر حوادث مضحكة من الحياة العسكرية. باختصار، نتذكر الزمن السوفييتي. أتفهمين؟ وتنتهي أحاديثنا دوماً على النحو التالي: «اليوم بلا حدود. نحن في حاجة إلى ستالين». على الرغم من أن أوضاعنا جيدة، أقول لك. وماذا يعني هذا؟ خذيني أنا كمثال... بالنسبة إليَّ، أنا أحتفل بعيد الثورة في السابع من نوفمبر/ تشرين الثاني. أحتفل احتفالاً عظيماً. إنني أشعر بالشفقة عليه. وفي الحقيقة أقول... من ناحية، هناك الحنين... النوستالجيا، ومن ناحية ثانية، هناك الخوف. الجميع يريدون الرحيل، والخروج من البلاد. جمع المال والرحيل. وأطفالنا؟ جميعهم يحلمون بدراسة المحاسبة والتخرج محاسبين. ولكن إذا ما سألتِهم عن ستالين فلا يعرفون عنه شيئاً أبداً! إليك تصوراً تقريبياً... أعطيت لابني كتاب سولجينتسين ليقرأه، فكان يضحك دوماً. أسمعه يضحك. بالنسبة إليه الاتهام بأن شخصاً ما عميل لثلاثة أجهزة مخابرات أصبح مضحكاً. «بابا... ليس هناك من محقق واحد مثقف، ففي كل كلمة من كلماته خطيئة إملائية، حتى كلمة أطلق النار يكتبونها بصورة غير صحيحة»... إنه لن يفهمني ولن يفهم أمه أبداً لأنه لم يعش يوماً واحداً في البلاد السوفييتية. أنا وابني... وأمي... نحن جميعاً نعيش في بلدان مختلفة، رغم أنها كلها روسيا. لكننا مرتبطون أحدنا بالآخر بصورة مخيفة. بصورة مخيفة! جميعنا نشعر بأننا مخدوعون...

الاشتراكية هي خيمياء، نظرية خيميائية. حلّقوا إلى الأمام... غير معروف إلى أين وصلوا. طرفة: «لمن أتوجه كي أنتسب إلى الحزب الشيوعي؟». «إلى الطبيب النفسي». أما بالنسبة إليهم... والدينا... أمي... فهم يريدون أن يسمعوا أنهم عاشوا حياة طويلة مبدعة وكانوا يؤمنون بما كان يستحق الإيمان. وماذا يسمعون؟ إنهم يسمعون من جميع الجهات أن حياتهم مليئة بالخراء، ولم يكن عندهم أي شيء سوى صواريخهم

ودباباتهم المرعبة. كانوا مستعدين لصد أي عدو. وصدّوه. ولكن انهار كل شيء من دون أية حرب. لا أحد يستطيع أن يفهم لماذا؟ هنا لا بد من التفكير... لكنهم لم يعلمونا التفكير. كلهم يتذكرون الخوف... ويتحدثون عنه... قرأت لا أذكر أين، أن الخوف هو أيضاً شكل من أشكال الحب. أظن أن هذه كلمات ستالين... اليوم المتاحف فارغة... لكن الكنائس غاصة بالناس، لأننا نحن جميعاً في حاجة إلى معالجين نفسيين، إلى جلسات العلاج النفسي. أتظنين أن تشوماك وكاشبيروفسكي يعالجان الجسد؟ إنهما يعالجان النفس. مئات الألوف من الناس يجلسون أمام شاشات التلفزيون ويصغون إليهما، وكأنهم منوَّمون مغناطيسياً. إن هذا مخدِّر! الشعور الرهيب بالوحدة... بالعزلة... بالتخلي عن كل شيء... لدى الجميع، من سائق التكسي والموظف في المكتب إلى الفنان الكبير والأكاديمي. جميعهم في عزلة بصورة جنونية. وقيسي على ذلك... وهلمَّ جرا... هكذا تغيرت الحياة بشكل كلي. العالم الآن ينقسم بطريقة أخرى: ليس إلى "بيض" و"حمر"، وليس إلى من اعتُقل ومن اعتقَل، أو إلى من قرأ سولجينتسين ومن لم يقرأه، بل إلى من هو قادر على الشراء ومن هو غير قادر. هذا لا يعجبك؟ واضح... أنه لا يعجبك... وكذلك أنا... لا يعجبني... أنت، بل وحتى أنا كنا رومانسيين... أما ساذجو الستينيات؟ إنهم طائفة من الناس الشرفاء كانوا يؤمنون بأن الشيوعية ستسقط، وأن الإنسان الروسي الآن سيندفع لتعلم الحرية، وقد اندفع ليتعلم الحياة. ليتعلم الحياة! يريد تجريب كل شيء، ولعق كل شيء، وقضم كل شيء. هذا طعام لذيذ، وهذه ثياب الموضة... الرحلات... أراد أن يرى أشجار النخيل والصحراء، والجِمال... لا أن يحرق ويحترق، ولا أن يركض دوماً مع المشعل والفأس. لا، مجرد أن يعيش، كما يعيش الآخرون... في فرنسا وموناكو... فقد لا يتمكنوا بعد ذلك! أعطوهم الأرض، وقد يأخذونها

منهم، سمحوا لهم بالتجارة، وقد يضعونهم في السجون. ويصادرون المعمل، والمحل التجاري. أن يثقب هذا الخوف في دماغه. ويحفره. أي تاريخ هذا؟! يجب جمع المال بسرعة. لا أحد يفكر في شيء ما عظيم... ضخم... فقد أُتخموا من العظمة! يودون شيئاً إنسانياً، عادياً، طبيعياً... عادياً، أتفهمين؟ أما عن الأشياء العظيمة فيمكن تذكرها هكذا، حسب المزاج... مع الفودكا... كنا أول من حلق في الفضاء... وسبكنا أفضل الدبابات في العالم، ولكن لم يكن عندنا مسحوق للغسيل ولا أوراق تواليت. فمراحيضنا الملعونة كانت دوماً تسرِّب الماء الممزوج بالبول! وكانوا يغسلون أكياس النايلون ويجففونها على الشرفة. أما الفيديو المسجل فكان أشبه بالطائرة العمودية الشخصية. شاب بسروال الجينز- ليس حسداً له، بل اهتمام تزييني... من باب الغرابة والأشياء الخارجة عن المألوف! هذا هو الأجر الذي كنا ندفعه! كنا ندفعه من أجل الصواريخ وسفن الفضاء. ثمناً للتاريخ العظيم! (وقفة). لقد شهّرت لك كثيراً... الجميع اليوم يريدون أن يتكلموا، ولكن لا أحد يسمع الآخر...

في المستشفى إلى جانب أمي كانت ترقد امرأة... عندما دخلت إلى تلك الغرفة، كانت هذه المرأة أول من رأيت فيها. ذات مرة، كنت ألاحظ كيف كانت تريد أن تقول شيئاً لابنتها ولم تستطع: «م- ما... م- مو...». جاء زوجها، حاولتْ أن تتكلم معه فلم تستطع. التفتت إليَّ: «م - ما...» ومدت يدها آنذاك إلى عكازها، وبدأت تضرب به القطارة والسرير... لم تكن تحس بأنها تضرب وتكسر... كانت تريد أن تتكلم... فمع من يمكن اليوم أن نتكلم؟ قولي لي مع من؟ والإنسان لا يمكنه العيش في الفراغ...

طيلة حياتي كنت أحب أبي... إنه أكبر من أمي بخمس عشرة سنة، وشارك في الحرب. لم تحطمه الحرب كما حطمت الآخرين، وارتبطت الحرب في نفسه كأهم حدث في حياته. حتى الآن يذهب إلى الصيد، وصيد

الأسماك. وهو راقص جيد. تزوج مرتين، وفي المرتين تزوج من امرأتين جميلتين. من ذكريات طفولتي معه... نذهب إلى السينما، أوقفني والدي قائلاً: «انظر، أي أم جميلة عندنا!». لم يكن عنده طموح حيواني للحرب، كما هو لدى بقية الرجال الذين حاربوا: «أطلقت النار أسقطت فريستي، خرج اللحم من أحشائها، كما يخرج من مفرمة اللحم». يتذكر بعض الأشياء البريئة. والسخافات. كما في يوم النصر حيث ذهب مع صديقه إلى القرية بحثاً عن الفتيات، وأسرا ألمانيين. كان الألمانيان قد نزلا في حفرة مرحاض ريفي، وصلت حتى حنجرتيهما. أشفقا عليهما ولم يطلقا النار، فالحرب انتهت. لقد أطلقا النار في أثناء الحرب بما فيه الكفاية. ولكن كان من المستحَيل الاقتراب منهما... كان أبي سعيد الحظ: كان في الإمكان قتله، ولم يقتلوه، كان من الممكن اعتقاله قبل الحرب، ولم يسجنوه. كان عنده شقيق أكبر؛ العم فانيا، وقد كان مصيره مغايراً، في الثلاثينيات، في أثناء رئاسة يجوف لجهاز أمن الدولة. نفوه إلى المناجم بالقرب من فوركوتا في سيبيريا. عشر سنوات من دون حق المراسلة. زوجته، التي كان يضطهدها زملاؤها في العمل رمت بنفسها من الطابق الخامس. نشأ الابن عند جدته. لكن العم فانيا عاد... عاد بيد جافة ذابلة، من دون أسنان وبكبِد منتفخ. أخذ يعمل من جديد في المعمل، وفي وظيفته نفسها، وجلس في مكتبه نفسه، وخلف طاولته نفسها... (يدخن سيجارة من جديد). وكان يجلس مقابله من كان قد وشى به. كان الجميع يعرفون... والعم فانيا كان يعرف، أنه هو الذي وشى به... وكما في السابق، كانا يذهبان معاً إلى الاجتماعات والمسيرات. ويقرآن صحيفة "البرافدا"، ويؤيدان سياسة الحزب والحكومة. وكانا في الأعياد يشربان الفودكا على طاولة واحدة. وما شابه ذلك... هؤلاء نحن! وهذه حياتنا! هكذا نحن... تصوري الجلّاد وضحية معسكر أوشفيتز يجلسان في مكتب واحد، ويستلمان رواتبهما

من نافذة المحاسبة نفسها، وبوسامين متماثلين بعد الحرب. والآن براتب تقاعدي واحد... (يصمت). أنا أصادق ابن العم فانيا. إنه لا يقرأ سولجينتسين، ولا يوجد في بيته كتاب واحد عن معسكر الاعتقال. كان الابن ينتظر أباه، ولكن عاد شخصاً آخر... عاد حطام إنسان... مهروساً، محدودب الظهر. وسرعان ما انطفأ. كان يقول لابنه: «أنت لا تعرف، كيف يجب الخوف. أنت لا تعرف»... كان يظهر أمام عينيه دوماً المحقق... الرجل الضخم... وضع رأس إنسان في دلو البراز وتركه هكذا إلى أن اختنق. أما العم فانيا... فقد علَّقوه عارياً في السقف، وكانوا يُدخلون له في أنفه وفمه وفي كل ثقوب الجسم الإنساني غاز الأمونيا. تَبوّل المحقق في أذنه وأخذ يصيح: «أنت عليك أن تتذكر الأذكياء... الأذكياء!». وتذكر العم فانيا... ووقّع على كل شيء. ولو لم يتذكر لما وقّع، ولأغرقوا رأسه في دلو الخراء. ثم بعد ذلك رأى بعضاً ممن تَذكّرهم في الأكواخ... «من وشى؟». كانوا يخمنون. من وشى؟ من... أنا لست القاضي. وأنتِ لست القاضي. حملوا العم فانيا إلى الزنزانة على الحمالة المغطاة بالدم والبول. في برازه نفسه. أنا لا أعرف، أين ينتهي الإنسان... فهل تعرفين؟

أشعر بالشفقة على رجالنا الهرمين... يجمعون الزجاجات الفارغة في الملاعب، وليلاً يبيعون السجائر في محطات المترو. ينبشون حاويات القمامة. لكن كبار السن عندنا ليسوا بريئين... إنها فكرة رهيبة! محرّضة. أنا نفسي أشعر بالرهبة (يصمت). لكن لا يمكنني أبداً الحديث عن هذا مع أمي... حاولت... هيستريا! (يريد إنهاء الحديث، لكن يغير رأيه لسبب ما).

لو قرأتُ هذا أو سمعته من أحد ما لما صدقت. أما في الحياة فيحدث... يحدث كما في قصة بوليسية سيئة... لقائي مع إيفان د. هل من حاجة إلى اسم العائلة؟ لماذا؟ لم يعد بين الأحياء. وأبناؤه؟ الابن غير مسؤول عن أبيه. مثل قديم... نعم، والأبناء أنفسهم أصبحوا كباراً

في السن. والأحفاد، وأبناء الأحفاد؟ لن أتحدث عن الأحفاد، عن أبناء الأحفاد... إنهم لا يعرفون من هو لينين... العم لينين منسي. لقد أصبح مجرد نصب تذكاري (وقفة). أعود إلى اللقاء... ما إن حصلت على رتبة ملازم، نويت الزواج... من حفيدته. كنا قد اشترينا خاتمي الخطبة وثوب العرس للعروس. آنّا... هذا اسمها... اسم جميل، أليس كذلك؟ (يدخن سيجارة من جديد). كانت حفيدته... حفيدته الجميلة... الجميع في البيت كانوا يدعونها، على سبيل المزاح: "أبوجابا". من اختراعه... وتعني الفاتنة... وكانت تشبهه، ومن حيث الملامح الخارجية، تشبهه كثيراً. أنا ابن أسرة سوفييتية عادية كانت طيلة حياتها تعيش على الراتب من شهر لآخر، أما عندهم فتوجد ثريات الكريستال، والخزف الصيني وسيارة "جيغولي" جديدة. كل شيء - شيك! وكان عندهم سيارة "فولغا" قديمة لم يرغب الجد في بيعها. وما شابه ذلك... فسكنت عندهم، كنا في الصباح نشرب الشاي في غرفة الطعام بكؤوس ذات حاملات فضية. الأسرة كبيرة- أصهار وكنّات... وأحد أصهاره بروفيسور. عندما كان العجوز يغضب عليه، كان دوماً يردد العبارة نفسها: «نعم أنا منهم... كانوا يأكلون خراءهم عندي»... نعم... ميزة... لكنني آنذاك لم أكن أفهم... لم أكن أفهم! بعد ذلك بدأت أتذكر... بعد ذلك... كان يفد إليه الطلائعيون، يسجلون ذكرياته، ويأخذون صوره للمتحف. خلال وجودي كان قد مرض، وجلس في البيت، أما في السابق فكان يخطب في المدارس ويعقد ربطات العنق للتلاميذ المتميزين. إنه محارب قديم مميز، ضيف شرف. يستلم في كل عيد في صندوقه البريدي بطاقة تهنئة كبيرة، وكل شهر يستلم حصة غذائية خاصة. ذهبت معه مرة لاستلام حصته... في أحد الأقبية أعطونا: فتيلة من السجق المجفف، وعبوة من الخيار والبندورة البلغارية المخللة، ومعلبات التون والسردين المستوردة، وعلبة كبد لحم الخنزير

الهنغاري، وعلبة بازلاء خضراء، وكبد السمك... في تلك الأزمنة كان كل هذا غير متوفر في الأسواق! كان امتيازاً. لقد حزت على إعجابه على الفور: «أحب العسكريين وأحتقر لابسي "الجاكيت"». وأراني بندقية صيده الثمينة: «أتركها لك». على جدران شقته الكبيرة كانت معلقة قرون الأيل، وكانت على الرفوف تقف حيوانات محنطة. وجوائز الصيد. كان صياداً مولعاً، ترأس طيلة عشر سنوات جمعية المدينة للصيادين وصيادي الأسماك. وماذا أيضاً؟ كان يحدثني كثيراً عن الحرب... في المعركة إطلاق النار على هدف بعيد - شيء... فالجميع يطلقون النار... أما أن تطلق النار على عدوك وهو قريب منك على بعد ثلاثة أمتار- فهذا شيء آخر... كان دوماً يفاجئني بشيء ما... لم أكن أشعر بالملل معه، كان يروقني هذا العجوز.

حضرت في إجازة... والعرس أصبح على الأبواب. منتصف الصيف. كنا نعيش جميعاً في فيلا كبيرة. فيلا ريفية من الفيلات القديمة الكبيرة... وليس الفيلات الحكومية بأربعمئة متر من الأرض. لا أذكر كم مساحتها، ولكن كانت تشمل جزءاً من غابة حيث أشجار الصنوبر القديمة. كانوا يعطون مثل هذه الفيلات لأصحاب المناصب العليا. لقاء خدماتهم المميزة. للأكاديميين والكتّاب الكبار. وله أيضاً... أستيقظ فأجد العجوز في البستان: «إن روحي روح فلاح. لقد وصلت إلى موسكو بالصندل». في المساء كان غالباً يجلس وحيداً على الشرفة ويدخن. لم يخفِ عليّ أي سر: خرّجوه من المستشفى ليموت، سرطان في الرئتين غير قابل للعلاج. ولم يتوقف عن التدخين. عاد من المستشفى حاملاً الكتاب المقدس: «طيلة حياتي كنت مادياً، وها قد عدت إلى الله عشية الموت». أهدته الكتاب المقدس الراهبات اللواتي يشرفن على رعاية المرضى المخطرين. كان يقرأ بعدسة مكبرة. كان قبل الظهر يقرأ الصحف، وبعد

استراحة الغداء والقيلولة يقرأ المذكرات الحربية. جمع مكتبة كاملة من المذكرات الحربية: جوكوف، روكوسوفسكي... هو نفسه كان يحب أن يتذكر... كيف رأى غوركي وماياكوفسكي... تشيليوسكيتسي... كان يكرر كثيراً: «الشعب يريد أن يحب ستالين وأن يحتفل بيوم النصر في التاسع من أيار/ مايو». كنت أتناقش معه: بدأت البيريسترويكا... ربيع الديمقراطية الروسية... كنت كتكوتاً صغيراً! بقينا في الفيلا نحن الاثنان، الجميع غادروا إلى المدينة. رجلان في فيلا لوحدهما. إبريق الفودكا الزجاجي. «بودي أن أبصق على حملة شهادة الدكتوراه! لقد عشت حياتي». «أسكب لك؟». «اسكب». ويبدأ الحديث... لم أستوعب على الفور... لم أدرك على الفور، أن من الواجب استدعاء كاهن. الإنسان يفكر في الموت... ليس مباشرة... في البداية دار حديث عادي لتلك السنوات: الاشتراكية، ستالين، بوخارين... وصية لينين السياسية التي أخفاها ستالين عن الحزب... عن كل ما كان يدور الحديث عنه علناً، وفي الصحف. شربنا. شربنا كثيراً! وفجأة بدأ بالتجريح: «أيها الصبي الفاسق! ما زلت غرّاً... أصغِ إليّ! لا يمكن إعطاء الحرية لإنساننا الروسي. "سيتبرز" على كل شيء! فهمت؟!». وأتبعها بشتيمة الأم. لا يمكن للإنسان الروسي أن يُقنع إنساناً روسياً آخر بدون شتيمة الأم. «أنت استوعبْ»... أنا... أنا بالطبع... أُصبت بصدمة! بصدمة! واستفرد هو بالحديث: «ضع القيود في أيدي هؤلاء الثرثارين وأرسلهم إلى المنفى في غابات سيبيريا. واعتقلْ المأجورين. الخوف ضروري. من دون خوف سينهار عندنا كل شيء في لحظة واحدة» (وقفة طويلة). نحن نعتقد أن الوحش يجب أن يكون بِقُرون وحوافر. وهنا يجلس أمامك إنسان يبدو عادياً طبيعياً... يستنسر... يمرض... يشرب الفودكا... وأنا أعتقد... آنذاك فكرت في هذا للمرة الأولى... دوماً، يبقى الضحايا الأبرياء ويقدمون شهاداتهم، أما الجلادون

فيلوذون بالصمت. يختفون في مكان ما، في ثقب غير مرئي. وليست لديهم أسماء ولا نِسب، ولا أصوات. يختفون دون أثر، ولا نعرف عنهم شيئاً.

في التسعينيات... كان ذلك الزمن، حيث لا يزال الجلادون أحياء... لقد كانوا خائفين... ظهرت في الصحف كنية المحقق الذي كان يعذب الأكاديمي فافيلوف. لقد حفظتها: ألكسندر خفات. كما نشروا بضعة أسماء أخرى. وقد أصابهم الرعب من أن يفتحوا الأرشيف المسمى "أرشيفاً سرياً". لم يتابع أحد هذا، ولم تكن هناك إحصائيات خاصة، ولكن حدثت عشرات من حوادث الانتحار. في جميع أنحاء البلاد، كانوا يشطبون كل ما يتعلق بانهيار الإمبراطورية... عن الإفقار... ولكن حدثوني عن انتحار كبار السن الميسورين المكرّمين من أصحاب الشخصيات. من دون سبب ظاهر. أحد الأسباب كان مشتركاً عاماً، جميعهم من العاملين في الأجهزة الأمنية. فهناك من استيقظ ضميره، وهناك من انتحر من الخوف من أن أسرته ستعرف. شعروا بالخوف. كانت عندهم لحظة من الرعب. لم يستطيعوا أن يفهموا ما الذي يدور من حولهم... ولماذا نشأ فراغ من حولهم... إنهم كلاب مخلصون! خدم بيروقراطيون! لم يرتجفوا جميعهم طبعاً... لا أذكر تماماً، في صحيفة "البرافدا" أو في مجلة "أوغونيوك" نشروا رسالة أحد الحرس العسكريين التابعين للأجهزة الأمنية. لم يشعر بالخوف! وصف باقة الأمراض التي يعاني منها، والتي اكتسبها من عمله في سيبيريا، كان يعمل حارساً لـ"أعداء الشعب" مدة خمسة عشر عاماً. لم يكن يشفق على صحته... إنها الخدمة، كان يشكو من أنها خدمة قاسية: صيفاً كان البعوض يأكله ويعذبه الحر، وشتاء الصقيع القارس. كتب يقول إنهم كانوا يعطون الجنود معاطف غير سميكة، غير دافئة، أما القادة الكبار فكانوا يلبسون معاطف من صوف الخرفان وجزمات مبطنة بالصوف والفرو. أما الآن، وبحسب قوله، فالأعداء الذين لم يستطيعوا القضاء

عليهم، يرفعون رؤوسهم... إنها الثورة المضادة! الرسالة كانت حاقدة... (وقفة). وهنا رد عليه المعتقلون السابقون... فهم لم يعودوا يخافون. لم يصمتوا. كتبوا كيف كانوا يربطون المعتقلين عراة بالأشجار، وكان الذباب الصغير والبعوض خلال اليوم يأكلهم بحيث لا يبقى منهم سوى هياكلهم العظمية. وكانوا يدلقون الماء الجليدي شتاء في درجة حرارة تصل إلى الأربعين تحت الصفر على المساجين بالأشغال الشاقة الذين لم يكملوا المعيار اليومي من العمل. كانت هناك عشرات من التماثيل البشرية الجليدية الواقفة أمامهم حتى فصل الربيع خصيصاً لإدخال الرعب في نفوسهم... (وقفة). لم يحاكموا أحداً! على الإطلاق! أكمل الجلادون آخر أيام حياتهم متقاعدين مكرّمين... وماذا أقول؟ لا تستدعي الندم، ولا تتصوري أن شعبنا هو شعب طيب، فليس هناك من هيأ نفسه للندم. فالندم هو عمل عظيم. أنا نفسي، أدخل إلى الكنيسة، لكنني لا أجرؤ على الاعتراف. أشعر بصعوبة... وفي الحقيقة، إن الإنسان يشفق على نفسه، وليس على أي شخص آخر. وهكذا... فالعجوز كان يركض على الشرفة... ويصرخ... لقد وقف شعر رأسي... وقف حقيقة! من كلماته. كنت قد عرفت الكثير بحلول هذه الفترة... فقد قرأت شالوموف... وهنا على الطاولة أمامه مزهرية ممتلئة بالحلوى والكراميل، وباقة من الورد... وموقف سلمي بالكامل. هذا التباين، كان يعززه باستمرار. كان موقفاً رهيباً ومثيراً. وللصراحة أقول: كانت الإثارة أكثر من الخوف... فالإنسان دوماً يود إلقاء نظرة على الحفرة الكبيرة. لماذا؟ هكذا خُلقنا.

عندما أخذوني للعمل في الأجهزة الأمنية، كنت أشعر بالفخر بشكل رهيب. ومن راتبي الأول اشتريت لنفسي بذلة جيدة...

تلك هي طبيعة هذا العمل... بمَ يمكن مقارنته؟ يمكن مقارنته بالحرب. لكنني في الحرب كنت أستريح. تُطلق النار على الألماني

فيصرخ باللغة الألمانية. أما هؤلاء... فكانوا يصرخون بالروسية... فهم منا وفينا... كان من الأسهل عليّ إطلاق النار على الليتوانيين والبولنديين. أما هؤلاء فكانوا يصرخون بالروسية: «حقراء! أغبياء! اقتلونا بسرعة!». كسـ...!! ونحن تغطينا بالدماء... كنا نمسح أكفّنا بشعرنا... أحياناً كانوا يعطوننا مناشف جلدية... تلك كانت طبيعة هذا العمل وهذه الخدمة. أنت شاب... بيريسترويكا! بيريسترويكا! تُصدق الثرثارين... فليصرخوا: الحرية! الحرية! وليركضوا في الساحات... الفأس جاهز. الفأس ينجّي صاحبه. حفظتها! كسـ...!! أنا جندي! أعطوني أمراً فنفذت، وأطلقت النار. يأمرونك - أنت ستنفذ. ســتــنــفــذ!! أنا كنت أقتل الأعداء؛ المخربين! كانت هناك وثيقة: محكوم بأعلى درجة من الحماية الاجتماعية... حكم الدولة... عمل هائل رهيب! من لا تعذبه حتى الموت وتقتله يسقط ويصرخ، كالخنزير... يقذف الدم... من المزعج جداً إطلاق النار على الإنسان الضاحك. فهو إما أنه فقد عقله، أو أنه يحتقرك. العويل والصراخ وشتائم الأم كانت تأتي من الجانبين. من المستحيل للمرء أن يأكل قبيل هذا العمل... لم يكن في استطاعتي... كنت دوماً أريد أن أشرب. الماء! الماء! كما بعد السُكْر الشديد... كسـ...!! بنهاية وردية العمل كانوا يحضرون لنا دلوين: دلو من الفودكا ودلو من ماء الكولونيا. كانوا يحضرون الفودكا بعد العمل وليس قبله. قرأت في مكان ما؟ يكتبون هذا وذاك... يكتبون كل شيء... ويختلقون الكثير... كنا نغتسل بالكولونيا حتى الحزام. رائحة الدم لاذعة، رائحة خاصة... تشبه قليلاً رائحة المني... كان عندي كلب رعي، بعد انتهاء العمل لم يكن يقترب مني. كسـ...!! لماذا تسكت؟ ما زلت شاباً... لم تدخل المعركة بعد... اسمع! نادراً... كان يحدث أن يأتي مقاتل، كان يروق له القتل... ولكن كانوا ينقلونه من فرقة القتل إلى مكان آخر. مثل هؤلاء لم يكونوا محبوبين. كان هناك كثير من القرويين،

مثلي، فالقرويون أقوى من أبناء المدن، أكثر احتمالاً، وأكثر اعتياداً على الموت؛ فمنهم من كان في بيته يذبح الخنزير، ومنهم من كان يذبح العجل، أما الدجاجة فكل منهم كان يذبحها. يجب أن يتعلم المرء التعامل مع الموت... في الأيام الأولى كانوا يقودوننا للمشاهدة... المقاتلون وحدهم كانوا يحضرون في أثناء الإعدام أو يحرسون المحكومين. كانت هناك حالات كانوا يفقدون عقولهم على الفور. لم يحتملوا. إنها مسألة دقيقة... أن تقتل أرنباً، ولا بد من الاعتياد عليها، وليس كل واحد بقادر. كســ... أمــ...!! تلزم السجين أن يجثو على ركبتيه، تطلق من المسدس مباشرة في الجزء الأيسر من النقرة... في منطقة الأذن اليسرى... فتعلق يدك في نهاية الوردية كما الجلد. وكانت السبابة تؤلم على نحو خاص. فعندنا أيضاً كانت هناك خطة، كما في أي مكان عمل آخر. كما في المصنع. من حيث الخطة لم نكن نتمكن من إنجازها في الفترة الأولى. جسدياً، لم نستطع تنفيذها. وعندها جمعوا الأطباء. نظموا مجلساً طبياً، وتم اتخاذ القرار التالي: عمل مساج لجميع المقاتلين مرتين في الأسبوع. مساج لليد اليمنى وللسبابة. كان مساج السبابة إلزامياً، فهي تتحمل العبء الأكبر من إطلاق النار. وقد بقي عندي صمم في الأذن اليمنى لأنني أطلق النار باليد اليمنى.

... أعطونا شهادتين: شهادة "أداء المهمة الخاصة للحزب والحكومة"، وشهادة "مخلصون لقضية حزب لينين وستالين". إن خزانتي مليئة بهذه الشهادات المطبوعة على ورق ممتاز. مرة واحدة في العام كانوا يرسلوننا إلى مصح جيد. غذاء ممتاز... كثير من اللحم... والعلاج... زوجتي لم تكن تعرف شيئاً عن عملي. عملي سري ومليء بالمسؤولية، هذا كل شيء. وقد تزوجت عن حب.

... في الحرب كنا نوفر الطلقات. إذا كان البحر قريباً... كنا نملأ البارجة بالمعتقلين المحكومين، كالسمك المملح في البرميل. وكان لا يُسمع من

العنبر صراخ، بل زعيق حيواني: «إن مقاتلنا الأبي لا يستسلم للعدو/ ولا أحد يطلب الرحمة»... كنا نربط يدي كل معتقل بسلك، ونربط رجليه بحجر. وإذا كان البحر هادئاً... صافياً... كان يمكننا طويلاً رؤية كيف يتجهون إلى القعر... ولماذا تنظر هكذا؟ صبي صغير! لماذا تنظر؟! كســ... أمــ...!! اسكب الفودكا! تلك هي طبيعة العمل... الخدمة... أحدثك كي تفهم: السلطة السوفييتية كلفتنا غالياً، ويجب حمايتها. والمحافظة عليها! نعود في المساء- البوارج فارغة. صمت مميت. فكرة واحدة عند الجميع: أن نخرج إلى الشاطئ- وهناك... أنيــ... كســ... أمــ... تحت السرير بقيت عندي حقيبة خشبية جاهزة سنوات طويلة: غيارات داخلية، فرشاة الأسنان، آلة الحلاقة. والمسدس تحت المخدة... كنت مستعداً لإطلاق رصاصة في جبيني. الجميع كانوا يعيشون هكذا في ذلك الزمن! الجندي والمارشال. وهنا كانت مساواة فيما بيننا.

بدأت الحرب... طلبت مباشرة الذهاب إلى الجبهة. فالموت في المعركة ليس رهيباً لهذه الدرجة. فأنت تعرف أنك تموت من أجل الوطن. كل شيء بسيط وواضح. اشتركت في تحرير بولندا وتشيكوسلوفاكيا... أنــ... كســ... أمــ...!! أنهيت مسيرتي النضالية بالقرب من برلين. لدي وسامان وميداليات. النصر! وبعدها حدث الآتي... بعد النصر اعتقلوني. كانت القوائم جاهزة لدى الوحدات الأمنية الخاصة... ضابط الأمن أمامه طريقان، أن يستشهد على أيدي العدو أو يُقتل على أيدي الأجهزة الأمنية. حكموني بسبع سنوات. بقيت في الاعتقال سبع سنوات كاملة. وحتى الآن... أنت تفهمني... أستيقظ حسب نظام المعتقل: في السادسة صباحاً. ما سبب اعتقالي؟ ما سبب اعتقالي: لم يقولوا لي. لماذا؟ أنــ... كســ... أ...!!

دَعك بعصبية علبة السجائر.

ربما كان يكذب. لا... لم يكن يكذب... أظن أنه لم يكذب... في الصباح وجدت ذريعة سخيفة ما، وغادرت. لقد هربت! العرس تقلقل. نعم... ن... عـ... م... وأي عرس؟ لم يعد في استطاعتي العودة إلى هذا البيت. لم أستطع! ذهبت إلى وحدتي العسكرية. العروس... لم تستطع أن تفهم، كانت تكتب الرسائل... وتعاني... وأنا كذلك... ولكن لا أتـحدث عن هذا الآن... ليس عن الحب... فهذه قصة مستقلة. أريد أن أفهم، وأنت تريدين أن تفهمي، ما هؤلاء الناس الذين كانوا؟ أليس صحيحاً؟ مع ذلك، فالقاتل شخص متميز، مهما قلنا، لا يمكن للقاتل أن يكون شخصاً عادياً. يجذبنا إليه الفضول وحب الاطلاع... الشر منوّم مغناطيسي... مئات الكتب عن هتلر وستالين. كيف كانا في سنوات الطفولة، في الأسرة، النساء المفضلات عندهما... النبيذ والسجائر... نهتم بكل التفاصيل والأمور الصغيرة. نريد أن نفهم... تيمور لنك، جنكيز خان- من هما؟ وملايين من النسخ الصغيرة عنهما... فهم أيضاً كانوا يرتكبون الجرائم الرهيبة، وقلة منهم من فقد عقله. أما الباقون فقد عاشوا حياة طبيعية: كانوا يقبّلون النساء ويلعبون الشطرنج. ويشترون الألعاب لأطفالهم... وكل منهم كان يفكر: هذا ليس أنا. لست أنا من كان يعلق المعتقلين على أعمدة الكهرباء ويضرب أدمغة المعتقلين بالسقف، ولست أنا من كان يغرز أقلام الرصاص الحادة في حلمات أثداء النساء. هذا ليس أنا، إنه النظام. ستالين نفسه كان يقول: لست أنا من يُقرِّر، بل الحزب... كان يعّلم ابنه: أتظن أنني أنا ستالين؟ كلا! ستالين، إنه هو! وأشار إلى صورته الكبيرة على الجدار. لم يشر إلى نفسه بل إلى صورته! آلة الموت... كانت آلة الموت تعمل دون توقف... عشرات السنين... ومنطقها كان عبقرياً: ضحية - جلاد، وفي النهاية الجلاد أيضاً ضحية. وكأنه ليس إنساناً من اخترعها... لا يوجد مثل هذا مكتملاً إلا في الطبيعة. الدولاب يدور، وليس هناك من مذنبين. كلا!

الجميع يطلبون الشفقة. الجميع - ضحايا. في نهاية السلسلة- الجميع، دون استثناء! هكذا! آنذاك كنت شاباً، شعرت بالخوف، تخدرت، أما لو كان اليوم لكنت سألته أكثر... عليّ أن أعرف هذا... لأي سبب؟ إنني أخاف... بعد كل هذا، أنني أعرف عن الناس، أخاف من نفسي. أخاف. أنا إنسان عادي... ضعيف... أنا أسود، وأبيض، وأصفر... من كل لون. كانوا في المدرسة السوفييتية يعلموننا أن الإنسان بحد ذاته جيد، طيب، إنه رائع. وأمي، حتى الآن، تؤمن أن الظروف الرهيبة تجعل الإنسان رهيباً. أما الإنسان فهو طيب. لكن هذا ليس كذلك... ليس كذلك! نـ... عـــــ... م... طيلة حياته يتأرجح الإنسان بين الخير والشر. فإما أن تَخز حلمة الثدي بقلم الرصاص الحاد... أو يخزونك... فاختر! اختر! كم مضت من السنوات؟ لا يمكنني أن أنسى كيف كان يصرخ: «أنا أشاهد التلفزيون، وأسمع الراديو. من جديد، أغنياء وفقراء. بعضهم يلتهمون الكافيار، ويشترون الجزر والطائرات، وبعضهم الآخر لا تكفيهم مواردهم لشراء الخبز الأبيض. لن يبقى الوضع عندنا هكذا طويلاً! وسوف يُسمّون ستالين عظيماً... الفأس موجود... الفأس ينجّي صاحبه... ستتذكر كلماتي... أنت سألت (أنا كنت أسأل) هل يموت الإنسان بسرعة، كم من الوقت يستغرق؟ أجيبك: رِجْل كرسي في أسته أو مخرز في كيس الصفن وينتهي الإنسان. هاها- هاها... ولا وجود للإنسان... جيفة لا غير! ها... ها»...

(عند الوداع) قلبنا التاريخ كله... آلاف من التنديدات، وأطنان من الحقيقة. الماضي بالنسبة إليهم، صندوق من اللحم وبرميل من الدم، وهو بالنسبة إلى الآخرين عصر عظيم... في المطابخ نحن نكافح ونتجادل كل يوم. ولكن سرعان ما سيكبر الأولاد... الأشبال، كما كان ستالين يسميهم... سيكبرون قريباً...

(يودعني ثانية، ويعود على الفور للحديث).

منذ فترة قصيرة، شاهدت في الإنترنت مجموعة صور للهواة... صور حربية عادية، إذا لم نعرف صور من هي. فريق قوات الحرس الخاصة من آوشفيتز... ضباط وجنود. وكثير من الفتيات. كانوا يتصورون في الأمسيات وفي النزهات. شباب مرحون (وقفة). وماذا بالنسبة إلى صور ضباط الأمن في المتاحف؟ انظري إليها بانتباه، يوماً ما: هناك بعض الوجوه الجميلة... والملهمة بينها... كانوا يعلموننا فترة طويلة أن هؤلاء مقدسون...

كان بودي أن أرحل من هذه البلاد، أو على الأقل أُرحِّل أولادي من هنا. نحن سنغادر. الفأس ينجّي صاحبه... لقد حفظتها...

بعد بضعة أيام يتصل بي ويرفض السماح بنشر حديثه هذا. لماذا؟ يرفض الشرح. ثم عرفت فيما بعد أنه هاجر مع أسرته إلى كندا. عثرت عليه بعد عشر سنوات، ووافق على نشر حديثه. وقال: «إنني مسرور من أنني هاجرت في الوقت المناسب. في فترة من الزمن كانوا يحبون الروس في كل مكان، أما الآن فيخافون منهم من جديد. ألا تشعرين بالرهبة؟».

القسم الثاني

سحر الفراغ

من ضجيج الشارع وأحاديث المطبخ

(2012-2002)

عن الماضي

- تسعينيات يلتسين... كيف نتذكرها؟ إنها زمن سعيد... عقد مجنون... سنوات رهيبة... زمن الديمقراطية الحالمة... تسعينيات الهلاك... زمن من ذهب... زمن فضح الذات... زمن حاقد وحقير... زمن ساطع... عدواني... عاصف... كان هذا زمني... لم يكن زمني!

- بدّدنا نحن حقبة التسعينيات! مثل هذه الفرصة، التي كانت لدينا، يندر أن تتكرر. وكيف بدأ كل شيء بداية جيدة في العام الحادي والتسعين! لن أنسى أبداً وجوه الناس الذين وقفت معهم أمام البيت الأبيض. لقد انتصرنا. كنا أقوياء. كنا نريد الحياة. تنعمنا بالحرية. أما الآن... الآن أفكر في هذا بطريقة أخرى... كم كنا ساذجين إلى درجة الاشمئزاز! أقوياء، شرفاء وساذجين. كنا نعتقد أن المرتديلا تنبع من الحرية. نحن مذنبون في كل ما حدث بعد ذلك... يلتسين، بالطبع، يتحمل المسؤولية، ونحن أيضاً...

أعتقد، أن كل شيء بدأ من أكتوبر/ تشرين أول. من أكتوبر عام ثلاثة وتسعين... "أكتوبر الدموي"، "أكتوبر الأسود"، "لجنة الدولة

للطوارئ-2"... هكذا يدعونه... نصف روسيا كان يتوق إلى الأمام، نصف روسيا الآخر كان يجرنا إلى الوراء. إلى الاشتراكية الرمادية. إلى الزمن السوفييتي الملعون. لم تستسلم السلطة السوفييتية. البرلمان الأحمر رفض الخضوع للرئيس. هكذا كنت أفهم الأمر آنذاك... بوّابتنا التي جاءت من قرية بالقرب من تفير، التي كنا نساعدها أنا وزوجتي مالياً، وأعطيناها كِل مفروشات البيت عندما قمنا بتجديد أثاث المنزل، في ذلك الصباح عندما بدأ كل شيء، رأت على صدري شارة عليها صورة يلتسين، وبدلاً من صباح الخير! قالت بحقد: «ستكون نهايتكم قريباً، أيها البورجوازيون» وابتعدت. لم أكن أتوقع. من أين عندها هذا الحقد نحوي؟ وعلام؟ الوضع كما في العام الحادي والتسعين... شاهدت في التلفزيون: البيت الأبيض يحترق، والدبابات تطلق نيرانها... ألوان الطلقات تسطع في السماء... الهجوم على مركز "أُستانكينو" التلفزيوني... كان الجنرال ماكاشوف في قلنسوته السوداء يصرخ: «لن يكون بعد الآن لا عمدة، ولا سادة ولا إيـ»... وكراهية... كراهية... برزت رائحة الحرب الأهلية، والدم. الجنرال روتسكوي من البيت الأبيض دعا بصراحة إلى الحرب: «أيها الطيارون! أيها الأخوة! ارتقوا بطائراتكم! واقصفوا الكرملين! هناك عصابة!». وفي اللحظة نفسها امتلأت المدينة بالآليات العسكرية. وظهر أشخاص غير معروفين بأقنعة. وعندها توجه يغور غايدار إلى: «الموسكوفيين، وجميع الروس الذين تعز عليهم الديمقراطية والحرية»... تماماً كما في العام الحادي والتسعين. جئنا... أنا جئت. كان هناك آلاف من الناس... أذكر أنني هربت إلى مكان ما مع الجميع، فتعثرت، ووقعت على يافطة "من أجل روسيا - دون بورجوازيين!". فتصورت على الفور ماذا ينتظرنا إذا ما انتصر الجنرال ماكاشوف... رأيت شاباً جريحاً، لم يكن قادراً على السير، وجذبته نحوي. سألني: «أنت مع من؟ مع يلتسين أو ماكاشوف؟». كان

هو مع ماكاشوف... إذاً من الأعداء. فشتمته وقلت له: «اذهب إلى...». وماذا أيضاً؟ انقسمنا بسرعة من جديد إلى "بيض" و "حمر". خلف سيارة الإسعاف السريع كان يرقد عشرات الجرحى... وتذكرت بدقة أنهم جميعهم كانوا بأحذية مهترئة، فكلهم كانوا من البسطاء، الفقراء. سألني مرة ثانية أحدهم: «من جررت؟ هو معنا أم ضدنا؟». من كانوا ضدنا لم تكن تأخذهم سيارات الإسعاف إلا فيما بعد، بقوا مرميين على الإسفلت ينزفون دماً... «هل أنتم مجانين!». «إنهم أعداؤنا!». حدث شيء ما للناس خلال هذين اليومين... عموماً، تغير شيء ما في الجو. على مقربة مني كان هناك أناس آخرون، لا يشبهون إلا قليلاً أولئك الذين وقفت معهم أمام البيت الأبيض. في أيديهم شُحذ حديدية ورشاشات حقيقية، كانوا يدعسونهم بالشاحنات العسكرية... الحرب! كل شيء جدي. كانوا يجمعون القتلى بالقرب من كابين الهاتف... وهنا الأحذية المهترئة... وعلى مقربة من البيت الأبيض كانت هناك مقاهٍ يشرب الناس فيها البيرة عادة. المتفرجون كانوا معلقين على الشرفات ويتابعون ما يجري كما في مسرح. وهنا على الفور... أمام عينيّ حمل رجلان من البيت الأبيض على يديهم جهاز تلفزيون، وكانت تبرز من جيوبهم سماعات الهاتف... وكان القتلة يطلقون النار بمرح من فوق. غالباً قنّاصة. فإما أن يصيبوا إنساناً أو جهاز التلفزيون... كانت تسمع أصوات الرصاص في الشوارع باستمرار... (يسكت). عندما انتهى كل شيء، وعدت إلى البيت، علمت: لقد قتلوا ابن جارتنا. شاب في العشرين من عمره. كان في الجانب الآخر من الحصار... عندما كنا نتناقش معه في المطبخ شيء، وأن تقتله شيء آخر تماماً... فما الذي حدث؟ هذا ما لم أرده... لأنه في الحشد... الحشد- إنه وحش، والإنسان في الحشد هو أبداً ليس ذلك الإنسان الذي تجلس معه في المطبخ وتتحدث. شربت الفودكا، شربت الشاي. ولن أذهب إلى أي

مكان ولن أسمح لأبنائي بالخروج... (يسكت). لا أعرف ما الذي كان: هل كنا ندافع عن الحرية أم كنا نشارك في انقلاب عسكري؟ لدي الآن شكوك... مئات من الناس استشهدوا... لا يتذكرهم أحد سوى أهلهم. «فلتحل البلية بمن يبني على الدم»... (يصمت). وماذا لو انتصر الجنرال ماكاشوف؟ لكان الدم المراق أكثر. لانهارت روسيا. ليست عندي أجوبة... كنت أثق بيلتسين حتى العام الثالث والتسعين...

آنذاك كان أبنائي صغاراً، لكنهم كبروا. واحد منهم متزوج. لقد حاولت عدة مرات... نعم... قمت بمحاولات... كنت أريد أن أحدثهم عن العام الحادي والتسعين... عن العام الثالث والتسعين... فهذا مهم بالنسبة إليهم. أعينهم فارغة. عندهم سؤال واحد فقط: «بابا، لماذا لم تصبح ثرياً في التسعينيات؟ كان هذا سهلاً». الحمقى والأغبياء وحدهم لم يحققوا الثراء. الأجداد واهنون... ثرثارو المطابخ... كانوا يركضون إلى المظاهرات والاجتماعات. تنشّقوا نسمات الحرية، في حين كان الأذكياء يتقاسمون فيما بينهم النفط والغاز...

- الإنسان الروسي إنسان هاوٍ، متعلق عاطفياً. يوماً ما كان متعلقاً بأفكار الشيوعية، وجسَّدها في الحياة بحماسة واندفاع، وبغيرة دينية، ثم تعب، ويئس، وقرر الانفصال عن العالم القديم، ونفض غباره عن قدميه. وهذا ما يقال بالروسية: البدء من الحضيض. ومن جديد تُخدِّرنا أفكار جديدة، كما يبدو لنا. إلى الأمام نحو انتصار الرأسمالية! قريباً سوف نعيش كما في الغرب! أحلام وردية...

- الحياة أصبحت أفضل.

- بالنسبة إلى البعض أفضل بألف مرة.

- عمري خمسون عاماً... أسعى إلى ألا أكون سوفييتياً. لكنني لا أنجح في هذا. أعمل عند مقاول من القطاع الخاص وأكرهه. لست موافقة على اقتسام الفطيرة الثمينة- الاتحاد السوفييتي، على "السطو والسلبطة". لا أحب الأغنياء. يفتخرون على شاشة التلفزيون بقصورهم، وبأقبية النبيذ عندهم... فليستحموا بالبانيوهات الذهبية التي اشتروها بحليب الأطفال. ولماذا عليَّ أن أشاهد هذا؟ لا يمكنني العيش معهم جنباً إلى جنب. إنه شيء مزعج ومعيب. وأنا لن أتغير. فقد عشت طويلاً في ظل الاشتراكية. الحياة اليوم أصبحت أفضل، لكنها مقززة أكثر.

- أستغرب، كم هناك من أعداد غفيرة من المعانين الذين يتوقون إلى السلطة السوفييتية!

- وعلام الجدال مع السوفييتيين. يجب الانتظار إلى أن يموتوا، ونبني كل شيء من جديد. والخطوة الأولى أن نرمي مومياء لينين من الضريح. ما هذه النزعة الآسيوية! المومياء ترقد كلعنة فوق رؤوسنا... كأثر سيء ضار...

- بهدوء، يا رفيق، هل تعلم أنهم الآن يتحدثون عن الاتحاد السوفييتي بشكل أفضل مما كانوا قبل عشرين عاماً؟ منذ فترة قصيرة كنت عند ضريح ستالين، هناك جبال من باقات الورد والقرنفل الأحمر.

- الشيطان وحده كان يعرف كم قتلوا من الناس، ولكن كان عندنا عصر عظيم.

- لا يروقني ما يجري الآن، ولست معجبة به. لكنني لا أريد أن أكون "سوفييتية". لا أتوق إلى الماضي. للأسف، ليس هناك من شيء جيد أتذكره.

- أما أنا فأريد العودة إلى الوراء. لست في حاجة إلى المرتديلا

السوفييتية، أنا في حاجة إلى تلك البلاد التي كان فيها الإنسان إنساناً. سابقاً كانوا يقولون «الناس البسطاء»، والآن يقولون «عامة الشعب». أتشعرين بالفرق؟

– أنا نشأت في أسرة منشق... وفي مطبخ منشق... والداي كانا على معرفة بالأكاديمي ساخروف، وكانا يوزعان كتباً محظورة مطبوعة على الآلة الكاتبة. ومعهما قرأت مؤلفات فاسيلي غروسمان، يفغيني غينزبورغ، دولاتوف... كنا نستمع إلى إذاعة "الحرية". وفي العام الحادي والتسعين كنت أقف بالطبع في الحصار حول البيت الأبيض، وكنت مستعداً للتضحية بحياتي كي لا تعود الشيوعية. لم يكن هناك شيوعيون بين أصدقائي. فالشيوعية عندنا كانت مرتبطة بالإرهاب، بمعتقل غولاغ، بالقضبان. كنا نعتقد أن الشيوعية ميتة، ميتة إلى الأبد. انقضى عشرون عاماً... دخلت إلى غرفة ابني ورأيت عنده على الطاولة كتاب ماركس "رأس المال"، وعلى رف الكتب كتاب تروتسكي "حياتي"... لم أصدق عينيّ! أيعود ماركس؟ ما هذه الكارثة؟ هل أنا في الحلم أم في الواقع؟ ابني كان يدرس في الجامعة، عنده كثير من الأصدقاء، بدأت أتنصت لأحاديثهم. يشربون الشاي في المطبخ، ويتناقشون حول "بيان الحزب الشيوعي"... الماركسية من جديد تحت حماية القانون، في الاتجاه، في علامتها التجارية. يلبسون قمصاناً عليها صور تشي غيفارا ولينين (بحركة يائسة). كل شيء كان عبثاً.

– للترفيه، إليكِ النكتة التالية... الثورة. في إحدى زوايا الكنيسة كان رجال الحرس الأحمر يسكرون ويتمشون، وفي زاويتها الأخرى كانت جيادهم تلوك الشوفان وتتبرز. يركض القندلفت إلى رئيس الدير: «أبتِ، ماذا يفعلون في المعبد المقدس؟». «هذا ليس بالأمر الرهيب. يقفون قليلاً ثم يخرجون. الرهيب سيكون عندما يكبر أحفادهم». وها هم قد كبروا...

– عندنا مخرج واحد: العودة إلى الاشتراكية، ولكن إلى الاشتراكية

الأرثوذكسية. لا يمكن لروسيا العيش من دون المسيح. لم تكن السعادة أبداً لدى الإنسان الزوسي مرتبطة بالأموال الكثيرة. وهذا ما يميز "الفكرة الروسية" عن "الحلم الأمريكي".

– روسيا ليست في حاجة إلى الديمقراطية، بل إلى الملكية. قيصر قوي وعادل. وأول مرشح للعرش رئيس الأسرة الإمبراطورية الروسية الأميرة العظيمة ماريا فلاديميروفنا، ومن بعدها أولادها.

– بيريزوفسكي اقترح الأمير هاري...

– الملكية؟ هذيان! ماض عتيق بال!

– القلب الملحد ضعيف وغير ثابت أمام الإثم. سيتجدد الشعب الروسي ببحثه عن الحقيقة الإلهية.

– حازت البيريسترويكا على إعجابي فقط في بدايتها. ولو قال لنا أحد ما، آنذاك، إن رئيس البلاد سيكون مقدَّماً في جهاز المخابرات ك.ج. ب...

– لم نكن مستعدين للحرية...

– حرية، مساواة، أخوة... هذه الكلمات أراقت محيطاً من الدماء.

– الديمقراطية كلمة مضحكة في روسيا. أقصر نكتة روسية: بوتين ديمقراطي.

– خلال هذه العشرين عاماً عرفنا الكثير عن أنفسنا. اكتشفنا أنفسنا. عرفنا أن ستالين هو بطلنا السري. صدرت عشرات الكتب والأفلام عن ستالين. الناس يقرؤونها، ويشاهدونها، ويتناقشون حولها. نصف روسيا تحلم بستالين. أخرجوا من الجحيم أشد الأموات شراً: بيريا، يجوف... أخذوا يكتبون عن بيريا أنه كان إدارياً موهوباً، يريدون إعادة اعتباره، لأنه تحت قيادته صنعوا القنبلة الذرية الروسية...

– ليسقط ضباط الأمن!

- من التالي؛ غورباتشوف جديد أم ستالين جديد؟ أم سيبدأ الصليب المعقوف؟ لقد ارتقت روسيا ونهضت من على الركب. لحظة خطيرة، لأنه من غير المسموح أن تُهان روسيا طويلاً.

عن الحاضر

- سنوات الألفين البوتينية... كيف هي؟ غائمة... رمادية... أمنيّة... دارجة... مستقرة... سيادية... أرثوذكسية...

- روسيا كانت إمبراطورية وستبقى دوماً إمبراطورية. نحن لسنا مجرد بلاد كبيرة، نحن ثقافة روسية مستقلة. لدينا طريقنا.

- الغرب حتى الآن يخاف من روسيا...

- ها هي ثرواتنا الطبيعية، الجميع في حاجة إليها، ولاسيما أوروبا. افتحي الموسوعة: روسيا من حيث احتياطيات النفط المركز السابع في العالم، ومن حيث الغاز المركز الأول في أوروبا، من المراكز الأولى باحتياطات خامات الحديد، والأورانيوم الخام، والقصدير، والنحاس، والنيكل والكوبالت... والألماس، والذهب، والفضة، والبلاتين... نمتلك جميع مكونات جدول مندلييف. صرح لي أحد الفرنسيين: «ولماذا كل هذا عائد إليكم؟ فالأرض واحدة، لنا جميعاً».

- مع ذلك، أنا إمبريالي، نعم. أريد أن أعيش في إمبراطورية. بوتين رئيسي! من المعيب أن تسمي نفسك الآن ليبرالياً، كما كان من المعيب في الأمس أن تسمي نفسك شيوعياً. فالرجال أمام كشك البيرة يمكنهم أن يضربوك على خدك.

- أكره يلتسين! كنا نثق به، فسار في اتجاه مجهول. ولم نصل إلى أية جنة ديمقراطية. بل وصلنا إلى حيث ما هو أشد رعباً من الماضي.

- ليست القضية في يلتسين أو في بوتين، بل في أننا عبيد. العبودية نفسها! دم عبودي! انظري إلى "الروسي الجديد"... إنه يخرج من سيارة "بنتلي" الفاخرة، والأموال تتساقط من جيوبه، لكنه عبد. يجلس العرّاب في الأعلى ويقول: «اذهبوا جميعاً إلى الكشك!» فيذهبون جميعاً.

- سمعتها في التلفزيون... سأل السيد بولونسكي: «هل عندك مليار؟ لا؟! إذاً اذهب إلى مؤخرتي!». أنا من أولئك الذين أرسلهم السيد الأوليغارشي إلى المؤخرة. أسرة عادية: الأب سكيّر، والأم تعمل في روضة الأطفال من أجل كوبيكات. نحن بالنسبة إليهم خراء، روث. أنا أتردد على عدة أحزاب. إلى الوطنيين، وإلى القوميين المتشددين... أصغي. وسيأتي زمن، وسيعطيني أحد ما بندقية في يدي. وسآخذها.

الرأسمالية عندنا لن تعيش. روح الرأسمالية غريبة عنا. لم تنتشر الرأسمالية خارج موسكو. ليس مناخها. وليس إنسانها. الإنسان الروسي ليس عقلانياً، ولا تجارياً، يمكنه أن يقدم القميص الذي يلبسه والوحيد الذي يملكه، وقد يسرق أحياناً. إنه عفوي، وهو متأمل أكثر مما هو شخصية فاعلة، قادر على الاكتفاء بالقليل. وتجميع الثروات ليست مثله الأعلى، إنه يمل من جميع الأموال. الشعور بالعدالة عنده مرهف جداً. علاوة على ذلك، فالإنسان الروسي لا يريد مجرد العيش، إنه يريد العيش من أجل مبدأ ما. إنه يريد المشاركة في قضية عظيمة. عندنا يمكنك أن تعثري على قديس أكثر من أن تجدي شريفاً، وناجحاً. اقرئي كلاسيكيات الأدب الروسي...

- لماذا عندما يسافر مواطنونا الروس إلى الخارج ينسجمون هناك بصورة طبيعية مع الحياة الرأسمالية؟ وفي بلادهم يحبون باستمرار الحديث عن "الديمقراطية المستقلة"، عن المدنية الروسية المستقلة، وعن أنه «في الحياة الروسية لا أساس للرأسمالية».

- عندنا رأسمالية غير صحيحة...

- ارمِ الأمل برأسمالية أخرى...

- كأن هناك رأسمالية في روسيا، ولا وجود للرأسماليين. لا وجود لرأسماليين روس جدد مثل ديميدوف وماروزوف قبل الثورة... أما الأوليغارشيون الروس فهم ليسوا رأسماليين، بل مجرد لصوص. وأي رأسماليين يمكن أن ينتج عن الشيوعيين والكومسوموليين السابقين؟ لست أشفق على خودوركوفسكي[1]. فليجلس وراء القضبان. لكن المؤسف أنه لوحده في السجن. فليكن هناك من يتحمل المسؤولية على ما عانيته في التسعينيات. استولوا على كل ما أملك، جعلوني عاطلاً عن العمل. الرأسماليون الثوريون الروس الجدد: غايدار، الملقب بالدب الحديدي... تشوبايس الأحمر... كانوا يجرون التجارب على الناس الأحياء مثل علماء الطبيعة...

- سافرت إلى القرية لعند والدتي. حدثني الجيران كيف أحرق أحدهم مزرعة صاحب شركة. تم إنقاذ الناس فيها، لكن الحيوانات احترقت. بقي سكان القرية يشربون الفودكا يومين احتفالاً. وأنت تقولين رأسمالية... عندنا في عهد الرأسمالية يعيش أشخاص اشتراكيون...

- في ظل الاشتراكية كانوا يعدوننا بأن الشمس تكفي للجميع كي يعيشوا تحتها. أما الآن فيقولون شيئاً آخر: يجب علينا أن نعيش حسب قوانين داروين؛ وعندها ستتحقق عندنا الوفرة. الوفرة للأقوياء، وأنا من الضعفاء. أنا لست مقاتلة... كان عندي خطة، تعودت العيش وفق خطة:

---

(1) - ديميدوف: أسرة معروفة من كبار الرأسماليين الروس الوطنيين قبل الثورة، كانوا يستخرجون الثروات الباطنية الروسية - المترجم.
- ماروزوف: من أسرة ماروزوف الرأسمالية الروسية التي اشتهرت بصناعة النسيج - المترجم.
- خودوركوفسكي: رجل أعمال وسياسي في عهد يلتسين، صاحب شركة نفط «يوكس». اعتقل في عهد بوتين - المترجم.

المدرسة، المعهد، الأسرة. نقتصد المال مع زوجي لشراء شقة تعاونية، وبعد الشقة لشراء السيارة... لقد كسروا الخطة. ورمونا في الرأسمالية... من حيث التخصص أنا مهندسة، كنت أعمل في معهد للتصاميم الهندسية، وكانوا يدعونه بـ "المعهد النسائي" لأن غالبية العاملين كنَّ من النساء. أجلس وأطوي الأوراق طيلة اليوم، كنت أحب أن يكون عملي نظيفاً، وأن أضع بصمتي. وكان من الممكن أن أبقى في عملي طيلة حياتي. فجأة بدأ تقليص الموظفين... لم يمسوا الموظفين الرجال، فعددهم كان قليلاً، ولم يمسوا الأمهات الوحيدات ومن بقي لهن حتى سن التقاعد سنة أو سنتان. علقوا قوائم المسرّحات، وكان اسمي بينهن... كيف سأعيش لاحقاً؟ شعرت بالحزن الشديد. فلم يعلموني العيش حسب قوانين داروين.

كنت آمل فترة طويلة أنني سأعثر على عمل باختصاصي. وكنت مثالية من هذه الناحية، بمعنى أنني لم أكن أعرف مكاني في الحياة، وقيمتي. فحتى الآن كنت في حاجة إلى عاملات فتيات في قسمنا، من أجل أحاديثنا النسائية. العمل عندنا في المركز الثاني، وفي المركز الأول التواصل، والحديث النسائي الصريح. كنا نشرب الشاي ثلاث مرات في اليوم، وكل واحدة كانت تروي قصتها. كنا نحتفل بجميع الأعياد، وبجميع أيام أعياد الميلاد... أما الآن... أتردد إلى بورصة العمل. بلا نتيجة. يطلبون للعمل دهّانين، وعمال الجص... صديقتي، التي درست معي في المعهد، أصبحت تعمل كنّاسة عند سيدة أعمال، تأخذ كلبها للنزهة... خادمة. في الفترة الأولى كنت أبكي من المذلة، أما الآن فقد اعتدت. لكنني لا أستطيع.

– أن تصوت للشيوعيين... هذا مفاجئ.

– على أية حال، لا يمكن للإنسان الطبيعي أن يفهم الستالينيين: مئة عام فقدتها روسيا دون أثر، وهم ينادون: المجد لأكلة لحوم البشر السوفيت!

– إن الروس الشيوعيين لم يعودوا شيوعيين منذ زمن. فالملكية

الخاصة التي اعترفوا بها لا تتطابق مع الفكرة الشيوعية. ويمكنني أن أقول عنهم ما قاله ماركس عن أتباعه: «أنا أعرف شيئاً واحداً، هو أنني لست ماركسياً». وقد عبر غينيه بشكل أفضل حيث قال: «أنا زرعت التنّين لكنني حصدت البرغوث».

- الشيوعية مستقبل الإنسانية. ما من خيار آخر.

- على بوابات معتقل سولوفيتسك كان الشعار البلشفي التالي معلقاً: "باليد الحديدية سندفع البشرية إلى السعادة". هذه إحدى وصفات إنقاذ البشرية.

- ليست هناك أية رغبة في الخروج إلى الشارع وفعل شيء ما. الأفضل عدم فعل أي شيء. لا خيراً ولا شراً. فما هو خير اليوم قد يصبح شراً غداً.

- الناس الأشد رهبة هم المثاليون...

- أنا أحب الوطن، لكنني لن أعيش هنا. لا يمكنني هنا أن أكون سعيدة، كما أريد.

- ربما أنا غبية... لكنني لا أريد الرحيل، على الرغم من أنني قادرة على ذلك.

- وأنا لن أرحل. الحياة في روسيا أكثر مرحاً. لا وجود لمثل هذه الحماسة في أوروبا.

- الأفضل أن نحب وطننا من بعيد...

- من المعيب اليوم أن يكون المرء روسياً...

- آباؤنا عاشوا في البلاد منتصرين، أما نحن فنعيش في البلاد التي خسرت الحرب الباردة. ليس هناك ما نفتخر به!

- لا أنوي الرحيل... عندي هنا أعمال. يمكنني القول بدقة إنه من الممكن العيش حياة طبيعية في روسيا، ولكن لا تقترب من السياسة.

جميع هذه الاجتماعات من أجل حرية الكلمة، وضد رهاب المثلية، لا تهمني...

- الجميع يتحدثون عن الثورة... ها هو الروبل قد انحدرت قيمته... الأثرياء يهربون، ينقلون رؤوس أموالهم إلى الخارج. يغلقون قصورهم، إعلانات البيع: "أبيع"... تغطي لوحات الإعلانات. يشعرون بأن الشعب يقف موقفاً حازماً. ولا يمكن لأحد أن يتخلى عن ثروته بصورة طوعية. عندها ستتكلم رشاشات كلاشنكوف...

- بعضهم يصرخ: «روسيا مع بوتين!». وآخرون: «روسيا من دون بوتين!».

- وماذا سيحصل عندما يرخص النفط أو يصبح غير مطلوب؟

- 7 أيار/ مايو 2012. يعرضون على شاشة التلفزيون موكب بوتين الاحتفالي وهو منطلق إلى الكرملين لتنصيبه في مدينة فارغة كلياً. لا ناس ولا سيارات. تطهير نموذجي. آلاف من رجال الشرطة والعسكريين ومقاتلي "آمون"[1] يناوبون أمام مخارج المترو ومداخل المنازل. تم تنظيف العاصمة موسكو من الموسكوفيين ومن ازدحام السيارات الأبدي. مدينة ميتة. إنه قيصر حقيقي!

عن المستقبل

قبل مئة وعشرين عاماً، أنجز دوستويفسكي روايته "الأخوة كارامازوف". تحدث فيها عن "الشباب الروس" الخالدين، الذين يقاربون باستمرار المسائل العالمية على الشكل التالي: هل هناك إله، هل هناك خلود؟ فهؤلاء يؤمنون بالله، وأولئك يتحدثون عن الاشتراكية والفوضوية،

---

(1) الوحدات الخاصة - المترجم.

عن تغيير البشرية كلها بطاقم آخر، فينتج الشيطان نفسه، فالمسائل نفسها، ولكن تُؤخذ من الطرف الآخر.

إن شبح الثورة يتراءى من جديد في روسيا. في 10 ديسمبر/ كانون أول 2011 - حشد هائل يقدر بمئة ألف في ساحة بولوتنيا. ومنذ تلك الأثناء مسيرات الاحتجاج لا تتوقف. فعم يتحدث "الشباب الروس" اليوم؟ وماذا سيختارون في هذه المرة؟

- أنا أتردد على المسيرات والاجتماعات، لأنه كفى الإمساك بنا كحمقى. أعيدوا الانتخابات، أيها البُغضاء! في المرة الأولى احتشد في ساحة بولوتنيا مئة ألف، لم يتوقع أحد أن يحضر مثل هذا العدد. لقد صبرنا، صبرنا طويلاً، وفي لحظة ما أصبح الكذب والفوضى خارج نطاق المحتمل: انتهى. يكفي! الجميع يشاهدون نشرات الأخبار أو يقرؤون الأخبار على الإنترنت. يتحدثون عن السياسة. أصبح وجود المرء في المعارضة موضة. لكنني أخشى... أخشى أننا جميعاً ثرثارون... نقف في الساحة، ونصرخ، ثم نعود إلى مواقعنا ونجلس لتصفح الإنترنت. ويبقى شيء واحد: «كم كانت رائعة هذه الأمسية!». فقد سبق أن اصطدمت بهذا: كان من الضروري للحشد الدوري رسم اليافطات، وتوزيع المنشورات - تفرق الجميع بسرعة...

- سابقاً، كنت بعيدة عن السياسة. كان يكفيني عملي وأسرتي، كنت أعتقد أن من العبث السير في الشوارع. كانت تجذبني أكثر نظرية الأعمال الصغيرة: كنت أعمل في دار السعادة للمسنين، صيفاً عندما احترقت الغابات بالقرب من موسكو، كنت أنقل المواد الغذائية والحاجيات إلى الذين احترقت بيوتهم. كانت هناك تجربة مختلفة... أما أمي فكانت دوماً تجلس أمام شاشة التلفزيون. ويبدو أنها كانت متأثرة بهذا الكذب والخداع والسارقين ذوي الماضي الأمني، فكانت تروي لي كل شيء.

ذهبنا إلى الحشد الأول معاً، وعمر أمي خمسة وسبعون عاماً. إنها ممثلة. اشترينا الورود، من باب الاحتياط. فلن يطلقوا النار على الناس الذين يحملون الورود!

- أنا وُلِدت بعد انهيار الاتحاد السوفييتي. إذا ما كان هناك شيء لا يعجبني أخرج إلى الشارع وأتمرد. ولا أتحدث عن هذا في المطبخ قبيل النوم.

- أنا أخشى الثورة... أعرف: أنه سيكون هناك تمرد روسي، عبثي بلا معنى وعنيف. ولكن أصبح من المعيب البقاء في البيت. أنا في حاجة إلى "اتحاد سوفييتي جديد"، "اتحاد سوفييتي مُحَدَّث"، "اتحاد سوفييتي حقيقي". أنا لا ينطلي عليَّ هذا، جلس الاثنان معاً وقررا: اليوم هو رئيس، وغداً أنا. الناس سيبلعونها. نحن لسنا قمامة، نحن شعب. في الحشود والمسيرات أرى أولئك الذين لم أرهم هناك قط: جيل الستينيات والسبعينيات المصقول في الصراع وكثيراً من الطلاب، وفي الأمس كانوا لا مبالين بما يوحونه ويبثونه لنا في التلفزيون... وسيدات في معاطف فرو المنك، وشباب جاؤوا إلى المسيرة بسيارات "المرسيدس". بالأمس كان يستهويهم المال، الحاجيات الثمينة، الرفاهية، ولكن تبين لهم أن هذا قليل. وهذا بالنسبة إليهم لا يكفي. مثلي أنا. يسيرون شبعين ممتلئي البطون وليسوا جائعين. اليافطات والشعارات... إبداع شعبي.. "بوتين، اخرج بنفسك!"، "أنا لم أُصوّت لهؤلاء الأوغاد، أنا صوّتُّ لأوغاد آخرين!". أعجبتني يافطة: "حتى إنك لا تمثّلنا". نحن لن نكن ننوي الانقضاض على الكرملين، أردنا أن نقول من نحن. انصرفنا وشهرّنا بهم: «سنعود ثانية».

- أنا إنسانة سوفييتية، أخاف من كل شيء. قبل عشر سنوات لم أكن لأقبل بالخروج إلى الساحة. أما الآن فلا أتخلف عن أي اجتماع أو حشد. كنت في شارع ساخاروف وفي شارع آربات الجديد. وفي المحلق

الدائري الأبيض. أتعلّم أن أكون حرة. لا أريد أن أموت سوفييتية، كما أنا الآن. أستنزف من ذاتي كل ما هو سوفييتي بالدلاء...

– أنا أذهب إلى الاجتماعات، لأن زوجي يذهب إليها...

– أنا إنسان لست شاباً. أريد أن أعيش في روسيا من دون بوتين.

– مللنا من اليهود، ومن رجال المخابرات، ومن المثليين...

– أنا يساري. أنا مقتنع: من المستحيل الوصول إلى أي شيء بالطرق السلمية. أنا أتوق إلى الدم! لا يمكن تحقيق إنجازات ضخمة عندنا من دون دم. لماذا نخرج؟ أقف وأنتظر، متى نهجم على الكرملين. هذه ليست ألعاباً. كان من الواجب الاستيلاء على الكرملين منذ زمن، وليس السير والصراخ. أعطني أمراً بأخذ الشوكة والمخل! أنا أنتظر.

– أنا مع أصدقائي... عمري سبعة عشر عاماً. ماذا أعرف عن بوتين؟ أعرف أنه لاعب جودو، حصل على المرتبة الثامنة في الجودو. ويبدو لي أن هذا كل ما أعرفه عنه...

– أنا لست تشي غيفارا، أنا جبانة، لكنني لم أتخلف عن مظاهرة واحدة. أريد أن أعيش في بلاد لا أشعر بالخجل منها.

– لديَّ هذا الطبع الذي يملي عليّ أن أكون في المتاريس. هكذا تربيت. أبي ذهب متطوعاً للقضاء على آثار الهزة الأرضية في سبيتاك. ولهذا مات مبكراً بالسكتة القلبية. أنا منذ طفولتي لا أعيش مع أبي بل مع صورة أبي. كل إنسان يقرر بنفسه ما إذا كان سيذهب إلى المسيرة والحشد أم لا. أبي ذهب من تلقاء نفسه... وكان في إمكانه ألا يذهب... صديقتي أيضاً أرادت الذهاب معي إلى ساحة بولوتنيا، ثم اتصلت هاتفياً: «أتفهمين؟ عندي طفل صغير». وأنا عندي أم عجوز. أنا أذهب، وهي تبتلع حبوب الدواء "فوليدول". ومع ذلك فأنا أذهب...

- أريد أن يفخر بي أبنائي...

- هذا ضروري بالنسبة إليَّ من أجل احترامي لذاتي...

- يجب المحاولة لعمل شيء ما...

- أنا أؤمن بالثورة... والثورة هي عمل طويل وشاق وعنيد. في عام 1905 انتهت الثورة الروسية الأولى بالانهيار والهزيمة. وبعد اثني عشر عاماً، في عام 1917، انطلقت على نحو بحيث أطاحت بالنظام القيصري ومزقته إِرَباً. وستكون عندنا ثورتنا!

- أنا أذهب إلى المسيرة، وأنتِ؟

- أنا شخصياً تعبت من العام الحادي والتسعين... ومن العام الثالث والتسعين... لا أريد ثورات بعد الآن! أولاً، من النادر أن تكون الثورات مخملية، وثانياً، لدي تجربة: حتى إذا ما انتصرنا، سيحدث كما حدث في العام الحادي والتسعين. النشوة تنتهي بسرعة. وسيسيطر اللصوص والنهّابون على ساحة المعركة. سيأتي أتباع الأوليغارشيين الروس غوسينسكي وبيريزوفسكي وأبراموفيتش...

- أنا ضد المظاهرات والحشود المعادية لبوتين. عموماً، هناك قوتان محركتان في العاصمة. موسكو وبطرسبورغ تؤيدان المعارضة والأرياف والضواحي تؤيد بوتين. وهل حياتنا سيئة؟ ألا نعيش أفضل من السابق. من الرهيب أن نفقد هذا. الجميع يذكرون كيف كنا نعاني في السنوات التسعينيات. لا أحد يريد أن نحطم من جديد كل شيء ونهدر الدماء.

- أنا لست من أنصار نظام بوتين. لقد سئمنا من "القيصر الصغير"، نريد رؤساء متبدلين. والتغييرات، بالطبع، ضرورة، وليس الثورات. ولا يروقني عندما ينزعون الإسفلت ويضربون به الشرطة...

- لقد دفعت وزارة الخارجية الأمريكية ثمن كل شيء مسبقاً. الدمى

المماثلة للغرب. وفق وصفتهم قمنا مرة بالبيريسترويكا، فماذا نتج عنها؟ اقتادونا إلى تلك الحفرة! أنا لا أتردد على هذه المظاهرات، بل على المسيرات المؤيدة لبوتين! أنا أؤيد روسيا القوية!

- خلال السنوات العشرين الأخيرة تغيرت اللوحة عدة مرات. والنتيجة؟ التعويذة الأخيرة: "بوتين ارحل! بوتين ارحل!". أنا لا أتردد على هذه المسرحيات. سيرحل بوتين. ويجلس على العرش حاكم مستبد جديد. وكما كانوا يسرقون، سوف يسرقون بالصورة نفسها. وتبقى الأروقة القذرة المملوءة بالبصاق، وكبار السن المهملون، والموظفون الساخرون ورجال شرطة المرور الوقحون... وسيصبح تقديم الرشوة أمراً طبيعياً... فأي معنى لتغيير الحكومة، إذا لم نتغير نحن أنفسنا؟ لا أؤمن بأية ديموقراطية عندنا. بلاد شرقية... نظام إقطاعي... قساوسة بدلاً من المفكرين...

- لا أحب الحشد... القطيع... الحشد لا يقرر أي شيء، الشخصيات البارزة هي التي تقرر. لقد سعت السلطة كي لا يكون في الأعلى أية شخصيات بارزة. وليس لدى المعارضة شخصيات بارزة مثل ساخاروف ويلتسين. الثورة "الثلجية" لم تلد أبطالها. أين البرنامج؟ أين الرؤية؟ ماذا يفعلون عندما يجتمعون؟ يسيرون ويصرخون... وحتى نمتسوف ونافالني يكتبان في تويتر إنهما ذهبا خلال الإجازة إلى جزر المالديف أو إلى تايلاند. يتغزلون بباريس. تصوري لو أن لينين في العام السابع عشر ذهب بعد المسيرة الحاشدة إلى إيطاليا أو إلى التزلج في جبال الألب...

- أنا لا أذهب إلى المظاهرات ولا إلى التصويت والانتخابات. ليست لدي أوهام...

- وهل أنتِ على اطلاع، أنه عداك أنتِ هناك أيضاً روسيا؟ وحتى سخالين... إنها لا تريد أية ثورات؛ لا "مخملية"، ولا "وردية"، ولا "ثلجية". لقد اكتفينا من الثورات! دعوا الوطن هادئاً!

- أنا لا أبالي بما سيحدث غداً...

- أنا أريد أن أذهب في طابور واحد مع الشيوعيين والقوميين المتعصبين... ومع النازيين... هل كنت ستذهبين إلى مسيرة عصابة كوكلوكس كلان بالأردية البيضاء والصلبان؟ لم يكن لمثل هذه المسيرة أي هدف نبيل. إننا نحلم بروسيا مختلفة.

- لا أذهب... أخشى أن يضربوني بالهراوة على رأسي...

- علينا أن نصلي، لا أن نذهب إلى المظاهرات الحاشدة. لقد أرسل الله لنا بوتين...

- أنا لا تعجبني الأعلام الثورية من خلف النافذة. أنا مع التطور والارتقاء... مع البناء...

- لا أذهب... ولن أبرر أنني لا أذهب إلى العروض السياسية. إن هذه المسيرات الحاشدة عروض رخيصة. على كل منا نفسه أن يعيش بالصدق وليس بالزيف، كما علمنا سولجيتسين. ومن دون هذا لن نتقدم ولا لميلمتر واحد. سوف نبقى ندور في حلقة دائرية.

- أحب وطني هكذا...

- لقد أبعدت شكل الدولة من دائرة اهتماماتي. أولوياتي تنحصر في الأسرة والأصدقاء والبزنس الخاص بي. هل شرحت بوضوح؟

- أنت ألست عدو الشعب، أيها المواطن؟

- سيحدث شيء ما بالتأكيد. وقريباً. لا تلوح في الأفق حتى الآن ثورة، لكن رائحة الأوزون تفوح. الجميع ينتظر: مَن، أين، متى؟

- بالكاد بدأتُ العيش حياة عادية طبيعية. دعيني أعيش!

- روسيا نائمة. لا تحلمي.

عشر قصص غير داخلية

عن روميو وجولييت... بَل: عن مارغريتا وأبولفاز

مارغريتا ك. - نازحة أرمنية، 41 عاماً

- أوه، ليس عن هذا... لا أريد الحديث عن هذا... أنا أعرف شيئاً آخر...

حتى الآن لا أزال أنام رافعة يديّ خلف رأسي، عادة من تلك السنوات، عندما كانت السعادة ترافقني. كم كنت أحب أن أحيا! أنا أرمنية، لكنني ولدت ونشأت في مدينة باكو الأذربيجانية. على شاطئ البحر. البحر... إنه بحري! رحلت لكنني أحب البحر، لم أصب بخيبة أمل من الناس ومن كل شيء آخر، أحب البحر وحده. كثيراً ما أحلم بالبحر، وأراه في منامي رمادياً، أسود، بنفسجياً. والبرق! البرق يسبح مع الأمواج. كنت أحب النظر إلى الأفق البعيد، وأشاهد كيف تغيب الشمس مساءً، حيث تصبح حمراء، وتبدو وكأنها تهمس عند نزولها إلى الماء. والأحجار التي تصبح دافئة تبدو وكأنها حيّة. كنت أحب النظر إلى البحر صباحاً ونهاراً، ومساءً وليلاً. ليلاً تظهر الخفافيش، وكنت أخاف منها كثيراً. وكانت الزيزان توزّ وتغني. السماء ممتلئة بالنجوم... لا وجود لمثل هذا العدد من النجوم

في أي مكان آخر... باكو، المدينة التي أعشقها وأحبها أكثر من أي مكان آخر... أحبها على الرغم من كل شيء! في الحلم كثيراً ما أتنزه في حديقة المدينة وحديقة ناغورني... وأصعد إلى جدار القلعة... ومن كل جهة أرى البحر- السفن وأبراج النفط... كنا نحب أنا وأمي الدخول إلى مقهى الشاي وشرب الشاي الأحمر. (الدموع على عينيها). ماما في أمريكا. تبكي وتحنّ. وأنا في موسكو...

كنا نعيش في باكو في منزل كبير... كان فيه فناء كبير، وفيه شجرة توت، صفراء اللون. توتها لذيذ! عشنا معاً كأسرة واحدة: أذريون، وروس وأرمن، وأوكرانيون وتتار... العمة كلارا، العمة سارة... عبد الله، روبن... وأجملهم سيلفا، التي كانت تعمل مضيفة على الخطوط الدولية، كانت تطير إلى اسطنبول، أما زوجها إلمير فكان سائق تكسي. هي أرمنية وزوجها أذري، ولم يكن هناك من يستغرب ذلك، لا أذكر أي شيء بهذا الخصوص. كان العالم ينقسم بطريقة أخرى؛ إنسان جيد أو سيئ، جشع أو طيب، جار وضيف. من قرية واحدة... ومن مدن مختلفة... وللجميع جنسية واحدة، جميعهم سوفييت ويعرفون اللغة الروسية.

أجمل عيد أحبه ويحبه الجميع هو النوروز. عيد النوروز هو يوم قدوم الربيع. طيلة العام كنا ننتظر هذا العيد، ونحتفل به سبعة أيام. طيلة سبعة أيام لم نكن نغلق بواباتنا وأبوابنا... ليلاً ونهاراً من دون أية أقفال ومفاتيح... نشعل النار... ونوقد شعلات النار على الأسطح وفي الأفنية. المدينة كلها مضاءة بشعلات النار! وكنا نرمي في النار سَدباً ذكي الرائحة، ونرجو السعادة، ونخاطبها: «جميع مصائبي لك، وجميع أفراحي لي». أي شخص يدخل لبيت شخص آخر، يُستقبل كضيف، ويقدمون له البلوف[1]

(1) صنف شرقي من الطعام يتكون من الرز واللحم والجزر - المترجم.

مع الحليب والشاي الأحمر مع القرفة أو الهال. وفي اليوم السابع، يوم العيد الرئيس، يجتمع الجميع معاً... على مائدة واحدة... كان يحمل كل واحد طاولته إلى الفناء، ونشكل بها مائدة طويلة جداً في صف واحد. ونضع عليها: الخينكال الجورجي، البُرك والبسطرمة الأرمنية، والفطائر الروسية وأبشماك التتري، والزلابية الأوكرانية، واللحم مع الكستناء على الطريقة الأذرية... وكانت العمة كلافا تحمل سمكتها المقلية المشهورة تحت معطفها. وكنا نشرب النبيذ، والكونياك الأرمني والأذري، ونغني الأغاني الأرمنية والأذرية. وأغنية "كاتيوشا" الروسية: «أزهر التفاح والإجاص... وعامَ الضباب فوق النهر»... وأخيراً وقت الحلويات: البقلاوة وشَكَر-شوريك... وليس هناك ألذ منها بالنسبة إليَّ حتى الآن! أطيب الحلويات كانت تصنعها أمي. كانت جاراتها يمدحنها بقولهن: «كناريك، ما هاتان اليدان لديك! وأي عجينة خفيفة رائعة!».

كانت أمي تصادق زينب، وكان عند زينب ابنتان وابن اسمه آنار، الذي كنت معه في صف واحد في المدرسة. كانت زينب تمزح قائلة: «تزوجين ابنتك لابني آنار ونصبح أقرباء». (تحاول إقناع نفسها). لن أبكي... لا حاجة إلى البكاء... تبدأ مذابح الأرمن... وشاركت فيها العمة زينب، عمتنا الطيبة زينب مع ابنها آنار... هربنا، تخبأنا عند أناس طيبين... فسرقوا من بيتنا ليلاً البرّاد والتلفزيون... وفرن الغاز وخزانة يوغسلافية جديدة... وذات مرة التقى آنار مع أصدقائه بزوجي، وضربوه بقضبان حديدية: «أي أذري أنت؟ أنت خائن! أنت تعيش مع أرمنية، عدونا!». أخذتني صديقتي وعشت عندها على العلِّية... وفي كل ليلة كانوا يفتحون العلية ويطعمونني، ثم أذهب إلى العلية من جديد، والمدخل كانوا يغلقونه بالمسامير بإحكام. إذا ما عثروا عليَّ سيقتلونني! لقد خرجت من هناك بغرة شائبة بيضاء... (بصوت خافت جداً). أقول للآخرين: لا تبكوا من أجلي... في حين أن

الدموع لا تفارق عينيّ... آنار كان يروقني في المدرسة، كان فتى جميلاً. حتى أنني تبادلت القبل معه ذات مرة... كان يقول لي، وهو ينتظرني أمام مدخل المدرسة «مرحباً، أيتها الملكة!»، مرحباً أيتها الملكة!

أذكر ذلك الربيع... بالطبع، ما زلت أذكره، ولكن الآن بصورة نادرة وليس غالباً... يا له من ربيـع! أنهيت المعهد المتوسط، وتوظفت عاملة اتصال في التلغراف المركزي. الناس يقفون أمام نافذتي: واحدة تبكي، ماتت أمها. وأخرى تضحك، عندها عرس. كنت أرسل لهم برقيات بمناسبة أعياد الميلاد، واحتفالات اليوبيل الذهبية. أطلب على الهاتف فلاديفوستوك، أوست- كوت، عشق- آباد... العمل ممتع. وأنتظر الحب... الفتاة دوماً تنتظر الحب في الثامنة عشرة من عمرها... كنت أظن أن الحب يأتي مرة واحدة فقط، وأنكِ ستعرفين على الفور أنه الحب. لكن ما حدث كان مضحكاً، مضحكاً جداً. لم يرقني كيف تعرّفت عليه. في الصباح أمشي أمام الحارس، الجميع أصبحوا يعرفونني، ولم يطلب أحد من الحراس بطاقة العمل: «مرحباً». «مرحباً». خاطبني قائلاً: «أبرزي بطاقتك!». فتسمرت في مكاني. يقف أمامي شاب جميل طويل القامة، ولا يسمح لي بالدخول. «أنت تراني كل يوم!». «أبرزي بطاقتك!». وبالصدفة نسيت في هذا اليوم بطاقة عملي، أفتش في حقيبتي، ليست لدي أية وثائق. استدعى رئيسي المباشر... ويخني... وغضبت كثيراً من هذا الشاب! أما هو... كانت عندي وردية ليلية، فأتى مع صديقه ليشرب الشاي. نعم هكذا! أحضرا معهما فطائر بالمربى، لم يعد هناك الآن مثلها، لذيذة، لكن من المرعب أن تقضمها، فلا تعرف من أية جهة سيظهر المربى. ضحكنا كثيراً! لكنني لم أتحادث معه، كنت غاضبة. وبعد بضعة أيام عثر عليَّ بعد انتهاء وردية العمل قائلاً: «اشتريت تذكرتين للسينما، تذهبين؟». كانت تُعرض الكوميديا السينمائية المفضلة

عندي "ميمينو" التي يؤدي فاختانغ كيكابيدزي الدور الرئيس فيها، لقد حضرت هذا الفيلم عشر مرات، وكنت أعرف السيناريو عن ظهر قلب. وكما اتضح فهو أيضاً حضره عدة مرات ويحفظ الحوار فيه عن ظهر قلب. نسير ونستعيد من ذاكرتنا الحوار ويمتحن أحدنا الآخر: «سأقول لك شيئاً ذكياً، ولكن لا تنزعج». «كيف سأبيع هذه البقرة، إذا كان الجميع يعرفها هنا؟». و... بدأ الحب... كان عند ابن عمه بيتان بلاستيكيان كبيران، ويتاجر بالأزهار. كان يأتي أبولفاز إلى الموعد حاملاً الورود، حمراء وبيضاء... الورود قد تكون أيضاً أرجوانية، وكأنها ملوّنة، لكنها طبيعية. كنت أحلم... كثيراً ما كنت أحلم بالحب، لكنني لم أكن أعرف كيف يمكن أن ينبض قلبي، ويكاد يخرج من صدري. لقد بقيتْ على البلاج الرطب رسائلنا... على الرمال... وبأحرف كبيرة "أنا أحبك!". وعلى بعد عشرة أمتار "أنا أحبك!". آنذاك في كل أنحاء المدينة كانت هناك مكنات حديدية للمياه المعدنية، وفي كل مكنة كأس واحد للجميع. تغسل الكأس وتشرب. نقترب، لا يوجد كأس، والمكنة الثانية من دون كأس. أريد أن أشرب! كم شربنا، وصرخنا وضحكنا عند شاطئ البحر، أريد أن أشرب! كانت تحدث معنا فترة طويلة أشياء سحرية، غير معقولة، ثم توقفت. آه، أنا أعرف هذا... حقيقة! «أبولفاز أريد أن أشرب! فكر في طريقة ما!». فينظر إليّ ويرفع يديه إلى السماء، ويدعو طويلاً، ويتحدث ويتحدث. وفجأة، من مكان ما، من بين الأعشاب الجافة للأسيجة والأكشاك المغلقة يظهر رجل ثمل ويقدم كأساً وهو يقول: «هذا للفتاة الجميلة... لا أبخل به».

في هذا الفجر... لم يكن هناك أحد غيرنا على الشاطئ. والضباب يزحف من البحر. أنا أمشي حافية القدمين، ومن تحت الإسفلت يزحف الضباب، كالبخار. من جديد، المعجزة! تظهر الشمس فجأة! الضوء...

الإنارة... كما في منتصف يوم صيف حار... ويجف على الفور فستاني الصيفي الخفيف، الرطب من الندى «كم أنت جميلة الآن!». وأنت... أنت... (دموع على عينيها). أقول للآخرين: لا حاجة إلى البكاء... لكنني أنا نفسي... أتذكر كل شيء... أتذكر. ولكن في كل مرة تصبح الأصوات أقل، وتصبح الأحلام أقل. كنت أحلم آنذاك... كنت أطير! ولكن... لم تكن! لم تكن عندنا نهاية سعيدة: فستان العرس الأبيض، ومعزوفة مندلسون، ورحلة العرس... وقريباً، قريباً جداً... (تتوقف). كنت أريد أن أقول شيئاً... أنسى الكلمات البسيطة العادية... لقد أصبحت أنسى... أردت القول، إنه بعد فترة قريبة جداً... أخذوا يخبئونني في الأقبية، وأصبحت أعيش في العلالي، وتحولت إلى قطة، إلى خفاش... لو كان في إمكاننا أن نفهم... لو كان في إمكاننا... لو كنا نعرف كم هو رهيب عندما يصرخ ليلاً أحد ما. صرخة وحيدة. طائر وحيد يصرخ، ويشعر الجميع برعب مخيف. فما بالكِ لو كان هذا إنساناً؟ كنت أعيش بفكرة واحدة: أنا أحب... أحب وأحب أيضاً. لما استطعت بطريقة أخرى، لما تحملت. وكيف لا، ومثل هذا الرعب! كنت أنزل من العلية في الليل فقط... الستائر سميكة، كاللحاف... ذات مرة فُتحت العلية صباحاً: «انزلي! لقد تم إنقاذك!». دخلت القوات الروسية إلى المدينة.

أفكر في هذا... أفكر في هذا حتى في الحلم. متى بدأ كل هذا؟ في العام الثامن والثمانين... يجتمع أشخاص غير معروفين في الساحة، كلهم متشحون بالسواد، يرقصون ويغنون. يرقصون بالسكاكين والخناجر. بناء التلغراف على مقربة من الساحة، كل شيء أمام أعيننا. نتمسك بالشرفة ونشاهد. أسأل: «بماذا يصرخون؟». «الموت لغير المؤمنين! الموت!». استمر هذا طويلاً، وطويلاً جداً... عدة أشهر... أخذوا يبعدوننا عن النوافذ: «أيتها الفتيات، هذا خطِر. اجلسن في أماكنكن ولا تلتهين. اشتغلن». في

فترة الغداء كنا عادة نشرب الشاي معاً، وفجأة في ذات يوم: الفتيات الأذريات جلسن على طاولة واحدة، والأرمنيات على طاولة أخرى. في وقت واحد، أتفهمين؟ أنا لم أستطع أن أفهم أبداً، لم أستطع. لم أستوعب بعد أي شيء. إنني أحب... ومشغولة بعواطفي... «أيتها الفتيات! ماذا حدث؟». «ألم تسمعي؟ قال المدير إنه سوف يشغّل عاملات مسلمات حصراً». جدتي عاشت المذبحة الأرمنية في العام الخامس عشر. أنا أذكر... حدثتني عندما كنت طفلة: «عندما كنت صغيرة مثلك، ذبحوا أبي، وأمي، وخالتي. وذبحوا جميع خرافنا، كانت عينا جدتي حزينتين دوماً، وذبحوا الجيران... وقبل هذا كانوا أناساً طبيعيين، بل وطيبين أيضاً. كنا نجلس كلنا معاً على المائدة في الأعياد»... كنت أظن أن هذا حدث منذ فترة طويلة جداً... وهل يمكن أن يحدث الآن؟ أسأل أمي: «ماما، هل رأيت الصبية في الفناء؟ لا يلعبون بلعبة الحرب، بل لعبة ذبح الأرمن؟ من علّمهم؟». «اسكتي يا ابنتي، سيسمع الجيران». كانت أمي تبكي دائماً. كانت تجلس وتبكي. جرَّ الصبية دمية بثياب رثة وأخذوا يضربونها بالعصي، والخناجر الصغيرة. «من هذا؟». سألتُ الصبي أرخان، حفيد صديقة أمي زينب. «إنها عجوز أرمنية. ونحن نقتلها. عمتي ريتا، ومن أنتِ؟ ولماذا اسمك روسي؟». اسمي اختارته أمي... أمي كانت تحب الأسماء الروسية، وكانت طيلة حياتها تحلم برؤية موسكو... أبي هجرنا، وكان يعيش مع امرأة أخرى، لكنه أبي على أية حال. ذهبت إليه بخبر: «بابا، أنا سأتزوج!». «وهل هو شاب جيد؟». «جيد جداً. لكن اسمه أبولفاز»... لاذ أبي بالصمت. وذات يوم جاء أبولفاز إلى بيتنا: «أريد أن أطلب يدكِ». «ولماذا أنت وحدكَ، من دون وسطاء؟ من دون أقارب؟». «كلهم ضد زواجي، ولست في حاجة إلى أحد غيرك». وأنا... أنا أيضاً لست في حاجة إلى أحد. ماذا سنفعل بحبنا؟

من حولنا كان يدور شيء آخر، غير ما هو في الداخل... شيء آخر تماماً... المدينة صامتة ليلاً بصورة رهيبة... فكيف هذا، لا يمكنني على هذا الشكل. وما هذا الرعب! الناس في النهار توقفوا عن الضحك والمزاح، توقفوا عن شراء الأزهار. في السابق، كان في الشارع دوماً أحد ما يحمل الأزهار. ويتبادلون القبل هنا وهناك. أما الآن... فالناس أنفسهم يسيرون... ولا ينظر أحدهم إلى الآخر. شيء ما خيّم على الجميع وعلى كل شيء... توقع حدوث شيء ما...

لا يمكنني الآن تذكر كل شيء بصورة دقيقة... كنت أتغير من يوم لآخر... الجميع الآن يعرفون ما حدث في سومغايت... تبعد سومغايت عن باكو ثلاثين كيلومتراً... هناك حدثت المذبحة الأولى... كانت تعمل عندنا فتاة من سومغايت، وبعد انتهاء العمل تغادر الفتيات العمل إلى بيوتهن، باستثنائها، حيث تبقى في بناء التلغراف وتنام في مخزن. تمشي بعينين دامعتين، حتى أنها لا تنظر إلى الشارع، ولا تتحدث مع أحد. نسألها فتلوذ بالصمت. ولكن عندما بدأت الكلام... وبدأت تتحدث... كان بودي ألا أسمع أبداً... ألا أسمع أي شيء! فما الذي حدث! فكيف هذا الذي حدث! «ماذا حدث لبيتكِ؟». «لقد نهبوا بيتي». «وماذا حدث لوالديك؟». «أخرجوا أمي إلى الفناء وجردوها من كل ثيابها، ورموها في النار المشتعلة! وأرغموا أختي الحامل على الرقص حول النار المشتعلة... وعندما قتلوها بالأسلاك الحديدية أخرجوا الطفل من أحشائها». «اسكتي، أرجوكِ!». «وقطّعوا أبي بالفأس... لم يتعرّف عليه أقاربه إلا من حذائه». «اسكتي! أرجوك!». «اجتمع الرجال، الشباب والكبار، نحو عشرين، ثلاثين رجلاً واقتحموا البيوت التي كانت تعيش فيها أسر أرمنية. كانوا يقتلونهم ويغتصبونهن، يغتصبون الابنة أمام أبيها... والزوجة أمام زوجها». «اسكتي، الأفضل أن تبكي». لكنها لم تكن تبكي... كانت تشعر

برعب فظيع... «أحرقوا السيارات. في المقبرة أطاحوا بشواهد الموتى من الأرمن... كانوا يكرهون الموتى...». «اسكتي! وهل يمكن لبشر أن يفعل هذا؟!». وبدأنا جميعاً نخاف منها... أما التلفزيون، والإذاعة، والصحف... فلم تكتب كلمة واحدة عن سومغايت... الإشاعات وحدها... كانوا يسألونني فيما بعد: «وكيف كنت تعيشين بعد هذا كله؟». حل الربيع. ارتدت النساء الفساتين الخفيفة... مثل هذا الرعب – ومن حولنا كل شيء جميل! أتفهمين؟ والبحر.

أنوي الزواج... فتطلب مني أمي: «بنيتي، فكري في الأمر». أبي يسكت. نمشي أنا وأبولفاز في الشارع، نلتقي شقيقاته: كن يتهامسن فيما بينهن: «لماذا قلت إنها قميئة؟ انظري، إنها فتاة جميلة». أبولفاز! أبولفاز! «تعال نعقد الزواج دون عرس، لن نقيم عرساً». «ماذا بك؟ عندنا يعتقدون أن حياة الإنسان تتألف من ثلاثة أيام: يوم ميلادك، ويوم عرسك، ويوم وفاتك». لم يكن في استطاعته الزواج دون عرس، ولا سعادة من دون عرس. كان والداه ضد زواجنا بصورة قطعية... قطعاً! لم يقدموا له المال للعرس بل وحتى لم يعيدوا له المال الذي كسبه بعرق جبينه. وكل شيء يجب أن يجري حسب التقاليد... حسب العادات القديمة... التقاليد الأذربيجانية جميلة، وأنا أحبها... أول من يأتي إلى بيت العروس في المرة الأولى هم الوسطاء الخطابون، فيصغون إلى أقوالهم، وفي اليوم الثاني يحصلون على الموافقة أو الرفض. وعندها يشربون النبيذ. شراء فستان العرس الأبيض والخاتم من مسؤولية العريس، وهو يحملهما إلى بيت العروس في الصباح حتماً... وفي يوم مشمس... لأنه يجب استرضاء السعادة وإبعاد قوى الظلام. تأخذ العروس الهدية وتشكر العريس، وتقبّله بحضور الجميع. وتضع فوق رأسها شالاً أبيض، علامة الطهارة. يوم العرس... يحملون كثيراً من الهدايا من الجانبين، جبل من الهدايا،

ويضعونها على صواني كبيرة مربوطة بشرائط حمراء. وينفخون مئات البالونات الملونة، التي تحلق عدة أيام فوق منزل العروس، وكلما حلقت أكثر كان أفضل، ما يعني أن الحب قوي ومتبادل.

عرسي... عرسنا... جميع الهدايا التي من المفروض أن تأتي من بيت العريس ومن بيت العروس... اشترتها أمي... بما فيها الفستان الأبيض، وخاتم الذهب... على مائدة العرس كان على أهل العروس قبل النخب الأول أن يقفوا ويمدحوا العروس، وأهل العريس يمدحون العريس. قام جدي بمديحي، وانتهى وسأل أبولفاز: «ومن سيحدثنا عنك؟». «أنا بنفسي سأتحدث عن نفسي. أحب ابنتكم. أحبها أكثر من الحياة». قال بطريقة جميلة حازت على إعجاب الجميع. نثروا لنا على فطيرة العرس عملة معدنية صغيرة، والأرزّ، رمز السعادة والثروة. وكانت هناك لحظة واحدة... ثمة مثل هذه اللحظة في تقاليد العرس، حيث على أهل أحد العروسين أن يقفوا وينحنوا احتراماً لأهل الطرف الثاني، وكذلك على أهل الطرف الثاني. وقف أبولفاز لوحده... وكأنه من غير أهل أو أقارب... فأقسمت بيني وبين نفسي «سألد لك طفلاً، ولن تكون وحيداً». وكان هو يعرف، فقد اعترفت له منذ فترة، أنني في فترة مراهقتي مرضت مرضاً شديداً، وأصدر الأطباء حكمهم: أن من الممنوع لي أن أحمل وألد. وكان هو موافقاً على ذلك، بشرط أن نبقى معاً. أما أنا فقد قررت أنني سأحمل وألد. ولأمت أنا، لكن الطفل سيبقى حياً.

مدينتي باكو...

البحر... البحر... البحر...

الشمس... الشمس... الشمس... باكو ليست مدينتي...

لا يوجد باب في مدخل البناء، فتحتان كبيرتان علقت عليهما قطع من ورق السلوفان...

رجال أو مراهقون... لم أذكر بسبب الرعب... يضربون أو يقتلون بالعصي الحادة المدببة (من أين عثروا عليها في المدينة؟) امرأة... إنها مستلقية على الأرض دون صوت أو حراك. عندما يراها الناس يغادرون ويذهبون لشارع آخر. أين الشرطة؟ الشرطة اختفت... لم أرَ شرطياً طيلة عدة أيام... أبولفاز مريض يتقيأ. إنه طيب، طيب جداً، ولكن من أين أتى أولئك... هناك في الشارع؟ التقينا برجل مغطى بالدماء... معطفه، ويداه مغطاتان بالدماء... وفي يديه سكين مطبخ طويلة تستخدم لقص الأعشاب... كان وجهه مهيباً... بل سعيداً... «أنا أعرفه». قالت فتاة من معارفي كنا نقف معاً على الموقف وننتظر سيارة الباص.

شيء ما اختفى من نفسي آنذاك... شيء ما في نفسي لم يعد له وجود...

أمي تسرّحت من العمل... فقد أصبح من الخطر السير في الشوارع، كان من الممكن أن يعرفوها على الفور. أما أنا فلا، بشرط واحد، ألا أحمل معي أية وثائق شخصية. على الإطلاق! كان أبولفاز يلتقيني بعد العمل، كنا نسير معاً، ولم يكن هناك من يظن أنني أرمنية. ولكن، كان في إمكان أي واحد منهم أن يقترب ويطالبني: «أرِني جواز سفرك!». كان جيراني والعجائز الروسيات يحذرونني: «اختبئا. اخرجا». الشباب الروس هاجروا، تركوا شققهم، ومفروشاتهم الجيدة. بقيت الجدات... الجدات الروسيات الطيبات...

أصبحتُ حاملاً... أحمل جنيناً تحت قلبي...

المذابح استمرت في باكو عدة أسابيع... هكذا يقول بعضهم، وبعضهم الآخر يقول استمرت أكثر... لم يكونوا يقتلون الأرمن وحدهم، بل وكل من يخبئهم. خبأتني صديقتي الأذرية، عندها أسرة، زوج وطفلان. يوماً ما... أقسمُ! سأسافر إلى باكو، وأذهب أنا وابنتي إلى هذا البيت وأقول لابنتي: «إنها أمك الثانية يا ابنتي». ستائر سميكة... مثل المعطف...

خاطتها خصيصاً لأجلي. في الليل كنت أنزل من العلية... لساعة أو ساعتين... كنا نتحدث همساً. كان لا بد من الحديث معي. الجميع كانوا يدركون: من الضروري الحديث معي، كي تنحل عقدة لساني، ولا أفقد عقلي. أنا لم أخسر الطفلة، ولم أكن أعوي ليلاً كالوحش.

أذكر أحاديثنا، أذكرها جيداً. كنت أجلس طيلة اليوم في العلية وأسترجعها من ذاكرتي. أنا وحيدة... مساحة ضيقة جداً من السماء... من خلال الثقب...

أوقفوا ليلاً لازار اليهودي العجوز وأخذوا يضربونه... «أنا يهودي». كان يحاول إقناعهم. وريثما عثروا على جواز السفر شوّهوه وجعلوه معاقاً...

يقتلون من أجل المال ومن دون سبب... كانوا يبحثون على نحو خاص عن البيوت التي يسكنها الأرمن الأغنياء...

في أحد البيوت قتلوا الجميع... وحتى الفتاة الصغيرة جداً تسلقت الشجرة... فأخذوا يطلقون عليها النار كما يطلقونها على طير... الرؤية ضعيفة ليلاً، ولم يستطيعوا إصابتها. فغضبوا... وصوبوا بدقة. فسقطت أمام أرجلهم...

كان زوج صديقتي رساماً. كنت أحب لوحاته الفنية. كان يرسم وجوهاً نسائية وطبيعة صامتة. وأذكر كيف كان يقترب من رفوف الكتب ويدقّ على كعابها: «يجب إحراق كل شيء! كلها يجب إحراقها! لم أعد أثق بالكتب! كنا نظن أن الخير سينتصر. لا أبداً! كنا نتناقش حول دوستويفسكي... نعم أبطاله دوماً هنا! إنهم بيننا، على مقربة منا!». لم أكن أفهم عن أي شيء يتكلم، فأنا فتاة بسيطة، عادية. لم أدرس في الجامعة. كنت أعرف البكاء فقط... ومسح الدموع... آنذاك كنت أصدق أنني أعيش في أفضل بلدان

العالم، وسط أفضل الناس. هكذا كانوا يعلموننا في المدرسة. أما هو فكان يعاني بصورة رهيبة، كان يعاني بصورة قاسية جداً. وأصيب بجلطة دماغية أدت إلى شلله... (توقفت). سأسكت... جسمي كله يرتجف... (تابعت بعد بضع دقائق). دخلت القوات الروسية إلى المدينة. أصبح في إمكاني العودة إلى بيتي... كان مستلقياً، وكان يمكنه تحريك يد واحدة. وعانقني بيده هذه: «طيلة الليل كنت أفكر فيك ريتا، وفي حياتي أنا... سنوات طويلة... طيلة حياتي كنت أصارع الشيوعيين. والآن، أصبحت لدي شكوك: فليحكمنا هؤلاء المحنطون، الذين يعلقون على أكتاف بعضهم البعض نجوم الأبطال، لَما سافرنا خارج البلاد، ولما قرأنا الكتب المحظورة، ولما أكلنا البيتزا غذاء الآلهة... ولكن كانت تلك الفتاة الصغيرة ستبقى حية، ولَما أطلق النار عليها أحد وصوب سلاحه نحوها، كالطير... ولَما جلستِ في العلية كالفأر»... سرعان ما توفي... بعد فترة قصيرة... عندها كان يموت كثيرون من الناس الطيبين. لم يستطيعوا تحمّل هذا كله.

الجنود الروس في جميع الشوارع. الآليات العسكرية. الجنود الروس، وهم فتيان شباب... أغمي عليهم بعد أن رأوا ما كان يجري...

أنا في الشهر الثامن من حملي... قريباً سأضع جنيني. شعرت بحالتي سيئة ليلاً، اتصلنا بقسم الطوارئ - في الطرف الآخر من الهاتف عندما كانوا يسمعون اسم عائلة أرمني يغلقون الهاتف. لم يقبلوني في دار التوليد، ولا حسب مكان إقامتي... لم يقبلوني في أي مكان... يفتحون جواز السفر وعلى الفور، لا توجد أماكن فارغة. لا توجد أماكن فارغة! بأي شكل من الأشكال، وفي أي مستشفى أو دار للتوليد. عثرتْ أمي على قابلة متقدمة في السن، امرأة روسية كانت قد ولّدتها منذ زمن طويل... عثرت عليها في قرية في ضواحي المدينة. اسمها آنا، لا أذكر اسم أبيها. بدأت تتردد على بيتنا مرة في الأسبوع، حيث كانت تتابعني وتقول، إن

الولادة ستكون عسيرة صعبة. بدأ طلْق المخاض ليلاً... ركض أبولفاز ليحضر سيارة تكسي، لم يستطع الاتصال. حضر سائق التكسي ورآني: «ماذا، أرمنية؟». «إنها زوجتي». «لا، لن أذهب». بدأ زوجي يبكي. أخرج حافظة نقوده وأراه النقود، راتبه كله: «خذ... سأعطيك كل ما معي... أنقذ لي زوجتي وطفلي». ركبنا سيارة التكسي وانطلقنا جميعاً... أمي كانت معنا. في القرية، حيث تقيم آنا، ذهبنا إلى المستشفى، حيث كانت تعمل قابلة بنصف راتب، إضافة إلى راتبها التقاعدي. كانت تنتظرنا، ووضعوني على الفور على طاولة الولادة. استمر وضعي طويلاً... سبع ساعات... كنا امرأتان نضع: أنا وامرأة أذربيجانية، وكانت هناك مخدة واحدة، أعطيناها لها، وأنا استلقيت من دون مخدة على رأسي. كان استلقائي غير مريح، وموجعاً... كانت أمي تقف على الباب. كانوا يطردونها، لكنها لم تذهب. فقد يسرقون الوليد... فجأة؟ كل شيء محتمل... آنذاك كان كل شيء متوقعاً... وضعتُ بنتاً... أروني إياها مرة واحدة، ولم يعودوا يروني إياها. كانوا يعطون الأمهات الأخريات (الأذربيجانيات) مواليدهن ليرضعنهم، ولم يعطوني ابنتي. بقيت أنتظر يومين. بعدها بدأت أمشي مستندة إلى الحائط... ووصلت إلى غرفة حديثي الولادة. لم يكن هناك أي طفل باستثناء ابنتي كانت راقدة في السرير، والنوافذ والأبواب مفتوحة على مصاريعها. لمستها، كانت حرارتها مرتفعة جداً، جسمها كله ساخن. في هذه اللحظة جاءت أمي... «ماما، سنأخذ الطفلة ونخرج، الطفلة مريضة».

بقيت الطفلة مريضة فترة طويلة. كان يعالجها طبيب عجوز متقاعد، يهودي، وكان يساعد الأسر الأرمنية. كان يقول: «يقتلون الأرمن لأنهم أرمن، وفي زمن مضى كانوا يقتلون اليهود لأنهم يهود». كان عجوزاً متقدماً في السن. أسمينا ابنتي إيرا... إيرينكا... قررنا: فليكن اسمها

روسياً، فهو يحمي. أمسك أبولفاز بالطفلة أول مرة وبكى. أخذ يبكي كثيراً... من السعادة... آنذاك كانت أيضاً سعادة... سعادتنا! في هذه الفترة مرضت أمه... أصبح يتردد أكثر على أهله. ويعود من عندهم... لا أجد الكلمات للتعبير عن كيف كان يبدو عند عودته. كان يعود إلينا غريباً، بوجه غير مألوف. أنا، بالطبع، شعرت بالخوف. كانت المدينة تغص بالنازحين. وهم تلك الأسر الأذربيجانية التي نزحت من أرمينيا. نزحوا بأيدٍ فارغة، دون أي شيء، مثل الأرمن الذين نزحوا من باكو. وكانوا يروون المذابح نفسها كما في باكو. كلها الشيء نفسه. كانوا يتحدثون عن حودجالا، حيث كانت المذبحة الأذربيجانية... وكيف كان الأرمن يقتلون الأذربيجانيين. يرمون النساء من النوافذ... يقطعون رؤوسهم... يتبوّلون على أمواتهم... بالنسبة إليَّ، لم أعد أخاف من أي فيلم من أفلام الرعب! كم رأيت وكم سمعت... عن كل شيء! لم أكن أنام في الليالي، كنت أفكر، وأعود أفكر من جديد - يجب الرحيل. الرحيل أصبح ضرورة! فهذا لا يمكن احتماله. عليَّ بالهروب، بالنزوح... النزوح كي أنسى... ولو أنني صبرت - لَمُتُّ... أنا أعرف أنني كنت سأموت...

كانت أمي أول من نزح... وإثرها أبي مع أسرته الثانية. ومن بعدهم أنا وابنتي. نزحنا بجوازات سفر مزورة... بأسماء وكنى أذرية... ثلاثة أشهر لم نستطع شراء التذاكر. كانت هناك طوابير هائلة! ودخلنا إلى الطائرة، كانت في الطائرة صناديق الفواكه وعلب الكرتون المحملة بالورود أكثر من المسافرين. إنها الصفقات! كانت الأعمال مزدهرةً. أمامنا كان يجلس شباب أذريون، كانوا طيلة الطريق يشربون البيرة ويقولون إنهم يسافرون لأنهم لا يريدون قتل الأرمن. لا يريدون الذهاب إلى الحرب والموت. العام الحادي والتسعون... كانت رحى الحرب تدور على أشدها في ناروودني كاراباخ... لقد اعترف هؤلاء الشباب صراحة: «لا نريد الاستلقاء

تحت الدبابة. لسنا مستعدين لذلك». استقبلنا في موسكو ابن عمي... «وأين أبولفاز؟». «سيصل بعد شهر». اجتمعنا مع الأقارب مساء... كانوا جميعهم يرجونني: «تكلمي، تكلمي، لا تخافي. فمن يبقى ساكتاً سيمرض». بعد شهر واحد بدأت أتكلم، وكنت أظن أنني لن أتمكن من الكلام. وسأصمت إلى الأبد.

بقيت أنتظر... وأنتظر... وأنتظر... لم يصل أبولفاز بعد شهر... ولا بعد نصف سنة، بل بعد سبع سنوات. بعد سبع سنوات... سبع... آآآه... لولا ابنتي لما عشت... ابنتي أنقذتني. من أجلها استجمعت كامل قواي. كي يعيش المرء، عليه أن يعثر على الأقل على خيط رفيع من الأمل... كي يعيش... وينتظر... ذات صباح... وبعد صباح... دخل إلى الشقة، وعانقني أنا وابنتي. إنه واقف. يقف في المدخل... ويقف في المدخل... وكنت أرى كيف أنه ببطء شديد يسقط أمام عيني. وبعد دقائق رقد على الأرض بمعطفه وقبعته. جررناه إلى الديوان، وأرقدناه. شعرنا بخوف شديد: يجب استدعاء الطبيب. لكن كيف؟ ليست لدينا إقامة في موسكو، وليس لدينا تأمين صحي. نحن نازحون. وبينما نحن نفكر، بكت أمي... وجلست ابنتي بعينين دامعتين في الزاوية... كنا ننتظر الأب، فوصل الأب وهو ينازع. وفي هذه اللحظة فتح عينيه قائلاً: «لا حاجة إلى الطبيب، لا تخافوا. انتهى كل شيء! أنا في بيتي». وهنا سوف أبكي... سأبكي... (بكت للمرة الأولى خلال حديثنا). وكيف يمكنني دون دموع هنا... بقي شهراً يتبعني هنا في الشقة ويجثو على ركبتيه، ويقبلني ويقبل يديّ: «ماذا تريد أن تقول؟». «أنا أحبك». «أين كنت طيلة هذه السنوات؟».

سرقوا منه جواز السفر الأول... ثم سرقوا الثاني... أقاربه...

وصل إلى باكو أبناء عمه... طردوهم من يريفان، حيث كان يعيشون،

كما عاش آباؤهم وأجدادهم. وفي كل أمسية روايات وأحاديث... وبالتأكيد بحضوره، كي يسمعها... كيف سلخوا جلد صبي وعلقوه على الشجرة. ووضعوا على جبين جاره وصمة بحدوة حامية... كيف... كيف... وأنت إلى أين ستذهب؟

- إلى زوجتي.

- أنت ذاهب إلى عدونا. أنت لست أخانا. ولست ابننا.

كنت أتصل به هاتفياً... فيجيبونني: «غير موجود في البيت». وكانوا يخبرونه وكأنني أتصل وأقول بأنني سأتزوج. كنت أتصل كثيراً. كانت تأخذ السماعة شقيقته وتقول: «انسَي رقم هذا الهاتف. لديه امرأة أخرى. مسلمة».

أبي... أراد سعادتي... أخذ جواز سفري وأعطاه لأحد معارفه كي يضعوا عليه ختم الطلاق. طلاق مزيف. تلاعب، محا، وصحح، والآن ثمة ثقب في جواز السفر. «أبي لماذا فعلت هكذا؟ أنت تعرف أنني أحبها!». «أنت تحب عدونا». أصبح جواز سفري تالفاً، وهو الآن غير صالح...

قرأت رائعة شكسبير "روميو وجولييت"... حول العداوة بين أسرتين - مونتيكي وكابوليتي. كل ما فيها ينطبق عليَّ... كنت أفهم كل كلمة فيها...

لم أتعرف على ابنتي. بدأت تبتسم... منذ اللحظة الأولى التي رأته فيها: «بابا! بابا!». إنها صغيرة، كانت تتناول صورته من الحقيبة وتقبلها. بحيث لا أراها... ولم تكن تبكي...

هذه ليست النهاية... أتظنين أنها النهاية؟ أوه، لا النهاية بعيدة...

وهنا نعيش كما في الحرب... غرباء في كل مكان. كان في إمكان البحر أن يشفيني. بحري! ولا بحر هنا على مقربة مني...

كنت أعمل في تنظيف المترو والمراحيض. كنت أنقل في ورشة البناء الطوب وأكياس الإسمنت. والآن أعمل في تنظيف مطعم. ويقوم أبولفاز

بأعمال الصيانة الأوروبية في شقق الأغنياء. الناس الطيبون يدفعون، أما السيئون فيخدعون ويكذبون: «اذهب من هنا أيها الغريب! سأتصل الآن بالشرطة». ليست لدينا إقامة... وليست لدينا أية حقوق... وأمثالنا هنا كثيرون جداً، كالرمل في الصحراء. مئات الآلاف من الناس هربوا من بيوتهم: طاجيك، أرمن، أذريون، جورجيون، شيشان... هربوا إلى موسكو، عاصمة الاتحاد السوفيتي، وهي الآن عاصمة دولة أخرى. ولن تجدي بعد الآن دولتنا على الخارطة...

ابنتي أنهت المدرسة في العام الماضي... «ماما... بابا... أريد أن أتابع دراستي!». وليس لديها جواز سفر... نعيش ترانزيت. نسكن في شقة جدة هنا. انتقلت إلى شقة ابنها، وأجّرتنا شقتها ذات الغرفة الواحدة. تقرع الشرطة بابنا لفحص الوثائق الشخصية... ونحن كالفئران، نختبئ ونختفي. ومن جديد كالفئران. فقد يطردوننا من حيث أتينا... وإلى أين؟ إلى من يمكننا الذهاب؟ قد يطردوننا خلال 24 ساعة! وليس لدينا أموال كثيرة لدفع الرشاوى... ولن يمكننا العثور على شقة أخرى. إعلانات في جميع لوحات الإعلان: «نؤجر شقة لأسرة سلافية»... «نؤجر شقة لأسرة روسية أرثوذكسية. نرجو من الآخرين عدم الإزعاج».

لا يمكننا الخروج من البيت مساء! قد يتأخر زوجي أو ابنتي في مكان ما. وأنا أشرب الناردين المهدئ. أرجو ابنتي: لا تصبغي حاجبيك، ولا تلبسي فساتين صارخة. فهناك ذبحوا فتى أرمنياً، وهناك ذبحوا فتاة طاجيكية... وفي مكان آخر طعنوا أذرية بالسكين... سابقاً كنا كلنا سوفيتيين، أما الآن فلدينا جنسية أخرى: "وجه قوقازي". أركض صباحاً إلى العمل ولا أنظر أبداً إلى وجوه الشباب، فعيناي سوداوان، وشعري أسود اللون. في أيام الأحد، إذا ما خرجنا كأسرة إلى الشارع، فنتنزه في منطقتنا، بالقرب من بيتنا: «ماما، أريد أن أتنزه في شارع آربات. أريد أن أمشي في الساحة

الحمراء». «لن نذهب إلى هناك يا ابنتي. هناك فوضويون. يحملون الصليب المعقوف. وبلادهم روسيا للروس فقط. من دوننا». (تصمت). لا أحد يعرف، كم من المرات كنت أريد الموت.

ابنتي... منذ صغرها تسمع عبارات "غريبة، قوقازية"... "آسيوية"... إنها صغيرة لا تفهمها. تعود من المدرسة، فأقبِّلها، أقبِّلها، كي تنسى هذه العبارات المسيئة.

جميع الأرمن في باكو رحلوا إلى أمريكا... لقد استقبلتهم البلاد الغريبة... وأمي رحلت، وكذلك أبي، وكثير من أقاربنا. أنا أيضاً ذهبت إلى القنصلية الأمريكية. فسألوني: «حدثينا عن قصتك». فحدثتهم عن حبي... لاذوا بالصمت، لاذوا طويلاً بالصمت. كانوا أمريكيين شباب. ثم أخذوا يتحادثون فيما بينهم: جواز سفرها تالف، وغير مفهوم، على أية حال، لماذا لم يحضر زوجها طيلة سبع سنوات؟ هل هو زوج أم لا؟ إنها قصة جميلة ورهيبة، أكثر من أن تُصدَق. هذا ما قالوه. أنا أعرف الإنكليزية قليلاً... وقد فهمت، أنهم لا يصدقونني. وليست لدي إثباتات أخرى سوى أنني أحب... هل تصدقينني؟

- «أنا أصدقك»، قلت لها، «فقد نشأت في هذه البلاد مثلك. أنا أصدقك!».

(وبدأنا كلانا بالبكاء)...

عن الناس الذين تغيروا فوراً بعد الشيوعية

لودميلا ماليكوفا – تكنولوجية، 47 عاماً

من حديث الابنة:

زمن عاش فيه الجميع سواسية

– أتعرفين موسكو جيداً؟ حي كونتسيفو... هناك كنا نعيش في بناء من خمسة طوابق، هناك كانت شقتنا، من ثلاث غرف. حصلنا على هذه الشقة عندما انضممنا إلى الجدة. جدي توفي، عاشت جدتي وحيدة فترة طويلة، لكنها بدأت تضعف، وقررنا أن علينا أن نعيش معاً. أنا فرحت، كنت أحب جدتي. كنا نذهب معها إلى التزلج على الثلج، ونلعب الشطرنج. كان جدتي رائعة! بابا... كان بابا معنا، لكنه لم يعش معنا طويلاً، فقد ساءت حياته، وأخذ يشرب المسكرات كثيراً مع رفاقه، وطلبت منه أمي مغادرة الشقة... كان أبي يعمل في مصنع حربي سري... منذ الطفولة أذكر، كيف كان أبي يحضر في العطلة الأسبوعية ويجلب لي معه الهدايا والكراميل والفواكه، وكان دوماً يجهد نفسه ليحضر أكبر إجاصة وأكبر تفاحة. كان يريد أن يثير دهشتي: «أغلقي عينيك يولشكا – انظري!». كان يضحك بشكل جميل... ثم اختفى في مكان ما... المرأة التي كان يعيش معها بعدنا هي صديقة أمي – كذلك طردته، سئمت من حالات سكره. ولا أعرف هل هو حي يرزق، ولو كان حياً لفتّش عني...

حتى بلوغي العام الرابع عشر كنا نعيش في صفاء. حتى البيريسترويكا...

عشنا حياة طبيعية إلى أن بدأت الرأسمالية، عندها كانوا يتحدثون دوماً في التلفزيون عن "السوق". لم يكن يدرك إلا القليل ما هذا، ولم يكل هناك من يشرح شيئاً. وبدأ كل هذا عندما أصبح من الممكن الإساءة إلى لينين وستالين. كان الشباب يسيئون، أما كبار السن فكانوا يلوذون بالصمت، كانوا يخرجون من الحافلة إذا ما سمعوا من يسيء إلى الشيوعيين. كان عندنا في المدرسة معلم الرياضيات شاباً، وكان ضد الشيوعيين، بينما كان معلم التاريخ، المتقدم في السن مؤيداً للشيوعيين. في البيت كانت جدتي تقول: «بدلاً من الشيوعيين سيأتي الآن المضاربون». كانت أمي تتجادل معها: وكأنه لا، ستكون حياة جميلة عادلة، وكان تشارك في المظاهرات والمسيرات، وتردد لنا أقوال يلتسين عن ظهر قلب. كان من المستحيل إقناع جدتي: «استبدلوا الاشتراكية بالموز وعلك "الشكلس"»... كان النقاش يبدأ منذ الصباح، ثم تذهب أمي إلى العمل، وفي المساء كانتا تتابعان نقاشهما. عندما كانوا يعرضون يلتسين على شاشة التلفزيون، تركض أمي بسرعة وتجلس في الكنبة أمام الشاشة: «إنسان عظيم!»، بينما ترسم جدتي علامة الصليب قائلة: «إنه مجرم، سامحني يا إلهي!». كانت شيوعية حتى العظم. وكانت تصوِّت لصالح زيوغانوف زعيم الحزب الشيوعي الروسي. ذهبنا جميعنا إلى الكنيسة، وذهبت معنا الجدة، حيث كانت ترسم علامة الصليب وتطلب الرحمة، لكنها لم تكن تؤمن إلا بالشيوعية... (تصمت). كانت تحب أن تحدثني عن الحرب... عندما كانت في السابعة عشرة من عمرها تطوعت وذهبت إلى الجبهة، وهناك أحبها جدُّنا. كانت تحلم بأن تعمل عاملة سنترال، ولكن في تلك القطعة العسكرية التي التحقت بها كانوا في حاجة إلى طبّاخة، وأصبحت طباخة. وجدي أيضاً كان طباخاً، كان يطعم الجرحى في المستشفى. كان الجرحى يصرخون في هذيانهم: «هيا! هيا! إلى الأمام!». للأسف كانت تروي لي

الكثير، لكنني لا أذكر سوى مقاطع قليلة... كان عند الممرضات دوماً دلو جاهز من الحوار، نفدت الحبوب والذرور، فكانوا يصنعون حبوب الدواء من هذا الحوار، كي لا يشتم الجرحى ولا يضربونهن بالعكاكيز... آنذاك، لم يكن هناك تلفزيون، ولم يكن هناك من رأى ستالين، لكنهم كانوا جميعاً يريدون رؤيته... وجدتي أيضاً، بقيت تجله وتحترمه حتى لحظة موتها: «لولا ستالين للعقنا مؤخرات الألمان». وتشتم الأم إضافة إلى ذلك. أما أمي فلم تكن تحب ستالين وتدعوه بـ"الشرير" و"القاتل"... سيكون خبثاً لو قلت إنني فكرت في هذا كثيراً... كنت أحيا، وأشعر بالسرور. الحب الأول...

كانت أمي تعمل مراسلة في معهد الجيوفيزياء للأبحاث العلمية. كنا صديقتين. كنت أشاركها في جميع أسراري، حتى بما لا يقال للأمهات عادة. كان هذا ممكناً مع أمي، حيث لم تكن كبيرة متقدمة في السن. كانت مثل أختي الكبرى. كانت تحب الكتب... والموسيقى... وتعيش عليهما. لكن الجدة كانت تقودنا... كانت تتذكر أمي أنني كنت في طفولتي فتاة ذهبية، لا حاجة لأن يرجوني أو يقنعني أحد. حقيقة، كنت أحب أمي إلى درجة العبادة... وكان يروقني أنني أشبهها، وكلما كبرت أكثر ازداد شبهي لها. عندنا تقريباً وجه واحد. وكان هذا يروقني... (تصمت). لم تكن أحوالنا غنية، لكننا كنا نعيش بشكل ما. فكل من حولنا كانت أوضاعهم مثلنا. بل عشنا مرحين، كان يأتي لعندنا أصدقاء أمي، فيتحدثون ويغنون الأغاني. أذكر الكاتب أكودجافا منذ الطفولة: «كان يعيش في الدنيا جندي/ جميل وشجاع/ لكنه كان لعبة أطفال: إنه كان جندي من ورق»... كانت الجدة تضع على الطاولة طست الفطائر، وتقلي فطائر لذيذة. كان رجال كثيرون يغازلون أمي، وكانوا يهدونها الأزهار ويشترون لي البوظة، حتى أنها سألتني ذات مرة: «هل تسمحين بأن أتزوج؟». لم أكن أعترض، لأن

أمي كانت جميلة، ولم يكن يعجبني أنها وحيدة، كنت أريد أن تكون أمي سعيدة. كانت أمي تسترعي الأنظار في الشارع دوماً، فكان يلتفت هذا الرجل أو ذاك إليها. كنت أسألها عندما كنت صغيرة: «ماذا بهم؟» فتضحك أمي قائلة: «فليذهبوا إلى...!». كانت تضحك بطريقة خاصة. غير مألوفة. حقيقة، كنا نعيش حياة مرحة. فيما بعد، عندما أصبحت وحيدة، كنت آتي إلى شارعنا وأنظر إلى نوافذنا. ذات مرة لم أستطع منع نفسي وقرعت الجرس في بابنا - كانت تعيش هناك أسرة جورجية. ويبدو أنهم ظنوا أنني متسولة، وأرادوا أن يقدموا لي قليلاً من المال وبعض الطعام. فبكيت وهربت...

سرعان ما مرضت جدتي، وكانت بسبب مرضها تريد أن تأكل دوماً، كانت تخرج كل خمس دقائق إلى مدخل الدرج وتصيح بأننا نميتها جوعاً. وكانت تكسر الصحون... كان في إمكان أمي وضعها في مستشفى متخصص، لكنها قررت أنها سوف تعتني بها، فهي أيضاً كانت تحبها كثيراً. وكثيراً ما كانت تفتح البوفيه وتتناول صورها في أثناء الحرب، وتنظر إليها وتبكي. كانت جدتي في الصور فتاة شابة، لا تشبه الجدة أبداً، لكنها كانت جدتنا. وتبدو وكأنها إنسانة أخرى... هكذا يحدث... نعم حتى موتها، كانت جدتي تقرأ الصحف وتهتم بالسياسة... وعندما مرضت كان على الطاولة الصغيرة قربها كتاب واحد... الكتاب المقدس... كانت تناديني وتقرأ: «وسيعود التراب إلى الأرض، كما كان، وتصعد الروح إلى الإله»... كانت تفكر في الموت دوماً: «أصبح وضعي قاسياً جداً، يا حفيدتي. سئمت كثيراً».

كان يوم عطلة... كنا كلنا في البيت... ألقيت نظرة على غرفة جدتي، كان قد أصبح المشي عليها صعباً، وكانت أكثر الأوقات مستلقية، رأيتها تجلس وتنظر في النافذة. سقيتها قليلاً من الماء. مضت فترة قصيرة من

الزمن... دخلت لغرفتها من جديد، ناديتها، فكانت صامتة، أمسكت بيدها، كانت باردة، كانت عيناها مفتوحتين وتنظران إلى النافذة. قبل هذا لم أرَ الموت أبداً، خفت وصرخت. ركضت أمي، وبكت على الفور، وأغلقت عيني جدتي. كان من الواجب الاتصال بالإسعاف. في الحقيقة، حضرت سيارة الإسعاف بسرعة، لكن الطبيب طلب من أمي نقوداً من أجل شهادة الموت ومن أجل نقل الجدة إلى المشرحة: «وماذا تريدين؟ إنه السوق!». لم يكن لدينا مال في البيت أبداً... ففي هذه الفترة بالذات سرحوها من العمل، وبقيت طيلة شهرين تبحث عن عمل، ولكن حيثما توجهت حسب الإعلانات كان هناك دور. كانت ماما قد تخرجت من المعهد العالي للتكنولوجيا بدرجة امتياز. وكانت مسألة العثور على عمل باختصاصها مستحيلة، فكان خريجو المعاهد العليا يعملون بائعين، وفي غسيل الأدوات المنزلية. وتنظيف المكاتب. كل شيء قد تغير... لم أكن قادرة على التعرف على الناس في الشوارع، وكأنهم قد تحولوا جميعاً إلى شيء رمادي. لم يكن هناك أي شيء ملوّن. هذا ما حفظته... كانت جدتي تبكي عندما كانت على قيد الحياة قائلة: «هذا كله بسبب محبوبك يلتسين... وغايدار... ماذا فعلوه بنا؟ قريباً جداً سيصبح كل شيء كما في الحرب». لاذت أمي بالصمت، وقد دهشت أن ماما سكتت. كنا ننظر إلى كل شيء في البيت هكذا، هل من الممكن بيعه؟ لم يكن عندنا ما يباع... كنا نعيش على راتب جدتي التقاعدي. كنا نعيش على المعكرونة الرمادية.. خلال حياتها كلها، جمعت جدتي خمسة آلاف روبل، كانت محفوظة في الصندوق الادخاري، وكانت من المفروض أن تكفيها، حسب قولها، كي تعيش ما بقي من حياتها، ولليوم الأسود ومن أجل الدفن. وأصبح هذا المبلغ لا يكفي إلا لتذكرة ركوب الترام... وثمن علبة كبريت. النقود تبخرت في يوم واحد من الجميع. لقد قاموا بإفقار الشعب وسحب جميع

النقود منه... أكثر ما كانت تخافه جدتي أن ندفنها بكيس من السلوفان أو نلفها بالصحف. كان التابوت يتطلب مبالغ هائلة، وكانوا يدفنون موتاهم بمختلف الطرق... صديقة جدتي، العمة فينيا كانت ممرضة في الجبهة، دفنتها ابنتها ملفوفة بورق الصحف... لفتها بصحف قديمة... وضعت الميداليات التي حصلت عليها في الحرب إلى جانبها في القبر... الابنة مقعدة، كانت تعمل نبّاشة في النفايات... كان هذا ظلماً شديداً! دخلت مع صديقاتي إلى المخزن التجاري، وتأملنا هناك المرتديلا والسجق. عبوات لامعة براقة. من كان لديه من الفتيات "فيزون" كان يسخر من تلك الفتيات اللواتي لم يستطع أهلهن شراء "فيزون". كنّ يسخرن مني... (تصمت). لكن أمي وعدت جدتي بأن تدفنها في تابوت. وأقسمت على ذلك.

رأت الطبيبة الجثة، «ليس لدينا نقود»، فدارت على عقبيها وذهبت. وتركت الجدة لنا...

عشنا مع الجدة الميتة أسبوعاً كاملاً... كانت أمي تمسح جلدها ببرمنغنات البوتاسيوم عدة مرات في اليوم وتغطيها بشرشف رطب. أغلقت جميع النوافذ والطاقات، وغطت الباب بلحاف رطب. فعلت هذا كله وحدها، كنت أخاف من الدخول إلى غرفة الجدة، فكنت أركض إلى المطبخ ثم أعود. كانت هناك رائحة... بدأت تظهر... حقيقة، من الإثم أن نقول إن الحظ كان حليفنا: خلال مرضها، نحفت الجدة كثيراً، ولم يبق منها سوى العظام... بدأنا الاتصال بأقاربنا... معارفنا كثيرون، نصف موسكو، وفجأة، لا أحد. لم يرفضوا - كانوا يفدون حاملين قطرميزات سعتها ثلاثة ليترات من مخلل الكوسا والخيار والمربى، ولم يعرض المال منهم أحد. يجلسون قليلاً ثم يغادرون. لم يكن لدى أحد منهم نقود. هكذا أظن... ابن عم والدتي استلم راتبه في المصنع على شكل معلبات غذائية، فأحضر معه بعض المعلبات. هذا ما استطاع تقديمه... آنذاك، كان من الطبيعي أن

يهدي المرء بمناسبة عيد ميلاد قطعة من الصابون، أو معجون أسنان... حقيقة، كان جيراننا طيبين. العمة آنيا وزوجها... كانا يرتبان حوائجهما وانتقلا إلى أهلهما في القرية، وكانا قد أرسلا أولادهما إلى القرية من قبل. كان لديهما من الهموم ما يكفيهما. العمة فاليا... كيف يمكنها أن تساعدنا إذا كان زوجها وابنها مدمنين على الكحول؟ كان لدى والدتي العديد من الأصدقاء... ولكن لم يكن عندهم شيء، سوى الكتب. نصفهم أصبحوا بلا عمل... خرس الهاتف. الناس تغيروا فوراً بعد الشيوعية. جميعهم كانوا يعيشون بأبواب مغلقة... (تصمت)... كنت أحلم: أنام وأستيقظ في الصباح وأرى جدتي على قيد الحياة.

زمن كان فيه قطاع الطرق يسيرون في الشوارع
ولا يخفون مسدساتهم

من هم هؤلاء؟ ظهر أشخاص غير مفهومين وغير معروفين، كانوا مطَّلعين على كل شيء: «نحن نعرف مصيبتكم. سنساعدكم». اتصلوا هاتفياً برقم، وعلى الفور جاء طبيب، وأعطانا شهادة وفاة الجدة وجاء شرطي. واشتروا تابوتاً غالي الثمن، وحضرت سيارة نقل الموتى، وكثيراً من الورود بمختلف أنواعها - كل شيء كما هو مطلوب. جدتي كانت قد رجتنا أن ندفنها في مقبرة خوفانسكوي، ولكن لا يمكن الدفن هناك دون رشوة، فالمقبرة قديمة، معروفة، وهذا ما فعلوه، أحضروا الكاهن، فصلى. وكل شيء كان جميلاً. كنت وأمي واقفتين نبكي. كانت العمة إيرا تقود الجميع، كانت هي الشخص الرئيس في هذه الحملة، وكان يرافقها دوماً شباب منفوخون، حرّاسها. وأحدهم كان يحارب في أفغانستان، وهذا ما طمأن والدتي إلى حد كبير، كانت تعتقد أنه إذا ما كان الشخص في الحرب أو كان مسجوناً في المعتقل في عهد ستالين، فلا يمكن أن

يكون سيئاً شريراً: «وكيف، فقد كان يعاني الأمرّين!». وعموماً، عندنا لا يتركون الإنسان عند الضيق والمصيبة - هذه كانت قناعتها، كنا نتذكر حكايات الجدة، كيف كان الناس ينقذ أحدهم الآخر في الحرب. الناس السوفييت... (تصمت). أما الآن فقد تغير الناس، أصبحوا آخرين. ليسوا سوفييتيين تماماً... أتحدث كما أتصور ذلك الآن وليس آنذاك... لقد أخذتنا العصابة إلى عجلتها، لكنهم كانوا بالنسبة إليَّ أعماماً وخالات، كانوا يشربون الشاي معنا في المطبخ، ويقدمون لنا الكراميل. كانت العمة إيرا تحمل لنا المواد الغذائية، عندما شاهدت برادنا الفارغ، وأهدتني تنورة جينز، عندها كان الجميع يتشوقون إلى الجينز! بقوا يترددون علينا نحو شهر، واعتدنا عليهم، وبدؤوا يعرضون على أمي: «تعالي نبيع شقتكم المؤلفة من ثلاث غرف، ونشتري لكم شقة بغرفة واحدة. وسيتوفر عندكم المال». وافقت أمي... فقد وجدت عملاً في مقهى: كانت تغسل الصحون وتنظف الطاولات، لكننا كنا نعاني من نقص المال بصورة كارثية. وبدأنا نتحاور إلى أين ننتقل، إلى أي حي. لم أكن أرغب في تغيير مدرستي. كنا نبحث عن شقة قريبة.

في هذه اللحظة ظهرت عصابة أخرى. كان رئيسها رجل... العم فولوديا... وبدأت مع عصابة العمة إيرا بالصراع على شقتنا. كان يصرخ العم فولوديا على والدتي: «وما حاجتك إلى شقة بغرفة واحدة؟ سأشتري لكم بيتاً في ضواحي موسكو». كانت العمة إيرا تصل إلينا على سيارة فولكسفاغن قديمة، أما العم فولوديا فكان يركب سيارة مرسيدس مرفهة. وكان عنده مسدس حقيقي... في التسعينيات... كان قطاع الطرق يسيرون في الشوارع ولا يخفون مسدساتهم. وكل من استطاع كان يركّب في شقته باباً حديدياً. في مدخلنا هاجموا ليلاً تاجراً بقنبلة يدوية. كان عنده كشك، ألواح خشبية مدهونة، رقائق خشبية، وكان يباع فيه كل شيء: مواد

غذائية، مواد تجميل، ألبسة، فودكا. طالبوه بدولارات. لم ترد زوجته إعطاء الدولارات، فوضعوا المكواة الكهربائية الحامية على بطنها، وهي حامل... لم يطلب أحد الشرطة، فالجميع يعرفون أن قطاع الطرق عندهم أموال كثيرة ويمكنهم رشوة أي كان. ولهذا كانوا يخشونهم. ولم يكن هناك من يشكون إليه... العم فولوديا لم يشرب الشاي معنا، فقد هدد أمي: «إذا لم تعطني الشقة فسأخطف ابنتك، ولن تريها بعد الآن. ولن تعرفي ماذا حل بها». لقد خبأني معارفنا عندهم، ولم أذهب إلى المدرسة عدة أيام. كنت أبكي ليلاً ونهاراً، وكنت أخاف على أمي. وقد رأى الجيران كيف جاؤوا لخطفي عدة مرات وبحثوا عني. وكانوا يشتمون الأم. وانتهت المسألة باستسلام أمي...

في اليوم التالي نقلونا. جاؤوا ليلاً: «بسرعة! بسرعة! ستسكنان في مكان آخر، ريثما نعثر لكم على بيت». وأحضروا معهم علبة دهان وورق جدران، فقد نووا إجراء الصيانة. «بسرعة! بسرعة!». وأمي من خوفها أخذت معها وثائقها وعطورها البولونية المفضلة التي أهدوها إياها في عيد ميلادها، وبضعة كتب مفضلة لديها، وأنا أخذت كتبي المدرسية وفستاناً. دفعوا بنا إلى السيارة... نقلونا إلى شقة شبه خالية تحتوي على سريرين كبيرين، وطاولة وكراسٍ. وأمرونا بصرامة بأن لا نخرج من الشقة ولا نفتح النوافذ، ولا نتحدث بصوت عال. ويل لكما لو سمع الجيران أصواتكما! يبدو أن هذه الشقة كان سكانها يتبدلون باستمرار... القذارة! عدة أيام ونحن كنا نشطف الشقة وننظفها. بعد ذلك، أذكر: كنا نقف وأمي في دائرة حكومية، وأرونا أوراقاً مطبوعة... وكأن كل شيء قانوني... وقالوا لنا: «عليكما هنا أن توقعا». وقعت أمي، أما أنا فشرعت في البكاء، لم أكن أفهم سابقاً ما جرى، وهنا أدركت، سيرسلوننا إلى قرية. شعرت بالأسى على مفارقة مدرستي وصديقاتي اللواتي لن أراهن بعد الآن. اقترب العم

فولوديا: «وقعي بسرعة وإلا سأنقلك إلى ملجأ الأيتام، وأمك على أية حال ستذهب إلى القرية. وستبقين وحدك». يا لهم من أنذال! أذكر أنه كان يقف بعض الأشخاص، وكان بينهم شرطي... الجميع لاذوا بالصمت. فقد أعطى العم فولوديا رشوة لكل منهم. وأنا طفلة... وماذا يمكنني أن أفعل؟ (تصمت).

لقد عشت طويلاً صامتة... كل هذا بالسر، سيئ، لكنه سري. لا أريد أن أظهره لأي كان... أذكر كيف نقلوني إلى ملجأ - هذا بعد فترة طويلة، عندما بقيت لوحدي من دون أمي- نقلوني واقتادوني إلى غرفة: «هذا هو سريرك. وتلك رفوفك في الخزانة»... لقد صُعقت... بحلول المساء ارتفعت حرارتي جداً واستلقيت... هذا كله كان يذكرني بشقتنا... (تصمت). كان هذا في رأس السنة... وشجرة العيد متوهجة... والجميع يرتدون الأقنعة... وستكون هناك حفلة رقص... رقص؟ وأي رقص؟ لقد نسيت كل شيء... (تصمت). في الغرفة كانت تسكن أربع فتيات غيري: شقيقتان صغيرتان تبلغان من العمر ثماني سنوات وعشر سنوات، وفتاتان بعمر أكبر، إحداهن كانت موسكوفية، تعاني جداً من مرض السفلس، والثانية تبين أنها سارقة، سرقتْ حذائي. كانت هذه الفتاة تريد العودة إلى الشارع... عمَّ أتحدث؟ عن أننا كنا معاً دوماً، ليلاً ونهاراً، ولكن لا تعرف أي فتاة عن الأخرى شيئاً... لم تحدِّث إحدانا الأخرى... لم نكن نرغب. وأنا لذت بالصمت طويلاً... لم أنطق إلا عندما التقيت بصديقي جينيا... لكن هذا فيما بعد... (تصمت).

لقد بدأت الآن ملحمتنا أمي وأنا... بعد أن وقعنا الأوراق نقلونا إلى منطقة ياروسلافسكايا: «لا بأس إن كانت بعيدة، بالمقابل سيكون عندكما بيت جيد». لقد خدعونا... لم يكن بيتاً، بل عزبة روسية قديمة بغرفة واحدة وموقد روسي كبير، لم نرَ مثله أنا وأمي من قبل، ولم نعرف كيف نوقده.

كانت العزبة قديمة متصدعة، حيثما تنظرين ترين فيها شقوقاً. أصيبت أمي بصدمة. دخلت إلى العزبة وجثت أمامي على ركبتيها، تطلب مسامحتها لأنها تسببت لي بهذه الحياة البائسة. كانت تضرب رأسها بالجدار... (تذرف دموعها). كان عندنا قليل من المال، نفد بسرعة. بدأنا نعمل عند الناس في المزارع، هذا يعطينا سلة من البطاطا، وذاك يعطينا عشر بيضات. تعلمت كلمة جديدة "مقايضة"... قايضت أمي عطرها المفضل بقطعة جيدة من الزبدة، عندما أصبتُ بالأنفلونزا... ألححت عليها ألا تفعل هذا، لأنه لم يبق عندنا إلا القليل من الأشياء التي تذكرنا ببيتنا. أذكر، ذات مرة، مديرة المزرعة، امرأة طيبة، أشفقت عليّ وأعطتني دلواً من الحليب، خفت وسرت نحو البيت عن طريق المزارع، التقتني حلّابة فضحكت وقالت: «ما بك خائفة مختبئة؟ اذهبي إلى بيتك عن طريق القرية. فالجميع هنا يفعلون ذلك، لا سيما وأنها سمحت لك». كان الجميع يحمل كل ما هو متحرك وغير مثبت بالمسامير، ورئيس الكولخوز أكثرهم. كانت السيارات تنقل ما يحمله لبيته. كان يأتي لعندنا: «اعملا عندي في المزرعة! وإلا فستسحقكما المجاعة». نذهب أم لا نذهب؟ لكن الجوع أرغمنا. من أجل الحلبة الصباحية كان عليَّ أن أستيقظ في الرابعة صباحاً. الجميع نيام. كنت أحلب الأبقار وأمي تغسل البراميل، كانت تخاف من الأبقار، لكنها كانت تعجبني. لكل بقرة اسمها... الدخانية، الكرزية... كان عندي ثلاثون بقرة وعجلان... كانوا ينقلون النشارة على العجلات، والسماد يصل إلى الركب. أعلى من الجزمات. كنا نرفع أواني الحليب الكبيرة على العجلة... كم وزنها؟ (تصمت). كان يدفعون أجورنا بالحليب واللحم، إذا ما خنقت بقرة ما نفسها أو غرقت في السماد السائل. كانت الحلابات يشربن الكحول مثل الرجال، وأخذت أمي تشاركهن. لم تعد علاقتي بأمي كما كانت في السابق، كنا صديقتين، لكنني أصبحت أصرخ في وجهها

بصورة متزايدة. كانت تنزعج. ونادراً، عندما تكون في مزاج حسن، كانت تقرأ لي الشعر... شاعرتها المفضلة تسفيتايفا: «بريشة حمراء/ تسطع شجرة الغبيراء/ أوراقها تسقط/ وأنا وُلِدت»... في تلك الأثناء كنت أتعرف على أمي السابقة. نادراً.

حل الشتاء. وبدأ الصقيع القارس. لو بقينا في هذه العزبة لما بقينا أحياء. جارنا أشفق علينا ونقلنا بسيارته إلى موسكو مجاناً...

زمن تخلو فيه كلمة إنسان من الكرامة،
وتُسمع على نحو مختلف

كنت أتحادث معك ونسيت أنني أخاف الذكريات... (تصمت). ما هو موقفي من الناس؟ الناس ليسوا سيئين وجيدين، بل أناس فقط. كنت أدرس في المدرسة بكتب مدرسية سوفييتية، لم يكن هناك كتب أخرى، كانوا يقرأون لنا: "الإنسان كلمة محمّلة بالكرامة والعزة". لكن الإنسان كلمة تخلو من الكرامة وتُسمع على نحو مختلف. أنا أيضاً مختلفة، في ذاتي من كل شيء قطعة... ولكن إذا ما رأيت طاجيكياً وكان لديَّ وقت أتوقف وأتحدث معه، رغم أن الطاجيك الآن عندنا كالعبيد، أشخاص درجة ثانية. ليس لدي مال، لكنني أتحدث معه. أنا هكذا كإنسان... إنه إنساني، إنه في حالتي وفي ذاتي - وأنا أعرف ما معنى أن تكون غريباً عن الجميع، أنت وحيد كلياً. أنا أيضاً عشت في مداخل الأبنية، ونمت في الأقبية...

في البداية نزلنا عند صديقة أمي، استقبلتنا استقبالاً طيباً، وراقت لي شقتها. وضعية معروفة: كتب، أسطوانات، على الجدار صورة تشي غيفارا. كما كانت شقتنا يوماً ما... الكتب نفسها والأسطوانات نفسها... ابن العمة أوليا كان يدرس في الدراسات العليا، في النهار لم يكن يخرج

من المكتبات، وليلاً كان يفرِّغ عربات القطار التجارية في المحطات. لم يكن لدينا ما يُؤكل. كان يوجد في المطبخ كيس كبير من البطاطا، وهذا كل شيء. كنا نأكل البطاطا ورغيفاً واحداً من الخبز يومياً. طيلة اليوم كنا نشرب الشاي. ولا شيء غير ذلك. كان كيلو غرام اللحم يعادل ثلاثمئة وعشرين روبلاً، أما راتب العمة أوليا الشهري فكان مئة روبل، كانت تعمل في مدرسة معلمات الصفوف الأولى. كان الجميع يتقلبون كالمجانين، بحثاً عن عمل إضافي. يتقاسمون الرغيف... تعطل الصنبور القديم في المطبخ، استدعينا عمال التمديدات الصحية، وتبين أنهم يحملون شهادات المرشحين للدكتوراه. ضحكنا جميعنا. وكما كانت تقول جدتي: لن تشبع بالحزن... الإجازة كانت رفاهية، وعدد قليل جداً كان يسمح لنفسه بهذه الرفاهية... العمة أوليا سافرت خلال إجازتها إلى منسك، كانت أختها تقيم فيها، مدرِّسة في الجامعة. كانوا يخيطون مخدات من فرو صناعي، ويحشونها بالنسيج الصناعي إلى منتصفها، وعشية السفر تماماً يدخلون فيها جرواً، ويعطونه إبرة مخدر. ويسافرون إلى بولونيا... هكذا كانوا ينقلون جراء الحراسة... والأرانب البرية... في الأسواق الكبيرة تسمعين اللغة الروسية في كل مكان... وفي الترمس يضعون الفودكا بدلاً من الشاي، ويخفون تحت الملابس المسامير والأقفال... كنت أعود إلى بيت العمة أوليا بحقيبة من المرتديلا البولونية اللذيذة. كانت رائحتها رائعة!

كانوا في موسكو ليلاً يطلقون النار، بل ويفجرون. الأكشاك... الأكشاك في كل مكان. اشتغلت أمي عند أذري كان عنده كشكان، الأول للفواكه، والثاني للسمك. «هناك عمل، من دون عطلة أسبوعية. الاستراحة ممنوعة». وإليكِ هذا الخبر، أمي كانت تخجل من البيع والبازار. رفضت بأي شكل! في اليوم الأول، رتبت الفواكه وصفتها، واختبأت خلف شجرة، وكانت تراقب من خلفها. ارتدت قبعة غطت بها أذنيها كي لا يتعرف عليها

أحد. في اليوم الثاني أعطت حبة برقوق لامرأة غجرية... لاحظ ذلك صاحب الكشك فصاح عليها. المال لا يحب الشفقة والخجل... لم تبقَ طويلاً في عملها هذا، لم تنجح في التجارة... رأيت إعلاناً على السياج: «مطلوب كناسة بشهادة جامعية». ذهبت أمي إلى العنوان المذكور، وقبلوها. كانوا يدفعون هناك راتباً جيداً. لقد كان هذا صندوقاً أمريكياً ما... واستطعنا آنذاك أن نأكل من أجورنا. استأجرنا غرفة، وفي هذه الشقة التي تضم ثلاث غرف، كان يستأجر أذريون الغرفة الثانية... شباب. كانوا يشترون ويبيعون باستمرار. واحد منهم طلب يدي للزواج، ووعد بنقلي إلى تركيا: «سأخطفك. عندنا هذه العادة، التي تلزم بخطف العروس». كنت أخاف البقاء في الشقة من دون أمي. وكان يهديني الفواكه والمشمش المجفف... كان صاحب الشقة يشرب الخمر أسابيع كاملة، ويسكر لدرجة أنه يفقد عقله: «يا لك من شرمـ...! يا لك من قحبة!». كان يضرب زوجته برجليه... وقد نقلتها سيارة الإسعاف إلى المستشفى... وعندها جاءني ليلاً. وكسر باب غرفتنا...

من جديد أصبحنا في الشارع...

في الشارع ومن دون نقود... فقد أُغلق الصندوق الذي كانت تعمل فيه أمي، فكانت تعمل أعمالاً مؤقتة. سكنا في مداخل الأبنية... على الدرج... كان بعضهم يمرون من أمامنا مرور الكرام، وآخرون يصرخون علينا، وكان هناك من طردنا إلى الشارع. ولو في الليل. وتحت المطر والثلج. لم يعرض أحد المساعدة، ولم يسأل أحد عنا... (تصمت). الناس ناس، ليسوا سيئين وليسوا طيبين. لكل همّه... (تصمت). في الصباح كنا نذهب إلى محطة القطار سيراً على الأقدام (لم نملك نقوداً لركوب المترو) وكنا نغسل وجوهنا في المراحيض. ونغسل ثيابنا. كان غسيلنا هناك... صيفاً الوضع مقبول حيث الدفء، يمكن العيش أينما كان... كنا ننام في الحديقة

العامة على المقاعد، في الخريف تتساقط أوراق الشجر، ننام على أوراق الشجر، فهي دافئة كما في كيس النوم. في محطة بيلاروسيا... أذكر هذا جيداً... كنا نلتقي غالباً بامرأة عجوز، متقدمة في السن، كانت تجلس وراء صندوق التذاكر وتتحدث مع نفسها. كانت تروي القصة نفسها... كيف دخل الذئاب إلى قريتهم، فقد عرفت الذئاب أن القرية خالية من الرجال. جميعهم كانوا يحاربون. إذا كان عندنا أنا وأمي قليل من النقود، كنا نعطيها. «ليحفظكما الإله». كانت ترسم علامة الصليب علينا. كانت تذكِّرني بجدتي...

تركتُ أمي على المقعد... أعود، فأرى أمي تجلس مع رجل ما. كان رجلاً لطيفاً. قالت أمي: «تعارفا. هذا فيتيا. هو أيضاً يحب الشاعر برودسكي». كل شيء مفهوم... إذا كان أحد ما يحب برودسكي، فهذا كان بالنسبة إلى أمي كلمة السر، إنه رجُلنا. «كيف لم يقرأ رواية "أطفال حي آربات"؟ إنه رجل برّي متوحش! إنه من الغابة! إنه غريب، ليس رجلنا». هكذا كانت تصنِّف الناس، وبقيت لديها هذه العادة. أنا تغيّرت كثيراً خلال العامين الأخيرين، حيث كنا نرتحل، وأصبحت جدية، وربما أكبر من سنّي. أدركتُ: أمي لن تساعدني بشيء، بل العكس، صرت أشعر أن عليّ أن أحميها. هكذا كنت أشعر... كان العم فيتيا ذكياً، وسألني ولم يسأل أمي: «ما رأيكِ أن نذهب؟». اقتادنا إلى بيته. كانت عنده شقة من غرفتين. أخذْنا معنا كل حوائجنا بهذه الحقائب البالية... وجدنا أنفسنا في الجنة... في متحف! كانت اللوحات الفنية معلقة على الجدران، ومكتبة رائعة. خزانة قديمة ذات أدراج... ساعة حائط كبيرة تبلغ السقف مع رقاص... صُعقنا! «أيتها الفتيات... بجرأة أكبر. اخلعا ثيابكما الخارجية». كنا نشعر بالخجل، فثيابنا قديمة مهترئة... رائحة محطات القطار... والمداخل... «بجرأة أكبر، أيتها الفتيات!». جلسنا نشرب الشاي. حدثنا العم فيتيا عن

نفسه... في زمن ما كان يعمل صائغاً، جوهرياً، وكانت لديه ورشته. أرانا حقيبة أدواته، وأكياساً من الأحجار شبه الكريمة، ومصنوعاته الفضية... كل شيء كان جميلاً، ملفتاً للنظر، غالي الثمن. لم نكن نصدق أننا سنعيش هنا. انهالت المعجزات علينا...

ونتجت عندنا أسرة، كبقية الأسر. التحقت ثانية بالمدرسة. العم فيتيا كان طيباً جداً، صنع من أجلي حلقة مع الحجر. لكن المصيبة نفسها... هو أيضاً كان يَسْكر... ويدخِّن كالقطار. في الفترة الأولى كانت أمي تؤنبه، وسرعان ما شرعا بشرب المسكرات معاً. كنا نحمل الكتب إلى مخزن الكتب القديمة، أذكر رائحة الأغلفة الجلدية... وكانت لدى العم فيتيا عملات نادرة قديمة. كنا نشرب ونشاهد التلفزيون. البرامج السياسية. كان العم فيتيا يتفلسف. كان يتحدث معي كما يتحدث مع فتاة راشدة... كان يسأل: «يولتشكا، ماذا يعلمونكم في المدرسة بعد الشيوعية؟ وما العمل الآن بالأدب السوفييتي والتاريخ السوفييتي؟ هل يجب نسيانه؟». حقيقة، كنت لا أفهم إلا القليل... هذا يهمكِ؟ لقد كنت أظن أنني بعيدة عن هذا، وهَأنذا أتذكر... كان يقول: «الحياة الروسية يجب أن تكون شريرة، تافهة، عندها ستصعد أرواحنا، وتدرك أنها لا تنتمي إلى هذا العالم... كلما كانت الحياة أكثر قذارة ودموية، كانت أمامها آفاق أكبر». «التحديث عندنا ممكن فقط عن طريق الاحتيالات وإطلاق النار...». «الشيوعيون... وماذا يمكنهم أن يفعلوا؟ إدخال نظام البطاقات التموينية من جديد وترميم أكواخ الاعتقال في ماغادان؟». «الناس الطبيعيون العاديون يبدون اليوم مجانين... إنها حياة جديدة لأولئك من أمثالي وأمثال أمك، إنها تنبذنا». «في الغرب رأسمالية قديمة، بينما عندنا رأسمالية طازجة بأنياب شابة... أما السلطة فهي بيزنطية نقية...».

ذات يوم شعر العم فيتيا بألم شديد في قلبه. استدعينا "الإسعاف"

لم يصل إلى المستشفى حياً. نوبة قلبية. حضر أقرباؤه: «من أنتم؟ من أين جئتم؟ لا مبرر لوجودكم هنا». صاح أحد الرجال: «اطردوا هاتين المتسولتين من هنا! إلى الشارع!». وعند خروجنا فتشوا حقائبنا...

نحن في الشارع...

اتصلنا بابن عم والدتي... أخذت سماعة الهاتف زوجته: «تفضلا!». كانوا يعيشون في شقة خروتشوفية[1]، تتألف من غرفتين، بالقرب من المحطة النهرية، كانوا يعيشون مع ابنهم المتزوج. كانت زوجته حاملاً. قرروا: «ستعيشان عندنا إلى حين ولادة زوجته آليونا». وضعوا سريراً حديدياً متحركاً لأمي في الردهة، وأنا كنت أنام في المطبخ على الأريكة القديمة. كان يحضر لعند العم ليوشا أصدقاؤه... من المعمل الذي يعمل فيه... كنت أغفو على وقع أحاديثهم. كل شيء يتكرر: زجاجة الفودكا على الطاولة، وورق اللعب، لكن الأحاديث كانت مغايرة...

- لقد ملأوا المدينة بقذاراتهم... الحرية... أين هي الحرية، يا قحبة؟ نأكل الجريش من دون زبدة...

- اليهود هم من قتل القيصر، وستالين، وأندروبوف... نشروا الأفكار الليبيرالية! يجب شد العزق بأكبر سرعة ممكنة. نحن، الروس، علينا أن نتمسك بعقيدتنا...

- يلتسين يزحف على بطنه أمام أمريكا... مع أننا نحن من انتصر في الحرب...

- تدخل إلى الكنيسة، وفيها يبدو الجميع أنهم يرسمون علامة الصليب، لكنهم يقفون كالأحجار...

- قريباً الجو سيكون حاراً ومرحاً... سنعلق الليبيراليين على أعمدة

---

(1) شيدت في عهد خروتشوف. المترجم.

الكهرباء قبل غيرهم، لأنهم تسببوا لنا بفترة التسعينيات. يجب إنقاذ روسيا...

بعد شهرين وضعت زوجة الابن مولودها. لم يبق لنا مكان في الشقة.

نحن من جديد في الشارع...

محطة القطار...

المدخل...

محطة القطار...

المدخل...

في المحطة... رجال شرطة مناوبون، كهول وشباب: «إما إلى الشارع، وكان الجو شتاءً، أو اذهبي معه إلى غرفة التوقيف...» وهناك كانت زاوية خاصة وراء الستارة، وفيها أريكة... تشاجرتْ أمي مع أحد رجال الشرطة عندما أخذني إلى هذه الزاوية... فضربوها واعتقلوها عدة أيام... (تصمت). أنا... هكذا حصل... مرضت مرضاً شديداً بالأنفلونزا. فكرنا طويلاً... وقررنا أن أذهب أنا إلى الأقارب، وتبقى أمي في محطة القطار. بعد بضعة أيام اتصلت بي أمي: «تعرّفت إلى امرأة، وهي تقترح عليَّ أن أسكن عندها. ثمة متسع في مسكنها. عندها بيتها الخاص بها. وهو في آلابينو». «فلأذهب معك». «لا، تعالجي أنت. وستأتين فيما بعد». أوصلتها إلى القاطرة الكهربائية، جلست أمي إلى جانب النافذة وأخذت تنظر إليَّ، وكأنها لم ترني منذ مدة طويلة. فلم أتحمل وقفزت إلى القاطرة: «ماذا بك؟». «لا تعيريني اهتمامك». لوحت لها بيدي وغادرت. في المساء وردني اتصال هاتفي: «أنت ماليكوفا يوليا بوريسوفنا؟». «نعم، أنا ماليكوفا». «الشرطة تتصل بك. قولي لنا، من هي لودميلا ماليكوفا؟». «إنها أمي». «لقد دهس القطار أمك في آلابينو»...

كانت دوماً شديدة الانتباه، عند مرور القطار... كانت تخاف كثيراً أن تقع تحت القطار أكثر من أي شيء آخر. تُحرِّك رأسها مئة مرة: هل يمشي؟ لا يمشي؟ وها هي تقضي نحبها تحته... إنها ليست صدفة... وليست حادثاً أليماً... اشترت زجاجة فودكا كي لا تشعر بالألم والرعب، ورمت بنفسها على السكة... لقد تعبت... أنهكها التعب... تعبت من هذه الحياة... تعبت "من نفسها"... هذه ليست كلماتي، إنها كلماتها. فيما بعد كنت أتذكر كل كلمة من كلماتها... (تبكي). دفع بها القطار طويلاً... نقلوها إلى المستشفى، لم تكمل ساعة واحدة في غرفة الإنعاش. ولكن كان من المستحيل إنقاذها. هكذا قيل لي... رأيتها في التابوت، في ثيابها. كل شيء كان مرعباً... لم أكن بعد قد عرفت جينيا... لو كنت صغيرة لَما تركتني أبداً... ولَما حدث هذا... في أيامها الأخيرة كانت تردد غالباً: «لقد أصبحتِ كبيرة. لقد كبرتِ». ولماذا كبرت؟ (تبكي). أصبحت وحيدة... وهكذا عشت... (بعد فترة صمت طويلة). إذا ما رُزقت بطفل، فيجب أن أكون سعيدة... كي يتذكر أمه السعيدة...

جينيا... جينيا أنقذني... كنت أنتظره دوماً... في الملجأ كنا نحلم: نعيش هنا مؤقتاً، وقريباً سوف نعيش مثل الجميع، وستنشأ عندنا أُسر، أزواج وأطفال. وسوف نشتري لأنفسنا "الكيك"، ليس في الأعياد فقط، بل عندما نشتهي. كنت أرغب في هذا كثيراً... سبعة عشر عاماً... أكملت العام السابع عشر... استدعاني المدير: «لقد حذفنا اسمك من قائمة الغذاء» وسكت. بعد السابعة عشرة أرسلوني من الملجأ إلى الحياة. اذهبي! ولم يكن لديَّ مكان أذهب إليه. ليس لديَّ عمل، وعموماً ليس لديَّ أي شيء. وليس لدي أم... اتصلتُ بالعمة ناديا: «غالباً سوف آتي لعندكم. سيخرجونني من الملجأ». العمة ناديا... لولاها... لتحفظها الملائكة... لم تكن عمتي المباشرة، والآن أصبحت أكثر قرباً من أي

قريب لي، وكتبتْ في وصيتها غرفتها في الشقة الجماعية باسمي. الآن... نعم... كانت قد عاشت مع عمي، لكنه توفي منذ زمن طويل، لم يرتبطا بعقد زواج رسمي، عاشا معاً بعقد زواج مدني. لكنني أعرف أنهما عاشا متحابين. يمكنني اللجوء إلى مثل هذا الإنسان... إذا كان الإنسان يعرف الحب، فيمكنك أن تقصده دوماً...

لم يكن لدى العمة ناديا أطفال، وقد اعتادت على العيش وحدها، وكان من الصعب عليها أن تعيش مع أحد. ظلام! غرفة مساحتها ستة عشر متراً. كنت أنام على سرير حديدي قابل للطي. بدأت جارتها تضع طلباتها: «قولي لها بأن تخرج». واستدعت الشرطة. وقفت العمة ناديا كالجدار ضدهم: «وإلى أين ستذهب؟». وقد مر عام على هذه الحادثة... سألتني العمة ناديا نفسها: «قلت إنك ستقيمين عندي شهرين، وقد مضى عام على إقامتك عندي». ألوذ بالصمت... أبكي... وهي صامتة... تبكي... (تصمت). ومضى عام آخر... وكأن الجميع اعتادوا عليَّ... كنت أبذل جهدي... والجارة ألفتني... العمة مارينا ليست إنساناً سيئاً، لكن حياتها سيئة. كان عندها زوجان، وكلاهما ماتا، كما تقول، بسبب الإدمان على الكحول. كان يتردد عليها كثيراً ابن أخيها، كنا نتبادل السلام. شاب جميل. وحدث هذا... كالآتي: كنت جالسة في الغرفة أقرأ كتاباً، دخلت العمة مارينا، وأخذت بيدي وقادتني إلى المطبخ: «تعالا تعارفا: هذه يوليا، وهذا جينيا. والآن اذهبا للنزهة!». بدأت ألتقي مع جينيا. تبادلنا القبلات. ولكن لم يكن هناك أي شيء جدي. كان يعمل سائقاً، وكان يسافر كثيراً في مهمات عمل. جاء مرة ولم أكن في البيت. أين؟ ماذا؟ كانت تحدث لي منذ زمن نوبات، فأكاد أختنق تارة، وأسقط على الأرض من ضعفي تارة أخرى... العمة ناديا أجبرتني على اللجوء للأطباء، حيث فحصوني، وعثروا على تصلب متعدد. أنت بالطبع، تعرفين ما هو التصلب... مرض

غير قابل للعلاج... نتيجة الحزن والكآبة، كان عندي نتيجة الحزن والكآبة. كنت أشتاق كثيراً إلى أمي. كثيراً جداً. (تصمت). وضع الأطباء تشخيصهم وحوّلوني إلى المستشفى. عثر عليّ جينيا وأخذ يزورني. كان يأتي كل يوم. فيحضر تفاحة جميلة تارة، وبرتقالة تارة أخرى... مثل أبي في زمن مِضى... حدث هذا في شهر أيار/ مايو... حضر مرة مع باقة من الورد، فلهثتُ؛ مثل هذه الباقة ثمنها نصف راتبه. وحضر في بذلة احتفالية: «تزوجيني!». ترددت. «ألا تريدين؟». فبم أجيب؟ أنا لا أعرف الخداع. وكنت قد أحببته منذ زمن. «أريد أن أتزوج منك، ولكن عليك أن تعرف الحقيقة؛ لدي إعاقة من الدرجة الثالثة. سرعان ما أُصبح مثل حيوان الهمستر القارض، وعليك أن تحملني على يديك». لم يفهم أي شيء، لكنه تكدر. جاء في اليوم التالي قائلاً: «لا بأس، سنُقدم على الزواج». خرجت من المستشفى، وأجرينا عقد الزواج. قادني إلى أمه. أمه قروية بسيطة. أمضت حياتها كلها في الحقل. لا يوجد في بيتها كتاب واحد. لكنني كنت أشعر بنفسي مرتاحة، هادئة عندهم. حدثتها أيضاً بقصتي كاملة... فعانقتني وقالت: «لا بأس، يا طفلتي، حيث يوجد الحب تجدين الله» (تصمت).

الآن، أنا بكامل قواي وطاقتي، أريد أن أعيش، لأن عندي حبيبي جينيا... حتى أنني أحلم بطفل... الأطباء ضد أن أحمل، لكنني أحلم... أريد أن يكون لدينا بيت، أنا طيلة حياتي أحلم بالبيت. عرفت أنه صدر قانون... وبموجبه يمكن استرجاع شقتنا. وقد قدمت طلباً بهذا الخصوص... قالوا لي إن هناك آلاف من الحالات مثل حالتي، ويساعدون الكثيرين، لكن حالتي صعبة جداً، لأن شقتنا بيعت ثلاث مرات. وقطاع الطرق الذين نهبونا يرقدون منذ زمن طويلة في المقبرة، فقد قتل أحدهم الآخر...

ذهبنا إلى قبر أمي. على شاهدة القبر صورتها، وكأنها لا تزال حية.

نظفنا القبر، واقتلعنا الأعشاب الضارة. وقفنا طويلاً، لم يكن في استطاعتي مغادرة القبر، وفي لحظة من اللحظات بدا لي أنها تبتسم... إنها سعيدة... أو أن أشعة الشمس كانت تنعكس على قبرها هكذا...

عن العزلة الشبيهة بالسعادة

آليسا ز. لر - مديرة إعلانات، 35 عاماً

سافرت إلى بطرسبورغ من أجل قصة أخرى، ورجعت بهذه القصة. تحادثت في القطار مع رفيقة طريق...

- عندي صديقة انتحرت... كانت قوية، ناجحة. لديها الكثير من المعجبين والأصدقاء. كنا مصدومين كلنا. ما هو الانتحار؟ هو جبن أم خطوة قوية؟ خطة جذرية، صرخة لتقديم المساعدة أم تضحية بالذات؟ مخرج... مصيدة... إعدام... أنا أود... يمكنني أن أروي لك، لماذا لن أُقدم على هذه الخطوة...

الحب؟ لن أبحث هذا الخيار... أنا لست ضد كل ما هو جميل، ولامع، ومجلجل، لكنك أنتِ أول من نطق لي هذه الكلمة منذ عشر سنوات غالباً. القرن الحادي والعشرون هو المال والجنس وسبطانتان، وأنت تتحدثين عن العواطف والمشاعر... الجميع لأول مرة يكتسبون المال بجشع... لم تكن لدي رغبة في الزواج السريع، وولادة الأطفال، كنت دوماً أريد أن أكسب منصباً، وهذا كان في المرتبة الأولى. أنا أقدِّر نفسي ووقتي وحياتي حق التقدير. ومن أين لك هذا الرأي أن الرجال يبحثون عن الحب؟ الحب... يعتقد الرجال أن المرأة لعبة، كأس في مباراة، ضحية، وهم الصيادون. هذه قاعدة أثبتتها العصور. والنساء يبحثن عن أمير ليس

على حصان أبيض بل على كيس من الذهب. أمير من عمر غير محدد... وليكن "أباً"... وما المانع؟ العالم يحكمه المال! لكنني لست ضحية، أنا نفسي صيادة...

قدمت إلى موسكو قبل عشر سنوات... أنا كنت مجنونة، جميلة، قلت لنفسي: أنا خُلقت كي أكون سعيدة، الناس الضعاف يعانون، التواضع زينة الضعفاء. جئت من مدينة روستوف... والداي يعملان في المدرسة: أبي كيميائي، وأمي معلمة اللغة الروسية والأدب الروسي. تزوجا منذ أنا كانا طالبيْن، كان لدى أبي طقم جيد واحد، وكومة من الأفكار في احتياطه، وكان هذا كافياً كي يدير عقل الفتاة. حتى الآن يحبان أن يتذكرا أنهما طيلة فترة طويلة كان يكتفيان بطقم واحد من الأغطية، ومخدة واحدة وشبشب منزلي واحد. في الليالي كان يقرآن باسترناك أحدهما للآخر، عن ظهر قلب! مع الحبيب الخيمة جنة! كنت أمزح فأقول: «حتى أوائل البرد القارص». كنا أسرة سوفييتية عادية: في الصباح نتناول الحنطة السوداء أو المعكرونة مع الزبدة، برتقالة واحدة في السنة، في عيد رأس السنة. حتى أنني أتذكر رائحتها. ليس الآن، بل آنذاك... لقد كانت رائحتها مغايرة... رائحة الحياة الجميلة... إجازة الصيف نمضيها على شاطئ البحر الأسود. كنا نسافر إلى سوتشي على نفقتنا الخاصة، ونسكن جميعنا في غرفة واحدة من تسعة أمتار. لكننا كنا نفخر بشيء ما... كنا نفخر جداً به... كنا نفخر بكتبنا المفضلة التي نحصل عليها من السوق السوداء بأسعار باهظة. وهناك فرحة أخرى! بطاقات المسرح المجانية (صديقة أمي كانت تعمل في المسرح) للعرض المسرحي الأول. المسرح! موضوع أبدي للحوار والحديث في الشلة المحترمة... الآن يكتبون: المعسكر السوفييتي للغيتو الشيوعي. إنه عالم أكَلَة لحوم البشر. لا أذكر أشياء رهيبة... أذكر أنه كان عالَماً ساذجاً، ذاك العالم كان ساذجاً

جداً وأخرق. كنت أعرف دوماً، أنني لن أعيش هكذا! لا أرغب في ذلك! وبسبب هذا كادوا أن يطردوني من المدرسة. آه! نعم... المولودون في عصر الاتحاد السوفييتي- هذا تشخيص... وصمة! كانت عندنا دروس التدبير المنزلي، كان الفتيان، لسبب ما، يتعلمون قيادة السيارة، والفتيات يتعلمن قلي البرغر، وهذا البرغر اللعين كان دوماً يحترق معي. المعلمة، وهي موجهة صفنا، بدأت تربيني: «أنت ليست لديك أية مهارة منزلية! ستتزوجين، وكيف ستطعمين زوجك؟». فكنت أرد على الفور: «أنا لا أنوي قلي البرغر. ستكون عندي خادمة بيت». العام السابع والثمانون... كنت في الثالثة عشر من عمري... أية رأسمالية، وأية خادمة بيت؟! كانت الاشتراكية بكامل قوتها! استُدعي والداي إلى مدير المدرسة، وأنبوني في الاجتماع العام للصف، وفي مجلس الانضباط المدرسي. وأرادوا طردي من صفوف الطلائعيين. الطلائع والشبيبة؛ كانا شيئاً جدياً. حتى أنني كنت أبكي... ومع أنه لم يكن في رأسي أية قواف شعرية، بل رموز وصيغ ومعادلات... لم يكن عندي أية قواف شعرية... عندما أكون وحيدة في البيت، كنت أرتدي فستان أمي وحذاءها، وأجلس على الأريكة. كنت أقرأ رواية تولستوي "آنّا كارينينا". حفلات المجتمع، الخدم، الكتّافيات... اللقاءات الغرامية... كل هذا كان يروقني في هذه الرواية، إلى تلك اللحظة عندما رمت آنّا نفسها على سكة القطار: ولماذا؟ إنها جميلة، غنية... بسبب الحب؟ حتى أن تولستوي لم يستطع إقناعي... كانت الروايات الغربية تروقني أكثر، كان يروقني فيها العاهرات، العاهرات الجميلات، التي كان الرجال بسببهن ينتحرون ويتعذبون. يرتمون على أقدامهن. في عامي السابع عشر آخر مرة كنت أبكي بسبب الحب غير المتبادل. أمضيت ليلة كاملة في غرفة الحمام وفتحت صنبور الماء على آخره. أمي كانت تهدئني بأشعار باسترناك... حفظت منها: «أن تكوني امرأة، خطوة

عظيمة/ أن تفقدي عقلك، بطولة». لا أحب طفولتي ولا شبابي، طيلة الوقت كنت أنتظر، متى ستنتهيان. قضمت صخر العلم، مارست الرياضة في صالة الجيمنازيوم. أسرع من الجميع، أعلى من الجميع، أقوى من الجميع! في البيت كنت أسمع إلى كاسيت أغاني أوكودجافا: «لنتكاتف، أيها الأصدقاء». لا! ليس هذا مثلي الأعلى.

أنا في موسكو... موسكو! أسمعها دوماً كمنافسة لي، منذ الدقيقة الأولى أثارت في نفسي النزق الرياضي. مدينتي! الوتيرة المجنونة، الكيف! قياس أجنحتي! كان في جيبي مئتان من "العملة الخضراء" وقليل من "العملة الخشبية"، هذا كل شيء! حقبة التسعينيات المفعمة بالحيوية... لم يدفعوا راتباً لوالدي منذ فترة طويلة. البؤس! أبي كان كل يوم يقنع نفسه ويقنعنا، أنا وأمي: «يجب أن نصبر. أن ننتظر. أنا أثق بغايدار». لم يصل بعد إلى وعي هؤلاء الناس، مثل والديّ، أن الرأسمالية بدأت. الرأسمالية الروسية... رأسمالية شابة، سميكة الجلد، كتلك التي انهارت عام 1917... (استغرقت في التفكير). فهل يفهمون هذا الآن؟ تصعب الإجابة... لكنني واثقة من شيء واحد: لم يطلب والداي الرأسمالية. ومن دون صيغ مختلفة. كان هذا طلبي، وطلب أمثالي، من رفض البقاء في القفص. الشباب والأقوياء. الرأسمالية، بالنسبة إلينا، مهمة، جذابة... مغامرة خطرة، خطر... ليست محصورة بالمال. السيد الدولار! سأفشي لكِ الآن سري! تروقني القراءة عن الرأسمالية، الرأسمالية المعاصرة وليس روايات درايزر، أكثرَ من القراءة عن معتقل غولاغ والعجز السوفييتي. عن الوشاة المخبرين. أوه! يا للويل! لقد تطرقت إلى المقدس. لا يمكنني مع والدي حتى مجرد النطق بهذا. ولا كلمة واحدة. أبي بقي رومانسياً سوفييتياً. في آب/ أغسطس من العام الحادي والتسعين... الانقلاب! على شاشة التلفزيون منذ الصباح

يعرضون باليه "بحيرة البجع"... والدبابات في موسكو، كما لو أنها في أفريقيا... وأبي، ومعه سبعة رجال من أصدقائه، انطلقوا من العمل مباشرة إلى موسكو لدعم الثورة! كنت أجلس أمام التلفزيون... رسخت في ذهني صورة يلتسين على ظهر الدبابة. انهارت الإمبراطورية... ولتنهر... كنا ننتظر أبي كما لو أنه سيعود من الحرب، وعاد بطلاً! أعتقد أنه لا يزال يعيش حتى الآن هذا المشهد. بعد عدد معين من السنوات، أدركت أن هذا هو الجوهري الذي كان في حياته. كما هو الأمر عند جدِّنا... طيلة حياته كان يحدثنا كيف أنهم هزموا الألمان بالقرب من ستالينغراد. بعد الإمبراطورية أصبحت الحياة بالنسبة إلى أبي مملة وغير جذابة، ليس هناك ما يعيش من أجله. عموماً، أبناء جيله... كانوا يائسين... لديهم شعور بالهزيمة المزدوجة: الفكرة الشيوعية ذاتها انهارت، وما حصل من بعدها، كذلك لم يفهموه، ولم يأخذوا به. كانوا يريدون شيئاً آخر، إن كانت رأسمالية، فلتكن بوجه إنساني وابتسامة ساحرة. فهذا ليس عالمهم، إنه غريب عنهم. لكن هذا هو عالمي! هو لي! أنا سعيدة لأنني لا أرى الناس السوفييت إلا في التاسع من أيار/ مايو، في يوم النصر... (تصمت).

سافرتُ إلى العاصمة عن طريق الأوتوستوب. هكذا أرخص، وكلما نظرت إلى النافذة أكثر زاد غضبي، وكنت أعرف أنني لن أعود من موسكو. ولا بأية كعكة عسل! على الجانبين بازار... كانوا يتاجرون بأطقم فناجين الشاي، والمسامير، والدمى؛ كانوا يسددون للناس بضاعةً. كان من الممكن تبديل المكاوي الكهربائية وطناجر البخار بالمرتديلا (في معامل تقطيع اللحم كانوا يسددون الرواتب بالمرتديلا) بالكاراميل، بالسكر. على مقربة من كشك-حافلة كانت تقف امرأة سمينة مغطاة بألعاب الأطفال، مثل أحزمة الذخيرة. إنه فيلم رسوم متحركة! كان المطر يهطل في موسكو،

ومع ذلك ذهبتُ إلى الساحة الحمراء كي أرى قبة فاسيلي بلاجينسكي وجدار الكرملين. إنه الجبروت، القوة، وأنا هنا! في القلب! كنت أمشي وأعرج، فقبل سفري كسرت في القاعة الرياضية خنصر قدمي، لكنني كنت بحذاء الكعب العالي، ولبست أفضل فستان عندي. بالطبع، القدر هو حظ، ورق لعب، ولكن لدي إحساس مرهف، وأنا أعرف ما أريده. الكون لا يعطي شيئاً هكذا... دون مقابل... خذ! وهات! على المرء أن يكون شديد الرغبة. كنت راغبة! كانت أمي تحضر معها الكعك المنزلي وكانت تحدثني كيف تذهب مع أبي إلى اجتماعات الديمقراطيين. بالبطاقات التموينية كانوا يوزعون في الشهر للشخص الواحد: كيلوغرامان من الحبوب، كيلوغرام من اللحم، ومئتي غرام من الزبدة. طوابير، طوابير، طوابير وأرقام في الأكف. لا تروقني كلمة "سوفييتي"! والداي ليسا سوفييتيين، إنهما رومانسيان! تلميذان مبكران في الحياة العادية. أنا لا أفهمهما، لكنني أحبهما! سرت وحيدة في الحياة... لوحدي... لم أكن مكتفية من كل شيء... ولديّ ما أحب نفسي من أجله! من دون بروفات تجريبية، من دون مال وحماية انتسبت إلى جامعة موسكو. في كلية الصحافة... في السنة الأولى أحبني زميلي في الكلية وسألني: «وهل أنت مغرمة؟». أجبته: «أنا مغرمة بنفسي». حققت كل شيء بنفسي. بنفسي من دون مساعدة. لم أكن أشعر بالمتعة مع زملائي في الكلية، وفي المحاضرات كنت أشعر بالملل. كان الأساتذة السوفييت يعلموننا بالكتب الجامعية السوفييتية. ومن حولي كانت تغلي حياة غير سوفييتية، حياة مدهشة، مجهولة، مجنونة! ظهرت أولى السيارات الأجنبية المستعملة، يا للبهجة! ظهر أول مطعم "مكدونالد" في ساحة بوشكين... "الكوسميتيك" البولوني... وإشاعة غريبة، بأنه للأموات... أول دعاية في التلفزيون، كانت إعلاناً عن الشاي التركي. كل شيء كان رمادياً في السابق، وهنا ظهرت الألوان الساطعة

والإعلانات واللافتات البراقة. كنت أرغب في كل شيء! كان من الممكن الحصول على كل شيء! كان يمكنكِ أن تكوني من تريدين: وسيطة، قاتلة، مثلية جنسياً... التسعينيات... كانت بالنسبة لي مباركة... لا تُنسى... إنها زمن مديري المخابر، قطاع الطرق والمغامرين! لم يبق هناك سوفييتي إلا الأشياء، أما الناس فقد تبرمجوا ببرنامج آخر في رؤوسهم... ستدورين وتتناوبين، وتحصلين على كل شيء. أي لينين هذا؟ وأي ستالين؟ أصبح هذا في الماضي، أمامك تنفتح حياة مذهلة: يمكنك رؤية العالم كله، وأن تسكني في شقة رائعة، وتركبي سيارة مرفهة، وتأكلي لحم فيل على الغداء... لقد هربت أعين روسيا... الشارع واللقاءات الشبابية كانت تعلِّم أسرع، وانتقلت إلى الدراسة الجامعية بالمراسلة. عثرت على عمل في صحيفة. كان الحياة تروق لي منذ الصباح الباكر.

كنت أنظر إلى الأعلى... إلى سُلَّم الحياة العالي... لم أكن أحلم من أجل أن يضاجعوني في مداخل الأبنية أو في الساونا ويأخذوني مقابل ذلك إلى المطاعم الفاخرة. كان لدي كثير من المعجبين... لم أكن ألتفت إلى أترابي وأبناء جيلي، معهم كان يمكنني أن أكون صديقة وأذهب إلى المكتبة. هذا غير جدي وآمن. كان يروقني الرجال الأكبر سناً والأنجح، الذين كونوا أنفسهم. فمعهم كنت أشعر بالمتعة والضحك والفائدة. أما نظرتهم إليّ... (تضحك) كانت لي وصمة، وصمة فتاة من أسرة جيدة، حيث الكثير من الكتب، وحيث رف الكتب هو الأهم، وكنت أسترعي انتباه الكتّاب والرسامين. العباقرة غير المعترف بهم. لكنني لم أكن أنوي تكريس حياتي لعبقري يعترف به بعد الموت وسيحبه الأحفاد بلطف وحنان. وبعد ذلك جميع تلك الأحاديث التي مللتها منذ أن كنت في بيتي: عن الشيوعية، عن معنى الحياة، عن السعادة للآخرين... عن سولجينتسين وساخروف... لا، هؤلاء كانوا أبطال رواية أخرى وليس روايتي، أبطال

أمي. أولئك الذين كانوا يقرؤون ويحلمون بالطيران، مثل نورس تشيخوف، حل محلّهم من لم يقرأ، ومن لم يكن في استطاعته التحليق. كل المجموعة السابقة من أحاديث المثقفين المهذبين رست إلى الأسفل: النشر الذاتي السري، الأحاديث الهامسة في المطبخ. أي عار، دباباتنا كانت في براغ! إن دباباتنا في موسكو الآن! ومن تُدهشين بهذا؟ بدلاً من أشعار دار النشر الذاتية السرية، خاتم من الألماس، الماركات الغالية من الألبسة... إنها ثورة الرغبات! الإرادات! كان يروقني كبار الموظفين ورجال الأعمال... كانت يلهمني قاموس كلماتهم: شركات الخارج المتهربة من الضرائب، الرشاوى، المقايضة، شبكة الموزعين التجاريين، المقاربة الإبداعية... في هيئة التحرير كان رئيس التحرير في الاجتماعات يقول: «نحن في حاجة إلى رأسماليين. نساعد يلتسين وحكومة غايدار في تصنيع الرأسماليين. وبسرعة كبيرة!». كنت شابة... جميلة... كانوا يرسلونني لإجراء مقابلات مع هؤلاء الرأسماليين: كيف أصبحوا أثرياء؟ كيف جمعوا المليون الأول؟ هل تحول الناس الاشتراكيون إلى رأسماليين؟ كان من الواجب وصف هذا كله... لسبب ما كان المليون الأول يذهل الأبصار والمخيلات. جمع المليون الأول! نحن اعتدنا أن الإنسان الروسي وكأنه لا يرغب في أن يصبح ثرياً، بل يخاف أن يصبح ثرياً. فما الذي يريده؟ لكنه دوماً يريد شيئاً واحداً، ألا يصبح أحد غيره ثرياً. أغنى منه. ملايين البذلات، السلاسل الذهبية... هذا من السينما... من المسلسلات التلفزيونية... إن أولئك الذين التقيت بهم كانوا بمنطق حديدي وبقبضة حديدية. تفكير منتظم. كلهم تعلموا اللغة الانكليزية. وإدارة الأعمال. الأكاديميون وطلاب الدراسات العليا رحلوا من البلاد... علماء الفيزياء والشعراء الغنائيون... أما هؤلاء... الأبطال الجدد... لم يكونوا يرغبون في الرحيل إلى أي مكان، كان يروق لهم العيش في روسيا. لقد كانت الساعة ساعتهم والزمن

زمنهم! والفرصة فرصتهم! كانوا يريدون أن يصبحوا أثرياء، كانوا يريدون كل شيء. كل شيء!

وهنا التقيت به... أعتقد أنني أحببت هذا الإنسان. هذه الجملة تُسمع وكأنها بوح صريح... أليس كذلك؟ (تضحك). كان أكبر مني بعشرين عاماً، لديه أسرة وابنان، وزوجة غيورة. حياة تحت المجهر... لكننا كنا نجنّ أحدنا بالآخر، كانت بيننا تلك المتعة العاصفة والشوق لدرجة أنه كان يعترف: صباحاً، كي لا يبكي في العمل، كان يأخذ حبتين "تازيبام". أنا أيضاً كنت أقوم بتصرفات مجنونة، وكأنني قفزت للتو بالمظلة. هذا كله كان... يحدث هكذا... مرحلة باقات الورد والكراميل... ولم يكن مهماً بعد، من يخدع الآخر، ومن يصطاد مَن، ومن ماذا يريد. كنت شابة صغيرة؛ اثنان وعشرون عاماً... عشقت... عشقت... الآن أدرك أن الحب هو نوع من البيزنس، لكل طرف ما يخاطر به. كوني جاهزة لعملية جديدة... دوماً! نادر الآن من يعاني ويتألم من الحب. فالقوى كلها تُحشد للقفزة! للمنصب! الفتيات الشابات، عندنا في غرفة التدخين، يرتعشن، وإذا كانت هناك من لديها عاطفة حقيقية، يشفقن عليها: غبية، وكأنها عشِقت. (تضحك). غبية! نعم لقد كنت تلك الغبية السعيدة! كان يصرف السائق، ويأخذ سيارة أجرة، وكنا نتجول في المدينة ليلاً بسيارة "موسكفيتش" رثة تفوح رائحة البنزين فيها. نتبادل القبلات دون نهاية. كان يقول لي: «شكراً لك، أرجعتني إلى ما قبل مئة عام». مقاطع فلاش... فلاش... كانت تذهلني وتيرته... ضغطه... يتصل بي مساء: «صباحاً نركب الطائرة إلى باريس»، أو «سنذهب إلى جزر الكناري. لدي ثلاثة أيام». نركب الطائرة في قسم الدرجة الأولى، وننزل في غرفة في أغلى فندق، تحت أقدامنا أرض زجاجية، وهناك أسماك حية. سمكة قرش حية! ولكن رسخ في ذاكرتي للأبد شيء آخر... رسخت في ذهني سيارة "موسكفيتش" برائحة

البنزين في شوارع موسكو. و... كيف كنا نتبادل القبل... كمجنونين... كان يحضر لي قوس القزح من النافورة... أحببته... (تصمت). وكان هو يقيم لنفسه عيد الحياة. لنفسه... نعم لنفسه! عندما يلوح العام الأربعين من عمري ربما قد أفهمه... سأفهمه يوماً ما... إليك على سبيل المثال، لم يكن يحب الساعة عندما تسير، كان يحب الساعة فقط عندما تتوقف. كانت لديه علاقته بالزمن... هكذا! نعم... أعبد القطط. أحبها لأنها لا تبكي، ولم ير أحد دموعها. إذا ما صادفني قط في الشارع، سيظن أنني غنية وسعيدة! لدي كل شيء: منزل كبير، سيارة مرفهة غالية الثمن، أثاث منزلي إيطالي. وابنة أنا مسرورة جداً بها. عندي خادمة منزلية، أنا لا أقلي بنفسي البرغر، ولا أغسل الغسيل، يمكنني شراء كل ما أريده... جبال من الحلي والإكسسوار... لكنني أعيش وحدي. وأريد أن أعيش وحدي! ليس هناك من أشعر معه بأنني مرتاحة مثل نفسي، وأحب أن أتحادث مع نفسي... وبالدرجة الأولى عن نفسي... إنها صحبة رائعة! ماذا أفكر... بما أحس... كيف كنت أنظر إلى مسألة ما في الأمس وكيف أنظر إليها اليوم؟ كان يروقني اللون الأزرق، أما الآن فاللون الليلكي... في كل منا يجري الكثير داخل نفسه. مع نفسه. هناك في داخل النفس عالم كامل. لكننا لا نلتفت إليه تقريباً. الجميع مشغولون بالخارجي، السطحي (تضحك). الوحدة هي الحرية... أنا الآن كل يوم أفرح لأنني حرة: سيتصل، لن يتصل، سيأتي، لن يأتي؟ سيتركني، لن يتركني؟ سيُسرِّح! ليست مشكلاتي! لكن لا... لا أخاف من الوحدة، أخاف... من أخاف؟ أخاف طبيب الأسنان... (فجأة تنهار). الناس يكذبون دوماً، عندما يتحدثون عن الحب وعن النقود... يكذبون دوماً وبطرق مختلفة. لا أرغب في الكذب... لا أرغب! (تهدأ). اعذريني... اعذريني... لم أتذكر منذ فترة طويلة.

الموضوع؟ الموضوع الأبدي... كنت أريد أن أرزق منه بطفل،

وحَمَلت... ربما شعر هو بالخوف؟ الرجال جبناء! مشرد أو أوليغارشي. لا فرق بينهما. يقدمون على الحرب، يصنعون ثورة، ويخونون في الحب. المرأة أقوى: "إنها توقف الفرس الجامح، وتدخل إلى العزبة الملتهبة" وحسب قوانين الجنس الأدبي "أما الجياد فتقفز وتقفز. والعُزَب تحترق وتحترق" "لا يوجد رجال بعمر أكبر من أربعة عشر عاماً"، هذه النصيحة السديدة أعطتني إياها أمي لأول مرة. أذكر... حدث كالآتي... قَدّمت له هذا الخبر عشية رحلة عمل لي، أرسلوني إلى الدونباس. كنت أحب رحلات العمل، أحب رائحة محطات القطار والمطارات. كنت أشعر بالمتعة عند عودتي، عندما أروي له ونناقش سوية. أنا الآن أدرك، أنه لم يكن يكشف العالم لي، ويدهشني ويأخذني إلى محلات التقاط النفاس، ويمنحني فحسب، بل كذلك كان يعلمني التفكير. ليس أنه وضع لنفسه هذه المهمة، فهذا كان يحدث بصورة طبيعية. كنت أنظر إليه، وأصغي إليه. حتى عندما كنت أفكر أننا سنكون معاً، لم أكن أنوي السكن خلف كتف واسع لأحد ما، وألمع هناك مبتهجة. وأستمتع! كان لدي مخططي للحياة. كنت أحب عملي، وتوصلت لمنصب وظيفي بسرعة. كنت أسافر كثيراً... وفي تلك المرة... ركبت الطائرة باتجاه بلدة عمال المناجم - إنها قصة رهيبة، ولكن يمكنني القول، نمطية لذلك الزمن: كافأوا عمال المناجم المتقدمين بمناسبة العيد بمسجلات صوتية، وفي الليل ذبحوا أسرة بكاملها. لم يأخذوا أي شيء، أخذوا جهاز التسجيل وحده. مسجل باناسونيك البلاستيكي! العلبة! في موسكو السيارات الرائعة، الأسواق الضخمة، ووراء طريق سادوفايا الدائري. كان المسجل أعجوبة. إن "الرأسماليين" المحليين الذين كان يحلم بهم رئيس التحرير في صحيفتي، كانوا يسيرون في الشوارع محاطين بثلة من حملة الرشاشات. يذهبون إلى الحمام مع حارس. ولكن هناك كازينو، وهنا كازينو، وكازينو آخر. وهنا ثمة مطعم

خاص ما صغير. إنها حقبة التسعينيات ذاتها... هي... إنها هي. بقيت ثلاثة أيام في رحلتي. عدت إلى موسكو، والتقينا. في البداية شعر بالفرح، عندنا سيكون... قريباً سيكون عندنا طفل! عنده ابنان، أراد ابنة. ولكن كلمات... كلمات... لا تعني شيئاً، يختفون خلف الكلمات، يدافعون عن أنفسهم بالكلمات. العينان! عيناه... في عينيه ظهر خوف: يجب وضع حل، يجب تغيير حياته. وهنا... هنا، عقبة... فشل. آه، آه! هناك رجال يغادرون فوراً، يغادرون مع حقائبهم، حيث يضعون جواربهم وقمصانهم الرطبة التي لم تجف... وهناك رجال، مثله... يثرثرون: موسي - موسي، ترالي - فالي... كان يسألني: «ماذا تريدين؟ قولي، ماذا عليَّ أن أفعل؟ كلمة واحدة منك وأطلِّق زوجتي. قولي فقط». كنت أنظر إليه...

كنت أنظر إليه وقد شعرت ببرودة أطراف أصابعي، وبدأت أفهم أنني لن أكون معه سعيدة. أنا صغيرة وحمقاء... لو كان الآن لقتلته كذئب يصطاد، يمكنني أن أكون متوحشة ونمراً. وأن أكون خيطاً فولاذياً! آنذاك كنت أعاني فقط. إن المعاناة هي رقص وفيه حركة، وبكاء واستسلام. كما في الباليه... ولكن ثمة سر، سر بسيط: من المزعج... من المهين أن أكون غير سعيدة... ومرة أخرى دخلت المستشفى للمحافظة على الجنين. أتصل به صباحاً، بأنه يجب إخراجي من المستشفى، حيث سيخرِّجونني في الظهيرة، فأجابني بصوت ناعس: «لا يمكنني. اليوم لا يمكنني». ولم يتصل من جديد. في هذا اليوم طار مع ولديه إلى إيطاليا للتزلج على الجليد. الواحد والثلاثون من ديسمبر/ كانون أول... غداً عيد رأس السنة. استدعيت سيارة تكسي... كانت المدينة مغطاة بالثلوج، وسرت عبر الكثيب الثلجي، ممسكة ببطني. سرت وحيدة. لا غير صحيح! سرنا معاً نحن الاثنتان، فقد أصبحنا اثنتين. مع ابنتي... ابنتي الحبيبة... ابنتي! التي أعبدها! لقد بدأت أحبها أكثر من الجميع

في العالم! هل كنت أحبه؟ كما في تلك الحكاية: عاشا طويلاً وبسعادة وماتا في اليوم نفسه. كنت أعاني، لكنني لم أمُت: «لا يمكنني العيش من دونه. من دونه سأموت». أنا، على الأغلب لم ألتقِ بمثل هذا الرجل... لهذه الكلمات... نعم! نعم، نعم! لقد تعلمت الخسارة، أنا لا أخشى من الخسارة... (تنظر إلى النافذة). ليس لديَّ منذ تلك الأثناء قصص كبيرة... كان هناك رومانسيون... يسهل عليَّ الاندماج في الجنس، لكن هذا ليس الجنس، إنه شيء آخر. لا تروقني رائحة الرجال، ليس رائحة الحب، بل رائحة الرجال. أحس دوماً في غرفة الحمّام، أن هنا كان رجل... وليكن لديه أغلى العطور، وسجائر غالية الثمن... إنني أشعر بالرعب عندما أفكر كم عليَّ أن أعمل وأكدح، كي يكون إلى جانبي إنسان آخر. كما في مقلع الأحجار! أن أنسى ذاتي، أن أتخلى عن ذاتي، أن أتحرر من ذاتي. لا وجود للحرية في الحب. وحتى إذا ما عثرتِ على مثلك الأعلى، ستكون لديه عطور أخرى، وهو سوف يحب اللحم المشوي ويضحك على السَلَطات التي أعددتها، وأن يرمي بنطاله وجواربه بشكل فوضوي. وعليكِ دوماً أن تعاني. أن تعاني؟! بسبب الحب... بسبب هذا التركيب... لن أريد بعد الآن القيام بهذا العمل، الأسهل لي أن أعتمد على نفسي. مع الرجال الأفضل أن ترتبطي بعلاقة صداقة، وعلاقات عمل. حتى أنني لا أرغب إلا نادراً في الدلال، وأشعر بالكسل من ارتداء هذا القناع، والدخول في اللعبة. المنتجع، المانيكور الفرنسي، إطالة الرموش الإيطالية. المكياج. صبغ الشعر القتالي... يا إلهي! يا إلهي! فتيات من تموكاراكانسك... من جميع أنحاء روسيا، إلى موسكو! إلى موسكو! هناك ينتظرهن الأمراء الأغنياء! إنهم يحلمون بأن يحولوهن من الفتاة "زولوشكا" الفقيرة إلى أميرات. انتظار الحكاية! المعجزة! لقد مررت عبر هذا كله... أتفهم هؤلاء الفتيات، لكنني أشفق عليهن. لا وجود للجنة من دون الجحيم. أن

تكون هناك جنة وحدها، فردوس وحده... هذا لا يحدث... بيد أنهن لا يعرفن هذا بعد... في الظلام...

انقضت سبع سنوات على فراقنا... يتصل بي دوماً في الليل، لا أعرف لماذا. جميع أموره سيئة، فَقَد كثيراً من المال... يقول إنه غير سعيد... كانت عنده فتاة شابة، والآن شابة أخرى. يقترح عليّ: تعالي نلتقي... لماذا؟ (تصمت). بقيت أشعر بالحاجة إليه فترة طويلة، كنت أطفئ النور وأجلس ساعات في العتمة. فقدت إحساسي بالزمن... (تصمت). بعدها... بعدها كانت هناك قصص حب... لكنني... لن أستطيع أن أحب رجلاً من دون مال، من شقق النوم الفقيرة، من الأبنية المسبقة الصنع، من حي هارلم للزنوج. أنا أكره أولئك الذين نشأوا في الفقر، بعقلية "فقيرة"، المال بالنسبة إليهم يعني الكثير، بحيث لا يمكن الوثوق بهم. لا أحب الفقراء، المذلين والمهانين. جميع هؤلاء أمثال "باشماتشكين" و"أوبيسكين"... أبطال الأدب الروسي العظيم... لا أثق بهم! ماذا؟ ثمة شيء ما متناقض... لا ينسجم مع الصورة. انتظري... لا أحد يعرف كيف انتظم هذا العالم... يعجبني الرجل ليس لماله، ليس فقط لماله. تروقني صورة الرجل الناجح كلها: كيف يمشي، كيف يقود السيارة، كيف يتكلم، كيف يتغزّل، كل شيء عنده مغاير. كل شيء! أختار هؤلاء... لهذا... (تصمت). يتصل هاتفياً... إنه غير سعيد... وما الذي رآه ولا يستطيع شراءه؟ هو... وأصدقاؤه... جمعوا الكثير من الأموال. أموالاً كثيرة. مجنونة! ولكنهم بأموالهم كلها لا يستطيعون شراء السعادة لأنفسهم، ذلك الحب ذاته. الحب... الحب. هذا الحب تجدينه لدى الطالب الفقير، ولا تجدينه لديهم. هذه هي اللاعدالة! ولكن يبدو لهم أنهم قادرون على كل شيء: يطيرون بطائراتهم الشخصية إلى أي بلد لمتابعة مباراة رياضية، إلى نيويورك لحضور العرض الأول للحفلة الموسيقية. كل شيء في مقدورهم وفي جيوبهم! يأخذون إلى

السرير أجمل عارضة أزياء، ينقلونهن إلى كورشافيل، طائرة بكاملها! كنا ندرس جميعنا غوركي في المدرسة، ونعرف، ما هو مجون التجّار، تكسير المرايا، لحس الكافيار الأسود بوجوههم... تحميم الفتيات بالشمبانيا... لكنهم شعروا بالملل من كل هذا. أصبحت مملّة لهم. إن مكاتب السياحة في موسكو تعرض على هؤلاء الزبائن تسليات خاصة. مثلاً، يومان في السجن. هذا ما تنشره في إعلاناتها: «هل تريد أن تكون خودركوفسكي ليومين؟». تنقلهم سيارة الشرطة ذات النوافذ المسلحة بالقضبان الحديدية إلى أرهب سجن في مدينة فلاديمير - سجن فلاديمير المركزي، وهناك يلبسونهم ثياب المساجين، ويطاردونهم في الفناء بالكلاب البوليسية، ويضربونهم بالهراوات المطاطية. الهراوات الحقيقية! يدفعونهم كالسمك المالح إلى الزنزانات القذرة الكريهة الرائحة المملوءة بالبراز. وهم سعداء! أحاسيس جديدة! ومقابل ثلاثة أو خمسة آلاف دولار يمكنهم لعب دور "المشردين": يُلبسون الراغبين باللباس المطابق، ويدهنون وجوههم ويوزعونهم في شوارع موسكو. إنهم شحاّذون يشحذون. ولكن، في الحقيقة، ثمة حرس يناوبون خلف المنعطف - حرسهم الخاص ومن مكاتب السياحة. وهناك عروض أشد وأقسى، لكامل أسرهم: الزوجة - عاهرة، والزوج - قوّاد. أعرف قصة... ذات مرة زوجة أغنى تاجر حلويات في موسكو، وهي امرأة متواضعة ذات ملامح سوفييتية، نامت مع أكبر عدد من الزبائن. وكان زوجها سعيداً! هناك تسليات، لا تظهر في أخبار الإعلانات السياحية إطلاقاً... سرية للغاية... يمكن تنظيم عملية قنص لإنسان حي ليلاً. يعطون للمتشرد البائس ألف دولار، ها هي الدولارات "الخضراء" لك! وهو منذ ولادته لم يرَ مثل هذه النقود! وفي المقابل: اعمل من نفسك وحشاً للصيد! أنقذت نفسك فيعني إنه قدرك، يطلقون عليك النار ويقتلونك، لا تشتكُ. وكل شيء بصدق وشفافية! ويمكن استئجار

فتاة لليلة... من أسفل البطن أطلق العنان لخيالك وارتكب ما لم يحلم به المركيز دو ساد! دم، ودموع، ومَنيّ! وهذه تدعى سعادة... السعادة على الطريقة الروسية، أن تدخل السجن ليومين، كي تخرج منه بعدها وتفهم، كيف أن وضعك على ما يرام. شيء رائع! يمكنك أن تشتري ليس فقط سيارة ومنزلاً ويختاً، ومقعداً في البرلمان فحسب، بل وحياة إنسان... وأن تكون لفترة إلهاً صغيراً... سوبرمان! نعم... وكل شيء! إن جميع الذين ولدوا في الاتحاد السوفييتي، كلهم من هناك. بهذا التشخيص. وهكذا كان العالم السابق ساذجاً... كانوا يحلمون بصنع إنسان جيد... ووعدوا بـ"دفع الإنسانية بيد حديدية إلى السعادة"... إلى الجنة الأرضية.

أجريت حديثاً مع أمي... كانت تريد الاستقالة من عملها في المدرسة: «سأعمل خادمة خلع الملابس الخارجية. أو حارسة». ها هي تحدث الأطفال عن كتب سولجنيتسين... عن أبطاله وقدّيسيه... عيناها تلمعان، ولا تلمع عيون الأطفال. كانت قد اعتادت أمي أن تلمع عيون الأطفال، سابقاً، من كلماتها، لكن أطفال اليوم لا يستجيبون لها: «لسنا مهتمين بكيف عشتم أنتم، ونحن لا نريد العيش هكذا مثلكم. نحن لا نحلم بالمآثر، نريد أن نعيش حياة عادية، طبيعية». يدرسون في المدرسة قصة غوغول "أرواح ميتة". إنها قصة وغد حقير... هكذا كانوا يعلموننا في المدرسة... أما اليوم فيجلس في الصفوف أطفال آخرون: «ولماذا هو وغد حقير؟ إن تشيشكوف مثل مافرودي، شيدا أهراماً من لا شيء. إنها فكرة بيزنس رائعة!». وتشيشكوف، بالنسبة إليهم، هو بطل إيجابي... (تصمت). أمي لن تربي ابنتي... لن أسمح. إذا ما أصغيت إليها، فعلى ابنتي أن تشاهد أفلام الكرتون السوفييتية وحدها، لأنها "إنسانية". ولكن ستغلق فيلم الكرتون وتخرج إلى الشارع: إلى عالم مغاير تماماً. وقد اعترفت لي أمي: «كم أنني سعيدة لأنني عجوز هرمة، ويمكنني الجلوس في البيت. في

قلعتي!». أما في السابق فكانت تريد دوماً أن تبقى شابة: بقناع من عصير البندورة، نغسل الشعر بالبابونج...

في شبابي كنت أحب تغيير مصيري، ومشاكسته. الآن لا، يكفيني. ابنتي تكبُر، أفكر في مستقبلها. وهذه ثروة! أريد أن تجنيها هي نفسها. لا أريد أن أطلب المال من أحد. لا أريد! تركت العمل في الصحيفة للعمل في وكالة إعلانات- هناك يدفعون أكثر. يدفعون مالاً جيداً. الناس يريدون أن يعيشوا حياة جميلة- هذا هو الأمر الرئيس الذي يحدث لنا اليوم. وهذا الأمر يقلق الجميع. افتحي التلفزيون: يجتمع في الحشود والاجتماعات، وليكن عشرات الآلاف من الناس، أما أدوات المرافق الصحية الإيطالية فيشتريها الملايين. لو سألت أياً كان، الجميع يعيدون تنظيم شققهم ويجرون الإصلاحات في شققهم وبيوتهم. يقومون بالرحلات والسياحة. لم يحدث هذا في روسيا أبداً. نحن لا ننشر الإعلانات للبضائع وحدها، بل وللحاجات والمتطلبات. ننتج حاجات جديدة - كيف تعيش حياة جميلة! نتحكم بالوقت... الإعلان- هو مرآة الثورة الروسية... حياتي ممتلئة حتى الثمالة. لا أنوي الزواج... لدي أصدقاء جميعهم من الناس الأغنياء. فبعضهم "سمِن" على النفط، وآخرون سمِنوا على الأسمدة المعدنية... نلتقي كي نتحادث ونتحاور. في المطعم الراقي الغالي الثمن تجدين دوماً قاعات من المرمر، أثاثاً قديماً ثميناً، لوحات غالية الثمن على الجدران... البوابون بثياب الإقطاعيين الروس... أحب التواجد في الأماكن ذات الديكورات الجميلة. صديقي الأقرب يعيش أيضاً وحيداً ولا يريد الزواج، يروقه أن يبقى وحيداً في قصره المؤلف من ثلاثة طوابق: «في الليل ينام مع خليلته، ويعيش وحده». نهاراً رأسه يتضخم من أسعار المعادن غير الحديدية في بورصة لندن. النحاس، الرصاص، النيكل... بين يديه ثلاثة أجهزة هاتف جوال، يتصل كل ثلاثين ثانية. يعمل من ثلاث عشرة إلى

خمس عشرة ساعة في اليوم. من دون عطل أسبوعية وإجازات. السعادة؟ ما هي السعادة؟ العالم تغيّر... الآن الناس الوحيدون هم أناس ناجحون، سعيدون، وليسوا ضعفاء وفاشلين. لديهم كل شيء: المال، المنصب. الوحدة هي اختيار. أريد أن أبقى في الطريق. أنا صيادة، ولست طريدة مسالمة. أنا أختار بنفسي. إن الوحدة تشبه السعادة كثيراً... وهي تبدو كاكتشاف وإلهام... نعم؟ (تصمت). حتى أنني لم أكن أود أن أحدثك، بل كنت أود أن أحدث نفسي بكل هذا...

عن رغبتك في قتلهم جميعاً ثم خوفك من هذه الرغبة

كسينيا زولوتوفا – طالبة، 22 عاماً

في لقائنا الأول حضرتْ أمها. واعترفت: لم ترغب كسينيا في الحضور معي. وحاولت إقناعي: «ماما، وما حاجتهم إلينا؟ إنهم في حاجة إلى مشاعرنا، إلى كلماتنا، وليسوا في حاجة إلينا، لأنهم لم يعيشوا هذا». كانت تشعر بقلق كبير: كانت تنهض، تارة كي تخرج: «أنا أبذل جهدي كي لا أفكر في هذا. فتكراره يؤلمني»، وتبدأ بالحديث تارة أخرى، ولم يكن من الممكن إيقافها، لكنها كانت تلوذ بالصمت غالباً. فبم يمكنني تهدئتها؟ من ناحية، أرجوها: «لا تقلقي. اهدئي»، ومن ناحية أخرى- أريد أن تتذكر ذلك اليوم الرهيب: 6 شباط/ فبراير 2004- العملية الإرهابية في موسكو في خط المترو ما وراء نهر موسكو بين محطتي "أفتوزافودسكايا" و"بافليتسكايا". نتيجة التفجير قُتل 39 شخصاً وجُرح 122 شخصاً.

أدور وأدور حول الألم. لا أستطيع الفرار. في الألم يوجد كل شيء: الظلمة، والانتصار. أثق أحياناً بأن الألم هو جسر بين الناس، وصلة خفية، ومرة أخرى أفكر بيأس، بأنه هوة.

من ذلك اللقاء الذي استمر ساعتين بقيت بضعة نماذج:

أن تكون ضحية- هو شيء مشين إلى درجة كبيرة... إنه معيب. عموماً لا أريد التحدث مع أحد عن هذا، أريد أن أكون كالآخرين، وأجد نفسي وحيدة – لوحدي. يمكنني البكاء في كل مكان. أحياناً أسير في

المدينة وأبكي. قال لي رجل لا أعرفه: «ما بك تبكين؟ أنت بهذا الجمال وتبكين؟». أولاً، الجمال لم يساعدني أبداً في يوم من الأيام، وثانياً، أشعر بهذا الجمال وكأنه خيانة، فهو لا يطابق ما يوجد في داخلي...

عندنا ابنتان: كسينيا وداشا. عشنا حياة متواضعة، لكننا كنا نتردد كثيراً على المتاحف، والمسارح، وكنا نقرأ كثيراً. عندما كانت الابنتان صغيرتين، اخترع لهما الأب حكاية. أردنا أن ننقذهما من الحياة الخشنة. كنت أظن، أن الفن يُنقذ. لكنه لم يُنقذ...

في بنائِنا تعيش عجوز وحيدة، تتردد إلى الكنيسة. ذات مرة أوقفتني، وقررتُ أن أتعاطف معها، لكنها قالت لي بلهجة شريرة: «فكِّري، لماذا حدث هذا معكم؟ مع أطفالكم؟». لماذا... لماذا تقول هذه الكلمات لي؟ لكنها ندمت، أعتقد، أنها ندمت... لم أخدع أحداً، لم أخن أحداً. قمت بعمليتي إجهاض. إنهما إثمان... أنا أعرف... في الشارع كثيراً ما أقدم الصدقات، وإن كانت صغيرة، بقدر استطاعتي. أُطعم الطيور شتاءً...

في المرة التالية حضرتا معاً... الأم والابنة.

الأم:

- قد يكونون أبطالاً، بالنسبة إلى البعض؟ لديهم فكرة، يشعرون بأنفسهم سعداء بموتهم، يظنون أنهم سيدخلون الجنة. ولا يخافون من الموت. لا أعرف شيئاً عنهم: «تم وضع صورة للإرهابي المفترض»... هذا كل شيء. فنحن بالنسبة إليهم أهداف، لم يشرح لهم أحد أن ابنتي ليست هدفاً، ولها أم لا يمكنها العيش من دونها، وثمة فتى يحبها. فهل يمكن قتل إنسان محبوب؟ برأيي هي جريمة مزدوجة. اذهبوا إلى الحرب، إلى الجبال، وأطلقوا النار أحدكم على الآخر، لماذا تطلقون النار عليَّ؟

على ابنتي؟ يقتلوننا في الحياة اليومية السلمية... (تصمت). أنا الآن أخاف من نفسي، من أفكاري. أحياناً بوديّ أن أقتلهم جميعاً، لكنني فيما بعد، أخاف من رغبتي هذه.

في زمن مضى كنت أحب مترو موسكو. المترو الأجمل في العالم! إنه متحف! (تصمت). بعد التفجير... كنت أرى كيف يدخل الناس إلى المترو ممسكين بأيدي بعضهم بعضاً. لم يختفِ الخوف فترة طويلة... كان من المرعب الخروج إلى الشارع، إلى المدينة، كان ضغطي يرتفع على الفور. انتقلنا وتأملنا ملامح المسافرين المشتبه بهم. في العمل كنا نتحدث عن هذا فقط. ما الذي يحدث لنا، يا إلهي؟ أقف على رصيف المحطة، وعلى مقربة مني امرأة شابة مع عربة أطفال، شعرها أسود، عيناها سوداوان - ليست روسية، لا أعرف ماهي قوميتها - شيشانية، أوسيتينية؟ من؟ لم أحتمل، ونظرت إلى عربة الأطفال: هل يوجد فيها طفل؟ أم يرقد فيها شيء آخر؟ لقد تعطل مزاجي لأننا سنستقل الآن عربة واحدة. فكرت في نفسي: «لا، فلتركب، أنا سأنتظر القطار التالي». يقترب مني رجل: «لماذا ألقيت نظرة على داخل عربة الطفل؟». قلت له الحقيقة: «هذا يعني أنكَ أنت أيضاً ألقيت نظرة».

أرى الفتاة البائسة المتكورة على نفسها. إنها ابنتي كسينيا. لماذا هي هنا وحدها؟ من دوننا؟ لا، هذا مستحيل، لا يمكن أن يكون حقيقة. الدم على المخدة. «كسينيا! كسينيا!». إنها لا تسمعني. وضعت على رأسي قبعة ما، كي لا أرى شيئاً، ولا أخاف من شيء. يا ابنتي! كانت تحلم بأن تصبح طبيبة أطفال، والآن فقدت حاسة سمعها، كانت أجمل الطالبات في صفها... أما الآن... وجهها... ما ذنبها؟ شيء ما لزج رطب يحيط بي ويغلفني، شعوري يتحطم إلى قطع صغيرة. قدماي لا تتحركان، كأنهما من قطن، أخرجوني من القاعة، الطبيب يصيح بي: «تماسكي، وإلا لن ندخلك إليها». أتماسك

نفسي... أعود إلى القاعة... لا تنظر إليّ، بل إلى مكان آخر، وكأنها لم تتعرف عليّ. هناك تعبير: لا يمكن احتمال نظرة الحيوان المتألم. أصبح تقريباً من المستحيل العيش لاحقاً. أما الآن فقد أخذتْ تخفي هذه النظرة، وارتدتْ درعاً، لكنها تخفي في داخلها هذا كله. هذا كله انطبع في ذاتها، في داخلها. طيلة الوقت هي هناك، حيث لم نكن...

قسم كامل من المستشفى يغص بهؤلاء الفتيات... كما استقلوا عربة المترو، هكذا راقدات... كثير من الطالبات والتلميذات. كنت أعتقد أن جميع الأمهات سيخرجن إلى الشارع. جميع الأمهات مع أطفالهن. وسنكون بالآلاف. الآن، أعرف أنني وحدي في حاجة إلى ابنتي، بيتي وحده، نحن وحدنا. يصغون... يتعاطفون... ولكن دون ألم! من دون ألم!

عدت من المستشفى إلى البيت واستلقيت دون أي إحساس. كانت ابنتي داشا على مقربة مني. أخذتُ إجازة. كانت تمسح على رأسي، كبنت صغيرة. الأب لم يكن يصرخ، ولم يصب بالرعب، وأصابته نوبة قلبية. ووجدنا أنفسنا في الجحيم... ثانية، ما ذنبنا؟ طيلة حياتي كنت أقدم لبناتي كتباً جيدة، وأقنعهن بأن الخير أقوى من الشر، وبأن الخير ينتصر دوماً. لكن الحياة ليست هي الكتب. دعاء الأم سيصل إلى الأبناء ولو في قاع البحر؟ هذا غير صحيح! أنا خائنة، ناكثة، لم أستطع أن أحميهما في طفولتهما، وكانتا تعتمدان عليّ. لو كان حبي يحميهما لما تعرضتا لأية كارثة، ولأية خيبة.

العملية الجراحية الأولى... الثانية... الثالثة! أصبحت كسينيا تسمع بأذن واحدة... بدأت أصابعها تعمل... تتحرك... عشنا على الحافة بين الحياة والموت، بين الإيمان بالمعجزة وبين اللاعدالة، وعلى الرغم من أنني ممرضة، فقد أدركت أنني لا أعرف إلا أقل من القليل عن الموت. رأيت الموت عدة مرات، كان يمر من قربي. أضع القطارة، أصغي إلى

نبضات القلب... يعتقد الجميع أن الأطباء يعرفون عن الموت أكثر من الآخرين، لا شيء من هذا. كان عندنا طبيب متخصص بعلم الأمراض، وقد أحيل إلى التقاعد. سألني: «ما هو الموت؟». (تصمت). الحياة السابقة تحولت إلى رقعة بيضاء... تذكرت لوحدي كسينيا... بكامل حركاتها - كانت صغيرة، جريئة، مرحة، لم تكن تخاف الكلاب الكبيرة وكانت تريد أن يبقى الصيف دائماً. كيف كانت تلمع عيناها عندما وصلتْ إلى البيت وأعلمتنا أنها انتسبت إلى معهد الطب. من دون رشاوى، من دون دورات تدريبية. لم يكن في استطاعتنا أن ندفع، فقد كان هذا فوق طاقة أسرتنا. قبل يوم أو يومين من العملية الإرهابية أمسكتُ بصحيفة قديمة وقرأت: إذا ما وجدت نفسك في موقف طارئ ما في المترو، عليك أن تفعل كذا... وكذا... لم أعد أذكر بالضبط، لكنها كانت تعليمات توجيهية. وعندما حدث هذا، وقبل أن تفقد وعيها، تذكرت كسينيا هذه المقالة. في ذلك الصباح كان كالآتي... كانت قد أحضرت من ورشة التصليح جزمتها، وارتدت فستانها وبدأت بارتداء جزمتها، لكنها لم تدخل في رجلها. «ماما، سألبس جزمتك». «خذيها». كان قياس قدمينا متماثلاً. لم يوحِ لي قلب الأم بأي شيء... كان في إمكاني تأخيرها... في أحلامي قبل هذا كنت قد رأيت نجوماً كبيرة، كوكبة من النجوم. لم يظهر عندي أي قلق... هذا ذنبي، إنني محطمة من ذنبي هذا...

لو سمحوا لأمضيت الليل في المستشفى، وكنت أماً للجميع. أحد ما ينوح على الدرج... يجب معانقة أحد ما، يجب الجلوس مع أحدهم. فتاة من مدينة بيرم كانت تبكي - أمي بعيدة. فتاة أخرى تهشمت رجلها... الرِجلان أغلى من كل شيء! رجلُ طفلك أغلى من كل شيء! من يؤنبني على هذا؟

في الأيام الأولى كتبوا كثيراً في الصحف عن العملية الإرهابية،

وعرضوا تقارير صحفية على شاشة التلفزيون. عندما رأت كسينا صورتها المطبوعة في الصحيفة رمت هذه الصحيفة...

الابنة:

هناك كثير لا أذكره... لا أحتفظ به في ذاكرتي! لا أريد! (الأم تعانق ابنتها وتهدئها).

تحت الأرض كل شيء أشد رهبة. والآن أحمل دوماً مصباحاً يدوياً في حقيبتي... لم يكن يسمع بكاء ولا صراخ. كان الصمت مخيماً. الجميع كانوا راقدين في كومة واحدة... لا، لم يكن رهيباً... ثم أخذوا يتحركون. وفي لحظة من اللحظات أدركت أن عليَّ الخروج من هنا، حيث كل شيء كيميائي، وبدأ يحترق. كنت أبحث عن حقيبتي الظهرية، حيث كانت أوراقي الجامعية، ومحفظتي... صدمة... كانت هناك صدمة... لم أكن أشعر بالألم...

كان يصيح صوت نسائي: «سيريوجا! سيريوجا!». لم يجب سريوجا... بضعة أشخاص بقوا جالسين في أوضاع غير طبيعية. رجل كان معلقاً على الرف، كدودة. كنت أخاف النظر في تلك الجهة...

كنت أمشي، وشيء ما يهزّني... من كل مكان كان يسمع نداء: «ساعدوني! ساعدوني!». شخص أمامي كان يتحرك وكأنه نائم، يتحرك إلى الأمام ببطء تارة، وإلى الوراء تارة أخرى. وقد سَبَقَنا الجميع.

ركضتْ لعندي من الأعلى فتاتان، وقد وضعتا قطعة قماش على جبينيهما. كنت أشعر لسبب ما ببرد شديد. أعطوني كرسياً صغيراً، فجلست. كنت أرى كيف كانتا تطلبان من الركاب الأحزمة وربطات العنق، وشدتا جراحهم. صرخت مناوبة المحطة لأحد ما بالهاتف: «ماذا تريد؟ الناس تخرج من النفق ويموتون على الفور، يصعدون إلى

رصيف المحطة وينازعون»... (تصمت). لماذا تعذبوننا؟ أشفقُ على الأم (تصمت). الجميع اعتادوا على هذا. يفتحون التلفزيون، يصغون، ويذهبون لشرب القهوة...

الأم:

أنا نشأت في عمق الزمن السوفييتي. في أعماقه. أنا من الاتحاد السوفييتي. ولم أفهم بعد روسيا الجديدة. لا يمكنني القول ما هو الأسوأ، ما هو: الآن أم تاريخ الحزب الشيوعي السوفييتي؟ محفور في رأسي النمط السوفييتي، ذلك القالب، فقد أمضيت نصف حياتي في ظل الاشتراكية. وقد انطبع هذا في داخلي. ولا يمكن انتزاعه. ولا أعرف: هل أريد انتزاعه أم لا؟ كانت الحياة سيئة في ذلك الزمن، والآن، الحياة رهيبة. في الصباح نفترق: نحن إلى العمل، والبنات إلى الدراسة، وطيلة اليوم يتصل أحدنا بالآخر: «ماذا لديك؟ متى ستذهبين إلى البيت؟ بأي وسيلة مواصلات؟». نجتمع جميعنا في البيت مساء، فقط آنذاك، أهدأ، أو على الأقل، ألتقط أنفاسي. أخاف من كل شيء. أرتجف. الفتاتان تؤنبانني: «ماما، أنت تبالغين في كل شيء...» أنا طبيعية، لكنني في حاجة إلى هذه الحماية، هذا الغطاء بيتي. فقدت أبي باكراً، وربما لهذا، أنا جريحة على هذا النحو، لا سيما أن أبي كان يحبني كثيراً (تصمت). أبي كان في الحرب، احترق مرتين في الدبابة... تمكن من اجتياز الحرب، نجا منها. جاء إلى البيت، قتلوه. في مدخل البناء.

كنت أدرس الكتب السوفييتية، لم يعلمونا شيئاً آخر. أقول لكِ من باب المقارنة... في هذه الكتب كانوا يكتبون عن الإرهابيين الروس الأوائل أنهم أبطال. معذَّبون. صوفيا بيروفسكايا، كيبالشيش... استشهدا من أجل الشعب، من أجل قضية نبيلة. رميا قنبلة على القيصر. وهؤلاء الشباب كانوا

غالباً من النبلاء، من أسر جيدة... لماذا نحن نندهش من وجود مثل هؤلاء الأشخاص اليوم؟ (تصمت). في دروس التاريخ، عندما كنا ندرس الحرب الوطنية العظمى، كان معلم التاريخ يحدثنا عن مأثرة النصيرة الفدائية البيلاروسية يلينا مازانيك، التي قتلت حاكم بيلاروسيا النازي كوبي، حيث ألصقت قنبلة بالسرير الذي كان ينام عليه مع زوجته الحامل، وخلف الجدار كان يرقد أولادهما الصغار... وقد كافأها ستالين شخصياً بنجمة البطل. وبقيتْ حتى أواخر أيامها تتردد على المدارس وتتذكر في دروس الرجولة مأثرتها. لم يحدثنا أحد ولا المعلم، أن أطفاله كانوا يرقدون خلف الجدار... مازانيك كانت مربية هؤلاء الأطفال... (تصمت). بعد الحرب، كان من المعيب للناس أصحاب الضمير أن يتذكُروا ما ارتكبوه في الحرب. كان أبي يعاني...

في محطة مترو "أفتوزافودسكايا" فجر صبي نفسه، صبي شيشاني. من والديه عرفنا أنه كان يقرأ كثيراً. وكان يحب الكاتب الروسي تولستوي. لقد نشأ في الحرب: القنابل المتفجرة، والقصف... كان يرى كيف يُقتل أبناء عمومه، وعندما بلغ الرابعة عشر من عمره هرب إلى الجبال، إلى القائد الشيشاني خطّاب. أراد أن ينتقم. غالباً، كان صبياً نقياً، بقلب دافئ... كانوا يضحكون عليه: ها-ها... صبي غبي... وتعلّم إطلاق النار ورمي القنابل اليدوية أفضل من الجميع. عثرتْ عليه أمه واقتادته إلى بيتها في القرية، كانت تريد أن يتخرج من المدرسة ويصبح معلم تركيب القرميد. ولكن، بعد عام اختفى من جديد في الجبال. علّموه عمليات التفجير، وجاء إلى موسكو... (تصمت). لو كان يقتل من أجل المال، لكان مفهوماً أنه يقتل من أجل المال. هذا الصبي كان في استطاعته أن يرمي نفسه تحت الدبابة ويفجر وحدة عسكرية...

من أنا؟ نحن من الحشد... ودوماً في الحشد... حياتنا غير شخصية،

غير ملحوظة، على الرغم من أننا نسعى كي نعيش. نحب، نعاني. ولكن لا أحد يهتم بنا، لا تُكتب الكتب عنا. الحشد... لم يكن يسألني أحد من الجمهور عن حياتي، ولهذا تحدثت معك على هذا الشكل. كانت تقول لي ابنتاي: «ماما، خبئي روحك». إنهما تعلِّمانني دوماً. الشباب الآن يعيشون في عالم أقسى من العالم السوفييتي... (تصمت). لدي إحساس، وكأن الحياة لم تعد لنا، ليست لأمثالنا، إنها في مكان آخر، في مكان ما... شيء ما يحدث، ولكن ليس معنا... أنا لا أتردد على المخازن التجارية الغالية، أخجل: هناك يقف حرّاس، ينظرون إليّ باحتقار لأنني أرتدي من ثياب السوق، ثياب صينية رخيصة. أركب الميترو، أخاف منه حتى الموت، لكنني أستخدمه. الأغنياء لا يركبون الميترو. الميترو للفقراء، وليس للجميع، لقد ظهر عندنا من جديد أمراء ونبلاء وشعب مسحوق. لقد نسيت متى جلست في المقهى أو المطعم، إنه أكبر من "مقاس" جيبي. الدخول إلى المسرح أصبح رفاهية، أما في السابق فلم أكن أتخلف عن حضور جميع العروض المسرحية الأولى... أنا مستاءة... مستاءة جداً... يا لها من قماءة ألا يُسمح لنا بالدخول إلى هذا العالم الجديد! زوجي يُحضِر من المكتبة حقائب من الكتب، هذا هو الشيء الوحيد المسموح لنا، كما في السابق. يمكن أيضاً التنزه في موسكو القديمة، في أمكنتنا المفضلة: ياكيمانكا، المدينة الصينية، فارفاركا. هذا درعنا، الآن كل يرتدي درعه. (تصمت). كان يعلموننا... كتب ماركس: «رأس المال هو سرقة ونهب». أنا أوافقه.

كنت أعرف الحب... وأحس دوماً: هل كان يحبني هذا الإنسان أم لا؟ لدي رابطة حدس مع من كان يحبني. من دون كلمات. لقد تذكرت الآن زوجي الأول... هل كنت أحبه؟ نعم. بقوة؟ بجنون. كنت في العشرين من عمري. في رأسي أحلام وحدها. كنا نعيش مع أمه العجوز الجميلة،

وكانت تغار مني: «أنتِ جميلة، كما كنت في شبابي». الأزهار التي كان يهديني إياها، كانت تأخذها إلى غرفتها. فيما بعد صرت أفهمها، وربما الآن فقط صرت أفهمها، حيث أعرف كم أحب ابنتيّ، وأية صلة وثيقة تقوم بين الأم والطفل. يريد معالج نفسي أن يقنعني: «عندك حب متضخم للأطفال. هذا لا يجوز». إنه حب طبيعي عندي... الحب حياتي... إنها حياتي أنا... لا أحد يعرف وصفة... (تصمت). زوجي كان يحبني، ولكن كانت عنده فلسفة: من المستحيل أن يعيش الرجل مع امرأة واحدة، عليه أن يعرف الأخريات. كنت أفكر كثيراً... كنت أبكي... تمكنت وأطلقت سراحه. بقيت مع كسينيا وحدها. زوجي الثاني... كان بالنسبة إليَّ كأخ، وكنت دوماً أحلم بأخ أكبر. كنت حائرة. لم أكن أعرف كيف سأعيش معه عندما عرض عليّ الزواج. كي ألد الأطفال، يجب أن تفوح في البيت رائحة الحب. نقلني وابنتي كسينيا إلى شقته: «تعالي نجرب. إذا لم يعجبكما، سأعيدكما إلى شقتكما». وانتظمت علاقتنا به. الحب أنواع مختلفة: هناك حب مجنون، وهناك حب أشبه بالصداقة. التحام صداقة. يروقني أن أفكر هكذا، لأن زوجي إنسان طيب جداً. وإن لم أكن أعيش في الحرير...

وَلَدتُ ابنتي داشنكا... لم نكن نفترق أبداً مع ابنتينا، كنا نغادر معاً في الصيف إلى الجَدة في إقليم كالوجسكايا. كان هناك نهر صغير ومرج وغابة. كانت الجدة تخبز لنا فطائر بالكرز، لا تزال الابنتان تذكرانها حتى الآن. لم نذهب أبداً إلى البحر، وهو الذي كنا نحلم به. فمن المعروف، أنك لن تجمع كثيراً من المال بعرق جبينك: أنا ممرضة، وزوجي باحث علمي في معهد التقنية الإشعاعية. لكنَّ ابنتينا كانتا تعرفان أننا نحبهما.

كثيرون يقدِّسون البيريسترويكا... الجميع كانوا يأملون بشيء ما. ليس هناك ما أحب غورباتشوف من أجله. أذكر أحاديث عندنا في مكتب الأطباء: «ستنتهي الاشتراكية، وماذا سيكون بعدها؟». «ستنتهي الاشتراكية

السيئة، وتأتي الاشتراكية الجيدة». كنا ننتظر... نقرأ الصحف... سرعان ما فقد زوجي عمله، وأُغلق المعهد. العاطلون عن العمل - أعداد كبيرة، وجميعهم بمؤهلات عليا. ظهرت الأكشاك، ثم مخازن السوبرماركت التي كان فيها كل شيء، كما في الحكاية، وليس لدي المال لشراء أي شيء. أدخل، وأخرج. كنت أشتري تفاحتين وبرتقالة واحدة عندما كانت البنتان تمرضان. وكيف يمكن القبول بهذا؟ والموافقة على أن هكذا سيكون الآن - كيف؟ أقف في الطابور أمام الصندوق، أمامي رجل معه عربة، فيها موز وأناناس... قلبي ينبض من الكبرياء. ولهذا الناس اليوم كلهم متعبون. لا قدّر الله أن يولد المرء في الاتحاد السوفييتي ويعيش في روسيا. (تصمت). لم يتحقق أي حلم من أحلامي في الحياة...

عندما خرجت الابنة إلى غرفة أخرى، قالت لي همساً:

كم سنة مضت؟ ثلاث سنوات مرت بعد العملية الإرهابية... لا، أكثر... إليك سرّي... لا يمكنني أن أتصور، أن أرقد مع رجل في الفراش، وتمسني يد رجل. ليست بيننا أنا وزوجي أية علاقات جنسية طيلة هذه السنوات، أنا زوجة ولست زوجة، وهو يحاول إقناعي: «ستشعرين نفسك على نحو أفضل». صديقتي التي تعرف كل شيء، هي أيضاً لا تفهمني: «أنت مثيرة، أنت "سكسية". انظري إلى نفسك في المرآة، كم أنت جميلة! يا لجمال شعرك!». شعري هذا منذ ولادتي، لقد نسيت كل شيء عن جمالي. عندما يغرق الإنسان، يتشبع كله بالماء، وأنا متشبعة بالألم. وكأنني نبذت جسدي، وبقيت روحي وحدها...

الابنة:

كانوا يرقدون قتلى، كانت الهواتف الجوالة ترنُّ بلا نهاية في جيوبهم... لم يجرؤ أحد على الاقتراب والرد.

جلستْ فتاة مغطاة بالدم على الأرض، اقترب أحد الشباب وعرض عليها قطعة شوكولا...

لم تحترق سترتي، لكنها كلها ذابت وساخت. نظرتْ إليَّ الطبيبة وقالت على الفور: «استلقِ على النقالة». حاولت المقاومة: «أنا نفسي سأنهض وأصل إلى سيارة الإسعاف»، فصاحت بي: «استلقِ!». في سيارة الإسعاف فقدت وعيي، عاد وعيي إليَّ في غرفة الانعاش.

لماذا أسكت؟ كنت على علاقة صداقة مع شاب، حتى أننا... وأهداني خاتماً... ورويت له ما حدث معي... قد لا يكون مرتبطاً بما حدث، لكننا افترقنا. انعكس هذا على وضعي، وأدركت أنه لا حاجة لأية صراحة أو بوح. أصابكِ التفجير، نجوتِ، لكنك أصبحتِ جريحة وهشة أكثر. تحملين وصمة الفتاة التي عانت، ولا أريد أن تكون هذه الوصمة ظاهرة...

أمنا تحب المسارح، أحياناً تتمكن من الحصول على تذاكر رخيصة الثمن: «كسينيا، نحن سنذهب إلى المسرح». أنا أرفض، تذهب مع أبي. لم يعد المسرح يؤثر فيَّ...

الأم:

الإنسان لا يعرف، لماذا حدث هذا بالذات معه، لذلك أود أن أكون مثل الجميع. أن أختفي بينهم. لا يُستبعد هذا كله على الفور...

هذا الصبي "الاستشهادي/ الانتحاري"... وآخرون... لقد نزلوا من الجبال وجاؤوا إلينا: «إنكم لا ترون كيف تقتلوننا. فلنجرب أن نفعل هذا عندكم». (تصمت).

أنا أعتقد... أريد أن أتذكر، متى كنت سعيدة؟ عليَّ أن أتذكر... كنت سعيدة مرة واحدة في حياتي، عندما كانت ابنتاي صغيرتين...

رنّ جرس الباب - أصدقاء كسينيا... أجلستُهم في المطبخ. أخذت هذه العادة من أمي: بادئ ذي بدء، إطعام الضيوف. في فترة من الزمن توقف الشباب عن الحديث في السياسة، والآن يتحدثون بها من جديد. أخذوا يتحدثون عن بوتين... «بوتين هو نسخة من ستالين»... «سيبقى لفترة طويلة»... «إنه مؤخرة روسيا كلها»... «إنه الغاز، إنه النفط»... سؤال: «من جعل ستالين ستالينياً؟ إنها مسألة الذنب...».

هل يجب محاكمة أولئك الذين كانوا يَقتلون، ويُعذبون وحدهم فقط، أو:

من كتب الوشاية والتقرير...

ومن انتزع الطفل من أهله "أعداء الشعب" وسلمه لملجأ الأطفال...

والسائقين الذين نقلوا المعتقلين...

وعاملة التنظيف التي شطفت الأرض بعد التعذيب...

ومدير السكة الحديدية الذي وجَّه قطار الشحن مع المعتقلين السياسيين إلى الشمال...

والخياط الذي خاط المعاطف الصوفية الدافئة التي كان يرتديها حرّاس المعتقلات. أطباء الأسنان الذين عالجوا أسنانهم، والأطباء الذين عملوا لهم تخطيط القلب، كي يؤدوا خدمتهم بشكل أفضل...

وأولئك الذين لاذوا بالصمت، عندما كان الآخرون يصرخون: «الموت للكلاب.. للكلاب!».

من موضوع ستالين انتقلنا إلى موضوع الشيشان... والشي نفسه يتكرر: مَن يقتل، ويفجر، نعم إنه مذنب، وذلك الذي صنع القنابل والقذائف في المصانع الحربية، ومن يخيط البذل العسكرية، ويعلِّم الجنود إطلاق النار... ومن يمنحهم الجوائز... أليسوا مذنبين؟ (تصمت). أريد أن

أغطي بجسمي كسينيا، وأن أبعدها إلى مكان ما عن هذه الأحاديث. كانت تجلس بعينين كبيرتين من الرعب. وكانت تنظر إليَّ... (تلتفت إلى ابنتها). كسينيا: لستِ مذنبة، وأبوك ليس مذنباً، إنه الآن يدرِّس الرياضيات. وأنا ممرضة. كانوا ينقلون إلينا في المستشفى ضباطنا الجرحى من الشيشان. كنا نعالجهم، ثم كانوا يعودون بالطبع، من حيث أتوا إلى الحرب. ومن بينهم قليل من كان يريد العودة، كثيرون منهم اعترفوا صراحة: «لا نريد أن نحارب». أنا ممرضة. أُنقذ الجميع وأعتني بهم...

ثمة حبوب من أجل وجع الأسنان، ووجع الرأس، وليس هناك حبوب من أجل وجع رأسي. رسم لي المعالج النفسي خطة للعلاج: صباحاً، على الريق نصف كأس من عشبة سان جون، عشرون نقطة من صبغة الزعرور، ثلاثون نقطة من صبغة زهرة الفاوانيا... أعطاني وصفة لليوم بكامله. شربت هذا كله. وذهبت إلى طبيب صيني... لم يساعدني أي شيء... (تصمت). أصرف انتباهي بالأمور والأشغال اليومية، لهذا لم أفقد عقلي. الروتين اليومي يعالجني: الغسيل، الكوي، الخياطة والتقطيب...

في فناء بنائنا هناك شجرة زيزفون قديمة... أمشي - هذا حدث بعد عامين تقريباً - وأحس: الزيزفون يزهر. الرائحة... أما قبل هذا فلم تكن رائحتها قوية... ليس كما الآن... الألوان انمحت، الأصوات خفتت... (تصمت).

تصادقت في المستشفى مع امرأة، كانت تستقل العربة الثالثة من المترو وليس الثانية مثل كسينيا. كانت تأتي إلى العمل، وكان يبدو أنها اجتازت كل شيء. وحدث شيء ما، أرادت أن ترمي بنفسها من الشرفة، أن تقفز من النافذة. سلّح والداها البيت بقضبان حديدية، كانت تعيش كما في القفص. سمّمت نفسها بالغاز... هجرها زوجها... ولا أعرف، أين هي الآن؟ أحدهم رآها مرة واحدة قرب محطة مترو "أفتوزافودسكايا". كانت

تسير على رصيف المحطة وتصرخ: «نأخذ باليد اليمنى ثلاث قبضات من التراب ونرميها على القبر. نأخذ... نرميها». كانت تصرخ إلى أن جاءت الممرضات إليها...

أظن أن كسينيا حدثتني... خلفها كان يقف رجل ملتصق بها، لدرجة أنها أرادت أن تؤنبه. لم يسعفها الوقت. ثم حدث أنه غطّاها بجسمه، وأصابه كثير من شظايا كسينيا. وغير معروف، هل بقي حياً؟ أتذكره كثيراً... إنه ببساطة يقف أمام عينيّ... لكن كسينيا لا تذكر... فمن أين جاءني هذا؟ غالباً، أنا اختلقته بنفسي. ولكن هناك من أنقذ ابنتي...

أنا أعرف دواءً... يجب أن تكون كسينيا سعيدة. لا يمكن معالجتها إلا بالسعادة. هي في حاجة إلى شيء من هذا... حضرنا حفلة موسيقية للمطربة آلا بوغاتشوفا التي تحبها أسرتنا كلها. أردت الاقتراب منها أو إرسال مذكرة لها: «غَنِّ لابنتي. قولي إن هذه الأغنية لها وحدها». كي تشعر بنفسها أنها ملكة... وللارتقاء بنفسها إلى الأعلى... لقد رأت الجحيم ويجب أن ترى النعيم. كي يعيد العالم لها توازنها. أوهامي... أحلامي... (تصمت). أنا لم أستطع عمل شيء لها بحبي. لِمن عليَّ أن أكتب رسالة؟ مَن عليّ أن أرجو؟ لقد أثريتم من نفط الشيشان، من القروض الروسية، اسمحوا لي بأن أسافر معها إلى مكان ما. لتجلس تحت شجرة النخيل، وتنظر إلى الضفدع، كي تنسى الجحيم. إن الجحيم مرتسم دوماً أمام عينيها. إنهما بلا ضوء، لا أرى فيهما ضوءاً.

أخذت أتردد على الكنيسة... هل أؤمن؟ لا أعرف. ولكن بودي أن أتحدث مع أحد ما. ذات مرة قرأ الكاهن دعاءً مفاده أن الإنسان في المعاناة الكبيرة إما أن يقترب من الله أو يبتعد، وإذا ما كان يبتعد عن الله، فلا يصح توبيخه، فهذا من الاستياء، من الألم. كل هذا عني أنا.

عندما أنظر إلى الناس من الجانب، لا أشعر معهم بأية صلة قرابة... أنا

أنظر وكأنني لم أعد إنساناً... أنتِ كاتبة، افهميني أنتِ: الكلمة لا تشبه إلا قليلاً ما يحدث في داخلنا، في السابق نادراً ما كنت أتواصل بما يوجد في ذاتي، في داخلي. أما الآن فكأنني أعيش في منجم... أعاني، أفكر... أقلّب طيلة الوقت شيئاً في ذاتي... «ماما، أخفِ روحك!». لا يا ابنتيّ العزيزتين، لا أريد أن تختفي مشاعري ودموعي هكذا، دون أثر، دون إشارة. إن هذا أكثر ما يقلقني. كل ما عشته وعانيته، ليس ما أريد أن أتركه لابنتيّ وحدهما. أريد أن أنقل هذا لإنسان آخر، كي يكمن في مكان ما، ويمكن لكل إنسان أن يغترف منه.

الثالث من أيلول/ سبتمبر - ذكرى ضحايا العمل الإرهابي. موسكو في الحِداد. في الشارع كثير من المقعدين، والنساء الشابات يحملن أكياساً سوداء. تتوقد شموع الذكرى. في مناطق سوليانكا، في الساحة أمام المركز المسرحي في دوبرافكا، بالقرب من مترو "بارك كولتوري"، في "لوبيانكا"، "أفتوزافودسكايا"، "ريجسكايا"...

أنا كذلك مع هذا الحشد. أسأل وأصغي. كيف نعيش مع هذا الإرهاب؟

حدثت عمليات إرهابية في العاصمة في أعوام 2000، 2003،2002، 2004، 2006، 2010، 2011:

- كنت ذاهبة إلى عملي، كانت عربة المترو مكتظة بالمسافرين كالعادة. لم أسمع أي انفجار، ولكن لسبب ما أصبح كل شيء فجأة بلون برتقالي، وتخدر جسمي، أردت تحريك يدي فلم أستطع. ظننت أنه حدثت لي سكتة دماغية، وهنا فقدت وعيي... وعندما صحوت، أرى وكأنه يسير في أنحائي أشخاص ما، يسيرون بهدوء، وكأنني ميتة. شعرت بالخوف، شعرت أنهم سيدوسونني، ورفعت يديَّ. هناك أحد ما رفعني. دم ولحم. تلك كانت اللوحة...

- ابني عمره أربع سنوات. فكيف أقول له إن أباه استشهد؟ فهو لا يدرك، ما هو الموت؟ أخشى أن يظن أن بابا هجرنا. لا يزال الأب حتى الآن في رحلة عمل...

- كثيراً ما أتذكر... بالقرب من المستشفى كان هناك طابور كامل من الراغبين في التبرع بالدم، مع أكياس من البرتقال. كانوا يرجون الممرضات المُرهقات: «خذي الفواكه مني واعطها لأي كان. قولي، ماذا أجلب لهم غيرها؟».

- كانت زميلاتي في العمل يأتين إليَّ، لم يعطهن رئيس القسم سيارة. لكنني لم أرغب في رؤية أحد...

- الحرب ضرورية، فهي تكشف الناس. كان جدي يقول إنه لم يكن يلتقي الناس إلا في الحرب. الآن التعاطف قليل ونادر.

- امرأتان لا أعرفهما كانتا تتعانقان وتبكيان بالقرب من مصعد الميترو، وجهاهما مغطيان بالدم، لم يخطر في ذهني أن هذا دم، كنت أظن أن الحمرة سالت بسبب الدموع. في المساء رأيت هذا كله مرة ثانية على شاشة التلفزيون، وعندها أدركت كل شيء. هناك، في مكان الحدث، لم أكن أدرك، كنت أنظر إلى الدم ولم أكن أصدق.

- تظن في البداية أنك قادر على النزول إلى الميترو، وتدخل إلى العربة بجرأة، ولكن تقطع محطة أو محطتين وتخرج والعرق البارد يتصبب منك. وتشعر بالرعب خاصة عندما يتوقف القطار لبضع دقائق في النفق. وكل دقيقة تمضي، يبدأ قلبك بالخفقان على خيط واحد...

- يتراءى لك إرهابي في كل قوقازي...

- ما رأيكِ: أولم يرتكب الجنود الروس في الشيشان جرائم؟ أخي كان يخدم هناك... كان يحدثني كثيراً عن الجيش الروسي المجيد... كانوا

يمسكون بالرجال الشيشان في الحفر، كالوحوش، ويطالبون أقرباءهم بالفدية. كانوا يعذبون... وينهبون ويعفِّشون... والآن أصبح الشاب مدمناً.

- هل باع نفسه لوزارة الخارجية؟ استفزازي! مَن حوَّل الشيشان إلى غيتو للروس؟ كانوا يطردون الروس من العمل، ويستولون على شققهم. لن تسلم، يذبحونك. كانوا يغتصبون الفتيات الروسيات، فقط لأنهن روسيات.

- أنا أكره الشيشان! لولانا، نحن الروس، لبقوا حتى الآن في الجبال والكهوف. كما أكره أيضاً الصحافيين المؤيدين للشيشان! الليبيراليين! (نظرة ملؤها الحقد باتجاهي، أنا أسجل الحديث).

- وهل كانوا يحاكمون الجنود الروس لقتلهم الجنود الألمان في أثناء الحرب الوطنية؟ وكانوا يقتلون بمختلف الأشكال. كان الأنصار يقطِّعون رجال البوليس الألماني الأسرى إلى قطع... استمعي إلى أقوال المحاربين القدماء...

- في أثناء الحرب الشيشانية الأولى، وكانت في عهد يلتسين، كانوا يعرضون على شاشة التلفزيون كل شيء بصدق. كنا نرى، كيف كانت تبكي النساء الشيشانيات. وكيف كانت الأمهات الروسيات يذهبن إلى القرى ويبحثن عن أبنائهن المفقودين. لم يكن هناك من يمسهن. ومثل هذه الكراهية، كما هي الآن، لم تكن لدى أي طرف - لا عندهم ولا عندنا.

- كانت الشيشان وحدها تحترق، والآن شمال القوقاز كله. في كل مكان يشيدون الجوامع.

- الجيوبوليتيك جاءتنا إلى بيوتنا. روسيا تنقسم... قريباً لن يبقى من الإمبراطورية سوى إمارة موسكو...

- أكرههم!

- من؟

- جميعهم!

- ابني بقي سبع ساعات حياً، وضعوه في كيس كبير من السولوفان ووضعوه في سيارة الباص مع الجثث... أحضروا لنا نعشاً رسمياً، وإكليلين من الورد. النعش من نشارة الخشب، كورق الكرتون، رفعوه فانهار. الإكليلان بائسان، حقيران. اشترينا نحن كل شيء. الدولة تبصق علينا نحن الأموات، فلتأخذ بصقتي عليها، أريد الرحيل من هذه البلاد العاهرة. أنا وزوجي قدمنا طلباً للهجرة إلى كندا.

- في الماضي كان ستالين يقتل، أما الآن فقطاع الطرق. هل هذه هي الحرية؟

- شعري أسود، وعيناي سوداوان... أنا روسية، أرثوذكسية. دخلنا إلى الميترو أنا وصديقتي. أوقفتنا الشرطة، اقتادوني جانباً: «اخلعي ثيابك الخارجية. أرنا وثائِقك». ولم يلتفتوا إطلاقاً لصديقتي، إنها شقراء. تقول أمي: «اصبغي شعرك». إنني أشعر بالعار!

- الإنسان الروسي قوي في ثلاث دعامات: "ربما"، "أعتقد"، "كيفما كان". في الفترة الأولى كان الجميع يرتجفون من الخوف، وبعد مرور شهر، اكتشفت في الميترو تحت المقعد رزمة مشبوهة، وبصعوبة كبيرة تمكنت من إقناع المناوب بالاتصال بالشرطة.

- سائقو سيارات التكسي، الكلاب في مطار دوموديدوفو رفعوا أسعارهم بعد العملية الإرهابية. بصورة خيالية. يسلبون النقود في كل مناسبة. أولاد القحبة، يُخرجون المسافر من السيارة ويمرغون وجهه في غطاء المحرك!

- كان بعضهم مرمياً في برك من الدماء، والتقطوا صوراً للآخرين

بهواتفهم الجوالة. وعلقوا صورهم على الإنترنت. العاملون في المكاتب يعيشون حياة رغيدة.

- اليوم هم، وغداً نحن. والجميع يلوذون بالصمت، كلهم وافقوا على هذا.

- سنحاول بكل طاقتنا مساعدة الأموات بصلواتنا وأدعيتنا. نرجو رحمة الله...

هنا وعلى خشبة مسرح ارتجالية يقيم التلاميذ حفلة موسيقية. أحضروهم بسيارات الباص. أقترب منهم.

- إنني متشوق إلى بن لادن... القاعدة مشروع عالمي...

- أنا أؤيد الإرهاب الفردي. المتناثر. مثلاً، ضد رجال البوليس، والموظفين...

- الإرهاب... هل هو شر أم خير؟

- إنه الآن خير.

- سئمنا، يا للشيطان! واقفون. متى سيصرفوننا؟

- نكتة واخزة... الإرهابيون يتأملون معالم إيطاليا. وصلوا إلى برج بيزا. يضحكون: «إنهم هواة مهرة!».

- الإرهاب بيزنس...

تقديم للأضاحي، كما في العصور القديمة...

الاتجاه السائد...

استراحة عشية الثورة...

شيء ما شخصي...

عن عجوز بمنجل وفتاة جميلة

ألكسندر لاسكوفيتش - جندي، مقاول، مهاجر، 21-30 عاماً

موت شبيه بالحب

- في طفولتي كانت عندي في الفناء شجرة... شجرة قيقب قديمة... كنت أتحادث معها، لقد كانت صديقتي. مات جدي، كنت أبكي طويلاً. كنت أجأر طيلة اليوم. كان عمري خمس سنوات، وأدركت أنني سأموت، وأن الجميع سيموتون. كان يسيطر عليَّ الرعب: أن يموت الجميع قبلي، وأبقى وحيداً. وحدة وحشية. كانت أمي تشفق عليَّ، أما أبي فاقترب مني وقال: «امسح دموعك. أنت رجل. والرجال لا يبكون». وأنا، لم أكن أعرف من أنا؟ لم يكن يعجبني أبداً أن أكون صبياً، ولم أكن أحب اللعب "في الحرب". ولكن لم يكن هناك من يسألني... جميعهم كانوا يختارون من دوني... ماما كانت تحلم بفتاة، وأبي، كما هو دائماً، كان يريد عملية إجهاض.

أول مرة كنت أريد أن أشنق نفسي في عامي السابع... بسبب وعاء صيني... كانت أمي تغلي المربى في وعاء صيني، ووضعته على المقعد الصغير، وكنت أنا وأخي نريد الإمساك بقطتنا. القطة موسا قفزت كالخيال من فوق الطست، ونحن لم نستطع... كانت أمي شابة، وأبي في التدريبات العسكرية. تكومت بركة من المربى على الأرض... أخذت أمي تلعن مصير زوجة الضابط، وكيف أنها تضطر إلى العيش في أقاصي الدنيا... في

جزيرة سخالين... حيث يتراكم الثلج شتاء لعشرة أمتار، وفي الصيف يبلغ ارتفاع نبتات الأرقطيون إلى طول أمي. تمسك أمي بحزام أبي وتطردنا إلى الشارع. «ماما المطر يهطل في الفناء، وفي العنبر النمل يقرصنا». «اذهبا.. اذهبا بعيداً!». ركض أخي إلى الجيران، وأنا قررت جاداً أن أشنق نفسي. دخلت إلى العنبر وعثرت في سلة على حبل. سيأتون صباحاً، وأنا معلّق: هاكم، إلى الجحيم! وهنا حشرت القطة موسكا نفسها في الباب... مياو- مياو... عزيزتي موسكا! أنت جئت شفقة عليّ، عانقتها، واحتضنها بقوة، وهكذا جلست معها حتى الصباح.

بابا... ماذا يعني بابا؟ كان يقرأ الصحف ويدخِّن. إنه نائب قائد الفوج الجوي للشؤون السياسية. كنا ننتقل من بلدة عسكرية إلى أخرى، ونعيش في مساكن العسكريين الجماعية. ثكنات قرميدية متماثلة في كل مكان. تفوح منها جميعها رائحة الكولونيا الرخيصة السوداء من ماركة "شيبر". وكانت تفوح رائحتها من أبي. أصبح عمري ثماني سنوات، وأخي تسع سنوات، يعود أبي من الخدمة. يصرّ الحزام، تصر جزمته الجلدية. في هذه اللحظة، علينا أن نتحول أنا وأخي إلى شبحين غير مرئيين، وأن نختفي من أمام عينيه. يتناول أبي من خزانة الكتب رواية بوريس بوليفوي "قصة إنسان حقيقي"، وهي بمثابة الانجيل في بيتنا. يبدأ بسؤال أخي: «ماذا حصل بعد ذلك؟». «سقطت الطائرة. وزحف ألكسي ميريسييف... جريحاً. أكل قنفذاً... سقط في خندق». «في أي خندق؟». «في قمع قنبلة وزنها خمسة أطنان»، أصحح أنا قول أخي. «ماذا؟ لقد حدث هذا بالأمس». نرتجف كلانا من صوت أبي العسكري القيادي. «اليوم، إذاً، لم تقرآ؟». إنها لوحة: نركض حول الطاولة مثل ثلاثة مهرجين: واحد كبير واثنان صغيران، نحن ببنطالين هابطين مفكوكين، وأبي بالحزام (وقفة). وعلى الرغم من كل شيء، لدينا جميعاً تربية سينمائية، أجل؟ العالم في أفلام ولوحات...

لقد كبرنا على الأفلام وليس على الكتب. وعلى الموسيقى... فالكتب التي كان أبي يحضرها إلى البيت لا تزال حتى الآن تثير حساسيتي. إن حرارتي ترتفع عندما أرى عند أحد ما على الرف "قصة إنسان حقيقي" أو "الحرس الفتي". أوه! حلم أبي أن يرمي بنا تحت الدبابة... كان يريد أن نكبر بسرعة ونصبح راشدين لنتطوع في الحرب. لم يكن أبي يتصور العالم دون حرب. نحن في حاجة إلى أبطال! والحرب وحدها تصنع الأبطال، ولو حدث أن قُطعت رجلا أحد منا، مثل ألكسي ميريسييف، لكان سعيداً؛ فحياته لم تذهب سدىً... كل شيء ممتاز! أنا أعتقد أنه هو بنفسه كان يمكنه أن ينفذ الحكم بيديه، إذا ما حنثت بالقسم، إذا ما ارتجفت في المعركة. إنه مثل تاراس بولبا[1]! «أنا أنجبتك، وأنا أقتلك». أبي ينتسب إلى الفكرة، إنه ليس إنساناً. علينا أن نحب الوطن بتهور ورعونة، دون قيد أو شرط. كنت أسمع هذا طيلة طفولتي. فالحياة أُعطيت لنا فقط من أجل أن نحمي الوطن... لكنه لم يتمكن أبداً من برمجتي على الحرب، على استعدادي الغريزي لأن أغلق بجسدي ثقب السد أو أغطي اللغم ببطني. لم أكن أحب الموت... كنت أدعس بقدمي الخنافس، والخنافس في سخالين صيفاً كثيرة كالتراب. كنت أدوسها مثل الجميع. إلى أن شعرت يوماً بالخوف، لماذا صنعت هذا العدد الكبير من الجثث الصغيرة الحمراء؟ ولدت قطتنا موسكا قططاً صغيرة خديجة... أنا كنت أطعمها وأسقيها، وأعتني بها. جاءت أمي وقالت: «ماذا، هل هي ميتة؟». وماتت بعد كلماتها هذه. بلا دموع! «الرجال لا يبكون». أهدانا أبي قبعات عسكرية، في أيام العطلة الأسبوعية كان يضع أسطوانات لأغان حربية. كنت وأخي نجلس

---

(1) – تاراس بولبا: بطل أوكراني من الكازاك، واسم رواية للكاتب الأوكراني الكبير غوغول. يأمر بقتل ابنه عندما يخون وطنه ويقف مع أعدائه البولونيين، حيث يقول: «أنا أنجبتك، وأنا أقتلك» – المترجم.

ونصغي، وكانت تزحف على خد والدي "دمعة رجل شحيحة". عندما كان ثملاً، كان دوماً يروي لنا قصة واحدة يكررها: كيف أحاط الأعداء بـ"البطل"، وبقي يطلق النار حتى الرصاصة الأخيرة، أما الرصاصة الأخيرة فأطلقها على قلبه... وفي هذا المكان كان أبي دوماً يسقط على الأرض، على الطريقة السينمائية، ويصيب المقعد الصغير برجله فيقع أيضاً. هنا كان الموقف مضحكاً: كان يصحو أبي من سكره ويغضب قائلاً: «ليس هناك ما يضحك، عندما يموت البطل».

لم أكن أريد الموت... من المرعب جداً التفكير في الموت في الطفولة... "على الرجل أن يكون مستعداً"، "الواجب المقدس تجاه الوطن"، "ماذا؟ أنت لا تعرف فك وتركيب رشاش كلاشنكوف؟". كلمة "لا" تعني المستحيل بالنسبة إلى أبي. يا للعار! أوه! كم كنت أود أن أتشبث بأسناني اللبنية في جزمة والدي الجلدية، وأن أصارع وأخرمش! ومن أجل هذا كان يضربني على مؤخرتي العارية أمام ابن جارنا فيتكا! كما أنه كان يلقبني بـ"البنت الصغيرة"... أنا لم أولد لرقصة الموت... أنا "أخيل" كلاسيكي... كنت أريد أن أرقص الباليه... كان أبي قد كرس نفسه لفكرة عظيمة. وكأن هرسَ الرأسِ كان لدى الجميع، وكانوا يفخرون بأنهم عاشوا من دون سراويل، ولكن ببندقية... (وقفة). لقد كبرنا... كبرنا منذ زمن... يا لأبي من بائس! لقد غيرت الحياة أسلوبها... وهناك حيث كانوا يمثلون المأساة المتفائلة، أخذوا الآن يمثلون الكوميديا والمقاتل. إنه يزحف ويزحف، ويقضم أكواز الصنوبر... احزري من هو؟ إنه ألكسي ميريسييف، بطل أبي المحبوب... «كان الأطفال في القبو يلعبون بالجستابو الألماني، ويعذبون عامل التمديدات الصحية بوبوف بوحشية»... هذا كل ما بقي من فكرة أبي... وماذا حل بأبي نفسه؟ إنه الآن رجل عجوز هرم، غير مهيأ أبداً للشيخوخة. كان يود الفرح بكل دقيقة، والنظر إلى السماء، إلى

الأشجار. لو كان يلعب الشطرنج أو يجمع الطوابع... وعلب الكبريت... يجلس أمام شاشة التلفزيون: اجتماع البرلمان - اليساريون، اليمينيون، الحشود والاجتماعات، المظاهرات بالأعلام الحمراء. أبي هناك! يؤيد الشيوعيين. نجتمع في أثناء العشاء... «كان عندنا عصر عظيم!». يوجه لي الضربة الأولى وينتظر جوابي. أبي في حاجة إلى الصراع، وإلا ستفقد الحياة معناها. فقط وراء المتاريس ومع العلَم! نشاهد وإياه التلفزيون: روبوت ياباني يستخرج الألغام من الرمل... اللغم الأول... الثاني... انتصار العلم والتقنية! العقل البشري! حقيقة، أبي يشعر بالاستياء على دولتنا العظمى، يشعر بالاستياء لأنها ليست تقنيتنا السوفييتية. ولكن، في هذه اللحظة، فجأة في نهاية الربورتاج التلفزيوني، وأمام أعيننا، يرتكب الروبوت خطأً ويتقوض. وكما يقال: رأيت النقّاب الهارب، اتبعه. ليس لدى النقاب الإلكتروني هذا البرنامج. يشعر أبي بالارتباك: «أتذهب التقنية المستوردة إلى الخراب؟ وهل تنقصنا أعداد الرجال العسكريين؟». لدى والدي موقفه الخاص من الموت. كان أبي يعيش من أجل تنفيذ أي مهمة يكلفه بها الحزب والحكومة. الحياة كانت تعادل أقل من قطعة حديد.

في سخالين كنا نسكن بالقرب من المقبرة. كنت كل يوم تقريباً أسمع موسيقى التشييع: تابوت أصفر: مات أحد ما في البلد. تابوت مغطى بالراية الحمراء: استشهد طيار، التوابيت الحمراء كانت أكثر. بعد كل تابوت أحمر كان يجلب أبي إلى البيت شريط تسجيل... وكان يَحضر الطيارون... كانت على الطاولة أعقاب السجاير تُدخن، وتلمع الكؤوس المتعرقة بالفودكا. ويدور شريط التسجيل: «أنا على متن الطائرة الفلانية... المحرك توقف». «انتقل إلى المحرك الثاني». «وهذا لا يعمل». «حاول تشغيل المحرك الأيسر». «لا ينطلق». «الأيمن...». «كذلك الأيمن». «اقذف بنفسك مع المظلة!». «مفتاح المظلة لا يعمل... كـ ســ... أمك!!

آآآآخ... آي - آي...». كنت ولفترة طويلة أتصور الموت على أنه سقوط من ارتفاع شاهق: آخ... آي آي... سألني ذات يوم أحد الطيارين الشباب: «ماذا تعرف، أيها الصغير، عن الموت؟». استغربت جداً. كان يُهيَّأ إليَّ أنني كنت أعرف هذا دائماً. دفنوا صبياً من صفنا... أشعل شعلة نار ورمى في النار خراطيش... أحدثت انفجاراً كبيراً! وها هو... يرقد في التابوت، وكأنه يتظاهر، الجميع ينظرون إليه، وهو ليس في متناول أحد... لم أستطع حرف عيني... وكأنني كنت أعرف هذا دائماً، وولدت بمعرفتي هذه. ربما، كنت قد متُّ في فترة سابقة؟ أو أمي عندما كنت في بطنها، كانت تجلس بالقرب من النافذة وتنظر كيف كانوا ينقلون إلى المقبرة: تابوتاً أحمر، تابوتاً أصفر... كنت مُنوَماً تنويماً مغناطيسياً بالموت، طيلة اليوم كنت أفكر فيه عشرات المرات. كنت أفكر عدة مرات. كان الموت يفوح من أعقاب السجاير، ومن بقايا سمك السردين المتبقي بعد الأكل، ومن الفودكا. ليس بالضرورة أن تكون امرأة عجوزاً بلا أسنان بمنجل، فقد تكون أيضاً فتاة جميلة؟ وأنا سأراها.

في الثامنة عشرة من عمري... أريد كل شيء: نساء، نبيذاً، رحلات... ألغازاً، أسراراً. كنت أخطط لنفسي حياة متنوعة، كنت أتصور. وفي هذه اللحظة يقمعونك... هذا لي... يا للشيطان! حتى الآن بودي أن أذوب في الهواء، أن أختفي، بحيث لا يعثرون عليّ في أي مكان. وألا أترك أي أثر. أن أذهب إلى مكان ما وأسكن الغابة، وأصبح مشرداً، بلا جواز سفر. يهاجمني دوماً الحلم نفسه: يأخذونني من جديد إلى الجيش، أخطأوا في الوثائق، وعليك أن تخدم في الجيش من جديد. أصرخ، أدافع عن نفسي: «لقد خدمت، أيها الدواب! اتركوني!». أفقد عقلي! حلم مريع... (وقفة). لم أكن أرغب في أن أكون صبياً... لم أكن أريد أن أكون جندياً، لم تكن الحرب ممتعة بالنسبة إليَّ. قال أبي: «عليك، أخيراً، أن تصبح رجلاً. وإلا

ستظن الفتيات أنك عاجز جنسياً. الجيش مدرسة الحياة». عليك أن تذهب وتتعلم القتل... كان هذا في مخيلتي يبدو على الشكل التالي: ضربات الطبل، صفوف قتالية، أدوات قتل أُحسن صنعها، أزيز الرصاص الحار و... رؤوس مفصولة، أطراف مقطوعة... أنين وعواء الجرحى... وصراخ المنتصرين... أولئك القادرين على القتل بشكل أفضل... القتل! القتل! بالسهم، بالرصاص، بالقذيفة أو بالقنبلة النووية، على أية حال هو القتل... قتل إنسان آخر. هذا ما لم أرده. وكنت أعرف أن رجالاً آخرين في الجيش سيجعلون مني رجلاً. فإما أن يقتلوني، أو أقتل أحداً ما. ذهب أخي إلى الجيش بوردة زهرية، كان رومانسياً، وعاد بعد خدمته إنساناً يعاني من الخوف. في كل صباح كانوا يضربونه بالأرجل على وجهه. كان ينام على السرير السفلي، أما المتقدم عليه فكان ينام في السرير العلوي. طيلة عام كان يضربك بكعبه على وجهك! وحاول أن تبقى كما كنت. وإذا ما عرّيت إنساناً من كل ثيابه، فكم من الأفعال يمكن اختراعها؟ أشياء كثيرة... كأن ترغمه على مص عضوه، وسوف يضحك الجميع عليك. ومن لا يضحك يلزمونه بأن يمص هو نفسه عضوه... ومسح مرحاض الجنود بفرشاة الأسنان أو بمكنة حلاقة الذقن؟ «يجب أن يلمع مثل بيضتي القط». يا للشيطان! ثمة نموذج من الناس لا يستطيعون احتمال ذلك، وهناك نموذج آخر من الناس لا يمكنهم أن يكونوا إلا كذلك. نماذج بشرية. لقد أدركت أن عليَّ أن أضبط عاطفتي كلها، كي أبقى حياً. سجلت اسمي في القسم الرياضي، بتدريبات هاتها، يوغا والكاراتيه. تعلمت الضرب: في الوجه، بين الرجلين، كيف يمكن كسر العمود الفقري... كنت أشعل عود الثقاب وأضعه على راحة يدي وأنتظر إلى أن يحترق بالكامل. بالطبع، لم أكن أحتمل... كنت أبكي. أنا أذكر... أذكر... (وقفة). يتنزه تنّين في الغابة. التقى دباً، قال التنين: «أيها الدب، موعد عشائي الساعة الثامنة مساء، تعال

سآكلك». يتابع سيره. يركض الثعلب، يخاطبه التنين قائلاً: «أيها الثعلب، فطوري في الساعة السابعة صباحاً. تعال لعندي، سآكلك». يتابع سيره. يقفز الأرنب فيقول له: «قف أيها الأرنب، موعد غدائي الساعة الثانية ظهراً. تعال، سآكلك». رفع الأرنب قدمه قائلاً: «عندي سؤال». «اسأل». «يمكنني عدم المجيء؟». «يمكنك ذلك، سأشطبك من القائمة». ولكن، قليل من هم قادرون على طرح هذا السؤال... شـ... رمو...!

حفلات توديعي... طيلة يومين كانوا في البيت يقومون بالشواء، والقلي، والطبخ، والعجن والخبز. اشتروا صندوقين من الفودكا. اجتمع جميع أقربائنا. رفع أبي نخب القدح الأول: «لا تخجل، يا بني!». وتتالت الأنخاب والأقداح... يا للشيطان! عبارات مألوفة: «اجتز الامتحان»... «اصمد بشرف»... «أبدِ رجولتك»... صباحاً أمام دائرة التجنيد، تناغم، أغانٍ وفودكا بالكؤوس البلاستيكية. أنا لا أشرب... «هل أنت مريض؟». قبل نقلنا إلى المحطة فتشوا الأشياء الشخصية. أرغموني على إخراج كل ما في الحقائب. صادروا السكاكين والشوك والطعام. أعطوني في البيت بعض المال... كنا نخبئه في مكان عميق في الجوارب والكلاسين الداخلية. يا للشيطان! حماة الوطن القادمون! أجلسونا في سيارات الباص. الفتيات يلوحن، والأمهات يبكين. انطلقنا! عربة القطار ممتلئة بالرجال. لم أحفظ وجه أي واحد منهم. حلقوا شعور الجميع على الصفر، وألبسوهم ثياباً مهترئة. فصاروا شبيهين بالسجناء المعتقلين. أسمع أصواتاً وعبارات: «أربعون حبة... محاولة انتحار... بطاقة بيضاء. يجب أن تكون غبياً كي تبقى ذكياً». «اضربني! اضرب! ولأكن برازاً، فهذا لا يهمني. في المقابل، أنا في بيتي، أضاجع الفتيات، أما أنت فذهبت مع البندقية لتلعب لعبة الحرب». «أيها الشباب، نستبدل الأحذية الرياضية بالجزمات العسكرية وسوف نحمي الوطن». «من لديه نقود في جيبه فهو لا يذهب

إلى الجيش». بقينا في القطار ثلاثة أيام. كنا نشرب الفودكا طيلة الوقت. وأنا لا أشرب... «بطة عرجاء! وماذا ستفعل في الجيش؟». بالملابس الداخلية، الجوارب والثياب التي نرتديها. خلعنا أحذيتنا ليلاً... رائحة كريهة... يا للشيطان! مئة رجل خلعوا أحذيتهم... لم نبدل جواربنا يومين أو ثلاثة... كان بودي أن أشنق نفسي أو أطلق النار على نفسي. كنا نذهب إلى المرحاض مع الضباط ثلاث مرات في اليوم. تحتاج لأكثر - عليك أن تصبر. المرحاض مغلق. أخذونا من بيوتنا... هناك حالات مختلفة... ومع ذلك، واحد منا شنق نفسه... يا للشيطان!

من الممكن برمجة الإنسان... وهذا ما يريده هو نفسه. واحد - اثنان! واحد - اثنان! حركة الرِّجل. من المطلوب في الجيش السير والركض بكثرة. الركض بسرعة ولمسافات بعيدة، لا يمكنك الركض - ازحفْ! مئات من الرجال الشباب معاً؟ وحوش! قطيع من الذئاب الشابة! في السجن وفي الجيش يعيشون بقوانين واحدة. الفوضى. الوصية الأولى - لا تساعد الضعيف أبداً! الضعيف - اضربه! الضعيف يظهر نفسه على الفور... الوصية الثانية - لا وجود للأصدقاء، كل مسؤول عن نفسه. في الليل كان هناك من يشخر، ومن ينق كالضفدع، ومن ينادي أمه، ومن يضرط... لكن الجميع يخضعون لقاعدة واحدة: «اخضع لها أو أخضِعها». كل شيء بسيط: اثنان يساوي اثنين. ولماذا كنت قد قرأت كل هذه الكتب؟ ولماذا صدّقت تشيخوف... فهو القائل: يجب أن تُخرج من نفسك قطرة العبودية، وكل شيء عند الإنسان يجب أن يكون رائعاً: روحك، وثيابك وأفكارك. وربما يحدث العكس؟ العكس! أحياناً يود الإنسان أن يكون عبداً، فهذا يروق له. مِن الإنسان يُخرجون قطرة الإنسان. يشرح لك الرقيب في اليوم الأول أنك قمامة، أنك مخلوق تافه. أمر عسكري: «استلقِ! انهض!». نهض الجميع، واحد بقي راقداً.

«استلق! انهض!». وهو راقد. أصبح لون الرقيب أصفر، ثم بنفسجياً: «ماذا بك؟». «يثير الفوضى». «ماذا بك؟». «الرب علّمنا: لا تقتل، بل ولا تغضب». توجه الرقيب إلى قائد السرية، الذي توجه إلى ضابط الأمن. رُفعتْ دعوى ضده: معمداني، كيف وصل إلى الجيش؟! فصلوه عن الجميع، ثم نقلوه إلى مكان ما. إنه عنصر خطير بصورة خيالية! لا يريد أن يلعب لعبة الحرب...

دورة المقاتل الغرّ: النظام المنضم، حفظ النظام الداخلي غيباً، فك وتركيب بندقية كلاشنكوف الآلية بعينين مغمضتين... وتحت الماء... لا وجود للرب! الرقيب هو الرب وهو القيصر والقائد العسكري. الرقيب فاليريان: «حتى الأسماك تخضع للتدريب. مفهوم؟». «يجب أن تنشد الأغنية في الصف بصراخ عال جداً، بحيث ترتجف عضلات أُستك». «كلما حفرتم في الأرض أعمق، نقص عدد قتلاكم». إنه فولكلور! جزمات القماش المشمع هي الكابوس رقم واحد... لم يغيروا أحذية الجيش الروسي إلا بالأمس، منذ فترة صغيرة وزعوا الأحذية على أفراده. أنا خدمت بالجزمة. وكي يلمع المشمع عليك أن تدهن المطاط المشمع بدهن الأحذية وتمسحها بقماش من الصوف بشدة. الركض عشرة كيلومترات في جزمة من المطاط المشمع. درجة الحرارة ثلاثون درجة مئوية... يا له من جحيم! أما الكابوس رقم اثنان فهو لفافات القدم... وكانت على نوعين: شتوية وصيفية. كان الجيش الروسي آخر جيش يتخلى عن لفافات القدم... في القرن الحادي والعشرين... وقد قصصت أكثر من مسمار دموي من قدمي بسبب هذه اللفافات. ويلفون هذه اللفافات على الشكل التالي: من أصابع القدم وبالتأكيد إلى الخارج وليس إلى الداخل. وقفنا في الصف. «أيها الجندي، لماذا تعرج؟ ليست هناك جزمات ضيقة، هناك أقدام عرجاء». وكل كلامهم شتائم، إنهم لا

يشتمون، بل لا يعرفون الكلام إلا بالشتائم، من العقيد وحتى الجندي. لم أسمع منهم كلاماً آخر.

إن ألفبائية الحياة عندهم: الجندي هو حيوان يمكنه عمل كل شيء... الجيش هو سجن يمضي فيه الجنود فترة خدمتهم حسب الدستور... ماما، إني أشعر بالرعب! الجندي الغر هو "شرير"، "عقيم"، "دودة". «أيها الغرّ! أحضر الشاي». «إي... نظّف جزمتك»... إي- إي! «وأنت أيها الشرمو... ذو كبرياء». وتبدأ أعمال التعذيب... ليلاً يمسك بك أربعة من المتقدمين، واثنان يضربانك... وقد أتقنوا تقنية يضربونك بموجبها دون إبقاء أثر للكدمات. دون أثر. مثلاً، بالمنشفة الرطبة... بالملاعق... ذات مرة ضربوني بشدة حتى أنني طيلة يومين لم أستطع الكلام. في المستشفى "المحلول الأخضر" هو دواء جميع الأمراض. يملّون من الضرب فيحلقون لك شعرك بالمنشفة الجافة أو بالقداحة، ويملّون من "الحلاقة" فيطعمونك الخراء، ومياه الشطف. «خذ بيديك! بيديك!». إنهم دواب! يمكنهم إرغامك على الركض في الثكنة عارياً... والرقص أيضاً... ليست لدى الجندي الغرّ أية حقوق... يقول أبي: «الجيش السوفييتي هو الأفضل في العالم»...

و... في لحظة ما... تظهر فكرة... فكرة خسيسة: أغسل لهم كلاسينهم الداخلية ولفافات أقدامهم، ثم أصبح أنا دابة، وعندها سيغسلون كلسوني. هكذا في البيت كنت أفكر عن نفسي، أنني أبيض البشرة، غزير الشعر. لن تحطمني ولن تقتل "الأنا" عندي. هذا "قبل" التحاقي بالجيش... (وقفة). كنت أشعر بحاجة دوماً إلى الطعام، وخاصة إلى الحلويات. في الجيش يسرقون كل شيء، وبدلاً من سبعين غراماً من الطعام المخصصة للجندي ينال ثلاثين منها فقط. ذات مرة، بقينا أسبوعاً كاملاً من دون عصيدة - سرق بعضهم عربة القطار المحملة بالشعير

للعصيدة. كنت أحلم بالمخبز... بالكيك مع الزبيب... أصبحت معلماً في تقشير البطاطا. مبدعاً! خلال ساعة واحدة يمكنني تقشير ثلاثة دلاء من البطاطا. يجلبون للجنود البطاطا السيئة، المرفوضة في المحلات التجارية، كما هي في المزرعة. فتجلس بين القشور... شرمـ...! يأتي الرقيب في لباسه الرسمي إلى الجندي في المطبخ: «قشِر ثلاثة دلاء من البطاطا». الجندي: «لقد حلَّقوا في الفضاء منذ زمن بعيد، ولم يخترعوا آلة لتقشير البطاطا». الرقيب: «أيها الجندي، كل شيء موجود في الجيش. وآلة تقشير البطاطا هو أنت. أنت أحدث الآلات». أما مطعم الجنود فهو ساحة العجائب... طيلة عامين: العصيدة، الملفوف المخلل مع الجزر، حساء من اللحم المحفوظ في المستودعات العسكرية لحالة الحرب. كم بقي في المستودع؟ خمس أو عشر سنوات... وكل شيء يعبأ بعبوات معدنية كبيرة برتقالية اللون تتسع لخمسة ليترات تحفظ بسمن صناعي. في عيد رأس السنة يسكبون الحليب المحلى المكثف فوق المعكرونة - يا للطعم اللذيذ! الرقيب فاليريان: «البسكويت ستأكله في البيت وتضيِّف قحباتك»... حسب النظام الداخلي للجيش لا يحق للجندي استخدام أي شوكة أو ملعقة شاي. الملعقة الكبيرة هي أداة الطعام الوحيدة. جُلب لبعض الجنود ملعقتان صغيرتان من البيت. يا إلهي! كم استمتعنا عندما جلسنا وحركنا الشاي بالملاعق الصغيرة في الكؤوس. إنه كيْف مديني! يحجزوننا كالخنازير، وفجأة ملعقة شاي. يا إلهي! هناك في مكان بعيد... عندي بيت... يدخل النقيب المناوب... رأى ملعقة الشاي: «ماذا؟ ما هذا! من سمح لكم؟ نظفوا القاعة فوراً من القاذورات!». أية ملاعق! الجندي ليس إنساناً. إنه مادة... مرفق... أداة للقتل... (وقفة). التسريح. كنا... عشرين شاباً... نقلونا بالسيارة الشاحنة إلى محطة القطار وأنزلونا: «إلى اللقاء، أيها الشباب! حياة مدنية سعيدة». ونحن واقفون. نصف

ساعة واقفين. مضت ساعة... واقفين! ننظر فيما حولنا. ننتظر الأمر العسكري. على أحد ما أن يعطينا الأمر العسكري: «ركضاً! إلى نافذة التذاكر!». لم يأت الأمر. لا أذكر، كم مضى من الوقت، إلى أن أدركنا أنه لن يكون هناك أمر عسكري. علينا أن نقرر بأنفسنا. يا إلهي! خلال ساعتين فقدنا عقولنا...

خمس مرات أردت وضع نهاية لحياتي... وكيف؟ أُعلق نفسي بحبل؟ ستبقى معلقاً مع برازك، ويندلق لسانك إلى الخارج... ولن يتمكنوا من إدخاله إلى الداخل... كما حدث لذلك الشاب، عندما نقلونا إلى الوحدة العسكرية. سيشتمونك... زملاؤك... اقفزْ من مكان عالٍ، وستصبح لحماً مفروماً! تأخذ رشاشاً وتطلق النار على رأسك في موقعك... فتتفجر كبطيخة. لكنني أشفقت على أمي. طلب منا القائد: «إياكم وإطلاق النار على أنفسكم. تعويض الناس أسهل من تعويض الطلقات». إن حياة الجندي أرخص من سلاح الخدمة. رسالة من فتاة... تعني الكثير في الجيش. يداك ترتجفان. من غير الممكن حفظ الرسائل. يجري تفتيش منضدتك: «نساؤكم سيصبحون نساءنا. وسوف تبقى في الخدمة مثل أباريق الشاي النحاسية. احمل مسوداتك إلى المرحاض». المسموح بالاحتفاظ به ثلاثة أشياء: مكنة الحلاقة، قلم ناشف ودفتر ملاحظات. تجلس في المرحاض وتقرأ للمرة الأخيرة: «أحبكَ... أقبِّلك»... شرمـ...! حماة الوطن! رسالة من أبيك: «تدور حرب في الشيشان... أنت تفهمني!». أبي ينتظر عودة البطل إلى البيت... عندنا ملازم ثان كان في أفغانستان، ذهب متطوعاً. اخترقت الحرب رأسه بقوة. لم يكن يروي شيئاً، كان فقط يسممنا بالنكات "الأفغانية" يا إلهي! كان الجميع يضحكون... جندي يحمل على ظهره صديقة الجريح، إنه ينزف دماً. ينازع. يطلب منه: «أطلق عليّ النار! لا أستطيع الاحتمال أكثر!». «ليس لدي طلقات، نفدت». «اشترِ». «ومن أين

أشتريها؟ من حولنا الجبال، ولا أحد». «اشتريها مني» (يضحك)... «أيها الرفيق الضابط، ولماذا تطوعت في أفغانستان؟». «أريد أن أصبح برتبة رائد». «ألا تريد أن تصبح جنرالاً؟». «لا، لن أصبح جنرالاً. للجنرال ابن يهيئونه» (وقفة). ليس هناك من تطوع للحرب في الشيشان. لا أذكر أي متطوع... جاءني والدي في الحلم: هل حلفت اليمين؟ هل وقفت تحت الراية الحمراء: "أقسم أن أراعي بقداسة... وأن أنفذ بصرامة... وأن أدافع برجولة... وإذا ما حنثت يميني الاحتفالي فليحق عليّ العقاب الصارم... والكراهية الشاملة والاحتقار"... في الحلم هربت إلى مكان ما، فسدد صوبي... سدد عليّ...

تقف في موضعك. السلاح بيديك. وفكرة واحدة تحاصرك: ثانية أو ثانيتين، وأنت حر. ولا ترى أحداً. أيها القحبات، لن تطالوني! لا أحد أبداً... لا أحد! إذا ما بحثت عن سبب، عليك أن تبدأ من هناك، عندما كانت أمي ترغب في ابنة، وأبي كالعادة دوماً، يريد الإجهاض. قال لي الرقيب، أنك كيس خراء... ثقب في الفضاء... (وقفة)... الضباط كانوا مختلفين: أحدهم مثقف سكّير، كان يتكلم الإنكليزية، ولكن عموماً هم سكيرون رماديون. أدمنوا السكر حتى العطب... يمكنهم ليلاً أن يُنهضوا الثكنة كلها ويرغموا الجنود على الركض في ساحة الاستعراض، إلى أن يسقطوا على الأرض. كنا ندعو الضباط بأبناء آوى. ابن آوى سيئ... ابن آوى طيب... (وقفة). من سيحدثك كيف اغتصب عشرة أشخاص شخصاً واحداً... (ضحكة حاقدة). هذه ليست ألعاباً وليست أدباً... (وقفة). في الشاحنة القلّابة كانوا ينقلون كالقطيع إلى بيت القادة الريفي... يشحنون ألواح الخرسانة... (ضحكة حاقدة). يا ضارب الطبل! اعزف النشيد الوطني السوفييتي!

لم أرغب يوماً في أن أصبح بطلاً. أنا أكره الأبطال! على البطل أن

يقتل الكثيرين... أو يموت ميتة جميلة... عليه أن يقتل العدو بأي ثمن: بداية استخدم العدة القتالية، وعندما تنفد الطلقات والقنابل اليدوية. قاتل بالسكين، بكعب البندقية، بمجرفة النقّاب. مزقه ولو بأسنانك. الرقيب فاليريان: «تعلّم العمل بالسكين. اليد شيء جيد جداً، الأفضل ألا تقطع بها، بل أن تخز بها... بمسكة خلفية... هكذا... هكذا... راقب حركة يدك، اعتن بحركتك وراء الظهر... لا تهتم بالحركات الصعبة... ممتاز! ممتاز! والآن اسحب السكين من الخصم... هكذا... هكذا... لقد قتلته. أحسنت! قتلته! اصرخ: مت أيها الكلب! لماذا تسكت؟» (يتوقف). دوماً يكررون لك: السلاح شيء جميل... إطلاق النار عمل رجولي حقيقي... كنا نتعلم القتل بالحيوانات، كانوا يجلبون لنا، خصيصاً، الكلاب الشاردة، والقطط، كي لا ترتجف يدك فيما بعد عند مرأى دم الإنسان. أكلة اللحوم! لم أكن أحتمل... ليلاً كنت أبكي... (وقفة). في الطفولة كنا نلعب بالساموراي. على مقاتل الساموراي أن يموت على الطريقة اليابانية، لا يحق له أن يسقط ووجهه متجه نحو الأسفل، وأن يصرخ. كنت أصرخ دوماً... لم يكونوا يحبون مشاركتي في هذه اللعبة... (وقفة). الرقيب فاليريان: «احفظوا... الرشاش يعمل على النحو التالي: واحد، اثنان، ثلاثة - ولا وجود لك»... فليذهبوا جميعاً إلى...! واحد، اثنان...

الموت شبيه بالحب. في اللحظات الأخيرة: ظلام دامس... رجفان رهيب وبشع... لا يمكننا الرجوع من الموت، لكننا نرجع من الحب. ويمكننا أن نتذكر، كيف كان... هل غرقتِ يوماً ما؟ أنا غرقت... كلما قاومت أكثر، تناقصت قواك. استسلم وابلغ القاع. وعندها... تريد أن تعيش. اثقب الكثير من الماء، وعُد. ولكن في البداية عليك أن تبلغ القاع.

وهناك؟ هناك لا وجود لأي نور في نهاية النفق... ولم أرَ الملائكة. كان يجلس أبي أمام نعش أحمر. والنعش فارغ.

بعد بضع سنوات وجدت نفسي من جديد في مدينة "ن" (لن أذكر اسم المدينة بناء على طلب محدثي). تواصلنا هاتفياً والتقينا. كان عاشقاً، وكان سعيداً، وتحدث عن الحب. حتى أنني لم أخمّن على الفور بفتح جهاز التسجيل، كي لا أفوّت هذه اللحظة من انتقال الحياة، ومن الحياة ببساطة إلى الأدب، هذه اللحظة التي أحافظ عليها دوماً، وأصغي إليها في أية أحاديث - خاصة وعامة، لكنني أحياناً أفقد يقظتي، في حين أن "قطعة من الأدب" قد تلمع في كل مكان، وأحياناً في المكان غير المتوقع. وكما في هذه المرة. أردنا أن نجلس ونشرب القهوة، لكن الحياة اقترحت تطوير الموضوع. وهاكم ما تمكنت من تسجيله...

- التقيت بالحب... أنا أدركه... وقبل هذا كنت أظن أن الحب هو اثنان أحمقان بحرارة مرتفعة. وأنه مجرد هذيان... نحن لا نعرف عن الحب إلا أقل من القليل. وإذا ما سحبنا هذا الخيط... الحرب والحب، وكأنهما من شعلة واحدة، أي أنهما نسيج واحد، ومادة واحدة. فالإنسان سواء أكان مع الرشاش، أو ذاك الذي صعد إلى قمة إلبروس، أو ذاك الذي كان يحارب حتى النصر، ومن كان يبني الفردوس الاشتراكي، كلها القصة نفسها، والمغناطيس الجاذب نفسه، والرعشة الكهربائية نفسها. هل هذا مفهوم لكِ؟ هناك شيء لا يستطيع الإنسان بلوغه، شيء لا يمكنه شراؤه أو الفوز به باليانصيب... والإنسان يعرف أنه موجود، وأنه يريده... ولا يعرف كيف يبحث عنه. أين؟

إنه بمثابة الولادة... يبدأ بصفعة... (وقفة). وربما لا حاجة إلى الكشف عن هذه الأسرار؟ ألا تخافين؟

اليوم الأول...

جئت إلى أحد معارفي، عنده جماعة، خلعت معطفي في المدخل وعلّقته على المشجب، شخص ما يأتي من المطبخ، ويجب أن أفسح له الطريق، التفتُّ، إنها هي! حدث لي تماس دارة كهربائية، وكأن النور أُطفئ في الشقة كلها. ثم انتهت. لا أتدخل عادة في الحديث، وهنا جلست ببساطة وبقيت جالساً، حتى أنني لم أرها، أي ليس أنني لم أنظر إليها، كنت أنظر طويلاً من خلالها، كما في أفلام تاركوفسكي: يسكبون الماء من الإبريق، لكن الماء ينسكب خارج الكأس، ثم يدور الماء مع هذا الكأس. أنا أروي بصورة أبطأ مما حدث بسرعة البرق! في هذا اليوم عرفت شيئاً ما، بحيث كل ما عداه أصبح غير مهم، حتى أنني لم أتعمق فيه على نحو خاص... وما المبرر؟ حدث وانتهى. لكنه كان راسخاً. ذهب خطيبها لمرافقتها، وكما علمت، بات عرسهما على الأبواب، لكنني لم أهتم بهذا، نويت الذهاب إلى بيتي لكنني لم أركب وحيداً، ركبت معها، وكأنها استقرت في ذاتي... الحب يبدأ... تلون كل شيء بلون آخر، أصوات أكثر، تأثيرات أكثر... وليس هناك أي مجال لفهم هذا... (وقفة). أروي لكِ بصورة تقريبية...

استيقظت صباحاً بفكرة ثابتة، أن عليّ العثور عليها، أنا لا أعرف كنيتها، ولا عنوانها، ولا رقم هاتفها، لكن هذا قد حدث، شيء ما مهم في حياتي حدث لي. لقد وصل الإنسان. وكأنني نسيت شيئاً... وها قد تذكرت... هل مفهوم ما أتحدث عنه؟ لا؟ لن نستخرج أية صيغة... فكلها ستكون تركيبية... لقد اعتدنا على فكرة: المستقبل مخفي عنا، وما كان يمكن تفسيره. هل حدث أم لم يحدث... كان هذا سؤالاً بالنسبة إليَّ... وربما لم يكن هناك أي شيء؟ مجرد شريط سينمائي يدور، وها هو قد أنهى دورته... أعرف مثل هذه اللحظات في حياتي، التي وكأنها لم تكن. لكنها كانت. على سبيل المثال، كنت عاشقاً عدة مرات... كنت أظن أنني

أحب... بقي عندي كثير من الصور. لكن كل شيء تبخر من ذاكرتي، مُسح. ولكن ثمة أشياء لا تنمحي، ويجب الاحتفاظ بها. أما ما تبقى... فهل يتذكر الإنسان كل ما حدث معه؟

اليوم الثاني...

اشتريت وردة. لم يكن لدي مال تقريباً، لكنني ذهبت إلى السوق واشتريت أكبر وردة وجدتها. وهذا أيضاً... كيف يمكن تفسيره؟ اقتربت مني غجرية: «تعال يا عزيزي لأقرأ حظك. من عينيك أرى»... هربت منها. لماذا؟ فأنا بنفسي كنت أعرف، أن سراً يقف على الأبواب. سر، سِريّة، تستّر... في المرة الأولى أخطأت الشقة، فتح الباب رجل في قميصه الداخلي وفي إبطه ميزان الحرارة، رآني مع الوردة فجمد: «شرمـ»... صعدت إلى الطابق التالي... ظهرت من خلال سلسلة السقاطة عجوز غريبة بقبعة صوفية: «لينا، لكِ». فيما بعد كانت تعزف لنا على البيانو، وتحدثنا عن المسرح. فنانة عجوز. كان يسكن الشقة قط أسود كبير، لم أرق له على الفور لسبب ما، في حين أنني بذلت جهدي كي أحوز على إعجابه... قط أسود كبير... في أثناء حدوث اللغز تكون كأنك غائباً. أتفهمين ما أقصده؟ وليس عليك أن تكون رائد فضاء أو أوليغارشياً أو بطلاً، ويمكنك أن تكون سعيداً، وأن تشعر بمشاعر السعادة كافة في شقة عادية من غرفتين، ثمانية وخمسين متراً مربعاً تحتوي حماماً بين الأشياء السوفييتية القديمة. الساعة الثانية عشر ليلاً، الساعة الثانية بعد منتصف الليل... عليّ أن أغادر، لكنني لا أفهم لماذا عليّ مغادرة هذا البيت! إن هذا أشبه ما يكون بالذكرى... أبحث عن الكلمات... وكأنني تذكرت كل شيء، بقيت طويلاً لا أتذكر أي شيء، والآن استعدت بذاكرتي كل شيء. لقد اندمجتُ، توحّدتُ. شيء ما شبيه بهذا... هكذا أعتقد... هكذا يشعر الإنسان الذي أمضى أياماً عديدة في الخلية. انكشف العالم بالنسبة إليه في التفاصيل اللانهائية. في الحدود.

أي أن اللغز يمكن أن يصبح في متناول اليد، كشيء مادي، كمزهرية على سبيل المثال، ولكن كي يفهم شيئاً ما عليه أن يشعر بالألم. وكيف يفهم إذا لم يكن يشعر بالألم؟ يجب أن يشعر بالألم، بالألم...

أول مرة شرح لي أصدقائي شيئاً ما عن المرأة عندما كان عمري سبع سنوات... هم أيضاً كانوا في السابعة. رسخت في ذاكرتي فرحتهم لأنهم يعرفون، وأنا لا أعرف، ها نحن الآن سنشرح لك كل شيء. وبدؤوا يرسمون بالعصي على الرمل.

إن المرأة هي شيء آخر، أحسست به في السابعة عشرة من عمري، ليس من خلال الكتب، بل عبر الجلد والجسد، أحسست بشيء مختلف تماماً عني، أحسست بفارق كبير، وعشت الصدمة لأنها شيء آخر. ثمة شيء ما في الداخل، مخفي في الوعاء الأنثوي، لا يمكنني الوصول إليه...

تصوري ثكنة الجنود... يوم الأحد... ليست هناك أية تدريبات. مئتا رجل يجلسون، وقد أخفوا أنفاسهم، يشاهدون التمارين الرياضية: على الشاشة فتيات في بذلات ضيقة... الرجال جالسون كأصنام من جزيرة مايا. إذا ما تعطّل التلفزيون، تحل الكارثة بالمذنب، يمكنهم أن يقتلوه. أتدركين؟ كل هذا عن الحب...

اليوم الثالث...

استيقظتَ باكراً، ولستَ مضطراً إلى الهروب مسرعاً إلى أي مكان، تتذكر، أنها موجودة، عثرت عليها. يفارقك الحنين... لم تعد وحيداً... تكتشف فجأة جسدك... يديك، شفتيك... تكتشف من خلف النافذة السماء والأشجار، ولسبب ما كل شيء قريب جداً، لقد اقتربت منك إلى درجة الازدحام. هكذا يحدث في الحلم... (وقفة). من إعلانات الجريدة المسائية عثرنا على شقة لا يمكن تخيلها في منطقة لا يمكن تخيلها. في

أطراف المدينة في الأبنية الحديثة. في الفناء، وفي أيام العطلات، يشْتُم الرجال الأمهات من الصباح حتى المساء، ويطرقون بأحجار الدومينو ويتراهنون باللعب بالورق على زجاجة فودكا. بعد عام ولدت عندنا ابنة... (وقفة). الآن سأتحدث عن الموت... البارحة المدينة كلها شيعت زميلي في الصف، الملازم في الشرطة... جلبوا الكفن من الشيشان، ولم يفتحوه أبداً، ولم يظهروه لأمه. ماذا جلبوا من هناك؟ الأسهم النارية وما شابه ذلك. المجد للأبطال! كنت هناك، وكان أبي معي... كانت عينا والدي تلمعان... أتفهمين ما أرويه؟ هذا الإنسان غير مستعد للسعادة، إنه مستعد للحرب، للبرد والزمهرير. ليس هناك من أشخاص سعداء باستثناء ابنتي بعمرها البالغ ثلاثة أشهر، أنا لم ألتقِ... لم ألتقِ شخصاً سعيداً. لا يجري إعداد الإنسان الروسي للسعادة. (وقفة). جميع الناس الطبيعيين ينقلون أولادهم إلى الخارج. رحل عدد كبير من أصدقائي... يتصلون بي هاتفياً من إسرائيل، من كندا... سابقاً لم أكن أفكر في الرحيل. يجب الرحيل... يجب الرحيل... ظهرت هذه الفكرة عندي، عند ولادة ابنتي. أريد أن أحمي من أحب. لن يسامحني أبي على هذا. أنا أعرف.

حديث روسي في شيكاغو

التقينا مرة أخرى في شيكاغو. الأسرة اعتادت أكثر على مكان الإقامة الجديد. اجتمعت صحبة روسية. مائدة روسية وحديث روسي حول الأسئلة الأبدية: ما العمل ومن المذنب، بالإضافة إلى سؤال آخر - الرحيل أو عدم الرحيل؟

- أنا هاجرت لأنني خفت... أية ثورة عندنا تنتهي بأن يبدؤون بنهب أحدهم الآخر تحت الضجيج وضرب اليهود على وجوههم. كانت تدور

في موسكو حرب حقيقية، كل يوم كانوا يفجرون، ويقتلون أحداً ما. كان من المستحيل في المساء الخروج إلى الشارع من دون كلب من سلالة قتالية. أنا اقتنيت هذا الكلب القتالي خصوصاً من نوع "بولترير".

- فتح غورباتشوف البوابة، فكسرناها. ماذا تركتُ هناك؟ شقة خروتشوفية خرائية قذرة. الأفضل أن أعمل خادمة براتب جيد من أن أعمل طبيبة براتب متشرد. جميعنا نشأنا وكبِرنا في الاتحاد السوفييتي: كنا نجمع في المدرسة الخردة المعدنية ونحب أغنية "يوم النصر". كنا نتربى على الحكايات العظيمة حول العدالة، وعلى أفلام الكرتون السوفييتية، حيث كل شيء واضح ومحدد: هنا الخير، وهناك الشر. عالم قويم مجهول. جدي استشهد بالقرب من ستالينغراد في سبيل الوطن السوفييتي، في سبيل الشيوعية. وأنا كنت أرغب في العيش في بلاد طبيعية عادية، بحيث تكون في بيتي ستائر، ووسائد، وبحيث يأتي زوجي إلى البيت ويرتدي البرنس المنزلي. ليس لديَّ إلا القليل من الروح الروسية. هاجرت إلى الولايات المتحدة. آكل الفراولة شتاء. والمرتديلا والسجق بالأكوام، ولا تعدُّ رمزاً لأي شيء.

- في التسعينيات كل شيء كان خيالياً ومرحاً... تنظر من النافذة - في كل زاوية مسيرة. ولكن سرعان ما غاب كل شيء خيالي ومرح. كنتم تريدون السوق الحرة - خذوها! أنا وزوجي مهندسان، وكان نصف سكان بلادنا مهندسين. لم يكونوا يحترموننا: «اذهب إلى مواقع الخردة». ونحن مَن صَنع البريسترويكا، ودَفن الشيوعية. لكننا أصبحنا فائضين عن الحاجة. الأفضل ألا أتذكر... ابنتي الصغيرة تطلب الطعام، تريد أن تأكل شيئاً، ولا شيء يُؤكل في البيت. في جميع أنحاء المدينة عُلقت إعلانات: اشترِ... اشترِ... اشترِ كيلوغرام من الطعام، ليس لحماً ولا جبناً، بل أي شيء يُؤكل. كنا نشعر بالسرور عند الحصول على كيلوغرام البطاطا، وفي السوق كانوا

يبيعون الكَسَب[1] كما في زمن الحرب. أطلقوا النار على زوج جارتنا في المدخل. كان يعمل في الكشك. بقي راقداً نصف يوم، مغطىً بجريدة. وبركة من الدماء. تفتح جهاز التلفزيون: هناك قتلوا أحد أصحاب البنوك، وهناك قتلوا رجل أعمال... وانتهت بحيازة عصابة من السارقين على كل شيء. قريباً سينطلق الشعب إلى ساحة روبلوفكا بالفؤوس...

– لن يحطموا روبلوفكا، بل علب الكرتون في الأسواق، التي يعيش فيها العمال النازحون. سيبدؤون بقتل الطاجيكيين والمولدافيين.

– لا يهمني أي شيء! وليفطس الجميع. سوف أعيش لنفسي...

– قررت الرحيل عندما عاد غورباتشوف من فوروس وقال إننا لن نتخلى عن الاشتراكية. في هذه الحالة، من دوني أنا! لا أريد العيش في ظل الاشتراكية. لقد كانت حياة بليدة باهتة. منذ الطفولة كنا نعرف أننا سنكون أطفال أكتوبر، طلائعيين، شبيبيين. راتبي الأول ستون روبلاً، ثم ثمانون، وبحلول نهاية الحياة مئة وعشرون... (تضحك). كانت تخيفنا مرشدة الصف في المدرسة: «إذا ما استمعتم إلى إذاعة "الحرية" لن تصبحوا شبيبيين أبداً. وماذا لو عرف أعداؤنا بذلك؟». المضحك للغاية، أنها هي أيضاً تعيش الآن في إسرائيل...

– في زمن مضى كنت ملتهبة بالفكرة، ولم أكن ضيقة الأفق. تتدفق الدموع... لجنة الدولة للطوارئ! كان منظر الدبابات في مركز مدينة موسكو يبدو وحشياً. والداي جاءا من البيت الريفي كي يجمعوا المواد الغذائية من باب الاحتياط في حالة اندلاع الحرب الأهلية. إنها العصابة! إنها الطغمة! كانوا يظنون، أنهم يدخلون الدبابات، ولا حاجة إلى عمل أي شيء. وأن الناس يريدون شيئاً واحداً، أن تظهر المواد الغذائية، وسيوافقون على كل شيء. خرج الشعب إلى الشارع... استيقظت البلاد... للحظة

(1) بذور القطن الجافة بعد عصرها – المترجم.

واحدة فقط، كانت ثانية واحدة... مِبيض هجين... (تضحك). أمي إنسانة طائشة، نزقة، لا تفكر في أي شيء. بعيدة كل البعد عن السياسة، تعيش وفق مبدأ: الحياة تمر، يجب أخذ كل ما يمكن أخذه الآن. امرأة شابة طيبة. حتى أنها ذهبت إلى البيت الأبيض مع المظلة على أهبة الاستعداد...

- ها ها ها... بدلاً من الحرية وزعوا علينا القسائم. هكذا تقاسموا الدولة العظمى: النفط، الغاز... لا أعرف كيف أعبر... لشخص ما كعكة، ولشخص آخر ثقب الكعكة. كان من الواجب استثمار هذه القسائم في أسهم المصانع والشركات، ولكن لم يتقن عمل ذلك إلا القليل. لم يعلمونا في ظل الاشتراكية تحصيل المال. أحضر أبي إلى البيت بعض الدعايات لـ"عقارات موسكو"، "استثمار النفط والألماس"، "نيكل نوريلسك"... كان يتناقش مع أمي في المطبخ، وانتهت بأن باعا كل شيء لشخص ما في المترو. اشتريا لي سترة جلدية دارجة. بكامل غلتهما. وفي هذه السترة قدمت إلى أمريكا.

- ولا تزال عندنا هذه النقود في البيت. سأبيعها بعد ثلاثين عاماً لمتحف من المتاحف...

- لا يمكنك أن تتصوري، كم أكره هذه البلاد... أكره عرض يوم النصر! أشعر بالتعب من هذه الأبنية الرمادية المسبقة الصنع ومن شرفاتها الممتلئة بالأوعية الزجاجية لمخلل البندورة والخيار... والأثاث القديم.

- بدأت حرب الشيشان... بعد عام كان على ابني الالتحاق بالجيش. عمال المناجم الجائعون جاؤوا إلى موسكو وأخذوا يطرقون بخوذاتهم في الساحة الحمراء. بالقرب من الكرملين. لم يكن مفهوماً إلى أين سينحدر كل شيء. الناس هناك رائعون، قيّمون، لكن الحياة مستحيلة. رحلنا من أجل أطفالنا، شكلنا هنا مدرج مطار من أجلهم. لكنهم نشأوا بعيدين جداً عنّا...

- الهجرة ظاهرة طبيعية، أصبح الإنسان الروسي يمكنه العيش حيث يريد، وحيث يروقه. بعضهم ينتقلون من إيركوتسك إلى موسكو، وآخرون من موسكو يسافرون إلى لندن. العالم كله تحول إلى خان...

- الوطنيّ الحقيقي لا يمكنه أن يتمنى لروسيا إلا الاحتلال. أن يحتلها أحد ما...

- عملت في الخارج وعدت إلى موسكو... كانت تتصارع في نفسي رغبتان: الأولى، كنت أود العيش في عالم أعرفه، بحيث يمكنني كما في شقتي أن أعثر على كل كتاب، بعينين مغلقتين، في رف الكتب؛ والثانية رغبتي في أن أطير إلى عالم بلا نهاية. هل أرحل أم أبقى؟ لم أستطع اتخاذ قرار. كان هذا في العام الخامس والتسعين... أسير، كما أذكر الآن، في شارع غوركي، وكانت أمامي امرأتان تتحدثان بصوت عال... ولا أفهم ما تقولانه... على الرغم من أنهما تتحدثان باللغة الروسية. ذُهلت! جمدت كالعمود... كلمات جديدة لا أعرفها والأهم: اللهجة. كثير من الكلمات العامية الجنوبية. وتعابير وجوه أخرى... غبت بضع سنوات فقط، وأصبحت كالغريبة. آنذاك كان الزمن يسير بسرعة خاطفة، كان يتسابق. كانت موسكو قذرة، تخلو من ألق العاصمة. أكوام القاذورات في كل مكان. قاذورات الحرية: علب البيرة الفارغة، لفائف لامعة، قشور البرتقال... الجميع يلوكون الموز. لم يعد لهذا وجود. فقد أصيبوا بالتخمة. وأدركت أن المدينة التي كنت أحبها كثيراً، والتي كنت أشعر فيها بالراحة والأناقة، لم يعد لها وجود. والموسكوفيون الحقيقيون إما جالسون في بيوتهم من الرعب وإما هاجروا. انحسرت موسكو القديمة. قدم سكّان آخرون. شعرت بالرغبة في أن أوضب حقيبتي وأهرب. لم أشعر بمثل هذا الخوف حتى في أيام انقلاب آب/ أغسطس. كنت آنذاك في نشوة! أنا وصديقتي، كنت أنقل في سيارتي "لادا" القديمة المنشورات إلى البيت

الأبيض، كنا نطبعها في معهدنا، كانت عندنا ناسخة. كنا نذهب إلى هناك، جيئة وإياباً إلى جانب الدبابات، وأذكر أنه كان يدهشني أنني رأيت بُقعاً عليها. بقع مربعة مثبتة بالبراغي...

جميع هذه السنوات التي عشتها في الخارج، كان يعيشها أصدقائي في نشوة كاملة: أُنجزت الثورة! سقطت الشيوعية! وكانت لدى الجميع ثقة لا أعرف مصدرها، أن كل شيء سيكون على ما يرام، لأن روسيا ممتلئة بالمتعلمين والمثقفين. بلاد من أغنى البلدان. بيد أن المكسيك أيضاً بلاد غنية... لا يمكنك شراء الديمقراطية بالنفط والغاز، ولن تستورد الديمقراطية كالموز والشوكولا السويسرية. ولن تحققها بمرسوم جمهوري... الديمقراطية تتطلب أناساً أحراراً، ولم يكن لهم وجود. وحتى الآن لا وجود لهم. في أوروبا كانوا يرعون الديمقراطية طيلة مئتي عام، كما يعتنون بالمروج والمسطحات الخضراء. أمي كانت تبكي وتقول: «أنت تقولين إن ستالين سيئ، لكننا انتصرنا معه. وأنت تريدين خيانة الوطن». زارني زميلي القديم. نشرب الشاي في المطبخ: «ماذا سيحدث؟ لن يكون شيء جيد إلى أن نقتل جميع الشيوعيين». الدم من جديد؟ بعد بضعة أيام تقدمت بوثائقي للسفر إلى الخارج...

– تطلقت من زوجي... طلبت النفقة، وهو لا يدفعها. ابنتي انتسبت إلى معهد عال تجاري، كان المال ينقصها. كان لدى صديقتي صديق أمريكي، بدأ بتأسيس تجارة له في روسيا. كان في حاجة إلى سكرتيرة، وكان يريد العثور على إنسانة أمينة وليس على عارضة أزياء. فنصحته صديقتي بأن يختارني. كان يهتم كثيراً بحياتنا، لكنه كان لا يفهم الكثير فيها. كان يطرح عليَّ أسئلته: لماذا يرتدي جميع رجال الأعمال الروس أحذية لمّاعة؟، ماذا تعني "أعطني في كفيّ" و"عندنا كل شيء مسدد ومدفوع ومرشوش"؟ لكن خطته كانت كبيرة: روسيا سوق كبير هائل! وقد أفلسوها ونهبوها بطريقة

مبتذلة. بأسلوب مبسط مبتذل. كانت الكلمة تعني له الشيء الكثير. قيل له فصدّق ووثق. فقد كثيراً من المال وقرر الرحيل إلى بلاده. دعاني قبل سفره إلى المطعم، كنت أظن أنه سيودع أحدنا الآخر وينتهي كل شيء. بيد أنه رفع قدحه قائلاً: «تعالي نشرب، أتعرفين أي نخب؟ لم أجمع المال هنا، ولكن بالمقابل عثرت على زوجة روسية جيدة». وها نحن معاً سبع سنوات...

- سابقاً كنا نعيش في بروكلين... ممتلئة بالمتحدثين باللغة الروسية والمحلات التجارية الروسية. في أمريكا، يمكن للإنسان أن يولد على يد قابلة روسية، وأن يدرس في مدرسة روسية، ويعمل لدى رجل أعمال روسي، ويذهب للاعتراف عند كاهن روسي... المرتديلا على طاولات المحلات التجارية: "يلتسينية"، "ستالينية"، "ميكويانية"... ودهن الخنزير مع الشوكولا... كبار السن على المقاعد في الحدائق يلعبون في الدومينو وبأوراق اللعب. ويديرون مناقشات بلا نهاية حول غورباتشوف ويلتسين. وهناك بينهم مؤيدون لستالين ومعادون له. تمشي على مقربة منهم وتسترق السمع: «هل كنا في حاجة إلى ستالين؟». «نعم، كنا في حاجة إليه». وأنا منذ أن كنت صغيرة، عرفت كل شيء عن ستالين. كان عمري خمس سنوات... نقف أنا وأمي على موقف الباص، كما أتذكر الآن، غير بعيد عن بناء فرع المخابرات السوفييتية "ك.ج. ب"، أنا أتقلب تارة وأصرخ بصوت عال تارة أخرى. فترجوني أمي: «لا تبكِ، وإلا سيسمعنا الناس السيئون الذين أخذوا جدنا وكثيراً من الناس الطيبين الآخرين». وبدأت تحدثني عن جدي... أمي في حاجة إلى من تتحدث معه... عندما مات ستالين، أرغمونا جميعاً في روضة الأطفال على الجلوس والبكاء. عاد جدي من معسكر الاعتقال وجثا على ركبتيه أمام جدتي، حيث كانت طيلة فترة اعتقاله تلتمس له وتسعى من أجله...

- والآن ظهر في أمريكا أيضاً عدد كبير من الشباب الروس، الذين يرتدون تي شيرت عليها صورة ستالين. وعلى غطاء محركات سياراتهم يرسمون المنجل والمطرقة. إنهم يكرهون الزنوج...

- ونحن من مدينة خاركوف... كانت أمريكا تبدو لنا من هناك جنّة. بلاد السعادة. الانطباع الأول عند وصولنا: إننا نحن بدأنا ببناء الشيوعية، لكن الأمريكيين هم من أنجزوا بناءها. قادتنا فتاة من معارفنا إلى سوق البيع بالأسعار المخفضة، لم يكن لدى زوجي سوى بنطال جينز واحد، وكنت أنا في حاجة إلى تغيير ما ألبسه. نظرت: التنورة بثلاثة دولارات، وبنطلون الجينز بخمسة... أسعار مضحكة! رائحة البيتزا... والقهوة الجيدة. في المساء فتحت وزوجي زجاجة مارتيني ودخنّا سجائر "مارلبورو". تحقق حلمنا! ولكن اضطررنا إلى البدء من الصفر في الأربعين من العمر. هنا، عليك أن تنزلي فوراً درجتين أو ثلاثة إلى الأسفل، وتنسي أنك مخرجة سينمائية وممثلة، أو أنك تخرجتِ من جامعة موسكو... في البداية عملت ممرضة في المستشفى: أحمل الـ"نونيات"، أمسح الأرض. لم أحتمل. أصبحت آخذ كلبيْ عجوزين للنزهة. عملت أمينة صندوق في سوبرماركت... كان يوم التاسع من أيار/ مايو أعز عيد إلى قلبي. تذكرت أن أبي وصل إلى برلين... قالت لي كبيرة أمناء الصندوق: «نحن انتصرنا، وأنتم الروس أحسنتم. فقد ساعدتمونا». هكذا يعلمونهم في المدرسة. كدت أن أقع من على الكرسي! ماذا يعرفون عن روسيا؟ الروس يشربون الفودكا بالكاسات، وعندهم ثلج كثير...

- ذهبنا لشراء المرتديلا، فعرفنا أن المرتديلا ليست رخيصة جداً، كما كنا نظن...

- من روسيا تهرب الأدمغة وتفد الأيدي العاملة... العمال الأجانب... كتبت أمي تقول إن البواب الطاجيكي في بنائهم جلب أسرته كلها إلى

موسكو. وأصبحت أسرته تعمل تحت إمرته وهو رب العمل. يوجه ويأمر. زوجته تسير حاملاً طيلة الوقت. يذبحون الخروف في أعيادهم في فناء المنزل، أمام نوافذ الموسكوفيين. ويشوون الشاشليك...

- أنا إنسان عقلاني. وجميع العواطف بخصوص لغة جداتنا وأجدادنا مجرد انفعالات. حظرت على نفسي قراءة الكتب الروسية، ومتابعة برامج الإنترنت الروسية. أريد أن أستخرج من نفسي كل ما هو روسي. وأن أتخلص من كوني روسياً...

- زوجي أراد كثيراً أن نرحل... أحضرنا معنا عشرة صناديق من الكتب الروسية، كي لا ينسى أطفالنا لغتهم الأم. في الجمارك بموسكو فتحوا جميع الصناديق، كانوا يفتشون عن التحف الأثرية، وكنا نحمل مؤلفات بوشكين، غوغول... ضحك رجال الجمارك طويلاً... وأنا حتى الآن أفتح على إذاعة "مایاك" الروسية وأستمع إلى الأغاني الروسية...

- روسيا، بلادي روسيا... بطرس الأكبر المحبوب! كم أرغب في العودة! أبكي في الوقت الحالي... عاشت الشيوعية! العودة إلى الديار! وطعم البطاطا هنا قميء جداً. أما الشوكولا الروسية فهي ممتازة!

- وهل يروق لك شراء الكلاسين الداخلية بالقسائم، كما في السابق؟ أنا أتذكر كيف كنت أدرس الشيوعية العلمية وكيف قدمت الامتحان بها...

- أشجار البتولا الروسية... البتولا فيما بعد...

- ابن أختي... لغته الإنكليزية رائعة. يتقن العمل على الكومبيوتر. عاش في أمريكا سنة وعاد إلى الديار. يقول إن الحياة الآن في روسيا أشد متعة...

- وأنا أقول... كثيرون الآن هناك يعيشون حياة لائقة: العمل، البيت،

السيارة. كل شيء متوفر عندهم ومع ذلك فهم يخافون ويريدون الهجرة. فالبزنس قد يُصادر، وسيعتقلونهم في السجن دون سبب... أو يجعلونك مُقعداً في مدخل بيتك... لا أحد يعيش حسب القانون، لا في الأعلى ولا في الأسفل...

- روسيا مع أبراموفيتش وديريباسكا... ومع لوجكوف[1]... هل هذه روسيا؟ إنها سفينة تغرق...

- أيها الشباب، علينا أن نعيش في غوا... ونجمع المال في روسيا...

أخرج إلى الشرفة. فهنا يدخنون ويتابعون الحديث نفسه: من يرحل الآن من روسيا: الأذكياء أم الأغبياء؟ لم أصدق مباشرة، عندما سمعت، كيف أنشد أحدهم من وراء المائدة "أمسيات ضواحي موسكو" - أغنيتنا السوفييتية المفضلة: لا يُسمع في الحديقة حتى حفيف أوراق الشجر/ كل شيء تجمد هنا حتى الصباح/ لو عرفتم كم هي عزيزة إلى قلبي/ أمسيات ضواحي موسكو... أعود إلى الغرفة - وجدت الجميع يغنون. وأنا شاركتهم الغناء.

---

(1) أبراموفيتش، و ديريباسكا من كبار الأثرياء الروس الجدد، أصحاب المليارات، هاجرا إلى الغرب بعد جمعهما ثروات طائلة في روسيا.
- لوجكوف: محافظ موسكو لأكثر من عشر سنوات جمع ثروة طائلة بطرق غير مشروعة - المترجم.

عن مصيبة الغير التي وضعها الله في عتبة بيتك

رَوْشان... – عامل مهاجر، 27 عاماً

غافّار جورايفا – رئيسة صندوق طاجيكستان في موسكو

الإنسان بلا وطن – كالبلبل بلا حديقة.

عن الموت أعرف الكثير. سأفقد عقلي ذات يوم من كل ما أعرفه...

– الجسد كأس للروح. بيتها. حسب التقاليد الإسلامية، يجب دفن الجسد بأسرع وقت ممكن، والأفضل في اليوم نفسه، عندما يأخذ الله أمانته. في بيت المتوفّى تُعلّق على مسمار قطعة من القماش الأبيض. وتبقى معلقة أربعين يوماً. تطير الروح ليلاً وتحط على هذه القطعة. تسمع أصوات الأهل. وتفرح. وتطير لتعود من حيث أتت.

روشان... أذكره جيداً... قصة عادية... لم يعطوه أجرته طيلة نصف عام، وعنده أربعة أطفال بقوا في مدينة بامير، وأُصيب الأب بمرض خطير. جاء إلى مكتب شركة البناء، وطلب دفعة على الحساب فرُفض طلبه. تلك كانت النقطة الأخيرة. خرج إلى الرواق وقَطَع حنجرته بالسكين. اتصلوا بي... جئت إلى المشرحة... هذا الوجه الجميل المؤثر... من المستحيل نسيانه. وجهه... جمعنا المال. لا يزال بالنسبة إليَّ لغزاً، كيف تحدث هذه الآلية الداخلية: لا يوجد قرش واحد لدى أي كان، ولكن إذا مات إنسان، يجمعون المبلغ اللازم في لحظات، يقدمون آخر ما لديهم كي يُدفن في

بلده، ويرقد على أرضه. ولا يبقى في الغربة. ولو كانت ورقة المئة روبل الوحيدة في الجيب يعطونها دون تردد. تقول إن عليك أن تسافر إلى بلدك فلا يعطوك، إن طفلك مريض، لا يعطوك، أما في حالة الموت فيعطونك حالاً. جاؤوا ووضعوا لي على الطاولة كيس السلوفان الذي يحوي مئات الروبلات. ذهبت معهم إلى مكتب شركة الأيروفلوت. إلى المدير. روحه بذاتها تطير إلى السماء، وإرسال الكفن بالطائرة باهظ جداً.

تأخذ ورقة من الطاولة وتقرأ.

يدخل رجال الشرطة إلى الشقة التي كان يعيش فيها العمال المهاجرون، امرأة حامل وزوجها، أمام عيني زوجته، بدؤوا يضربونه لأنهم لم يسجلوا في قسم الشرطة. بدأت الزوجة تنزف دماً، فماتت ومات حملها الذي لم يولد...

في ضاحية موسكو فُقد ثلاثة أشخاص، أخان وأخت... طلب أهلهم الذين جاؤوا من طاجيكستان مساعدتنا. اتصلنا بالمخبز، حيث كانوا يعملون. في المرة الأولى أجابوا: «لا نعرف هؤلاء». في المرة الثانية أمسك سماعة الهاتف صاحب المخبز نفسه: «نعم، كان يعمل عندي طاجيكيون. سددت لهم أجورهم عن ثلاثة أشهر، وغادروا في اليوم نفسه. لا أعرف إلى أين». عندئذ، توجهنا إلى الشرطة. عثروا على الثلاثة مقتولين بالمجرفة ومدفونين في الغابة. بدأ صاحب المخبز يتصل ويهدد: «لدي جماعتي. وسأدفُنِك أيضاً».

نَقلوا شابين طاجيكيين من ورشة البناء على سيارة الإسعاف السريع إلى المستشفى... بقيا طيلة الليل ممددين في مكتب القبول البارد، ولم يقترب منهم أحد. لم يخفِ الأطباء مشاعرهم: «ما لهؤلاء السود جاؤوا إلى هنا؟».

رجال القوات الخاصة أخرجوا ليلاً من القبو خمسة عشر بواباً

طاجيكياً، وضعوهم على الثلج وبدؤوا يضربونهم. يدعسون على أجسادهم بأحذيتهم المحدّدة. مات صبي في الخامسة عشرة من عمره...

استلمت أمٌّ ابنها الميت من روسيا. من دون أحشاء داخلية... في سوق موسكو السوداء يمكن شراء كل شيء من أعضاء الإنسان وأجهزته الداخلية: كليتان، كبد، حدقات، صمامات القلب، جلد...

هؤلاء إخوتي وأخواتي... أنا أيضاً ولدت في بامير. جبلية. الأرض عندنا تعادل وزنها ذهباً، يزينون القمح بالقلنسوات وليس بالأكياس. حيثما نظرتِ جبال شاهقة تتضاءل أمامها أية معجزة صنعها الإنسان وتبدو كلعبة أطفال. تعيشين هناك، قدماك على الأرض ورأسك بين الغيوم. أنتِ في مكان شاهق جداً، وكأنك لست في هذا العالم. أما البحر فهو شيء آخر، البحر يجذبك إلى نفسه، أما الجبال فتقدم لك الإحساس بالحماية، إنها تحميك. وكأنها الجدران الثانية للبيت. الطاجيك شعب غير محارب، عندما كان يغزو بلادهم عدو كانوا يصعدون إلى الجبال... (تصمت). أغنيتي الطاجيكية المفضلة هي أغنية البكاء على أرض البلاد التي تركتها. دائماً أبكي عندما أسمعها... أكبر مصيبة بالنسبة إلى الطاجيكي هي مغادرته لوطنه والعيش بعيداً عنه. الإنسان بلا وطن كالبلبل من دون حديقة. إنني أعيش منذ سنوات طويلة في موسكو، لكنني دوماً أحيط نفسي بما كان موجوداً في بيتي: أرى في مجلة جبالاً، فأقص الصورة وألصقها على خزانة الحائط، والشي نفسه أفعله عندما أرى صورة المشمش المزهر والقطن الأبيض. وكثيراً ما أرى في الحلم أنني أجمع القطن... أفتح علبة حادة الزوايا، وفي داخلها حجر أبيض، كالقطن، خفيفة الوزن، فلا بد من صقل حوافها الحادة كي لا تخدش اليدين. أستيقظ صباحاً متعبة... أبحث في أسواق موسكو عن التفاح الطاجيكي، فهو أكثر التفاح حلاوة، وكذلك العنب الطاجيكي فهو أشد حلاوة من بلورات السكر. أما في طفولتي فكنت

أحلم بأن أرى الغابة الروسية يوماً ما، والفطر... وأذهب لأرى جامعيه. أما القسم الثاني من روحي: فهو العزبة، والفرن، والفطائر (تصمت). أنا أحدثك عن حياتنا... وحياة إخوتي... فهم بالنسبة إليكم متشابهون: بوجوه سوداء الشعر، غير مغتسلين، ومعادين. من عالم غير مفهوم. إنها مصيبة الغير التي وضعها الله على عتبة بيتك. وهم لا يشعرون أنهم جاؤوا إلى أناس غرباء، لأن آباءهم ولدوا في الاتحاد السوفييتي وكانت موسكو عاصمة الجميع، وقد أعطوهم هنا العمل والمأوى. يقال في الشرق: لا تبصق في البئر الذي تشرب منه. في المدرسة جميع الفتيان الطاجيك يحلمون بالسفر للعمل في روسيا... وكي يشتروا تذاكر السفر يقترضون المال من القرية كلها. يسألهم رجال الجمارك الروس على الحدود: «إلى مَنْ أنت ذاهب؟». يجيبون: «إلى نينا»... فجميع النساء الروسيات بالنسبة إليهم هنَّ نينا... الآن لا يتعلمون اللغة الروسية في المدارس. وكل واحد منهم يحضر معه سجادة الصلاة...

نحن نتحدث في مركز صندوق طاجيكستان. هنا توجد عدة غرف صغيرة، ولا تتوقف أجهزة الهاتف عن الرنين.

في الأمس أنقذتُ فتاة... فقد تمكنتْ من الاتصال بي من السيارة التي كان رجال الشرطة ينقلونها فيها إلى الغابة، اتصلتْ وهي تقول همساً: «أمسكوا بي في الشارع، ينقلونني خارج المدينة. جميعهم سكارى». وذكرت لي رقم السيارة... وبسبب سكرهم نسوا أن يفتشوها ويصادروا منها الهاتف الجوال. كانت الفتاة لتوها وصلت من دوشانبيه... فتاة جميلة... أنا امرأة شرقية، منذ أن كنت صغيرة، كانت جدتي وأمي تعلمانني كيف يجب الحديث مع الرجال. تقول جدتي: «النار لا تُغلب بالنار، بل بالحكمة وحدها». اتصلتُ بمخفر شرطة المنطقة: «اسمع، يا عزيزي، يحدث شيء غريب: شبابكم أمسكوا بفتاة من عندنا، وينقلونها

إلى مكان مجهول، وهم سكارى. اتصلْ بهم، كي لا يرتكبوا إثماً. نعرف رقم السيارة». من السماعة الأخرى كان يتردد سيل من الشتائم: هؤلاء "الدواب"، هؤلاء القرود "السوداء"، الذين نزلوا بالأمس من على الشجرة، بحق أي شيطان تهدري وقتك معهم. «عزيزي، اسمعني، أنا مثلهم "قرد أسود"... أنا مثل أمك»... صمت! على السماعة إنسان أيضاً... دوماً لدي أمل بهذا... وبدأنا نتحدث بصورة إنسانية. بعد خمس عشرة دقيقة دارت السيارة باتجاهنا... أعادوا الفتاة إلى مكانها السابق... كان من الممكن أن يغتصبوها، وأن يقتلوها. غير مرة كنت أجمع في الغابة بقايا أشلاء هؤلاء الفتيات... أتعرفين من أنا؟ أنا أعمل خيميائية... عندنا صندوق اجتماعي - ليس لدينا مال، وليست لدينا سلطة، لدينا فقط أناس طيبون يساعدوننا. ونحن نساعد وننقذ الضعفاء. ونحصل على النتيجة المرجوة من لا شيء: من أعصابنا، ومن حدسنا، ومن تملقنا الشرقي، من الشفقة الروسية، من تلك الكلمات البسيطة مثل "عزيزي"، "رجلي الطيب"، "كنت أعرف أنك رجل حقيقي، أنت بالتأكيد ستساعد امرأة". أخاطب الساديين من أصحاب الرتب العسكرية؛ أنا أثق بكم. أثق بأنكم بشر حقيقيون. أجريت حواراً طويلاً مع جنرال من الشرطة... لم يكن أحمق، ولا عسكرياً جلفاً، بل كان رجلاً مثقفاً. قلت له: «أنت تعرف أنه يعمل عندك شرطي هو رجل جستابو حقيقي. إنه محترف في التعذيب، يخافه الجميع. إنه يجعل من المشردين والعمال المهاجرين الذين يقعون بين يديه مقعدين». كنت أظن أنه سيرتعب أو يخاف، وأنه سيدافع عن بذلة شرطيّه. نظر إليَّ بابتسامة: «أعطني اسمه. يا له من شاب شجاع! نحن سنرقيه، سنعطيه مكافأة. مثل هذا الكادر يجب المحافظة عليه. سأصرف له مكافأة». شعرت بأنني تخدرت. وتابع قائلاً: «أعترف لك بصراحة... نحن نهيِّئ لكم خصوصاً تلك الشروط التي لا يمكن

احتمالها، كي ترحلوا بأسرع وقت ممكن. يوجد في موسكو مليونان من العاملين المهاجرين، لا يمكن لهذه المدينة أن تستوعب مثل هذه الكمية من العمال الذين هبطوا فجأة على رؤوسنا. أعدادكم كبيرة جداً». (تصمت).

موسكو جميلة... كنت أَسير معكِ في موسكو، وأنت تبدين إعجابك باستمرار: «لم أصبحت موسكو جميلة؟ إنها أصبحت عاصمة أوروبية!». لكنني لا أشعر بهذا الجمال. أنا أسير في الشارع، وأنظر إلى الأبنية الجديدة وأتذكر: هنا قُتل طاجيكيان، سقطا من الغابة... وهنا أغرقوا واحداً في الإسمنت... أذكر لقاء أية مبالغ زهيدة يكدحون. الجميع يضغطون عليهم: الموظفون، رجال الشرطة، أصحاب الشقق التعاونية... البواب الطاجيكي يوقع في الأوراق الرسمية أن راتبه الشهري ثلاثون ألف روبل، ولا يصله منها إلا سبعة آلاف، والباقي يأخذونه، يتقاسمه فيما بينهم رؤساء أقسام مختلفون... رؤساء الرؤساء... القوانين لا تُطبق، وبدلاً من القوانين يسيطر المال والقوة. الإنسان الصغير ضعيف محروم من الحقوق، إنه كالحيوان البري في الغابة، وحتى الحيوان محميٌّ أكثر منه. الوحوش والحيوانات عندكم تحميها الغابة، وعندنا تحميها الجبال... (تصمت). أنا عشت القسم الأكبر من حياتي في ظل الاشتراكية، والآن أتذكر، كيف كنا نضفي الصفات المثالية على الإنسان، وأنا كنت دوماً أحسن الظن بالإنسان. في عاصمتنا دوشانبيه، كنت أعمل في أكاديمية العلوم. وكنت أهتم بتاريخ الفن. كنت أعتقد، أن الكتب، ما كتبه الإنسان عن نفسه، هو حقيقة... لا، إنه جزء صغير من الحقيقة... أنا لم أعد مثالية منذ زمن طويل، أنا أعرف الآن الكثير... تتردد عليّ غالباً فتاة، إنها مريضة... إنها عازفة كمان شهيرة عندنا. لماذا جُنّت وفقدت عقلها؟ ربما لأنهم كانوا يقولون لها: «أنت تعزفين على الكمان؟ وما حاجتك إليه؟ تعرفين لغتين؟ ولماذا؟ عملك هو

التنظيف والتكنيس. أنت هنا عبدة». لم تعد هذه الفتاة تعزف على الكمان. نسيتْ كل شيء.

كان عندي أيضاً شاب طاجيكي... أمسك به رجال الشرطة في ضاحية من ضواحي موسكو، أخذوا ما لديه من مال، ولكن لم يكن لديه سوى مبلغ بسيط. فغضبوا. واقتادوه إلى الغابة. ضربوه. الطقس شتاء. الصقيع. نزعوا كامل لباسه وأبقوه بالكلسون الداخلي... ها- ها - ها... مزقوا جميع وثائقه الشخصية... وحدثني عن كل شيء. أسأله: «وكيف أنقذت نفسك؟». «كنت أظن أنني سأموت، ركضت حافي القدمين على الثلج. وفجأة، وكما في الحكاية، رأيت عزبة. طرقت على النافذة، فخرج رجل مسن. وأعطاني هذا المسن سترة من الصوف كي أشعر بالدفء، وسكب لي كأساً من الشاي وقدم المربى. ثم أعطاني ثياباً. وفي اليوم التالي اقتادني إلى قرية كبيرة وعثر على شاحنة نقلتني إلى موسكو».

هذا الرجل العجوز... هو أيضاً يمثل روسيا...

استدعوها من الغرفة المجاورة: «غافار كانديولفنا، جاؤوا لعندك». خرجتْ. أنا أنتظر عودتها. لدي من الوقت ما يكفي- وأتذكر ما كنت قد سمعته في شقق موسكو.

في شقق موسكو

- لقد توافدوا إلى هنا... الروح الروسية الطيبة...

- الشعب الروسي ليس طيباً أبداً. هذا خطأ كبير. إنه رؤوف، عاطفي، لكنه ليس طيباً. ذبحوا كلباً وصوروه على شريط فيديو. ثار جميع ناشطي الإنترنت. كانوا مستعدين لإعدامهم من غير محاكمة. ولكن احترق سبعة عشر عاملاً مهاجراً في السوق، أغلق عليهم رب العمل عربة قطار حديدية

بالمفتاح، مع البضاعة، ولم يدافع عنهم سوى ناشط في حقوق الإنسان. ومن الواجب الدفاع عنهم جميعاً بحسب طبيعة عملهم. كان الرأي العام على النحو التالي: هؤلاء ماتوا، سيأتي غيرهم. إنهم بلا وجوه، بلا ألسنة... غرباء...

- إنهم عبيد. عبيد معاصرون. وكل ما يملكونه عضوهم التناسلي وأحذيتهم. ووضعهم في وطنهم أسوأ من أحقر قبو في موسكو.

- ظهر دب في موسكو وأمضى فيها فصل الشتاء. كان يقتات بالعمال المهاجرين. من يحصيهم... ها- ها- ها...

- كنا نعيش في أسرة موحدة قبل انهيار الاتحاد السوفييتي... هكذا كانوا يعلموننا في دروس التوجيه السياسي... عندها كانوا "ضيوف العاصمة"، والآن هم "دواب" و"زبالة". جدي كان يروي لي، كيف كان يحارب في ستالينيغراد مع الأوزبكيين. كانوا يؤمنون: إخوةٌ إلى الأبد!

- أنتِ تدهشينني... هم الذين انفصلوا عن روسيا. أرادوا الحرية. نسيتِ؟ تذكري، كيف كانوا يذبحون الروس في التسعينيات، وينهبونهم، ويغتصبونهم. طرودهم من كل مكان. في منتصف الليل يطرقون الأبواب... يقتحمون البيوت، منهم من يحمل السكين، ومن يحمل الرشاش: «ارحل من أرضنا، أيها المخلوق الروسي!». يمنحونهم خمس دقائق للاجتماع... وينقلونهم مجاناً إلى أقرب محطة. كان الناس الروس يخرجون من شققهم بشحاطاتهم المنزلية... هكذا كان...

- نحن نتذكر المذلة التي تعرض لها إخوتنا وأخواتنا! الموت للدواب! من الصعب إيقاظ الدب الروسي، لكنه ما إن ينهض سيسفك كثيراً من الدماء.

- ضربوا القوقاز بأخمص البندقية الروسي. والآن، من هو التالي؟

- أكره حالقي الرؤوس النازيين! فهم قادرون على شيء واحد: ضربوا البواب الطاجيكي الذي لم يفعل لهم أي شيء بمضارب البيسبول أو بالمطارق حتى الموت. يصرخون في المسيرات والمظاهرات: «روسيا للروس، وموسكو للموسكوفيين». أمي أوكرانية، أبي مولدافاني، جدتي والدة أمي روسية. فمن أنا؟ حسب أي مبدأ ينوون "تطهير" روسيا من غير الروس؟

- ثلاثة طاجيكيين يحلّون محل الشاحنة القلاّبة. ها- ها- ها...

- أنا أشتاق إلى مدينة دوشانبيه. هناك نشأت. وتعلمت اللغة الفارسية. لغة الشعراء.

- إذا ما سرتِ في شوارعِ المدينة بيافطة كتب عليها "أحب الطاجيكيين"، فسيشبعونك ضرباً على وجهك!

- على مقربة منا ورشة بناء. "الدواب" الطاجيك يركضون كالفئران. وبسببهم من المرعب الدخول إلى المخزن التجاري. فقد يقتلونكِ من أجل هاتف جوال رخيص...

- آه... آه! سرقني الروس مرتين، كادوا أن يقتلوني في مدخل بيتي، الروس. كم سئمت من هذا الشعب الذي يحمل راية الإله!

- وهل تقبلين أن تتزوج ابنتكِ من مهاجر؟

- هذه مدينتي، مسقط رأسي. عاصمتي. أما هم فقد جاؤوا إلى هنا بشريعتهم. في عيد الأضحى يذبحون الخراف تحت نافذتي. فلماذا لا يذبحونها في الساحة الحمراء؟ ثغاء الخراف البائسة، الدم يتدفق... تخرج من بيتك إلى المدينة: هنا... وهناك... برك الدم الحمراء على الإسفلت... أسير مع طفلي: «ماما، ما هذا؟». في هذا اليوم تصبح المدينة "سوداء". وكأنها ليست مدينتنا. إنهم ينبعون من الأقبية بمئات الألوف... رجال الشرطة يحتمون بالحائط من الخوف...

- لي صديق طاجيكي، اسمه سعيد. جميل كالإله! كان في مدينته طبيباً، وهو هنا يعمل في ورشة البناء. غارقة في حبه حتى الأذنين. فما العمل؟ عندما نلتقي نتنزه سوية في الحدائق العامة أو نذهب إلى ضاحية ما من ضواحي المدينة كي لا يراه أحد من معارفي. أخاف من والديّ. حذّرني والدي: «إذا ما رأيتك مع "العبد الأسود" سأطلق النار عليكما معاً». إنه موسيقي... تخرّج من الكونسرفاتوار...

- إذا ما سار "عبد أسود" مع فتاة... روسية! يجب خصي أمثاله.

- لماذا يكرهونهم؟ لأعينهم البنيّة اللون، لِشكل أنوفهم. إنهم يكرهونهم ببساطة. عندنا كل شخص لا بد من أن يكره أحداً: الجيران، الشرطة، الأوليغارشيين... اليانكي الحمقاء... أياً كان! ثمة كراهية شديدة في الجو... لا يمكنك أن تمس إنساناً...

تمرّد الشعب الذي رأيته زرع الخوف في نفسي طيلة عمري.

إنه وقت الغداء. أشرب القهوة مع غافار بأكواب طاجيكية ونتابع حديثنا.

- يوماً ما سأفقد عقلي لأنني أذكر كل شيء...

العام الثاني والتسعون... بدلاً من الحرية التي كان الجميع ينتظرها بدأت الحرب الأهلية. أبناء مدينة كولياب يقتلون أبناء مدينة بامير، وأبناء بامير يقتلون أبناء كولياب... الكاراتيون، الغيساريون، الغارميون، كلهم توزعوا وتشتتوا. علقوا يافطات على الجدران: "أيها الروس، ارحلوا من طاجيكستان!"، "أيها الشيوعيون، ارحلوا إلى موسكو!" هذه لم تعد مدينة دوشانبيه التي أحبها... في شوارع المدينة كانت حشود تسير حاملة أدواتٍ وأحجاراً بأيديهم... الناس المسالمون المدنيون تحولوا إلى قتلة. في الأمس فقط كانوا مختلفين، يشربون الشاي بهدوء في

الشايخانات[1]، واليوم يسيرون بقضبان حديدية يبقرون بطون النساء... يكسرون المحلات التجارية والأكشاك. كنت في البازار... على أشجار الأكاسيا كانت القبعات والفساتين معلقة، وعلى الأرض يرقد القتلى: أناس وحيوانات... (تصمت). أذكر... صباحاً جميلاً. لفترة قصيرة نسيت الحرب. بدا لي أن كل شيء سيعود إلى سابق عهده. أشجار التفاح والمشمش تُزهر... لا وجود لأي حرب. فتحت النوافذ ورأيت على الفور حشداً أسود. كانوا يسيرون صامتين. فجأة التفت أحدهم، والتقت نظرتي بنظرته... يبدو أنه بائس فقير، كانت نظرة هذا الشاب تقول لي: الآن يمكنني أن أدخل إلى بيتك الجميل، وأفعل كل ما أريد، إنها ساعتي... هذا ما قالته لي عيناه... شعرت بالرعب... ابتعدت عن النافذة، وأغلقت الستارة الأولى والثانية، وركضت وأغلقت الباب بجميع الأقفال، واختفيت في أبعد غرفة. كانت عيناه تشعان بالحماس... كان في الحشد شيء ما ستاليني. أخاف من أن أتذكر هذا... (تبكي).

كنت قد رأيت كيف قتلوا في الفناء صبياً روسياً. لم يخرج أحد، جميع الجيران أغلقوا نوافذهم، خرجتُ في برنس الحمام: «اتركوه! لقد قتلتموه!». كان راقداً دون أية حركة... ذهبوا. لكنهم سرعان ما عادوا وأخذوا يضربونه، إنهم صبية في مثل سنه. كانوا صبية... نعم كانوا صبية... اتصلت بالشرطة، جاء رجال الشرطة نظروا إلى من يضربونه، وغادروا. (تصمت). منذ فترة قصيرة، عندما سمعت في موسكو مع جماعة: «أنا أحب دوشانبيه. كانت مدينة ممتعة للغاية! إنني في شوق إلى هذه المدينة». كم كنت شاكرة لهذا الرجل الروسي! لا شيء ينقذنا سوى الحب. إن الله لا يصغي إلى المصليّ الشرير. يقول لنا الله: لا تفتحوا الباب الذي لن تستطيعوا إغلاقه... (وقفة). قتلوا أحد أصدقائنا... كان شاعراً.

---

(1) المقاهي.

الطاجيكيون يحبون الشعر، في كل بيت تجدين دواوين الشعر، ديواناً أو اثنين على الأقل. الشاعر عندنا هو رجل مقدس. لا يصح المساس به. لقد قتلوه! وقبل أن يقتلوه كسروا له يديه... لأنه كان يكتب... بعد فترة قصيرة قتلوا صديقاً ثانياً لنا... لم يكن هناك أية آثار للقتل على جسده، كان جسده سليماً، وكانوا يضربونه على فمه... لأنه كان يتكلم... إنه الربيع، الجو مشمس ودافئ، والناس يقتل أحدهم الآخر... كان بودي أن أرحل إلى الجبال!

الجميع كانوا يرحلون إلى أماكن مختلفة. كان أصدقاؤنا يعيشون في أمريكا. في سان فرانسيسكو. أرسلوا لنا دعوة. استأجرنا هناك شقة صغيرة. يا للجمال! المحيط الهادي... حيثما توجهتِ تجدينه من حولك. كنت أجلس أياماً طويلة وأبكي، لم يكن في استطاعتي عمل أي شيء. أنا جئت من جبهة حرب، حيث يمكن أن يُقتل إنسان من أجل كيس حليب... يمشي على طول الشاطئ رجل عجوز بسروال مكفوف القدمين، وتي شيرت ساطعة. توقف بالقرب مني: «ما الذي حدث معك؟». «في وطني حرب. الأخ يقتل أخاه». «ابقَي هنا». كان يقول إن المحيط والجمال يعالجان... بقي يطمئنني طويلاً. وأنا كنت أبكي. كانت استجابتي لكلماته الطيبة واحدة: دموعي كانت تسيل كالينابيع. كنت أبكي من كلماته الطيبة أكثر من بكائي في وطني من أصوات الرصاص، ومن الدم.

لكنني لم أستطع العيش في أمريكا. كنت أتطلع للذهاب إلى دوشانبيه، وإذا كانت العودة إليها خطرة، فأريد الإقامة في مكان أقرب إليها. انتقلت إلى موسكو... أجلس ضيفة عند شاعرة. أصغي إلى نخير لا نهاية له: غورباتشوف ثرثار... يلتسين سكّير... شعب قمامة... كم مرة سمعت هذه الثرثرة؟ ألف مرة! صاحبة البيت تريد أخذ صحني لتغسله، يمكنني أكل كل شيء من صحن واحد. بما فيه السمك والكاتو. فأنا جئت

من جبهة حرب... لدى كاتب آخر، كان برّاده ممتلئاً بالجبن والمرتديلا. أما الطاجيك فقد نسوا ما هو الجبن وما هي المرتديلا. من جديد أسمع النخير الممل السقيم: السلطة سيئة، الديمقراطيون يشبهون الشيوعيين... الرأسمالية الروسية تأكل لحوم البشر... ولا أحد يحرك ساكناً. الجميع ينتظر، الثورة آتية، إنها قاب قوسين أو أدنى. لا أحب هؤلاء اليائسين في المطابخ. أنا لست من صحبتهم. فتمرّد الشعب الذي رأيته زرع الخوف في نفسي طيلة عمري، أنا أعرف ما هي الحرية في أيدٍ غير خبيرة. والثرثرة تنتهي دوماً بالدم. الحرب هي ذئب تسمح له بالمبيت في بيتك... (تصمت).

هل رأيت تلك الصور على الإنترنت؟ لقد أخرجَتني بشكل كامل من حياتي اليومية. لقد بقيت أسبوعاً كاملاً مستلقية في سريري... تلك هي هذه الصور... يقتلون ويصورون. كان عندهم سيناريو، توزعوا الأدوار فيما بينهم... كما في فيلم سينمائي حقيقي... والآن هم في حاجة إلى مُشاهد. ونحن نشاهد... أرغمونا على المشاهدة... ها هو ذا شاب يسير في الشارع، إنه طاجيكي... ها هم ينادونه، إنه يقترب، يضربونه بأرجلهم. يضربونه بمضارب البيسبول، في البداية يسقط على الأرض ويتحرك ثم يسكن. يربطونه ويشحنونه في صندوق السيارة. في الغابة يربطونه إلى جذع شجرة. يبدو أن من يصوّر يبحث عن زاوية معينة، كي تكون اللوحة جميلة. يقطعون رأس الشاب. من أين جاءهم هذا؟ الرؤوس المقطوعة... إنه تقليد شرقي، وليس روسياً. على الأغلب إنه من الشيشان. أذكر... في أحد الأعوام كانوا يقتلون بـ"مفكات البراغي"، لأنه كانت تظهر ثقوب مثلثة، ومن بعدها بالأنابيب والمطارق... دائماً كان الموت يحدث من الضرب بجسم صلب. والآن موضة جديدة... (تصمت)... في هذه المرة عثروا على القتلة. وسوف يُحاكمون. وكلهم فتيان وصبيان من أسر جيدة.

اليوم يذبحون الطاجيكيين، وغداً سوف يذبحون الأغنياء أو أصحاب الديانات الأخرى. الحرب هي ذئب... ولقد وصل...

في أقبية موسكو

اخترنا بناءً "ستالينياً" في مركز مدينة موسكو. هذه الأبنية شُيدت في عهد ستالين للنخبة الحزبية البلشفية، ولهذا تدعى بـ"الأبنية الستالينية"، ولا تزال محافظة على أسعارها الغالية. البناء الستاليني الإمبراطوري: النقوش التزيينية على الواجهة، المنحوتات، الأعمدة، ارتفاع السقف في الشقة ثلاثة أو أربعة أمتار. عندما ساءت الأحوال المادية لأحفاد القادة السابقين غادروها وأقام فيها "الروس الأغنياء الجدد". تقف في فناء المنزل السيارات الفارهة، "بنتلي" و"فيراري". في الطابق الأول تُضاء بالأنوار واجهات المحلات التجارية الراقية.

في الأعلى حياة متميزة، وتحت الأرض حياة أخرى. نزلت أنا وصحفي صديق لي إلى القبو... نُراوغ طويلاً بين النقوش البارزة التي علاها الصدأ وبين الجدران العفنة، تُغِلق الطريق أمامنا أبواب حديدية مدهونة عليها أقفال وأختام، لكن هذا كله خيال. نطرق الأبواب بدقّة مشفرة، وندخل. القبو يغص بالحياة. ممر طويل مُنار: وعلى الجانبين غرف، الجدران من رقائق الأخشاب، وبدلاً من الأبواب ستائر ملونة. إن أقبية موسكو موزعة بين الطاجيكيين والأوزبكيين. وصلنا إلى الطاجيكيين. في كل غرفة سبعة عشرة إلى عشرين شخصاً. سكن جماعي. أحدهم تعرف على "دليلي"، فقد جاء إلى هنا غير مرة، فدعانا إليه. ندخل إلى الغرفة: عند المدخل جبل من الأحذية، وعربات الأطفال. في الزاوية فرن غاز وأنبوبة غاز، وإلى جانبهما وضعت طاولات ومقاعد، نقلت إلى هنا من مقالب القمامة القريبة. وجميع المساحة المتبقية تشغلها أسِرّة يدوية الصنع من طابقين.

وقت العشاء. عشرة أشخاص جالسون على مائدة الطعام. نتعارف: أمير، خورشيد، علي... من هم أكبر سناً تعلموا في المدرسة السوفييتية، يتحدثون باللغة الروسية من دون لكنة. الأصغر سناً لا يعرفون اللغة الروسية ويكتفون بالابتسام.

رحّبوا بالضيوف.

«ستتناول الطعام قريباً». أجلَسنا على المقاعد قبالة المائدة أمير، وهو معلم سابق، وهو هنا الأكبر سناً. «جرِّبوا "البلوف" الطاجيكي. يا له من طعام لذيذ!». لدى الطاجيكيين هذه العادة: إذا ما التقيت بشخص على مقربة من بيتك، عليك أن تدعوه وتقدم له كوباً من الشاي. لا يمكنني تشغيل المسجل، فهم يخافون. أخرجت قلماً. وهنا يساعدني احترامهم الريفي للشخص الذي يكتب. بعضهم جاء من القرى، وآخرون هبطوا من الجبال. ووجدوا أنفسهم على الفور في هذه المدينة الكبرى العملاقة.

– موسكو مدينة جيدة، والعمل فيها كثير. لكن الحياة فيها مرعبة. أسير وحدي في الشارع... نهاراً... لا أنظر إلى عيون الشباب، قد يقتلونني. لا بد من الصلاة كل يوم...

– اقترب مني في الحافلة الكهربائية ثلاثة... كنت عائداً من العمل. «ماذا تفعل هنا؟». «عائد إلى بيتي». «وأين بيتك؟ من دعاك إلى هنا؟». وبدؤوا يضربونني. كانوا يضربونني ويصرخون: «روسيا للروس! المجد لروسيا!». «أيها الشباب، علام تضربونني؟ الله يرى كل شيء». «الله لا يراك هنا الآن. لدينا إلهنا». هشموا لي أسناني... وكسروا ضلعاً من أضلاعي... الحافلة ممتلئة بالمسافرين، ولم يدافع عني أحد سوى فتاة: «اتركوه! إنه لم يمسكم بأذى». «ومن أنت؟ إنه "دابة" نضربه».

- قتلوا رشيد... ضربوه بالسكين ثلاثين مرة. قولي لي، لماذا ثلاثين مرة؟

- كل شيء بإرادة الله... الفقير ولو كان على ظهر جمل يعضه الكلب.

- أبي درس في موسكو. واليوم هو يبكي على الاتحاد السوفييتي ليلاً ونهاراً. كان يحلم بأن أدرس أنا أيضاً في موسكو. أنا هنا، الشرطي يضربني، ورب العمل يضربني... أعيش في قبو، كالقطة.

- أنا لا أشعر بالأسى على الاتحاد السوفييتي... جارنا، العم كوليا... كان روسياً... كان يصرخ على أمي عندما كانت تجيبه باللغة الطاجيكية: «تكلمي بلغة بشرية. الأرض أرضكم، والسلطة سلطتنا». كانت أمي تبكي.

- اليوم رأيت حُلماً: أمشي في شارعنا، الجيران يحيّونني: «السلام عليكم»... «السلام عليكم»... لم يبقَ في قرانا سوى النساء، والعجزة والأطفال.

- في بلدي، كان راتبي الشهري خمسة دولارات... عندي زوجة، وثلاثة أطفال... الناس في القرى لم يروا السكّر منذ سنوات...

- لم أكن في الساحة الحمراء. ولم أرَ ضريح لينين. العمل! العمل! الفأس، المجرفة، النقالة. طيلة اليوم يسيل الماء مني كما يسيل من البطيخة.

- دفعت رشوة كبيرة لضابط برتبة رائد كي يعطيني وثائق شخصية: «عافاك الله. أنت إنسان جيد!». وتبين أن الوثائق مزورة. أجلسوني في "قفص حديدي" في السجن. كانوا يضربونني بأرجلهم، وبالعصا.

- لا وثيقة لديك إذاً لست إنساناً...

- الإنسان بلا وطن كالقط الشارد... أي شخص يمكنه الإساءة إليك. رجال الشرطة يوقفونني عشر مرات في اليوم: «أرنا وثائقك». هذه الوثيقة موجودة، وتلك غير موجودة. إن لم تعطهم المال يضربونك.

- من نحن؟ عمال بناء، حمّالون، بوّابون... لا نعمل هنا مديرين...

- أمي راضية، أرسل إليها المال. عثرت لي على فتاة جميلة، ولم أكن قد رأيتها بعد. أمي اختارتها لي. سآتي وأتزوج.

- طيلة الصيف كنت أعمل عند ثريّ في ضاحية موسكو، وفي النهاية لم يدفع لي أجوري: «اذهب! اذهب! كنت أطعمك».

- عندما يكون لديك مئة خروف، أنت على حق. أنت على حق دائماً.

- صديقي أيضاً طلب أجره من المال من رب عمله. فيما بعد بحث رجال الشرطة عنه طويلاً. وجدوه في الغابة... استلمت أمه الكفن من روسيا...

- سيطردوننا... ومن سوف يعيد بناء موسكو؟ ومن سيكنس الباحات؟ لن يقوم الروس بهذا العمل لقاء مبلغ المال الزهيد الذي يعطونه لنا.

- أغلق عيني... أرى: قناة الري تجري، القطن يزهر، إنه يزهر بنعومة ولون وردي، كالحديقة.

- هل تعرفين، أنه كانت عندنا حرب كبيرة؟ بعد سقوط الاتحاد السوفييتي بدؤوا بإطلاق النار على الفور... كان يحيا حياة جيدة فقط من كان لديه رشاش. كنت أذهب إلى المدرسة... كل يوم كنت أرى جثتين أو ثلاثة. منعتني أمي من الذهاب إلى المدرسة. كنت أجلس في البيت وأقرأ عمر الخيام... الجميع عندنا يقرؤون عمر الخيام. أتعرفينه؟ إذا كنت تعرفينه، فأنت أختي.

- كانوا يقتلون غير المؤمنين...

- الله وحده سيحكم من هو المؤمن ومن هو غير المؤمن. هو بنفسه سيحاسبهم.

- كنت صغيراً... لم أكن أطلق النار. كانت أمي تحدثني، أنهم قبل

الحرب كانوا يعيشون معاً، وفي الأعراس يتحدثون باللغات الطاجيكية، والأوزبكية، والروسية. كان يصلي من يرغب في الصلاة، ومن لا يرغب لا يصلي. قولي لي، يا أختي، لماذا تعلم الناس بهذه السرعة قتل أحدهم الآخر؟ كلهم كانوا يقرؤون في مدارسهم عمر الخيام، وبوشكين.

- الشعب... قافلة من الجمال يطاردونها بالسوط...

- أتعلم اللغة الروسية... اسمعيني أتحدث بالروسية: فتاة جميلة، خبز، نقود... مدير سيئ...

- أنا في موسكو للعام الخامس، ولم يحيني أحد أبداً. الروس في حاجة إلى "عبيد سود"، كي يشعروا بأنهم "بيض"، وينظرون إليهم باستعلاء.

- كما أن كل ليل سيعقبه نهار، كذلك كل حزن ستحل نهايته.

- فتياتنا أكثر إشراقاً. وليس من قبيل العبث أن يقارنوهن بالرمان...

- كل شيء بإرادة الله...

نخرج من القبو إلى الأعلى. الآن أنظر إلى موسكو بعينين أخريين، يبدو لي أن جمالها بارد ومقلق. عزيزتي موسكو، هل الأمر سيان بالنسبة إليك؟ أيحبونك أم يكرهونكِ؟

عن حياة عاهرة ومئة غرام من الرمل الخفيف في مزهرية بيضاء

تامارا سوخوفي - نادلة، 29 عاماً

- الحياة عاهرة! هذا ما سأقوله لكِ... إنها لا تحمل الهدايا. لم أرَ في الحياة أي شيء جيد جميل. لا أتذكر... اقتليني - ولن أتذكر! سممت نفسي، وعلّقت نفسي على حبل المشنقة. قمت بثلاث محاولات للانتحار... الآن، قطعت وريدي... (تكشف لي عن يدها المضمدة). هنا... في هذا المكان... أنقذوني، وبقيت أسبوعاً نائمة. هكذا أنا، هكذا كينونتي... جاءت الطبيبة النفسية... كما أنت هنا جالسة. كانت ترجوني: تحدثي، تكلمي... وماذا أقول؟ أنا لا أهاب الموت... عبثاً جئت إليّ وتجلسين. عبثاً! (واستدارت إلى الجدار ولاذت بالصمت. أريد الخروج، لكنها أوقفتني). حسناً، اسمعي... الحقيقة كلها...

كنت صغيرة... جئت من المدرسة، استلقيت، وفي الصباح لم أنهض من سريري. أخذوني إلى الطبيب، لم يعطِ أي تشخيص لحالتي. عندها بدأت أمي بالبحث عن ساحرة، عن حكيمة، عرّافة. أعطونا عنواناً... نظرت القارئة إلى الورق وقالت لأمي: «تذهبان إلى البيت، قصي المخدة التي تنام عليها ابنتك. ستجدين في داخلها قطعة من ربطة عنق وعظم دجاج. علقي ربطة العنق على صليب على الطريق، وأعطِ عظم الدجاج لكلب أسود. وستنهض الفتاة وتمشي. لقد ألحقوا ضرراً بالفتاة». لم أرَ شيئاً جيداً وجميلاً في الحياة... أما قطع الوريد فهو حماقة، بساطة لقد

تعبت من الصراع... منذ طفولتي كنت أعيش هكذا، أفتح الثلاجة، لا يوجد شيء سوى الفودكا. عندنا في القرية الجميع يعاقرون المسكرات منذ العام الثاني عشر. الفودكا الجيدة غالية الثمن، لذلك يشربون الفودكا البيتية، وماء الكولونيا، وسائل غسل الزجاج، والأسيتون. يصنعون الفودكا من الدهان الأسود، من الصمغ. الرجال الشباب يموتون، من الفودكا طبعاً، يتسممون. أذكر جارنا يثمل ثم يطلق الخردق على أشجار التفاح، ويهدد الجميع في البيت ببندقيته... وجَدّنا بقي يسكر حتى أواخر عمره. في السبعين من عمره كان يشرب زجاجتين من الفودكا في السهرة الواحدة. عاد من الحرب بالميداليات. بطل! بقي طويلاً يرتدي المعطف العسكري ويسكر، ويتسكع ويحتفل. بينما جدتي كانت تكدح. أما الجد فكان بطلاً... كان يضرب جدتي ضربات قاسية جداً، كنت أجثو أمامه على ركبتيّ كي لا يضربها. كان يطاردها بالفأس... كنا نمضي الليل عند جيراننا. في السقيفة. كان يضرب الكلب حتى الموت. بعد جدي هذا صرت أكره جميع الرجال. كنت أفكر في العيش لوحدي.

انتقلت للعيش في المدينة... كنت أخاف من كل شيء: من السيارات ومن الناس. لكن الجميع ينتقلون إلى المدينة، وأنا مثلهم. كانت أختي الكبرى تعيش هنا. فأخذتني إلى بيتها، قائلة: «تدرسين في المعهد المتوسط، وتصبحين نادلة. أنت جميلة، يا تامارا. ستجدين لنفسك زوجاً عسكرياً، طيّاراً». نعم... طيّار... زوجي الأول كان أعرجَ، قصيراً. كانت صديقتي تقنعني: «وما حاجتك إليه؟ ينظر إليك شباب رائعون، يغازلونك!». أنا كنت دوماً أحب أفلام الحرب، وكيف كانت النساء تنتظرن عودة أزواجهنّ من الجبهة، بأي شكل يكونون، دون أرجل، دون أيدٍ، لكنهم أحياء. كانت جدتي تحدثني: في قريتنا جلبوا رجلاً بلا رجلين اثنتين، وكانت زوجته تحمله على يديها في فناء المنزل. وكان هو يسكر، ويرتكب الإساءات.

يسقط في الخندق فتخرجه منه زوجته، تغسله في الحوض وتجلسه على الشراشف النظيفة. كنت أظن أن هذا هو الحب... أنا لا أدرك ما هو الحب... كانت تشفق عليه، وتعانقه. عشنا معه وكان عندنا ثلاثة أطفال، لكنه بدأ يعاقر الخمرة، ويهددنا بالسكين. لم يكن يسمح لي بالنوم على السرير... كنت أنام على الأرض... وتشكّل لدي منعكس، مثل كلب بافلوف: يدخل الزوج إلى البيت، أنا والأطفال نخرج من البيت. من أي شيء أتذكره، تتدفق دموعي... أو عليّ أن أرسل الجميع إلى الشيطان! لم يكن لدي شيء جميل في حياتي، فقط في السينما. وعلى شاشة التلفزيون. لم يكن لدي هناك من أجلس معه وأحلم... أشعر بالمسرة...

كنت حاملاً بطفلنا الثاني... وصلتني برقية من القرية: «تعالي لحضور الدفن. أمك». وقبل ذلك كانت غجرية في المحطة قد تنبأت لي: «ينتظرك طريق طويل. ستدفنين أباك وسوف تبكين طويلاً». لم أصدق. كان أبي هادئاً، وبصحة جيدة. أمي كانت مدمنة، تسكب لنفسها الفودكا منذ الصباح، وأبي يحلب البقرة، ويسلق البطاطا، لوحده. كان يحبها حباً شديداً، كانت تسحره وتخلب لبه، كانت تعرف شيئاً من السحر، وتعطيه جرعات. جئت إلى البيت... أجلس أمام التابوت، وأبكي. همست فتاة الجيران بأذني: «زوجة أبيك قتلته بطنجرة حديدية، وقالت لي أن ألوذ بالصمت. ووعدتني بأن تشتري لي كراميل الشوكولا»... لم أعد أستطيع السيطرة على نفسي، وبدأت أتقيأ... من الرعب... وعندما كنت لوحدي في الكوخ، وخرج الجميع، نزعت عن أبي ملابسه، وأخذت أبحث عن الكدمات. لم تكن هناك أية كدمات، فقط كان على رأسه خدش كبير. أريته لأمي، فأجابت أنه كان يكسر الحطب، فطارت حطبة على رأسه وضربته. أجلس مع دموعي طيلة الليل... أجلس وأشعر وكأن أبي يريد أن يقول لي شيئاً... لكن أمي لا تبتعد، بقيت يقظة، صاحية طيلة الليل، ولم تتركني

دقيقة واحدة. في الصباح أرى دمعة دموية انبثقت من تحت رموشه. الدمعة الأولى... فالثانية... سالت الدموع على خديه كأنه حي... كان هذا رهيباً! الطقس شتاءً. حفرنا جورة في المقبرة بمخل، كنا نسخن التربة ونشعل النار في الحفرة بجذوع أشجار البتولا وأطر عجلات السيارات. طالب الرجال بصندوق من الفودكا. وما إن دفنّاه حتى ثملت أمي. إنها تجلس مرحة فرحة. وأنا أبكي... من كل شيء والآن تسيل دموعي كوابل البَرَد... أمي... أمي التي ولدتني... على الأم أن تكون... ما إن سافرت وغادرت القرية، باعت أمي البيت، وأحرقت السقيفة كي تحصل على التأمين، وجاءت لعندي إلى المدينة. وهنا عثرت لنفسها على زوج آخر... بسرعة عثرت عليه... طرد ابنه وكنّته من بيته، وسجّلها معه في الشقة. كانت تتصيد الرجال وتغريهم، كانت تعرف شيئاً... وتسحرهم... (تحرك يدها المصابة، كطفل). أما زوجي فكان يطاردني بالمطرقة، ضربني مرتين على رأسي. يحمل زجاجة الفودكا بيده، ويضع خيارتين في جيبيه ويذهب. إلى أين يذهب؟ الأطفال جائعون... كنا نقتات بالبطاطا وحدها، وفي الأعياد البطاطا مع الحليب أو مع سمك الرنكة. وحاولي أن تقولي له شيئاً عند عودته: يضربك بالكأس، ويضرب الكرسي بالجدار... وليلاً يقفز فوقي كالوحش... لم يكن في حياتي أي شيء جيد، حتى القليل. أصل إلى العمل محطمة، باكية، والمطلوب مني أن أبتسم، وأن أنحني احتراماً. يستدعيني مدير المطعم إلى مكتبه: «لست في حاجة إلى دموعك. زوجتي ترقد مشلولة للعام الثاني». ويمسك بمؤخرتي من تحت التنورة...

لم تعش أمي مع زوجها عامين... تتصل: «تعالي نشيّعه. وننقله إلى المحرقة». كدت أن أفقد وعيي من الخوف. صحوت، عليّ الذهاب. وفي رأسي فكرة وحيدة: ربما هي التي قتلته؟ قتلته كي تبقى شقته لها وحدها، وتمارس السكر والعربدة؟ والآن تسرع من أجل نقله إلى المحرقة. تحرقه

ريثما يأتي أبناؤه... ابنه الأكبر ضابط برتبة رائد، سيأتي من ألمانيا... لا يبق منه سوى قبضة من الرماد... مئة غرام من الرمل الخفيف في مزهرية بيضاء... بسبب جميع هذه الصدمات توقفت عندي الدورة الشهرية، لم يظهر أي شيء طيلة عامين. عندما بدأت تظهر الدورة الشهرية، طلبت من الأطباء: «قصوا كل ما هو نسائي عندي، اعملوا عملية، أنا لا أريد أن أكون امرأة! ولا أريد أن أكون عشيقة! أو زوجة، ولا أماً!». أمي الغالية... هي التي ولدتني... كنت أريد أن أحبها... عندما كنت صغيرة كنت أرجوها: «ماما، قبّليني». لكنها كانت دوماً ثملة... ما إن يذهب أبي إلى العمل حتى يغص بيتنا بالرجال السكارى. وأحدهم اقتادني إلى السرير... كنت في الحادية عشرة من عمري... قلت لأمي، فاكتفت بالصراخ عليّ. كانت تشرب... وتشرب وتعربد طيلة حياتها. وهنا، حان وقتها موتها! لم تكن تريد. لم تكن تريد أن تموت بأي شكل من الأشكال. كانت في التاسعة والخمسين من عمرها: استأصلوا ثديها، وبعد شهر ونص استأصلوا ثديها الثاني. وعندها عشيق شاب. أسكنت في شقتها عشيقاً أصغر منها بخمس عشرة سنة. كانت تصرخ: «خذوني إلى الساحرة، أنقذوني!». وحالتها الصحية من سيئ إلى أسوأ... كان عشيقها الشاب يعتني بها، وينظف من تحتها، ويغسلها. لم تكن تنوي الموت أبداً... وتقول: «وإذا ما متُّ، فسأترك له كل شيء. والشقة والتلفزيون». أرادت أن تسيء إليَّ وإلى أختي... كانت حقودة... وتحب الحياة. كانت لا تعرف الشبع من الحياة. حملناها إلى عجوز ساحرة، حملناها من السيارة على أيدينا. صلّت العجوز، وفتحت الورق: «نعم؟» ونهضت من على كرسيها: «احملوها خارج بيتي. لن أعالجها». صاحت بوجهنا أمي: «اخرجا. أريد أن أبقى لوحدي معها». والعجوز تصرخ: «توقفا!». ولم تسمح لنا بالخروج... نظرتْ إلى الورق وقالت: «لن أعالجها. لقد دفنت أكثر من رجل. وما إن مرضت، ذهبت

إلى الكنيسة وأوقدت شمعتين». الأم: «من أجل صحة بناتي». العجوز: «أوقدتهما من أجل أن يرحمهما الله. طلبت الموت لابنتيك. كنت تظنين أنك إذا ما ضحيّت بابنتيك. فستبقين حيّة». بعد هذه الكلمات لم أبقَ لوحدي مع أمي أبداً. كنت أرتجف. كنت أعرف أنني ضعيفة، وأنها ستغلبني... كنت آخذ معي ابنتي الكبرى، وكانت أمي تجنّ عندما كانت ابنتي تطلب طعاماً: كانت أمي تموت، ولكن هناك من يأكل، هناك من سيبقى حياً. قصت بالمقص اللحاف الجديد على السرير، ومفرش المائدة، كي لا يستخدمهما أحد إذا ما ماتت. كانت تكسر الصحون وكل ما يمكنها كسره وتحطيمه. كان من المستحيل حملها إلى المرحاض، فكانت بصورة مقصودة تتغوط على الأرض وفي الفراش كي أمسح وأنظف... كانت تنتقم لأننا سنبقى أحياء. كنا نمشي ونتحدث. كانت تكره الجميع! يحط طير على النافذة، فتود أن تقتله. فقد كان الطقس ربيعاً... وشقتها في الطابق الأول... كانت رائحة الليلك تفوح في كل مكان... وهي تشم وتشم، دون أن تشبع. فطلبت مني: «اجلبي لي غصناً من الفناء». جلبت لها... أخذت الغصن بيدها وفي دقيقة واحدة جف الغصن، وتجعدت أوراقه. عندها قالت لي: «أمسكيه بيدك أنت». وكانت الساحرة العجوز قد حذرتني، بأن الإنسان الذي كان يرتكب في حياته أعمال الشر ينازع طويلاً، ويتعذب في موته. ويجب فك السقف أو نزع فتح جميع النوافذ في البيت حتى تخرج روحه. ولا يصح أبداً أن تعطيه يدك، فينتقل المرض إليك. «وما حاجتك إلى يدي؟». فتسكت، وتجشم. إنها تقترب من نهايتها... وهي مع ذلك لا تكلمنا، ولا ترينا أين ثيابها التي سندفنها فيها. وأين نقودها، التي جمعتها لساعة موتها. كنت أخشى أن تخنقنا مع ابنتي ليلاً بالوسائد. كل شيء وارد... سأغمض عينيها، وأنظر: كيف ستفارقها روحها؟ وما هي هذه الروح لديها؟ هل سيحل نور أم غيمة؟ الناس يقولون

ويكتبون الكثير، ولكن لم يرَ أحد منهم هذه الروح. ركضت صباحاً إلى المخزن التجاري، رجوت جارتنا بأن تجلس مكاني. أمسكت الجارة بيدها، وعندها ماتت الأم. في الدقيقة الأخيرة من حياتها صرخت بعبارة غير مفهومة. نادت أحداً ما باسمه... من هو؟ لم تحفظ الجارة اسمه. اسم غير معروف. غسّلتها بنفسي، وألبستها ثيابها، دون أية مشاعر، كأنها شيء. كأنها قِدر. من دون أية عواطف، كانت عواطفي مختفية. تلك هي الحقيقة كلها... حضرت صديقاتها، سرقن هاتفها الجوال... حضر جميع أقربائنا، وجاءت أختنا الوسطى من القرية. الأم راقدة... فتحت لها عينيها. «لماذا تلمسين أمنا الميتة؟». «أتذكرين كيف كانت تسخر منا في طفولتنا؟ كانت تحب أن نبكي. أنا أكرهها».

اجتمع الأقارب وبدؤوا يتخاصمون... بدؤوا بتقاسم الأشياء فيما بينهم منذ الليل، عندما كانت ترقد في الكفن. حَزم واحد منهم جهاز التلفزيون، وآخر مكنة الخياطة... انتزعوا الأقراط الذهبية من أذني الميتة... كانوا يبحثون عن النقود، ولم يعثروا عليها. أنا كنت أجلس وأبكي. حتى أنني كنت أشفق عليها. أخذناها في صباح اليوم التالي إلى المحرقة... قررنا أن نأخذ رفاتها وندفنه إلى جانب أبينا، على الرغم من أنها لم تكن تريد ذلك. كانت تعاقبنا كي لا ندفنها إلى جانب الأب. كانت تخاف. هل هناك عالم آخر أم لا؟ حيث قد تلتقي به في مكان ما... (توقفت). دموعي الآن قليلة... أنا دُهشت، كيف أصبحت أنظر إلى كل شيء بلا مبالاة. بما في ذلك الموت، والحياة. والناس الطيبون والناس الأشرار. لم يعد يهمني شيء... إذا كان القَدَر لا يحبك، فلن تنقذي نفسك، ولن تهربي مما هو مكتوب لك. آه، نعم... شقيقتي الكبرى التي كنت أعيش عندها، تزوجت للمرة الثانية وسافرت إلى كازاخستان. كنت أحبها... كنت أشعر بذلك... أوحى لي قلبي: «لا تتزوجي منه». لسبب ما لم يكن زوجها الثاني يروقني:

«إنه إنسان جيد. وأنا أشفق عليه». عندما كان في السابعة عشرة من عمره، اعتُقل وسُجن. شارك في ذبح شاب في مشاجرة سكارى. حُكم عليه بالسجن خمس سنوات، وأفرجوا عنه بعد ثلاث سنوات. أخذ يتردد على بيتنا، ويحضر الهدايا. التقت أمه بأختي وأخذت تقنعها. وكان تقنعها على النحو التالي: «الرجل دوماً في حاجة إلى أن يسكر ويثمل. الزوجة الجيدة، بالنسبة إلى زوجها، هي قريبة من الأم. الرجل الوحيد يصبح ذئباً... وسيأكل من الأرض»... وصدقت أختي! إنها شفوقة، حنونة مثلي: «إنه سيصبح معي إنساناً». جلست معهما طيلة الليل أثناء تشييع والدتي، بالقرب من كفنها. وكان يتصرف مع أختي بدلال ومحبة، حتى أنني حسدتها. بعد عشرت أيام استلمت برقية: «الخالة توما، تعالي لعندنا. توفيت أمي. آنيا». وهي ابنة أختي، عمرها أحد عشر عاماً، وهي التي أرسلت البرقية. لقد احتملنا تشييعاً واحداً، والآن ينتظرنا التشييع الثاني... (تبكي). شعر بالغيرة عليها في أثناء سكره. داسها برجليه، مزقها بالشوكة. ثم اغتصبها ميتة... ثمِل أو شرب المخدرات... لا أعرف... وفي الصباح ذهب إلى عمِله وقال إن زوجته قد ماتت، وأعطوه النقود المخصصة لحالة الوفاة. أعطى النقود لابنته، وذهب إلى الشرطة واعترف بالذنب. ابنة أختي تعيش الآن معي. لا تريد الدراسة، تشكو من مرض في رأسها، لا تحتفظ ذاكرتها بشيء. تشكو من رهاب الخوف... تخاف الخروج من البيت... أما هو... فقد حُكم عليه بالسجن عشر سنوات، ثم سيعود إلى ابنته. إنه أب!

تطلقتُ من زوجي الأول وكنت أظن أنه لن يدخل رجل بعد الآن إلى بيتي. لن أُدخله! سئمت من البكاء، ووجهي مغطى بالكدمات. وماذا تفعل الشرطة؟ يأتون لعندك بعد اتصالكم به، وبعد المخابرة الثانية: «عندكم خلافات عائلية». في بنايتنا، وفي الطابق الواقع فوقنا... زوج قتل زوجته، عندها جاءت الشرطة بسيارات ذات أضواء ساطعة، وكتبوا محضراً،

ووضعوا القيود في يديه وأخذوه. كان يسخر منها طيلة عشر سنوات... (تضرب نفسها في صدرها). لا أحب الرجال. أخاف منهم. وكيف تزوجت ثانية، أنا نفسي لا أفهم. عاد من أفغانستان، مصاباً بصدمة الحرب، جُرح مرتين. من قوات المظليين! لا يخلع حتى الآن قميص قوات الإنزال المخطط. كان يعيش مع أمه في البناء المقابل لبيتنا. ولدينا فناء واحد. يخرج من البيت ويجلس يعزف على الهارمونيكا، أو يفتح جهاز التسجيل. أغان أفغانية حزينة... كنت أفكر طويلاً في الحرب... وطيلة الوقت كنت أخاف من سحابة الفطر الذرية اللعينة... كان يروقني عندما يذهب العريس والعروسة، بعد تسجيل عقد الزواج، إلى النار الخالدة مع باقات الورود. كنت أحب هذا! بصورة احتفالية! ذات مرة جلست بجانبه على المقعد في الفناء: «ما هي الحرب؟». «الحرب هي عندما تريد الحياة». شعرت بالشفقة عليه. لم يكن عنده أب أبداً، وأمه مقعدة منذ الطفولة. ولو كان عنده أب لما أرسله إلى أفغانستان. ولدافع عنه، ودفع رشوة عنه، كما يفعل الآخرون. وفي الشقة التي يسكنها مع أمه... دخلت إليها: سرير ومقاعد، وميداليته الأفغانية معلقة على الجدار. شعرت بالشفقة عليه ولم أفكر في نفسي. وبدأنا نعيش معاً. انتقل إلى شقتي، وأحضر معه منشفته، وملعقته، وميداليته. وآلة الهارمونيكا.

كنت أفكر في نفسي... وأتخيل أنه بطل... مُدافع... حامٍ... أنا بنفسي ألبسته التاج وكنت أوحي للأولاد بأنه قيصر. نعيش مع بطل! لقد أدى واجبه العسكري، وعانى كثيراً. أُدفئه... أُنقذه... كالأم تيريزا! لست عميقة الإيمان، أنا كنت أرجو الله: «يا إلهي، سامحنا». الحب هو مثل القرحة... تبدئين بالشفقة... إذا كنت تحبين تشفقين... في أول الأمر... كان "يركض" في الحلم: لم تكن رجلاه تتحركان، لكن عضلاته كانت تتحرك، مثل إنسان يركض. أحياناً، كان يركض هكذا طيلة الليل. في الليالي كان

يصرخ: «دوشاري! دوشاري!». (أرواح المجاهدين الأفغان). وينادي قائده، وأصدقاءه: «اِلتَف من الجناح!»، «هيِّئ الرمانات للمعركة!»، «اصنعْ حاجزاً من الدخان»... ذات مرة كاد أن يقتلني، عندما بدأت أوقظه: «كوليا! كوليا! استيقظ!»... حقيقة، حتى أنني أحببته... تعلمت كثيراً من الكلمات الأفغانية: زندان، بوتشاتا، دوال... باربوخايكا... «خذ، حافظ!». «وداعاً، أفغانستان!». عشنا لمدة سنة حياة جيدة. هذه حقيقة! أصبح عندنا نقود، وكان يحضر علبة لحم البقر، وجبته المفضلة. منذ أيام أفغانستان. كانوا ذاهبين إلى الجبال، أخذوا معهم علب اللحم البقري والفودكا. كان يعلمنا كيفية تقديم المساعدة الطبية الأولية، وما هي النباتات التي تؤكل، وكيفية اصطياد الحيوانات. كان يقول إن السلحفاة لذيذة الطعم. «وهل كنت تطلق النار على الناس؟». «هناك في الحرب لا مجال للاختيار: إما أن تَقتل أو تُقتل». كنت أسامحه على كل شيء لمعاناته الكبيرة هذه... أنا بنفسي هيأت كفني...

والآن... يجرّه أصحابه ليلاً ويضعانه أمام العتبة. من دون ساعة ومن دون قميص... يرقد عاري الصدر... يتصل بي الجيران: «تامارا! خذيه، سيموت من البرد». أجرّه إلى البيت. يبكي، ينوح، يتمرغ على الأرض. لم يستطع الاستمرار في أي عمل: عمل حارساً أمنياً، وحارساً... وعليه أن يسكر تارة، وأن يصحو من سكره تارة أخرى. كان يشرب بكل راتبه... ولا تعرفين أبداً: هل في البيت ما يؤكل أم لا؟ يشْتم أو يجلس قبالة التلفزيون. عند جيراننا مستأجِر، أرمني... قال شيئاً ما لم يرق لزوجي. جعله يرقد على الأرض بأسنان مهشمة وأنف مكسور. إنه لا يحب الشرقيين. إنني أخاف من الذهاب معه إلى البازار، فهناك الأوزبك والأذريون يتاجرون. مهما حدث، لديه دوماً مَثَل واحد: «لكل مؤخرة خازوق خاص بها». هم يخفضون له أسعارهم ولا يريدون مشاكل معه. «آه... أفغاني...

مجنون... شيطان!». يضرب الأطفال. الابن الصغير يحبه، يتقرب منه، وهو يخنقه بالمخدة. ولهذا، فهو الآن ما إن يدخل أبوه من الباب، حتى يركض فوراً إلى سريره وينام، ويغلق عينيه، كي لا يضربه، أو يخفي الوسائد تحت الأريكة. وأنا إما أن أبكي... أو... (تريني يدها المضمدة). في يوم المظلي... يجتمع أصدقاؤه... كلهم مثله في تي شيرت المظليين... يسكرون جداً بشكل مقرف! يلوثون لي كل شيء في المرحاض. لديهم شيء ما في رؤوسهم... جنون العظمة: نحن كنا في الحرب! المظليون! يشربون النخب الأول: «العالم كله خراء، جميع الناس شرامـ...، والشمس مصباح مثقوب». وهكذا حتى الصباح: «نخب المرحوم»، «نخب الصحة»، «نخب الميدالية»، «نخب أن يفطس الجميع». لم تنتظم أمور حياتهم... لن أسألك لماذا، بسبب الفودكا أم بسبب الحرب؟ شريرون، كالذئاب! يكرهون القوقازيين واليهود. يكرهون اليهود لأنهم قتلوا السيد المسيح وقضوا على قضية لينين. لم يعد يشعر بالمرح في البيت: يستيقظ، يغتسل، يأكل. ملل قاتل عندهم! وهم الآن، استدعيهم فقط! وسيجتمعون كلهم في الشيشان ليمارسوا بطولاتهم! بقي عندهم استياء ما، استياء من الجميع: من السياسيين، ومن الجنرالات، ومن أولئك الذين كانوا هناك. منهم بشكل خاص... بالدرجة الأولى... ليس لدى كثيرين منهم أي اختصاص، مثل زوجي. لديهم جميعاً اختصاص واحد: حمل المسدسات. يقولون إنهم يسكرون بسبب الإساءة... أوه! وهناك كانوا يسكرون ويثملون، ولا يخفون هذا: «من دون الفودكا لن يعيش الجندي الروسي حتى النصر»، «ارمِ رجلنا في الصحراء، ستجده سكراناً بعد يومين، لكنه لن يعثر على الماء». كانوا يشربون الكحول الميثيني السام، وزيت الفرامل... كانوا ينسفون أنفسهم من المنشطات والسُكْر. عادوا إلى بيوتهم من أفغانستان: كان هناك منهم من شنق نفسه،

ومنهم من قُتل في المشاجرات، وضربوا أحدهم بحيث أصبح مقعداً... وأحدهم أُصيب بالجنون، فوضعوه في مستشفى الأمراض العقلية... هذا فقط ما أعرفه أنا. الشيطان وحده يعرف ماذا أيضاً... الرأسماليون... هؤلاء الروس الجدد... يفهمونهم، يدفعون لهم المال الكثير كي يساعدونهم في تحصيل الديون من أحدهم الآخر. يطلقون النار بسهولة، ولا يشفقون على أحد. شاب صغير من الرأسماليين في العشرين من عمره، لديه أموال مجنونة، ولا يوجد عندهم سوى الميداليات، والملاريا، التهاب الكبد... فهل سيشفقون عليه؟ لم يشفق عليهم أحد... لديهم رغبة شديدة في إطلاق النار... لا تكتبي هذا... أنا أخاف... الحديث معهم قصير جداً: فوراً يدفعونكِ إلى الجدار. يريدون الذهاب إلى الشيشان، لأنه ستكون عندهم حرية القتل، هناك يسيئون إلى الروس... ويحلمون بأن يجلبوا لزوجاتهم معاطف الفرو وخواتم الذهب. وزوجي تطلع إلى الذهاب إلى هناك، لكنهم لا يأخذون السكارى. فثمة ما يكفي من الرجال الأصحاء. كل يوم أسمع منه: «أعطني نقوداً». «لن أعطيك». «لِرجلي، شرمو...!». ويضربني. ثم يجلس بعدها ويبكي. ويتعلق برقبتي راجياً: «لا تتركيني!». لقد أشفقت عليه طويلاً... (تبكي).

يا للشفقة! كم هي حقيرة... لن أسمح لها بالسيطرة عليَّ... لا تضغط عليّ كي أُشفق عليك! اِلحسْ ما تبصقه بملعقتك. اعثر على حل لمشكلتك! سامحني يا رب، إن كنت موجوداً، حقيقة. سامحني!

أعود مساء من العمل... أسمع صوته. يعلّم ابنه. لقد حفظت كل شيء غيباً: قفْ! احفظْ: أنت ترمي قنبلة في النافذة، تراجع إلى هنا. على الأرض. والقنبلة الثانية على الرتل العسكري... وشتائم الأم التي لا تنقطع! أربع ثوانٍ، وأنت على الدرجات، اضرب الباب برجلك، الرشاش في يدك اليسرى. الأول يسقط... الثاني يركض إلى الجانب... الثالث

يختبئ... «قف! قف! قف»... (تصرخ). أشعر بالرعب! كيف أنقذ ابني؟ أركض إلى صديقاتي... تقول إحداهن: «عليك أن تتوجهي إلى الكنيسة، صلِّ». وأخرى اقتادتني إلى عجوز ساحرة... وإلى أين سأذهب؟ ليس هناك من أذهب إليه. العجوز كانت هرمة جداً. قالت لي، أن أحضر ثانية وأحمل لها معي زجاجة فودكا. أخذت تمشي في شقتها حاملة زجاجة الفودكا، قرأتْ همساً عليها، ومررت عليها يدها وناولتني إياها: «لقد قرأت على الفودكا. اسكبي له الفودكا بالقدح طيلة يومين، وفي اليوم الثالث لن يرغب». وحقيقة، بقي شهراً لا يشرب الفودكا. ثم عاد كما كان: يدخل إلى البيت ليلاً ثملاً، بمخاطه، يطرق الطناجر في المطبخ، لأعطيه الطعام... عثرت على ساحرة أخرى... قرأت هذه الساحرة على الورق، سكبت لي رصاصاً حامياً في كأس فيه ماء. وعلمتني قراءة بسيطة على الملح وقبضة من الرمل. ولم يساعد في أي شيء! من غير الممكن العلاج من الفودكا ومن الحرب... (تهز يدها المريضة)... آه، كم تعبت! لا أشفق على أحد، لا على الأطفال ولا على نفسي... أنا لا أطلب المساعدة من أمي، لكنها تأتيني في الحلم. شابة مرحة. هي دوماً شابة، تضحك. وأنا أطردها... وإلا سأرى أختي في الحلم، وهي جادة، ودوماً تطرح عليّ السؤال نفسه: «وهل تعتقدين أنك قادرة على توجيه نفسك، وإطفاء نفسك كالمصباح؟». (تتوقف).

هذا كل شيء، حقيقة... لم أرَ شيئاً جميلاً في حياتي. البارحة جاء لعندي إلى المستشفى وقال: «لقد بعت السجادة. الأولاد جائعون». سجادتي المفضلة. شيء واحد جيد كان في بيتنا... هذا ما تبقى... عاماً كاملاً كنت أجمع النقود، جمعتها بالكوبيكات لشرائها. كم كنت أرغب في شراء هذه السجادة! إنها فيتنامية... وشرب الفودكا بثمنها على الفور. ركضت فتيات من العمل يصرخن: «أوه، تومكا، عودي إلى البيت بسرعة.

شعر بالملل من الصغير، إنه يضربه. أما الكبيرة (ابنة أختي)، عمرها اثنا عشر عاماً... أنت بنفسك تعرفين ما قد يعمله... إنه سكير».

أرقد ليلاً. لا أنام. بعد ذلك شعرت أنني سقطت في حفرة، وأطير إلى مكان ما. ولا أعرف كيف سأستيقظ صباحاً. أعاني من أفكار رهيبة...

عند الوداع عانقتني فجأة: «تذكريني...».

بعد عام قامت بمحاولة أخرى للانتحار. لكنها كانت محاولة ناجحة. وكما عرفت، ظهرت لدى زوجها امرأة أخرى. اتصلت بها، فقالت: «إنني أشفق عليه. لا أحبه بل أشفق عليه. ولكن ثمة مصيبة، فقد عاد لمعاقرة المسكرات، على الرغم من وعده بتركها».

أنتم تخمنون، ما سمعته فيما بعد؟

عن الموتى الذين لا يتأففون وصمت الغبار

أوليسيا نيكولايفا - رقيب في الشرطة، 28 عاماً

من حديث الأم:

- سأموت قريباً من أحاديثي... لماذا أروي؟ لن تساعديني بشي. ستكتبين... وتنشرين... سيقرأ الناس الطيبون ويبكون، أما السيئون... الفاعلون الرئيسون... فلن يقرأوها. فعلام أتحدث؟

كنت قد رويت هذا مرات عديدة...

23 تشرن ثاني/ نوفمبر 2006...

كانوا يبثون بالتلفزيون... وجميع الجيران كانوا يعرفون. والمدينة كانت تضج...

كنت أنا وحفيدتي ناستنكا في البيت. كان التلفزيون عندنا معطّلاً، بسبب قدمه. كنا ننتظر: «ستأتي أوليسيا قريباً ونشتري جهاز تلفزيون جديداً». كنا ننوي القيام بالتعزيل والتنظيف والغسيل. وكنا نشعر، لسبب ما، بالمرح الشديد، في هذا اليوم ضحكنا كثيراً. جاءت أمي... جدّتنا... من البستان: «أيتها الفتيات، أنتن مرحات جداً. كنّ على حذر كيلا تضطررن إلى البكاء». هبط قلبي من الخوف... ماذا حدث لأوليسيا؟ في الأمس فقط تحادثنا بالهاتف، كان الأمس عيداً - يوم الشرطة: وكافأوها بشارة "العمل المتفوق في وزارة الداخلية". هنأناها، فقالت: «أنا أحبكم جميعاً، كم أود أن أرى أرض وطني بأسرع وقت!». كنت أصرف نصف

راتبي التقاعدي على الاتصالات الهاتفية، أسمع صوتها وأنتعش ليومين أو ثلاثة أيام. حتى الاتصال الهاتفي التالي... كانت تطمئنني: «ماما، لا تبكِ. أنا أحمل السلاح، لكنني لا أطلق النار. ثمة حرب من ناحية، ومن ناحية أخرى الوضع هادئ. في الصباح كنت أسمع أذان المؤذن للصلاة. الجبال هنا حية وليست ميتة، مغطاة حتى أعلى قممها بالأعشاب والأشجار». في اتصال هاتفي آخر: «ماما، الأرض الشيشانية مشبعة كلها بالنفط. احفري في أي بستان، وسيظهر النفط في كل مكان».

لماذا أرسلوهم إلى الشيشان؟ كانوا هناك يحاربون ليس من أجل الوطن، بل من أجل أبراج النفط. إن نقطة النفط الآن تعادل نقطة الدم...

ركضت إحدى جاراتنا... بعد ساعة ركضت جارة أخرى... فكرت في نفسي: «لماذا يتراكضن؟». جئن من دون أي سبب. يجلسن قليلاً ويخرجن. وكانوا قد بثوا بالتلفزيون عدة مرات...

حتى الصباح لم نكن نعرف شيئاً. في الصباح اتصل ابني: «ماما، أنت ستكونين في البيت؟». «وماذا تريد؟ أنوي الذهاب إلى المخزن التجاري». «انتظريني. سآتي عندما ترسلين ناستيا إلى المدرسة». «فلتبقَ في البيت. إنها تسعل». «إذا كانت حرارتها غير مرتفعة، أرسليها إلى المدرسة». شعرت أن قلبي يسقط، وارتجف جسمي كله. أصابتني رجفة شاملة. ذهبت ناستيا إلى المدرسة، وأنا خرجت إلى الشرفة. أرى ابني يمشي مع خطيبته. لم يعد في وسعي الانتظار، دقيقتان وأخرج عن طوري! ركضت إلى مدخل الدرج وأصرخ إلى الأسفل: «ماذا حصل لأوليسيا؟». يبدو أنني صرخت بصوت قوي من الرحم... بحيث أنهما صرخا رداً على صرختي: «ماما! ماما!». خرجا من المصعد ووقفا. دون أدنى كلمة. «هل هي في المستشفى؟». «لا». دار كل شيء أمام عينيّ. كل شيء دار. ثم... لا أذكر جيداً... من أين اجتمع هذا العدد الكبير من الناس... جميع الجيران فتحو

أبوابهم، ورفعوني عن الأرض الإسمنتية، وأخذوا يهدئونني. وأنا أزحف على الأرض وأمسكت برجليّ، أقبل حذائي: «أيها الناس الطيبون... الناس الأعزاء... لا يمكنها أن تترك ناستيا... شمسها... نورها... أيها الأعزاء»... كنت أضرب جبيني في الأرض. في الدقائق الأولى، الإنسان لا يصدق، يتمسك بذرات الهواء. لم تمت، بل ستعود إلى البيت مقعدة. من دون رجلين... عمياء... لا بأس، سوف نقودها من يدها أنا وناستيا. المهم أنها حية! بودي أن أرجو أحداً... وأن أجثو على ركبتيّ...

أناس كثيرون... البيت ممتلئ بالناس الغرباء... يعطونني الدواء بالإبر - وأنا أرقد، أصحو - يستدعون الإسعاف السريع من جديد. في بيتي حرب... وعند الناس حياتهم الخاصة. لا أحد يدرك مصاب الآخرين، يكفيه إِن أدرك مصابه. أوه... جميعهم كانوا يظنون أنني نائمة، كنت أرقد وأسمع. أشعر بالمرارة...

- عندي ابنان. ما زالا في المدرسة. أجمع المال كي أعفيهم من الخدمة العسكرية...

- شعبنا صبور... هذا صحيح. الإنسان من لحم... الحرب من فعل فاعل...

- الصيانة الأوروبية للشقة كلفتنا كثيراً من المال. حسناً أننا اشترينا فرن الغاز الإيطالي مسبقاً، بالأسعار القديمة. وضعنا نوافذ بلاستيكية. وباباً حديدياً مدرعاً...

- والأطفال يكبرون... نفرح بينما هم صغار...

- هناك حرب، وهنا حرب... كل يوم يطلقون النار ويفجرون. من المرعب أن تركب الباص، وتخشى الدخول إلى المترو...

- كان ابن الجيران عاطلاً عن العمل. كان يسْكر. تطوع في قوات

مكافحة الإرهاب. بعد عام رجع من تشيشنا بحقيبة كبيرة ملأى بالأموال: اشترى سيارة، واشترى لزوجته معطفاً من الفرو وخاتماً ذهبياً. سافر مع أسرته إلى مصر... الآن، من دون مال أنت تساوي صفراً على الشمال. ومن أين الحصول على المال؟

- يسرقون... يقسّمون روسيا إلى قطع صغيرة... كعكة كبيرة!

- إنها حرب قذرة! كانت بعيدة في مكان ما... بعيدة... وحلّت الآن في بيتي. علّقت لأوليسيا صليباً في رقبتها... ولم يحمها. (تبكي).

بعد يوم أحضروها لنا... كل شيء ينزف... التابوت رطب مبلل... مسحناه بالستائر. قيادة الشرطة: بسرعة... بسرعة يجب دفنها. «لا تفتحوا التابوت. ثمة هلام». وفتحنا التابوت. كنا نأمل جميعاً، أن ثمة خطأ. قالوا في التلفزيون: أوليسيا نيكولايفا... إحدى وعشرون سنة... العمر غير صحيح. فجأة قد تكون أوليسيا أخرى؟ ليست ابنتنا. «ثمة هلام»... أعطونا وثيقة: «إلحاق الأذى بالنفس بشكل مقصود بطلقة من سلاح الخدمة في الجزء الأيمن من الرأس»... وماذا تُقدم لنا هذه الورقة! أريد أن أرى بنفسي، أن ألمس. أن أمسّد بيدي. عندما فتحنا التابوت: كان وجهها حياً، جيداً... وثقب صغير في الجانب الأيسر... صغير جداً جداً، بالكاد أن يدخل قلم الرصاص فيه. وهذه كذبة ثانية، إضافة إلى العمر، الثقب كان في الناحية اليسرى وليس اليمنى، كما هو مكتوب في الوثيقة. ذهبتْ إلى الشيشان مع وحدتها المشتركة من رجال الشرطة من كامل منطقة ريازان، وساعَدَنا في دفنها قسم الشرطة، حيث كانت تخدم. رفاقها في الخدمة. وهم جميعاً اعترضوا بصوت واحد: أي انتحار هذا؟ إنه ليس انتحاراً، فالطلقة من على بعد مترين أو ثلاثة... إطلاق نار؟! لكن القيادة كانت في عجلة من أمرها لدفنها. كانت تساعدنا، تدفعنا. أحضروها لنا في وقت متأخر من المساء، ودفنّاها في اليوم التالي في الساعة الثانية عشر

ظهراً. في المقبرة... أوه... أوه... لم تكن لدي قوة... لا يمكن للإنسان أن تكون لديه القوة... وهم يسمّرون التابوت بالمسامير، ودموعي تسيل، كان بودي أن أبتلع المسامير. لم يكن هناك أحد من رؤسائها في المقبرة. تخلى الجميع عنّا... الدولة هي الأولى... رفضوا في الكنيسة قراءة صلاة الدفن: إنها آثمة... الرب لا يقبل هذه الروح الضالة... وكيف هذا... كيف هذا؟ أنا الآن أذهب إلى الكنيسة... أشعل شمعة... ذات مرة اقتربت من "أبونا": «هل الله يحب الأرواح الجميلة وحدها؟ إذا كان الأمر كذلك، فعلام وجوده إذاً؟». رويت له كل شيء... لقد رويت هذا مرات عديدة... (تصمت). "أبونا" عندنا شاب... بكى وقال: «كيف لا تزالين حية، ولست في مستشفى المجانين؟ امنحها، يا إلهي، مملكة السماء!». وصلّى على ابنتي... أما الناس فكانوا يقولون كل شيء: الفتاة أطلقت النار على نفسها بسبب رجل. كانت في حالة سُكر. الجميع يعرف أنهم هناك يستغرقون في الشرب. الرجال والنساء. كان يكفيني حزني...

كانت ترتّب حقيبتها... وكان بودي أن أدوس على كل شيء، أن أمزق كل شيء. كنت أعض أصابعي، ولم أستطع النوم. عظامي كانت كأنها مكسرة، الرجفة تسيطر على جسمي. لا أنام... وأرى أحلاماً رهيبة: جليد أبدي، شتاء صقيعي أبدي. وكل شيء بلون فضي-أزرق... وكانت ابنتي وحفيدتي ناستيا تسبحان في الماء بعيداً، ولا تصلان إلى الشاطئ. لا شيء سوى الماء... أرى ناستيا، أما أوليسيا فقد اختفت من أمام عيني... لا أراها... حتى في الحلم، شعرت بالخوف: «أوليسكا! أوليسكا!». أناديها. تظهر، ولكن ليس كما هي في الحياة، بل كصورة... وعلى الجهة اليسرى لديها كدمة. بالذات، في ذلك المكان الذي اخترقته الرصاصة... (تصمت). حدث هذا كله عندما كانت ترتب الحقيبة... «ماما، أنا مسافرة. لقد كتبت تقريري». «أنت وحدك تربين الطفلة. لا يحق لهم إرسالك في

مهمة». «ماما، سيسرّحونني إن لم أذهب. أنت تعرفين: عندنا كل شيء تطوعي وإجباري. ولكن، أنت لا تبكِ... لقد توقفوا عن إطلاق النار هناك الآن، إنهم يشيدون ويبنون. وأنا سوف أحرس. سأسافر وأرتزق، مثل الآخرين». لقد سافرتْ إلى هناك فتياتهم، كل شيء كان عادياً. «سآخذك في سياحة إلى مصر، وسنرى الأهرامات». لقد كان حلمنا. كانت تريد أن تُفرح أمها. كنا نعيش حياة بائسة... مادياً... تخرجين إلى المدينة، الإعلانات والدعايات في كل مكان: اشترِ سيارة... خُذ قرضاً... اشترِ! خذا في أي مخزن تجاري وفي منتصف الصالة طاولة أو طاولتان، يحررون القروض. هناك دوماً طابور حول الطاولات. لقد تعب الناس من البؤس والفقر، وجميعهم يريدون أن يحيوا بكل معنى الكلمة. في غير مرة لم أكن أعرف بم أطعمهم، حتى البطاطا تكاد أن تنفد. وكذلك المعكرونة. لم يكن لديَّ ما يكفي لركوب حافلة الترولي. بعد تخرجها من المعهد المتوسط، انتسبت إلى المعهد التربوي، قسم علم النفس، درست فيه سنة، وليست لدينا نقود كافية لقسط المعهد. فَصلوها من المعهد. راتب أمي التقاعدي مئة دولار، وراتبي التقاعدي مئة دولار. في الأعلى... إنهم يستخرجون من هناك النفط والغاز... لكن عائداتها من الدولارات لا تعود إلينا، بل إلى جيوبهم. الناس البسطاء، مثلنا، يسيرون في المخازن التجارية الضخمة، ويشاهدون فقط، كما يسيرون في المتاحف. أما في الإذاعة، وكضرر مقصود موجه للشعب من أجل إثارة غضبه، يذيعون - أحبوا الأغنياء! الأغنياء سينقذوننا! سيقدمون فرص العمل... يظهرون كيف يستجمون، ماذا يأكلون... بيوتهم مجهزة بالحمامات الفارهة... لديهم بستانيهم... طبّاخهم... كما كان سابقاً عند الإقطاعيين... في عهد القيصر... تتابعين على التلفزيون مساء: أية قذارة، واستلقِ للنوم. في السابق كثير من الناس كانوا يصوتون ليافلينسكي ونيمتسوف... أنا كنت ناشطة اجتماعية، وكنت

أشارك في جميع الانتخابات. كنت وطنية! كان يروقني نيمتسوف لأنه شاب وجميل. وبعدها رأى الجميع أن الديمقراطيين أيضاً يريدون حياة مرفهة. ونسونا. الإنسان غبار... ذرة من الغبار... اتجه الشعب من جديد نحو الشيوعيين... في عهدهم لم يكن هناك مليارات لدى أي كان، لدى الجميع كان يوجد القليل، وكان هذا كافياً للجميع. كل واحد كان يشعر بنفسه إنساناً. وأنا كنت مثل الجميع.

أنا إنسان سوفييتي، وأمي إنسان سوفييتي. بنينا الاشتراكية مع الشيوعية. كنا نربي الأطفال على أن التجارة معيبة، وأن السعادة ليست بالمال. كن شريفاً، وضحِّ بحياتك في سبيل الوطن، هذا أغلى شيء لدينا. كنت أفتخر طيلة حياتي بأنني إنسان سوفييتي، أما الآن فأصبح كأنه عيب، كأنه غير كامل الحقوق. كانت عندنا المثل العليا شيوعية. الآن المثل العليا رأسمالية: «لا ترحم أحداً، لأن أحداً لن يرحمك». كانت تقول لي ابنتي أوليسكا: «ماما، أنت تعيشين في بلاد لم يعد لها وجود منذ زمن. أنت لا يمكنك أن تساعديني في شيء». ما الذي فعلوه معنا؟ ما الذي حصل لنا... (تتوقف). كم بودي أن أقول لك الكثير! الكثير! لكن، ما هو المهم؟ بعد موت أوليسكا... عثرت في دفترها المدرسي على موضوع تعبير: «ما هي الحياة؟». كتبت فيه: «أنا أرسم لنفسي المثل الأعلى للإنسان. هدف الحياة هو الذي يدفعك للارتقاء إلى الأعلى»... أنا علّمتها هذا... (تنوح). ذهبت إلى الحرب... إنها غير قادرة على قتل فأر... كل شيء حدث ليس كما يجب أن يكون، ولا أعرف، كيف كان. يخفون عني... (تصرخ). استشهدت ابنتي دون أثر. هذا لا يجوز! أمي في الحرب الوطنية العظمى كان عمرها اثني عشر عاماً. تم إجلاؤهم إلى سيبيريا. الأطفال... كانوا هناك يعملون ست عشرة ساعة في اليوم... مثل الكبار. من أجل قسيمة في المطعم، حيث يعطونهم زبدية من المعكرونة وقطعة من الخبز.

قطعة خبز! كانوا يصنعون قذائف للجبهة. كانوا يموتون خلف مخارطهم ومكناتهم لأنهم كانوا صغاراً. كانت تدرك آنذاك لماذا كان الناس يقتل أحدهم الآخر، لكنها لا تدرك لماذا الآن يقتلون. ولا أحد يفهم أو يدرك. إنها حرب قذرة! أسمع في التلفزيون أسماء مدن شيشانية: أرغون... غودرميس... خانكالا... فأطفئه فوراً...

بقيت الوثيقة عندي، في يدي: «إطلاق النار... بشكل مقصود... من سلاح الخدمة»... وبقيت ناستنكا... عمرها تسع سنوات. أنا الآن جدة وأم. وأنا مريضة كلياً، أجرى الجراحون لي ثلاث عمليات. لا أتمتع بالصحة أبداً، ومن أين تأتيني الصحة والعافية؟ نشأت في مقاطعة خابارفسك. غابات التايغا من حولنا. كنا نعيش في الأكواخ. لم نكن قد رأينا البرتقال والموز إلا بالصور. وكنا نأكل المعكرونة... الحليب المجفف والمعكرونة... وفي النادر معلبات لحم الأبقار... تطوعت أمي بعد الحرب إلى الشرق الأقصى، عندما استُدعيت الشبيبة لإعمار الشمال. كانوا يستدعون الشبيبة كما إلى الجبهة. كان يذهب إلى بناء المنشآت الكبرى المرهقون الجائعون، مثلنا. من ليس لديهم لا بيت ولا منزل. «خلف الضباب وخلف رائحة غابات التايغا». هذا من الأغاني... من الكتب... ونحن كنا ننتفخ جوعاً. لقد دفعنا الجوع إلى صنع المآثر. كبرتُ قليلاً والتحقت أيضاً بأعمال البناء الكبرى... شاركت وأمي في بناء الخط الحديدي الرئيس بايكال-آمور. ولدي ميدالية المشاركة في بنائه وباقة من الشهادات والوثائق. (تصمت). كان الصقيع في الشتاء يصل إلى خمسين درجة تحت الصفر، والأرض تتجمد لمسافة متر. تلال بيضاء. تلال بيضاء ناصعة تحت الثلج لدرجة أنها كانت غير مرئية في الطقس الجيد. ولم يكن من الممكن تمييزها. لقد أحببت هذه التلال من كل قلبي. لدى الإنسان وطن كبير ووطن صغير. هناك وطني الصغير. الجدران في الأكواخ رقيقة،

والمرحاض في الشارع... إنه الشباب! كنا نؤمن بالمستقبل، كنا نؤمن به دوماً... والحياة، حقيقة، كانت تسير نحو الأفضل عاماً بعد عام: بداية، لم يكن هناك تلفزيون عند أي كان أبداً، وفجأة ظهرت التلفزيونات. كنا نعيش في الأكواخ... وفجأة أخذوا يوزعون شققاً مستقلة. ووعدوا: «بأن الجيل الحالي من الناس السوفييت سوف يعيش في ظل الشيوعية». أنا... أنا سوف أعيش في ظل الشيوعية؟! (تضحك)... انتسبتُ إلى قسم الدراسة بالمراسلة في المعهد، وتخرجت باختصاص الاقتصاد. لم يكن هناك أقساط دراسية، كما هي الآن. ومن أين لي الدراسة الجامعية بأقساط؟ أشكر السلطة السوفييتية على هذا. كنت أعمل في القسم المالي من اللجنة التنفيذية المنطقية. اشتريت لنفسي معطفاً من الفرو... وشالاً من الفراء الناعم الجيد... شتاء أغطي وجهي، ولا يظهر إلا أنفي. كنت أذهب إلى الكولخوزات للتفتيش، وكانوا يربون في الكولخوزات السمور والثعالب والمَنك. أصبحت حياتنا جيدة. اشتريت لأمي معطفاً من الفرو أيضاً... وهنا أعلنوا لنا عن الرأسمالية... ووعدونا بأن الشيوعيين سيرحلون وسيعيش الجميع حياة جيدة. وشعبنا لا يصدق سريعاً. فقد علمته المصائب. ركض الناس على الفور لشراء علب الكبريت والملح. كانت تتردد كلمة "البيريسترويكا" وكأنها "الحرب". أمام أعيننا أخذوا يسرقون الكولخوزات... والمصانع... ثم اشتروها بقروش معدودة. كنا طيلة حياتنا نبني، وذهب كل شيء ببضعة قروش. أعطوا الشعب قسائم... ضحكوا عليه... لا تزال هذه القسام موجودة عندي الآن في البوفيه. وثيقة أوليسكا... وهذه الأوراق... فهل هذه هي الرأسمالية؟ لقد أمعنت النظر في الرأسماليين الروس، لم يكونوا كلهم من الروس، كان بينهم أرمن وأوكرانيون. أخذوا قروضاً ضخمة من الدولة ولم يعيدوها. كانت عيون هؤلاء الناس تلمع، كما لدى المعتقلين. هذا اللمعان المميز، كنت أعرفه

جيداً. هناك المعسكرات والأسلاك الشائكة في كل مكان. من كان يعمّر ويستصلح الشمال؟ المعتقلون ونحن الفقراء. البروليتاريا. لكننا لم نكن نظن أنفسنا هكذا...

قررت أمي... هناك مخرج وحيد، العودة إلى ريازان. هناك، حيث مسقط رأسنا. كانوا يطلقون النار تحت نوافذنا، كانوا يقتسمون الاتحاد السوفييتي. كانوا ينهبون... ويتقاسمون... وأصبح قطاع الطرق سادة وأرباب عمل، والأذكياء أغبياء. لقد شيدنا كل شيء وأعطيناه لقطاع الطرق واللصوص هؤلاء... هكذا ينتج؟ نحن رحلنا بأيدٍ فارغة، بحاجاتنا المنزلية. وتركنا لهم المصانع والمناجم والآبار... سافرنا في القطار أسبوعين، أخذنا معنا: الثلاجة، والكتب، والفرش... ومكنة فرم اللحم، والمواعين... وما شابه ذلك. بقيتُ أنظر في النافذة طيلة أسبوعين: الأرض الروسية بلا نهاية وبلا حدود. إنها «كبيرة ضخمة وثرية»، أمّنا روسيا أكبر وأثرى مما يجب، كي يستتب فيها الأمن والنظام. حدث هذا في العام الرابع والتسعين... في عهد يلتسين... فماذا كان ينتظرنا في بيتنا، في مسقط رأسنا؟ كان المعلمون يعملون أجراء عند الأذربيجانيين أصحاب الأكشاك، يبيعون الفواكه و"البيلميني". البازار في موسكو من محطات القطار وحتى الكرملين. وظهر من مكان ما الشحاذون والفقراء فجأة. ونحن جميعنا سوفييتيون! سوفييتيون! كلنا كنا نشعر فترة طويلة بالخجل، بالحرج.

في سوق المدينة تحدثت مع شيشاني... الحرب عندهم مستمرة منذ خمسة عشر عاماً، وهم يلجؤون إلى هنا. يزحفون على روسيا كلها... على مختلف الأنحاء... وأين هي الحرب... روسيا تحاربهم... بـ"العمليات الخاصة"... فما هي هذه الحرب؟ كان هذا الشيشاني شاباً في مقتبل العمر: «ماما، أنا لا أحارب. زوجتي روسية». لقد سمعت

قصة... يمكنني أن أرويها لك... فتاة شيشانية أحبت طياراً روسياً. شاباً جميلاً. وباتفاق مشترك بينهما اتفقا، وخطفها من عند والديها. وجلبها إلى روسيا. تزوجا. كما هو مطلوب. رُزقا بطفل صبي. لكنها كانت تبكي وتبكي باستمرار، فقد كانت تشفق على والديها. فكتبا لهما رسالة: اعذرونا... نحن نحب أحدنا الآخر... وأرسلا سلاماً لهما من أم الزوج الروسية. طيلة هذه السنوات كان إخوتها الشيشانيون يبحثون عنها، كانوا يريدون قتلها، لأنها ألحقت العار بأسرتها، تزوجت من روسي، وليس هذا فقط، بل من الروسي الذي كان يقصفهم ويقتلهم. وسرعان ما عثروا عليها من عنوان الرسالة على الظرف... ذبحها أحد إخوتها ثم جاء الثاني لينقلها إلى بيت الأسرة (تصمت). إنها حرب قذرة... إنها كارثة... جاءتني إلى بيتي. وأنا الآن أجمع كل شيء... أجمع كل شيء عن الشيشان حيث أعثر عليه. كنت أسأل كل من ألتقي به... وكنت أود الذهاب إلى هناك. كي يقتلوني هناك. (تبكي)... ولكنت سعيدة. تلك هي سعادتي كأم... أعرف امرأة فقدت ابنها، ولم يعثروا على فردة حذائه، فقد جاءت القذيفة فوقه. اعترفت لي بقولها: «كان يمكن أن أكون سعيدة لو دفن في أرض بلده. حتى ولو قطعة منه»... فقد كانت هذه سعادة بالنسبة إليها... سألني هذا الشاب الشيشاني: «ماما، هل عندك ابن؟». «عندي ابن، وعندي ابنة قُتلت في الشيشان». «أيها المواطنون الروس، أريد أن أسألكم، ما هذه الحرب؟ أنتم تقتلوننا وتشوهوننا، ثم تعالجوننا في مستشفياتكم. تقصفون بيوتنا وتنهبوها، ثم تعمّرونها. تقنعوننا بأن روسيا بيتنا، وعليَّ كل يوم أن أدفع رشوة للشرطة بسبب كنيتي الشيشانية، كي لا يقتلوني حتى الموت، وكي لا ينهبوني. أنا أقنعهم أنني لم آت لروسيا كي أقتل، ولا أريد أن أنسف بيوتهم. كان من الممكن أن يقتلوني في مدينتي غروزني... لكنهم يمكنهم أن يقتلوني هنا».

طالما قلبي ينبض... (بيأس). سوف أبحث عن الحقيقة. أريد أن أعرف كيف قُتلت ابنتي. أنا لا أصدق أحداً.

(تفتح عارضة البوفيه، حيث إلى جانب الأقداح الكريستالية توجد الوثائق والصور. تأخذها وتضعها على الطاولة).

كانت فتاة جميلة عندي... كانت متزعمة المدرسة. تحب التزلج على الجليد. تدرس على نحو معتدل... طبيعي... في الصف العاشر أحبت رومكا... أنا كنت، بالطبع، ضد علاقتهما، فهو أكبر منها بسبع سنوات. «ماما، وإذا كان هذا حباً؟». كان حباً مجنوناً، وإذا لم يتصل بها، كانت هي نفسها تتصل به. «... ولماذا تتصلين به؟». «وإذا كان هذا حباً؟». رومكا وحده، هو وحده في عينيها. كانت تنسى أمها. اليوم حفلة التخرج، في اليوم التالي وقعا عقد الزواج. كانت حاملاً. كان رومكا يشرب، يتشاجر، وهي كانت تبكي. كنت أكرهه. عاشا عاماً واحداً معاً. كان يغار عليها، ويقطِّع فساتينها الجيدة. يمسكها من شعرها، يفتله حول يديه، ويضرب رأسها بالحائط. كانت تصبر عليه، كانت تصبر... لم تكن تسمع كلام أمها. إلى أن هربت أخيراً، ولا أدري كيف، من بيته. إلى أين؟ إلى أمها... «ماما، أنقذيني!». فجاء ليسكن عندنا. استيقظت ليلاً... أسمع نشيجاً ما... فتحت باب الحمام، كان يجلس فوقها مشهراً سكيناً... أمسكت بالسكين، جرحت يديّ. في المرة التالية، أخرج مسدساً يعمل على الغاز، أظنه غير حقيقي. أجُرّ أوليسكا وأبعدها عنه، فيشهر المسدس في وجهي: «أنت الآن ستخرسين!». كنت أبكي وأبكي إلى أن انفصلا. لقد طردته... (تصمت). مر وقت... لم يمر نصف عام... عادت من العمل: «رومكا تزوج». «ومن أين عرفت؟». «أوصلني إلى المدينة». «وماذا في الأمر؟». «لا شيء». تزوج بسرعة. وكان حبها هذا حباً طفولياً. لا ينسى. (تأخذ صفحة من رزمة الوثائق). جاء في تقرير الطبيب الشرعي: إطلاق نار في الجانب الأيمن من

الرأس، والثقب كان في الجانب الأيسر. ثقب صغير جداً... ربما لم يره الطبيب الشرعي؟ وأُمر بالكتابة هكذا. دفعوا له مبلغاً جيداً.

كنت آمل... وأترقب عودة فريقها. وأسألهم... أصحح الصورة... الثقب في الجانب الأيسر، ويكتبون في الجانب الأيمن. عليَّ أن أعرف... الآن الوقت شتاءً. ثلج. يوماً ما كنت أحب الثلج. وابنتي أوليسكا كانت تحبه. تجهز أحذية التزلج مسبقاً، تدهنها بالورنيش. كان هذا قديماً... قديماً جداً. أشعر بالمرارة، بالمرارة... أنظر في النافذة: الناس يستعدون لعيد الميلاد، يركضون حاملين الهدايا، والألعاب. يحملون أشجار عيد الميلاد. وأنا في المطبخ أفتح الراديو. أصغي إلى إذاعتنا دوماً. الأخبار المحلية. أنتظر، وأخيراً جاءني الخبر: «فرقة شرطة ريازان عادت من مهمتها القتالية في الشيشان»، «أبناء وطننا أدوا واجبهم القتالي بشرف»، «ولم يسيئوا إلى سمعتنا»... استقبلوهم في المحطة بصورة احتفالية. الأوركسترا، باقات الورود. سلموا الجوائز والهدايا القيمة. جهاز تلفزيون للبعض، وساعات يد لآخرين... أبطال... الأبطال عادوا! ولا كلمة واحدة عن أوليسكا، لم يتذكرها أحد... أنا أنتظر... أمسك براديو الترانزستور أمام أذني... عليهم أن يتذكروها! بدأ فاصل إعلاني... دعاية لمسحوق الغسيل... (تبكي). لقد ذهبت ابنتي دون أثر. هذا لا يجوز! أوليسكا... كانت هي الأولى... التابوت "الشيشاني" الأول في المدينة... بعد شهرين جلبوا تابوتين آخرين: واحد لشرطي أكبر من أوليسكا، والثاني لشرطي شاب. شيعهما الشعب في المسرح... في مسرح يسينين. حرس شرف. إكليل من الرأي العام، وإكليل من محافظ المدينة... كلمات تأبين. دُفنا في سرادق الأبطال، حيث يُدفن قتلى "الأفغان"... والآن قتلى "الشيشان"... في المقبرة عندنا سرادقان: سرادق الأبطال وسرادق آخر يسميه الناس سرادق قطاع الطرق. قطاع الطرق يتحاربون فيما بينهم.

البيريسترويكا، تبادل إطلاق النار. لدى قطاع الطرق الأمكنة الأفضل في المقبرة. توابيت قطاع الطرق من الخشب الأحمر المزين بالذهب بثلاجات كهربائية. ليس نُصب تذكارية بل تلال التمجيد. الدولة هي من يضع النصب التذكارية للأبطال. وللجنود نصب تذكارية متواضعة. وليس للجميع. كانوا لا يضعون نصباً لعناصر مكافحة الإرهاب. أعرف أماً ذهبت إلى دائرة التجنيد لهذا الغرض، فرفضوا طلبها: «ابنك كان يحارب لقاء المال». باستثناء ابنتي أوليسكا... ترقد بعيدة عن الجميع، فهي برأيهم عملية انتحار بسيطة... أووووه... (لا تستطيع الكلام). حفيدتي ناستنكا... حددوا لها راتباً تقاعدياً عن أمها يبلغ ألفاً وخمسمئة روبل أي خمسين دولاراً في الشهر. أين الحقيقة؟ أين العدالة؟ الراتب التقاعدي ضئيل لأن أمها ليست بطلة! لو أن أمها قتلت أحداً ما، وفجرت قنبلة... لكن أمها قتلت نفسها، ولم تقتل أحداً آخر... ليست بطلة! كيف يمكنني شرح هذا للطفلة؟ ماذا سأقول لها؟ وكأن إحدى الصحف نشرت كلمات أوليسكا: «لن تشعر ابنتي بالخجل مني»... في الأيام الأولى بعد دفنها... جلست ناستنكا منعزلة، وكأنها غير موجودة، أو أنها لا تعرف أين هي. لم يجرؤ أحد على القول... أنا قلت لها: «أمك أوليسكا لم تعد موجودة»... كانت تقف وكأنها لم تسمعني، أنا كنت أبكي، وهي لم تبكِ. وفيما بعد... سأتذكر شيئاً عن أوليسكا... وهي لا تسمع. استمر هذا طويلاً، حتى أنني شعرت بالقلق. أخذتها إلى المعالج النفسي. فقيل لي: طفلة عادية طبيعية، لكنها مصدومة صدمة قوية. ذهبنا إلى والدها. أسأله: «أنت ستأخذ الطفلة؟». «وإلى أين سآخذها؟». عنده الآن هناك طفل في أسرة أخرى. «عندئذ عليك أن تتخلى عنها». «وكيف هذا؟ فقد أحتاج في سنوات هرمي إلى شيء ما... إلى شيء من المال». هذا هو أبوها... لا مساعدة تُرجى منه. أصدقاء أوليسكا وحدهم يزوروننا... في يوم ميلاد

ناستنكا يفدون دوماً ويحضرون قليلاً من المال. اشتروا لها حاسوباً. أصدقاؤها يتذكرونها.

بقيت أنتظر طويلاً مخابرة هاتفية. فرقة الشرطة عادت، قائدها وأولئك الذين كانوا معها. سيتصلون... بالتأكيد! الهاتف صامت دون رنين... بدأت بنفسي البحث عن أسمائهم وأرقام هواتفهم. قائد الفرقة كليمكين... قرأت في الصحيفة اسمه. هذا كل شيء! جميع الصحف كانت تكتب عنهم، المحاربون الروس الأشداء! أبطال ريازان. حتى أنه نُشرت مقالته في إحدى الصحف، وكان يشكر الفرقة على خدمتها الجيدة. وأنهم أدوا واجبهم بشرف... وبشرف... اتصلت بقسم الشرطة، حيث يعمل: «من فضلك، أرجو الحديث مع الرائد كليمكين». «ومن يسأل عنه؟». «لودميلا فاسيليفنا نيكالايفا... أم أوليسيا نيكالايفا». «ليس في مكتبه». «مشغول». «مسافر». أنت قائد عسكري... أنت بنفسك تعال إلى الأم وحدثها كيف كان وكيف حدث. طمئنها. اشكرها. هذا ما أفهمه... (تبكي). أبكي لكن دموعي حاقدة... لم أسمح لأوليسكا بالذهاب، طلبت منها ألا تذهب، لكن أمي قالت: «طالما هذا ضروري، فلتذهب». ضروري! أنا الآن أكره هذه الكلمة! لم أعد كما كنت... وعلام أحب وطني؟ كانوا يعدوننا بأن الديمقراطية عندما يعيش الجميع حياة جيدة. حيث تسود العدالة في كل مكان، والشرف والصدق. كل هذا كذب وخداع... الإنسان غبار... ذرة غبار... ثمة شيء واحد، هو كل شيء متوفر الآن بكميات كبيرة في المخازن التجارية. خذ! خذ! هذا لم يكن في ظل الاشتراكية. أنا، بالطبع، امرأة سوفييتية بسيطة... لم يعد أحد يصغي إليّ، لأنه ليس لدي نقود. لو توفر المال عندي لكان لي حديث آخر. لخافوا مني... الرؤساء والقادة... الآن، المال هو الذي يحكم...

أوليسكا سافرت... كانت فرحة: «أسافر مع كورمتشايا». كانتا امرأتان

في الفرقة. أولغا كورمتشايا... رأيتها في المحطة عندما ودعت ابنتي. قالت لها أوليسكا: «هذه أمي». كانت هناك لحظة في أثناء الوداع... ربما أوليها الآن أهمية خاصة. بعد كل شيء. تحضرت سيارات الباص للانطلاق... عزفوا النشيد الوطني، فبكى الجميع. كنت أقف من جانب، ولسبب ما ركضت إلى الجانب الآخر، صاحت بي أوليسكا بشي ما من خلال النافذة، وفهمت منها أنهم سيدورون إلى الوراء. فركضت كي أراها ثانية. وألوِّح لها بيدي. لكن سيارات الباص انطلقت إلى الأمام، ولم أرها. شعرت بوجع في قلبي. في اللحظة الأخيرة انقطعت قبضة الحقيبة... ربما، أنا الآن أتخيل هذا... ابنتي الحبيبة... (تبكي). عثرت في الاستعلامات على هاتف كورمتشايا... أتصل بها: «أنا أم أوليسيا... أريد أن ألتقي بك». لاذت بالصمت طويلاً، ومن ثم باستياء ما، بحقد ما، قالت: «لقد عانيت الأمرين... متى ستدعونني وشأني؟». وأغلقت سماعة الهاتف. اتصل للمرة الثانية: «أرجوك! عليّ أن أعرف... أتضرع إليك!». «يكفيني عذاباً!». اتصلت مرة ثالثة، بعد شهر غالباً... أمسكت أمها بسماعة الهاتف: «ابنتي ليست موجودة في البيت. سافرت إلى الشيشان». ثانية! إلى الشيشان؟ أتدركين؟ حتى في الحرب هناك من يتدبر أموره بشكل جيد. لكل نصيبه... الإنسان لا يفكر في الموت، أن يموت اليوم شيء مرعب، أما أن يموت يوماً ما، فهذا عادي. جميعهم خلال نصف السنة التي قضوها هناك استلموا ستين ألف روبل. تكفي لشراء سيارة مستعملة. ويحتفظون برواتبهم. وأوليسكا قبل سفرها اشترت غسالة بالتقسيط... وهاتفاً جوالاً... كانت تقول: «سأرجع وأسدد». والآن علينا نحن أن نسدد. ومن أين؟ يرسلون الإيصالات فنجمعها... ناستينكا لديها بوط رياضي قديم، أصبح صغيراً على قدميها، ترجع من المدرسة وتبكي، أصابع رجليها تؤلمها. أنا وأمي نجمع راتبينا

التقاعديين، ونحسب النقود، ونعدها، ولا يبق أي شيء منها بحلول نهاية الشهر. ولن تطلبي شيئاً ممن مات...

اثنان كانا معها في اللحظة الأخيرة... شاهدان. نقطة التفتيش والمرور... كشك متران بمترين ونصف. المناوبة الليلية. كانوا ثلاثة. الأول... «لقد جاءت»، قال لي على الهاتف، تحادثنا دقيقتين أو ثلاثاً... وكأنه خرج، لحاجة ما، أو استدعاه أحد. سمعت من وراء الباب صفقة، حتى أنني لم أفكر في البداية، أنها طلقة. عدت، وجدتها راقدة. مزاجها؟ كيف كان مزاجها؟ كان مزاجها جيداً... مزاجها كان طبيعياً... «مرحبا!». «مرحبا!». ضحكنا. ها ها... ها ها... الشاهد الثاني... اتصلت به على هاتف عمله... لم يحضر للقائي، ولم يسمحوا لي بالدخول لعنده... كان بقربها عندما أطلقت النار، وكأنه استدار في تلك اللحظة. في تلك الثانية... كشك الحراسة متران بمترين ونصف، ولم ير شيئاً. هل تصدقين؟ كنت أتوسل إليهما: قولا لي... عليّ أن أعرف... لن أذهب لأحد بعد بخصوص هذا. أتوسل! كانا يتهرّبان مني، وكأنه سكب فوقهما ماءً مغلياً. أمروهما بالصمت. حماية الرتب. أغلقوا فاهيهما بالدولارات... (تنوح). منذ البداية، عندما باشرت عملها في الشرطة، كان لا يروقني هذا الأمر: ابنتي أوليسكا شرطية؟ لم يكن يروقني ذلك! أبداً لم يعجبني... "فيها إنّ"... تعليمها معهد متوسط تقني وسنة في معهد عال. بقيتْ طويلاً تبحث عن عمل. وفي الشرطة أخذوها على الفور. كنت أشعر بالرعب... الشرطة هي بيزنس... مافيا... الناس عندنا يخافون من الشرطة، وفي كل أسرة هناك من كان يعاني من الشرطة. ويعذِّبون في جهاز الشرطة عندنا، ويشوهون. يخافون من رجال الشرطة، كما يخافون من قطاع الطرق. لا سمح الله! تقرئين في الصحف: ذئاب ضارية بكتّافيات ورتب... هنا يغتصبون... وهناك يقتلون... وهل كان هذا في العصر السوفييتي؟

والعياذ بالله! وحتى إذا ما حدث... لم يكونوا يتحدثون عن هذا كثيراً... ولم يكتبوا... وكنا نشعر بأنفسنا محميين. (استغرقت في التفكير)... نصف رجال الشرطة كانوا يحاربون، في أفغانستان أو في الشيشان. كانوا يَقتلون. نفسياتهم مضطربة، مريضة. كانوا هناك يحاربون السكان المدنيين. الآن عندنا هذه الحروب، حيث الجنود لا يتحاربون فيما بينهم فحسب، بل ويحاربون المواطنين المدنيين. يحاربون الناس العاديين. بالنسبة إليهم: الجميع أعداء؛ رجال، نساء، أطفال. وهنا، في وطنهم، يقتلون الإنسان، ثم يستغربون من أن عليهم تفسير ذلك. لم يكن ثمة حاجة إلى التفسير في الشيشان... كانت أوليسكا تجادلني: «ماما، أنت غير محقة. كل شيء يتوقف على الإنسان. الفتاة الشرطية، شيء جميل. قميص أزرق، كتّافيات، رتبة».

في المساء الأخير حضر إليها أصدقاؤها، لتوديعها. الآن أتذكر... سأتذكر الآن كل شيء... بقوا يتحادثون طيلة الليل...

- روسيا بلاد كبيرة عظيمة، وليست أنبوب غاز ورافعة...

- القرم ليس لنا... سلمناه... الشيشان تُحاربنا... تاتارستان تتململ... أريد أن أعيش في بلاد كبيرة. طائراتنا الميغ ستحط في ريغا...

- يريدون تكميم فم روسيا! أما قطاع الطرق الشيشان فهم أبطال... حقوق الإنسان! وهناك: كانوا يدخلون إلى البيت الروسي بالرشاشات إما أن نقتلكم وإما أن ترحلوا. الشيشاني الجيد هو الذي يقول لك أولاً: «اخرج»، ومن ثم يقتلك، أما الشيشاني الشرير فهو من يقتلك فوراً. الحقيبة، المحطة، روسيا. عبارات مكتوبة على الجدران: «لا تشتروا الشقق من ماشا، على أية حال ستصبح شققنا»، «أيها الروس، لا ترحلوا، نحن نحتاج إلى عبيد».

- جنديان روسيان وضابط روسي وقعوا في الأسر بيد الشيشان. قطعوا رأسي الجنديين، وأطلقوا سراح الضابط: «اذهب، وافقد عقلك». رأيتها على شريط الكاسيت... يقطعون الآذان، ويقصون الأصابع... في الأقبية، الروس العبيد، أسرى. يا لهم من وحوش!

- سأسافر! أنا في حاجة إلى المال من أجل العرس. أريد أن أتزوج. الفتاة جميلة... لن تنتظرني طويلاً...

- عندي صديق... خدمنا معاً في الجيش. كان يعيش في مدينة غروزني. جاره شيشاني. ذات يوم، جاءه وقال له: «أرجوك، ارحل!». «لماذا؟». «لأننا قريباً سنذبحكم». تركوا هناك شقة بثلاث غرف، يعيشون الآن في سكن جماعي في ساراتوف. لم يسمحوا لهم بنقل أي شيء. كانوا يصرخون عليهم: «فلتشترِ لكم روسيا كل شيء جديد. وهذا لنا!».

- روسيا جثت على ركبتيها، لكن لم يُقضَ عليها بعد. نحن روس وطنيون! علينا أن نقوم بواجبنا تجاه الوطن! نكتة: أيها الرفاق الجنود والضباط، إذا ما أبليتم بلاءً حسناً في الشيشان، فالوطن سيرسلكم "للاستجمام" في يوغوسلافيا. في أوروبا... كـ... س أمـ... كـ... م!

كان ابني يصبر، ويصبر، ولم يعد يحتمل. أخذ يؤنبني: «ماما، لن تحققي لنفسك شيئاً، سوى السكتة الدماغية». وأرسلني إلى المصحة. ويمكن القول، بالقوة، وبالمشادة. في المصحة تصادقت مع امرأة جيدة، ماتت ابنتها من عملية إجهاض، كنا نبكي معاً. وأصبحنا صديقتين. منذ فترة قصيرة هاتفتها، لقد ماتت. نامت وماتت. أنا أعرف أنها ماتت من الحزن والكآبة... لماذا أنا لا أموت؟ كان يسعدني أن أموت، لكنني لا أموت. (تبكي). عدت من المصحة... قالت لي أمي: «يا بنيتي، سيسجنونكِ، ولن يسامحوك، لأنك تسعين إلى الحقيقة». ما الذي حدث... ما إن ذهبت إلى المصحة، اتصلوا بها من الشرطة: «عليك

الحضور خلال أربع وعشرين ساعة إلى مكتب فلان الفلاني... وعدم حضورك سيؤدي إلى دفعك غرامة... وتوقيف لمدة خمسة عشر يوماً». أمي إنسانة خائفة، عندنا جميع الناس خائفون. أوجدي لي إنساناً متقدماً في السن غير خائف. وليس هذا فحسب... جاؤوا وحققوا مع الجيران: مَن نحن؟ وما هو سلوكنا؟ وسألوا عن أوليسكا: «هل رآها أحد ما ثملة؟». كما سألوا عن المخدرات... طالبونا في المستوصف ببطاقاتنا الصحية. تحققوا: أليس هناك أحد منا مسجل في مستشفى الأمراض العقلية؟ سيطر الاستياء عليّ لأجل كرامتي! كما سيطر الغضب! أمسكت بسماعة الهاتف... أتصل بالشرطة: «من هدد أمي؟ إنسانة في العقد التاسع من عمرها... من أجل أي شيء استدعيتموني؟». انتهت القضية بأن أرسلوا إليَّ بعد يوم استدعاء: «في مكتب فلان الفلاني... اسم المحقق». غرقت أمي في دموعها: «سيسجنونك». لم أعد أخاف من أي شيء. تفوه عليهم! على ستالين أن ينهض من قبره! أنا أرجوه أن ينهض من قبره! هذه كانت صلاتي... هل قليل عدد من اعتقل وأُعدم من رؤسائنا وقادتنا؟! أنا لا أشفق عليهم. أنا أريد دموعهم! (تبكي). جئت إلى هذا المكتب... كنيته فيدين... هاجمته من عتبة المكتب: «ماذا تريدون مني؟ جلبتم لي ابنتي في تابوت رطب... ألا يكفيكم هذا؟». «أنت امرأة جاهلة. لا تدركين أين أنت هنا. هنا نحن نطرح الأسئلة»... في البداية كان لوحده... ثم استدعى قائد أوليسكا المباشر... كليمكين... أخيراً سأراه! يدخل... توجهت إليه: «من قتل ابنتي؟ قل لي الحقيقة». «ابنتك غبية... مجنونة!». أوه، لم أعد أستطيع... انقلب إلى كتلة من الدماء... كان يصرخ، ويضرب الأرض برجليه. أوه! كانا يستفزانني... يحاولان جهدهما كي أصرخ أو أخرمش، مثل القطة، ما يعني أنني مجنونة، وابنتي أيضاً مجنونة. كان هدفهما إغلاق فمي... آه...

طالما أن قلبي ينبض... سوف أبحث عن الحقيقة... لا أخاف أحداً! لم أعد ممسحة يمسحون بي الأرض، ولست حشرة. لن يرجعوني ثانية إلى القفص. جلبوا لي ابنتي في تابوت رطب مبلل...

ركبت الحافلة الكهربائية للضواحي... جلس أمامي رجل: «ماذا أيتها الأم، ركبنا الحافلة؟ تعالي نتعارف». وقدم نفسه: «ضابط سابق، مقاول سابق، عضو سابق في حزب "يابلوكو"، الآن عاطل عن العمل». وأنا كل من يسألني، أحدثه عن همي: «عندي ابنة قُتلت في الشيشان... كانت رقيباً في الشرطة». لقد رويت قصتي هذه مراراً... (تصمت)... أصغى إليّ ثم بدأ يروي قصته:

«أنا نفسي كنت هناك. عدت. ولا أستطيع تدبير أمور حياتي. لا يمكنني وضع نفسي في هذه الأطر. لا يقبلونني في أي عمل: «آه... من الشيشان!». أنا أخاف الناس الآخرين... أتقيأ من الناس الآخرين... وما إن ألتقي بمن حارب في الشيشان، أشعر أنه أخي...

يقف شيشاني كبير السن وينظر: سيارتنا تغص بالعسكريين المسرحين من الخدمة. ينظر ويفكر: شباب روس عاديون، لكنهم كانوا للتو حاملي رشاشات، ومدفعيين... وقناصة... السترات عندنا جديدة، سراويل الجينز. مقابل ماذا اشتروها؟ مقابل ما كانوا يعملونه هنا. وما هو عملهم؟ الحرب... يطلقون النار... وهناك أطفال ونساء جميلات. انزع السلاح من الجنود، وألبسهم ثياباً مدنية... وسيصبحون سائقي جرارات، سائقي سيارات، طلاباً...

كنا نعيش خلف الأسلاك الشائكة... من حولنا الأبراج وحقول الألغام. عالم مغلق ضيق. منطقة مغلقة. الخروج منها محظور - يقتلونك. الموت للمحتلين! كنا نشرب جميعاً ونكثر من الشرب إلى الدرجة الوحشية. يوماً بعد يوم، ترين البيوت المهدمة، وكيف ينهبون الأثاث

ويقتلون الناس. وفجأة يخرج شيء من نفسكِ! يتوسع كل شيء... كل ما يمكنك توسيعه... يمكنك أن تسمح لنفسك بالكثير... أنت حيوان سكير والسلاح في يدك. وفي رأسك - نطفة وحدها...

عملُنا عمل جلادين... كنا نموت من أجل المافيا التي لم تسدد لنا حسابنا بعد، والتي كانت تخدعنا. لكنني لم أقتل الناس هنا، ولا في الشارع، بل في الحرب. كنت أرى الفتاة الروسية التي كان هؤلاء الوحوش يغتصبونها. ويحرقون ثدييها بسجائرهم، كي تأنَّ بصوت أقوى...

جلبت معي المال... شربت الفودكا مع الأصدقاء، واشتريت "مرسيدس" مستعملة...

(لم تعد تمسح دموعها). إليك إذاً أين كانت ابنتي أوليسكا... وإلى أين ذهبت. إنها الحرب القذرة... كانت بعيدة، بعيدة عني، وها هي الآن في بيتي. عامين... أطرقُ الأبواب، وأذهب إلى مختلف الدوائر. أكتب إلى النيابة العامة... في الحي، في المقاطعة... إلى النيابة العامة العمومية... (تريني رزمة من الرسائل). تصلني أجوبة شكلية روتينية... جبال من الأجوبة! «بخصوص واقعة موت ابنتك نعلمك...». وكلهم يكذبون: قُتلت في الثالث عشر من شهر نوفمبر/ تشرين ثاني، وفي الحقيقة في الحادي عشر، تغيرت زمرة دمها أكثر من مرة، كانت في بذلتها العسكرية تارة، وفي ثيابها المدنية تارة أخرى. الثقب على الجانب الأيسر بالقرب من الصدغ، وهم يكتبون في الجانب الأيمن... طلبت إجراء تحقيق من نائبنا في مجلس الدوما، أنا انتخبته، وصوَّتُّ له. كنت أثق بسلطتنا! استطعت الحصول على موعد لمقابلته. أقف في الطابق الأول من مجلس الدوما... انتفخت عيناي كقبضة اليد! أرى في كشك المجوهرات: خواتم ذهبية مع الماس، بيضات عيد الفصح الذهبية والفضية... وأقراطاً معلقة... طيلة حياتي لم أكسب من المال ما يمكنني من شراء أصغر خاتم ذهبي مع الماس

من المعروضين هناك. خاتم واحد... نوابنا... نواب الشعب... من أين لهم كل هذه الأموال؟ عندي رزمة من شهادات العمل الجيد الشريف... ولدى أمي مثلها... وعندهم أسهم في شركة "غازبروم العملاقة للغاز"... عندنا أوراق، وعندهم أموال (تصمت حانقة)... عبثاً جئت إلى هنا... عبثاً بكيت هناك... أعيدوا إليَّ ستالين... الشعب ينتظر ستالين! أخذوا ابنتي وجلبوا لي تابوتاً. تابوتاً رطباً مبللاً... ولا أحد يريد التحدث مع الأم... (تبكي). أنا الآن يمكنني العمل في الشرطة بنفسي... استعراض الحدث، محضر الجريمة. إذا كانت هناك حادثة انتحار، فسيبقى أثر الدم على المسدس، وعلى اليد يبقى مسحوق البارود... الآن أعرف كل شيء... لا أحب برنامج الأخبار في التلفزيون. كذب! أما الأفلام البوليسية... وجرائم القتل... فأتابعها كلها... صباحاً، أحياناً، لا أستطيع النهوض، رجلاي ويداي لا تسعفانني - الأفضل أن أستلقي... أتذكر أوليسكا... ثم أنهض وأمشي...

جمعت الأدلة بالنتف الصغيرة... بالكلمات... أحدهم بتأثير النشوة كشف سراً، كان عددهم سبعين شخصاً، وأحد المعارف همس في أذني. مدينتنا صغيرة... إنها ليست موسكو... اليوم أصبحت أتصور اللوحة كاملة... ما الذي حدث هناك... كانت عندهم حفلة سكر كبرى بمناسبة يوم الشرطة. ثملوا وشربوا لدرجة فقدان الذاكرة وأحدثوا فوضى كبيرة. لو أن أوليسكا ذهبت مع رفاقها... من قسمها، كانوا جميعاً غرباء... فرقة مجمّعة. وجدت نفسها مع رجال شرطة المرور. وهم ملوك، جيوبهم ممتلئة بالمال. يقفون على الطرق بالرشاشات ويأخذون المكافأة. والجميع يدفعون لهم. مركز من ذهب! الشباب يحبون المرح والقتل، والسكر ومجامعة النساء، ثلاث فرحات في الحرب. سكِروا وعربدوا كثيراً، واشتعلت عيونهم بالشر... أصبحوا وحوشاً... ويبدو أنهم

اغتصبوا جميع الفتيات. فتياتهم وزميلاتهم في الشرطة. وأوليسكا إما أنها لم تستسلم، وإما أنها هددتهم فيما بعد: «سأعتقلكم جميعاً». ولم يسمحوا لها بالخروج.

وهناك رواية أخرى... كانوا واقفين في المحرس، يسمحون بمرور السيارات. وهناك الجميع يلفون ويدورون، ويركضون كالمجانين، كي يجمعوا الأموال بأية وسائل. يبدو أن أحدهم جلب مواد مهربة محظورة، لن أقول ما هي ومن أين. لن أكذب. ربما مخدرات... وكل شيء كان متفقاً عليه، ومدفوع الأجر مسبقاً. كانت سيارة "نيفا"... جميعهم يتذكرون سيارة "نيفا"... ركبت أوليسكا رأسها... لسبب ما لم تسمح لهذه السيارة بالمرور... وأطلقوا النار عليها. كانت تمنع وصول أموال كبيرة، أعاقت أحدهم من استلامها. ويقال إن ضابطاً برتبة كبيرة مشارك في هذه العملية...

أمي أيضاً رأت في منامها سيارة "نيفا"... ذهبت إلى القارئة البصّارة... وضعتُ على الطاولة هذه الصورة... (تريني صورة أوليسكا) قالت البصّارة: «أرى سيارة "نيفا"».

تحادثت مع امرأة... إنها ممرضة. لا أعرف كيف كانت عندما ذهبت إلى الشيشان، كانت مرحة ربما. أما الآن فهي حاقدة، مثلي أنا. الآن، هناك كثير من الناس المستائين الغاضبين، لكنهم صامتون. كلهم كانوا يحلمون بأن يربحوا في الحياة الجديدة، ولم يربح إلا القليل، إلا من سحب بطاقة الحظ... لم يجهز أحد نفسه كي يقع في قاع الحفرة. الناس تعيش مع غضبها واستيائها، الاستياء لدى العديدين. (تصمت). وربما أوليسكا كانت ستعود مختلفة... وقد لا أعرفها... أووه... (تصمت). هذه المرأة كانت صريحة معي...

- ذهبتُ بحثاً عن الرومانسية! كان الجميع هناك يسخرون مني. وإذا ما

أردت الحقيقة، تركت كل شيء في بيتي بسبب حب عاثر مأساوي. كان لا فرق عندي بين أن يقتلني شيشاني، أو أن أموت من الكآبة والحزن.

من لم يتعامل مع الجثث، يظن أنها صامتة. إنها تتكلم دون أصوات. وهناك دوماً أصوات أخرى عندها. من مكان ما، لدى جثة ما، خرج ريح، ولدى أخرى عظم في داخلها انكسر. هناك دوماً خشخشة. يمكن للمرء أن يفقد عقله منها...

لم أرَ هناك رجلاً لا يشرب ولا يسكر ولا يطلق النار. يشربون ويطلقون الرصاص حيثما يريدون. ولم؟ ما من مجيب.

كان طبيباً جراحاً... كنت أظن أن الحب جمع بيننا. وقبل أن نغادر إلى بيوتنا، قال لي: «لا تتصلي، ولا تكتبي. إذا كنت سأخون في بلدي، فمع امرأة جميلة، لن أشعر بالخجل منها في عيني زوجتي». أنا لست آية في الجمال. لكنني كنت معه مرات عديدة ثلاثة أيام متواصلة في غرفة العمليات. إن هذه العاطفة... أقوى من الحب...

أنا الآن أخاف الرجال... لا يمكنني أن أكون مع من جاء من الحرب... إنهم تيوس! جميعهم تيوس! نويت العودة إلى الوطن... كان بودي أن آخذ معي بعض الأشياء... جهاز تسجيل، سجادة... أنا قلت لمدير المستشفى، أتركُ كل شيء. لا أريد أن أحمل الحرب إلى بيتي. نحن لم نحمل الحرب بحاجياتها، بل بأرواحنا...

سلمونا حاجات أوليسكا الشخصية: سترة عسكرية، تنورة... أعطونا قرطين ذهبيين، وسلسلة. في جيب السترة وجدت حبات من الفستق وقطعتين من الشوكولا. بحلول عيد الميلاد، اشترت نبيذاً وكانت تنوي إرساله مع أحد ما إلى البيت. أشعر بالمرارة، بالمرارة...

اكتبي أنت الحقيقة... ومن يخشاها؟ السلطة، أصبح من المستحيل

الوصول إليها... بقي عندنا: السلاح والإضراب. أو الاستلقاء على سكة الحديد. ولكن ليس هناك من قائد... من زعيم... وإلا لَهَبّ الناس منذ زمن طويل! إذا ما أعطوني سلاحاً، أنا أعرف على من أطلق النار... (تريني صحيفة). هل قرأتِ؟ ثمة رحلة سياحية إلى الشيشان. على المروحيات العسكرية ينقلون السياح ويعرضون مدينة غروزني المهدمة، والقرى المحروقة. هناك الحرب والإعمار يسيران جنباً إلى جنب. يطلقون النار ويبنون. ويعرضون. نحن ما زلنا نبكي، وهناك من يتاجر بدموعنا. بخوفنا. يتاجرون بها كما يتاجرون بالنفط.

(التقيت بها بعد بضعة أيام):

سابقاً، كنت أفهم حياتنا... تلك الحياة، وكيف عشناها... والآن لا أفهمها... أبداً...

عن الظلمة الشيطانية

والحياة الأخرى التي يمكن صنعها من هذه الحياة

يلينا رازدويفا – عاملة، 37 عاماً

من أجل هذه القصة، لم أستطع طويلاً العثور على "دليل"، على راوٍ أو محاور، حتى أنني لا أعرف كيف أسمي أولئك الذين بمساعدتهم أرحل إلى عوالم الإنسان. في حياتنا. كان الجميع يرفضون: «هذه الحالة للطبيب النفسي»، «بسبب أخيلتها المرضية رمت أم بأطفالها الثلاثة، هنا على قاضي التحقيق أن يحقق وليس الكاتب». كنت أسأل: «وماذا عن الساحرة ميديا ابنة الملك الإغريقي؟ كيف قتلت ميديا أولادها من أجل الحب؟». «هذه أسطورة، وعندنا أناس واقعيون». لكن الواقع هو غيتو للروائي. إن هذا هو عالمي الحر.

عرفت فيما بعد، أنه تم تصوير فيلم عن بطلتي باسم "الآلام" (استوديو فيشكا – فيلم). التقيت بمخرجة الفيلم إيرينا فاسيليفنا. كنا نتبادل الحديث ونعرض كاسيت الفيلم، ونتحادث من جديد.

من حديث المخرجة السينمائية إيرينا فاسيليفا:

– حدثوني عن هذه القصة... ولم تعجبني، شعرت بالخوف. كانوا يقنعونني بأن هذا سيكون فيلماً رائعاً عن الحب، ولا بد من السفر إلى مكان القصة وتصوير الفيلم. قصة روسية بالصميم! امرأة لديها زوج

وثلاثة أطفال أحبت معتقلاً سابقاً، بل مؤبداً، حُكم بالسجن المؤبد بسبب جريمته الوحشية، ومن أجله تركتْ الجميع، زوجها وأولادها وبيتها. لكن شيئاً ما كان يستوقفني...

منذ أقدم العصور تحب النساء في روسيا المحكومين بالأشغال الشاقة، إنهم آثمون، لكنهم معانون أيضاً. إنهم في حاجة إلى تشجيع وطمأنة روحية. إنها ثقافة الشفقة، يُحافظ الروس عليها بعناية، وخاصة في القرى والمدن الصغيرة. هناك تعيش نساء بسيطات، ليس لديهن إنترنت، لكنهن يستخدمن البريد. وبطريقة غريبة. الرجال يسكرون، ويتخاصمون، وهن يجلسن في الأمسيات وتكتب الواحدة منهن للأخرى الرسائل هناك، وفيها، في هذه المغلفات، قصص ساذجة بسيطة من الحياة، وهراء متنوع. زي من الأزياء، وصفة من الوصفات، وفي ختامها بالضرورة عناوين المعتقلين. لواحدة منهن أخ في المعتقل، أخبر عن رفاقه، ولدى واحدة أخرى جار أو زميل في الصف. يبثون عبر راديو الكلمات الشفوية... أحدهم سرق، "تزعرن"، روَّح عن نفسه، اعُتقل في السجن. خرج منه واعتقل ثانية. إنها قصص عادية! إذا ما أصغيت إليها فإن نصف الرجال في القرى كانوا قد اعتقلوا، أو هم معتقلون. ونحن مسيحيون، علينا مساعدة البؤساء. هناك نساء يتزوجن من هؤلاء الذين اعتقلوا أكثر من مرة أو حتى من القتلة. ليست لديَّ غطرسة كي أشرح لك ما هذه الظاهرة... إنها ظاهرة معقدة... لكن لدى هؤلاء الرجال إحساس برائحة تلك السيدات. وهنا غالباً نساء بحظ سيئ، لم يحققن ذواتهن. وحيدات. وهنا فجأة يصبحن ضروريات، لازمات، يحمين أحداً ما. كأحد سبل إحداث تغيير في حياتهن. دواء ما...

وفي نهاية الأمر، سافرنا جميعاً لتصوير الفيلم. كان بودي أن أروي أنه في عصرنا البراغماتي هذا ثمة أناس لديهم منطق آخر للوجود. وكم

هم ضعفاء بائسون! نحن نتحدث كثيراً عن شعبنا. بعضهم يجعلونه مثلاً أعلى، وآخرون يجعلونه كالماشية. كالسوفييت. ولكن، في الحقيقة، نحن لا نعرف شعبنا. بيننا هوة... أنا دوماً أصور أفلاماً تاريخية، وفي أي تاريخ ثمة كل شيء. فيه دوماً ثمة شيآن رئيسان - الحب والموت.

حدث هذا في منطقة كالوجسكايا، في قرية نائية صماء... نسافر إلى هناك... أنظر في النافذة: كل شيء بلا نهاية، الحقول والغابة والسماء. على الهضاب تلمع المعابد والكنائس البيضاء. قوة وسكون. شيء ما قديم. نسافر، نسافر... من الطريق الرئيس انعطفنا إلى طريق عادية... أووه! طرق روسية، استثنائية، ليس في استطاعة أية دبابة عبورها. من حفرتين إلى ثلاثة في كل ثلاثة أمتار. وهذا يعد طريقاً جيداً. وعلى الجانبين قرى... أكواخ منحنية، مائلة بأسيجة مكسرة، تتجول في طرقاتها الدجاجات والكلاب. منذ الصباح، طابور المدمنين الكحوليين أمام محل المشروبات الروحية المغلق. كل شيء مألوف إلى درجة التشنج في الحنجرة... وفي مركز القرية يقف، كما كان يقف منذ زمن طويل، نصب لينين التذكاري من الجبس... (تصمت). كان زمان... كأننا لا نصدق أنه كان وأننا هكذا كنا... عندما جاء غورباتشوف، كان الجميع يركضون مشدوهين من الفرحة. كنا نعيش في الأحلام، في الأوهام. انسحبنا بأرواحنا إلى المطابخ. كنا نريد روسيا جديدة... وبعد عشرين عاماً فطنّا: ومن أين نأتي بها؟ لم تكن هناك روسيا جديدة وليس لها وجود. هناك أحد ما أبدى ملاحظة صائبة: خلال خمس سنوات يمكن أن يتغير كل شيء في روسيا، وخلال مئتي عام لن يتغير شيء أبداً. امتدادات هائلة بلا حدود، مع سيكولوجية العبيد... لن يمكنك تغيير روسيا في مطابخ موسكو. أعادوا النسر القيصري وأبقوا النشيد الوطني الستاليني. موسكو روسية... رأسمالية... وروسيا كما كانت سوفييتية ولا تزال. هناك لم يروا الديمقراطيين بأعينهم، ولو رأوهم

لمزقوهم. الغالبية تريد الحصة الغذائية والزعيم. الفودكا المقلدة الرخيصة تجري كالنهر... (تضحك) أنا أشعر أنني وأنت من جيل "المطابخ"... بدأنا الحديث عن الحب وبعد خمسة دقائق نبحث كيف نحسِّن روسيا. أما روسيا فلا تهتم بنا، وتعيش حياتها التي ألفتها...

رجل سكّير أرانا أين تعيش بطلتنا. خرجتْ من الكوخ... حازت على إعجابي على الفور. عينان شديدتا الزرقة، جليلة، ويمكن القول إنها حسناء. حسناء روسية! ومثل هذه المرأة سوف تلمع وتبرق سواء في كوخ ريفي بائس أو في شقة موسكوفية أنيقة. وتصوري، أنها عروس قاتل ما، نحن لم نره بعد، فهو محكوم بالسجن المؤبد، ومصاب بمرض السل. سمعتْ هدف قدومنا، فضحكت: «هذا مسلسلي». أمشي وأفكر، كيف أقول إننا سنصور هذا المسلسل، فقد تخاف من الكاميرا؟ لكنها قالت لي: «أنا امرأة غبية، بحيث أنني أروي قصتي لكل من أصادفه في طريقي. بعضهم يبكون، وآخرون يلعنون. إذا كنت ترغبين في ذلك، فسأروي لك قصتي». إنها تروي...

الحب

- أنا لم أكن أنوي الزواج، لكنني بالطبع، كنت أحلم به. كان عمري ثمانية عشر عاماً. إنه هو! إنه هو! وكيف سيكون؟ ذات يوم رأيت في الحلم: أنا أسير في المرج باتجاه النهر، والنهر عندنا خلف القرية، فظهر فجأة أمامي شاب طويل جميل. يأخذني من يدي ويقول: «أنت عروسي. عروسي أمام الله». استيقظت وبدأت أفكر: عليّ ألا أنساه... ألا أنسى وجهه. بقي وجهه في ذاكرتي وكأنه برنامج ما. مر عام... عامان... لم ألتقِ بمثل هذا الشاب. وكان يوشا يغازلني دوماً، كان حذاءً. دعاني للزواج. كنت أجيبه بصدق أنني لا أحبه، وأنتظر ذلك الشاب الذي رأيته في حلمي.

يوماً ما سألتقيه، لا يمكن ألا ألتقيه، هذا مستحيل. كان ليوشا يضحك... وأبي وأمي كانا يضحكان... كانا يقنعانني بأن عليّ أن أتزوج، والحب سيأتي فيما بعد.

ما بك تبتسمين؟ الجميع يضحكون عليّ... أنا أعرف... إذا كنت تعيشين كما يحس قلبك فأنت غير طبيعية. تقولين الحقيقة فلا يصدقونك، وعندما تكذبين فتلك هي الحقيقة! يسير شاب من معارفي، وكنت أحفر في البستان: «أوه، اسمع يا بيتيا، رأيتك بالحلم منذ أيام». «أوه، لا حاجة! كل شيء إلا في الحلم!». وابتعد عني كما يبتعد عن مصابة بالطاعون. أنا لست كالجميع، ينفرون مني... لا أريد أن أُعجب أحداً، ولا أهتم بهندامي ولا أتجمّل. ولا أتقن المغازلة. أتقن الحديث وحده. في فترة سابقة كنت أرغب في الالتحاق بالدير، ثم حسبت أنني من الممكن أن أكون كاهنة خارج الدير، وحتى في بيتي. إنه أسلوب حياة.

تزوجت. يا إلهي! كم أليوشا طيب! كم هو قوي! كان يأخذ المحراك الحديدي الثخين ويحنيه. كم أحببته! ولدت له ابناً. بعد الولادة حدث لي شيء، ربما هو صدمة بعد الولادة، صرت أنفر من الرجال. لديَّ طفل، وما حاجتي إلى زوج؟ كان في إمكاني الحديث إليه، وغسل غسيله، وتحضير طعامه، وترتيب سريره، ولكن لم يكن في استطاعتي أن أكون معه كرجل... كنت أصرخ! كنت أُصاب بهيستريا! تعذبنا معاً على هذا النحو طيلة عامين، وخرجت من بيته، أخذت طفلي على يدي وخرجت. ولم يكن لديّ من أذهب إليه. فقد توفي أبي وأمي. وأختي بعيدة جداً عني في مكان ما بكامتشاتكا... كان عندي صديق اسمه يورا، كان يحبني منذ أيام المدرسة، لكنه لم يعترف لي يوماً بحبه. أنا كبيرة الحجم، طويلة القامة، وهو صغير الجسم، قصير القامة، أقصر مني بكثير. كان يرعى الأبقار ويقرأ الكتب. كان يعرف القصص المختلفة، ويحل بسرعة الكلمات المتقاطعة.

طرقت بابه: «يورا، نحن أصدقاء. هل يمكنني الإقامة عندك مؤقتاً؟ سأكون في بيتك، بشرط ألا تقترب مني. أرجوك، لا تلمسني». فقال: «حسناً».

وعشنا معاً، عشنا... أفكر في نفسي: إنه يحبني، يتصرف معي بطريقة جميلة، لا يطالبني بأي شيء. لماذا أعذب هذا الإنسان؟ ذهبنا لتسجيل زواجنا. كان يريد أن نتزوج في الكنيسة، حسب الطقوس الدينية، اعترفت له آنذاك أنه لا يمكنني الزواج في الكنيسة... وحدثته عن حلمي، وعن أنني أنتظر حبيّ... يورا أيضاً سخر مني: «أنت كالطفل. تؤمنين بالمعجزة. ولكن لن يحبك أحد كما أحبك أنا». ولدت له ابنين. خمسة عشر عاماً عشنا معاً، يمسك أحدنا بيد الآخر. كان الناس يستغربون... كثيرون يعيشون دون حب، ويشاهدون الحب على شاشة التلفزيون لا غير. الإنسان من دون حب كزهرة من دون ماء...

لدينا عادة مألوفة ومنتشرة... الفتيات والنساء الشابات يكتبن رسائل إلى السجن... جميع صديقاتي، وأنا... منذ سنوات المدرسة كنا نكتب الرسائل. أرسلت مئات من هذه الرسائل واستلمت مئات من الردود. وفي تلك المرة... كانت كالعادة دوماً... تصرخ موزعة البريد: «لينكا، لديك رسالة حكومية». أركض... أمسك بالرسالة: ختم السجن، رمز بريدي خاص. بدأ قلبي فجأة ينبض بقوة شديدة. وما إن رأيت خط المرسِل حتى شعرت أنه قريب جداً مني، حتى أنني لم أستطع قراءة الرسالة من شدة اضطرابي. أنا حالمة، لكنني أدرك الواقع أيضاً. ليست الرسالة الأولى من نوعها... النص بسيط: أختي، شكراً لك على عباراتك اللطيفة... بالطبع، أنت لست أختي، ولكنك مثل أختي... كتبت رسالة جوابية في الأمسية ذاتها: «أرسلْ صوراً لك، أريد أن أرى وجهك».

جاءني الرد مع الصور. أنظرُ: إنه ذلك الشاب... ذلك الشاب الذي رأيته في الحلم... حبّي! انتظرته عشرين عاماً. لم أستطع أن أشرح شيئاً

لأحد. إنها كالحكاية. اعترفت لزوجي مباشرة: «عثرت على حبي». كان زوجي يبكي، يتوسل إليَّ، يحاول إقناعي: «عندنا ثلاثة أطفال. يجب تنشئتهم ورعايتهم». وأنا كنت أبكي: «يورا، أنا أعرف أنك إنسان طيب، والأطفال لن يُحرموا من الحب والرعاية معك». الجيران... صديقاتي... أختي... جميعهم أدانوني واستنكروا قراري. أنا الآن وحيدة.

اشتريت تذكرة سفر من المحطة... كانت تقف إلى جانبي امرأة، تحادثنا. تسألني: «إلى أين تسافرين؟». «إلى زوجي» لم يكن زوجي بعد، لكنني كنت أعرف أنه سيكون. «وأين زوجك؟». «في السجن». «وماذا فعل؟». «قتل إنساناً». «وكم من السنين حكموا عليه؟». «مؤبد، طيلة حياته». «آه... يا لك من بائسة!». «لا تشفقي عليَّ. أنا أحبه».

أيَّ إنسان يجب أن يحبه إنسان ما. إنسان واحد على الأقل. الحب، إنه... سأحدثكِ ما هو الحب... إنه يعاني من مرض السل، جميعهم في السجن مصابون بمرض السل، بسبب الطعام السيئ والكآبة والحنين. قيل لي إن دهون الكلب تساعد. بحثت في القرية، سألت عنه وعثرت عليه. ثم علِمت أن دهون الغُرير يساعد أحسن في الشفاء من السل. اشتريته من الصيدلية. باهظ الثمن! يحتاج إلى سجائر، معلبات لحم البقر... بدأت أعمل في المخبز، الأجر فيه أعلى من أجري في الشركة. العمل قاس وشاق. المخابز القديمة ترتفع فيها الحرارة لدرجة أننا نخلع جميع ثيابنا، ونبقى في الصدارة والسروال القصير. أحمل أكياس الطحين بوزن خمسين كيلوغراماً، وحمّالات الخبز بمئة كيلوغرام. وأكتب له الرسائل كل يوم.

تتابع إيرا فاسيليفا حديثها:

- هذا هو الحب... إنسانة جامحة، متهورة، سريعة... يفور ويغلي في داخلها، تريد كل شيء بأسرع وقت. كل شيء بشكل جامح متطرف، تضرب بلا حدود. كان الجيران يحدثونني... كان النازحون الطاجيكيون

يمرون عبر القرية، عندهم كثير جداً من الأطفال، إنهم جائعون، شبه عراة، أعطتهم من بيتها كل ما كانت تستطيعه: حرامات، وسائد... ملاعق... «عندنا كل شيء أكثر من اللازم، وليس لدى الناس شيء». وعندها في كوخها لا شيء سوى الطاولة والكراسي... يمكن القول إنها بائسة. تأكل من بستانها البطاطا، والكوسا. وتشرب الحليب. كانت تطمئن زوجها وأطفالها: «لا بأس، في الخريف سيرحل المصطافون ويتركون شيئاً ما». إلى هناك في الصيف يفد الموسكوفيون، أماكن رائعة الجمال، يفد كثير من الرسامين والفنانين، اشتروا جميع البيوت المهجورة. كانوا يلتقطون بعد رحيل المصطافين كل شيء، حتى أكياس النايلون. القرية بائسة، يسكنها كبار السن، والسكارى... لدى صديقتها وُلد طفل، وليس عندها ثلاجة. أعطتها لينا ثلاجتها: «أطفالي كبروا، وهنا طفل رضيع. خذيه!». ليس لدى الإنسان شيء، ويتضح أنه يمكنه تقديم الكثير. ذلك هو النمط الروسي... ذلك هو الإنسان الروسي، الذي كتب عنه دوستويفسكي بأنه واسع الروح، كالأرض الروسية. لم تغيِّره الاشتراكية، ولن تغيره الرأسمالية. لا الثراء، ولا البؤس. يجلس رجال تحت المخزن التجاري، تقاسموا ثلاثتهم ثمن الفودكا. نخب أي شيء سيشربون؟ النخب: «سيفاستوبول مدينة روسية! سيفاستوبول ستكون لنا!». يفتخرون بأن الإنسان الروسي يمكنه شرب ليتر من الفودكا ولا يثمل. من عصر ستالين يتذكرون شيئاً واحداً، أنهم في عهده كانوا منتصرين...

كل هذا أردت تصويره... أنا بنفسي، كنت أوقف نفسي، كنت أخشى أن أدخل في قاع، لا أجد مخرجاً منه... أي مصير هذا، إنها قصة لهوليوود! موضوع جاهز للفيلم. مثلاً، عن صديقتها إيرا... معلمة سابقة للرياضيات، تركت المدرسة بسبب راتبها البائس. عندها ثلاثة أطفال، كانوا يرجونها: «ماما، تعالي نذهب إلى المخبز. لنشم رائحة الخبز». ذهبوا مساءً كي لا

يراهم أحد. والآن إيرا تعمل في المخبز، مثل صديقتها لينا، وهي مسرورة، لأن أولادها الآن يشبعون من الخبز. يسرقون... الجميع هناك يسرقون، وبفضل هذا يبقون أحياء. الحياة رهيبة، لا إنسانية، وأرواحهم حية. آه، لو سمعت عن أي شيء تتحدث النساء هنا!... لَما صدّقت! إنهن يتحدثن عن الحب. يمكن العيش من دون خبز، والعيش مستحيل من دون حب، إطلاقاً... نقطة على السطر... كانت إيرا تقرأ الرسائل التي تصل من السجين المعتقل، وهي نفسها تحرّقت شوقاً. عثرت في أقرب سجن على سارق. سرعان ما أُطلق سراحه... لاحقاً تطورت القصة حسب قوانين التراجيديا... أقسم الأيمان بأن يحبّها إلى الأبد. العرس. سرعان ما تحول توليا هذا إلى سكّير. كان لدى إيرا ثلاثة أطفال، وولدت طفلين منه. كان يتشاجر معها ويشاكسها، ويركض وراءها في أنحاء القرية، وفي الصباح يصحو ويضرب نفسه بيده على صدره. يندم. إيرا هي أيضاً امرأة جميلة! وذكية! ولكن على أية حال فالرجل الروسي خُلق هكذا، إنه ملك الوحوش...

والآن يجب أن أحدثك عن يورا... زوج لينا... يسمونه في القرية "الراعي القارئ"، إنه يرعى ويقرأ. رأيت عنده كثيراً من الكتب للفلاسفة الروس. يمكن الحديث معه عن غورباتشوف، وعن نيكولاي فودوروف، وعن البيريسترويكا وعن الخلود الإنساني... الرجال الآخرون يسكرون وهو يقرأ. إن يورا حالم... متأمل ومفكر بطبيعته... لينا تفخر بأنه يحل الكلمات المتقاطعة بسرعة البرق. لكن يورا قصير القامة... في طفولته نما بسرعة كبيرة جداً... كان في الصف السادس، أخذته أمه إلى موسكو. وهناك أعطوه إبرة غير موفقة في العمود الفقري. وتوقف تماماً عن النمو، طوله متر وخمسون سنتيمتراً. ولكنه، في الحقيقة، رجل جميل. بيد أنه إلى جانب زوجته يبدو قزماً. سعينا في الفيلم كي لا يلحظ المشاهد

هذا، كنت أرجو، وأتوسل إلى المصور: «حباً لله، افعل شيئاً!». كان من المستحيل إعطاء المشاهد العادي مفتاحاً بسيطاً للمسألة. هربت من القزم إلى شاب جميل عملاق. إنها امرأة عادية! أما يورا... فهو حكيم، إنه يعرف أن للسعادة ألواناً متعددة. إنه موافق على أن تبقى لينا إلى جانبه بأية شروط، ولتكن غير زوجة، بل صديقة. إلى من كانت تركض مع الرسائل التي وردتها من السجن؟ تركض إليه... وهما يقرآنها معاً... كان قلب يورا يتخبط بالدم، لكنه يصغي إليها... الحب لا ينتظر طويلاً... لا يحسدها على حبها... لا يشكو ولا يفكر في الشر... ليس بالطبع، كل شيء جميل كما أروي لك الآن... حياتهما ليست فقاعة وردية... كان يريد يورا أن ينتحر... أن يختفي في جهة مجهولة... كانت هناك مشاهد واقعية بالدم والجسد، لكن يورا يحبها...

التأمل

- كنت أحبها دوماً... منذ أيام المدرسة. تزوجتْ وسافرت إلى المدينة. وكنت أحبها.

حدث هذا صباحاً... كنت وأمي نجلس على المائدة ونشرب الشاي. أرى من النافذة: لينا تأتي إلينا حاملة طفلاً صغيراً على يديها. قلت لأمي: «ماما، ها هي لينا قد جاءت. يبدو لي أنها جاءت لعندي إلى الأبد». ومنذ ذلك اليوم أصبحتُ مرحاً وسعيداً، بل... وجميلاً... عندما تزوجنا، كنت في السماء السابعة من سعادتي. كنت أقبِّل خاتم زواجي الذي فقدته في اليوم التالي. شيء غريب، كان جميلاً في إصبعي، ولكن، في أثناء عملي، خلعت قفازي ونفضته، وعندما بدأت بارتدائه من جديد، لم أر الخاتم - بحثت عنه طويلاً ولم أجده. أما لينا فكانت تلبس خاتم الزواج، كان على إصبعها رخواً، لكنها لم تضعه أبداً إلى أن خلعته بنفسها...

كنا معاً في كل مكان... هكذا كنا نعيش! كنا نحب الذهاب معاً إلى النبع، أنا أحمل الدلو، ولينا إلى جانبي: «تعالَ سأحدثك بشيء». تحدثني بشيء ما... لم يكن لدينا ما يكفي من المال... لكن المال هو المال، والسعادة هي السعادة. ما إن يبدأ الربيع، تظهر الأزهار عندنا في البيت دوماً، في البداية كنت أجلبها لوحدي، وعندما كبر الأولاد، كنا نجلبها معاً. الجميع كانوا يحبون الأم. والأم عندنا كانت مرحة. كانت تعزف على البيانو (كانت تدرس في المدرسة الموسيقية). وكانت تغني. وتخترع الحكايات. وفي فترة من الفترات ظهر عندنا جهاز تلفزيون، جاءنا هدية. كان الأطفال يجلسون قرب شاشة التلفزيون، ومن المستحيل إبعادهم عنه، وقد أصبحوا عدوانيين، غرباء. فقامت زوجتي وسكبت فوقه الماء كحوض من السمك. احترق التلفزيون. كانت تقول لهم: «أيها الأطفال، الأفضل أن تشاهدوا الأزهار والأشجار. وأن تتحدثوا مع أبيكم وأمكم». لم يغضب الأطفال، لأن ماما قالت لهم هذا...

الطلاق

القاضي يسألها: «لماذا تريدين الطلاق؟». «لدينا وجهات نظر مختلفة للحياة». «هل زوجك يسكر؟ يضربك؟». «لا يشرب ولا يضرب. وعموماً زوجي إنسان رائع». «فلماذا تتطلقان؟». «لا وجود للحب». «سبب غير مشروع». وأجّلونا سنة لكي نعيد النظر، وكي نفكر...

كان الرجال يسخرون مني. كانوا يتشاورون فيما بينهم: نطرده من البيت، أو نسلّمه لمستشفى الأمراض العقلية... وما الذي ينقصها؟ هذا يمكن أن يحدث لأي إنسان. الكآبة، كالطاعون، تسيطر على الجميع. تركب القطار، تنظر في النافذة - والكآبة معك. الجمال من حولك، لا يمكنك أن تبعد عينيك، لكن دموعك تنهمر، ولا تعرف، ماذا بك. نعم،

إنه الحزن الروسي... حتى إذا ما كان لدى الإنسان كل شيء، ومع ذلك يشعر بأن هناك ما ينقصه. والناس يعيشون. يصبرون، بشكل ما، على كل شيء. أما هي فتقول: «يورا، أنت جيد جداً، أنت عندي أفضل صديق. أما هو فقد أمضى نصف حياته في السجن، لكنني في حاجة إليه. أنا أحبه. إن لم تسمح لي فسأموت. سوف أفعل كل ما هو مطلوب مني، لكنني سأكون ميتة». إنه المصير، إنه القدر...

تركتنا وسافرت. كان الأطفال يشتاقون إليها، ويبكون طويلاً، وبخاصة الصغير. ابننا ماتفي... كانوا ينتظرون أمهم والآن ينتظرونها. وأنا أنتظرها. كتبت لنا: «لا تبيعوا البيانو أبداً». الشيء الثمين الوحيد في بيتنا، الذي ورثته عن أبويها. البيانو المحبوب... تجلس الأسرة كلها في المساء، وهي تعزف لنا... وهل يمكنني بيعه من أجل المال؟ وهي نفسها لا يمكنها أن تمحوني من مصيرها، وتترك هناك مكاناً فارغاً، فهذا مستحيل. خمسة عشر عاماً عشنا معاً، لدينا أطفال. إنها إنسانة جيدة، لكنها غير أرضية، غير واقعية... إنها خفيفة... خفيفة... وأنا إنسان أرضي، واقعي. أنا من أولئك الذين يعيشون على الأرض.

كتبوا عنا في الصحيفة المحلية. ثم دعونا إلى موسكو إلى برنامج تلفزيوني. في التلفزيون، على النحو التالي: أنت تجلس، وكأنك على مسرح، تتحدث عن نفسك، وفي القاعة مشاهدون. ثم يبدأ النقاش. كم تعرضت لينا هناك للانتقاد والتأنيب! وبخاصة من جانب النساء: «إنها مهووسة! شاذة جنسياً!». كانت النساء مستعدات لرميها بالأحجار: «هذه حالة شاذة. هذا غير صحيح». طرحوا عليّ الأسئلة... ضربة قاضية إثر ضربة قاضية... إنها كلبة شهوانية، تركتك وتركت أطفالها، وهي لا تساوي خنصرك. أنت رجل فاضل. أقسمُ لك أمام أرجل جميع النساء الروسيات». أريد الإجابة، الرد... أبداً... فيقال لي: «انتهى وقتك». لقد

بكيت. وقرر الجميع أن دموعي بسبب الاستياء، بسبب الغضب. بيد أنني كنت أبكي لأنهم أذكياء على هذا النحو ومتعلمون، ويعيشون في العاصمة ولا يدركون شيئاً.

سوف أنتظرها مهما تطلب ذلك من الوقت. بقدر ما تريد... لا يمكنني أن أتصور نفسي مع امرأة أخرى. وإن كانت قد تدفعني الرغبة أحياناً...

من أحاديث القرية:

- لينا ملاك...

- سابقاً، مثل هذه الزوجات كانوا يجلسونهن في القبو أو يربطونهن بالحبال...

- لو أنها ذهبت إلى زوج غني، لكان كل شيء مفهوماً. فالحياة عند الأغنياء أكثر متعة. وأية علاقات يمكنها أن تقيمها مع سجين؟ وخاصة مع "محكوم بالسجن المؤبد". موعدان في العام. وهذا هو الحب كله.

- إنها من طبيعة رومانسية. فلتنعم وتسافر.

- إن الشفقة على البؤساء والقتلة والفاسقين في دمنا. إنه يقتل وعيناه كعيني طفل رضيع، ونشعر بالشفقة عليه.

- أنا، عموماً، لا أثق بالرجال، والمعتقلين خاصة. إنهم يشعرون بالملل في السجن. يتسلّون، يكتبون نقلاً عن بعضهم: أيتها البجعة، يا ذات الجناح الأبيض، أحلم بك، نور في النافذة... غبية ما تصدق وترمي نفسها لإنقاذه: تحمل الطعام الذي يريده في الحقائب الثقيلة، وترسل إليه المال. تنتظر. يخرج من السجن، يأتي إليها فيأكل ويشرب، ويأخذ منها المال، وفي يوم من الأيام يختفي في مكان ما. و - تشاو! إلى اللقاء!

- أيتها الفتيات، هذا هو الحب! كما في الفيلم السينمائي!

- تزوجتْ من قاتل، وتركت زوجها الطيب. وعندها أطفال أيضاً... ثلاثة أطفال... وعليها أن تشتري تذاكر، وتسافر إليه إلى آخر الدنيا - من أين ستجلب المال؟ إنها دوماً تحرم الأطفال من قطعة الخبز. تدخل إلى المخزن التجاري، ولديها مشكلة؛ أتشتري له الكعكة أم لا؟

- على الزوجة أن تشعر بالخوف من زوجها... إنهما سيقفان معاً في حضرة المسيح. مجرد هكذا... هكذا، وعلامَ؟ إن كان من دون هذا الهدف فعلامَ؟

- يقول الرب، من دوني، لا يمكنكما أن تُخلقا. وهي تحاول أن تخلق بعقلها. إنها كبرياء. حيث لا يوجد خضوع وامتثال، ثمة دوما قوة أخرى. الشيطان يوسوس.

- عليها أن تذهب إلى الدير، وتبحث عن طريق خلاصها. الإنسان ينقذ نفسه في الحزن. حتى الحزن، يجب البحث عنه...

نتابع حديثنا مع إيرا فاسيليفا:

- أنا أيضاً كنت أسألها: «لينا، أتدركين أنه سيكون لديك موعدان اثنان فقط في العام؟». «وماذا في الأمر؟ هذا يكفيني. سأكون معه في أفكاره. في مشاعره».

للذهاب إليه عليها أن تسافر بعيداً إلى الشمال. إلى جزيرة أوغنيوني (جزيرة النار). في القرن الرابع عشر سار تلاميذ العالِم القديس سيرغي رادونيجسكي واستصلحوا غابات الشمال. وعندما حفروا تحت الأدغال، شاهدوا بحيرة، وفي وسطها ألسنة النار. إنها الروح ظهرت لهم. كانوا يحملون التراب على الزوارق... وشكلوا في هذا المكان جزيرة وبنوا عليها ديراً. سماكة جدرانه متر ونصف المتر. الآن، في هذا الدير القديم، يوجد سجن أخطر القتلة والمجرمين. سجن لـ"الانتحاريين". وهناك لوحة على

كل زنزانة تذكر جرائم المعتقل: ذبح آنيا بالسكين، عمرها ست سنوات... ذبح ناستيا، عمرها اثنتا عشرة سنة... تقرأ فيقشعر بدنك، وتدخل إلى الزنزانة فتجده وكأنه إنسان طبيعي يسلّم عليك. يطلب سيجارة، وأنت تعطينه. يسألك: «ماذا هناك في أجواء الحرية؟ هنا، لا نعرف حتى ما هو الطقس هناك». يعيشون بين الأحجار. ومن حولهم غابات ومستنقعات. لم يهرب أبداً أي واحد منهم من هذا السجن...

أول مرة ذهبت لينا إلى هناك، ولم تكن تظن، أنهم قد لا يسمحون بالمقابلة. قرعت على النافذة، حيث يسلّمون إذْن الدخول، ولم يقبل أحد بالإصغاء إليها: «ها هو ذا مدير السجن قادم. تحدثي إليه». ركضت على مدير السجن راجية: «اسمح لي بموعد لقاء». «مع مَن؟». «جئت من أجل فولوديا بودبوتسكي». «وهل تعرفين أننا نعتقل هنا المساجين الخطرين جداً. عندهم نظام قاس للغاية: موعدان في السنة لمدة ثلاثة أيام وثلاثة مواعيد قصيرة لساعتين. لا نسمح بالدخول إلا لأقرب المقربين: الأم، الزوجة، الأخت. فمن أنت بالنسبة إليه؟». «أنا أحبه». كل شيء واضح. حالة علاجية مستعصية. يريد مدير السجن أن يخرج، لكنها تمسك بزر سترته: «أتفهم؟ أنا أحبه». «أنت غريبة بالنسبة إليه». «في هذه الحالة، اسمح لي فقط بإلقاء نظرة عليه». «وأنت، لم تريه أبداً سابقاً؟». أحس الجميع بالموقف المضحك، وهنا اقترب الحرس، ما هذه الغبية؟ هاها - هاها... وبدأت تروي لهم حلمها، الذي رأته قبل ثمانية عشر عاماً، وعن زوجها وأطفالها الثلاثة، وكيف أنها كانت تحب هذا الرجل طيلة حياتها. إن صدقها ونقاءها يحطمان أسمك الجدران. إلى جانبها رجل يدرك، أن شيئاً ما ليس كما يجب في حياته السليمة، إنه جلف، وحاسة سمعه ليست مرهفة. رئيس السجن ليس رجلاً شاباً، وهذه طبيعة عمله... فقد رأى الكثير... فيلبي طلبها: «طالما إنك أتيت من مكان بعيد، سأعطيك

ست ساعات لهذا اللقاء، ولكن سيكون معك حارس». «ضع حارسين إن شئت! على أية حال لن أرى أحداً سواه».

كل ما لديها من تطرف وحدود قصوى قلبته على فولوديا هذا: «أتدرك، كم أنا سعيدة! طيلة حياتي كنت أنتظرك، وأخيراً نحن معاً سوية نحن الاثنان». طبعاً، لم يكن فولوديا مستعداً لهذا. وقد سبق أن جاءت لعنده امرأة معمدانية، ولديه معها قصة حب. هناك كل شيء مفهوم، امرأة شابة عادية بمصير بائس. في حاجة إلى زوج، كختم في جواز السفر، يثبت أنها متزوجة. أما هنا، فهذا الضغط، وهذا الاستمتاع! عندما يودون الاستيلاء على قلبك بهذه القوة، فستشعر بالخوف. يتفجر شيء في دماغك... تقول لينا: «أرجوك، اسمح لي بالزواج منك، كي يسمحوا لي بالدخول لعندك، وأتمكن من رؤيتك. لا أرجو شيئاً أكثر». «أنت متزوجة؟». «سأتطلق. أنا أحبك وحدك فقط». كان معها في حقيبتها رسائله إليها، مزينة بالحوامات والزهور. لم تستطع مفارقته ولا لدقيقة واحدة. إنه ذروة سعادتها، لأنها كانت تريد المُطلق طيلة حياتها، والمطلق لا يوجد إلا بشكل مكتوب، على الورق وحده يمكن تحقيق المطلق. لا وجود له على الأرض، ولا في السرير. لا يمكن العثور هناك على المطلق. وكل ما يرتبط بالناس الآخرين: الأسرة، والأطفال هو حل وسط...

وكأن هناك من يديرها ويوجهها... فما هذه القوة الموجهة؟ وما طبيعة هذا الحلم؟

نحن أيضاً كنّا في جزيرة النار. وقد احتجنا من أجل ذلك لكثير من الأوراق والوثائق والموافقات بأختام مدورة. واتصالات. وصلنا... واستقبلنا فولوديا بالعداء: «علام هذه الضجة؟». فقد عاش سنوات طويلة في العزلة، لم يعد يألف الناس. أصبح شكّاكاً، لا يثق بأحد. حسناً، أن لينا

كانت معنا، كانت تمسك بيده: «فولوديا». وأصبح ناعماً كالحرير. كنا معنا نحاول إقناعه، وربما هو نفسه أيضاً، فهو شاب سريع البديهة: بعد انقضاء خمسة وعشرين عاماً وفي حالات استثنائية، يحدث عفو، إذا ما صُوِّر عنه فيلم، وأصبح مشهوراً محلياً، فهذا يساعده في إطلاق سراحه فيما بعد... فهناك الجميع يريدون الحياة... هناك لا يحبون الحديث عن الموت...

من هذا بدأنا...

الله

- كنت أجلس وحيداً، أنتظر الحكم بإطلاق النار. كنت أفكر كثيراً... من يمكنه أن يساعدك وأنت بين أربعة جدران؟ لم يكن هناك حساب للزمن، كنت أشعر بأنني مجرد من كل شيء. كنت أشعر بفراغ قاتل... ذات مرة، خرجت من لساني: «يا إلهي، إن كنت موجوداً، ساعدني! لا تتركني وحيداً! أنا لا أطلب المعجزات، ساعدني في فهم كل شيء يرتبط بما حدث». جثوت على ركبتي. صليت، ابتهلت. فالرب لا يرغم من يلجأ إليه على الانتظار الطويل...

اقرؤوا قضيتي، أنا قتلت إنساناً. كنت في الثامنة عشر من عمري. كنت للتو قد أنهيت المدرسة، وكنت أكتب الشعر. أردت السفر إلى موسكو للدراسة كي أدرس في المعهد الأدبي لأتخرج شاعراً. عشت مع أمي سوية. لم يكن عندنا مال في البيت، ومن أجل الدراسة عليّ أن أعمل لجمع ثمن القسط. وجدت عملاً في ورشة تصليح السيارات. في القرية عندنا حفلات رقص... أحببت فتاة جميلة، اندفعت نحوها إلى درجة فقدان الذاكرة. نرجع من حفلة الرقص... شتاء قارس... ثلج... بدأت أشجار عيد الميلاد تضيء وتلمع، عيد رأس السنة على الأبواب. لم أكن سكّيراً. نسير ونتحادث. هاها... هاها! تسألني الفتاة: «أنتَ،

حقيقة، تحبني؟». «أحبك أكثر من الحياة». «وماذا يمكنك أن تفعل من أجلي؟». «يمكنني أن أنتحر». «أن تقتل نفسك، هذا مفهوم. وهل يمكنك قتل أول إنسان نصادفه في طريقنا من أجلي؟». إما أنها كانت تمزح... وإما أنها كانت شريرة لعينة... لم أعد أذكرها، حتى وجهها نسيته، وهي لم تكتب لي ولا رسالة واحدة إلى السجن. «هل يمكنك أن تقتل؟». قالتها وكانت تضحك. وأنا بطل! عليّ أن أبرهن على حبي. أخذت من السياج وتداً... الوقت ليلاً. والظلام حالك. أقف وأنتظر. وهي أيضاً تنتظر. لم يظهر أحد أمامنا فترة طويلة، وأخيراً ظهر شخص ما قبالتنا. فضربته على رأسه. طاخ! ضربته مرة واحدة، ثم ثانية... وسقط على الأرض. حتى أنني تابعت ضربه على الأرض... بهذا الوتد... وكان هذا الشخص معلمنا...

في البداية، حكموني بالإعدام رمياً بالرصاص... وبعد نصف عام استبدلوا حكم الإعدام بالسجن مدى الحياة. أمي تخلت عني. أختي كانت تكتب لي في الفترة الأولى ثم توقفت. أنا وحيد منذ زمن طويل... في هذه الزنزانة المغلقة مكثت حتى الآن سبعة عشر عاماً. سبعة عشر عاماً! إذا ما أخذتِ شجرة أو أي حيوانٍ فهو لا يعرف شيئاً عن الزمنِ. الله يحسب ويفكر بدلاً عنهما. وهكذا أنا... نمت، أكلت، أخذوني للنزهة... أرى السماء فقط من خلال القضبان الحديدية. في الزنزانة سرير، طاولة صغيرة، صحن، ملعقة... الآخرون يعيشون على ذكرياتهم... وماذا يمكنني أن أتذكر؟ لم يكن عندي ذكريات، ليس لدي حياة. أنظر إلى الوراء، هناك ظلام دائم، أحياناً في مكان ما يُشعل مصباح. غالباً ما أرى أمي في أحلام اليقظة... إما أنها أمام الموقد، وإما في المطبخ... وعدا ذلك، الظلمة في كل مكان...

بدأت أقرأ الكتاب المقدس... لم أكن أستطيع التوقف عن القراءة...

كان كل شيء يهتز في داخلي. كنت أتحدث مع الله: «لماذا أوقعت عليَّ هذه العقوبة؟». الإنسان يشكر الله عندما يفرح، أما عندما تحل الكارثة، فهو يصرخ: «لماذا؟». ولا يستطيع أن يفهم الحدث الأخير. وأن يسلِّم حياته له...

وفجأة جاءت لينا... جاءت تقول: «أنا أحبك». وانكشف العالم أمامي... كان يمكنني أن أتصور نفسي في كل شيء... أسرة، أطفال... من الظلام الدامس انتقلت إلى النور الساطع... كنت محاطاً بالنور... الموقف، حقيقة، غير طبيعي: لديها زوج، ثلاثة أطفال، وتعترف لرجل غريب بالحب. وتكتب له الرسائل. لو كنت مكان زوجها... لكنت فعلت...! «ماذا بك. وهل أنت قديسة مباركة؟». «لا وجود للحب من دون تضحية بالذات. وأي حب هذا؟». لم أكن أعرف... ومن أين لي أن أعرف، أن هناك نساء من هذا النوع؟ في السجن. وكيف؟ ثمة أناس، ثمة عاهرات، وهذا كل شيء. هنا وجدت نفسي أمام إنسانة لا يمكنني بسببها إغلاق عيني ليلاً... تأتي، فتبكي وتضحك. وهي دوماً جميلة.

سرعان ما أنجزنا عقد الزواج. ثم قررنا أن نقيم الإكليل الديني... في السجن ثمة غرفة صغيرة... فقد ينظر الملاك الحارس باتجاهنا...

قبل اللقاء مع لينا كنت أكره جميع النساء، وكنت أظن أن الحب مجرد هرمونات. رغبة الجسد... أما هي فلا تكره هذه الكلمة، وتكررها مراراً: «أحب! أحب!»... عندها، كنت أجلس، ولا أتحرك... وكل هذا... كيف أقول لكم... لم آلف السعادة. أحياناً أثق بها. أريد أن أصدق بأن هذه حقيقة، أنه يمكن لأحد ما أن يحبني، والفرق بيني وبين الناس الآخرين فقط في أنهم يعدّون أنفسهم جيدين، لكن الإنسان لا يعرف نفسه، ولو عرف نفسه لشعر بالخوف. وهل كنت أفكر في نفسي أنه يمكنني... وأنه سيخرج مني وحش ويقتل... أبداً! كنت أظن أنني جيد، طيب. بقي عند أمي

في مكان ما دفتر فيه أشعاري، إن لم تحرقه. في غير مرة أشعر بالرعب... فقد عشت طويلاً وحيداً، وجمدت في عزلتي هذه طويلاً. بعيد عني، ثمة حياة طبيعية عادية. أصبحت شريراً ومتوحشاً... فما الذي أخافه؟ أخشى أن قصتنا هي فيلم سينمائي، وأنا لست في حاجة إلى فيلم سينمائي. ربما الآن فقط بدأت حياتي... كنا نريد طفلاً... لينا حملت. وأُجهضت وسقط الجنين. إنه الرب ذكّرني بآثامي...

أشعر برعب شديد... لدرجة أنني أريد أن أقتل نفسي تارة، وتارة... «أخاف منكَ»، تقول لينا، ولا تتركني... ها هو ذا فيلم سينمائي! هذا لكِ...

من أحاديث السجن:

- هذيان! إنه هذيان! يجب أخذ هذه السيدة إلى المعالج النفسي...

- في السابق، كنت أقرأ في الكتب فقط عن تلك النساء، عن زوجات الديسمبريين... إنه أدب! أما في الحياة الواقعية، فلينا هي الإنسانة الوحيدة التي قابلتها. وبالطبع، لم أصدق في البداية: «ربما هي ليست إنسانة سوية؟». وفيما بعد، شيء ما انقلب في نفسي... عيسى المسيح أيضاً كانوا يعدّونه مجنوناً. إنها سوية أكثر من الأسوياء!

- ذات مرة، طيلة الليل لم أستطع النوم بسببها. تذكرت، أنه كانت لدي أيضاً امرأة كانت تحبني كثيراً...

- هذا صليبها. لقد أخذته على عاتقها وتحمله. إنها امرأة روسية حقيقية!

- أنا أعرف فولوديا... العريس! انه ابن زنا مثلي. أشعر بالخوف عليها. إنها ليست تلك الإنسانة التي تتزوج وينتهي الأمر، وأنت عش كما تريد. سوف تبذل جهدها كي تكون زوجة. وماذا يمكنه أن يعطيها؟ ليست لدينا

الامكانية لإعطاء أي شيء. الصِبية الذين قتلناهم أمام أعيننا. الإمكانية الوحيدة عندنا هي عدم الأخذ، وعدم الإقدام على أية تضحية. معنى الحياة كله عندنا الآن ألا نأخذ. وإذا ما أخذت، فإنك تسرق أحداً ما...

- إنها إنسانة سعيدة. ولا تخشى أن تكون سعيدة.

- في الكتاب المقدس... لم يُسمَّ الله على أنه الخير ولا العدالة... إنه سُميّ على أنه الحب...

- حتى الكاهن... يأتي ويمدُّ يده من خلال القضبان الحديدية، ويسرع في سحبها، إنه لا يلاحظ، لكنني أرى. كل شيء مفهوم. آثار الدم على يدي... وهي أصبحت زوجة القاتل، وثقت به، تريد أن تتقاسم معه كل شيء. وكل منا يفكر الآن: يعني أنه ليس الجميع ملطخين بالطبع. لو لم أعرف قصتها، لكان وضعي هنا أشد قساوة.

- أي مستقبل ينتظرهما؟ لن أعطي لأية بصارة حتى قرشاً مكسوراً...

- إنهم مشوهون! وأية معجزات تقدمها لنا الحياة؟ الحياة ليست سفينة بيضاء بأشرعة بيضاء. إن الحياة هي قطعة خراء مغلفة بالشوكولا.

- إن ما تبحث عنه، وما تحتاج إليه، لن يقدمه لها أي إنسان على الأرض، الله وحده قادر.

تم تكليلهما في السجن. كل شيء كان كما كانت لينا تتصور: ألق الشموع، خاتمان ذهبيان... كورس كنسي كان ينشد: «طوبى يا إشعيا».

الكاهن: «فلاديمير، هل لديك إرادة حرة وطيبة وعزم صادق على أن تأخذ يلينا هذه التي تراها أمامك زوجة لك؟». العريس: «لدي أيها الأب المحترم». الكاهن: «أولم تَعِد عروساً أخرى؟». العريس: «لم أعد، أيها الأب المحترم». الكاهن: «يلينا، هل لديك إرادة حرة طيبة، وعزم صادق بأن تتزوجي من فلاديمير، الذي ترينه أمامك؟». العروس: «لدي، أيها

الأب المحترم». الكاهن: «أو لم تَعِدي زوجاً آخر؟». العروس: «لم أعد أيها الأب المحترم».

ارحمنا، يا رب...

بعد عام التقيت بإيرا فاسيليفا من جديد.

حديث المخرجة إيرا فاسيليفا:

- عُرض فيلمنا في التلفزيون المركزي... وردتنا رسائل من المشاهدين. فرحت، ولكن العالم الذي نعيش فيه تغير. كما في النكتة: الناس عندنا طيبون، لكن الشعب حاقد. بقيت في ذاكرتي منها العبارات التالية: «أنا أؤيد الحكم بالإعدام، وأؤيد التخلص من القمامة البشرية»، «هؤلاء المشوهون، مثل بطلك، القاتل - السوبرمان، يجب إعدامهم على الملأ، في الساحة الحمراء، وفي الفاصل الإعلامي وضع دعاية "سنيكرس" على أعضائهم الجنسية... ليجربوا الأدوية الجديدة وليجربوا السلاح الكيميائي»... إذا ما ألقينا نظرة على قاموس داليا للغة الروسية فإن كلمة "الخير" مشتقة من فعل "عاش بخير"، عاش ببحبوحة... هذا عندما يكون هناك قوة وكرامة... لكن هذا كله ليس موجوداً عندنا. الشر ليس من عند الله. عبارة القديس أنطونيو الأكبر: «الله ليس مصدر الشر. إنه أعطى الإنسان العقل ليميز الخير من الشر»... والحقيقة، كانت هناك أيضاً رسائل رائعة، مثل: «بعد مشاهدة فيلمك، آمنت بالحب. يبدو لي أن الله موجود».

الوثيقة هي دسيسة... وفخ... بالنسبة إليَّ، يوجد في الفيلم الوثائقي، يمكنني أن أقول، عيب خلقي ولادي: تم تصوير الفيلم، لكن الحياة تستمر. أبطالي ليسوا مختلقين، ولا متخيّلين، إنهم أحياء، أناس واقعيون، وهم مستقلون عني، عن إرادتي، عن تصوراتي أو عن حرفيتي السينمائية، ووجودي في حياتهم هو عابر ومؤقت. ولست مستقلة، مثلهم. لو كان

في استطاعتي... لصورت طيلة حياتي شخصاً واحداً، أو أسرة واحدة. يوماً بعد يوم. ها هم يمسكون بيد الطفل... يذهبون إلى البيت الريفي... يشربون الشاي ويتحدثون، اليوم عن شيء، وغداً عن شيء آخر... تخاصموا... اشتروا صُحفاً... تعطلت السيارة... انتهى الصيف... هناك من يبكي... نحن نخترق هذا، ولكن تحدث أشياء كثيرة من دوننا. إلى جانبنا. الإمساك باللحظة أو متابعة مقطع ما من الزمن، هذا لا يكفيني. هذا قليل! لا يمكنني... لا أتقن الفراق... أتصادق مع أبطالي، أكتب لهم، أتصل بهم. نلتقي معاً. سأكمل تصويري للمادة طويلاً، أمام عيني تدور أفلام ولوحات جديدة. على هذا النحو "صورتُ" عشرات الأفلام.

أحد هذه الأفلام عن لينا رازدويفا. لدي دفتر صغير للكتابات والملاحظات. لا ترقى إلى ما يشبه سيناريو الفيلم...

إنها تعاني مما تفعله، لكنها لا يمكنها ألا تفعله.

مضت بضع سنوات قبل أن تقرر الأخذ بهذه القضية وتقرأها. لكنها لم تشعر بالخوف: «هذا لا يلغي أي شيء، على أية حال أنا أحبه. الآن، أنا زوجته أمام الله. لقد قتل إنساناً لأنني لم أكن آنذاك إلى جانبه. عليَّ الإمساك بيده وإخراجه من هذه الهوة».

هناك، في جزيرة النار نفسها، يوجد في السجن نفسه نائب عام سابق للمنطقة، قطَّع مع أخيه بالفأس امرأتين: محاسبة وأمينة الصندوق. إنه يكتب الآن كتاباً عن نفسه، حتى أنه لا يخرج إلى النزهة، خوفاً من إضاعة الوقت. سرقاً مبلغاً من المال غير كبير أبداً. لماذا؟ لا يعرف... أو العامل القفّال الذي قتل زوجته وولديه الاثنين... لم يمسك بيده قبلها بأي شيء سوى مفك البراغي، والآن علق لوحاته في جميع أنحاء السجن. كل واحد منهم مهووس بشياطينه، ويريد أن يعبر عن نفسه. إن جريمة القتل للجلذادين سر مثل ما هي سر للضحايا...

حديث سمعته هناك، «... هل تظن، أن الإله موجود؟». «لو أنه موجود، فإن الموت، ليس النهاية. لا أريد أن يكون موجوداً».

وما هذا؟ حب؟ فولوديا شاب طول القامة، جميل، أما يورا فهو قزم... اعترفت لي بأن يورا، كرجل، يناسبها أكثر... بيد أن عليها واجب... هذا هو زوجها، حدثت له مصيبة. يجب الإمساك بيده...

في الفترة الأولى كانت تعيش في القرية مع أطفالها. كانت تأتي لعنده إلى موعد اللقاء مرتين في السنة. فأخذ يطالبها بأن تترك الجميع وتقيم عنده: «أنت تخونينني، أنا أشعر أنك تخونينني». «فولوديا، وكيف أترك الأولاد؟ ماتفي صغير جداً، وهو في حاجة إليّ من الناحية الجسدية». «أنت مسيحية... يجب أن تكوني خاضعة لزوجك وتطيعي كلامه». وضعت على رأسها شالاً أسود وتعيش إلى جانب السجن. لا وجود للعمل، لكن الكاهن في الكنيسة المحلية القريبة آواها. تقوم بتنظيف الكنيسة. وفولوديا على مقربة مني... أنا أحس... أحس أنه قريب مني... أكتب له: لا تخاف، أنا معك... للعام السابع تكتب له كل يوم...

ما إن تزوجا، أخذ يطالبها فولوديا بأن تكتب للمسؤولين من جميع المستويات: إنه أب ولديه عدة أبناء، وعليه أن يهتم بأطفاله. وهذه فرصته كي يطلق سراحه. لكن لينا نقية صادقة... تجلس لتكتب ولا تستطيع: «لقد قتل إنساناً. وهذا أكبر إثم». وعندها بدأ يعمل لها فضائح وحشية. إنه في حاجة إلى امرأة أخرى. أغنى، ولها اتصالاتها ومعارفها. لقد سئم من هذه المرأة الفاضلة...

بقي في السجن ثمانية عشر عاماً... آنذاك كان هناك الاتحاد السوفيتي والحياة السوفييتية والناس السوفييت. وكانت هناك الاشتراكية. وهو الآن لا يفهم ما هذه البلاد الآن. إذا ما خرج لا يعرف كيف سيصطدم بهذه الحياة الجديدة! وكيف ستصدمه، لا مهنة لديه، وأهله وأقرباؤه تخلوا عنه.

وهو حاقد. ذات مرة في السجن، تراهن مع زميله وكاد أن يخنقه من رقبته. تدرك لينا أن عليها أن تأخذه بعيداً عن الناس. إنها تحلم بأنه سوف يعمل في مزرعة الغابة. وأن يعيش في الغابة. وكما تقول، أن يعيش بين الأشجار والوحوش الواجمة...

قالت لي غير مرة: «لقد أصبحت عيناه باردتين، فارغتين. سيقتلني يوماً ما. أنا أعرف بأية عينين سوف يقتلني». لكنها تنجذب إلى هناك، هذه الهاوية تجذبها. لماذا؟ أولم ألاحظ أنا بنفسي هذه المظاهر في نفسي؟ أنجذب إلى الظلام والعتمة...

في المرة الأخيرة، عندما التقينا، سمعتها تقول: «لا أريد أن أعيش! لا أستطيع أكثر!». كانت كما لو أنها في غيبوبة، ليست حية وليست ميتة.

قررنا الذهاب معاً إلى لينا. لكنها اختفت فجأة. لا تستجيب للاتصالات. تسري شائعات أنها الآن تعيش في دير منعزل للراهبات. مع المدمنين على المخدرات، ومرضى الإيدز... كثيرون هناك يقسمون عهداً بالصمت.

عن الرجولة... وما بعدها

تانيا كوليشوفا - طالبة، 21 عاماً

سجل الأحداث

في 19 كانون أول/ ديسمبر جرت الانتخابات الرئاسية في بيلاروسيا. لم يكن هناك من يتوقع انتخابات صادقة، والنتيجة كانت معروفة مسبقاً: سيفوز الرئيس لوكاشينكو الذي يرأس البلاد منذ ستة عشر عاماً. يسخرون منه في الصحافة العالمية: "ديكتاتور البطاطا"، "كلب صغير عالمي"، لكنه أَسَر شعبه، آخر ديكتاتور في أوروبا... إنه لا يخفي إعجابه بهتلر، وكانوا يدعونه بـ"القزم" و"العريف البوهيمي".

مساءً، خرج عشرات الآلاف من الناس إلى ساحة أكتوبر (الساحة الرئيسة في العاصمة منسك)، معترضين على تزوير الانتخابات. كان المتظاهرون يطالبون باعتبارات نتائج الانتخابات المعلنة غير صحيحة، وإجراء انتخابات رئاسية جديدة، من دون لوكاشينكو. أعمال الاعتراض السلمية قُمعت بقسوة شديدة من قبل القوات الخاصة وفصائلها المتحركة السريعة.

بلغ عدد المعتقلين 700 متظاهر، ومن بينهم سبعة من المرشحين السابقين للرئاسة، المتمتعين بالحصانة...

بعد الانتخابات، كانت المخابرات البلاروسية تعمل ليلاً نهاراً. وبدأت في جميع أنحاء بيلاروسيا أعمال القمع السياسية: اعتقالات، تحقيقات،

مداهمات الشقق، وصودرت من هيئات تحرير الصحف المعارضة ومكاتب منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان الحواسيب وغيرها من تقنيات العمل التنظيمي. وتُهدد المعتقلين في سجن أوكريستينو وفي السجون المنفردة لمخابرات أمن الدولة K.G.P أحكام بالسجن من 4 إلى 15 سنة بتهم "تنظيم أعمال الفوضى الجماعية" و"القيام بمحاولة انقلاب"، هكذا تصنف اليوم السلطة البيلاروسية المشاركة في المظاهرات السلمية. وخشية من الملاحقة واشتداد الديكتاتورية، يهرب مئات الناس من بيلاورسيا إلى الخارج...

من مقالات الصحف. ديسمبر/ كانون أول - مارس/ آذار 2010-2011.

وقائع المشاعر

كنا نسير بمرح، كنا نسير بطيش.

- أنا لن أذكر كنيتي بل كنية جدتي. أنا أخاف... بالطبع... الجميع ينتظرون أبطالاً ما، وأنا لست بطلة. ولم أكن مهيأة لهذا. في السجن كنت أفكر فقط في أمي، وهي مريضة بالقلب. ماذا سيحدث لها؟ فلننتصر نحن، وليكتبوا عن ذلك في كتب التاريخ... وماذا بالنسبة إلى دموع أهلنا وأقاربنا؟ ومعاناتهم؟ الفكرة شيء قوي، رهيب، إنها قوة غير مادية، لا تقدر بوزن. لا وزن لها... إنها مادة أخرى... شيء يصبح أغلى من الأم. عليكِ أن تختاري. لكنكِ غير مهيأة... الآن أعرف ماذا يعني أن أدخل إلى غرفتي، بعد أن بعثر رجال المخابرات أشياءك الخاصة، وكتبك... وقرؤوا يومياتك... (تصمت). كنت أتهيأ للذهاب إليك، في هذا الوقت اتصلت أمي، فقلت لها إنني ألتقي بصحفية معروفة. بدأت تبكي قائلة: «اخرسي.

لا تتحدثي بأي شيء». كان يؤيدني الناس الغرباء، أما أهلي، أقاربي فقد عارضوني. بيد أنهم يحبونني...

قبيل المظاهرة الجماهيرية... اجتمعنا مساء في السكن الجامعي وبدأنا نتناقش. عن الحياة وعن هذا الموضوع: من سيشارك في المظاهرة ومن لن يشارك؟ أَتَذكَّر؟ عم كنا نتحدث؟ تقريباً على النحو التالي:

– ستشارك؟

– لن أذهب. سيفصلونني من المعهد ويسحبونني إلى الجيش. وسوف أركض حاملاً الرشاش.

– وأنا إذا ما فصلوني من المعهد، فسيجبرني أبي على الزواج فوراً.

– كفى ثرثرة، حان الوقت لنعمل شيئاً. إذا كان سيخاف الجميع...

– هل تريدين أن أصبح تشي غيفارا؟ (هذه كلمة صديقي السابق، وسأتحدث عنه).

– رشفة من الحرية...

– أنا سأشارك، لأنني سئمت من العيش في ظل الديكتاتورية. الإمساك بنا كالقطيع من دون أدمغة.

– أما أنا فلست بطلاً. أريد أن أدرس، وأقرأ الكتب.

– نكتة عن السوفييتي: شرير كالكلب، وصامت كالسمكة.

– أنا إنسان صغير، أنا لا أغير أي شيء. أنا لا أشارك أبداً في الانتخابات.

– أنا ثوري... سأشارك... الثورة حدث ممتع!

– ما هي مثلك العليا الثورية؟ هل المستقبل المضيء هو الرأسمالية؟ عاشت ثورة أمريكا اللاتينية!

– عندما كنت في السادسة عشرة من عمري كنت أُدين والديّ، كانا

يخافان آنذاك من شيء ما، لأن والدي كان لديه منصب. كنت أظن أنهما أحمقان، ونحن انحدار خطير! سنذهب! سنقول كلمتنا! أنا الآن، مثلهما تماماً. أنا امتثالي. امتثالي حقيقي. فحسب نظرية داروين البقاء ليس للأقوى، بل للأكثر تكيفاً مع شروط الوسط. التلقائية هي التي تبقى وتتابع وجودها.

– أن تشارك في المظاهرة يعني أنك أحمق، وعدم المشاركة أسوأ.

– من قال لكم، أيها الخراف الغبية، أن الثورة تقدُّم؟ أنا مع التطور ولست مع الثورة.

– "البيض" أو "الحمر" لا يهمونني... كل شيء لا يهمني!

– أنا ثوري...

– عبثاً! ستأتي سيارات عسكرية محملة بالشباب حليقي الرؤوس وسيضربونك بالهراوات على رأسك. هذا كل شيء. السلطة يجب أن تكون حديدية.

– فليذهب هو إلى "رأس إيـ..." أيها الرفيق المسدس ماوز! لم أعِد أحداً بأن أكون ثورياً. أريد إنهاء دراستي في المعهد وبدء تجارتي.

– انفجار الدماغ!

– الخوف مرض...

كنا نسير بمرح، كنا نسير بطيش. كنا نضحك كثيراً، وننشد الأغاني. كنا معجبين جداً، أحدنا بالآخر. كان مزاجنا متفائلاً جداً. كان هناك من يمشي بيافطة، ومن يمشي بغيتار. كان أصدقاؤنا يتصلون بنا على الهواتف الجوالة ويعلموننا ما يُكتب على الإنترنت. كنا بالصورة... وهكذا عرفنا: الساحات في مركز المدينة تحتشد فيها الآليات العسكرية والجنود والشرطة. أحاطت القوات بالمدينة... كان هناك من يصدق، ومن لا

يصدق، وكان المزاج العام متذبذباً، ولكن لم يكن هناك أي خوف. فجأة الخوف اختفى. فأولاً، ثمة أعداد كبيرة جداً من المحتشدين... عشرات الآلاف. أناس مختلفون. لم يكن أبداً عدد المحتشدين مثل اليوم. لا أذكر... وثانياً، نحن في بيوتنا. وفي نهاية الأمر، هذه مدينتنا. بلادنا. لقد ثبّت الدستور حقوقنا: حرية الاجتماع، والمسيرات، والمظاهرات، والمواكب... حرية الكلمة... هناك قوانين! إنه الجيل الأول غير الخائف. الذي لم يُضرب، ولم تُطلق عليه النار. وإذا ما اعتُقلنا لخمسة عشر يوماً؟ وماذا في الأمر! سيكون لدينا ما نكتبه في "مجلة الحياة" في الإنترنت. فلتتوقف السلطة عن اعتبارنا قطيعاً يسير بشكل أعمى وراء الراعي! وبدلاً من الأدمغة لدينا التلفزيون. واحتياطاً لكل طارئ، أخذت كوبي معي، لأنني كنت قد عرفت أنه في زنزانة السجن ثمة كوب واحد لعشرة أشخاص. كما أنني وضعت في حقيبتي الظهرية كنزة صوفية دافئة وتفاحتين. كنا نمشي، ويصوِّر أحدنا الآخر، كي نحفظ ذكرى هذا اليوم. وكنا نرتدي أقنعة عيد الميلاد، بآذان أرانب مضحكة، مضيئة... ألعاب صينية. عيد الميلاد على الأبواب... سقط الثلج... يا له من جمال رائع! لم أرَ ثملاً واحداً. وإذا ما ظهر في يد أحد ما علبة بيرة، كانوا يصادرونها ويأخذونها على الفور. لاحظنا على سطح أحد الأبنية رجلاً: «قناص! قناص!». وشعر الجميع بالمرح. كانوا يلوحون له بأيديهم: «تعال إلينا، اقفز!». كل شيء جميل. في السابق، كان لدي نفور من السياسة، ولم أكن أظن أبداً أنه ثمة مثل هذه المشاعر، وأنني سأشعر بها. كنت أشعر بهذا فقط، عندما أسمع الموسيقا. الموسيقا بالنسبة إليَّ هي كل شيء، ولا يمكن لأي شيء أن يحل محلها. كانت المسيرة ممتعة للغاية. كانت تسير إلى جانبي امرأة... لماذا لم أسألها عن كنيتها؟ كان يمكنكِ أن تكتبي عنها. كنت مشغولة بشيء آخر. كان كل شيء من حولي مرحاً وجديداً بالنسبة

إليَّ. كانت هذه المرأة تسير مع ابنها، يبدو من شكله في الثانية عشرة من العمر. تلميذ. رآها عقيد في الشرطة وأنّبها وكاد أن يشتمها بمكبر الصوت لأنها أم سيئة. مجنونة. وأخذ الجميع يصفق لها ولابنها. حدث هذا بصورة تلقائية عفوية، دون اتفاق مسبق. وهذا على درجة كبيرة من الأهمية... هذا يجب معرفته... لأننا كنا نشعر دوماً بالحياء. كانت لدى الأوكرانيين ساحة "ميدان"، وكان لدى الجورجيين "ثورة الورود". وكان يضحكون علينا: منسك عاصمة شيوعية، آخر ديكتاتورية في أوروبا. أنا الآن، أعيش بعاطفة أخرى، لقد خرجنا. ولم نشعر بالخوف. وهذا مهم جداً... هذا أهم شيء...

ها نحن واقفون: نحن وهم. هنا شعب، وهناك شعب آخر. كان تبدو الصورة غريبة... فريق باليافطات والصور، وفريق آخر بنظام قتالي وتجهيز كامل، وبالدروع والهراوات. كان يقف شباب منكبّون. جميلون واقعيون! ولكن كيف سيبدؤون بضربنا؟ يضربونني أنا؟ أقراني، والمعجبون بي. حقيقة! بينهم شباب أعرفهم من قريتي، إنهم هنا، بالطبع. عندنا كثيرون ممن انتقل إلى منسك ويخدم في الشرطة: كولكا لاتوشكا، آليك كازانتشيف... شباب طبيعيون. مثلنا، لكنهم برتب عسكرية وكتّافيات. وهم سيهاجموننا؟ لم أكن أصدق... بأي شكل... كنا نضحك، ونمازحهم. نشجعهم: «ماذا يا شباب سوف تحاربون الشعب؟». والثلج يتساقط ويتساقط. وهنا... كما في العرض العسكري... صدرت الأوامر العسكرية: «فرِّقوا الحشد! حافظوا على النظام!». لم يدخل الواقع إلى دماغي، لم يدخل على الفور... لأن هذا لا يمكن أن يحدث... «فرِّقوا الحشد»... ساد الصمت لحظة قصيرة. وعلى الفور، قرقعت الدروع... قرقعة منتظمة للدروع... لقد هجموا... كانوا يسيرون صفوفاً ويطرقون بالهراوات على الدروع، تماماً مثل الصيادين عندما يطاردون الوحش، الغنيمة. يسيرون، ويسيرون ويسيرون.

لم أرَ أبداً في حياتي هذا العدد الكبير من العسكر، إلا في التلفزيون. فيما بعد، عرفت من أبناء قريتي... كانوا يعلمونهم: «أفظع شيء أن تروا في المتظاهرين بشراً». يدربونهم كالكلاب. (تصمت). صراخ... بكاء... صراخ: «إنهم يضربون! يضربون!». لقد رأيت - إنهم... أتعرفين، كانوا متحمسين. يضربون بحماس وسرور. لقد حفظت أنهم كانوا يضربون مرتاحين... وكأنهم في التدريب... صوت نسائي ينتحب: «ماذا تفعل، أيها المسخ!». صوت نسائي رفيع حاد. كان متقطعاً. كان المنظر رهيباً، حتى أنني أغلقت عيني في لحظة من اللحظات. كنت أرتدي سترة بيضاء، وقبعة بيضاء. وأقف كلي في بياض.

«سحنتكِ إلى الثلج يا شرمـ...!».

سيارة السجن... سيارة رهيبة. لقد رأيتها هناك للمرة الأولى. إنها حافلة خاصة لنقل المساجين. مصفحة كلها بالفولاذ. «سحنتكِ إلى الثلج يا شرمـ...! حركة واحدة وأقتلكِ!». أنا مستلقية على الإسفلت... لست وحيدة أستلقي، جميعنا هنا... رؤوسنا فارغة... من دون أية أفكار... الإحساس الواقعي الوحيد - البرد. بالركلات والهراوات يرفعوننا ويدخلوننا إلى حافلة السجن. والقمع الأكبر يتعرض له الشباب، حيث يجتهدون بضربهم في المناطق الحساسة وما بين الساقين: «اضربه على خصيتيه، على الخصيتين! على عضوه!». «اضربه على عظمه!». «تبوّل عليهم!». وكانوا يضربونهم ويتفلسفون: «الموت لثورتكم!»، «بكم دولاراً بعت وطنك، أيها الحقير؟». يقول العارفون، إن حافلة السجن طولها خمسة أمتار وعرضها متران، معدة لتتسع لعشرين شخصاً. وضعوا فيها أكثر من خمسين شخصاً. تحملوا، أيها المصابون بأمراض القلب والربو! «يمنع النظر من النوافذ! رؤوسكم إلى الأسفل!». وكسـ... كس... بسببنا نحن "الأغبياء الحقراء" الذين "باعوا أنفسهم للأمريكيين"،

لم يتمكنوا من مشاهدة مباراة كرة القدم. كانوا طيلة اليوم يخفونهم في سيارات مغلقة. تحت القماش الشمعي. كانوا يتبولون في أكياس من النايلون وفي الواقيات الذكرية. فخرجوا جائعين، حاقدين. ربما يكونون هم بحد ذاتهم أشخاص طيبون، لكنهم يخدمون عند السفاحين. فهم شباب طبيعيون بشكلهم. براغٍ صغيرة في منظومة. أن يضربوا، أو لا يضربوا. ليسوا هم من يقرر، لكنهم هم ينفذون... يضربون في البداية، ثم يفكرون، وقد لا يفكرون أبداً. (تصمت)... بقينا في حافلة السجن طويلاً، تارة إلى الأمام، وتارة نرجع إلى الخلف. إلى أين؟ لا أحد يعرف. وعندما فتحوا الأبواب، ورداً على سؤال: «إلى أين ينقلوننا؟». جاءنا الجواب: إلى منطقة "كوروباتي" (مكان الدفن الجماعي لضحايا أعمال التعذيب الستالينية). تلك هي نكاتهم السادية. ساروا بنا طويلاً في الحافلة في أنحاء المدينة، لأن جميع السجون تغص بالمساجين. أمضينا الليل في الحافلة. في الشارع درجة الحرارة عشرون تحت الصفر، ونحن في صندوق حديدي. (تصمت)... عليّ أن أكرههم. لكنني لا أريد أن أكره أحداً. لست مهيأة للكراهية.

خلال الليل تم تغيير الحرس عدة مرات. لا أذكر وجوههم، فهم متشابهون بثيابهم وشكلهم. واحد منهم فقط... لو رأيته في الشارع لتعرفت عليه فوراً، لعرفته من عينيه. ليس عجوزاً ولا شاباً، رجل كبقية الرجال، وليست فيه أية علامة فارقة. ماذا كان يفعل؟ كان يفتح بابي الحافلة إلى النهاية وبقي ممسكاً بهما مفتوحين طويلاً، كان مرتاحاً عندما كنا نخرج مرتجفين من البرد. كلنا كنا نرتدي الستر، والجزمات الرخيصة من الفرو الصناعي. كان ينظر إلينا ويبتسم. لم يكن لديه مثل هذا الأمر بالابتسام، فهو تصرف ذاتي. بمبادرة منه. وشرطي آخر دسَّ في جيبي شوكولا "سنيكرس": «هاكِ، خذي. وما الذي حملك للوقوف في هذه

الساحة؟». يقال، من أجل فهم هذا، لا بد من قراءة سولجينيتسين. عندما كنت في المدرسة، استعرت من مكتبتها كتاب سولجينيتسين "أرخبيل غولاغ"، لكنني لم أستطع قراءته. كتاب سميك وممل. قرأت خمسين صفحة منه ورميته جانباً... شيء بعيد، بعيد مثل حرب طروادة. إن ستالين موضوعٌ منهِكٌ للأعصاب. وأنا، وأصدقائي. لم نهتم بهذا الموضوع اهتماماً كبيراً...

أول ما يحدث لكِ في السجن... يفرغون حقيبتك من كل شيء ويضعونه على الطاولة. ما هو إحساسك؟ وكأنهم ينزعون عنك ثيابك... وبالمعنى الحرفي للعبارة ينزعون عنك ثيابك أيضاً: «اخلعي ثيابك الداخلية. افتحي ما بين القدمين بعرض الكتفين. اجلسي». ما الذي كانوا يبحثون عنه في شرجي؟ كانوا يعاملوننا كما يعاملون المساجين. «وجهك إلى الحائط! انظري إلى الأرض!». كانوا يأمروننا دوماً بالنظر إلى الأرض. كان يزعجهم جداً أن تنظري في أعينهم: «وجهك إلى الحائط! قلت لك وجهك إلى الحائط!». نتحرك في كل مكان مصطفين بنظام... وإلى المرحاض كانوا يقودوننا مصطفين بنظام: «شكّلوا رتلاً منضبطاً، وكل ينظر إلى رقبة مَن أمامه». كي أتحمل كل هذا، وضعت لنفسي حاجزاً: هنا - نحن، وهناك - هم. التحقيق، المحقق، المحضر... في التحقيق، عليكِ أن تكتبي: «أعترف بذنبي كاملاً؟». «وما هو ذنبي؟». «ماذا بك؟ ألا تفهمين؟ أنت شاركتِ في المشاغبات الجماعية». «لقد كانت مسيرة احتجاج سلمية». تبدأ التهديدات: يفصلونكِ من الجامعة، يسرحون أمكِ من العمل. كيف يمكنها أن تعمل معلمة، إذا كانت لديها مثل هذه الابنة؟ ماما! طيلة الوقت كنت أفكر في أمي... وهذا ما أدركوه، وكان كل تحقيق يبدأ بعبارة: «أمك تبكي»، «أمك في المستشفى». وتبدأ من جديد عبارات: اذكري كنية... من كان يسير إلى جانبك؟ من كان

يوزع المنشورات؟ وقعي... اذكري... يعدون بأنه لن يعرف أحد أبداً ما تذكرينه وسيطلق سراحك على الفور. كان عليّ أن أختار: «لن أوقع لكم على أي شيء». أمي في المستشفى... (تصمت). من السهل عليك أن تصبحي خائنة لأنك تحبين أمك... لا أعرف، هل كان في استطاعتي أن أحتمل البقاء شهراً؟ كانوا يضحكون: «ماذا قررت، أيتها البطلة زويا كوسمودميانسكايا[1]؟». إنهم شباب مرحون. (تصمت). أشعر بالرعب... نحن نذهب وإياهم إلى المخازن التجارية نفسها، ونجلس في المقاهي نفسها، ونركب المترو معاً. نحن معهم في كل مكان. في الحياة اليومية العادية ليست هناك حدود فارقة بين "نحن" و"هم". فكيف نعرفهم؟ (تصمت)... سابقاً، كنت أعيش في عالم طيب، ولم يعد له وجود، ولن يوجد.

قضيت شهراً كاملاً في الزنزانة... وطيلة الشهر كله لم نر مرآة مرة واحدة. كانت لدي مرآة صغيرة، وبعد فحص محتويات حقيبتي اختفت. وضاعت محفظة نقودي بمحتوياتها. كنت أشعر دوماً بالظمأ. ظمأ لا يحتمل! ولم يكونوا يسمحون لنا بشرب الماء إلا في أثناء الوجبات، وفي الأوقات الأخرى: «اشربوا من المرحاض». ويضحكون. وهم أمامنا يشربون زجاجات "فانتا". كان يبدو لي أنني لن أروي ظمأي أبداً. في الحرية كنت أشرب المياه المعدنية الباردة. كنا كلنا قذرين... وليس هناك من مكان للاغتسال... عثر أحدنا على حنجور صغير من العطر، كنا نتناقله ونشم رائحته. وفي أماكن أخرى كان أصدقاؤنا يلخِّصون المحاضرات الجامعية، ويجلسون في المكتبة. ويقدمون الاختبارات. لسبب ما، كنت أتذكر كل ما هو روتيني عادي... فستاني الجديد الذي لم ألبسه أبداً...

---

(1) زويا كوسمودميانسكايا: فدائية روسية، بطلة الاتحاد السوفييتي، اعتقلها الألمان في الحرب العالمية الثانية وعذبوها وأعدموها عام 1941 - المترجم.

(ضحكت). عرفت، أن مثل هذه الأشياء الصغيرة كقطعة السكر، وقطعة الصابون تجلب الفرحة. في الزنزانة، المعدة لخمسة أشخاص، ومساحتها اثنان وثلاثون متراً مربعاً، كنا نجلس فيها سبعة عشر شخصاً. وكان الوضع قاسياً جداً خاصة في الليل، حيث كنى نعاني من صعوبة في التنفس. لم نكن نستطيع النوم طويلاً. كنا نتحادث، في الأيام الأولى عن السياسة، وفيما بعد عن الحب.

«لا أرغب في التفكير، لقد كانوا يفعلون هذا بصورة طوعية».

(أحاديث في الزنزانة)

- كل شيء يحدث وفق السيناريو نفسه... كل شيء يدور في حلقة. الشعب قطيع، وبالتالي فهو طريدة. أما السلطة فهي ذئبة. تختار الذئبة من القطيع ضحيتها وتقتلها. وبقية القطيع يلوكون علفهم، وهي تلقي نظرة جانبية إلى الذئبة، التي تختار ضحيتها التالية، فيتنفس الجميع الصعداء، عندما تمسك الذئبة بها: «لست أنا! لست أنا! يمكنني العيش».

- كنت أحب الثورة في المتحف... كنت رومانسية المزاج. كنت ألعب في الحكاية. لم يدعُني أحد، أنا بنفسي ذهبت إلى الساحة. كان من الممتع مشاهدة كيف تجري الثورة. وحصلت مقابل ذلك على ضربات هراوة على رأسي وكِليتيّ. لقد ذهبت الشبيبة إلى الشوارع، وكانت "ثورة الأطفال" - هكذا سمّوها. وهكذا يقال الآن. أما والدانا فقد بقوا في البيوت. كانوا يجلسون في المطابخ، ويتحدثون عن ذهابنا إلى الشوارع. كانوا يعانون، ولم تكن لدينا ذكريات سوفييتية. فنحن لا نعرف الشيوعيين إلا من خلال الكتب، لم يكن لدينا خوف. يعيش في منسك مليونا نسمة، فكم خرج منهم إلى الشوارع؟ نحو ثلاثين ألفاً... أما أولئك الذين كانوا

ينظرون إلينا ويشاهدون كيف خرجنا، فكانوا أكبر: كانوا يقفون على الشرفات، ويخاطبوننا بزمامير السيارات، ويشجعوننا: هيّا يا شباب! هيا! دائماً كان عدد من يشاهد على شاشة التلفزيون وبأيديهم علب البيرة أكبر. هذا ما حصل... ما زلنا لوحدنا في الشوارع، نحن الرومانسيون المثقفون، هذه ليست ثورة...

- أتظنين أن كل شيء قائم على الخوف؟ على الشرطة والهراوات؟ أنت مخطئة. يمكن للجلاد والضحية أن يتفقا. وهذا بقي عندنا من رواسب الأزمنة الشيوعية. ثمة توافق صامت مريب. عقد. صفقة كبيرة. جميع الناس يدركون ويعرفون لكنهم يصمتون. مقابل هذا يودون الحصول على رواتب جيدة، وشراء سيارة "آودي" مستعملة على الأقل والاستجمام في تركيا. حاولي أن تتطرقي في الحديث معهم عن الديمقراطية، عن حقوق الإنسان... الشهادة الصينية! أولئك الذين عاشوا في الزمن السوفييتي يبدؤون بالتذكر فوراً: «أطفالنا كانوا يظنون أن الموز ينمو في موسكو. وانظري ماذا يوجد الآن... مئة نوع من المرتديلا والسجق! وإلى أية حرية أخرى نحن نحتاج؟». كثيرون يريدون الآن البقاء في الاتحاد السوفييتي، بشرط أن تتوفر المرتديلا والسجق بكثرة، بأنواعهما كافة.

- أنا، وجدت نفسي هنا بالصدفة... وجدت نفسي في الساحة مع أصدقائي، حباً بالصحبة، أردت أن أدس نفسي بين اليافطات والبالونات. وإذا ما تحليت بالصدق... كان هناك شاب يعجبني. ففي الواقع، أنا مشاهد لا مبال. رميت من رأسي جميع السياسات. يا للشيطان! سئمت من هذا الصراع بين الخير والشر...

- طردونا إلى كوخ من الأكواخ. بقينا طيلة الليل واقفين على أرجلنا ووجوهنا إلى الحائط. في الصباح جاءنا الأمر: «اجثوا على ركبكم!».

جثونا على ركبنا. أمر: «انهضوا! أيديكم إلى الأعلى!». تارة أيدينا خلف رؤوسنا، أي جالسين القرفصاء، وتارة واقفين على رجل واحدة... لماذا كانوا يفعلون بنا هكذا؟ من أجل أي غرض؟ اسأليهم، لن يجيبوا. كانوا يسمحون لهم بذلك... كانوا يتمتعون بالسلطة... شعرت الفتيات بالإقياء، وفقدن وعيهن. أول مرة استدعوني للتحقيق، كنت أضحك في وجهه، إلى أن قال لي: «أيتها الطفلة، سأضاجعك الآن في جميع ثقوبك وأرميك في زنزانة المجرمين!». أنا لم أقرأ سولجينيتسين، وأظن أن المحقق لم يقرأه أيضاً. لكننا جميعاً كنا نعرف...

- محققي كان أيضاً إنساناً مثقفاً، متعلماً، تخرج من جامعتي نفسها التي تخرجت منها. اتضح أننا نحب الكتب نفسها: آكونين، أومبرتو إيكو... كان يقول لي: من أين جئتِ؟ كنت أتعامل مع الفاسدين المرتشين. عمل رائع! كل شيء واضح عندهم، أما معكم... إنه ينفذ عمله دون رغبة، مع شعور بالخجل. ومثله آلاف: موظفون، محققون، قضاة. بعضهم يضربون، وآخرون يكذبون في الصحف، وبعضهم الآخر يعتقلون، ويصدرون الأحكام. آلة الحكم الستالينية ليست في حاجة إلى الكثير من أجل إطلاقها...

- في أسرتنا نحتفظ بدفتر عام قديم. كتب الجد تاريخ حياته لأبنائه وأحفاده. تحدث فيه أنه عاش زمن ستالين. اعتقلوه في السجن وكانوا يعذبونه: ألبسوه في رأسه قناعاً مضاداً للغازات وكانوا يغلقون الأوكسجين. كانوا ينزعون عنه ثيابه ويضربونه على شرجه بقضيب حديدي أو بمسكة الباب الحديدية... كنت أدرس في الصف العاشر، عندما أعطتني أمي هذا الدفتر: «أنت الآن راشدة، عليك أن تعرفي هذا». لم أكن أدرك. لماذا؟

- إذا ما عادت معسكرات الاعتقال، فسيعثرون على الحرس. وسيكونون بأعداد كبيرة! أذكر شيئاً واحداً جيداً... أنظر إليه في عينيه،

شاب طبيعي، لكن الرغوة تخرج من فمه. كانوا يتحركون كما لو كانوا في حلم، في نشوة. كانوا يضربوننا على اليمين وعلى اليسار. رجل منا وقع على الأرض، فغطّوه بالدروع وبدؤوا يرقصون فوقه. إنهم ضخام الأجسام، كالألواح... أطوالهم تقارب المترين وأوزانهم بين ثمانين ومئة كيلوغرام، يعلفونهم حتى بلوغهم الوزن القتالي. أما عناصر الوحدات الخاصة والوحدات الخاصة الآلية المتحركة، فهم شباب من نوع خاص، مثل حرس إيفان الرهيب... لا أرغب في التفكير في أنهم كانوا يفعلون هذا طوعياً، بكامل قواي، لا أرغب في التفكير هكذا. بكامل قواي الأخيرة. إنهم في حاجة إلى أن يأكلوا. وأحدهم شاب في مقتبل العمر، أنهى المدرسة والخدمة العسكرية، ويحصلون على رواتب أكبر من راتب أستاذ الجامعة. ثم... هذا سيحدث، كما هو الوضع دوماً... هذا حتمي... بعدها سوف يقولون إنهم كانوا ينفذون الأوامر، وهم لا يعرفون شيئاً، وما علاقتهم؟ إنهم اليوم يعثرون على ألف مبرر: «ومن سوف يطعم أسرتي؟»، «لقد أديت القسم»، «لم يكن في إمكاني الخروج عن النظام، حتى لو رغبت في ذلك». هذا يمكن أن يحدث لأي إنسان. لكثيرين على الأقل...

– عمري كله عشرون عاماً. فكيف سأعيش لاحقاً؟ يبدو لي أنني سأخرج إلى المدينة، وسأخاف من أن أرفع عينيّ عن الأرض...

«إنها عندكم ثورة، أما عندنا فإنها السلطة السوفييتية».

أطلقوا سراحنا ليلاً. الصحفيون، الأصدقاء، جميعهم كانوا ينتظرون على باب السجن، بيد أنهم أركبونا في حافلة السجن وأنزلونا على أطراف المدينة. أنزلوني في مكان ما في شاباني. بالقرب من كومة من الأحجار، بالقرب من ورشات الأبنية الجديدة. حقيقة كان وضعي رهيباً. وقفت حائرة، ثم ذهبت باتجاه الإنارة. ليس لدي نقود، وجوّالي نفد شحنه منذ زمن طويل. كان يوجد في حقيبة نقودي إيصال فقط لا غير، فقد وزعوا

علينا جميعاً مثل هذه الإيصالات، كي نسدد ثمن معاشنا في السجن. وقيمته تعادل قيمة منحتي الشهرية الطلابية... حتى أنني لا أعرف... أنا وأمي بصعوبة شديدة نؤمن حاجاتنا اليومية. والدي توفي، عندما كنت تلميذة في الصف السادس، كان عمري اثني عشر عاماً. زوج أمي يسكر ويبعثر راتبه. إنه مدمن على الكحول. إنني أكرهه، لقد خرب علينا حياتنا أنا وأمي. أسعى دوماً إلى القيام بعمل مساند ما: أوزع على صناديق البريد الإعلانات المختلفة، في الصيف أبيع الفواكه في الكشك أو البوظة. كنت أمشي وأنا أستغرق بهذه الأفكار... كانت الكلاب تركض... ولا أحد من الناس... فرحت كثيراً عندما توقفت سيارة تكسي بالقرب مني. ذكرت اسم سكني الجامعي، وقلت: «ليست لدي نقود». لسبب ما حزر سائق التكسي على الفور: «آآه "ديسمبرية"». اعتقلونا في شهر ديسمبر. «اجلسي. فقد سبق أن أوصلت واحدة منكم إلى بيتها. ولماذا يطلقون سراحكم ليلاً؟». أوصلني ثم وعظني قائلاً: «غباء هذا كله! غباء! أنا في العام الحادي والتسعين كنت أدرس في موسكو وأركض إلى المسيرات والمظاهرات. وأعدادنا كانت أكبر بكثير منكم. نحن انتصرنا. كنا نحلم بأن كل واحد منا سيفتح شركة ويصبح ثرياً. وماذا حصل؟ في عهد الشيوعيين كنت أعمل مهندساً، والآن أعمل سائق تكسي. طَرَدنا أوغاداً، فحضر أوغاد آخرون. سود أو رماديون أو برتقاليون، كلهم سواء. إن السلطة عندنا تحب إفساد الإنسان. أنا واقعي. أثق فقط بنفسي وبأسرتي. وريثما يقوم الأغبياء الجدد بترتيب ثورتهم الجديدة، أنا أعمل وأكدح. في هذا الشهر عليَّ أن أوفر ثمن السُّتر لبناتي، وفي الشهر القادم ثمن الجزمة لزوجتي. أنت فتاة جميلة. الأفضل لك، أن تعثري على شاب جيد وتتزوجيه». دخلنا إلى المدينة. الموسيقى. الضحك. العشاق يتبادلون القبل. كانت المدينة تحيا وكأننا غير موجودين أصلاً.

كان بودي كثيراً الحديث مع صديقي. لم يكن في وسعي الانتظار. نحن نلتقي معاً منذ ثلاث سنوات. وقد وضعنا الخطط للمستقبل. (تصمت)... فقد وعدني بالحضور إلى المظاهرة، لكنه لم يحضر. كنت في انتظار تفسيرات منه. وها هو يظهر، ولم يتأخر. ركض نحوي. غادرت الفتيات الغرفة وتركونا سوية لوحدنا في الغرفة. أية تفسيرات؟ إنه أمر مضحك! فقد اتضح أنني "مجرد غبية"، "نسخة ساطعة"، "ثورية ساذجة". كان يحذرني، نسيت؟ كان يعلِّمني، أن من غير العقلاني المراهنة على الأشياء التي لا يمكنك أن تؤثري فيها. ثمة موقع، العيش من أجل الآخرين، لكن هذا الموقع غير قريب منه، إنه لا يريد الموت وراء المتاريس. فليست هذه رسالته في الحياة. هدفه الرئيس هو المنصب. يريد كثيراً من المال، ومنزل بمسبح. على المرء أن يعيش ويبتسم. فاليوم هناك إمكانات وفرص كبيرة... حتى أن العين تزوغ... يمكنك السياحة في أنحاء العالم، هناك جولات سياحية مذهلة، لكنها غالية الثمن، اشتر قصراً لو رغبت، لكنه باهظ الثمن، يمكنك أن تطلب من المطعم أن يجهزوا لك حساء السلحفاة... ولكن، ادفع ثمن كل شيء. المال! المال! كما كان يعلمنا أستاذ الفيزياء: «أعزائي الطلاب! تذكروا، أن المال يحل كل شيء، حتى المعادلات التفاضلية». إنها الحقيقة المرة للحياة. (تصمت). وماذا عن المُثل العليا؟ إذاً، ليس لها وجود؟ هل يمكنكِ أن تفيديني بشيء هنا؟ أنت تؤلفين الكتب... (تصمت)... في الاجتماع العام للمعهد، فصلوني من الدراسة. رفع الجميع أصابعهم، "موافق". باستثناء أستاذي المفضل المسن. في هذا اليوم نقلوه من المعهد في سيارة الإسعاف السريع. صديقاتي كنَّ يطمئنني في السكن الجامعي عندما لم يكن هناك أحد: «أنت، لا تغضبي، فقد هددنا عميد الكلية بطردنا من السكن الجامعي إذا ما...!». يا لهن من بطلات!

اشتريت تذكرة للسفر إلى بيتنا في القرية. إنني في المدينة أشعر بالشوق إلى القرية. لكنني، والحق يقال، لا أعرف إلى أية قرية أشتاق، غالباً، أشتاق إلى قرية طفولتي. إلى تلك القرية، حيث كان أبي يأخذني معه، عندما كان يُخرج من خلايا النحل الأطر الثقيلة المحملة بالعسل. في البداية كان يغطيها بالدخان، كي يطير النحل ولا يلسعنا. عندما كنت صغيرة كنت مضحكة... كنت أظن أن النحل هي أيضاً طيور... (تصمت)... فهل أحب القرية الآن؟ يعيشون هنا، في القرية، كما كانوا في السابق، عاماً بعد عام. يستخرجون البطاطا بالمجرفة من بساتينهم، ويزحفون على ركبهم. ويقطِّرون الفودكا المهربة. في المساء لن تجد رجلاً صاحياً، إنهم يشربون الفودكا المهربة كل يوم. ينتخبون لوكاشينكو ويتأسفون على الاتحاد السوفييتي، على الجيش السوفييتي الذي لا يُقهر. في الباص جلس جارنا إلى جانبي. كان ثملاً. كان يتحدث عن السياسة: «كان بودي أن أضرب بنفسي كل ديمقراطي شاذ على وجهه. لم يسجنوكِ طويلاً. كلمة شرف! مثل هؤلاء يجب إعدامهم. ولما ارتجفت يدي لو أطلقت عليهم النار. أمريكا تسدد لهم جميعاً... هيلاري كليتون... لكننا شعب صلب. شهدنا البيريسترويكا وعشناها وسنشهد الثورة ونعيشها. لقد سمعت من رجل ذكي أن "اليهود هم الذين اخترعوا الثورة"». وقد أيده جميع المسافرين في الباص: لم يكن هناك وضع أسوأ من هذا الوضع الآن. تفتح جهاز التلفزيون، يقصفون بالقنابل ويطلقون النار في كل مكان.

هَأنذا أمام البيت. فتحت الباب. كانت أمي تجلس في المطبخ، وتنظف درنات جورجيا، فقد أصابها الصقيع ونقلوها إلى القبو، لأنها غريبة الأطوار. تخاف من الصقيع. أخذت أساعدها. كما في طفولتي. وكان سؤالها الأول لي: «ماذا عندكم هناك في العاصمة؟ في

التلفزيون عرضوا بحراً من الناس، وكلهم كانوا يهتفون ضد السلطة. يا إلهي! يا للخوف! نحن هنا، خفنا من أن الحرب ستبدأ: فبعضنا يخدم أبناؤهم في القوات الخاصة السريعة الحركة، وبعضنا الآخر خرج أبناؤهم الطلاب إلى الساحة وكانوا يهتفون. يكتبون في الصحف أنهم "إرهابيون" و"قطاع طرق". الناس عندنا يصدقون ما يُنشر في الصحف. عندكم هناك ثورة، أما عندنا فإنها السلطة السوفييتية». كانت رائحة نبات الناردين تفوح في البيت.

عرفت أخبار القرية... جاءت في الليل إلى صاحب المزرعة يوركا شفيد سيارة فيها اثنان بلباس مدني، مثل السيارة التي جاءت إلى بيت جدي في العام السابع والثلاثين. فتشوا البيت كله. وصادروا الحاسوب. وسرّحوا الممرضة آنيا ن. فقد توجهتْ إلى منسك وشاركت في المظاهرة، وانتسبت إلى حزب المعارضة. عندها طفل صغير. كان الرجل ثملاً فضربها قائلاً: معارِضة! أما الأمهات اللواتي يخدم أبناؤهن في شرطة منسك فقد كن يفخرن لأن أبناءهن كوفئوا بمكافئات كبيرة وجلبوا معهم الهدايا. (تصمت). قسّموا الشعب إلى نصفين... ذهبتُ إلى النادي لحفلة الرقص، خلال الحفلة كلها لم يدعني أحد للرقص. لأنني... إرهابية... كانوا يخافون مني...

«يمكنه أن يتحول إلى لون أحمر».

التقينا بالصدفة بعد عام في قطار موسكو- منسك. رقد الجميع للنوم، وبقينا نحن نتحدث.

- أدرس في موسكو. أشارك في مظاهرات موسكو مع أصدقائي. هذا رائع! تروقني وجوه الناس الذين أراهم هناك. أذكر مثل هذه الوجوه عندنا، عندما خرجنا إلى الساحة في منسك. لم أستطع التعرف على مدينتي، لم

أستطع التعرف على الناس. إنهم أناس آخرون. أشتاق إلى بيتي. أشتاق كثيراً إلى بيتي.

أجلس في القطار البيلاروسي ولا يمكنني النوم أبداً. نصف نوم... نصف يقظة... تارة في السجن، وتارة في السكن الجامعي، وتارة... أتذكر كل شيء... أصوات النساء والرجال...

- أجلسوني مُمدد القدمين، ورفعوا رجليّ خلف رأسي...

- وضعوا صفحة من الورق على كليتيّ، كي لا يبقى أي أثر، وضربوني بزجاجة بلاستيكية ممتلئة بالماء...

- كان يُلبِّس رأسي كيساً من السلوفان أو القناع الواقي للغازات. ولاحقاً... يمكنكِ أن تدركي، بعد دقيقتين كنت أفقد وعيي... وعنده في بيته زوجة وأطفال. إنه زوج جيد. إنه أب جيد...

- يضربون، يضربون، يضربون... بجزماتهم، بأحذيتهم، "بأبواطهم" الرياضية.

- أتظنين أنهم يعلمونهم فقط القفز بالمظلات، والنزول على الحبل من الطائرة العمودية؟ إنهم يعلمونهم بالكتب العسكرية نفسها التي كانت في عهد ستالين...

- كانوا يقولون لنا في المدرسة: «اقرؤوا بونين وتولستوي، فهذه الكتب تنقذ الناس». عند من أسأل: لماذا لا يتقيدون بها، ويتقيدون بوضع مسكة الباب في الشرج وكيس السلوفان على الرأس؟

- ستزداد مرتباتهم ضعفين أو ثلاثة أضعاف... أخشى من أنهم سوف يطلقون النار...

- لقد أدركت في الجيش أنني أحب السلاح. فتى محترف، كبُر وسط الكتب. أريد اقتناء مسدس. شيء جميل! خلال مئات السنين طوروه

بشكل جيد لمسكه في اليد. ومن المريح الإمساك به. كان من الممكن أن يروق لي إخراج المسدس، وتنظيفه، وتزييته. أحب هذه الرائحة.

- ماذا تظنين، هل ستقوم الثورة؟

- اللون البرتقالي هو لون براز الكلاب في الثلج. لكنه قد يتحول إلى لون أحمر...

- نحن نسير...

تعليق عابر سبيل

- ماذا أتذكر؟ أعيش مثل الجميع. كانت بيريسترويكا... غورباتشوف... فتحتْ موزعة البريد باب السياج: «هل سمعتهم، لم يعد هناك شيوعيون؟». «وكيف؟». «أغلقوا الحزب». لم يطلق النار أحد، لم يحدث شيء. والآن يقولون إنه كانت هناك دولة عظمى واختفى كل شيء. وما الذي اختفى من عندي؟ أعيش كما كنت، أعيش في كوخ صغير خال من جميع وسائل الراحة، بلا ماء، بلا تمديدات صحية، بلا غاز. طيلة حياتي كنت أعمل بشرف. كنت أحرث الأرض، وأحرث، أَلِفت حراثة الأرض. ودوماً كنت أحصل بالمقابل على قروش معدودة. وكما كنت آكل المعكرونة والبطاطا كذلك الآن أفعل. أتابع ارتداء معطفي السوفييتي من الفرو. عندنا هنا ثلوج متراكمة!

أجمل الذكريات عندي عندما تزوجت. كان عندي حب. أذكر، عدنا من قصر الزواج، وكان شجيرة الليلك مزهرةً. كان الليلك مزهراً! وصدقي، كانت تغرد فيها البلابل... هكذا أتذكر... عشنا حياة ودية عدة سنوات، وضعت طفلة... ثم أدمن زوجي على الفودكا واحترق بسببها. كان رجلاً شاباً، عمره اثنان وأربعون عاماً. وهكذا أنا الآن أعيش وحيدة. ابنتي كبرت، وتزوجت، وسافرت.

في الشتاء يغمرنا الثلج. البلدة كلها في الثلج، البيوت والسيارات.

ويحدث ألا تسير سيارات الباص أسابيع. ماذا يوجد في العاصمة؟ من عندنا إلى موسكو مسافة ألف كيلومتر. نتابع الحياة الموسكوفية على شاشة التلفزيون، كما في فيلم سينمائي. أعرف بوتين وأعرف المطربة آلا بوغاتشوفا... ولا أعرف أحداً غيرهما... مسيرات، مظاهرات... أما نحن هنا فكما عشنا في الماضي نعيش الآن. سواء في ظل الاشتراكية أو ظل الرأسمالية. "البيض" و"الحمر" بالنسبة إلينا سواء. علينا انتظار الربيع، وزرع البطاطا... (تصمت طويلاً). عمري ستون عاماً... لا أتردد على الكنيسة، ولكن عليَّ التحدث مع أحد ما. عليَّ أن أتحدث عن شيء آخر... عن أنني لا أريد أن أهرم، لا أريد الهرم أبداً. وسيكون من المؤسف أن أموت. رأيتِ الآن شجيرة الليلك عندي؟ أخرج في الليل، فتفوح رائحتها الزكية. أقف، ألقي نظرة. تعالي لأجمع لك باقة من زهر الليلك...

سفيتلانا أليكسييفيتش

كاتبة وصحفية من بلاروس.

صدر لها عدة أعمال توثيقية أغلبها عن الحروب السوفيتية .أثارت كتاباتها جدلاً كبيراً في بلدان الاتحاد السوفيتي وتعرضت لعدة محاكمات قانونية بسببها.

حازت على عدة جوائز دولية أهمها جائزة السلام من معرض فرانكفورت 2013. وجائزة نوبل للآداب 2015، التي نالتها على «أعمالها المتعددة الأصوات التي تمثّل معلماً للمعاناة والشجاعة في زماننا.وهي تعمّق بأسلوبها الاستثنائي – الذي يقوم على تداخل دقيق بين صوت البشر – الفهم لعصر كامل».

د. نزار عيون السود

باحث وأستاذ جامعي ومترجم.

ولد في حمص عام 1954، وفيها تلقى تعليمه الثانوي.

تلقى تعليمه الجامعي في المعهد العالي للثقافة في لينينغراد، حيث حصل على درجة الماجستير في العلوم التربوية (1970) وحصل على شهادة الدكتوراه في العلوم النفسية (اختصاص علم نفس اجتماعي) في عام 1983. بدأ بممارسة الترجمة منذ عام 1972.

صدر له أكثر من 35 كتاباً تأليفاً وترجمة وتعريباً عن دور النشر السورية المحلية والعربية، من أهم مؤلفاته "نشوء وتطور الفكر النفسي الاجتماعي

عند العرب". ومن أهم ترجماته: "دراسات في الأدب والمسرح"، "التفكير والإبداع"، "مقدمة علم النفس الاجتماعي"، "القصة القصيرة الروسية الساخرة"، "دوستويفسكي دراسات في أدبه وفكره"، وغيرها.

أشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه. مارس التدريس الجامعي في الجامعات السورية العامة والخاصة وفي جامعات السودان والجزائر وعمان.

أنشأت سفيتلانا أليكسييفيتش نوعاً جديداً من الأدب قائماً على كتابة رواية من الأصوات المتعددة لشهود مرحلة ما. حازت على عشرات الجوائز الدولية؛ أهمها جائزة السلام من معرض فرانكفورت للكتاب 2013، وجائزة نوبل للآداب 2015، التي نالتها عن مجمل أعمالها المتعددة الأصوات التي تمثّل معلماً للمعاناة والشجاعة في زماننا. وهي تعمق بأسلوبها الاستثنائي - الذي يقوم على تداخل دقيق بين أصوات البشر- فهم عصر كامل.

شهدت روسيا عدة ثورات واضطرابات وحروب أهلية دامية في بدايات القرن العشرين، نجم عنها ظهور الاتحاد السوفيتي الذي شكل صورة عن الإمبراطورية العظيمة التي لا تُقهر.
رأى فيها البعض تحقق الحلم الاشتراكي الأحمر في بناء دولة عظمى، امتد نفوذها على نصف العالم تقريباً. بينما رأى فيها البعض أحد أقسى أشكال الحكم الشمولي القمعي.
في العام ١٩٩١ انهارت هذه الإمبراطورية بشكل متسارع بعد عدة ثورات واضطرابات وحروب أهلية دامية، واستيقظ الإنسان الأحمر ليجد نفسه فجأة يعيش في أنقاض إمبراطورية تتهاوى إلى عشرات الدول المتصارعة، وتشهد انهياراً اقتصادياً هائلاً ونهاية الأحلام الكبيرة التي عاشها.
في كتابها، لا تبحث سفيتلانا عن إجابات للأسئلة الكبيرة التي تهم قارئ التاريخ، بل عن آلاف التفاصيل الصغيرة للحياة اليومية المنصرمة عبر جمع عشرات الشهادات لبشر عاديين عاشوا هذه التجربة وتقلباتها.
تبحث سفيتلانا عن الأحاديث الليلية الصغيرة التي تختفي مع الصباح، عن الحلم بمستقبل جديد، بزمن آخر. إلا أنه الزمن نفسه مكرراً؛ زمن مستعمل...




دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع


ISBN 978-9933-540-36-4
9 789933 540364